المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم التاريخ



بناء الدولة الإسلامية في العهد النبوي من خلال مصادر السيرة النبوية

(١ - ١١هـ / ٦٢٢ - ٦٣٢م)

دراسة تأصيلية تحليلية في النظم الإسلامية

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي

إعداد الطالبة:
أمامة مصطفى محمد ابراهيم
الرقم الجامعي:
(٤٣٥٧٠٠٤١)

إشراف الدكتور:
محمد بن صامل السلمي

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩ م

قال تعالى:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾

سورة النور، آية: (٥٥)

ملخص الرسالة

عنوان الرسالة: بناء الدولة الإسلامية في العهد النبوي من خلال مصادر السيرة النبوية١هـ - ٦٢٢م /١١هـ -٦٣٢م (دراسة تأصيلية تحليلية في النظم الإسلامية).

رسالة مقدمة لنيل درجة: الدكتوراه في تخصص التاريخ الإسلامي من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى.

من إعداد الطالبة: أمامة بنت مصطفى بن مُحَّد إبراهيم.

هدف البحث: تهدف هذه الدراسة لتقديم نموذج حي من كنوز السيرة النبوية يتمثل بدراسة تطبيقات الرسول القدوة ﷺ لأسس التنظيم السياسي والإداري في بناء دولة الإسلام الأولى بالمدينة، وحمايتها داخلياً وخارجياً على أسسٍ من السياسة الشرعية، وهي دراسة منهجية علمية تأصيلية مستقاة من مصادر السيرة النبوية.

منهج البحث: اتبعت المنهج التاريخي الوصفي الذي يصف ويوضح المنهجية العملية لممارسات الرسول ﷺ التنظيمية لإدارة دولة الإسلام وعاصمته الأولى، وكذا اتبعت المنهج التحليلي من خلال الدراسة التحليلية لأسس عوامل البناء مستشهدة بمصادر سيرة النبي الأكرم ﷺ من خلال تتبع نصوص آيات القرآن الكريم، وأحاديث السنة المطهرة، ووقائع السيرة النبوية وأحداثها.

مخطط البحث: اشتملت الدراسة على مقدمة وتمهيد لمفهوم معنى السياسة الشرعية وعلاقتها وصلتها ببناء الدولة الإسلامية، وناقش البحث بعامة موضوع البناء في شقين رئيسين تمثلا ببابين وأربعة فصول: **الباب الأول وعنوانه: أسس وعوامل بناء الدولة وتنظيمات الإدارة الداخلية**، وتناول **الفصل الأول** منه **موضوع بناء الشخصية الإنسانية المتكاملة وتنظيم الحياة الاجتماعية في ثلاثة** مباحث، المبحث الأول: البناء العقدي والتربية السلوكية للفرد، المبحث الثاني: البناء النفسي وتنظيمات الحياة الاجتماعية، والمبحث الثالث تنظيم شؤون الإدارة والأمور العسكرية، وما يتبع تلك المباحث من مطالب ومحاور وأما **الفصل الثاني فموضوعه: بناء المجتمع المدني وممارسة السلطة التنظيمية والسياسية**، ومباحثه ثلاثة وهي: المبحث الأول: بناء روح الجماعة وتنظيمات المجتمع المدني، المبحث الثاني: صد العدوان والاستراتيجية النبوية في مواجهة يهود المدينة، المبحث الثالث: النتائج والآثار المترتبة على الممارسات العملية والتطبيقية لصحيفة المدينة، **وأما الباب الثاني وعنوانه: دولة الرسولﷺ وجوانب تنظيم العلاقات الخارجية** فتناول **الفصل الأول منه أسس ومبادئ منهج الدولة الإسلامية في العلاقات الخارجية في العهد النبوي** في مبحثين، المبحث الأول: أسس العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية، المبحث الثاني: مبادئ منهج الدولة الإسلامية في السياسة الخارجية وأما **الفصل الثاني من الباب فموضوعه: مقومات إدارة دولة الإسلام الأولى وآثار نتائج بنائها؛** ومباحثه اثنان: الأول في عناصر مقومات إدارة الدولة، والثاني في نتائج وآثار السياسة النبوية في إدارة الدولة الإسلامية. أتبعت ذلك بخاتمة عامة للبحث مذيلة بأهم النتائج والتوصيات التي كان أبرزها: التأكيد على أهمية عرض السيرة النبوية على أنها تمثل مشروعاً حضاريًا لبناء الدولة، وإحياء الأمة، والرقي بالبشرية؛ لتحقيق هدف التمكين وسنة الاستخلاف في الأرض.

Abstract

Research title: *Structure of the Islamic State During the Prophet's Era according to the Sources of Prophet's Biography (622-632AD/ 1-11AH)- an analytic and evidence-based study in Islamic Systems.*

A thesis submitted to obtain a doctorate degree in Islamic History, Faculty of Shari'ah and Islamic Studies, Umm Al-Qura University.

Prepared by: *Umamah bint Mustafa bin Muhammad Ibrahim.*

Research objective:

The study aims to present a live model from the treasures of the Prophet's Biography by studying the application of the role model Messenger (May the blessings and peace of Allaah be upon him) of the foundations of political and administrative organization in building the first Islamic State in Madinah and its internal and external protection upon the foundations of Islamic Politics. It is a methodical, evidence-based and scientific study derived from the sources of the Prophet's Biography.

Research methodology:

Here, I adopted the historical descriptive methodology that describes and outlines the practical approach to the organizational practices of the Messenger of Allaah (May the blessings and peace of Allaah be upon him) to manage the Islamic State and its first headquarter. I further used the analytic methodology to conduct an analysis of the foundations of the building factors citing evidence from the sources of the noble Prophet's Biography (May the blessings and peace of Allaah be upon him) by tracking the Qur'anic texts, traditions of the Prophet, facts and events from the Prophet's Biography.

Research plan:

The research comprised of an introduction, a preface on the concept of Islamic legal politics and its relationship with the structure of the Islamic State. The research in general discussed the topic in two major aspects, which were demonstrated in two chapters and four sections.

Chapter 1 was on the foundations and factors of building the Islamic State and internal administrative organizations. Section one of this addressed the issue of building an integrated human character and organization of the social life, in three topics:

One: Building the belief and behavioral education of an individual.

Two: The psychological building and the organizations of social life.

Three: Organization of management affairs and military issues. These topics also involved some sub-topics and themes.

Section two: Building Madinah society and the exercising of regulatory and political power. This involved three topics as follows:

First: Building a communal spirit and the organizations of the Madinah society.

Second: Repelling aggression and the Prophet's strategy in confronting the Jews of Madinah.

Third: The results and effects on practical practices of Madinah daily.

Chapter 2: State of the messenger of Allaah (May the peace and blessings of Allaah be upon him) and aspects of organization of external relations. Section one of this chapter dealt with the foundations and principles of the methodology of the Islamic State regarding external relations during the Prophet's era in two topics:

One: Foundations of external relations of the Islamic State.

Two: Principles of the methodology of the Islamic State regarding external politics.

Section two: Constituents of the management of the first Islamic State and the effects of the results of its building and it involved two topics:

One: Rudiments of the constituents of the management of the state.

Two: The results and effects of the Prophetic policy in managing the Islamic State.

This was followed by a general conclusion that contained the findings and recommendations the most prominent of which is to emphasize the importance of portraying the Prophet's biography as a representation of an urban project for building the state, reviving the Ummah and upgrading humanity and the divine law of Vicegerency of Man on earth.

شكر وتقدير

سبحان من له تمام الحمد والثناء والمنْ، والحمد لله على ما يسر وأعطى وأتمْ، وبعد:

فمن لا يشكر الناس لا يشكر الله[١] وما بعدَ حمدِ الله إلا الدعاءُ للناس، "**ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم كافأتموه**"[٢]. فهذه عبارات شكرٍ أسطرها، وهي لا تفي كل ذي حق حقه، ولا تعطي لصاحب الإفضال فضله، وإنما هي من باب الحق الواجب اعترافاً لأهل الفضل بإحسانهم، ووفاءً لأهل المعروف لإفضالهم.

وإن من أحق الناس بصادق الشكر ووافر الدعاء من أوصاني ربي بهما خيراً وأمر بشكرهما بعد شكره، وأقرن حقهما بحقه، فشكري لوالدي الكريمين اللذين لا تطيب حياتي إلا بقربهما، ولا يستقيم لي أمرٌ إلا ببركة دعائهما، فلهما مني خالص الشكر ووافر الدعاء بأن يرفع الله قدرهما ويغدق لهما جزيل الأجر وكثير العطاء، وأن يمتعهما بالصحة والشفاء، وأن يوفقني لبرهما ويرزقني ما حييت رضاهما، وأثنّي بالشكر هبة ربي، ورفقاء دربي أشقائي وشقيقاتي؛ لمشاركتهم لي عناء بحثي، وإحساسهم بجَهدي وسعيي.

وأرفع بالغ شكري، وجزيل ثنائي، ووافر دعائي لمن أشار إلي بفكرة اختيار موضوع البحث سعادة الفاضل القدير، والمربي الجليل معين طلبة العلم الأستاذ الدكتور عبد العزيز بن راشد السنيدي فجزاه الله خيرًا على ما نصح وأوضح بسخاءٍ وإفضالٍ وسعة بال ، وجعل ما كتبت وما أنجزت في موازين حسناته ، وجزاه خير الجزاء وأحسنه.

كما أزجي بجزيل الشكر ووافر العرفان لشيخي ومشرفي الذي لم يألُ جهداً في التوجيه والإرشاد مع دماثة الخلق، ورحابة الصدر، والحرص على المتابعة باهتمام مع التصحيح والتوضيح لما عاد عليّ بالنفع والإفادة أستاذي سعادة الدكتور الفاضل (مُحَّد بن صامل السلمي) الذي لا توفيه بحق عبارات شكري فله

---

(١) الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، رقم الحديث (١٩٥٤) من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

(٢) أبو داود: سنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب عطية من سأل بالله، رقم الحديث (١٦٧٢) والحديث لابن عمر، رضي الله عنهما.

عليّ دين لا أستطيع الوفاء به أبداً ما بقيت إلا الدعاء له بظهر الغيب دوماً أن يبارك الله له في علمه وعمله وزوجه وذريته، وأن يجزيه عني خير ما جزى معلماً عن طلابه.

والشكر موصولٌ للسادة الأجلاء والأساتذة الفضلاء عضوي اللجنة المناقِشة وما شرفاني به من كرم قبولهما مناقشة البحث، وما سيتحفانني به من ملاحظات قيّمة، وتوجيهات نيرة، وهما أهلٌ لسد الخلل وتقويم الضعف والزلل، ووصالُ حبل شكري لكل من قدم لي يد المساعدة والعون بعد الله تعالى من قريب أو بعيد فأمدني بفكرة أو معلومة أو بكتاب أو برأي أو ما إليه مما أثرى مادة بحثي.

وأختم شكري لذلك الصرح العلمي الشامخ والميدان التربوي العريق المبارك جامعة أم القرى، منارة العلم وقبة الهدى، فجزى الله خيرا جميع القائمين عليها خير الجزاء، وأخصُ بالشكر والذكر كلية الشريعة والدراسات الإسلامية عمادة وأساتذة، ولرئاسة قسم التاريخ بمنسوباته ومنسوبيه كافة ممن أفدت من بحر علومهم، واستنرت بصادق توجيهاتهم فترة دراستي للسنة المنهجية بالجامعة شكراً جزيلاً مقروناً بالدعاء بأن يرفع الله قدرهم ويعلي ذكرهم، وأن يوفقني وإياهم للصالح من القول والعمل، والشكر لله أولاً وآخرًا.

المقدمة

وتشتمل على:

- الافتتاحية.
- أسباب اختيار الموضوع وتساؤلاته.
- أهمية البحث.
- أهداف البحث.
- مصطلحات البحث وحدود الدراسة.
- الدراسات السابقة.
- منهجية البحث.
- خطة البحث.
- مصادر البحث ومراجعه.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله خالق الخلق رب البرية، والصلاة والسلام على محمدٍ العدنان خير الورى وهادي البشرية وبعد.

فإن التفكر الدقيق والتأمل العميق والوقوف على دقائق تفاصيل أحداث السيرة النبوية ومواقفها؛ مع الدراسة والتحليل لأبرز النتائج والآثار المترتبة عليها لأمرٌ جدير بالاهتمام والدراسة والبحث، وهو أمرٌ جليل؛ ولا غَرو فمن عجائب السيرة النبوية وبديع أسرارها أنها كنزٌ ثمينٌ لا يفنى، ومعينٌ عذبٌ لا ينضب، فمهما اغترف الغارفون من منهلها فلا يزالون ظَمأى، ومهما انكبّ الدارسون عليها فهم عن كثيرٍ من أسرارها غَفلى.

ولقد قلّبت النظر في قراءة مُجملة لأحداث السيرة ولاسيما في مرحلة عهدها المدني، والتي عرفت في التاريخ الإسلامي بالفترة الثانية من عهد النبوة –تلك الحِقبة التاريخية- والتي هي بلا ريب مرحلة عُظمى، ارتكزت على مرتكزاتٍ ودعائمَ مُثلى، وكانت لها آثار و أبعاد شتى، بل ومآثر ومعطياتٍ جمة؛ إذ مثلت بحق منعطفًا حاسمًا في مسار التأريخ الإسلامي فغيرت مجرياته، بل وحققت نقلة نوعية جذرية عميقة في كثير من مقدراته؛ إذ أسست البناء الحضاري حسًا ومعنىً، ليس على مستوى الأفراد والجماعات فحسب، بل على صعيد سائر المستويات. وقد مثلت تلك المرحلة رائعةً من روائع جوانب السيرة النبوية، ولطيفةً من عجيب آثار النّبوة المحمّدية.

نعم إنه البناء، بناء دولة الإسلام، ذلك الجانب الحضاري الذي هو بناءٌ وإحياء للأرض وللإنسان فإذا كانت فترة عهده ﷺ بمكة إحياءً للأفراد ونشراً للدعوة، فحياته في دار الهجرة إقامة وتأسيسًا لدولة، وتربية وتكوينًا لأمة.

وقد تأسس من خلال ذلك البناء النواة الأولى لدولة الإسلام في مدة وجيزة لم تتجاوز عشر سنوات، قامت فيها دولة إسلامية شامخة، ونشرت رسالة عالمية سامقة، فأثمرت حين ذاك أمة حضارية راقية، وفي هذا تأكيدٌ وتصويرٌ لعالمية هذا الدين ولمنظومته المتكاملة التي تحكم حياة الفرد والمجتمعات بل وحياةِ سائر الأرض.

والحقيقة أن ثَمة كتابات ومؤلفات عنيت بتسطير حوادث وأحداث العهد المدني، وتحديدًا ما يتعلق بإقامة دولة الإسلام بالمدينة إلا أن معظمها اكتفى بالعموميات ولم تتجاوزها إلى الأبحاث الجزئية المتخصصة إلا في النادر اليسير.

وقد اعتمدت في البحث بصورة أساس على المنهج التاريخي الاستقرائي والدراسة التحليلية التأصيلية تحليلاً للوقائع والأحداث وتفصيلاً لها، وتأصيلاً للمنهجية النبوية في التأسيس والإدارة وتجليتها، واستنباطاً للسنن التشريعية، والأنظمة الإدارية، واستقصاءً لها من خلال التعمق في دراسة منهج إقامته ﷺ لذلك البناء، معتمدة في ذلك على مصادر السيرة والمسانيد وما في المعاجم والمصنفات –مسترشدة بما فتح الله عليّ مما توصلت إليه من استنتاجات وتعليقات مع الربط والتحليل والتعليل على غرار المنهج التأريخي الأصيل.

وبالجملة، ومن خلال التتبع ودقة النظر في دراسة تاريخ بناء دولة الإسلام الأولى، يتأتى التساؤل الرئيس الآتي:

ما الكيفية التي جسد من خلالها النبي ﷺ منهجيته كممارسة عملية لإقامة دولة الإسلام بالمدينة؟

وتندرج عن هذا التساؤل الرئيس جملة من الأسئلة الثانوية:

(١) ما أسس البناء المعنوي للمدينة الإسلامية المتكاملة التي رسّخ أصولها وأرسى قواعدها النبي القدوة ﷺ؟

(٢) ما حقيقة دور جانب العقيدة الإسلامية، كمنهج تربوي للنفس البشرية، في تخطيط بناء دولة الإسلام؟

(٣) ما أبرز ملامح صفات القيادة العسكرية المثلى التي صاغها النبي ﷺ لأمته من خلال تأسيسه لنواة الدولة الإسلامية بالمدينة ؟

(٤) ما الآثار والنتائج المترتبة على الممارسات العملية والتطبيقية لسياسة النبي ﷺ في بناء دولة الإسلام؟

أهمية البحث:

لعل أهمية البحث والدراسة في هذا الموضوع تكمن في الدور العظيم لشخص النَّبي الكريم ﷺ في إقامة دولة الإسلام، وتأسيس نواة دولة عظمى بكل أبعادها الحضارية ومعطياتها الإنسانية والدينية الحقة في غضون عشر سنين مستمرة قائمة إلى أن يرث الله تعالى الأرض وما عليها، كما وتجلت في جمع شتات أمة بعد أن كانت تتحكم في مصائرها نزعات الجاهلية وعصبياتها في وحدة من التواد والتأزر والتعاضد على الحق والإيمان والخير.

- الحاجة الى معرفةِ أسسَ وعوامل البناء وأهميتها في قيام ونشأة الدولة الإسلامية بالمدينة.
- رسمَ وإيضاح ملامح السياسة التشريعية، فضلاً عن الإدارة التنظيمية، التي وضعها النبي عليه الصلاة والسلام، لبناء أمة الإسلام قبل نشأة الدولة (ماديًا ومعنويًا) .
- إبراز الصورة الحضارية للمجتمع الإسلامي الأول والنموذج الفريد الأمثل في تاريخ الأمة الإسلامية.
- تصوير قوة العقيدة وقدرتها على بناء الإنسان في المكان والزمان التي جعلت بقعة من الأرض في جزء ركين من أرض الجزيرة بين لابتين، نواة دولةٍ تمتد إلى أصقاع المعمورة وتضيء بنور عقيدتها للبشرية.
- الحاجة الملحة لتعزيز ثقة المسلم بدينه واعتزازه بشخصه، وذلك من خلال تأصيل سمو الفكر الإداري الإسلامي على الفكر الإداري الوضعي والمنهج العلماني المتمثل بفصل الدين عن الدولة، وأكثر من ذلك بأن يدرك المرء أن أساس تكوين الدولة هو دين الإسلام الذي هو أساس عماد الدولة، يقول الحق جل وعلا: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾[١].

أهداف البحث والدراسة.

لعل ثَمة دوافع وأهدافاً كانت من الأهمية بمكان لتناول هذا الموضوع، وفي مقدمتها:

- دراسة جزءٍ من سيرة الحبيب المصطفى ﷺ في مرحلة من أهم مراحلها (العهد المدني) وما تُمثله تلك الحِقبة من أبرز النتائج والآثار حيث تكونت نواة دولة فتية وأمة إسلامية باقية إلى ما شاء ﷻ.

(١) سورة الحج آية (٤١).

- التوضيح لأهم معالم المجتمع المثالي من خلال دراسة أسس التنظيم الإداري التي اعتمدها الرسول ﷺ لإقامة دولة الإسلام.
- محاولة تأصيل مفهوم بناء قوة الدولة الإسلامية وإدارتها في الفكر والسياسة الشرعية على هدي النبي المصطفى مُحَمَّد ﷺ.
- مناقشة موضوع بناء الدولة الإسلامية، وربط مواقف وأحداث تلك المرحلة من خلال استقراء أبرز مصادر السيرة النبوية، واستنتاج الشواهد والأدلة من النصوص، مع دراستها وتحليلها لإبراز فقه معاني السيرة النبوية في سياسة الدولة الاسلامية.
- محاولة إبراز النظرية السياسية الاجتماعية حول الكيفية التي استطاع من خلالها رسول الله ﷺ بناء قوة الدولة في عهده ﷺ.
- التأكيد على أن حضارة الدول الإسلامية في عصورها المتلاحقة ماهي إلا استضاءة مما رسخّه النبي ﷺ في كيفية بنائه المادي والمعنوي لدولة الإسلام الأولى وتأصيله لعلاقة الحاكم بالمحكومين.
- الوقوف على الجوانب التطبيقية للأسس التي ثبتها النبي ﷺ في البناء المتمثل في بناء قوة عقيدة المسلم وشخصيته المثالية المتكاملة التي مكنت له من تأسيس دولة، وصياغة حضارة، وإقامة أمة إسلامية متفردة حسًا ومعنى.

مصطلحات البحث:

التوضيح والتحليل لأبرز مصطلحات الدراسة (الدولة الإسلامية- المدينة النبوية).

حدود البحث:

١/ **الحدود الزمانية**: وتمثلت بتاريخ المدينة في العهد النبوي والذي يبتدئ من السنة الأولى من الهجرة بما يوافق (٦٢٢) للميلاد، وحتى السنة الحادية عشر من الهجرة الموافق (٦٣٢) للميلاد وتعرف هذه الفترة التاريخية عند المؤرخين بالفترة المدنية أو بالعهد المدني من تاريخ عهد النبوة(أو المرحلة المدنية).

٢/ **الحدود المكانية**: **دولة** المدينة بحدودها الممتدة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً وهي كل ما دخل تحت سلطان النبي ﷺ من جزيرة العرب.

الدراسات السابقة:

من المعلوم يقينا توالي الكتب والمؤلفات وتعدد الأبحاث والدراسات على اختلافها وتباينها في السيرة النبوية، ولاريب فمهما سبر الدارسون أغوارها وتفننوا بالأخذ من مواردها فما تزال مكتباتنا الإسلامية بحاجة إلى دراسات تعطي مزيدًا من تفاصيل أحداثها ووقائعها واكتشاف دقائق أسرارها ودررها.

وثَمّة دراسة علمية في السيرة النبوية بذات الخصوص وفي موضوع (البناء) تقدم بها الباحث عبد القادر بن عبد الله الدعيس، بعنوان: (الحياة اليومية لأهل المدينة المنورة في عهد النبوة اجتماعيًا)، وهي أطروحة علمية لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي بتاريخ ٢٠٠٥م، وقد مثلت الجانب الحضاري وبعض مجريات تأسيس عمارة المدينة فقد حاول الباحث إعطاء تصوّرٍ عام لبناء المدينة المنورة من خلال الوصف العام للحياة اليومية، فقد شمل الفصل الأول وهو بعنوان:

((الجغرافية التاريخية للمدينة)) في بعض عناصره الحديث عن التركيبة السكانية في المجتمع المدني في العهد النبوي، وهي تضم فئة اليهود والأوس والخزرج فضلا عن المهاجرين، وفئة الموالي والعبيد.

كما تناول الحديث عن خطط المدينة وأحيائها وأثر هذه الخطط على خطط الأمصار الإسلامية، واحتوى الفصل أيضًا الحديث عن البناءات والمساكن والمتمثلة بالمساجد كالمسجد النبوي وما يتعلق به، ومساجد المدينة الأخرى، إلى جانب مصلى العيد، ومصلى الجنائز، والحجرات الشريفة، ومساكن عموم الناس، والآطام والحصون ومنازل الوفود، والسقائف، مع الذكر لأثاث ومتاع المساكن والبيوت.

والحقيقة أن هذه الدراسة مثلت لونًا جديدًا من ألوان دراسة جوانب السيرة فيما يخص الجانب الاجتماعي، وهي بلا ريب –وإن شملت فصلاً واحداً في البناء والتأسيس للمدينة النبوية– إلا أنها كانت دراسة نافعة وموفقة، ولعل موضوع البحث يقتضي الإيجاز في جانب البناء، ولا سيما جانب العمارة المادي الذي تناولته الأطروحة.

ولم تفتني من قائمة ما اطلعت عليه أطروحة الباحث: (محسن مُحَمَّد هلال العظمات) الموسومة بـ: (منهج الرسول ﷺ في إقامة الدولة الإسلامية) من (١) للبعثة (٦١٠م –١١هـ/٦٢٢م) وهي أطروحة علمية لمرحلة الماجستير في التاريخ الإسلامي من كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة آل البيت، وعلى كلٍ فهي دراسة تحليلية، وهي – بلا شك – أقرب الدراسات في هذا الجانب زمنًا بل وهدفًا للبحث الحالي فهي ترتكز في الأساس على توضيح منهج النبي ﷺ في إقامة الدولة، بيد أنها تحتاج إلى التعمق أكثر فأكثر في تجليه ذلك المنهج النبوي، خاصة لو أعمل فيها التدليل مع التحليل والتعليل من

خلال مصادر السيرة النبوية (والأحاديث الصحيحة في كتب الصحاح) مع الربط بوقائع الأحداث الجارية لتكون أنموذجًا تطبيقًا حيًا لممارسات النبي القدوة ﷺ في دولته.

ومن الدراسات التي أفدت منها في كتابة البحث كتاب (الإدارة في عصر الرسول ﷺ) والمؤلَفُ في الأصل أطروحة علمية تقدم بها الباحث حافظ أحمد عجاج الكرمي لنيل درجة الماجستير من كلية الدراسات العليا بالجامعة الأردنية، وهي دراسة في النظم الإدارية للدولة الإسلامية الأولى ضمت ستة فصول رئيسة مع مقدمة وتحليل للمصادر وخاتمة ذيلت أبرز نتائج الدراسة.

وخلاصة الدراسة في مجملها ركزت على أبرز مجالات النظم الإسلامية في العهد النبوي، ابتداءً بالإدارة المالية فالقضائية والعسكرية، وانتهاءً بالدبلوماسية الإسلامية والتنظيم الإداري للدولة بعامة، والدراسة أفادت في إعطاء تصورٍ عامٍ لإدارة تلك النظم قبل الإسلام في المجتمع المكي، ومن ثم كشفت عن الخطط النبوية لتلك النظم في العهد النبوي في المجتمع المدني.

ومن الأطروحات العلمية في هذا الجانب رسالة مقدمة للحصول على درجة الماجستير من جامعة الملك سعود للباحثة (بدرية بنت عبد العزيز البصيري) بعنوان: إدارة الدولة في العهد النبوي وهي دراسة تاريخية في أربعة فصول ضمت مباحث متباينة، تناولت الباحثة في الفصل الأول- وهو بعنوان: تكوين دولة المدينة- الحديث عن الجغرافية التاريخية للمدينة في التمهيد، ومن ثم تتابعت مباحث الفصل في الحديث عن اختيار دار الهجرة، أوضاع المدينة وأهميتها وإسلام أهل المدينة، ودخولهم الدين، وجاء ذلك على خمس مراحل. وذيّل الفصل بمبحث أخير شمل تنظيمات النبي ﷺ الداخلية، من تأسيس الدولة، وبناء المساجد، وتنظيم العلاقة بين عناصر المجتمع بالمدينة.

تبعه الفصل الثاني في الإدارة الداخلية للمدينة وتضمن الحديث عن رئاسة النبي ﷺ للمدينة وإدارته للدولة الناشئة وبداية التنظيم الإداري وما يدخل في ذلك من الولاة والعمال وإدارة الوظائف التعليمية والدينية والأمنية، وخُصص الفصل الثالث من هذه الأطروحة للحديث عن إدارة الأراضي والإدارة العسكرية. وتناول القسم الأول منه إدارة الأراضي، والحديث عن الإقطاع وعوامل تشريعه، مع ضرب الأمثلة لأنواع إقطاعه ﷺ من المعادن والآبار والدور، والبحث في شروط الإقطاع، وأسباب استرداده كما تناول القسم الثاني من الفصل الحديث عن: الادارة العسكرية، ابتداءً بأهداف الجهاد، وتنظيم الجيش وإدارته، ووصاياه ﷺ للجند، وضم الفصل الرابع، وهو الفصل الأخير في الرسالة، وعنوانه: الإدارة المالية، التنظيمات المالية في عهد النبي ﷺ في ثلاثة مباحث، الأول:

وتناول الموارد الثابتة في عهد النبي ﷺ وتوزيعها التي شملت الزكاة والجزية والخراج. وأما المبحث الثاني فتناول الحديث عن الموارد غير الثابتة في عهد ﷺ وتمثلت بالغنائم والفيء والصدقات، والتبرعات، أما المبحث الثالث والأخير، فقد جاء الحديث فيه عن بيت المال، وعن وضعه في عهد النبي ﷺ وقد خُتم البحث بخاتمة أجملت فيها الباحثة أهم النتائج التي توصلت إليها.

والأطروحة في جملتها لخصّت التراتيب الإدارية النبوية في سياسة الدولة الإسلامية، وكان التركيز فيها جلياً على التنظيمات والوظائف العسكرية والإدارة المالية، فضلاً عن الإدارة الدينية، وشذرات ومقتطفات من الإدارة التعليمية.

بينما كان أساس هدفنا لدراسة هذا الموضوع (البناء) كما سبق البيان محاولة تأصيل مفهوم بناء دولة الإسلام في عهده، عليه الصلاة والسلام، من خلال عوامل البناء وتوضيح منهجية إدارته ﷺ لتلك الدولة من الجانب المعنوي على ضوء مناقشة نصوص مصادر السيرة النبوية مع الاستشهاد بكتب الصحاح، والسنن والوقوف على المعاني الجوهرية للعقيدة الإسلامية.

منهجية البحث:

اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي، وذلك لإلقاء الضوء على أسس وعوامل بناء دولة الإسلام الأولى، وأبرز نتائج وأبعاد ذلك البناء المعنوي في حقبةٍ تاريخيةٍ هي أزهى فترات تاريخ الإسلام.

وكذلك عمد البحث المنهج الوصفي التحليلي الذي يصف بموضوعية أبرز منجزات حضارة الإسلام وتشريعاته السياسية وتنظيماته الإدارية التي هي مجال تطبيق عملي وأنموذجٍ حي فعال صاغة نبي الأنام ﷺ في تأسيس دولته.

وعمومًا فإن إجراءات دراسة الموضوع تكمن بـ:

١- الوقوف على أبرز الوقائع والأحداث التي مثلت مرحلة بناء الدولة الإسلامية وما صحبها من وقفات وموافقات في صحيح السيرة النبوية من خلال مصادر أمهات كتب السيرة الموثوقة

٢- محاولة تتبع واستقصاء الأحاديث النبوية الصحيحة لاستنباط الشواهد والأدلة الموافقة والمتعلقة بوقائع وأحداث تلك الفترة التاريخية من جانب حياة النبي ﷺ وتأسيسه وعمارته لدار هجرته.

٣- استقراء نصوص الأحاديث الشريفة وتحليلها مع شرح الألفاظ المبهمة عن الأذهان والتي تحتاج إلى توضيح معانيها من كتب المعاجم اللغوية، النهاية والقاموس واللسان ، وغيرها مع محاولة الربط والتمثيل بالوقائع أحياناً لاستنتاج أبرز الفوائد والدروس والنتائج.

٤- عزو الآيات القرآنية إلى سورها بأرقامها مع التزام الرسم العثماني، وتخريج الأحاديث النبوية التي وردت في البحث بالاعتماد على كتب الصحاح أو المعتمد من كتب المسانيد والسنن وغيرهما.

٥- الترجمة لبعض الأعلام والتوثيق لها من كتب الطبقات والسير وغيرها، والتعريف ببعض الأماكن والبلدان من خلال كتب البلدان والمعاجم المخصصة في التعريف بالمعالم الجغرافية الواردة في السيرة النبوية.

٦- الربط بين الأحداث التأريخية والشواهد الحديثية مع التعليق على بعض المسائل الحُكمية والتشريعية والإفادة منها في نتائج البحث وتوصياته.

٧- دعم الدراسة وتذييل البحث بملاحق من خريطة ذهنية لمحتوى البحث وجداول إيضاح إلى غيرها مما يخدم مادة البحث والدراسة.

على أن أبرز صعوبات الدراسة والبحث هي:

قرب مادة البحث من موضوعات الحديث والثقافة الإسلامية؛ وذلك لكثرة ورود الأحاديث النبوية، الأمر الذي يتطلب الدقة واليقظة في تناول الموضوعات وصياغتها في أسلوبٍ وقالبٍ تاريخيٍ أصيل على سياق منهج المؤرخين مع التحري الدقيق في العرض والتخفيف من لغة المحدثين قدر المستطاع حتى تأخذ الدراسة جانب الموضوع التاريخي، فلا تسند تحت دائرة موضوعات الثقافة الإسلامية عرضًا ومادة وسياقًا.

خطة الدراسة:

اقتضت دراسة الموضوع تقسيم الدراسة إلى مقدمة وتمهيد وبابين، جاءت على النحو الآتي:

المقدمة: وتضمنت أهمية الموضوع وعرضاً للدراسات السابقة، والمنهج الذي سلكته الدراسة والصعوبات التي لاقتها الباحثة.

التمهيد: في مدلول السياسة الشرعية، وعلاقتها ببناء الدولة الاسلامية.

الباب الأول: أسس وعوامل بناء الدولة وتنظيمات الإدارة الداخلية.

الفصل الأول: بناء الشخصية الإنسانية المتكاملة وتنظيم الحياة الاجتماعية.

المبحث الاول: البناء العقدي والتربية السلوكية للفرد المسلم، وفيه مطالب:

المطلب الأول: التزام أوامر التشريع الإلهي طاعة لله ورسوله والتسليم لها.

المطلب الثاني: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المطلب الثالث: السعي لتحقيق أهداف الحياة الآخرة.

المطلب الرابع: العمل على بناء الأمة القوية.

المطلب الخامس: بناء روح التضحية والإيثار.

المبحث الثاني: البناء النفسي وتنظيمات الحياة الاجتماعية وفيه مطالب:

-المطلب الأول: التربية الذاتية للفرد وتنظيم العلاقات الاجتماعية بين المسلمين من خلال الوظيفة الدينية المتمثلة بالمسجد وماله من قيم في....

البناء المعرفي والاجتماعي.

تربية الفرد بالانتفاع بالمباحات المتاحة.

الحرية الاقتصادية والحث على العمل والكسب الحلال.

تقويم النظام الأسْري.

-المطلب الثاني: تنظيم متطلبات الحياة والمصالح العامة من خلال...

- إقامة العدل وفض الخصومات بين الناس.

- تنظيم التعاملات الاقتصادية بقسميها.

- الحسبة، والرقابة على السوق.

- العناية بالمصالح العامة (الصحة والأمن وسلامة المجتمع).

المبحث الثالث: تنظيم شؤون الإدارة والأمور العسكرية وفيه مطالب:

- المطلب الأول: بناء منظومة الحقوق المتبادلة بين الحاكم والمحكومين.

- المطلب الثاني: تقرير مبدأ الشورى.

- المطلب الثالث: إعداد قوة الجيش.

– المطلب الرابع: استقبال الوفود وترتيب أوضاعهم.

الفصل الثاني: بناء المجتمع المدني وممارسة السلطة التنظيمية والسياسية ومباحثه:

المبحث الأول: بناء روح الجماعة وتنظيمات المجتمع المدني وفيه مطالب:

–المطلب الأول: بناء روح الجماعة وتنظيم العلاقات الاجتماعية بين الفئات والطوائف السكانية.

المحور الأول: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وفيه:

أولاً: دراسة أبعاد التآخي بين الطرفين وتتمثل ب...

البعد الإيماني

البعد الاقتصادي.

البعد النفسي والاجتماعي.

البعد السياسي.

ثانياً: آثار ونتائج المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

الآثار والنتائج المادية.

الآثار والنتائج المعنوية.

المحور الثاني: المسالمة بين الأوس والخزرج وفيه:

أولاً: دراسة أبعاد المسالمة بين الطرفين وتتمثل ب...

البعد الإيماني (العقدي).

البعد الاقتصادي.

البعد النفسي والاجتماعي.

البعد السياسي.

ثانياً: آثار ونتائج المسالمة بين الطرفين.

الآثار والنتائج الحسية.

الأثار والنتائج المعنوية.

المحور الثالث: موادعة اليهود ومعاهدتهم.

– معاداة اليهود للنَّبي ﷺ وموادعته ومعاهدته لهم عليه السلام.

– وسائل اليهود وخطواتهم للكيد للإسلام وأسباب موادعتهم، والإجراءات النبوية ضدهم.

–المطلب الثاني: تنظيمات المجتمع المدني وإعلان سياسة منهج الدولة.

المحور الأول: المبادئ والمضامين العامة لصحيفة المدينة وأهميتها في بناء دولة الإسلام.

المحور الثاني: أساسيات وسياسات الوثيقة وتضم:

(أ) حقوق وواجبات الجماعة الإسلامية.

(ب)حقوق والتزامات اليهود.

(ج)الحقوق والواجبات المشتركة بين قاطني الدولة.

المبحث الثاني: صد العدوان والاستراتيجية النبوية في مواجهة اليهود بالمدينة وفيه مطالب:

–المطلب الأول: العلاقة بين اليهود والرسول ﷺ في المدينة.

–المطلب الثاني: الإجراءات النبوية لمواجهة اليهود داخل المدينة وخارجها.

–المطلب الثالث: جوانب الحكمة النبوية في مواجهة اليهود وأبعاده.

أولاً: يهود بني قينقاع.

ثانياً: يهود بني النضير.

ثالثاً: يهود بني قريظة.

رابعاً: يهود خيبر وبقية المعاقل اليهودية في الحجاز.

المبحث الثالث: النتائج والآثار المترتبة على الممارسات العملية والتطبيقية لصحيفة المدينة.

(أ) النتائج المترتبة على المستوى العقدي والأمني.

(ب)النتائج المترتبة على المستوى الاجتماعي.

(ج)النتائج المترتبة على الصعيد السياسي.

(د) النتائج المترتبة على الجانب الإنساني والحضاري.

الباب الثاني: دولة الرسول ﷺ وجوانب تنظيم العلاقات الخارجية.

الفصل الأول: أسس ومبادئ منهج الدولة الإسلامية في العلاقات الخارجية في العهد النبوي:

المبحث الأول: أسس العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية في العهد النبوي وفيه مطالب:

-المطلب الأول: الجهاد في سبيل الله وبناء القوة الإسلامية.

المحور الأول: أهمية الجهاد في سبيل الله وأهدافه.

المحور الثاني: أساليب سياسة الجهاد في الإسلام ومواجهة الأعداء.

المحور الثالث: صفات القيادة العسكرية المثلى للرسول ﷺ ونماذج تطبيقية لاستراتيجيته الحربية في قتال أعدائه.

-المطلب الثاني: المعاهدات والوثائق السياسية.

المحور الأول: المعاهدات السياسية ومنهج الإسلام في معالجتها.

أولاً: عقد الأمان المجتمعي الداخلي.

ثانياً: عهد عقد الجوار.

ثالثاً: معاهدات السلم الخارجي.

رابعاً: معاهدات الصلح الدائم (عقد الذمة).

المحور الثاني: صلح الحديبة والنموذج العملي التطبيقي للتعامل مع المعَاهدين.

(أ) ظروف الصلح وأسبابه.

(ب)شروط الصلح ونتائجه وآثاره.

-المطلب الثالث: الرسل والسفراء ومكاتبة الملوك والأمراء للدعوة إلى الله ونشر الإسلام.

المحور الأول: خاصية الرسالة الإسلامية وأساليب الدعوة إلى الله.

المحور الثاني: السفارات النبوية وسياسة الإبداع النبوي في مراسلة الملوك والأمراء.

المبحث الثاني: مبادئ منهج الدولة الإسلامية في السياسة الخارجية.

المطلب الأول: السياسة النبوية ومنهج فقه التعامل مع غير المسلمين في حالتي السلم والحرب.

(أ) مبدأ العدل والإحسان.

(ب)مبدأ مراعاة المصالح الإسلامية.

(ج)مبدأ المعاملة بالمثل.

(د) مبدأ احترام الأعراف السياسية.

(هـ) مبدأ الوفاء بالعهود والمواثيق.

المطلب الثاني: آثار ونتائج دبلوماسية التمثيل السياسي النبوي والتعامل مع الرسل والسفراء.

الفصل الثاني: مقومات إدارة دولة الإسلام وآثار نتائج بنائها.

المبحث الأول: مقومات إدارة الدولة الإسلامية في العهد النبوي .

-المطلب الأول: العقيدة والمنهج.

-المطلب الثاني: القيادة والسلطة.

المحور الأول: المنهج النَّبوي في التمكين للدعوة.

المحور الثاني: المنهج النَّبوي في إدارة الدولة.

-المطلب الثالث: البيئة والمجتمع المسلم.

-المطلب الرابع: بناء القوة الاستراتيجية وتحقيق أمن الدولة بأنواعه.

(أ) الأمن الاجتماعي.

(ب)الأمن العقدي والفكري.

(ج) الأمن الثقافي والإعلامي.

(د) حماية الكليات والضرورات الخمس.

المبحث الثاني: نتائج وأثار سياسة النبي المختار في إدارة دولة الإسلام.

-عالمية الإسلام وتحقيق مبدأ السلام.

- تأصيل مفهوم الأمة الإسلامية.

- وضع الأسس والمبادئ للنظم الإسلامية.

- الاستفادة من الحضارات والتجارب العالمية وفق مبادئ الإسلام.

- استقلال الشخصية الإسلامية وتفردها في الدين والسياسة والاقتصاد والحضارة.

-**الخاتمة** وفيها النتائج، والتوصيات.

-**ملاحق البحث**.

-**المصادر والمراجع**.

-**الفهارس**.



مصادر البحث ومراجعه:

شملت الرسالة جملة من المصادر والمراجع القديمة والحديثة في تاريخ السيرة النبوية، فضلاً عن الوثائق النبوية، إلى غيرها من المصادر المنشورة في كتب الجغرافية وكتب الرحلات القديمة والمصادر التاريخية على اختلاف أنواعها، ما بين مصادر المؤرخين أو مصادر التاريخ القديم والعام، أو حتى كتب التراجم والطبقات، إضافة إلى المراجع العربية الحديثة.

وعلى كل حال فلقد (تطلبت) طبيعة البحث الاستعانة ببعض كتب التفسير ولاسيما عند توضيح كثير من الإشارات القرآنية التي وردت كقواعد عامة لتنظيم المجتمع الجديد فضلاً عن القواعد الأساس للنظام السياسي والإداري في الإسلام؛ ومن تلك المؤلفات القديمة في التفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (ت ٦٧٠هـ)، وكتاب ابن كثير (ت٧٧٣هـ) تفسير القرآن العظيم، وكتاب الدر المنثور للسيوطي (ت ٩١١هـ) وغيرها، ومن كتب التفسير الحديثة كتاب تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للإمام عبد الرحمن السعدي (ت ١٣٧٦هـ) إلى غيره من كتب التفسير.

كذلك كان الاعتماد على سلسلة كتب السنة النبوية والحديث النبوي الشريف ولاسيما كتب الصحاح وتحديدًا (باب المغازي والسير)، وما ورد من صحيح كتب السنن والمسانيد، وما جاء في صحيح المعاجم والمصنفات بما فيها من الشواهد الحديثية في تحديد المنهج النبوي لإدارة الدولة الإسلامية، وهي بلا ريب مادة خصبة ساعدت في بناء الموضوع في سائر فصوله ومباحثه كافة.

ومن تلك المسانيد والصحاح والسنن، مسند الإمام ابن حنبل (ت٢٤١هـ) في بعض أجزائه وصحيح البخاري (ت ٢٥٦هـ)، وصحيح مسلم (ت ٢٦١هـ)، وسنن ابن ماجه (ت٢٧٥هـ)، وسنن أبي داود (ت ٢٧٥هـ) وصحيح الترمذي (ت ٢٧٩هـ)، وسنن النسائي (ت ٣٠٣هـ).

كذلك أفادت مادة البحث ومحتواه من مصادر كتب السير والمغازي والطبقات، بما احتوته من التلخيص لبعض المعلومات عن حكومة المدينة وسياسة الإدارة النبوية فيها، أو تلخيصها لبعض وقائع وأحداث سيرة المصطفى، عليه الصلاة والسلام، في فترتي العهد المكي والعهد النبوي (وتحديد معالم المجتمع المدني في العهد النبوي) وإشارتها إلى التنظيمات الإدارية. ومن تلك المؤلفات على سبيل التمثيل لا الحصر مغازي موسى بن عقبة (ت١٤١هـ) وسيرة ابن اسحاق (ت ١٥١هـ) ومغازي الواقدي (ت ٢٠٣هـ) وطبقات ابن سعد (ت٢٣٠هـ) إلى غير ذلك.

وأيضا كانت الإفادة من كتب الفقه ومنها كتاب الخراج لأبي يوسف (ت١٨٢هـ)، وكتاب (الأموال) لأبي عبيد، القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ)، وغيرها من مؤلفات الفقه.

كما كانت الاستعانة بنخبة جيدة من العلوم المساعدة في المصادر اللغوية من الأدب والشعر؛ إذ كان لها بعض نصيبٍ في خدمة مادة البحث، وفي التوضيح لبعض ما استعجم على الفهم من دلالات للمعاني والكلمات الغريبة مما توارد في البحث، ومن تلك المصنفات كتاب الرازي (ت٦٦٦هـ) في مؤلفة مختار الصحاح، و كذلك الكفوي (ت ١٠٩٤هـ) في، الكليات (معجم المصطلحات والفروق اللغوية)، وكتاب المعالم الجغرافية الواردة في السيرة النبوية للبلادي (ت ١٤٣١هـ) إلى غيرها من اللغويات، مع العناية والاستعانة أيضاً ببعض مصادر كتب الجغرافية والرحلات من مثل: فتوح البلدان للبلاذري (ت٢٧٩هـ) و الروض المعطار في خبر الأقطار للحميري (ت٩٠٠هـ).

كما أفاد البحث من بعض كتب الشروح في الحديث الشريف والسيرة، وأمثلة ذلك: كتاب السهيلي (ت٥٨١هـ) في الروض الأنف لشرح السيرة النبوية لابن هشام، وشرح النووي (ت٦٧٦هـ) لصحيح مسلم، وابن حجر (ت ٨٥٢هـ) لصحيح البخاري في فتح الباري إلى غيرها من الشروحات.

وثَمة مصادر ومؤلفات متفرقة ومتخصصة في فقه السياسة الشرعية وفي توضيح بعض جوانب النظام الإداري لدولة الاسلام زمن النبوة؛ مما أفادت في إثراء مادة البحث بما فيها من معلومات وفوائد مثل كتاب تخريج الدلالات السمعية للخزاعي (ت٧٤١هـ).

وكذا كانت الاستعانة بمؤلفات كتب التاريخ العام مثل الطبري (ت٣١٠هـ) في مؤلفه الشهير تاريخ الرسل والملوك، والكامل في التاريخ لابن الاثير (ت٦٣٠هـ)، والبداية والنهاية لابن كثير (ت٧٧٤هـ)، والمقدمة لابن خلدون (ت ٨٠٨هـ)، ووفاء الوفا في أخبار دار المصطفى للسمهودي (ت٩١١هـ) إلى غيرها مما تناولته مصادر البحث.

واستعان البحث بجملة من المراجع العربية الحديثة التي لا غنى عنها في ذات الموضوع كما في كتاب العلاقات الخارجية في عصر النبوة والدولة الإسلامية الأولى لإسماعيل سرور، وكتاب السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث لعلي بن مُحَمَّد الصلابي، وكتاب السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة، لصالح أحمد الشامي، وغيرها من المؤلفات والكتب العلمية المهمة والمتنوعة لدراسة موضوع بناء الدولة في السياسة والإدارة وعلم الاجتماع والقانون ونحوها مضافًا إلى ذلك الرسائل والأبحاث العلمية والندوات والمؤتمرات في كراسي البحث العلمي.

وأملي أن أكون قد تحريت الحق ما استطعت إليه سبيلاً، وحسبي أني بذلت غاية جهدي ولا توانيت كسلاً وتقصيراً، ويأبى الله أن تكون العصمة لغير كتابه، ولله در القاضي الفاضل بن البيساني، في جواب له على رسالةٍ للعماد الأصفهاني، حيث قال:"إني رأيت ألا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا قال في غده: لوغير هذا كان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، لو قدم هذا لكان أفضل، ولوترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر ودليل على استيلاء النقص على جملة البشر"(١).

وبعد فهذا جهد المقل، واللهَ أسألَ أن أكون قد وفقت إلى المطلوب عملاً، والتزمت فيه جانب الصواب جهداً وصدقاً، وأخلصت النية لله فيه طمعاً وأملاً، فإن أصبت فمن منَّة الله وحده وتمام إفضاله. له الحمد والثناءُ كله، وإن كانت الأخرى فمن الشيطان ونفسي، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.



(١) الزبيدي، مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبد الرزاق الحسيني (ت ١٢٠٥هـ): إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، المكتبة الوقفية للكتب المصورة pdf موافق للمطبوع، ج١، ص٣.

الفصل التمهيدي

في مدلول السياسة الشرعية

وعلاقتها ببناء الدولة الإسلامية

إنَّ الحديثَ فِي السياسةِ الشرعيةِ حديثٌ قد يتسع ويطول؛ ولذا آثرنا تقصيَّه ودراسته بتقسيمه إلى عناصر ومحاور وجيزة، ولمحاتٍ ووقفات يسيرة؛ تسهيلاً لتناولِ بعض موضوعاته، وتسلسلاً لعرض جملةٍ من جوانبه وأفكاره، فكانت على النحو التالي:

(أ) **توطئة ومدخل عن الإسلام وخصائص النظم الإسلامية.**

(ب) **الرسول ﷺ وحكومة الدولة الإسلامية.**

(ج) **الإطلاق اللغوي للسياسة الشرعية.**

(د) **التعريف العام و(المعنى الاصطلاحي).**

(هـ) **السياسة الشرعية والفقه الإسلامي.**

(و) **السياسة الشرعية والنظام السياسي.**

(ز) **السياسة الشرعية وبناء الدولة الإسلامية، وفيه دراسة تطبيقية للمنهجية النبوية ودورها في الممارسات التنظيمية لبناء الدولة الإسلامية.**

(ح) **نظرات ومفارقات بين السياسة الشرعية وقوانين الدساتير الوضعية.**

توطئة ومدخل:

إن من جليلِ افضالِ الله تعالى على أمة نبي الورى أن شرع لهم ملة الإسلام ديناً ومنهجاً -ذلك الدين القيم- والذي بتمامه أكُملت أجلُّ وأعظم النّعم. دينًا قِيمًا عدلًا، ومنْهجاً سحّاء تاماً

أعزنا فيه الربُّ تعالى على سائرِ الخلق والأمم، وارتضاه لنا شرعًا وهديًا مستقيماً ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينًا﴾[1].

فكان أساسه عقيدةً وخُلقاً، وعماده شعائر ونُسكاً، وأركانه طاعةً وعبادات، ورسالته قيماً وتعاملات. شعاره السماحة والعدل، وسمته الحضارة والعلم، ويكفي أنه منهاج حياة، دين كمال وإنسانية، وريادة وعالمية. جمع بمنظوماته الربانية جميع محاسن التشريعات السماوية؛ فجاءت عقيدته حينذاك كلاًّ متكاملًا يشد بعضه بعضًا، وكانت تشريعاته عادلة متوازنة، متناسبة ومتلائمة مع جُل المتغيرات المكانية وكل المتقلبات الزمانية.

ولاريب ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾[2] فالرب المشرع أعلم بحال عباده وما يوائم فطرتهم ويلائم إنسانيتهم فخصّهم بنُظُمٍ وتشريعات، وقواعد وتنظيمات تكفُل سعادتهم وتضمنُ طِيب معاشهم على هذه البسيطة، فيؤدوا واجب عمارتها، فَيُحقق لهم معنى خلافتها تكليفًا وتشريفًا، وكان أن بُعث نبي الأنام، عليه الصلاة وأتم السلام، برسالة الإسلام ذلك الدين الذي هو دين الحق ودين النظام؛ إذ جمع بين ممارسة العبادة وتنظيم السلطة والسياسة فهو دينٌ ودولة أقام مبادئه على الحجة والمحجة، فكانت حكومته إسلاميةً على السياسة الشرعية.

وكانت الحنكة النبوية والمنحة الربانية التي ساقها المولى عز وجل لخير البرية ﷺ للقيام بخطًى قوية ثابته، وتدابير سياسيةٍ راسخة، وترتيبات إداريةٍ متكاملة؛ لبناء كيانٍ متكامل وتحقيق مُناخ آمن. في بيئةٍ ووطن مُستقِر، وسيادةٍ وحكومة عدل؛ تبليغاً لرسالة الحق للنَّاس أجمعين وتجسيدًا لعلو وعالمية هذا الدين؛ وتحقيقاً للوعد بالتمكين.

(١) سورة المائدة آية (٣).

(٢) سورة الأنعام آية (٣٨).

الرسول ﷺ وحكومة الدولة الإسلامية.

لقد كان البدء والتأسيس لدعوة المصطفى ﷺ من مُنطلق الوحي مكة؛ تمهيدًا لتأسس دولة الإسلام النَّاشئةِ بطَيْبة، وكانت الخطوات تباعًا وابتداء من تكوين الجماعة وحماية الدعوة بسريتها، تلك الخطوة التي استمرت بدار الأرقم المخزومي ثلاثَ سنين، أعقبها مرحلة الإعلان والجهر بالدعوة في الأهل والمقربين امتثالاً للنداء الربانيّ في محكمِ التنزيل ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾[١] وانتقالاً إلى الصدع و الجهر بها في سائرِ مكةَ من بعدِ ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[٢]، ومروراً بهجرتي الحبشة، واللتين أعقبتهما رحلةُ الذهاب إلى الطائف لإيجاد بيئة خصبةٍ وأرضيةٍ قوية صلبة؛ حماية للدين ونصرَةً للدَّعوة، وتلاها خطوة عرضِ نفسه ﷺ على القبائل، ومن ثَم ببيعتا العقبة الأولى والثانية وانتهاءً بالأمر الإلهي بالهجرة إلى أرض يثرب.

وهناك، حيث بُدئت الخطواتُ تباعًا متواليات لتأسيس الدولة، تخطيطًا لمستقبل الإسلام، وتمكيناً لنشر دعوته بين الأنام. ومضى ﷺ في ذلك غاية جُهده بمراحلَ وخطوات، بإجراءاتٍ حثيثة على خطاً متوازنةً دقيقة.

فكان من مراحل ذلك البناء: تخطيطٌ معنويٌ حقيقي قوامه البناء العقدي الإيماني، والتربية الدينية الأخلاقية للفرد المسلم التي هي خلاصة بعثته عليه السلام «**إنما بعث لأتمم مكارم الأخلاق**»[٣] والقائمةُ أولاً على امتثال أوامر التشريع الإلهي طاعة وحبًا لله ولرسوله، مصداقًا لقوله جل وعز في الآية ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾[٤] وفي أخرى وقريبٌ منه ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾[٥].

يليها بناءُ منظومة العلاقة والحقوقِ المتَبادلة بين الحاكم والمحكومين ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾[٦] ومن ثَم تنظيمُ العلاقاتِ الاجتماعية بين الفئاتِ والعناصر السكانية في المجتمع المدني فكان التجسيد الواقعي بإحداث فكرة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وإعلان مبدأ المسالمة بين الأوس والخزرج، وتقرير وثيقة العهد مع بني يهودَ وموادعتهم.

---

(١) سورة الشعراء آية (٢١٤)

(٢) سورة الحجر آية (٩٤)

(٣) البخاري، مُحَمَّد إسماعيل (ت ٢٥٦هـ) صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، تحقيق مُحَمَّد ناصرالدين الألباني، دار الصديق للنشر والتوزيع، طبعة ٤، عام ١٤١٨ هـ، حديث رقم (٢٧٣) والحديث لأبي هريرة وجاء بلفظ (لأتمم صالح الأخلاق)، ج١، ص ١٠٤.

(٤) سورة آل عمران آية (٣١)

(٥) سورة آل عمران آية (١٣٢)

(٦) سورة النساء آية (٥٩)

ومن منطلق عالمية هذا الدين كان التنظيم للصلات والعلاقات في محيط المجتمع العالمي الأكبر، المتمثل بالسياسة الخارجية، فكانت السفارات على قدم وساق، وكانت المراسلات والمعاهدات وبعضُ المواجهات القتالية للأعداء[١]. وجميعها بلا استثناء قد ميّزت سمةَ سياسة دولة الإسلام، وحددت بلا ريب رسالةَ حضارة دين السلام.

نعم تلك هي السياسة النَّبوية، وذلك هو التخطيط المعنوي ، لبناء الانسان المسلم الذي أثمر فكان حصاده ونتاجه التضحية والإيثار ممن وصفهم الله في آي القرآن بالذين تبوءوا الدار والإيمان.

وكان ذلك الإيثار بالمال والسكنى والزوجة بل وبالإرث والميراث، وأعظم من ذاك إذ بذل المؤمن روحه النفيسة التي بين جنبيه رخيصة في سبيل نصرة هذا الدين أو الموت دونه، فلم يكن الجهاد في مثلهم إلا لنشرِ دين الله وتبليغ أمانة الرسالة والدعوة، ولقد كان شعارُ أحدهم الظفرَ بإحدى الحسنين إما النصر أو الشهادة، ولم يكن المغنمُ أو المكسب المادي والربح الدنيوي هو جُلَ شاغلهم حتى قال أحدُهم[٢]:**"لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي إنها لحياة طويلة"**[٣] والنماذج في ذلك متعددةٌ كثيرة.

وبالجملة فَثَمة تخطيطٍ نبوي آخر هو التخطيطُ المادي، وهو تخطيطٌ حسيٌ متين قائمٌ على شقين: عمارةٌ مدنية تمثلت بخطط القبائل وتعمير الدور والمساكن، ومنها تقسيم المدينة إلى أحياءٍ[٤] **ومحلات**[٥].

(١) ونعني بها أهم المحاولات العسكرية في العهد النبوي لمواجهة الأعداء من خارج الجزيرة العربية وهم الروم وحلفاؤهم من العرب من لخم وجذام وغسان في غزوة تبوك، وكذلك غزوة مؤتة.

(٢) عمير بن الحمام بن الجموح بن كعب الأنصاري، من بني سلمة من الأنصار. من السابقين للإسلام قبل دخول الرسول المدينة، وبعد وصول الرسول إلى يثرب ظل محبًّا لرسول الله وزادت عقيدته تأصيلاً وقوة، فكان على استعداد لفداء الإسلام بحياته فهو بمجرد سماعه لحديث الرسول ﷺ: "والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل، فيُقتل صابرًا محتسبًا مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة". فقال عمير بن الحمام وفي يده تمرات يأكلهن: بخ بخ، فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء، لئن أنا حييت حتى آكل تمرا إنها لحياة طويلة "فقذف التمر من يده، وأخذ سيفه، فقاتل حتى قتل فكان أول شهداء النزال والالتحام في المعركة من الأنصار في الإسلام، وانظر: العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل (ت ٨٥٢هـ): الإصابة في تمييز الصحابة، المكتبة العصرية، عام ١٤٣٣هـ، ط١، حرف العين، من كان اسمه عمير.

(٣) مسلم، مسلم بن حجاج النيسابوري (ت٢٦١هـ): صحيح مسلم، تحقيق مُحَّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، عام ١٣٦٥هـ/١٩٥٥م، حديث رقم (١٩٠١) كتاب الإمارة، باب ثواب الجنة للشهيد، والحديث لثابت عن أنس بن مالك، ص ١٥١١.

(٤) وسميت بأسماء أهلها كأهل قباء وأهل المدينة ولعل لهذا الاتجاه دلالاته الحضرية والاستيطانية حيث فيه إبدال العصبية القبيلة بعصبية الموطن والأرض، وانظر: عثمان، مُحَّد عبد الستار: المدينة الإسلامية، عالم المعرفة ١٩٨٨م، ص٤٥.

(٥) وهي الخطط التي خطها ﷺ لأصحابه إذ لما قدم ﷺ من مكة إلى المدينة مهاجراً أقطع الناس الدور والرباع فخط لبني زهرة =

فضلاً عن الأوقاف والإقطاعات، وإحياء الأراضِي الموات، وإنشاء السقائف[١] وبيوت السُقيا والمزارع[٢]، وما إليها من منشآت العمارة المدنية.

وشقٌ آخر: تمثل بالعمارة الدينيَّة وكان نواتها بناء المسجد الجامع – مسجده الشريف –ﷺ مضافاً إليه مساجد المدينة الأخرى[٣] ومصلى العيد، ودور الأضياف[٤]وبناء السوق[٥]، وكلها من مستكملات البناء الديني مضافًا إليها منشآت ومرافق أُخرى هي من متطلبات الحياة الأساسية كالمناصع وبيوت الخلاء والمناحر أو

=

من ناحية مؤخرة المسجد، وخط للزبير بقيعاً واسعاً وجعل لطلحة بن عبيد الله موضع داره، وللصديق موضع داره عند المسجد، وابن الوليد والمقداد وغيرهم موضع دورهم، وانظر: الحموي، أبو عبد الله المشهور بياقوت الحموي(ت ٦٢٦هـ): معجم البلدان، طبعة بيروت، دار صادر ودار بيروت للنشر والتوزيع عام ١٩٥٥م، ج ٥، ص ٨٦.

(١) من مثل سقيفة بني ساعدة و سقيفة الريان، وهي مساكن بني بياضة، وكانت هذه السقائف مكان اجتماع القبيلة للتشاور في أمورها، وانظر: السمهودي، علي بن عبد الله (ت ٩١١هـ): وفاء الوفاء، تحقيق مُحَّد محيي الدين، (د.م)، بيروت١٩٧١م، ج١، ص٢٠٦.

(٢)كان لعبد الرحمن بن عوف مزارع بالجرف وكان يدخل منها قوت أهله لمدة سنة، كما مارس طلحة بن عبيد الله الزراعة في (قناة) إلا أن غالب زرعهم بالجرف وهي أرض خصبة منذ القدم –شملها عمران المدينة حاليًا – وقد خلّج فيها عثمان بن عفان خليجًا أي: عمل مجرى للماء حتى صبّه في جزء من الجرف. وكذلك أقطع الصديق الزبير إقطاعًا بالجرف، وللمزيد عن ذلك انظر: ابن سعد في الطبقات الكبرى.

(٣) عُدّ في خطط المدينة تسعة مساجد للمهاجرين، وعَدّ السمهودي في وفاء الوفا نحواً من إثنين وعشرين مسجدًا من بقية المساجد المعلومة بعينها كمسجد الفتح، والجمعة، والراية، والمصلى، وغيرها. انظر السمهودي، المصدر السابق، ج ١، الفصل الثالث.

(٤) وتسمى دار الأضياف ودار الضيفان نزل بها وفد النخع عام ١١هـ، وانظر: ابن سيد الناس، أبو الفتح مُحَّد بن مُحَّد اليعمري (ت٧٣٤هـ): عيون الأثر في فنون المغازي والسير، تحقيق لجنة حفظ التراث، بيروت، عام ١٩٨٠، ج١، ص٣٥١.

(٥) والمقصود به سوق المدينة وهو في موضع بقيع الزبير، غربي المسجد النبوي ويبدأ شمال مسجد الغمامة، ويمتد إلى القرب من ثنيات الوداع شمال المدينة قديمًا وشرقا إلى جبل سُليع، وقد سمي بأسماء متعددة منها سوق المدينة والمُناخة وسوق البقيع والبطحاء والزوراء وسوق المصلى وبقيع النخل، روى ابن شبة عن عطاء بن ياسر قال: "لما أراد رسول الله ﷺ أن يجعل للمدينة سوقا أتى سوق بني قينقاع ثم جاء سوق المدينة فضربه برجله، وقال: "هذا سوقكم فلا يضيق ولا يوجد فيه خراج "، ابن شبة، أبوزيد عمر بن شبة النميري، (ت ١٧٣هـ): أخبار المدينة المسمى بتاريخ المدينة المنورة، تحقيق فهيم شلتوت، المكتبة الشاملة. والحديث أخرجة ابن ماجه في السنن، ابن ماجه، عبد الله بن زيد القزويني (ت ٢٧٥هـ): سنن ابن ماجه، تحقيق مُحَّد فؤاد عبد الباقي، (د. ن)، (د.ت) كتاب التجارات، باب الأسواق ودخولها، ج٣، ص٥٧، رقم الحديث (٢٢٣٣).

مواطن الذبح، وكدور التطبيب ومقارِّ العلاج، ودار الحبس؛ حفاظًا على الصحة والأمن، وأيضاً بناء المقابر ومواضع الدفن. وتلك عشرة كاملةٌ من أهم التكوينات المعمارية الدينية في المدينة النبوية.

ولم يغفل المصطفى ﷺ التخطيط المادي الدفاعي، الذي تمثل باهتمامه ﷺ بالشُّؤون الدفاعية والإعداد للجيش والجُندية؛ فتمثل باتخاذه في أطراف المدينة للمعسكرات الحربية(١) أو كحفره للخندق في حدود المدينة الشمالية(٢)، بل إن من براعة التخطيط الدفاعي بعثه ﷺ لبعض الصحابة الكرام على السرايا في الأقاليم المجاورة للمدينة كضرورة أمنية أو لمصلحة دفاعية(٣) إلى غير ذلك مما سيأتي التفصيل فيه والبيان له في حينه.

ويكفى أن من ثمرة نتاج هذا البناء المادي أن تحولت يثرب الصغيرة إلى مدينة حضارية متكاملة وانسحب ذلك على تسميتها بأن سماها النبي ﷺ (**المدينة**)(٤).

---

(١) ومثاله معسكر الجرف ويبعد عن المدينة ثلاثة أميال في اتجاه الشمال وهو معسكر زيد بن الحارث عندما أرسل إلى الشام، السمهودي المصدر السابق، ج٤، ص ٩، ص١٢٦.

(٢) وفي هذا يقول ابن إسحاق: "كان أحد جانبي المدينة عورة، وسائر جوانبها مشككة بالبنيان والنخيل، لا يتمكن العدو منها ". ابن إسحاق، مُحَّد بن إسحاق بن يسار المطلبي المدني (ت ٢١٣هـ): السيرة النبوية، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، ط١عام ١٤٢٤هـ.

ولعل النبي ﷺ قد أشار إلى هذه الحكمة الإلهية في اختيار المدينة بقوله لأصحابه قبل الهجرة: "إني رأيت دار هجرتكم، ذات نخيل بين لابتين وهما الحرتان". البخاري: صحيح البخاري، حديث رقم (٣٩٠٦).

(٣) مثل سرية سيف البحر ناحية العيص على لواء عمه حمزة بن عبد المطلب، ﷺ، وسرية عبيدة بن الحارث إلى بطن رابغ، وسرية سعد بن أبي وقاص إلى الخرار على القرب من الجحفة وغدير خم، وغالب هذه السرايا لاعتراض قافلة قريش التجارية، وانظر الفاسي، تقي الدين مُحَّد بن أحمد (ت ٨٣٢هـ): الجواهر السنية في السيرة النبوية، تحقيق ضيف الله الزهراني، مكتبة الرشد عام ١٤٢٩هـ، ص١٨١-١٨٣.

(٤) جاء في معجم المعاني الجامع أن المدينة تعني المِصْرُ الجامِعُ، وهي تعني تجمُّعاً سكَّانيّاً يزيد على تجمُّع القرية وجمعها مُدُنٌ، مَدَائِنُ. [م د ن]. وأما لفظ "الحضارة "فهي مشتقة من الحضر وكذا لفظ "المدينة "مشتق من المدنية فلا فرق بين الحضارة والمدنية. فالحضارة أو المدنية عند العرب تعني الإقامة في الحواضر والمدن وما يتبع تلك الإقامة من أشكال التطور وأساليب العمران والتقدم؛ ولذلك كان ابن خلدون يستخدم صيغة التمدن بمعنى التحضر، بل إنه كان يرى أن المدنية هي الاجتماع ذاته فهو يقول: "الإنسان مدني بالطبع أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية والمدينة بلغتنا العربية المعاصرة اليوم هي (الحاضرة المتطورة) التي تعدت طور القرية الريفية أو النجع البدوي ولكن المعنى الأصلي لكلمة "مدينة "– على الأقل في العربية ولغة القرآن – هو أنها اشتقت من كلمة (دين) وكلمة دين قد تعني الخضوع والالتزام والانقياد أو تعني وجود قوانين وسلطة إدارية وسياسية مركزية (حكومة) يخضع لها السكان حيث تشرف هذه السلطة العليا المركزية على تطبيق هذا القانون وعلى فرض النظام، ولعل هذا هو المعنى الصحيح للمدينة؛ فمدينة النبي بمعناها الحقيقي (التجمع العمراني السكاني الذي يخضع للنبي ﷺ وسلطانه، ويدين له بالخضوع والطاعة والاتباع "، ابن خلدون، عبد الرحمن بن مُحَّد بن خلدون الحضرمي (ت٨٠٩هـ): المقدمة، طبعة دار الشعب، (د.ت)، ج٤ الفصل السابع عشر =

فكانت طَيْبة وكانت طَابة[١]، وكان هو ﷺ حاكم تلك الدولة فضلاً عن كونه نبي هذه الأمة.

ولربما كانت هذه البراعة النَّبوية في الترتيبات السياسيَّة والممارسات التنظيمية في مجموعها هي عوامل وأسس تكوين الدولة الإسلامية التي قامت على أساسٍ من السياسة الشرعية[٢].

وعلى كل حال فلقد ترسَّخت فكرة السلطة في الإسلام من خلال قيادة النبي ﷺ بوصفه نبيًا مرسلاً وقائداً عامًا على المؤمنين بنبوته ودعوته[٣]، كما وتجسَّدت كنموذجٍ أمثلٍ تام يمثلُ أولَ صورةٍ منظمة للسلطة السياسيّة في تاريخ النظم السياسية للدولة الإسلامية.

ولعل من المفيد –وقبل التفصّيل ببيان علاقة السياسة الشرعية بالتنظيمات النَّبوية في إدارة الدولة الإسلامية –التقديم بتوضيح المقصود بالسياسة الشرعية كنهها وماهيتها أولاً[٤]، وما يتبع ذلك من أمور، ومن ثَم نَخلُصُ ونُلخصّ ونستنجُ ونُبرز بُعد السياسة الشرعية وصلتها ببناء الدولة الاسلامية.



=

والثامن عشر، والعطية، مروان: معجم المعاني الجامع، مركز إيوان للنشر والتوزيع بالتعاون مع دار النوادر، مصر، الطبعة الأولى، عام ١٤٣٣هـ، (كلمة المدينة).

(١) وفي الحديث الصحيح "إن الله سمى المدينة طابة "من حديث جابر بن سمرة وفي لفظ"إن الله أمرني أن أسمي المدينة طيبة "فكان من أسمائها طابة لشرف وجود المصطفى ﷺ بها، وقد طابت من كل وجه، وانظر الألباني: صحيح الجامع، رقم الحديث (١٧٢٣).

(٢) وانظر نموذج المخطط التفصيلي لمختصر يوضح مراحل التخطيط النبوي لبناء الدولة الإسلامية في المدينة بعد الهجرة النبوية في ملاحق البحث ملحق رقم (٢).

(٣) إسماعيل فضل الله: الفكر السياسي في الإسلام، ط١، الإسكندرية، مكتبة بستان المعرفة، ٢٠٠٤م، ص ٤٦٨، ص٤٨٧.

(٤) إن لفظ (السياسة) في لغة العرب مُحمّل بكثير من الدلالات والإرشادات والمضامين، وهي بعامة إصلاح واستصلاح، وما جاء في معاجم اللغة يدل على ما ذلك.

التعريف بالسياسة الشرعية.

أولاً: الإطلاق اللغوي لمدلول السياسة الشرعية.

حقيقةً إن لفظ السياسة يتحدد بما يضاف إليه(١)، فلو أضيفت السياسة إلى النفس فكانت سياسة نفسية ولكان الغرض منها تهذيب نفوس الناس واستصلاح بواطنهم(٢)–وهذا من فعل العلماء الذين هم ورثة الأنبياء – ولو أضيفت إلى الرعيَّة مثلاً لكان معنى ذلك القيام على شؤون الرعيَّة ـ من قِبَل ولاتها ـ بما يُصلح تلك الشؤون، من الترتيبات الإدارية والنظامية والتي تفضي إلى تحقيق مصالح الرعية(٣).

وعمومًا فإن مدار حديثنا هاهنا ينصب على السياسة الشرعية(٤) مناط السلطة والحكم في الدولة الإسلامية وتحديدًا بالمدينة النّبوية.

---

(١) أورد أبو البقاء في كتابه (الكليات في معجم المصطلحات والفروق اللغوية) في القسم الثالث، وكذلك التهانوى في موسوعته أنواعًا من السياسة في غير ما تعريف الفقهاء لها، ومن ذلك: السياسة المطلقة، السياسة البدنية، والسياسة النفسية، مع التفصيل لإيضاح كل نوع منها على حده مما لا مجال لإيراده هنا، وللمزيد أنظر الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الحنفي، (ت: ١٠٩٤هـ): الكليات، تحقيق عدنان درويش، ومُحَمَّد الحصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، (د.ت) و التهانوى: مُحَمَّد على (ت ١١٥٨هـ): موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق علي دحروج، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، مكتبة لبنان، ناشرون، بيروت، حرف الألف.

(٢) ابن الأزرق، مُحَمَّد علي مُحَمَّد الأصبحي الأندلسي (ت٨٩٦هـ/١٤٩١م): بدائع السلك في نظام الملك، تحقيق علي سامي النشار، وزارة الإعلام، العراق، الطبعة الأولى، ج١، ص٢٩٣.

(٣) مادة السياسة لفظًا لا تنحصر فيما يتعلق بالدولة وأمور الحكم، وإنما هي القيام على الشيء ـ بما يحمله لفظ الشيء من العموم والشمول ـ بما يصلحه فيجلب له المنافع أو الأمور الملائمة، ويدفع عنه المضار أو الأمور المنافية، وشاهد ذلك من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ عن «العلم بالسياسة»: "علم بما يدفع المضرة عن الدنيا ويجلب منفعتها " وانظر إلى قول شيخ الإسلام في: مجموع الفتاوى لابن تيمية، ج٤، ص ٤٩٣، رسالة (السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية).

(٤) إن عبارة (السياسة الشرعية) لم تكن مقيدة أولاً بقيد (الشرعية)؛ انطلاقًا من أن السياسة هي الإصلاح، ولا إصلاح حقيقيًا إلا بالشرع، فكان إطلاق لفظ (السياسة)بدون قيد كافيًا في إفادة المطلوب من عبارة (السياسة الشرعية)، ثم مع ضعف العلم وعدم الفقه الجيد لسياسة الرسول ﷺ عند الولاة وعند من تقلد لهم القضاء؛ صارت (السياسة)تخالف الشرع، فاحتيج إلى تقييد السياسة بالشرعية؛ لإخراج تلك السياسة الظالمة من حد القبول، وتسمى السياسة الشرعية أحيانًا بالسياسة العادلة. وقد تحدث شيخ الإسلام عن هذا التغيير الحاصل في السياسة وبَيَّن سببه، فقال: "لما صارت الخلافة في ولد العباس، واحتاجوا إلى سياسة الناس وتقلد لهم القضاء من تقلده من فقهاء العراق، ولم يكن ما معهم من العلم كافيًا في السياسة العادلة؛ احتاجوا حينئذ إلى وضع ولاية المظالم، وجعلوا ولاية حرب غير ولاية شرع، وتعاظم الأمر في كثيرٍ من أمصار المسلمين حتى صار يقال: الشرع والسياسة والسبب في ذلك أن الذين انتسبوا إلى الشرع قصروا في =

ومن الواضح أن السياسة الشرعية في الأصل هي من عُموم بعض المصطلحات الفقهية والشرعية التي لم يتفق الفقهاءُ والعلماءُ على تحديدِ المقصود بها بشكل جازم وهي مؤلفة من كلمتين: صفة وموصوف، فإذا كان تعريفنا لهذا المصطلح على أساس واعتبار التركيب الوصفي[(١)] فعليه يمكن القول بأن السياسة لغةً: مصدرٌ من ساس، يسوسُ فهو سائس، أي قائمٌ على الشيء بما يصلحه.

والسياسة والسَّوسُ: الرياسة والطبيعة، والجبِلَّة، وهي تدل على فعل السائس، فيقال يسوسُ الدَّواب إذا قام عليها وراضها، وتعهدها بما يصلحها، وساسَ الأمر سياسة: عالجه وبذل همه في إصلاحه.

والوالي يسوسُ رعيته: أي يقوم بتدبير أمورهم[(٢)]، ومنه قول القائل:"**وسست الرعيّة سياسة: أي أمرتها ونهيتها**"، وسُوِّس الرجل: إذا مُلِّك أمرهم، وفي الحديث الصحيح:"**كان بنو إسرائيل يسوسهم أنبياؤهم**"[(٣)] أي يتولون أمورهم، كما كان يفعل الأمراء والولاة، ولقد علّق ابن الأثير مستشهدًا بقولهﷺ:"**تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي**"[(٤)].



=

معرفة السنة، فصارت أمور كثيرة إذا حكموا ضيعوا الحقوق، وعطلوا الحدود، حتى تسفك الدماء، وتؤخذ الأموال وتستباح المحرمات، والذين انتسبوا إلى السياسة صاروا يسوسون بنوع من الرأي من غير اعتصام بالكتاب والسنة". ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن تيمة الحراني (ت٧٢٨هـ): مجموع الفتاوى، كتاب أصول الفقه (٢)، التمذهب، تحقيق عامر الجرار، وأنور الباز، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، عام ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ج٢٠، ص٣٩٣.

(١) يمكن أيضا تعريفها باعتبارها مصطلحاً فقهياً واحداً أي باعتبارها علماً أو لقباً، وانظر: أبو ليل مُحَّد محمود، السياسة الشرعية في تصرفات الرسول ﷺ المالية والاقتصادية، أطروحة دكتوراه في الفقه وأصوله، الجامعة الأردنية، كلية الدراسات العليا، آيار ٢٠٠٥م، ص ٩وما بعدها.

(٢) ابن منظور: مُحَّد جمال الدين مكرم الأنصاري (ت ٧١١هـ): لسان العرب، القاهرة، طبعة دار المعارف، (د.ت)، ج٦، ص١٠٨.

(٣) البخاري، مُحَّد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي (ت ٢٥٦هـ)صحيح البخاري، ط٣، تحقيق مصطفى البغا، دار اليمامة، بيروت ١٤٠٧رقم الحديث: (٣٢٦٨).

(٤) ابن الأثير، المبارك بن مُحَّد الجزري أبو السعادات (ت٦٠٦هـ): النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ، ج٢، ص٤٢١.

والحديث في صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء، باب ذكر عن بني إسرائيل، رقم الحديث(٣٢٦٨).

والسُّوس: رياسة، يقال: ساسوهم سوسًا، وإذا رأسوه قيل، ساسوه وسوّسوه وأساسوه، وسوسَّه القوم: جعلوه يسُوسُهم، ويقال: سَوَّس فلان أمر بني فلان: أي كُلف سياستهم. وقيل: السَوس هو الطَبَع والخُلق والسَّجيْة[(١)].

وعلى هذا فالسياسة بالجملة تُطلق بإطلاقاتٍ كثيرة، يدور معناها حول القيام على الشيء وتدبيره والتصّرف فيه بما يصلحه. وهي تدل لغويًا على التدبير والإصلاح والتربية؛ والسياسة بهذا البيان لفظة عربية خالصة أصيلة[(٢)].

ثانياً: التعريف العام والمعنى الاصطلاحي للسياسة الشرعية.

تباين التعريف بالسياسة الشرعية في (الاصطلاح) فيما بين تعريف الأقدمين والمعاصرين فمنهم من عرّفها بأنها:"**القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح وانتظام الأحول**"كما في تعريف المقريزي لها في خططه[(٣)]، وعرفها قدامه بن جعفرٍ –في الخراج – بأنها:"**هي التي يقوّم بها الملوك والأئمة رعاياهم الذين ينقادون لهم، ويدخلون تحت طاعتهم إلى الأفعال الحميدة المرضية والطرائق السَّديدة القوية**"[(٤)].

أو كما جاء في تعريف بعض المعاصرين[(٥)] بأنها:"**اسمٌ للأحكام والتصرفات التي تُدبر بها شؤون الأمة في حكومتها، وتشريعها، وقضائها، وفي جميع سلطاتها، وعلاقتها بغيرها من الأمم؛ أي أنها كل**

(١) الزبيدي: مُحَّد بن مُحَّد بن عبد الرزاق المرتضى، (ت ١٢٠٥هـ): تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة محققين، دار الهداية، د.ت، ج٤، ص١٦٩.

(٢) وهذا الوصف لها لكونها عربية خلافاً لما ذكره المقريزي في خططه من أنها لفظة غير عربية وإنما هي معرب الكلمة (ياسة) وأصلها كلمة مغولية حرّفها أهل مصر فزادوا بأولها سيناً، وفصل في ذلك بقوله: إن (جنكيز خان) القائم بدولة التتر في بلاد المشرق قرر قواعد عقوبات أثبتها في كتاب سماه (ياسة) ولما تم وضعه كتبه نقشاً في صفائح من الفولاذ، وجعله شريعة في قومه، فالتزموه وعملوا به بعده، حتى قطع الله دابرهم "المقريزي، أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ): الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة المثنى، بغداد، ج٢، ص٢٢٠.

والحقيقة إن هذا القول غير مناسب وغير دقيق لورود لفظ (السياسة) في الحديث الشريف الذي أوردنا، وورودها في الشعر القديم، بل إن جميع كتب اللغة المعنية ببيان الكلمات المعربة لم تذكر شيئا عن تعريبها، واكتفت ببيان معانيها في العربية فقط، وهذا ما يؤكد أن الكلمة عربية صحيحة، وليست معربة. عطوة، عبد العال أحمد، المدخل إلى السياسة الشرعية، الطبعة الأولى عام ١٤١٤هـ–١٩٩٣م، الرياض جامعة الامام مُحَّد بن سعود الإسلامية، ص١٥.

(٣) المقريزي، مصدر سابق، ج٢، ص٢٢٢وما بعدها.

(٤) قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة، ج١، بغداد، دار الرشيد، ص ٤٢٧.

(٥) وهو أحمد الحصري، وجاء هذا التعريف في كتابه السياسة الاقتصادية والنظم المالية في الفقه الإسلامي.

النظم والتشريعات التي تُساس بها الأمة في الداخل والخارج، سواء في ذلك ما يتعلق بسياسة الأمة داخليًا، وما يحدد تصرف الأمة في الشؤون الخارجية لها"(١).

ونرى خلاصة ذلك أن السياسة: تعني تدبير الحكام لشؤون رعاياهم وتنظيم أمورهم قدر طاقتهم بما يحقق احتياجاتهم ويكفل سعادتهم.

على أن المقطع الثاني من الكلمة وهي لفظ كلمة (**شرعية**) – وهي الموصوف– والتي هي في دلالتها اللغوية: تعني الأمر المنسوب أو الخاضع إلى الشرع على معانيه الثلاثة(٢).

والشريعة والشِّرعة حقيقة هي: ما سَن الله من الدين وأمر به كالصوم والصلاة والزكاة وسائر أعمال البر(٣)، يقول ابن عباس –ﷺ–:"**شرعةً ومنهاجًا: أي سبيلًا وسنة**".

وعليه يكون المدلول الاصطلاحي للشرعية: كل ما وافق ما شرَّع الله لعباده من أحكام وتشريعات(٤) في الوحي المنزل على النبيّ مُحَّد ﷺ من القرآن الكريم والسُنة النّبوية المطهرة التي وجّه الرسول ﷺ لاتباعهما دون ما سواهما(٥) بقوله: – في الحديث الشريف–:"**تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا أبداً:**

(١) الحصري، أحمد: السياسة الاقتصادية والنظم المالية في الفقه الإسلامي، ط١، دار الكتاب العربي، ص١٢.

(٢) تشتق كلمة شريعة في المعنى الأول من الشارع: وهو الطريق المستقيم من المذاهب، أو من الورود والتناول أي تناول الماء أو ورد الماء، ومنه قول الحق تعالى: "ولما ورد ماء مدين" سورة القصص آية (٢٣)، وقد تشتق في المعنى الثاني من الدخول فيقال عن الدواب: شرعت الدواب في الماء أي (تشرع شرعًا وشروعًا أي دخلت والاسم منها (مشرعة) أي مواضع انحدار الماء، وتشتق الشريعة في المعنى الثالث من البيان والإظهار، يقال شرع كذا أي جعله طريقا ومذهبا، ابن منظور: لسان العرب، مصدر سابق، ج٨، ص ١٧٦.

(٣) ابن منظور، مصدر سابق، مادة(شرع) ص ٢٢٣٩.

(٤) والمقصود بما وافق الشرع أي موافقه الأحكام الجزئية واتفاقها مع روح الشريعة ومبادئها الكلية غير متناقضة لنص من نصوصها التفصيلية التي يراد بها التشريع العام، وإن لم ينطق بها الشرع ودل عليه على التعين. وانظر تاج، عبد الرحمن حسين علي : السياسة الشرعية والفقه الإسلامي، مجلة الأزهر، طبعة عام ١٤١٥هـ، ص١٤.

(٥) إلا فيما لا نص فيه فيعمل فيه اجتهاداً إما إجماعاً أو قياساً، وهذا من رحمة المولى ﷻ فضلاً عن سعة أفق الشريعة الإسلامية ومسايرتها لمتغيرات الزمان والمكان. والمعروف قطعاً أن مصادر التشريع الإسلامي هي القران الكريم والسنة المطهرة والإجماع والقياس إلا أنه من المعلوم على التحقيق أنه يمكن إطلاق لفظ "التشريع "عليه بالمعنى المجازي من قبل أنه مستنبط من الشريعة القائمة استمدادا من نصوصها، أو استيحاء من دلالتها وروحها، أو تطبيقا لقواعدها وانظر: الحسن، خليفة بابكر وسراج، عبد الهادي مُحَّد : تاريخ التشريع الإسلامي ومصادره، مطبوعات جامعة الإمارات، مكتبة المجلس الوطني الاتحادي، عام ١٩٩٧م، ص١٧.

كتاب الله وسنة نبيه"[(١)] .وقريب منه:" **تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهم ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتي**"[(٢)].

وقد بلَّغ المصطفى ﷺ عن هذا صراحة في حديث خطبة حجة الوداع بقوله:"**إني تاركٌ فيكم ما لن تضلوا إن اعتصمتم به كتاب الله، وفي لفظ وسنة نبيه ﷺ**[(٣)]".

وعلى هذا يكون مُجمل الإطلاق اللغوي لمعنى سياسة شرعية:

أنها مفهوم وممارسة تربط بين تدبير أمور الأمة والقيام عليها بما يصلحها، وبين تطبيق أحكام الشرع وما جاء فيها مع مراعاة مطلق المصلحة فيما لا نص شرعياً عليه.

يقابله المعنى الاصطلاحي العام، وهو باختصار ما لخصه ابن خلدون بقوله:"**هي ما يكون بتدبير مصالح العباد بمقتضى النصوص الشرعية، وبما دلت عليه أو أرشدت إليه أو استنبطه العقل البشري مما يحقق مقاصد الشريعة**"[(٤)].

أي بمعنى تدبير الشؤون العامة للدولة الإسلامية، والقيام عليها بما يكفل تحقيق مصالح الرعية، ودفع المضار عنهم مما لا يتعدى حدود أحكام الشريعة وأصولها العامة الكلية.

السياسة الشرعية والفقه الإسلامي.

إن إمعان النظر في مصطلح (السياسة الشرعية) على أساس اعتبار العلم واللقب[(٥)]، أي من خلال التعريف الفقهي لها، يعني على الإجمال: تدبير شؤون الدولة الإسلامية التي لم يرد بحكمها نص صريح، أو

---

(١) الحاكم أبو عبد الله مُحَّد المعروف بابن البيع (ت٤٠٥هـ): المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت، (د.ت) ج١، ص١٧١، والحديث عن طريق عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً.

(٢) أخرجه ابن حزم في كتابه الأحكام، ج٢، ص٢٥١، والحديث عن أبي هريرة ﷺ، صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم(٣٢٣٢).

(٣) الحاكم: المستدرك، المصدر السابق، ص٣١٨ والحديث عن طريق ثور الديلي عن ابن عباس وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٩٣٧).

(٤) ابن خلدون: المقدمة، مصدر سابق، ص ١٧٠.

(٥) سبق البيان بالقول: إن السياسة الشرعية تصنف على أساس التعريف إلى قسمين علمي شرعي على اعتبار التركيب الوصفي، وآخر فقهي على اعتبار العلمية واللقب وانظر ص (٢٧).

التي من شأنها أن تتبدل وتتغير، بما فيه مصلحه الأمة[١] تبعًا لتغير الظروف وتبدل الأحوال والأزمان والأمكنة والمصالح[٢].

والملاحظ أن الفرق بين التعريف العلمي والفقهي هو ما حصره جمهور الفقهاء بـ {مراعاة المصلحة فيما لا نص فيه}، فعلة النص على هذا الأساس هي الفارق بينهما.

ومن خلال ذلك ندرك أن السياسة الشرعية هي أحدُ مباحث الفقه الإسلامي، وهي جزءٌ منه، وإنْ فُصلت عنه بعلمٍ مستقل كعلم المواريث، والفرائض، أو علم القضاء، أو كعلم التوثيقات الشرعية، أو الأحكام السلطانية، وغيرها من مباحث علوم الفقه.

وهذا لا يخرج عن نطاق مدلول السياسة الشرعية العلمي فرعاية المصلحة هو المعتبر في كلٍ سواء فيما ورد به نص شرعي صريح أم لم يرد[٣]. على أن رابط الاتفاق بينهما[٤] هو تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية العامة وقواعدها الكلية المحكمة[٥].

فضلاً عن أن أحكام السياسة الشرعية كلها داخله تحت نطاق كلمة (فقه) ولاسيما وأن السياسة الشرعية تدخل كذلك في جميع أعمال السلطات، وهي في هذا تماثل الفقه العام على التمام[٦].

وكذلك يدخل بمعنى السياسة الشرعية العام -والذي سبق فيه البيان -كل ما يطلق عليه اسم الفقه بل إن موضوعات السياسة الشرعية من الوقائع المتعلقة بالنظم الإسلامية قضاءً وسياسةً واقتصاداً إلى أعمال

(١) وانظر عطوة: المدخل إلى السياسة الشرعية، مرجع سابق، ص٥٦.

(٢) معلومٌ أن الشرائع الكلية عند فقهاء الإسلام هي التي لا تتغير بتغير الأزمنة، بينما السياسات الجزئية التابعة للمصالح فتتقيد بها زمانًا ومكانًا.

(٣) وكان سبيله الرأي والاجتهاد المنضبط الصحيح الذي تكون غايته تحقيق المصالح ودرء المفاسد.

(٤) أي السياسة الشرعية والفقه الإسلامي.

(٥) أي التي لا تقبل التغير ولا التبديل، ولا تختلف المصلحة فيها باختلاف الأحوال والأزمان أو اختلاف الأمم والعصور. وقد علمنا فيما عرفه الفقهاء والأصوليون من أن الفقه في أساسه إنما يعني: العلم بالأحكام الشرعية العملية المستنبطة من الأدلة التفصيلية مما ورد في الكتاب، وصح في السنة ، أو الإجماع ، والقياس على النظائر ، أو باجتهاد الرأي المنضبط الصحيح.

(٦) خاصة في الأحكام التي من شأنها ألا تبقى على وجه واحد، بل تختلف باختلاف العصور والأحوال، وما يترتب عليها من نتائج وآثار، كذلك بالأحكام التي ليس لها دليلٌ خاص من مصادر التشريع الأربعة فتعتبر بلا شك من الفقه العام، وانظر تاج: السياسة الشرعية والفقه الإسلامي، مرجع سابق، ص ٣٥.

الإصلاح الاجتماعية وقيادة الأمة وتدبير شؤونها الداخلية والخارجية فكلها عناصر تدخل في مضمون موضوعات الفقه أو هي موضوعات مشتركة بين السياسة الشرعية والفقه الإسلامي(١).

ومن هنا يتبين أن السياسة الشرعية والفقه مترادفان على معنىً واحد، وأنهما صنوان من أصلٍ واحد.

وما ظهور لفظ علم السياسة الشرعية كعلمٍ مستقل في محيط فقهاء الإسلام المعاصرين –في غالب ظننا –إلا لغاية أمر توظيفٍ اصطلاحي روعي فيه بين لفظ السياسة الشرعية وبين الأحكام السلطانية المتعلقة بها. أو تبعًا لتمايز اتجاه بعض أحكام السياسة الشرعية بطابعٍ خاص عن الأحكام الفقهية التي ضمت في بعض أحكامها مصطلحات خاصة بالفقهاء والأصوليين كالمصالح المرسلة، والعرف، أو الاستحسان، وغيرها(٢).

أو لعله إرادة التسهيل والتخصيص فعلم الفقه بابٌ عريضٌ من العلوم والفنون التي ما إن قُسّمت وبوّبت سَهُل تناولها بل وفَهمها – ولاريب –فالفقه في معناه الأساس **الفَهم**(٣)

وعلى كل حال فما يهمنا من عرض تعريف السياسة الشرعية من الناحية الفقهية إلا لأجل التعريف بصلهِ ذلك العلم بالفقه الإسلامي، فضلاً عن أهمية الفقه بالسياسة الشرعية.

والفهم مع الفقه بالسياسة الشرعية أمرٌ مهمٌ إذا ما وظف تبعاً لجوانبها وأركانها؛ فما كان منها من معيارٍ كليٍ تأصيلي فمرده إلى الشرع الأصيل والاجتهاد بالرأي الصائب الحكيم، وما كان منها من جانب عمليٍ تطبيقي، مما يمثل الإجراءات والأعمال وتصرفات الإصلاح، فهو يتطلب القدرة على القيادة الحكيمة التي تتمكن من تحقيق الصلاح للناس عن طريق إتقان التدبير مع العلم والفقه بالدين، وكذا الحنكة والخبرة وحسن التأتي لما يراد فعله أو تركه، وهذا مطلبٌ مهمٌ لقيادة الرعية؛ ولذا أدرك هذ الفَهم عن أهميّة

---

(١) لخص تاج في كتابه السياسة الشرعية والفقه الإسلامي الفرق بين موضوعات الفقه وموضوعات السياسة، فرأى أن موضوع السياسة الشرعية: هو أعمال المكلفين وشؤونهم من حيث تدبيرها والتصرف فيها بما يتفق مع روح الشريعة، ويحقق أغراضها مما لا يكون له دليل خاص يدل عليه، وكان – مع ذلك –غير مخالف لنص من النصوص التي تثبت حكما معتبراً من الشريعة العامة الدائمة. وأما موضوع الفقه فلا يختلف عن ذلك تماماً فهو أيضاً أعمال المكلفين يُبحث فيها لتثبيت أحكام جزئية تستقى من الأدلة التفصيلية، تاج: السياسة الشرعية والفقه الإسلامي، مرجع سابق، ص ٢٥.

(٢) من مثل الإباحة الأصلية والاستصحاب وسد الذرائع.

(٣) جاء في اللسان (الفقه): العلم بالشيء والفهم له، وغلب على علم الدين لسيادته وشرفه وفضله على سائر العلم، ومنه قوله تعالى: "ليتفقهوا في الدين "ابن منظور، ج١٣، ص٥٢٢.

الفقه بالسياسة الشرعية - العلامة الجليل ابن قيّم الجوزية - إذ قال:"**وهذا موضع مزلة أقدام، ومضلة أفهام، وهو مقامٌ ضنك، ومعتركٌ صعب، فرط فيه طائفة فعطلوا الحدود، وضيعوا الحقوق، وجرّؤوا أهل الفجور على الفساد، وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد محتاجة إلى غيرها، وسدوا على نفوسهم طرقًا صحيحة من طرق معرفة الحق والتنفيذ له وعطلوها... وأفرطت فيه طائفة أخرى قابلت هذه الطائفة، فسوغت من ذلك ما ينافي حكم الله ورسوله، وكلتا الطائفتين أتيت من تقصيرها في معرفة ما بعث الله به رسوله وأنزل به كتابه**"(١) وهي في قسميها(٢)-أي السياسة - ما يؤكد حقيقة ذلك ولعل ذلك ما أقره ابن خلدون وقصده بقوله:"**فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت سياسة عقلية، وإن كانت مفروضة من الله بشارعٍ يقررها ويشرعها كانت سياسة دينية**"(٣).

وعليه فإن السياسة الشرعية باب من أبواب العلم والفقه في الدين، وتحقيق مصالح المسلمين الدينية والدنيوية بل قد تفوق عليه في قيادتها للأمة.

وخلاصة القول: إن أهمية الفقه في السياسة الشرعية يسوقنا إلى ضرورة تطبيقها في النظام السياسي علمًا وممارسة ودراية، فقهًا واقتداءً واقتفاءً بسيد البشر مُحَمَّد ﷺ ففي نهجه ﷺ تبيانٌ لطبيعة السلطة في الإسلام من حيث كونها سلطة دينيةً عقلية لا تقرر فصلاً بين دينٍ ودنيا ولا بين دينٍ ودولة. فأحكام (الرسالة) وهدي (الدين) هو مما يدخل بلا شك في نطاق (السياسة) فنطاقها أكبر وميدانها أوسع؛ فهي لا تقف عند معالم وأعيان أحكام الرسالة وأصول الدين، بل هي تخضع في عمومها للتطور والتغيير.

وعلى ذلك يكون بين(الرسالة) و(السياسة)علاقات وفروق وبين الدين والدولة عمومٌ وخصوص فكل (الرسالة) سياسة وليست كل (السياسة دينًا ورسالة)(٤).

ومن هنا ندرك أن الإسلام قد فَتح - بخَتمِ طور النُّبوة- للإنسانية باب المرحلة التي بلغت فيها تطوراً حاسمًا ونوعياً في طبيعة السلطة السياسية للدولة الإسلامية وفي طبيعة العلاقة بين الرسالة والسياسة، بل

---

(١) ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن أبي بكر الدمشقي الحنبلي (ت٧٥١هـ): الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، دار ابن حزم، بيروت -لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، ص ١٦.

(٢) تقسم السياسة الشرعية حسب مصدرها إلى سياسة دينية وأخرى عقلية.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، الباب الثالث: في الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية.

(٤) عمارة، مُحَمَّد: الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية، دار الشروق، ط١، عام ٢٠٠٧م، ص١٩٧.

وبين الدين والدولة[١]، ولربما كانت هذه الخصيصة الحيوية السمة والميزة لهذا الدين الحنيف عن سائر ما قبله من الأديان؛ فطبيعة الحكم في الإسلام طبيعة تخالف طبيعة الحكم التي عرفت في التاريخ القديم، وفي الحضارات السابقة عن الإسلام؛ ولذا يقول المصطفى ﷺ في الحديث الشريف -مما هو شاهد تلك السنة الإلهية -:«**إن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي**»[٢].

وحريٌ بنا هاهنا أن نُسّطر بُعجالة مدى علاقة السياسة الشرعية بالنظام السياسي الإسلامي ونستنتج حدودها، وأن نشير إلى ماهيّة طبيعة صلة السياسة الشرعية ببناء الدولة الإسلامية وما مدى تطبيقاتها؟ ومن ثَم نَخلص لدراسةٍ تطبيقية لأبرز الدلالات والممارسات النبوية تمهيداً لقيام الدولة، وتنظيماً لإدارتها.

السياسة الشرعية والنظام السياسي.

إنَّ دينَ الإسلام دينُ نظامٍ ومنهاجُ حياة، وهو نظامٌ متكاملٌ شاملٌ لسائر الجوانب الحياتية ومتوافقاً مع جميع حاجات الفرد الروحية ورغباته المادية. فدور الإسلام في حياة الناس ليس وقفًا على الهداية، وإنّما يتجاوزها ليعكس آثارها واضحةً جليّة في حياتهم في شتى مناحيها وعلاقتها الدينية والدنيوية[٣].

وكذلك فإن النظام السياسي وممارسة التنظيم الإداري في دولة الإسلام منهجٌ تطبيقيٌ عملي، وميدانٌ واقعيٌ حيوي، وهو جزءٌ من السياسة الشرعية، بل هو أحدُ مفرداتِ دين الإسلام، وقد تظاهرت النصوص الشرعية في بيان ذلك.

وعموماً يمكن القول: إن الدولة ليست وحياً قرآنيًا، ولا ركنًا دينيًا قائماً على شروط الإيمان الستة أو أركان الإسلام الخمسة، وإنما هي ضرورة شرعية دينية ومصلحةٌ وخيريةٌ عامةٌ للبلاد وللعباد، ولها تعلقٌ وارتباط بفرائض الدين وواجباته، ويبدو لأجل ذلك أنْ كان للسياسة الشرعية ارتباطٌ وطيدٌ بالنظام السياسي في الإسلام.

ومعلومٌ أن النظامَ السياسيَّ كان موجودًا قبل الإسلام، ولكن الدين الإسلامي القويم نظمّه ورتبَّه ووضع له قواعد وأصولاً **كفلت** حق الراعي والرعية، **وصانت** للمرء حقوقه المالية، **وضمنت** قضاءَ حقوقه الإنسانية **ونظمت** علاقاته الاجتماعية بل **ولبّت** كل احتياجاته وسائر متطلباته المادية والمعنوية.

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٦.

(٢) تقدم تخريجه، ص٢٨.

(٣) وللمزيد عن النظام السياسي في الإسلام انظر سعيد، صبحي عبده: السلطة في المجتمع الإسلامي، ط ١، القاهرة: وكالة الأهرام للتوزيع بالداخل و الخارج، عام ١٩٩١م، ص ٧٤.

وعليه نرى بأن النظام السياسي هو: **جمله المبادئ والقوانين والأحكام التشريعية المُنظمّة لشؤون الدولة في سياستها الداخلية، وتمتد فتتسع لتشمل علاقاتها الخارجية.**

وهو كمدلول ومفهوم يعني: القواعد المستمدة من الكتاب والسُنَّة لضبط أعمال الناس وعلاقتهم المتنوعة، أي علاقة الحاكم بالمحكوم، وعلاقة الدولة الإسلامية بغيرها من الدول، أو بمعنىً آخر: رعاية شؤون الأمة داخلياً وخارجياً[(١)].

وهذا ما طبقة المصطفى ﷺ في أرض الواقع، وما حوته سيرته العملية وحنكته السياسية من ترتيبات وتنظيمات وتخطيطٍ سياسي وفكرٍ وإبداعٍ إداري في إقامة دولته. فقد أعطانا النموذج الأمثلَ والأكمل في **إدارة** التنظيم السياسي وفي **إقرار** مبدأ الشورى، وفي **بيان** معنى الاجتهاد لرعاية مصلحة البلاد والعباد.

ولعلنا نوافق رأي –بلقزيز – هنا على التنبه إلى أن فكرة الدولة في الإسلام لم تنشأ في المدينة بعد أن وجد الرسول ﷺ القوة والمنَعة الداخلية والخارجية لها، بل هي فكرة لازمت الدّعوة الدينية منذ البداية. وقد عِمل الرسول ﷺ على تحقيقها بتخطيطٍ وتنظيمٍ وقيادة إلى أن تمت بعد هجرته إلى المدينة، التي كانت المكان المناسب لتقيم نواة الدولة الإسلامية وتمتد منها إلى مختلف البقاع فيما بعد. فقد أصبحت دولة المدينة النبوية المرجعية الأولى في رسم قواعد الدولة في الإسلام بعد النّبوة والخبرة التاريخية وضرورة الاستفادة منها تقضي بأنّ تستند عملية بناء دولة للمسلمين في حقبة ما بعد النبوة إلى السابقة المدينية بوصفها الواقعة التاريخية المتاحة للبناء عليها[(٢)].

وتأكيدًا لذلك نقول: إنّ هذا بحد ذاته لَيثبت بحق قوة النظام السياسي فضلاً عن مرونته وصلاحيته للتطبيق في كل زمان ومكان، كما يثبت قوة شخص القيادة وقوة أهدافها الواضحة مع براعة التخطيط والصياغة المبنية على الفهم الدقيق ودراسة الواقع وبُعد النظر لاستقراء وقائع الحاضر مضافاً إليه قوة المنهج (التشريع) الذي صاغ عليه المصطفى ﷺ سياسته بادئ ذي بدء، ولن تغيب عن الأذهان والأفهام بنود الالتزامات والعهود المبرمة بين طرفي بيعتي العقبة التي رسخّت عهدًا وميثاقاً غليظاً لبناء دولة الإسلام الجديدة قائماً على وحدانية الله تعالى، ونصرة دينه ورسوله، مع توظيفه ﷺ والمؤمنين معه المعطيات والظروف والامكانيات المتاحة آنذاك قدر الاستطاعة إقامةً لدولة الإسلام على سياسةٍ ربانية المنهج مستقيمةٍ صحيحة المسلك.

(١) طعيمة، صابر: الدولة والسلطة في الاسلام، ط١، القاهرة، مكتبة مدبولي، عام ٢٠٠٥م، ص٢١٤.

(٢) بلقزيز: عبد الإله: تكوين المجال السياسي الإسلامي، النبوة والسياسة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، طبعة عام ٢٠٠٥م، ص ١٣٧–١٣٨. سبق التوضيح لمعنى مدينة وحضارة ومدنية بهامش رقم (١) صفحة (٢٥).

ولربما ساقنا هذا المبحث إلى التفكير بالكيفية التطبيقية للسياسة الشرعية التي مارسها النبي ﷺ لإقامة الدولة، وما هي ثمراتها وآثارها في بناء دولة الإسلام؟

الممارسات النبوية التنظيمية لبناء الدولة الإسلامية.

إن ثَمّةَ طرحاً مهماً يتبادرُ إلى الأذهان قبل الخوض في صلة السياسة بالبناء وهوما يتعلق بالممارسات النَّبوية، فهلْ مارس المصطفى المختار ﷺ ما يُسمى عُرفًا اليوم بمصطلح (سياسة)[(١)]؟

أم كان رسولاً فقط مبلغاً عن ربِّه تعالى[(٢)]؟

---

(١) هناك من أنكر أن يكون مُحَّد ﷺ سياسيًا ومؤسساً لدولة سياسية ويقولون: "إن مُحَّداً ﷺ، ما كان إلا رسولاً لدعوة دينية خالصة للدين لا تشوبها نزعه ملك ولا حكومة، وأنه ﷺ، لم يقم بتأسيس مملكة، بالمعنى الذي يفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها، فما كان إلا رسولاً كإخوانه الخالين من الرسل، وما كان ملكًا ولا مؤسس دولة ولا داعياً إلى ملك"، علي عبد الرزاق: الإسلام وأصول الحكم، دار الكتاب اللبناني، طبعة بيروت، عام ١٩٧٢م، ص١٥٤. ونوافق من علل بأنهم يستندون في ذلك إلى خطاب النص القرآني في وصف النبي ﷺ بالرسول والنبي دون صفة القيادة والرئاسة. ويقولون: "إن القرآن الكريم لم يجعل النبي العربي مُحَّد بن عبد الله ﷺ، ملكا أو رئيس دولة، وظل ينعته بالنبي الرسول، وليس من حقنا بأي حال من الأحوال أن نلتزم بغير ما جاء به القرآن الكريم، ونستبدله بغيره فلم يكن نبي الإسلام في أي وقت من الأوقات ملكاً أو رئيس دولة، وإنما ظل دائماً النبي الرسول ﷺ ". وانظر خلف الله مُحَّد أحمد: النص والاجتهاد والحكم في الإسلام، مجلة العربي، عدد ٣٠٧رمضان ١٤٠٤هـ، ص٤٣.

(٢) هناك من اعتبر دولة الرسول ﷺ وحكومته لتلك الدولة (ديناً خالصًا) و(وحيا إلهيًا) لا دخل فيهما للطابع (المدني السياسيّ) ولا أثر فيهما لاجتهاد الرسول ﷺ كبشر وإنما ما كان من إنجازه كجانب سياسي ليس للرسول فيه سوى البلاغ عن الله والتنفيذ لوحيه؛ مثله فيه كمثل بلاغه لشعائر الصلاة والصيام وممارسته لها وفق القواعد التي حددها وحي السماء، فالإسلام لديهم رسالة دينية خالصة ليس فيها سياسة، وانظر مُحَّد عمارة، الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية، مرجع سابق، ص٢٠١.

ونقول بل هو رسولٌ مبلغٌ عن ربه ومؤسس ليس لدولة فحسب بل لأمةٍ، وأمةٍ كانت خير أمة وهي أمة عقيدة وتوحيد، ولعل هذه السمة هي خاصة بنبي الإسلام ﷺ وإن كان الله قد أعطى لسليمان، عليه السلام، من الملك ما لم يُؤت أحد من العالمين استجابة له عليه السلام ﴿ربي هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد بعدي﴾ سورة ص آية(٣٥) فسخر المولى تعالى له الجن والشياطين والإنس والطير والريح وأوتي من كل شيء، وكان ﷺ رسولاً نبياً ولم يكن ملكاً تواضعاً منه ﷺ ونزولاً على قول جبريل، عليه السلام، تواضع لربك، ويؤيد ذلك ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ: "إن عفريتاً من الجن تفلت البارحة ليقطع عليّ صلاتي فأمكنني الله منه فأخذته فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخي سليمان رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي فرددته خاسئاً عفريتاً متمرداً من إنس... "الخ، والحديث في صحيح البخاري كتاب: أحاديث الأنبياء، باب قول الله ووهبنا لداود سليمان، برقم (٣٢٤١) وأيضًا –كما قال الصعيدي–: "لتكون رسالته ﷺ خالصة للدين الخاتم فتتفق الكلمة بعده ولا يتخاصم فيه أتباعه؛ لأن الملك يثير الطمع في الناس ويحدث التنازع بينهم، وهو إرث يتناقله الخلف عن السلف، ويستأثر به قوم دون قوم، وبالنبوة دون الملك =

ولسنا هنا بصدد الحديث عما عُرض حيال تلك المسألة من الأفكار والآراء وبالتالي مناقشتها تفصيلاً وتحليلاً، ويكفى فيه أن نقول: إن الخطاب القرآني في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[1] لأمرٌ إلهي واضحٌ وصريح لنبي الأمة في تبليغ الرسالة ونشر الدعوة، كذلك فإن استقراء أحداث السيرة النَّبوية وشواهد التاريخ الأصيلة لَتُؤكدُ بوضوح على ممارسة النَّبي للتنظيم السياسي والترتيب الإداري منذ العهد المكي، أي منذ البعثة ومنذ ما قبل هجرته ﷺ إلى دار الهجرة. فنظرةٌ فاحصةٌ في دقائق أحداث الفترة المكية لَتُنبئ ببعض الدلالاتِ السياسيَّة في مرحلتي الدعوة السرية والدعوة الجهرية بكل ما سطرته من وقائع وأحداث مما يمثل جانب الفكر والإبداع النَّبوي الرشيد في التعزيز للدعوة والتمهيد لتأسيس وإقامة الدولة، فضلاً عن تلك الممارسات في أثناء الهجرة، بل وحتى فيما بعد الهجرة في مرحلة العهد المدني كما سنناقشه في المبحث ما قبل الأخير من هذا الفصل.

ولعل من المفيد هنا إيراد بعض الأمثلة لتلك الدلالات مشيرين بها إلى الموقف والحدث التاريخي، وإلى الاستراتيجية السياسية والمنهجية النبوية في ذلك، مع تحديد الوسائل والأهداف والنتائج، والتدليل بالشواهد النصيَّة تأصيلاً للحدث واستنتاجاً للدروس والعبر، وفي ذلك ما يثبت بجلاء مسؤولية التكليف بالدعوة، وكذا مسؤولية سوس إدارتها تنظيماً وتدبيراً لما يقوي بناء أركانها على دعائم ثابتةٍ راسخة، وفيه ما يثبت أولاً وآخراً أن مُحَّمداً ﷺ سياسيٌ إداري، وقبل ذلك هو رسولٌ مرسلٌ من ربه ونبي.

الحدث	الهدف	الدلالات السياسية	السبب	الوسيلة	النتيجة
المرحلة السرية	وضعَ النَّبيُ ﷺ منذ بداية الدعوة أسُسًا وأركانًا مهدت لقيام دولة الإسلام بالمدينة وكان البدءُ	١/كان من بديع التخطيط النَّبوي أنْ أفْضَى وسارَّ بدعوتهِ ﷺ إلى أهلهِ وإلى الثقةِ	بالاستخفاء وسرية الدعوة ما فيه من حنكةٍ سياسيةٍ نبوية وحكمةٍ إلهيةٍ ربانية وفيه من	١/ سرية الدعوة. ٢/ تحديد مركز	كان من تَوافيقِ الرحمن في تلك المرحلة من الدَّعوة ما يُلاحظُ من آثارها إذ تمكنت من السير إلى القلوب

=

ما يمكن لأن يكون أمر الإسلام للناس جميعاً، ولا يقع التنازع بينهم، في الحكم والملك ولا يطلبونه لمظاهره ومغانمه بل ليكونوا خدام الأمة ورعاة مصالحها العامة والخاصة "الصعيدي، عبد المتعال: السياسة والإسلام في عهد النبوة، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية (د.ت) ص١٩٥.

(١)سورة المائدة أية (٦٧).

الحدث	الهدف	الدلالات السياسية	السبب	الوسيلة	النتيجة
	بمكة وكان الإبداع بتقسيم الدعوة. وكان الهدف الأول والأساس الذي كان يصبو إليه ﷺ بادئ الأمر التخطيط لنشر الإسلام وإدارة الدعوة في مكة تمهيدًا لما بعده.	من المقربين منه[1]. ٢/ اختيار مركز لانطلاق الدعوة والجيل في التخطيط أنها دار الأرقم بن الارقم المخزومي[2].	الآثار الإيجابية ما فيه إذ إن الموقف موقف تأسيسٍ وتربية وإعداد فأراد به المصطفى ﷺ أهل الثقة من المقربين والأهلين حتى يُمّكن للدعوة الحماية المادية	انطلاقتها	والعقول لأعدادٍ **مميزةٍ من فتيان** قريش كعليٍ بن أبي طالبٍ والأرقم المخزومي، ومصعبَ بن عمير وغيرهم **وذوي بيوتاتها** كالصَّديق، والفاروق، وأسد اللهِ ورسوله سيّدَ الشهداءِ حمزة وغيرهم. مضافاً

(١) وهم زوجته ﷺ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، وصاحبه الصديق أبوبكرٍ رضي الله عنه وثالثهما ابنُ عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبالثلاثة هؤلاء كان أول بادئ أمر الإسلام ثم اتسع نطاق الدعوة ليشمل مولاه زيد بن الحارثة وذا النورين عثمان بن عفان ومن إليهم من السابقين الأولين في الإسلام.

(٢) وكنيته أبو عبد الله واسم أبيه عبد مناف من السابقين الأولين إلى الإسلام قيل سابع من أسلم وقيل العاشر، آخى ﷺ بينه وبين زيد بن سهل، شهد الغزوات كلها لقب بصاحب دار الدعوة وهو من بني أسد بن مخزوم توفي بالمدينة أيام معاوية وصلى عليه سعد بن أبي وقاص بوصيته، الذهبي، مُحَّد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨ هـ): سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة طبعة عام ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ج٢، ص٤٧٩. وعموماً فإن نظره عابره في ترجمةِ سيرةِ الأرقم بنِ الأرقمِ المخزومي في صفحاتِ أعلام السيرة لتؤَكدَ لَنا براعة الفكرِ السياسي النبوي في اختيار تلك الدار؛ ذلكم أن الأرقم ابتداءً لم يكن معروفاً بإسلامه فلا يخطرُ ببال القرشيين أن يتم لقاء، مُحَّد ﷺ، بأصحابه في داره، وكذلك فإن الأرقم من بني مخزوم، وبنو مخزومَ همُ الذين يحملون لواء التنافسِ مع بني هاشم، واللقاءَ في بيتٍ من بيوتهم يعني أن ذلك الاجتماع الخطير يتم في قلب صفوف العدو. هذا إذا ما عرفنا أن الأرقم كان عند إسلامه ما زال شاباًّ صغيرا لا يجاوز السابعةَ عشرةَ منْ عُمره، ويوم تُفكر قريشَ بالبحثِ عن محمدٍ ﷺ وأصحابه فلن تبحث عنه في بيوتِ الشبابِ الصَّغار، بل تتجه إلى بيوت كبار الصحابة أو في بيت رسول الله، ﷺ، نفسه، أضف إلى ذلك أن دار الأرقم كانت في مكانها تعدّ آمنة إلى حدٍ بعيد، إذ كانت قريبة من الصفا؛ أي أنها مقابل دار الندوة. وهذا بلا ريب يُبعد الشك عنها؛ إذ لا يمكنهم أن يفكروا بأن محمدًا يجلس بأصحابه في دار قريبة منهم؛ ولهذا فلم نسمع أبداً أن قريشاً داهمت هذا المكان وكشفت مكان اللقاء، انظر الكرمي، حافظ أحمد عجاج: الإدارة في عصر الرسول ﷺ دراسة تاريخية للنظم الإدارية في الدولة الإسلامية، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط٢، القاهرة ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص ٦٠. و أحمد، إبراهيم علي مُحَّد: في السيرة النبوية، قراءة لجوانب الحذر والحماية، سلسلة كتاب الأمة عدد ٥٤، السنة الحادية عشرة، رجب ١٤١٧ هـ، ص٣٧.

الحدث	الهدف	الدلالات السياسية	السبب	الوسيلة	النتيجة
			والمعنوية ما إن تقف به على قدمٍ راسخة حتى لا تموت في مَهدها قبل أن تُؤتي أُكُلها.		إليهم **الوافدون عليها** من غير أهلها كأبي ذرٍ الغفاري وغيرهم.

وتطالعنا كتب السيرة على بعضٍ من الدلالات السياسية النبوية؛ فبعد الجهر بالدعوة كانت حادثة الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة، فأمر ﷺ أصحابه بالهجرة إليها بقوله:"**لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإنّ بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه**"[(١)].

نعم إذ لما أشتد أذى مشركي مكة على المسلمين وضاق بهم ذرعاً كانت الهجرة إلى الحبشة هي الحل الأمثل في مثل ما وقعوا فيه من ضَيم وهوان حتى قال بعضهم لرسول الله ﷺ:إنّا كنّا في عزٍ ونحن مشركون، فلما آمنّا صرنا أذلة، فقال: «**إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا**»[(٢)]. بيد أن من سياسة الهجرة أنها لم تكن هجرة اختيارية

(١) ابن هشام، أبو مُحَمَّد عبد الملك ابن هشام الحميري (ت ٧٦١هـ): السيرة النبوية، مؤسسه علوم القران، دار القبلة للثقافة والإسلامية (د.ت)، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مجلد ١، ص٣٢٢.

(٢) النسائي، أحمد بن شعيب (ت ٣٠٣هـ): المجتبى من السنن السنن الصغرى للنسائي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢ عام ١٤٠٦ هـ والحديث في السنن الصغرى، كتاب الجهاد، باب وجوب الجهاد من حديث عبد الله بن عباس، رقم الحديث (٣٠٨٦) وبداية نص الحديث " عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ، وَأَصْحَابًا لَهُ أَتَوْا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا كُنَّا فِي عِزٍّ وَنَحْنُ مُشْرِكُونَ، فَلَمَّا آمَنَّا صِرْنَا أَذِلَّةً، فَقَالَ: «إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ، فَلَا تُقَاتِلُوا» فَلَمَّا حَوَّلَنَا اللَّهُ إِلَى الْمَدِينَةِ، أَمَرَنَا بِالْقِتَالِ، فَكَفُّوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ٧٧]وقريب منه ما روي عن خَبّاب بن الأرت – رضي الله عنه – قال: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو لَنَا، فَقَال ﷺ: "قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ "البخاري: صحيح البخاري، مصدر سابق، ج ٥، ص ٥٦، ٥٧.

أرادها المسلمون، وإنّما كانت خطة سياسية أراد منها الرسول ﷺ أن يحفظ جماعته من الاضطهاد والهوان أو من الفناء، حتى إذا وجد أنّ سبب الهجرة قد زال استدعاهم فعادوا.

والجميل في الهجرة أنها كانت دليلاً قاطعاً على دقة تخطيط النَّبي ﷺ وإدارته لدعوته بنجاح، ففيها من التدابير السياسية أولاً: ما أَقَضّ مضاجع مشركي مكة وهز كيانهم، فلقد أحدثت تلكم الهجرة وذلك الحدث الغريب عن مجتمع مكة هزة عنيفة في أوساط بيوتات أكابرهم وهم يرون أبناءهم الكرام من قريش[١] يهاجرون بعقيدتهم من مكة إلى أرض الحبشة.

وفيها من براعة التخطيط أنْ كتب ﷺ للنجاشي بكتاب أراد فيه كسب تأييده المعنوي لأولئك النفر المهاجرين مما حكته نصوص السيرة:"**وقد بعثت إليك ابن عمي جعفراً ونفراً معه من المسلمين جاؤوك فأقرّهم**"[٢].

وفيها من التخطيط السياسي جانبٌ إعلاميٌ مهمٌ ومقصود، فلقد جعلت حادثة الهجرة هذه القبائل في مكة وخارجها تحاول جاهدةً التعرفَ على ماهيّةِ هذا الدين الجديد الذي دفع بأتباعه إلى الهجرة خارج مقّارهم وأرض ديارهم؛ مما أخرج الدعوة من إطارها المحلي الضيق إلى مجال وإطار أوسع وأرحب يشمل مكة والجزيرة العربية كلها بل وخارجها.

وكذلك فإن من سياسة الهجرة ما أحدثته من الاضطراب في الصف المكي والحرب النفسية التي لحقت سادات مكة وكبرائها وأضرت بسيادة قريش وسمعة زعمائها وما نالهم من الملامة وتهددهم من الخطر، ما أن تسارعوا لأجله من إرسال وفدٍ مُحمّلٌ بالهدايا إلى النجاشي لرد الصابئين –على حد قولهم –إلى ديارهم، ولكن حجة المسلمين كانت أقوى من حجة الوفد القرشي، فلم تفلح سفارة قريش في ردهم، وتحققت فراسة النبي ﷺ:"**إن فيها ملكاً لا يُظلم عنده أحد**"[٣].

---

(١) أمثال عثمان بن عفان وزوجه رقية، رضي الله عنهما، وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن مظعون، وأبي سلمة بن عبد الأسد، وزوجه أم سلمة بنت أبي أمية، والزبير بن العوام، وغيرهم من خيرة الصحابة وأكرمهم في قريش نسباً وفضلاً، وانظر سيرة ابن هشام السيرة النبوية، مصدر سابق، مج١، ص٣٦٠، ٣٩٥.

(٢) الطبري، مُحَّد بن جرير أبو جعفر المعروف بالطبري (ت ٣١٠هـ): تاريخ الأمم والملوك المعروف ب(تاريخ الطبري)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ، ج٢، ص ٣٣٠.

(٣) وفيه معرفته ﷺ بأحوال زمانه فمعرفته لا تقتصر على المجتمع الذي يعيش فيه فحسب في نطاق مكة وما حولها أو أرض الجزيرة العربية فقط، وإنما تمتد هذه المعرفة لتحيط بأحوال الدول والممالك خارجها ومن ذلك توجيهه المسلمين للهجرة إلى الحبشة، ولعل من الأسباب في ذلك أن فيها ملكاً عادلاً لا يظلم عنده أحد، وأنه عبد صالح وقد أثنى عليه بقوله: =

وتقف بنا أحداث السيرة على بعض المعاني والدلالات السياسية من سيرة خير البرية؛ ففي أحداث ما بعد الهجرة الثانية إلى أرض الحبشة وفي حادثة معارضة مشركي مكة ومنازلتهم أبا طالبٍ في أمر ابن أخيه ﷺ إذ مازالت المفاوضاتُ قائمةً ما بين زعماءِ قريش في مقابلِ أبي طالب والنبي ﷺ فثَمة ملمحٍ سياسي نستشَّفُه من قوله ﷺ لقريش:" **كلمة واحدة تعطونيها، تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم**"[١].

إنّ ما ورد على لسان الرسول ﷺ في قوله"**تملكون بها العرب، وتدين لكم العجم**"، يشير ويدلل على أنّ التفكير السياسي كان حاضراً في ذهن المصطفى ﷺ إلى جانب الدعوة إلى الدين الجديد، وهذا يعطي دلالة على أهمية التكوين السياسي للدولة والتمكين لها بتوسعها، وقد كان هذا قبل الهجرة إلى المدينة بسبع سنين[٢].

ويجدرُ أن ننبه إلى أن تلك النشاطات والممارسات السياسية كانت قبل الهجرة وهذا ما يشير إلى حسن وبراعة التخطيط النَّبوي في التخطيط لما قبل إقامة دولته ﷺ وأنَّ كل ما تقدم في مرحلة العهد المكي ما هو إلا من قُبيل الإرهاصات والمقدمات لمواصلة الإجراءات السياسية لتأسيس ذلك الكيان السياسي الإسلامي المتفرد والجديد.

=

"وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشي، لا يظلم أحد بأرضه"، ولحمايته للمسلمين، وتأثره بالقرآن الكريم عندما سمعه من جعفر، رضي الله عنه، كما كان معتقده في عيسى، عليه السلام، صحيحًا، ويبدو أنه لم يكن خارج الجزيرة بلد أكثر أمنًا من بلاد الحبشة، فضلاً عن بُعد الحبشة عن سطوة قريش من جانب وهي لا تدين لقريش بالاتباع كغيرها من القبائل، فهي أرض صدق، ولعل من أسباب معرفته بأحوال الحبشة ومحبته لها حاضنته الحبشية أم أيمن، رضي الله عنها، وكذلك التزام الأحباش بالنصرانية، وهي أقرب إلى الإسلام من الوثنية. وانظر حوى، سعيد: الرسول، دار عمار، بيروت، طبعة عام ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص ١٦٩.

(١) والقصة بتمامها كما أخبر ابن كثير في البداية والنهاية فيما رواه عن ابن إسحاق قال: "مشى أشراف قريش إلى عم الرسول ﷺ أبي طالب، فقالوا: وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعه فخذ له منا، وخذ لنا منه؛ ليكف عنا ونكف عنه، وليدعنا وديننا وندعه ودينه، فبعث إليه أبوطالب، فجاءه، فقال: يا بن أخي، هؤلاء أشراف قومك، قد اجتمعوا لك ليعطوك، وليأخذوا منك، قال الرسول ﷺ: نعم، كلمة تعطونيها، تملكون بها العرب وتدين لكم العجم "، ابن كثير، إسماعيل عماد الدين أبو الفداء الدمشقي (ت ٧٧٤هـ): البداية والنهاية، تحقيق أحمد أبو مسلم وآخرين، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط١، ١٤٥٠هـ، ج٣ فصل في وفاة أبي طالب عم رسول الله ﷺ.

(٢) الكيلاني، عبدالله: القيود الواردة على الدولة في الإسلام، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، ص ١١٩-١٢٠.

وعلى كلٍ فلقد أنقذت الهجرة النبوية -إلى يثرب- الدعوة الإسلامية. وانتقلت بها من مرحلة الضعف إلى مرحلة القوة ومن مرحلة تبليغ الدعوة المستمرة إلى مرحلة بناء الدولة، وكانت بداية تكوين خطة جديدة تلائم الأرض الجديدة، السيادة فيها للإسلام. وبوصول الرسول ﷺ إلى المدينة بدأت مرحلة جديدة للعمل السياسي النبوي هناك، ويمكن القول أنّ الرسول ﷺ قد مارس السياسة الإدارية، بالإضافة إلى كونه رسولاً مبلغًا، وأنّه ﷺ استطاع بصفته الحاكم والقائد والقاضي أن يؤسس المجتمع السياسي الأول، حيث أوضحت سياسته بعد الهجرة وفي مرحلة العهد المدني مرتكزات المجتمع السياسي ومعالم دولة المدينة.

ومنذ أن بدأت مرحلة إرساء قواعد الدولة وبناء مجتمع الأمة المسلمة كرَّس لها الرسول ﷺ من التوجيه والبعد السياسي والإداري المستمر، ما أهّلها للنضج، وبالتالي أفرزت ميادين للعمل السياسي والإداري المنظم[(١)].

والحقيقة إن كل تلك الدلالات، وغيرها الكثير. مما لم يرد ذكره، لتمثل صورة النظام السياسي الإسلامي الأول والأمثل الذي قاده الرسول ﷺ.

وبالجملة فإنَّ تعدد هذه الظواهر والممارسات التي سلكها النبي ﷺ لتدلل بحق على أنّ الرسول ﷺ قد مارس السياسة من أوسع أبوابها، وذلك بإنشائه لدولةٍ ذات أركانٍ ومقومات كانت نواةً لدولة الإسلام على مدى قرون، وقد اكتملت الدولة بأركانها، وكانت تامة المعالم قياسًا على العصر والواقع الذي قامت به، ونهضت لضبط شؤونه وتلبية احتياجات رعاياه محققًا فيها العدل والإنسانية والمساواة[(٢)].

وجديرٌ بنا بعد هذ البيان أن نستوضح صلة السياسة الشرعية ببناء الدولة الإسلامية فإذا كانت للنبي ﷺ ممارسات للأنشطة السياسية ﷺ منذ البعثة وقبل الهجرة فكيف به وقد تراءت بين عينيه وناظريه معالم دولته التي أمره الله بالهجرة إليها.

---

(١) صبح، مُحَّد علي محمود: إدارة الدولة في الإسلام، جامعة النجاح الوطنية، كلية الدراسات العليا، فلسطين، نابلس طبعة عام ٢٠١١م، ص٧٥.

(٢) كانت من سياسته ﷺ فن التعامل مع جميع فئات المجتمع بما يناسبهم، وكان ﷺ قد انتهج نهجًا حكيمًا للغاية في التعامل مع الأفراد والقبائل المختلفة بكافة. من داخل المدينة وخارجها، من القبائل البعيدة والقريبة في أطرافها، ومع اليهود بخاصة على ما سيأتي تفصيله في الفصل الثاني من هذه الدراسة، بحول الله تعالى.

السياسة الشرعية وصلتها ببناء دولة الإسلام.

الواقع أننا لو أمعنا النظر في المعنى الدقيق للسياسة الشرعية، استناداً إلى تعريفات القدامى وإيضاحات المعاصرين، لتقرر لنا بأن للسياسة جانباً عملياً وواقعاً تطبيقياً يسهم في بناء قوة الدولة فهي ذاتُ مجالٍ رحبٍ فسيح فيما لو استخدمت بمعناها اللغوي على إطلاقه؛ فهي ليست مقصورة على شيء، أو محصورة بشيء، أو محجوزة عن شيء؛ إذ هي القيام على الشيء - بما يحمله لفظ الشيء من العموم والشمول - بما يصلحه.

ولربما هي قد شملت بهذا المعنى وتلك الحدود جميع مناحي الحياة الإنسانية ابتداءً وانتهاءً؛ فهي بذلك ليست منصبة على الجانب العقدي فحسب، بل هي عقيدةٌ ونظام، وفكرٌ وإدارةٌ ودولة.

ولو تمعنا في خلاصة معناها الاصطلاحي على ما ساقه المعاصرون من كونها إدارة شؤون الأمة بتشريعٍ إلهي سماوي تساس به في جميع سلطاتها وشؤنها الداخلية والخارجية، لأوجزنا من خلال ذلك صلة السياسة الشرعية ببناء الدولة الإسلامية، ولرأينا أن تلك السياسة والتدبير، وتلك الإدارة والتنظيم تعم سائر الدولة في جميع مجالات شؤونها الداخلية سياسةً وديناً، وثقافة واجتماعاً واقتصاداً، إلى غير ذاك بما يحقق مصالح الرعية، فضلاً عن علاقاتها الخارجية.

ولقد صاغ نبي الأنام، عليه السلام، دولة الإسلام على أسسٍ تشريعية في الحكم، والاقتصاد، وفي الاجتماع، والتعليم، والعلاقات، سواء ما كان من تلك العلاقات صلات خاصة بين الأفراد والمجتمع بعضهم مع بعض. أو ما كان من علاقات عامة بين رأس الدولة وأفراد الرعية أو حتى مع غيرها من الأمم والدول والشعوب في حالة السلم أوفي حال الحرب.

إن المتأمل في السنة النبوية- التي مثلت في بعض صفحاتها ديوان سياسة الدولة الإسلامية على عهد البعثة النبوية -يجدها قد تضمنت في بعض جوانبها سنناً تشريعية معروفة هي من (الثوابت الدينية)، إضافة إلى سننٍ غير تشريعية مثلت إنجازات الرسول الخاتم ﷺ في سياسة دولته[1].

---

(١) وانظر في ذلك للماوردي، أبو الحسن علي حبيب (ت ٤٥٠هـ): الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ط٣، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، عام ١٣٩٣هـ.

ولو استعرضنا واستقصينا دقائق منهجية المصطفى ﷺ وممارساته التنظيمية لإقامة الدولة وإدارتها لساقنا ذلك إلى تتبع البناء النبوي بنوعيه الداخلي والخارجي، والمادي والمعنوي، وإلى الكيفية التي طبقها واتبعها المصطفى ﷺ إما تمهيداً لتأسيس وقيام تلك الدولة، أو تثبيتاً وإرساءً لقواعدها وأركانها بعد ذاك.

وعلى كلٍ فقد شملت تلك المنهجية النبوية والسياسة الإدارية كل ما يتعلق بميادين الدولة و مجالاتها، مما جاء مثبتاً بنصوص آيات القرآن، أو مما كان من سنته ﷺ القولية و الفعلية، وما كان من إقراره لما يخص السياسة و الدولة على اختلاف مجالاتها وميادينها بكافة، وما يدخل في ذلك من المأثورات والسنن والآثار النبوية التي **تحدَّثت** عما يتعلق بمسائل العلاقات بين الناس كالقضاء والحكم في الخصومات، أو **وضَّحت** ما يخص مسائل البيع والشراء كالتعاملات الاقتصادية، أو **فصَّلت** ما يتعلق بالتصرفات المالية وتبعاتها، أو **تناولت** ما يتعلق بتنظيم الجيوش وتجهيزها، أو عقد المعاهدات وملاحظتها، ومتابعة إدارة الدولة وسياستها إلى غير ذلك.

والواقع أن المصطفى ﷺ قد عني بالبناء الداخلي لدولة الإسلام على نوعيه المادي والمعنوي على أسسٍ شرعية قبل البناء الخارجي فكانت عنايته آنذاك بركن الدولة الأعظم **وهو الفرد** المكوّن للمجتمع والذي هو أصله وأساسه، وكانت البداية بالفرد من حيث بناؤه العقدي والوجداني، وتربيته الأخلاقية وتزكية عقله وروحه؛ حتى يكون على هديٍ ربانيٍ في ذاته وسلوكه، مطبقاً فرائض الله وحدوده، مؤدياً واجبات مولاه وحقوقه، مراقباً إياه في دقائق أموره، ومستشعرًا جزاءه وعِظم عقابه.

ولنا في ذلك الانقياد لله والطاعة لرسوله خير شاهد، فمن هم حملة الإسلام الأُول في مجتمع مكة؟ ومن هم مبايعو رسول الله عند العقبة؟ والأهم على ماذا بايعوه ﷺ؟

والحقَ إن شواهد التاريخ ووقائع السيرة ودلالات النصوص التي رصدت حيال هذا الموقف مما حكاه القرآن بقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾[(١)] أو ما في ذلك الحوار النبوي مع المبايعين من رهط يثرب الخزرجي"**أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون نساءكم وأبناءكم، فقال قائلهم: نمنعك مما نمنع منه أزرنا(نساءنا)، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب، وأهل**

(١) سورة الممتحنة آية (١٢).

الحلقة (السلاح) ورثناها كابراً عن كابر"[١]. فهذه البيعة بحق تؤكد قوة بناء الفرد المسلم الداخلي حتى تجلى ذلك بنتائج وثمرات كان على رأسها تأسيس دولة الإسلام.

وخلاصة الأمر أن من ثمرات البناء الداخلي للفرد المسلم ونتاجه أن أقرّ بالنفس يقيناً تاماً الولاء والطاعة لله ولرسوله ولولاة الأمر.

-وأن عَزّز وقوىّ لدى المسلم حب الوطن والمواطنة الصالحة.

- كما ولّد فيه حب المشاركة الفاعلة والسعي لما فيه خير الوطن وصالح المجتمع والجماعة؛ طلباً لثواب الله ومرضاته. ومن أمثلة ذلك مشاركة الصحابة الكرام رسول الله ﷺ في بناء مسجده، يقول البخاري في الصحيح:"**وكان رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبِن، والحجارة في بنيانه، وهو يقول ﷺ هذا الحمال لا حمال خيبرْ هذا أبر ربنا وأطهرْ**[٢]

ويقول أيضاً ﷺ: **اللهم لا خير إلا خير الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة**

فلما رأى الصحابة، رضي الله عنهم، الرسول يعمل معهم قال قائلهم:

لئن قعدنا والنبي يعملُ لَذاك منا العمل المضللُ

اللهم لا خير إلا خير فانصر الأنصار والمهاجرة

فكان يجيبهم الرسول ﷺ

اللهم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة[٣]

-وكذلك أثمر هذا البناء المرابطة في سبيل الله؛ حماية وحفظاً للدين، ورعاية للوطن وممتلكاته، امتثالاً لقول الحق ﷻ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٤]،

(١) السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد (ت٥٨١هـ): الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ج٤، ص٧٢.

(٢) والمعنى المقصود كما قال الحافظ في الفتح: أي هذا المحمول من اللبن (أبر) عند الله، أي أبقى ذخراً وأكثر ثواباً، وأدوم منفعة، وأشد طهارة من حمال خيبر، أي التي يحمل منها التمر والزبيب ونحو ذلك، وانظر: ابن حجر، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي المعروف بالعسقلاني (ت ٨٥٢): فتح الباري شرح صحيح البخاري، تصحيح محب الدين الخطيب، تحقيق مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت طبعة عام ١٣٧٩هـ، ج٧، ص٦٥٨.

(٣) البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، حديث رقم (٣٩٠٦)، وباب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة حديث رقم (٣٩٣٢).

(٤) سورة آل عمران آية (٢٠٠).

واستشعاراً للأجر والمثوبة؛ ففي الحديث الصحيح"**رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خيرٌ من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خيرٌ من الدنيا وما عليها**"(١).

نماذج تطبيقية للسياسة الشرعية في المدينة النبوية.

من الجميل هنا أن نورد على سبيل التمثيل جملةً لنماذج تطبيقيةٍ للسياسة الشرعية من لدنه ﷺ لبناء دولة الإسلام الأولى، فنقول: كان بادئ الأمر بناء الفرد كما تقدم، ثم تتسع حدود دائرة السياسة الشرعية في بناء الدولة الإسلامية لتشمل بناء أوسع وأعمق **وهو بناء الأسرة المسلمة**، فنرى تشريعاتها تضم مبادئ وأحكاماً وقواعد تنظيمية لبناء المجتمع الأصغر في أصغر صورة، ابتداء من اختيار الزوجة، وانتهاءً بالإحسان بتربية الولد، ومرورًا بالبر وعدم العقوق للوالدين ومراعاة الحقوق المتبادلة بين الزوجين إلى غيرها من أمور، وقد أفضت هذه السياسة بلا ريب إلى إرساء قواعد التراحم الأسري والتعامل الإنساني بكافة أشكاله وصوره، وامتد ذلك ليشمل التكافل الاجتماعي فيما بعد تطبيقاً لقوله ﷺ"**ليس من أمتي من لم يجِلّ كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه**"(٢).

وتتسع السياسية الشرعية أكثر فأكثر لتضم **العلاقات والمعاملات فيما بين أفراد المجتمع** بعضهم مع بعض؛ إذ آخى ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وحدد الحقوق والواجبات بين الأفراد والجماعات، وجعل الرعاية – وهي جوهر السياسة – مسؤوليةً عامة، يتحمل كل فردٍ في الأمة نصيبه منها بحسب موقعه وجَهده، فألزم وقال ﷺ:"**كلكُم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيته، الإمام راعٍ ومسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعيةٌ في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيده ومسؤول عن رعيته، وكلكم راعٍ ومسؤول عن رعيته**"(٣).

---

(١) البخاري: صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم الحديث (٢٧٣٥).

(٢) ابن حنبل، أحمد بن محمد الشيباني (ت٢٤١هـ) : مسند أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة، عام ٢٠١٧م، رقم الحديث (٢٢٦٥٤) والحديث عن عبادة بن الصامت، قال الهيثمي: "رواه أحمد والطبراني وإسناده حسن " الهيثمي، نور الدين أبو بكر(ت ٨٠٧هـ): مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، مكتبة المقدسي، القاهرة عام ١٣٥٣هـ، ج٨، ص١٤.

(٣) رواه البخاري في الصحيح، رقم الحديث: (٢٤١٦).

وكذلك اهتم، عليه الصلاة والسلام، بما يدخل من تنظيم أمور القضاء وفض الخلاف و الخصومات بين الناس في أمور التجارة والاقتصاد ومتعلقات البيع والشراء بل والتعاملات الاجتماعية كافة على أسسٍ تشريعية؛ ففي مسألة العقود جاء التشريع الإلهي بالأمر ب: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾[١] وفي باب الأمانات وديوان القضاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾[٢].

وفي مستوى سائر التعاملات:"**لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى هاهنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه**"[٣].

وصورةٌ أخرى لتطبيقات السياسة الشرعية أنه لم يكن ليغفل ﷺ الجوانب الاقتصادية في بنيان الدولة التي أقامها، فكانت أول صورة لتطبيق السياسة الشرعية هي إنشاء السوق الإسلامية بالمدينة؛ حتى لا يقع المسلمون تحت السيطرة الاقتصادية لأعدائهم، وحتى يكون للمسلمين تميزهم الاقتصادي الذي يرتبط بالقيم الإيمانية والأخلاقية في الإنتاج والاستهلاك والتداول والتوزيع والاستثمار وفي كل نواحي ومجالات الاقتصاد، بخلاف الاقتصاد اليهودي القائم على الربا والغش والاحتكار، وظلم الفقراء والضعفاء. ثم ما كان من تصرفاتهﷺ وتوجيهاته في السوق من حيث الرقابة والحسبة ومسألة منع مخالفات البيع والشراء، أو في كل ما يتعلق بإقامة الأنشطة الاقتصادية في الدولة، وكذا مسائل حقوق التملك وحرية العمل والكسب وغيرها، إضافة إلى الأمور المتعلقة بالعقود والالتزامات المالية وتعاملاتها، وما يختص بجباية الأموال وموارد الدولة ومصارفها، إلى غير ذلك مما حواه الشرع تأصيلاً وتفصيلاً في القرآن الكريم وسنة النبي المصطفى الأمينﷺ[٤].

وفي صورة أرقى وأكمل تكتمل رابطة العقد لتضم العلاقات السياسية السلطانية فنرى أن السياسة الشرعية تحدد العلاقات المتبادلة بين الحاكم والمحكومين، فتبين حقوق الحاكم وواجباته، وتوضح حقوق

---

(١) سورة المائدة آية (١).

(٢) سورة النساء آية (٥٨).

(٣) مسلم: صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله حديث رقم الحديث (٢٥٦٤).

(٤) والنصوص التشريعية الواردة في ذلك كثيرة متعددة، وللمزيد عن تفصيلات ذلك انظر الباب الأول الفصل، الأول، المبحث الثاني، المطلب الأول والثاني من هذه الدراسة (حرية الفرد الاقتصادية – تنظيم التعاملات والعلاقات الاقتصادية والتجارية بقسميها).

الرعية وواجباتها في المقابل. ففي الحين الذي يوجب الشرع الحكيم ويفرض مسؤولية الحاكم على الرعية"الإمام راع ومسؤول عن رعيته"يأمرهم بلزوم السمع والطاعة"اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبدٌ حبشيٌ كأن رأسه زبيبة"[١] مالم تكن في معصية الخالق "السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة"[٢] وقد ساس المصطفى المختار ﷺ حكومة دولة الإسلام بأمر الله ﷻ، وبمقتضى شرعه فكانت خيرَ حكومة لخيرِ رعيل، وخير أمة.

ولكون شريعة الإسلام شريعة خَاتمة خَالدة فقد شملت حدودها وتعاليمها جميع التشريعات والنظم فضمت، إضافة إلى الأنظمة السياسية والاجتماعية والقضائية والاقتصادية، ما يسمى نظام **الجيش والعسكرية** وما يدخل في ذلك من ترتيبات إدارية كتجهيز القيادات وتجنيد الجنود وتعبئة الجيش، وخوض المعارك والحروب، ووضع القواعد والخطط للهجوم أو للدفاع والأمن على **أسس شرعية**، وشاهد ذلك من نصوص الشرع قوله ﷺ في الحديث الذي رواه سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ:"**كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ:"اغْزُوا بِسْمِ اللَّهِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغْزُوا وَلا تَغْدُرُوا وَلا تَغْلُوا وَلا تُمَثِّلُوا وَلا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا أَنْتَ لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى أَحَدِ ثَلاثِ خِصَالٍ أو خِلالٍ، فَأَيَّتَهُنَّ أَجَابُوا إِلَيْهَا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ إِلَيْهِنَّ**....الخ"[٣].

ولأن أول آية في كتاب الله (**اقرأ**) فقد عني النبي الأكرم ﷺ **بالتعليم وأمر بالتعلّم** قراءة وكتابة، والمسألة وإن كانت حاجةٌ اجتماعية فلا شك أنها ضرورة شرعيةٌ قبلها؛ لكتابة الوحي وتوثيق أمانات الدين والعقود أو مكاتبة الأمراء والملوك، وقد تواترت نصوص الشارع الدالة على ذلك ثناءً، وأمرًا، وتأكيداً، وجزاءً على التتابع؛ ففي قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٤] ثناء على أهل العلم، وفي قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[٥] أمر بالتعلم، وتأكيداً كانت الآية بعدها ﴿ٱقْرَأْ

---

(١) البخاري: الصحيح، مصدر سابق، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، حديث رقم (٦٧٢٣).

(٢) نفسه رقم الحديث (٦٧٢٥) ج٦، ص ٢٦١٢.

(٣) الترمذي، مُحَمَّد بن عيسى بن سورة (ت ٢٩٧هـ): الجامع الصحيح سنن الترمذي، دار احياء التراث العربي، مراجعة أحمد مُحَمَّد شاكر وآخرون، بيروت، (د.ت)، رقم الحديث (١٦١٧).

(٤) سورة الزمر آية (٩).

(٥) سورة العلق آية (١).

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[١] وفي قول المصطفى ﷺ:**"إن الله وملائكته وأهل السموات والأرضين، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في الماء ليصلون على معلم الناس الخير"**[٢] توضيحاً لفضيلة ومثوبة أهل العلم.

مع التنبُّه لتوجيه النبي ﷺ ذلك التعليم نحو صياغة شرعية ووجهة إسلامية تفقهاً وتعلماً لله وابتغاء رضوان الخالق: ففي الوقت الذي أمر النبي ﷺ زيد بن ثابت تعلم العبرية لمصلحة دينية وضرورة عسكرية نجده يعاتب الفاروق عمر ﷺ حينما أصاب كتاباً من أهل الكتاب ففي الحديث:**"أن عمر أتى النبي بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه فغضب النبي ﷺ فقال: أمتهوكنّ فيها يا بن الخطاب! والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لوكان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي"**[٣] ونراه يرغّب ويمنح في التعليم فنجده يجعل طوق النجاة لعتق أسارى بدر تعليم عشرة من الأنصار الكتابة.

ومن منهج السياسة الشرعية في بناء الدولة الإسلامية على مستوى أعم وأشمل كان للإسلام في ضوء تشريعاته الربانية النظر **إلى ترتيب علاقة الدولة الإسلامية بعلاقاتها الخارجية**؛ فنجد صور تشريعاته وأحكامه تمتد إلى الوقائع المتعلقة بعلاقة الدولة الإسلامية بغيرها من الأمم أو الدول في حالتي الحرب والسلم. فنرى ذلك جلياً في التنزيل القرآني، وفي ممارسته ﷺ لذلك على أرض الواقع بإبرام المعاهدات، وإرسال الوفود والسفارات، ومكاتبة الملوك والأمراء، إلى غير هذا وذاك مما سيفصل بيانه تباعاً في ثنايا أسطر فصول البحث[٤].

والخلاصة العامة أن الرسول ﷺ قد طبق السياسة الشرعية بين أفراد رعيته ومارسها في إقامة دولته، وجسدها في تطبيقات إدارته فنجده ﷺ قد أنصف المظلوم، ونصر الضعيف، وحرر العقل، وأقام العدل،

---

(١) سورة العلق الآيات (٣، ٤، ٥).

(٢) الترمذي: الجامع الصحيح، المصدر السابق، ج٥، ص٥٠، رقم الحديث (٢٦٨٥) والحديث عن أبي أمامة الباهلي، وصححه الألباني، وانظر الألباني، محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري (ت١٤٢٠هـ): صحيح الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي ط عام ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، حديث رقم (١٨٣٨).

(٣) أحمد بن حنبل: المسند، مصدر سابق، ج ٣، ص ٣٨٧، والحديث عن جابر بن عبد الله وحسنه الألباني في الإرواء ج ٦، ص ٣٤، رقم الحديث (١٥٨٩).

(٤) وانظر الباب الثاني الفصل الأول دولة الرسول ﷺ وجوانب تنظيم العلاقات الخارجية.

وقام بتدبير شؤون الرعية بما يحقق مصالحهم في جميع شؤون حياتهم الاقتصادية و الاجتماعية والسياسية، وأيضا الثقافية والقضائية وكذلك العسكرية، داخلياً وخارجياً معنوياً وحسياً.

والمتأمل في تلك المجالات آنفة الذكر يدرك عظمة التشريع الإسلامي وقوة الفكر الإداري في رسم معالم الدولة الإسلامية وتدبير شؤونها سواء ما كان منها من سياسة وإدارة داخلية، أو تنظيم علاقات خارجية إذا ما أضفنا إليها التنظيمات والممارسات المادية التي لتنبئ بحق عن تلك الخاصية الحيوية للسياسة الشرعية وما فيها من منهج رباني مرن وميزة حضارية حيوية للأمة المحمدية، وقد أثمرت تلك السياسات بما يعطي صورة كاملة متكاملة عما صنعته رسالة الإسلام العامة الشاملة في الحياة الإنسانية من تحريرها البشرية من ويلات الجاهلية وتخبطاتها في وحل التخلف الفكري والتفكك الاجتماعي، فضلاً عما في تلك السياسة الشرعية من توجيه الطاقات والمهارات نحو النفع والخيرية؛ لأجل حضارةٍ أوفاها وأبعدّها أثرًا في نهضة الأمة وتقدمها ورقيها في حاضرها ومستقبلها في كل مجال ومكان، وفي كل آن وزمان.

بين السياسة الشرعية وقانون الدساتير الوضعية.

لعل آخرَ ما نختمُ به الفصل التَّمْهيدي هو النظرةُ في المفارقاتِ بين السياسة الشرعيةِ، وقانونَ الدُّستورَ الوضعي[١]. وفيه نقف على معنى السياسة الوضعية، وأبرز جوانبها الوضيعة، وآثارها السلبية على الأمم والشعوب.

وكما مر معنا سابقاً فإن السياسة الشرعيةَ تقومُ على قواعدِ الشرعِ وأحكامه وتوجيهاته، وهي بذلك تخالف السياسة الوضعيةِ التي هي في حقيقتها القانون الدستوري العام بمدلوله الواسع الذي يعني: **مجموعة قواعد ومبادئ وأنظمة يضعها أهل الرأي**[٢] **في أمةٍ من الأمم؛ لتنظيمِ شؤون حياتهم الاجتماعيةِ والاقتصاديةِ تنظيمًا آمرًا، مُلْزمًا؛ استجابةً لمتطلباتِ الحياة وسدًّا لحاجاتها**[٣]، وعمادهم فيها العرفُ والعادةُ والتجارب والأوضاعُ الموروثةُ.

---

(١) الدستور كلمة فارسية الأصل دخلت اللغة التركية ثم شاعت في اللغة العربية وأصبحت لها عدة معان تطورت مع الزمن، غير أن لفظ دستور يطلق اليوم في أكثر الدول العربية بمعنى القانون النظامي أو القانون الأساسي. عطية الله، أحمد: القاموس السياسي، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الثالثة (د.ت)، ص٥٢١.

(٢) ابن الأزرق، محمد بن علي الأصبحي (ت ٨٩٦هـ): بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق علي سامي النشار، وزارة الإعلام، العراق، الطبعة الأولى، (د.ت)، ج١، ص ٢٩١.

(٣) العجلان، عبد الله بن عبد العزيز: مدخل الفقه الإسلامي دراسة مقارنة، دار طيبة، عام ١٤١٢هـ، ص ١٩ وص٢٠.

والسياسة الوضعية أقسام ومسميات؛ أهمها ما أشار إليه ابن خلدون في المقدمة وهي: السياسة الطبيعية أو الملك الطبيعي، والسياسة العقلية أو المدنية، أو ما سماه بالملك السياسي(١).

كما قسمها المعاصرون إلى أقسام متعددة وأطلقوا عليها اطلاقاتٍ عديدة ومنها: الدكتاتورية(٢) والديمقراطية، الماركسية، والاستبدادية... إلى آخره(٣).

وإذا ما دققنا النظر في دراسةٍ سريعةٍ للبناءِ السياسي بين النظام الإسلامي والنظامِ الديموقراطيّ لَتَقَرر لنا بما لا شك فيه، وبما رأينا في أيِّما موضعٍ من هذه الدراسة، أنَّ دين الإسلام هو نظامٌ سياسي متكاملٌ قادرٌ على قيادةِ الأمةِ وتنظيم سلطاتها، بما يحقق للإنسانية مصالحها في الدين والدنيا معاً، وبما يُوجب علينا التمسكَ بهِ ودراسته ووعيه، وكذلك إحياءه وتطبيقه اقتفاءً واقتداء وتَمثُلاً بنبيِّ الهدى ﷺ.

وعلى كلٍ فالفروقات بين السياسةِ الشرعيةِ والسياساتِ الوضعية، فروق جليّة، واختلافاتٍ جوهرية، تنطلقُ من طبيعة النظم والقوانين التي تساسُ بها الشعوب في كل منها، بدءاً من المصادر والأصول، وانتهاءً بالمسائل ودقائق الفروع(٤)، وهذا موضوعٌ يحتاج إلى مزيد تفصيلٍ وإيضاح، ويكفي فيه الإلماحُ إلى أهمِ الخطوطِ العريضة والفوارق الرئيسة لتوضيح المطلوب، وتأكيد المقصود.

(١) قسم ابن خلدون في مؤلفه(المقدمة) الحكومات إلى أنواع ثلاثة (الملك الطبيعي، والملك السياسي، والخلافة) فأما الملك الطبيعي عنده فيعني: حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة، وأما الملك السياسي فهو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار عن المحكومين، وكلا القسمين يتبعان طبع الحكّام من حيث شهواتهم وأغراضهم، دون مراعاة لشرعٍ مستقيم أو عقل سليم، وأما الخلافة أو الإمامة: فهي حكومة تهدف إلى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها. انظر ابن خلدون: المقدمة، مصدر سابق، الطبعة الأزهرية ١٩٣٠م، الفصل الخامس والعشرون، تقسيم الحكومات من حيث أهداف السلطة، ص١٩١.

(٢) وهي: نهج سياسي يقوم على حكم الفرد أو القلة للشعب وسياستِه في كل صغيرة وكبيرة، قهراً دون إرادة، ولا تخضع الحكومة فيه لنظام شرعي ولا لقانون وضعي معين، ولا توجد فيه قيود على سلطات الحاكم وتصرفاته، فهو الذي يصدر القوانين والأوامر واللوائح، ويغيّرها ويبدّلها، وفق ما يري ويهوى بل ويغير الدّستور ويبدِّله، سواء كان الحكم عسكرياً أو مدنياً، ابن خلدون المقدمة، مصدر سابق، ص ١٩١.

(٣) ومن المؤكد حتماً أن جميع أحكام هذه السياسات، مستبِدَّة قاهرة، مائلة عن الحق غالباً؛ يُحمل فيها النَّاس على ما ليس في طوقهم من الأغراض والشهوات، ومن ثم تعسر الطاعة؛ فيفضي ذلك إلى الخلل والفساد دفعة، وتنقضي الدولة سريعاً؛ بما ينشأ من الهرج والقتل؛ نتيجة تعسُّرِ الطاعة وانتشار الظلم، ابن خلدون: المقدمة، ص ١٩٢.

(٤) وانظر العتيبي، سعد مطر: الموازنة بين السياسة الشرعية والسياسات الوضعية في الأصول والنماذج، مقال في موقع الدكتور سعد العتيبي شبكة الألوكة تاريخ الإضافة ٩/ ٨/١٤٣١هـ، رابط الموقع www.alaukah.net

والحقُ أنَّ ثَمَة فارقاً كبيراً بين نظامٍ إسلامي بديع، وتشريعٍ شمولي فريد، لم يُفْصل بحال عن عقيدة الإسلام، بل وبه ومنه كانت نشأةُ دولةِ الإسلام، وامتدت لُتْنشئ حضارةً عالميةً مُثلى، سادت ورادت في شتى البقاع، وبين تشريعاتٍ واهية براقة خادعة قامتْ على شَفَا جُرف هار، وتخبطتْ في دياجير الظلام.

على أن أولى هذه الفوارق تكمن في مصدر السياسة الشرعية، فمصدرُها مصدرٌ إلهي، من كتاب الله وهديه النَّبوي، وهذ المصدر هو حقٌ ديني وواجبٌ شرعي إلزامي.

في حين أن السياسات الوضعية مصدرها فكرٌ بشري فهي تصاغُ: إمّا بناءً عن الأعراف[1] أومن منطلقاتِ ومبادئ الدستور الوضعي المدَّونة والكتابيَّة[2].

وميزة أخرى للسياسة الإسلامية **تمتعها بالاستقلالية**، وتلك حقيقة لا يمارى فيها فالسياسة في الإسلام مستقلةٌ عن كل سياسات البشر الوضعية، عقليةً كانت أم طبيعية؛ لأن قيدها شرعي مرهونٌ بمنهاج العقيدة الدينية، وإلزامات أوامر الشريعة الإسلامية، خلافاً عن دساتيرِ وقواعد النّظمِ والقوانين البشرية، وهي وإن تغنَّت بالعدالة والديمقراطية فلا دوام لها ولا ثبات ولا مُرونة فيها ولا اكتراث. وأكثرَ من ذاك فهي تقبل الإضافة والتعديل، بل وتلجأ إلى الإلغاء أحياناً، تبعاً للتَّطورات الزمانية والمكانية، فلا غَرو إذن أنَّ يعتري السياسة الوضعية النقص والتقصير؛ ذلك أنَّها مبنيةٌ بصفات واضعها القاصر، فهي تقريرية تابعة لا مُتبعة كما في السياسة الشرعية؛ لكونها ترصُد الظواهر الاجتماعية، ومن ثم تبني جُلَّ السياسات على أساسها[3] كذلك

(١) العرف في السياسات الوضعية، يعتمد في إقراره والإلزام به على سلطان العرف الناتج عن كثرة العمل به، وتكرره، ورسوخه في النفوس بحيث يعسر زحزحتها عنه، وبخاصة إذا اقتضته الحاجة، فالأعراف التي تصطلح الأمم عليها، هي فيما بعد أسيرة لها، مطبوعة على انتهاجها؛ ولهذا قال الفقهاء: في نزع الناس عن عاداتهم حرج عظيم، وهذا ما يفسر معاناة الأنبياء والمصلحين لكثير من المصاعب، ولاسيما من المسِنّين؛ حيث تكون العادات أعمق تغلغلاً في النفوس، وباختصار، فإنَّ العرف يكتسب إقراره والإلزام به من (الرأي العام)، وأما العرف في السياسة الشرعية، فيعد قاعدة من القواعد الفقهية، يعمل به في نطاق خاص، و يعتمد في إقراره والإلزام به على الوحي الشرعي، ولا يعتبر منه إلا ما كان صحيحاً، وليس على مجرد قوة رسوخه في نفوس النّاس، كما أنه منظم وموجه في الإسلام خلافاً عن السياسات الوضعية فلا اعتبار فيها لتوجهه أو النظر في صحته. انظر المباركي، أحمد سير: العرف وأثره في الشريعة والقانون، جامعة الإمام مُحَّد بن سعود، الرياض، الطبعة الأولى عام ١٤١٢هـ، ٢٣٩ص ٢٣٨ومابعدها، وانظر أبو سنة، أحمد فهمي: العرف والعادة في رأي الفقهاء، دار بصائر للطباعة والنشر عام ٢٠٠٤م، ص ١٩-٢١.

(٢) وهو الذي أَصدر واضعُه و مُنَظِّمُه، أحكامَه، وضمَّنَها وثيقة، أو بضع وثائق معينة ومكتوبة، متولي، عبد الحميد : القانون الدستوري والأنظمة السياسية، منشأة المعارف، مصر ط ١، عام ٢٠٠٥م ، مج١، ص٨٠.

(٣) وللمزيد حول هذه الجزئية انظر فتحي الدريني في كتابيه: كتاب خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، عام ١٤٣٤هـر، ص٣٨٣، وكتاب: دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، دار قتيبة =

فإن السياسة الشرعية نظامٌ صاغ أركانه على مبادئ وأسسٍ وتشريعاتٍ متكاملة فكان أولها **وحدة التشريع والحكم الإسلامي** أو بما يمكن أن نسميه المرجعية الإسلامية في الحكم. والعجيب أنه وحتى مع وجود الرعايا من غير المسلمين في ظل دولة الإسلام كان التشريع الإسلاميّ قائماً ظاهراً"**وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد** ﷺ"[١] فدولة الإسلام دولة نظام وقانون في أصدق معاني النظام، ومنهجها مَرن، وتشريعها فَطِن، يحفظ حقوق الرعية ويفتح المجال للتطوير والإبداع لتحقيق صالح الناس وخيرهم في كل مجال وفي كل زمانٍ ومكان.

وثاني تلك الأسس والأركان التي قامت عليها سياسة الإسلام **العدل**، وهو ميزان الحكم والحياة في الدولة حتى مع غير أهل الملة. فالإسلام عدلٌ تام في الأمور كلها لا ينقضه اختلاف الرأي، أو حتى اختلاف العقيدة، والناس فيه سواسية فلا اعتبار في الدين لعرقٍ أو لنسبٍ ولا لمنصب أو غيرها في ظل دولة الإسلام حتى ولو كان الحاكمَ ذاته.

وثالث الأسس **الحرية**، وهي منْحة إلهية، وحقٌ صانته وضمنته الشريعة الإسلامية وعظَّمه النظام الإسلامي بشكل عام، ونظام السياسة الإسلامي بوجه خاص، وهي حرية منضبطة مقيدة بحكم الشرع تفرض على أبنائها مسؤوليات كما تفرض لهم حقوقاً وتكاليف وواجبات.

ومن الأسس كذلك **الطاعة** وهي إنما تمثل قاعدة من قواعد النظام السياسي الشرعي، فلا يتصور أحدٌ أن توجد دولة قوية دون أن يكون عدلٌ من الحاكم، وطاعة من الرعية، وشورى في نظام الحكم؛ ولذلك فإن الطاعة من عامة الناس إلى الحاكم واجبة بصريح لفظ القرآن: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾[٢] على أن هذه الطاعة في حدود معلومة وشروط تتفق مع منهج الله، وإقامة العدل بين الناس، وشاهد الحديث"**فإذا أمر بمعصية فلا سمع عليه ولا طاعة**"[٣].

وآخر هذه الأسس **الشورى**، وهو المبدأ الاجتماعي السياسي الإسلامي المبني على الحوار البنَّاء والمشاركة الاجتماعية الفاعلة، فقد أتاح لأفراد المجتمع فرصة الإسهام والتعاون بشفافية، حكامًا ومحكومين، من أجل الوصول في كل الأمور إلى أفضل القرارات وأنجعِ الحلول.

=

للطباعة والنشر والتوزيع عام ١٩٨٨م، دمشق، الطبعة الأولى، ج١، ص٣٤٧-٣٤٨.

(١) صحيفة المدينة، وانظر ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج٢، ص٤٥٤.

(٢) سورة النساء آية (٥٩).

(٣) والحديث ذكر بتمامه وسبق تخريجه هامش رقم (٢)، ص (٤٩).

وفي المقابل نجد أنّ الدستور الوضعي وهو وإن بدا للعيان أنه قواعد ومبادئ ومُثل أساسية تقرر نظام الحكم للدولة وسلطة الحكومة، وطرقَ توزيعِ السلطة وكيفيةِ استعمالها، وأن فيه من العدالة ما يبينُ حقوق الأفراد وواجباتهم[١] ويحقق الحرية وروح العدل فيما بينهم لا يحقق الحرية المنشودة ولا العدل المتكامل . ونقول: إن الدستور الوضعي نظامٌ قاصرٌ ينتابه القصور في كثيرٍ من الأمور؛ فمن مبادئه ومستلزماته **الديمقراطية**، وهي تأصيلٌ لنظرية "حكمَ الشعبِ للشعب"[٢]. ونتساءل هل طبق ذلك حقاً؟ كذلك من مبادئ الدساتيرِ الوضعية **العلمانية** وهي نظامٌ يضُم الكثيرَ من القوانين والفلسفات، وتمثل في اصطلاح معناها العام **فصلَ الدينِ عن الدولة**، وفصلَ العقيدة عن الشريعة، وجَعْل العقل هو الحاكم الأولَ والمشرّع الأوحدَ فهل يعقل هذا فعلاً؟!

إنَّ الحصيفَ اللبيب ليدرك بحق أن جملة تلك الدساتير الوضعية، وما فيها من تشريعات ونظم، مرفوضة ومقيتة؛ "لأن الصحيح أنْ تكونَ جميع الأمور كلها خاضعة لله –سُبحانه جل علاه– ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾[٣]. فعقيدةُ الإسلامِ وشرعتهِ متلازمتان واجبتان لا يجوزُ الفصلُ بينهما بحال، وشريعة الإسلام هي الحاكم الأول لا يعلو عليها رأي أو عقل.

وحريٌ بكلِ سياسةٍ وضعية وممن يصوغها من القادة السياسيين والأرباب المنَّظرين ومن عِلْيَه القومِ المثقفين أنْ يكون شِعارهم سياسةَ الدنيا بالدين؛ كما في مسلمات الشريعة الإسلامية، فغاية العدل أن يخضع البشر لحكم خالقهم، فبه يتخلصون بلا شك من ظلم العباد ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[٤] وبه يقدّرون خالقهم حق قدره.

ومما هو مؤكدٌ معلومٌ أنَّ النظام السياسي الإسلامي ليس نظامًا نظرياً خيالياً، بل هو نظامٌ عمليٌ واقعي، وتاريخ حضارة دولة الإسلام شاهد على ذلك[٥].

---

(١) من تعريف الدستور الوضعي لعطية الله، أحمد: القاموس السياسي، مصدر سابق، ص٥٢١.

(٢) الديمقراطية كلمة ومصطلح يوناني الأصل، تتكون من مقطعين الأول الشعب، والثاني بمعنى الحكم ويقصد به النظام السياسي الذي يكون فيه للشعب نصيب في الحكم للدولة بطريقة مباشرة أو شبه مباشرة، والصحيح أن الغرب تبنّاها للتخلص من طغيان واستبداد حكم الكنيسة وكهنتها في العصور الوسطى. عطية الله أحمد: القاموس الساسي، ص٥٤٦.

(٣) سورة آل عمران آية١٥٤.

(٤) سورة الأعراف آية ٥٤.

(٥) ولعل ذلك يلزم نشر ثقافته، وتبيان محاسنه والتحذير من حملات الغزو الفكري ومغبته، التي تَكيل للإسلام وتبغي النيل =

وبعدُ، فتلك أسطرٌ ووقفات في دراسةٍ موجزة لأبرز جوانب السياسة الشرعية التي صاغها خيرُ البريةﷺ وأصَّل أسسها ورسم مَبادئها في دولته، **منهجاً** ثم **فكرًا** و**سياسة فتطبيقاً**، فكان النتاج أن فتح بها العقول والقلوب قبل أن يفتح بها الآفاق والدروب، وقاد بها الأمة فكانت خير الأمم، وربّى بها الإنسانية تربية إيمانية سلوكية، فكان الحصاد عمن وصفهم المولى في آي الكتاب ﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴾[1].



=

منه بالسبل كافة وتسعى لانسلاخ المسلمين عن قِيَم الحضارة الإسلامية الأصيلة، وكذا يوجب التحذير من الدساتير الوضعية والدعايات التضليلية ومن شائعاتِ المنابرِ الإعلامية الشوهاء التي ما فتئت تَسِمُ سياسةَ الإسلامِ بالتخلف والجمود، وما بَرحت يُرَوِّجُ فيها من زخرفِ القولِ وفِعله حيالَ تشريعات الدساتير الوضعية وأبجديات الديمقراطية الوضيعة بما يقصد عقيدة المسلم، ولغته، ويؤثر في سلوكياته وأخلاقياته، ونمط معيشته وحياته.

(١) سورة الأحزاب، آية (٢٣).

الباب الأول

أسس وعوامل بناء الدولة

وتنظيمات الإدارة الداخلية

الفصل الأول: بناء الشخصية الإنسانية المتكاملة وتنظيم الحياة الاجتماعية.

الفصل الثاني: بناء المجتمع المدني وممارسة السلطة التنظيمية والسياسية.

الفصل الأول

بناء الشخصية الإنسانية المتكاملة

وتنظيم الحياة الاجتماعية

المبحث الأول: البناء العقدي والتربية السلوكية للفرد المسلم.

المبحث الثاني: البناء النفسي وتنظيمات الحياة الاجتماعية.

المبحث الثالث: تنظيم شؤون الإدارة والأمور العسكرية.

المبحث الأول: البناء العقدي والتربية السلوكية للفرد

إن من أهم الأهداف والمرامي العظام لدراسة موضوع بناء دولة الإسلام الوقوف على الجوانب التطبيقية والممارسات الفعلية للأسس التي ثبتها النبي مُحَمَّد ﷺ في ذلك البناء المعنوي الحقيقي المتمثل في بناء قوة عقيدة المسلم وشخصيته المثالية المتكاملة؛ ذلك البناء الذي ابتدأه ورسخَّه في نفوس أتباعه منذ بزوغ فجر البعثة. ومنذ أن صدع بدعوة الحق بمكة، ومنذ أن كان التأسيس لها بمركز انطلاقتها الأولى بدار الأرقم. والتي هي المدرسة والمؤسسة الأولى لتربية المسلم الأول. **ثم قوَّى ذلك البناء** بتحالفه مع المبايعين له في العقبة الأولى؛ إذ بايعوه على السمع والطاعة في المنشط والمكره، والنفقة في اليسر والعسر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، **ثم رفع أشد ذلك البناء على أوجه** بتشييد مسجده الشريف حيث كان الجامعة الإسلامية، والملاذ الأكبر الذي ربى المؤمنين في محضنه على العقيدة السليمة، والعبادة الصحيحة، والأخلاق المتينة والتربية المثلى.

ذلك البناء والغَرس وتلك التربية الذي كان في أقلَّ من ربعِ قرنٍ لكن حصاده ومداه باقٍ إلى أن يرث الله تعالى الأرض، ويكفي من ثمرته ونتاجه، أنْ كان نواة تأسيس دولةٍ إسلاميةٍ متفردة، وحضارةٍ عالمية مميزة، وقيادةِ أمةٍ هي خيرُ أمة ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾[(١)].

على أن المتأمل في تلك العوامل وتلك الأسس للبناء يجدها قامت على مراحل وأبجدياتٍ ثلاث: **الأولى الفرد** بما يتمثل من عقيدة وأخلاق، **والثانية المجتمع** بما يضمُّه من تنظيم مجتمعي للعلاقات والمعاملات فيما بين الأفراد بعضهم مع بعض، إضافة إلى التنظيم الإداري المؤسسي؛ لتحقيق أمن الفرد وسلامة ذلك المجتمع، **وثالث تلك المراحل هي الدولة ذاتها** بما تشمله من ممارساتٍ وتنظيماتٍ في السياسة الداخلية مضافاً إليها بناءُ قوة الجيش العسكرية، فضلاً عن علاقاتها الخَّارجية.

والخلاصة أن محور هذه الأسس الثلاث، ونقطة ارتكازها وانطلاقتها بلا شك هو بناء الفرد والإنسان المسلم حساً ومعنىً، بناءً عقديَّاً يبني شخصةُ ويقوّم ذاته وسلوكه،

وبناءً نفسيًا ينظم علاقاته ويحدد نمط تعاملاته بكل مقتضيات ومعطيات وأبعاد ذلك البناء بأركانه الثلاثة: الجانب الفكري، والجانب الجسدي، والجانب التربوي الاجتماعي[(٢)].

(١) سورة آل عمران آية (١١٠).

(٢) وهذا الجانب (الجانب الاجتماعي) مهم غاية الأهمية فهو مُكوِّنٌ لمجموعةٍ من الأنساق المهمة والرئيسة كما يتحدث عن ذلك علماء الاجتماع، وهي نسق الدين والأسرة والتعليم والاقتصاد وأيضا السياسة، وانظر: سعيد، فرح مُحَمَّد: البناء =

ولربما كان هذا البناء **العقدي** الإيماني[١] وكذا البناء **النفسي** فالا**جتماعي** - متشاركاً في تكوين الشخصيَّة الإنسانية المتكاملة - فلا ريب أن الهدف الأساس لبعثة نبي الهدى والرحمة -عليه الصلاة والسلام -هو **بناءُ العقيدةِ، وتزكيةُ النفس** ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾[٢]. وتزكية النفس وتطهيرها هو أساس بناءُ العقيدة، ومن ثم ترسيخها بنفس الفرد المسلم وغرسها، وهو أسمى ما عنت به الشريعة وحرصَ على تطبيقه نبيُّ الورى ﷺ فربَّى عليه أصحابه منذ بدء دعوته، وكان التركيز منصباً على التزكية أو الزكاة والطُهر؛ لأجل تحقيق الوحدانية المطلقة لله والعبادةِ الخالصة له وحده دون سواه، وهي غاية وجود الخَليقة على هذه البسِيطة ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[٣] وكان مبدأ ذلك الطُهر(**القلب**)، والقلبُ هو مناط العقلِ والسمعِ والبصرِ والإدراكِ والفكرِ، وزكاة النفس قائماً على صلاحه، مع الإحسان لله في أعمق صوره "**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**"[٤] مع العلم بأن القلب

=

الاجتماعي والشخصية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية عام ١٩٨٩م، مقدمة الكتاب.

(١) إن المقصود بالعقيدة في اللغة مأخوذ من مادة (عقد) ومدارها على اللزوم والتأكد والاستيثاق، ففي القرآن: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾ وعقد الأيمان إنما يكون بقصد القلب وعزمه ويُقال: (عقد الحبل) أي: شدّ بعضه ببعض، والاعتقاد: من العقد وهو الربط والشد، يقال: اعتقدت كذا، يعني: جزمت به في قلبي، فهو حكم الذهن الجازم.والعقيدة في الشّرع هي: أمور علمية يجب على المسلم أن يعتقدها في قلبه ويؤمن بها إيماناً جازماً دون شكّ ولا ريب ولا تردّد؛ لأن الله أخبره بها بطريق كتابه، أو وحيه إلى رسوله ﷺ، في الإسلام تعني العقيدة المسائل العلمية التي صح بها الخبر عن الله ورسوله، والتي يجب أن ينعقد عليها قلب المسلم تصديقاً لله ورسوله. انظر العثيمين، مُحَّد صالح: شرح لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد، مؤسسة الرسالة - مكتبة الرشد ط٢ عام ١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤م.

(٢) سورة الجمعة آية (٢). وفي سورة البقرة ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ أية (١٥١) فكلا الآيتين ملخصات لمهمة الرسول وموضحات لهدف بعثته ﷺ وكذلك فيها من التذكير بالتزكية والتطهير للنفس من باب الثناء والمنة من الخالق على عبيده.

(٣) سورة الذاريات آية (٥٦).

(٤) البخاري :الصحيح, كتاب الإيمان، رقم الحديث (٥٠).

وهو من حديث النعمان بن بشير، رضي الله عنه، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس؛ فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول

=

لايسمو ويعلو إلا بالعلم والإيمان"**فالتقوى ها هنا**"[١].

ولقد عززت شريعة الإسلام كل ذلك وغذته؛ فمما هو ملاحظٌ ومعلوم أنَّ العقيدة الإسلامية قد صاغت للإنسان المسلم منهجاً متكاملاً في تبيان أصله وحقيقة نظرته لنفسه فمجتمعه ثم الحياة والكون حوله، ورسخَّت فيه مفاهيم وسنناً وتشريعاتٍ ونُظماً؛ لأجل بنائه في كل مجالات حياته.

فعلى الصعيد المعرفي: استرعت نظر الإنسان إلى معرفة خالقه ومولاه، ثم وجهته إلى معرفه أصل خَلقه وذاته وقدراته، وغاية وجوده، ومنتهى خاتمة حياته ومثواه ومآله، ودفعت به إلى كسب العلمِ والمعرفة، فربطت بين العلم والإيمان، وجعلت منه مخلوقاً مكرّماً منعمَّاً على سائر ما خلق الله ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[٢].

وعلى الصعيد الفكري: عمدت العقيدة الإسلامية على بناء فكر الفرد ففتحت آفاق ذهنه وأطلقته من أسر دائرة الحس الضيق إلى الأفق الفسيح والتأمل والاعتبار في آيات الله في الأرض وفي نفسه و الكون والحياة؛ ولاسيما وقد جعلت من تفكره هذا وتأمله عبادة هي من أفضل العبادات والقربات لله مولاه":﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [٣].

وعقيدة الإسلام كذلك، سمت بنفس المسلم فوجَّهت طاقة عقله لنبذ عبادة مظاهر الطبيعة وسائر الخرافات الوضيعة، فحرَّرته من سيطرة الدجل والأهواء في السلوك و الاعتقاد، وفي مقابل ذاك استرعت انتباهه ووجَّهت بنيات ذهنه وأفكاره لاكتشاف السنن الإلهية والأحداث الكونية وبماحل بالشعوب والأمم البالية.

وعلى مستوى الصعيد الأخلاقي: نرى ونلمسُ دور العقيدةِ الخلاّق في بناء منظومة الأخلاق للفرد المسلم، وفق أُسسٍ دينية تستتبع ثواباً أو عقاباً لما يمارسه من سلوك وأفعال من خطأ أو صواب، فضلاً عن أنها لم تتركه هملاً جاهلاً، بل أوضحت له المعطيات الدنيوية و المترتبات الأخروية للأخلاق الحسنة أو الخِلال السيئة غير

=

الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب».

(١) مسلم: الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب من حديث أبي هريرة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره وغصب دمه وعرضه وماله، حديث رقم (٢٥٦٤)، ص٩٤.

(٢) سورة الإسراء آية (٧٠).

(٣) سورة آل عمران آية (١٩٠).

المرضَّية، ووجهته للاقتداء بالأسوة نبيّ الهدى والرحمة ﷺ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[1].

والواقع أن هذه المنظومة المتكاملة والتوليفة المتناسقة من صفاء القلب، وسمو العلم، ورسوخ الإيمان، وكذلك مكوناتها من الجانب الإيماني والجانب المعرفي والأخلاقي لهي أساس البناء العقدي المكون للشخصية الإنسانية المثالية؛ تلك التي عمد الرسول ﷺ على ترسيخها وتأصيلها في نفس المسلم وأسّس لها أهدافاً، وأقام لها منهجاً وآليات، ويسّر الوصول إليها بوسائل وأسباب.

ولربما ساقنا التخطيط المفهومي التالي إلى خلاصة محتوى أسس بناء الدولة وتنظيماتها الداخلية وما يشمله ذلك من توضيح العوامل والأدوات والوسائل والأهداف والنتائج العامة والمخرجات لذلك البناء مما سنوالي الحديث عنه تفصيلاً وتوضيحاً...



(١) سورة الأحزاب آية (٢١).

أسس وعوامل بناء الدولة وتنظيم الإدارة الداخلية

↕

أولا : بناء الشخصية الإنسانية المتكاملة وجوانبه

↕

١- البناء العقدي والتربية السلوكية للفرد

مكوناته ← الجانب المعرفي.
← ا لجانب الفكري.
← الجانب الأخلاقي الإيماني.

السياسات والاستراتيجيات[١] = - حماية الرسالة ونشر الدعوة.
- البناء الداخلي للفرد بتزكية روحه وتقويم سلوكه.
بالعلم والإيمان.

الأهداف[٢]= - التزام أوامر التشريع والتسليم لها.
- بناء روح التضحية.
- السعي لتحقيق أهداف الحياة الآخرة.
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- بناء قوة الأمة.

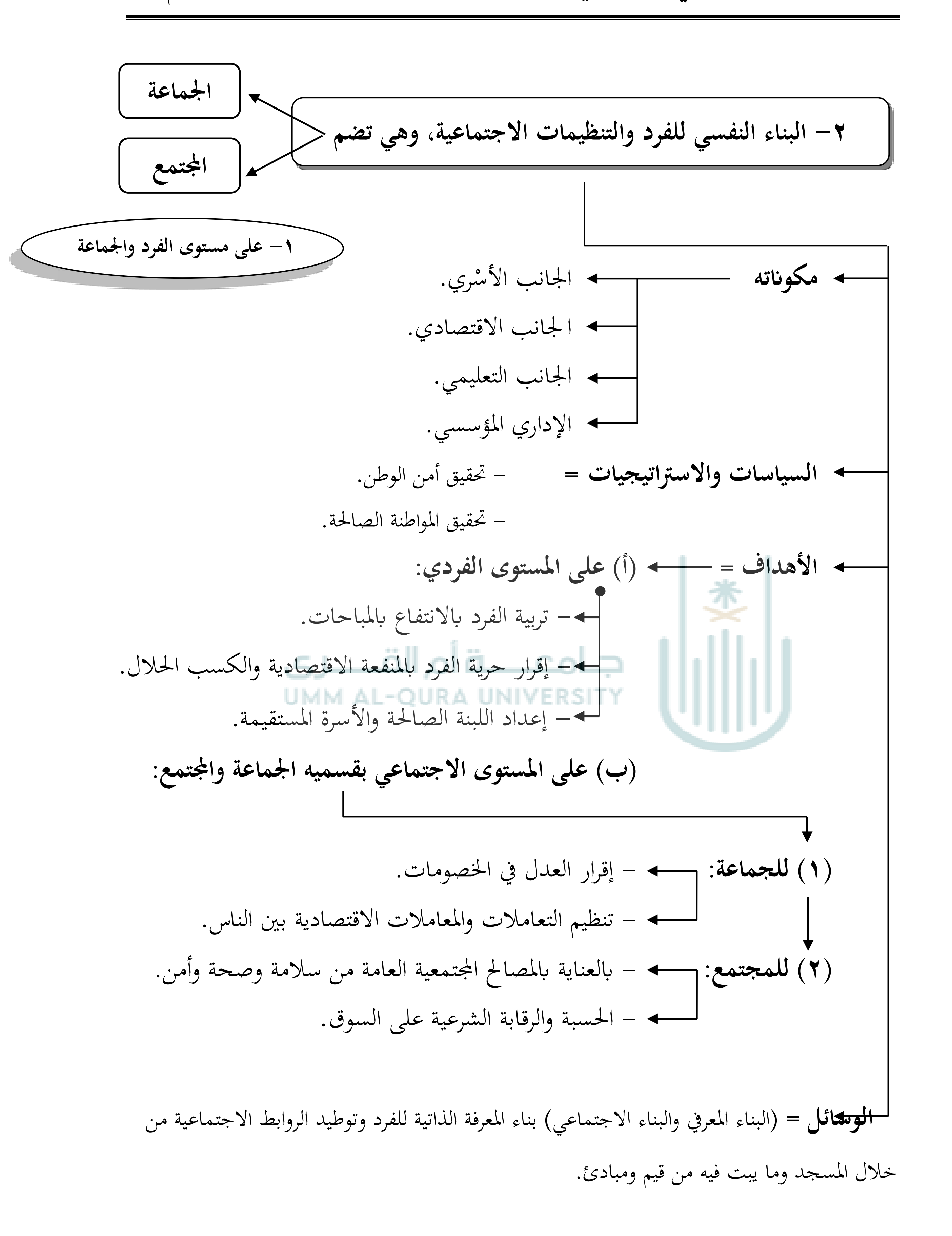
الوسائل[٣]= ١- التربية النبوية في (دار الأرقم).
٢- بنود بيعة العقبة الأولى.

---

(١) وتعني مجموعة الخطط والمبادئ والقواعد التي تقنن وتستخدم لتحقيق الأهداف.

(٢) هي النتائج المطلوب تحقيقها على أن تكون محددة وواضحة وواقعية.

(٣) هي الأدوات والأنشطة الحسية والمعنوية اللازم توافرها في إطار السياسات المحددة وصولاً إلى الأهداف.



الوسائل = (البناء المعرفي والبناء الاجتماعي) بناء المعرفة الذاتية للفرد وتوطيد الروابط الاجتماعية من خلال المسجد وما يبت فيه من قيم ومبادئ.

٣– البناء الاجتماعي وتنظيمات إدارة الشؤون العسكرية

٢– على مستوى المجتمع والدولة

مكوناته
- رأس الدولة (الرسول الحاكم ﷺ).
- الجماعات السكانية المسلمة في مجتمع المدينة.

السياسات والاستراتيجيات =
- تنظيمات الإدارة الداخلية.
- العناية بالشؤون العسكرية.

الأهداف =
- بناء منظمة الحقوق المتبادلة بين الحاكم والمحكومين.
- إعداد قوة الجيش.
- استقبال الوفود وترتيب أوضاعهم.

الوسائل =
- تطبيق مبدأ الشورى.
- توثيق بنود بيعة العقبة الثانية بين الرسول ﷺ والمبايعين له.

النتائج

لما كانت فكرة البناء قائمة على الفرد والمجتمع والدولة كانت أبرز نتائج ذلك البناء

- ✓ ترسيخ قوة العقيدة والإيمان في نفوس المؤمنين.
- ✓ نشر العلم وإزالة الأمية.
- ✓ أصبحت دولة المدينة معقل الإسلام ومشعل الهداية ومنطلق الدعوة إلى الله.
- ✓ تكوَّن جيل قادر على حمل الرسالة وحماية الدعوة.
- ✓ تشارك في نشر الإسلام والدعوة إليه الأفراد والمجتمع بتخطيط وإشراف الدولة.
- ✓ إشاعة العدل وتحقيق الأمن المجتمعي بأنواعه الإنساني وما سواه.

نعم، إن من أولويات مكونات الشخصية السَّوية البناء العقدي ذلك البناء الذي كان أساسه البناء المعرفي، والجميل في حكمة التشريع الإلهي أنْ كان أساس تلك العقيدة **العلم والمعرفة**، كما تقدم، فلم يُترك الإنسان سدى ولا هملاً، بل دُل على معرفة ربه ثم نفسه والكون حوله، ثم فرضت عليه الفرائض والواجبات، فأمر بالطاعة والتسليم لتلك المطالب والتشريعات، وبعدها وجهّه إلى واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن ثَم سعت به العقيدة لتحقيق مطالب وأهداف الآخرة، فبنت فيه روح التضحية والإيثار دون الأثرة وحظوظ النفس، ومضت به لبناء قوة الأمة، كل ذلك في نسق متجانسٍ متناسقٍ فريدٍ نلمسه في المطالب الآتية تباعاً:

المطلب الأول: التزام أوامر التشريع الإلهي والتسليم لها طاعة لله ورسوله:

إن من أصول الإيمان، ومستلزمات عقيدة الإسلام التزام أوامر الرحمن طاعةً واتباعاً، مع اليقين الكامل، والتسليم المطلق والرضا التام. وإن من مقتضيات ذلك معرفة الخالق سبحانه معرفة موجبة لمحبته فطاعته فاتباعه، ومن ثمْ تحكيم شرعه والرضا به والتسليم له. فمن حكمة المولى جَلَّ جَلَالُهُ ونعمائه على خلقه وعبيده أن عرّفهم خالقهم وبيّن لهم أصل خَلْقهم وغاية وجودهم، وأقرّ وأوضح لهم مبادئ شرعهم: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[1]. وهو الدين الذي ارتضاه، وأخبر أنه لن يقبل من العباد سواه. بل ورتب على ذلك الخسران لمن حاد عنه أو تنكب طريقه واتبع هواه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[2]؛ ولذا كان الإسلام هو الاستسلام لله عز وجل بالطاعة والانقياد، والإذعان له بالعبادة والخلوص من الشرك –وهو غاية الإخلاص[3]– وهو أصوب طريق. وأهدى سبيل، بل و أحسن دين ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾[4] ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾[5].

(١) سورة آل عمران الآية (١٩).

(٢) سورة آل عمران آية (٨٥).

(٣) والإخلاص في العمل هو ما كان موافقا للشرع اتباعاً دون ابتداع على الحنيفية السمحاء خالصا لله دون شرك أو رياء أي ما كان من العمل (أصوبه وأقومه) قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ سورة البينة آية (٥).

(٤) سورة النساء الآية (١٢٥).

(٥) سورة لقمان آية (٢٢).

فمن دلائل الإيمان السليم الطاعة والرضى والتسليم، والمسلم لابد له أن يجمع في دينه بين الطاعة والتزام شرائع الرحمن مع الاستقامة ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾[١]، كما له أن يجمع بين كمال التسليم وتمام الانقياد، تسليماً يقينياً بكل ما قدّر الله وأقرّ، وانصياعاً تامًا لكل ما شرّع من نهيٍ وأمْر.

وعلى كلٍ فكمال الإيمان لا يتحقق في العبد إلا بالاستسلام لأوامر الواحد القهار والانقياد له بالطاعة تسليماً ورضا وقناعة.

ومن مقتضيات طاعة الله طاعة رسوله ﷺ و مجتباه ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[٢] ومن اليقين حتماً أن طاعة الرسول ﷺ هي طاعة لله ﷻ، ومعصيته معصية لله؛ لأن أوامره ما هي إلا وحيٌ من الله؛ فقد أرسل تعالى رسوله وأيّده بوحيه لتكتمل مقوّمات وجوب طاعته، فإذا قضى الرسول قضاءً بإذن الله فلا مناص من تنفيذه والإذعان له؛ لأنه من أمر الله وحُكمه وتشريعه، وقد جاءت نصوص القرآن والسنة، توجب طاعة الرسول ﷺ وتحذر من مغبة معصيته ومخالفة أمره. ومن ذلك: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٣] ويقول المصطفى ﷺ:«**ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم**»[٤]، ودل كثيرٌ من الآيات على وجوب الطاعة والاستجابة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٥].

والمقرر أن تكون تلك الطاعة تحقيقاً وتطبيقاً لكل معاني الخضوع والاتباع والاستجابة والمحبة، وجميع تلك المعاني متكاملة يوّلد بعضها بعضاً؛ فالمحبة موجبةٌ للطاعة، والطاعة موجبةٌ للاتباع، والاتباع محتّمٌ للتسليم وموجبٌ للانقياد؛ ففي باب المحبة الموجبة للطاعة والاتباع يقول جلّ من قائل ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[٦].

(١) سورة هود آية (١١٢).

(٢) سورة النساء آية (٨٠).

(٣) سورة النور آية (٦٣).

(٤) مسلم: صحيح مسلم، ص ١٣٣٧، ولابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم، الحديث التاسع، باب ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، ج١، ص ٢٣٨ والحديث لأبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) سورة الأنفال أية (٢٤).

(٦) سورة آل عمران آية (٣١). وحب المسلم لرسول الله ﷺ عملٌ قلبي من أجلّ أعمال القلوب، وأمرٌ وجداني يجده المسلم في =

ومن المؤكد أن حقيقة معنى الانقياد والاتباع، سواء أكان حسياً أو معنوياً، يدور حول كل ما يتعلق بتشريع الخالق جلّ وعلا، وسنة نبيه المصطفى ﷺ أمراً كان أو نهياً سلوكاً و معاملة أو عبادة، فأفضل العبادة الطاعة، وأفضل الطاعة الانقياد، وعلامة الانقياد هو الاتباع دون الابتداع و التأسي والاقتفاء، وهو دليل المحبة الأول وشاهدها الأمثل، وشرط صحتها، فبدونه لا تتحقق المحبة الشرعية لله ورسوله ولا تُتَصور، وهي من تمام الإيمان بالله ومن مقتضيات التصديق الجازم بنبيه ﷺ ومن أعظم لوازم محبته والإيمان به.

ومع الاتباع يتأكد التسليم المطلق والرضا التام؛ ولذا كان شاهد ختام آية الإيمان التسليم لأمر الرحمن ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾[(١)] والشاهد ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ وذلك بأن يُحَكِّم المسلمُ الشرعَ القويم فيما يعرض له من أمور، ثمَّ يقبل بحكمه ولا يجد في نفسه حرجاً أو ضيقاً من تطبيقه والالتزام به. فمهما اعتلجت حظوظ النفس وتصادمت أهواؤها مع بعض الأحكام والأقدار كان لزاماً عليها الرضا والتسليم والقناعة والامتثال؛ يقول جل وعز في محكم التنزيل ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾[(٢)]؛ ولذا صح تعريف الطاعة كموجبٍ للتسليم عند الكفوي في قوله: **"هي فعل المأمورات، ولو ندباً، وترك المنهيات ولو كراهة"**[(٣)].

=

قلبه، وعاطفة طيبة تجيش بها نفسه، وإن تفاوتت درجة الشعور بهذا الحب تبعاً لقوة الإيمان أو ضعفه، وفي ذلك يقول ابن رجب –رحمه الله تعالى – إنه على درجتين: إحداهما فرضٌ: وهي المحبة التي تقتضى قبول ما جاء به الرسول ﷺ من عند الله، وتلقيه بالمحبة والرضا والتعظيم والتسليم، والدرجة الثانية: فضلٌ، وهي المحبة التي تقتضى حسن التأسي به، وتحقيق الاقتداء بسننه، في أخلاقه، وآدابه، ونوافله، وتطوعاته، وأكله، وشربه، ولباسه، وحسن معاشرته لأزواجه، وغير ذلك من كمال آدابه، ابن رجب الحنبلي أبو الفرج عبد الر حمن: استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس، مطبعة الإمام، مصر، (د.ت)، ص٣٤، ٣٥.

(١) سورة النساء آية (٦٥).

(٢) سورة الأحزاب آية (٣٦).

(٣) الكفوى: كتاب الكليات، مصدر سابق، ج٣، ص ١٥٥.

والله ﷻ أنزل كتابه ليحكم بين الناس بما ينفعهم، ويخدم مصالحهم، ويصلح معايشهم إلى قيام الساعة، وله الحكمة البالغة فيما يأمر به وينهى، فقد نعرف السبب والحكمة في ذلك الأمر أو النهي وقد تخفى علينا، وقد نطلع على علة ذلك وتغيب عنا علل أخرى؛ فلا يقدم القياس العقلي على الأمر الشرعي.

والحقيقة أن العبادة[١]هي أقصى غاية الطاعة والخضوع والتذلل لله عز وجل؛ ولأجل ذلك أوجب الانصياع لأمره والنزول لحكمه[٢].

وقد فهم الصحابة الكرام ذلك عن رسول الله ﷺ وطبقوه حتى في دقائق أمور حياتهم فالتزموا أوامر التشريع وسارعوا بالتطبِّيق، ولم يكن عندهم تردد في الإتيان والتنفيذ والفعل أو التطبيق.

فعمر الفاروق، رضي الله تعالى عنه، يقبل الحجر الأسود، ويقول: "والله إني لأقبلك وإني أعلم أنك حجر، وأنك لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ قبلك ما قبلتك، ثم ردد قول الله تعالى ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٣] ونستأنس في ذلك المقام على بما أثر عن علي ﷺ أنه قال:"لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه، وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهر خفيه"[٤].

لقد ضرب لنا الرعيل الأول والجيل الأمثل من صحابة الرسول ﷺ أروع الأمثلة في الاستسلام للوحي والتسليم والانصياع له، فقد كانوا يتقبلون أوامر التشريع بكمال إذعان وانقياد دون نكوصٍ وتلكؤ أو اعتراض. فإذا جاءتهم فرائض الشريعة الغراء قالوا: سمعنا وأطعنا، ومن طريف الأمثلة وعجيبها مما يذكر في الحديث عن عبد الله بن عباس –رضي الله عنه –**أن رسول الله ﷺ رأى خاتماً من ذهب في يد رجل فنزعه فطرحه وقال: يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده فقيل للرجل بعد ما ذهب رسول الله ﷺ: خذ خاتمك انتفع به قال: لا والله لا، آخذه أبدا وقد طرحه رسول الله ﷺ**[٥].

---

(١) وهي من حق الله على العباد، ففي الصحيحَيْن عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال: كنتُ رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي: "يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟ "، قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: "فإنَّ حقَّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله ألا يعذب مَن لا يشرك به شيئًا"، قلت: يا رسول الله، أفلا أبَشِّر الناس؟ قال: (لا تُبَشرهم فيتَّكلوا) أخرجه البخاري في التوحيد، باب: ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله - تبارك وتعالى ج١٣، ص ٣٠٠ ولمسلم في الصحيح بحديث رقم: (٣٠) كتاب الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا.

(٢) إن من شروط العبودية الالتزام التامّ بأوامر الله ونهيه، والتسليم الكامل المطلق لإرادته، والإخلاص له في طاعته وعبادته.

(٣) البخاري: صحيح البخاري، حديث رقم (١٥١٤)، ص ١٦١١، ومسلم: صحيح مسلم، كتاب الحج، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود، حديث رقم (٢٢٣٨)، ص١٢٧٢.

(٤) والمقولة منسوبة إلى علي بن أبي طالب ﷺ وانظر الزرقاني، مُحَّد بن عبد الباقي: شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، مكتبة الثقافة الدينية، سنة النشر: ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م من مؤلف موطأ مالك، كتاب الطهارة، المسح على الخفين، حاشية رقم ١، ص١٧٦.

(٥) مسلم: الصحيح، كتاب اللباس والزينة، ج ٤، ص ٥٢، حديث رقم (٢٠٩٠).

ونموذج آخر يبرز تمام التسليم والانقياد؛ فقد أُخبر عن النبي ﷺ بعض الصحابة - وهم يصلون تجاه بيت المقدس- بتحول القبلة نحو الكعبة، استداروا إلى الكعبة وهم في الصلاة سرعة في الاستجابة والامتثال دون تردد أو اعتراض، ويبلغ بهم الانقياد مبلغه فتجدهم يخلعون نعالهم في إحدى صلواتهم لما رأوا قدوتهمﷺ يخلع نعليه في الصلاة يظنون أن ذلك وحيٌ قد جاء من السماء إلى أن بيّن لهم المصطفى، عليه الصلاة والسلام، سبب صنيعه، ومن الأمثلة: استجابة الجارية لأمر رسول اللهﷺ في التزويج بجليبيب وقبولها شفاعة النبي ﷺ في الزواج من ذلك الفقير وقولها:"**أتردون على رسول الله أمره؟ ادفعوني إليه؛ فإنه لن يضيعني. فانطلق أبوها إلى رسول الله فقال: شأنك بها، فزوجها جليبيبًا**"[(١)]، ومثله في استجابة زينب بنت جحش بالزواج بزيد بن حارثة، رضي الله عنهما.[(٢)]

والأمثلة في ذلك كثيرة من مثل الطاعة في الأمر بالحجاب، أو تحريم الخمر، أو كغيرها مما صح في التشريع الحكيم.

وثَمّة ما تجدر الإشارة إليه والتَّنبُه له هو ثمرات التزام أوامر التشريع الإلهي، طاعة لله ورسوله والتسليم لها، فمن تلك الثمرات تحقيق غاية خلق الإنسان والوجود.

ومن الثمرات راحةُ القلب وانشراحُ الصدر وطمأنينة النفس. ولاريب فالعبودية مقامٌ للنفس وحالة للباطن والقلب، ودليله قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾[(٣)]، وهي بالخلاصة هديٌ للناس إلى الطريق القويم وفلاح في الدنيا وهديٌ إلى الصراط المستقيم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[(٤)] وصلاحٌ

(١) وانظر تمام الخبر عند البغوي، محيي، أبو محمد الحسين الشافعي (ت: ٥١٦هـ): شرح السنة، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، كِتَابُ فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ، بَابُ ذِكْرِ جُلَيْبِيبٍ ﷺ. مسلم، من حديث مسلم في الصحيح، رقم (٣٩٠٥)عن إسحاق بن عمر بن سليط، عن حماد بن سلمة.

(٢) جاء في تفسير ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنه قال -في آية -: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ إلى آخر الآية، وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق يخطب على فتاة زيد بن حارثة، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية فخطبها، فقالت: لست بناكحته، فقال رسول الله ﷺ: فانكحيه، فقالت: يا رسول الله، أؤمر في نفسي، فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسوله ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ إلى قوله ﴿ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ قالت: قد رضيته لي يا رسول الله مَنكحًا؟ قال: "نعم "قالت: إذن لا أعصي رسول الله، قد أنكحته نفسي"، تفسير ابن كثير، سورة الأحزاب، آية ٣٥، ج٦، ص ٤٢٣.والحديث في تفسير الطبري = جامع البيان (٢٠/ ٢٧١

(٣) سورة النور آية (٥٤).

(٤) سورة البقرة آية (٥).

للمجتمع وفوز في الآخرة ونجاة، وجزاءٌ في دار النعيم ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[1].

وبها مرافقة الأنبياء ومعيَّة الصالحين والشهداء[2] ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[3].



(١) سورة النور آية (٥٢).

(٢) وانظر عثمان، عبد الرؤوف مُحَّد: محبة الرسول بين الاتباع والابتداع، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد إدارة الطبع والترجمة — الرياض، ط١، عام ١٤١٤هـ.

(٣) سورة النساء آية (٦٩).

المطلب الثاني: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[١].

إن من أهم المهماتِ الضروريَّة، وأفضل القربات لله ربِّ البريَّة التناصحَ بالخير والحثَّ عليه، والتواصي بالحقِ والصبرِ عليه. وهو تشريعٌ إلهي كانت خيريَّة الأمة مناطةٌ به وموكولةٌ إليه ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[٢]

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من جملة الأحكام السلطانية. وهو ضرورة دينية. وأصلٌ شرعي وواجبٌ إلهي. من أجلّ فرائض الإسلام، ومن دعائمه العظام. له في التشريع منزلةٌ عظيمة، وأهميةٌ كبيرة حتى قُدّم في بعض الأحايين على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والتي هي من أساسيات أركان الإسلام[٣].

يقول المولى عز وجل ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٤]. ففي التقديم إيضاحٌ لعظمِ شأن هذا الواجب وبيان مكانته، فبه تُقيّم سُلُوكات الأفراد، وبتحقيقه والقيام به تصلح أمور الناس؛ فيكثر الخير ويضمحل الشر ويقل المنكر، فهو يهدف بتشريعه لإزالة السوء والفحشاء في المجتمعات، ويعين على التعاون على البر والتقوى بكف ومنع الأذى، وبذل الخير والإصلاح في سائر الأمة.

(١) جاء عن ابن منظور في تعريفه له أنه جامعٌ لكلِّ فعل يُعْرَف بالعقل أو الشرع حُسنُه. وأما المنكر: فما يُنكر بهما، والمعنى: أي كل فعلٍ تحكم العقول الصحيحة بقبحه أو تتوقف في استقباحه واستحسانه، فتحكم بقبحه الشريعة أيضًا، وعليه يكون الأمر بكل حسنٍ وخيّر والنهيُ عن كل مستقبحٍ منكر. ابن منظور: لسان العرب، ج٥، ص ٢٣٣، و ج٩، ص ٢٣٩. وعلى ذلك الأساس صورُ الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ لا تختصُ بموردٍ من الموارد، ولا مجالٍ من المجالات، بل هو أمرٌ شاملٌ لجميع ما جاء به الإسلام من مفاهيمٍ وقيم، فهو شاملٌ للتصوراتِ والمبادئ التي تقوم على أساسها العقيدة الإسلامية، وكذلك شاملٌ للموازين والقيم الإسلامية التي تحكم العلاقات الإنسانية، وللشرائع والقوانين، بل وللأوضاع والتقاليد أو بعبارة أُخرى هو دعوة إلى الإسلام عقيدة ومنهجاً وسلوكاً، بتحويل الشعور الباطني بالعقيدة إلى حركة سلوكية واقعية.

(٢) سورة آل عمران آية (١١٠).

(٣) حتى ليقال: إنه الركن السادس من أركان الإسلام، والصواب: أن شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعامة من دعائم الدين وفريضة من فرائضه، وهي وإن كانت على تلك الأهمية كالجهاد في سبيل الله الذي هو ذروة سنام الإسلام إلا أنه فريضة لا ركن؛ لأنه لا دليل ولا شاهد في نصوص الشارع تشير إلى ذلك. فتوى إذاعية قناة الرسالة الفضائية، السبت بتاريخ٣٠/١٢/١٤٣٧هـ للسائل خليل من السعودية وإجابة فضيلة الشيخ علي بن صالح المري أحد تلاميذ الشيخ العلامة ابن باز رحمة الله تعالى.

(٤) سورة التوبة آية (٧١).

وبالمقابل فالنَّهي عن المنكر حصنٌ حصين من المحن، ودرعٌ يقي من الشرور والفتن، وأمانٌ تحفظ به حرمات المسلمين وبه تظهر شعائر الدين، وهما، أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ضمانٌ لحفظ الكليات الخمس: الدينُ، والنفس، والعقل، والنسل، والمال. وبه تتمايز السُّنة من البدعة، ويُعرف من خلاله الحلال والحرام.

والحقيقة إن من مسؤوليات هذا الفرض المقرر على الأفراد، أنه واجبٌ جماعيٌ في مسائله العامة، ويدخل في فروض الكفاية بمعنى أنه يكفي أن تقوم به طائفةٌ من الناس فيسقط عن الباقين؛ بيد أن مسؤوليته الجماعية تتلخص بالقيام بواجبه ولو بأضعف الإيمان أي بالقلب، وقد جاء التوجيه النبوي في ذلك، ففي حديث أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**"[١]. فهذه المراتب على تفاوتها واجبٌ على الكل ومسؤولية للجميع[٢].

جاء في الأثر أن ابن مسعود – رضي الله عنه – سمع رجلاً يقول: "**هلك من لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر فقال ابن مسعود: هلك من لم يعرف بقلبه المعروف والمنكر**"[٣].

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص، حديث رقم (٤٩)، ص ٢١٧. وفي رواية أخرى "ما من نبيٍّ بعثَهُ الله في أمتهِ قبلي، إلا كان له من أمَّتهِ حَوارِيُّونَ وأصحابٌ، يأخذونَ بسنَّته، ويقتدونَ بأمره، ثم إنهم تخْلُفُ مِن بعدهم خُلُوفٌ يقولونَ ما لا يفعلون، ويفعلونَ ما لا يُؤمَرون، فمن جاهَدهم بيدهِ فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانهِ فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبهِ فهو مؤمن، ليسَ وراءَ ذلك من الإيمانِ حبَّةُ خردل". صحيح مسلم، كتاب الإيمان، (٥٠).

(٢) والأولى وهي التغيير باليد، وهو خاص بولي الأمر ومن ينوبه أو يوليه، أما باللسان فعلى كل مسلم وبالقلب كذلك وليس وراء ذلك حبة خردل من إيمان.

(٣) يقول الحافظ ابن رجب – رحمه الله تعالى -: "من شهد الخطيئة فكرهها بقلبه كان كمن لم يشهدها إذا عجز عن إنكارها بلسانه ويده. ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها وقدر على إنكارها ولم ينكرها؛ لأن الرضا بالخطايا من أقبح المحرمات ويفوت به إنكار الخطيئة بالقلب وهو فرض على كل مسلم لا يسقط عن أحد في حال من الأحوال "ابن رجب، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي(ت ٧٩٥): جامع العلوم والحكم، دار المعرفة – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، ج ١، ص ٣٢١.

ونقول تعليقاً: يدلّ كلام ابن رجب على أن قولهم إنكار المنكر فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين بأن مرادهم الإنكار باليد واللسان اللذين يحصل تغيير المنكر بهما أو بأحدهما، وأما الإنكار بالقلب ففرض عين على كل مسلم، وهذا أمر ينبغي التفطن له والتأكيد عليه.

وتواردت الكثيرُ من نصوصِ الآيات التي تشيرُ إلى أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فجاء الأمر الإلهي لهما بقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١).

كما جاء الثناء الرباني لأمة سادت فيهم فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ قال ﷻ: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ....﴾ وشاهد الأمر في الآيات ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ۖ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾(٢)"فوصفهم بالصالحين وأكد بختام الآي أنهم من جملة المتقين.

في مقابل بني إسرائيل الذين بيّن رسول الله ﷺ حقيقة أمر تخلفهم عن هذا الواجب موجبُ للعن وما كان من شأنهم، فعن عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال:"**إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل، أنه كان الرجل يلقى الرجل، فيقول: يا هذا، اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده. فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال:** ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾(٣).

لقد صورت لنا تطبيقات سيرة نبي الهدى ﷺ جوانب كثيرة عن أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قولاً وفعلاً وسلوكاً، فجاءت سننٌ تقرر فضيلة تلك الفريضة بالأمر والحث عليه أو بالإشادة والمدح لمن تولى مسؤولية القيام به، وأخرى تبين عقوبة تركه، فعلى سبيل الأهمية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جاء التأكيد بالأمر النبوي لمسؤولية القيام به بقوله ﷺ:"**كلا، والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يدي الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً، ولتقصرنه على الحق قصراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعننكم كما لعنهم**"(٤).

(١) سورة آل عمران آية (١٠٤).

(٢) سورة آل عمران الآيات (١١٣-١١٤-١١٥).

(٣) أبوداود، : السنن، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم الحديث(٤٣٣٦)، ص ٣٨٠. ضعفه الألباني في ضعيف الجامع حديث رقم(١٨٢٢).

(٤) الترمذي: سنن الترمذي، ج ٢، ص١٧٥ - ١٧٦.

وفي أمر التحذير من مغبة عدم الإتيان بواجبه جاء في حديث حذيفة، رضيَ الله عنه، أن النبيَّ ﷺ قال:"**والذي نفسي بيده، لتأمُرُنَّ بالمعروفِ ولتنهوُنَّ عن المنكر، أو ليوشِكنَّ اللهُ أنْ يبعثَ عليكم عذابًا من عنده، ثم لتدعُنَّهُ ولا يُستجابُ لكم**"[١].

وفي الحديث الآخر يقول المصطفى ﷺ:"**ما من قومٍ يُعْمَلُ فيهم بالمعاصي، ثم يقدرونَ على أن يغيِّروا ثم لا يغيِّرون، إلا يوشِكُ أن يعمَّهم اللهُ بعقاب**"[٢]. وفي حديث الصديق أبي بكر، رضيَ الله عنه، قال: يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:"**إن الناسَ إذا رأوا منكرًا فلم يغيِّروهُ، يوشِكُ أن يعمَّهُم اللهُ بعقابه**"[٣]. وفي رواية أبي داود:"**إذا رأوا الظالمَ فلم يأخذوا على يديهِ، أوشكَ أن يعمَّهم اللهُ بعقاب**"[٤].

وعلى سبيل التطبيق والدعوة إلى الاقتداء جاء عن ابن عباس، رضيَ الله عنهما، عن النبيﷺ قال: "**ليسَ منّا مَن لم يرحَمْ صغيرَنا، ويوقِّرْ كبيرَنا، ويأمرْ بالمعروف، وينهَ عن المنكر**"[٥].

ويكفي في فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنَّه من مهامِ وأعمالِ الرسل والأنبياءِ، عليهم السلام، وأنه من صفات المؤمنين، قال تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٦] على عكس أهل النفاق والفساد ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[٧]. وهو دليل خيرية الأمة وصلاحها واستقامة دينها ومظنة الصلاح والإيمان قال تعالى: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ

---

(١) الترمذي: سنن الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في الأمر بالمعروف، ج٤، ص٤٦٨، رقم الحديث (٢١٦٩) و حسَّنه في صحيح الجامع الصغير، حديث رقم (٧٠٧٠).

(٢) أبوداود: سنن أبي داود، باب في الأمر والنهي، رقم الحديث (٤٣٣٨).

(٣) ابن ماجه: سنن ابن ماجه، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠٥)، سنن الترمذي، كتاب الفتن، رقم الحديث (٢١٦٨)، والآية من سورة المائدة، رقم (١٥٠).

(٤) أبو داود: سنن أبي داود، باب في الأمر والنهي، رقم الحديث (٤٣٣٨).

(٥) الترمذي: سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، رقم الحديث (١٩٢١).

(٦) سورة التوبة آية (١١٢).

(٧) سورة التوبة آية (٦٧).

﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[1].

وهومن أسباب النصر، والتمكين في الأرض يقول الحق ﷻ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[2] ووقاية من العذاب واللعن والهلكة كما جاء في الآيات[3] وبه يتحقق للأمة النجاة من العذاب الدنيوي والأخروي ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾[4].

وخلاصة القول: لقد رسّخ نبي الهدى الأكرم ﷺ في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر أنه دأب المفلحين ومنهج المصلحين، وأنه أمثل طريق لنشر الرخاء والأمن والطمأنينة في البلاد وبين العباد.



(١) سورة آل عمران الآيات (١١٣-١١٤).

(٢) سورة الحج آية (٤٠-٤١).

(٣) ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ سورة المائدة آية (٧٨-٧٩) والعلة ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾.

(٤) سورة هود آية (١١٦).

المطلب الثالث: السعي لتحقيق أهداف الآخرة.

إن القيمة الحقيقية للحياة الدنيا تكمن في تحقيق أهدافها؛ والمسلم في هذه الحياة أهدافه سامية مشروعة يسعى إليها، ويؤمن بها ويحرص عليها، ويضحّي من أجلها، ومعرفة الهدف مطلبٌ أساس؛ وقيمة الحياة، بقيمة هدف وجوده فيها فلم يخلق الله – ﷻ– الحياة عبثًا ولم يوجِد الإنسان هملاً، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[1].

وبين حقيقة الخلق والإيجاد في الحياة فقال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2]. ومن المؤكد أنه لابد للإنسان، في مراحل حياته التي يقطعها، من هدفٍ وعملٍ وجَهد ولا بد لكل عملٍ من غايةٍ ونية، وعليه فكلُ غايةٍ تتطلب وسيلة وسبب للوصول بها إلى الهدف؛ ولذا كان معاذ – رضي الله عنه– يقول: "**إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي**" على أن أكبرَ هدفٍ وأعظمَ غاية، وأسمى مقصدٍ يمكن أن يسعى له الإنسان في حياته هو السعيُ لرضوانِ رب العالمين في الدنيا، ونيل رحمته وجزيل ثوابه في الآخرة؛ وذلك بالوسائل التي شرعها وفصَّلها في كتابه تعالى وسنة نبيه ﷺ ومصطفاه، يقول المولى ﷻ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[3].

ولقد صور لنا واقع عيش النبي ﷺ زهده في الدنيا؛ سعياً للآخرة فلقد كان راغباً عن الحياة الدنيا زاهداً فيها، مقبلاً على الآخرة طامعاً بما عند الله في آنٍ معاً، قبل البعثة وقبل الهجرة وبعدهما على حدٍّ سواء. من ذلك أن تهيأ له المال الوفير بعد زواجه بخديجة، رضي الله عنها، غير أنه لم يدخر من ذلك شيئاً، فكان ينفقه في أوجه المعروف والإحسان والخير؛ لأنه يؤمن أن تحمل الشدائد إنما يكون ابتداءً بتربية النفس وحملها على ترك الرغائب، ونراه ﷺ لما أقام دولة الإسلام ودانت له جزيرة العرب وملك الرقاب والأموال وفتح الله تعالى له البلاد،

---

(١) سورة المؤمنون آية (١١٥).

(٢) سورة الذاريات آية (٥٦).

(٣) سورة الكهف آية (١١٠).

وحقيقة الأمرِ، لابد من إيمانِ المرءِ بغاية وجوده فيسعى لتحقيق هدف وجوده، ولا سيما وأن الإيمان واليقين هو الدافع المحرك للقوى الكامنة في نفس كل مؤمن، خاصةً إذا ما خالط ذلك الإيمان سويداء قلبه و لحمه ودمه، فيحرك في قلبه عوامل الخير ليحقق غايته، ويحرك جوارحه للبذل والفداء، فيسعى جاهداً بتضحياتٍ جمَّة في الوقتِ والجسدِ، وبالمالِ والنفسِ؛ ليصدق فيه قول الحق ﷻ ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ سورة التوبة آية (١١١)، وعلى هذا الأساس تكون القاعدة العامة أن الإيمان باليوم الآخر هو الدافع للإنسان إلى تفضيل أعمال البر والخير استشعاراً للثواب والأجر.

وجعل خُمس الغنائم حقاً له، وكانت نصف مزارع خيبر كذلك له، ومع ذا تصدق بها جميعها بل وبكل ما أوتيه من مال على المسلمين ليعود إلى بيته ليأكل مع أهله خبز الشعير وينام على فراشٍ من حصير، وهو القائل: «**ما يسرني أن عندي مثل أُحدٍ ذهبًا تمضي عليه ثالثةٌ وعندي منه دينار، إلا شيئًا أرصده لدَيْن، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا، عن يمينه وعن شماله ومن خلفه**»[١] وهو الذي لو شاء لجعل الله له جبال مكة ذهباً لكنه كان هو الذي يدعو ربه فيقول: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا**»[٢] جاء في جامع الترمذي أن النبي ﷺ قال: «**عرض عليَّ ربي ليجعل بطحاء مكة ذهبًا، فقلت: لا، يا رب، ولكن أشبع يومًا وأجوع يومًا، فإذا جعتُ تضرعت إليك، وإذا شبعتُ شكرتك**»[٣]. وهو الذي ما فتئ يردد أبدا: «**اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة**»[٤] «**اللهم إن العيشَ عيش الآخرة**»[٥].

ولما تكلم بعض الناس على تقسيمه غنائم الحرب قال لهم ﷺ: «**إِنَّهُ لَيْسَ لِي مِنْ هَذَا الْفَيْءِ شَيْءٌ، إِلَّا الْخُمُسَ، وَالْخُمُسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ**»[٦] بل كان هو الذي يواسيهم بالعطاء ويوصيهم بالصبر ويمنيهم الظفر والنصر.

وصور لنا حال الدنيا فقال: «**الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر**»[٧] وضرب لنا مثلاً فكان خير واعظ إذ قَالَ: «**مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**»[٨] .

---

(١) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ ما أحب أن لي مثل أحد ذهباً، ج٨، ص٩٤، رقم الحديث (٦٤٤٤).

(٢) أي يسأله تعالى أن يرزقه حد الكفاية، ولم يكن، صلى الله عليه وسلم، يطلب أكثر من ذلك البخاري، كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي وأصحابه، وتخليهم من الدنيا، ج٨، ص ٩٨، رقم الحديث (٦٤٦٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب في الكفاف والقناعة، ج٢، ص٧٣٠، رقم الحديث (١٠٥٥).

(٣) الترمذي: جامع الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه، رقم الحديث (٢٢٨٢)، ص٣٩٨٠.

(٤) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب البيعة في الحرب ألاَّ يفروا، وقال بعضهم: على الموت، ج٤، ص٥٠، رقم الحديث (٢٩٦١)، ومسلم: صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب (الخندق)، ج٣، ص١٤٣١.

(٥) مسلم: صحيح مسلم، حديث رقم(٢٤٥٣٧)، ص١٨٠٥ عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٦) أخرجه أبو داود في السنن حديث رقم (٢٦٩٤) وصححه الألباني في صحيح أبي داود. والنسائي: سنن النسائي، كتاب قسم الفيء، حديث رقم (٤١٣٩).

(٧) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، حديث رقم (٢٩٥٦)، ص٣٩٥ عن أبي هريرة، رضي الله عنه.

(٨) والحديث عن عَبْد اللهِ بن مسعود، رضي الله عنه، قَالَ: "نَامَ رَسُولُ اللهِ - ، عَلَى حَصِيرٍ فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ لَو اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً ؟ فَقَالَ: مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا"، =

وفي زهده، عليه السلام، في الدنيا والركون عنها إلى الآخرة، أراد أن يضرب المثل الأعلى للإنسانية جمعاء في تحرير النفس تحريراً حقيقياً من سيطرة الشهوات الحسية دون أن يؤدي ذلك إلى كبت الرغبات النفسية، أو قمع دوافعها الفطرية؛ ففي الحديث الشريف وصى ﷺ عبدالله بن عمرو بن العاص فقال: «**صُم، وأفطر، وقم، ونم، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً وإن لزورك عليك حقاً**»[١]؛ وذلك هو المعنى الحقيقي للموازنةِ بين مطالبِ الدنيا لنيل مقاصد الدار الآخرة، يقول الله تعالى ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾[٢].

وفي زهده ﷺ في الدنيا لم يهدف إلا إلى السعي لتحقيق أهداف الآخرة، وفي زهده ﷺ في الدنيا لم يهدف إلى تحريم ما أحل الله من الطيبات، بل سعى إلى تربية المؤمنين تربية إيجابية قوامها مجاهدة النفس والسيطرة على رغباتها عند القدرة دون إفراط أو تفريط؛ حتى لا يكون المرء عبداً ذليلاً للشهوات، طبّق ذلك ﷺ فعلاً وقولاً فكان ﷺ يقول: «**طوبى لمن هُدي للإسلام، وكان عيشه كفافاً**»[٣]، وهو، عليه الصلاة والسلام، الذي خُيِّر بين أن يكون ملكًا رسولًا، أو عبدًا رسولًا، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا، عاش في الدنيا ولم يأكل على خوان حتى مات، وما أكل خبزاً مرققاً حتى مات. ولا رأى شاة سميطاً بعينه قط[٤]، و**مَاتَ وَمَا شَبِعَ مِنْ خُبْزٍ وَزَيْتٍ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ**"[٥] ورسم لنا ﷺ النموذج الحي للكمال البشري في الزهد والقناعة؛ ففي حديث عائشة، رضي الله عنها: **قالت** دخلت علي امرأة فرأت فراش رسول الله ﷺ عباءة مثنية فبعثت إليَّ بفراش حشوه صوف فدخل النبي ﷺ فرآه فقال: «**ردّيه يا عائشة، والله لو شئت أجرى الله معي جبال الذهب والفضة**». قالت عائشة: فرددته[٦] فذاك رسول الله ﷺ ذاق

=

الترمذي: سنن الترمذي، أبواب الزهد عن رسول الله ﷺ، ج٤، ص ٥٨٨، رقم الحديث(٢٣٧٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، ج ٢، ص ٩٨٩، حديث رقم (٥٦٦٨). وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج١، ص ٧٢٣، حديث رقم (٤٣٨).

(١) البخاري: الصحيح، باب حق الجسم في الصوم، ج٢، ص٦٩٧، رقم الحديث ١٨٧٤.

(٢) سورة القصص آية (٧٧).

(٣) الترمذي: جامع الترمذي، حديث رقم (٢٢٨٤)، ص ٢٣٤٩.

(٤) وعند البخاري من حديث أنس بن مالك، رضي الله عنه: ولا شاة مسموطة حتى لقي الله. ومسموطة مشوية. رقم الحديث(٥٣٨٥).

(٥) مسلم: صحيح مسلم، رقم الحديث (٢٩٧٤).

(٦) البيهقي: أبو بكر أحمد بن حسين (ت ٤٥٨ هـ): شعب الإيمان، تحقيق محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان(د.ت)، حديث رقم (١٤٦٨)، من رواية عباد المهلبي، عن مجالد بن سعيد. والحديث حسنه الألباني في صحيح الترمذي

=

حلاوة الإيمان، وأشربت به نفسه فعاش بجنة الدنيا سعياً لجنة الآخرة. ومات ولم يترك ديناراً ولا درهماً، ولا عبداً ولا أمَة، ولا شيئاً إلا بغلته البيضاء وسلاحه وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة، فخرج من الدنيا وليس معه شيء ولا عليه شيء. جاء في رواية البخاري عن قتيبة عن أبي إسحاق، عن عمرو بن الحارث قال:"**ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً، ولا درهمًا، ولا عبدًا، ولا أمة، إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها، وسلاحه، وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة**"[١]. وزادت أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، في حديثٍ آخر: "**ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً، ولا درهمًا، ولا شاة، ولا بعيرًا ولا أوصى بشيء**"[٢]، بل وتوفي ﷺ ودرعه مرهونة بثلاثين صاعاً من شعير[٣].

وآخر ما نختم به في هذا الجانب حقيقةٌ مهمة وهي أنه إذا علم المؤمن أن المال الذي هو عصب الحياة الدنيا وزينتها إلى زوال[٤] هانت عليه دنياه؛ فكيف لو أدرك الفطن الحصيف بأن الحياة الدنيا بما فيها لا تزن عند الله جناح بعوضة[٥]، وحقيقة أخرى هي لطيفةٌ من معاني وحقائق الإيمان بالركن الخامس (الإيمان باليوم الآخر) وهي وعد الخالق، والتي ما إن آمن بها المرء اطمأنت نفسه وسكنت روحه، وهو أن المؤمن مأجورٌ معوضٌ لامحالة، مأجور في الدنيا إذا صبر واحتسب، معوضٌ في الآخرة بلا شكٍ ولا ريب، حتماً ووعدًا وصدقاً، يقول ﷺ في الحديث القدسي عن ربه ﷻ:"**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينُ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطرَ على قلب بشرٍ، فاقرؤوا إن شئتم** ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾"[٦].

=

رقم (٣٢٨٧).

(١) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب الوصايا وقول النبي ﷺ وصية الرجل مكتوبة عنده، ج٤، ص٢، حديث رقم (٢٧٣٩).

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه، ج٣، رقم الحديث (١٦٣٥)، ص١٢٥٦.

(٣) البخاري: صحيح البخاري، حديث رقم (٢٩١٦)، ص ٤٤٦٧. عن أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها.

(٤) وفي الحديث القدسي يقول الله ﷻ: "يقول بن آدم مالي: مالي، قال: وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت"مسلم : صحيح مسلم، كتاب الزهد، من حديث مطرف بن عبدا الله بن الشخير عن أبيه حديث رقم (٢٩٥٨).

(٥) وقد أخبر ﷺ عنها بقوله في الحديث الذي رواه سهل بن سعد فقال: "كنا مع رسول الله ﷺ بذي الحليفة فإذا هو بشاة ميتة شائلة برجلها فقال: "أترون هذه هينة على صاحبها ؟ فو الذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه على صاحبها، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها قطرة أبدا".

(٦) البخاري: الصحيح، من حديث أبو هريرة رقم الحديث (٣٠٢٤). سورة السجدة آية(١٧).

المطلب الرابع: العمل على بناء الأمة القوية.

إنّ ثَمة سنةً عظيمة أساساً، وقاعدةً طرديةً دقيقة المقياس هي أن قوة الأمة من قوة بناء المجتمع، وقوة كيان المجتمع من قوة بنية الأسْرة. ولا شك، فقوة بناء الأسرةِ تباعاً ينشأ من قوة بناء الفرد تلك القوة التي تتأتى حتماً من بناء قوة العقيدة في النفس.

فعلى أساس البناء العقدي كان البناء السلوكي الأخلاقي والاجتماعي، وكذا الاقتصادي، فالإداري، بل والسياسي أيضاً، وجميعها تسير جنباً إلى جنب متكاملة ومتوازية في نسق واحد، جَمعٌ لشتات النفس، وتوجيه الهم ليكون هماً واحدًا؛ وبذلك نمت الأمة وتكاملت شخصيتها واشتد عودها، وأثمرت علماً وأدباً وحضارة باسقة البناء وارفة الظلال، وبسطت أشعتها ونور هديها على البشرية جمعاء، فأخرجتها من ظلمات الجهل والظلم والاستكبار إلى نور الحق والرحمة والعدل في أصدق معانيها وأجلى صورها[١].

نعم، وإذا كان نجاح الدعوة الإسلامية في الفترة المكية قائماً على نجاح النبي ﷺ في بناء الأفراد على العقيدة الصحيحة، فإن نجاحه أعظم بعد هجرته في الفترة المدنية، إذ تجاوز فيها البناء للأفراد إلى بناء الدولة، بل وإلى بناء الأمة القوية، وبناء الحضارة العالمية، فلم يُر البناء القوي والعمق الحضاري المذهل إلا في أمة الإسلام.

ويمكن اختصار **خطوات ومراحل بناء الأمة القوية** التي أقامها وأسسها نبي الأمة في غضون ثلاثٍ وعشرين عاماً إلى قسمين: **بناءٌ للأفراد محسوس** تَمثل في فترة العهد المكية، **وبناءٌ آخرُ لدولة الإسلام ملموس** في عهد الفترة المدنية.

وقد حرص المصطفى ﷺ على بناء القسم الأول بثلاثة أسسٍ رئيسة أولها **وأهمها**: **تحقيق كلمة التوحيد والعمل بمقتضاها** وترسيخ معانيها في القلب وغرسها في العقل وتطبيقها في الجوارح، وقضى بها مدة ثلاثة عشر عاماً من مجموع ثلاثٍ وعشرين من عمر البعثة كلها يزرع فيها هذا المعنى ويعمّقه، فكان يمشي في أوساط مشركي مكة وينادي في الناس: "**قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، قولوا: لا إله إلا الله تملكوا بها العرب والعجم**"[٢].

(١) السلمي، مُحَمَّد بن صامل وآخرون: صحيح الأثر وجميل العبر من سيرة خير البشر ﷺ، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، المملكة العربية السعودية، مكة المكرمة، ط١عام ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، المقدمة ص ٨، ٧.

(٢) ابن خزيمة، أبو بكر مُحَمَّد بن إسحاق (ت ٣١١هـ): صحيح ابن خزيمة، تحقيق مُحَمَّد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، سنة النشر: ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م، ج١، حديث رقم (١٥٩)، ص١٢٥. وابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، فصل في وفاة أبي طالب.

وحقيقةً، إن الأصل الأول لبناء أمة الإسلام هو الشهادتان، وكانت النتيجة أن تمكن الإيمان في سويداء قلوب أهل الايمان، وتملّك شغاف نفوسهم، فغدوا به باذلين مُضحين بكل غالٍ ونفيس.

وثانيها، تربية المؤمنين من أتباعه الذين آمنوا به وساروا على ركابه، تربيةً إيمانيةً تجتث عُرا الجاهلية وظلماتها التي رسخت أمداً في قلوبهم، **تربية قوية على روح الصبر والثبات والتضحية والبذل** والتجرد والإخلاص الكامل لله الخالق.

وثالثها: تربية هؤلاء الصحب الكرام على السعي لتحقيق أهداف الإيمان الجازم باليوم الآخر وتحقيق مطالبه بإتيان الطاعات وترك المحرمات واتقاء الشبهات استبراء للدين والعرض؛ ولذا قال المصطفى، عليه السلام، يوم أن وقف على جبل الصفا يدعو المشركين جميعاً إلى الإيمان برب العالمين سبحانه وتعالى: "**والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن على ما تعملون، وإنها لجنة أبداً أو نار أبداً**"[(١)].

وقد تجلت تلك الصور الثلاث واضحةً جليةً في آيات سور المكي من القرآن الكريم وتركيزاتها في الموضوع والمضمون على تقرير التوحيد وسلامة العقيدة ومتعلقات توحيد الألوهية بخاصة، والإيمان بالبعث والنشور[(٢)].

وبذلك يكون المصطفى ﷺ قد اجتاز الطريق الصّعب وأعدّ الجيل الصُّلب بقاعدته التربوية المؤصلة القوية التي ما إن كانت بطيبة حتى نراها تحولت من دائرة بناء فرد ودعوة، إلى بناء دولة، بل أمة حيث كانت وقد شُيدت أركانها وأقيمت دعائمها، لتحكمها قوانين السماء بتكاليف الشريعة الغراء فكان أن أعلت بناء حضارة إسلامية سامية شملت كل الإنسانية، وكان من مراحل تأسيس هذا البناء المدني

---

(١) ذكره البلاذري أحمد بن يحيى ت(٢٧٩هـ) في أنساب الأشراف حديث رقم (٥٠) وسئل عنه العلامة ابن باز، رحمه الله تعالى، فقال: لا نعلم له أصلاً عن النبي ﷺ، وإنما يروى من كلام قس بن ساعدة "، وقس بن ساعدة الإيادي هو من حكماء العرب قبل الإسلام. توفي حوالي عام ٦٠٠م الموافق ٢٣ قبل الهجرة. تُنسب إليه أفعال عديدة، وأقوال كثيرة، شعراً وسجعاً ونثراً، كعديدين من حكماء العرب، وللمزيد عنه انظر خزانة الأدب – البغدادي، ج٢، ص٨٠ والأعلام، الزركلي، ج ٥، ص٢٣٦. ونقول لربما قصد البلاذري نص الحديث وهو مرسل: "وَاللَّهِ لَتَمُوتُنَّ كَمَا تَنَامُونَ، وَلَتُبْعَثُنَّ كَمَا تَسْتَيْقِظُونَ، وَلَتُحَاسَبُنَّ بِمَا تَعْمَلُونَ، وَلَتُجْزَوُنَّ بِالإِحْسَانِ إِحْسَانًا وَبِالسُّوءِ سُوءًا. وَإِنَّهَا لَلْجَنَّةُ أَبَدًا. وَالنَّارُ أَبَدًا. وَأَنْتُمْ لأَوَّلُ مَنْ أُنْذِرِ..."في مطلع الحديث عن جعفر بن عبد الله بن أبي الحكم، قال: "لما نزلت على النبي ﷺ: وأنذر عشيرتك الأقربين....

(٢) وللمزيد عن المكي والمدني في القرآن الكريم، انظر العثيمين، مُحَمَّد بن صالح: شرح أصول في التفسير مؤسسة مُحَمَّد بن صالح العثيمين الخيرية، (د.ت). ص١١٦.

وللمزيد عن قيام دولة الإسلام راجع السرجاني، راغب: سلسلة السيرة النبوية، قيام الدولة الإسلامية (مميزات العهد المدني وقيام الدولة الإسلامية)(صوتيات).

وخطواته: بناء المسجد، وفي بناء المسجد بناءٌ لروح الدين، وتأصيلٌ لضبط العلاقة بين الأمة و بين خالقها الديان، فترتبط الصلة الوثيقة به في الغدّو والآصال، لتقام شعائر الله على أوثق حال.

وثاني تلك الخطوات: تقوية الأواصر الاجتماعية، وتحديد العلاقات والتعاملات بين جميع عناصر الفئات السكانية. وثالثها: إعلان الجهاد وتنمية روح التسامي والفداء، ذودًا عن حياض الحق، ورفعاً لراية الدين، ودفاعاً

عن بيضة الإسلام، وحماية لدولة المسلمين؛ فكانت النتيجة التضحية والإيثار وبذل النفس والمال.

ناهيك عن **القوة المعنوية البدنية** التي حث عليها الشارع وحرَّض عليها وحضّ، **وتتمثل بسلامة العقل** وماله من تأثير على صحة البدن؛ وسلامة العقل تكمن في تحريم كل مسكر ومفتّر فقليل الخمر وكثيره محرم.

كذلك حث **على اقتيات الطيبات** من سائر النعم والمباحات، **وحرم الخبائث** من المأكل والمشرب، **وأوصى بالرياضة واستحث على النشاط** واللياقة، **وشدد على النظافة** في البدن والثوب والمكان أو الرقعة؛ كل ذلك تحقيقاً لصحة الجسد وقوة وسلامة البدن.

وعلى كلٍ فهذه أبرز الأسس الرئيسة لبناء الأمة القوية -معنىً وحساً- والتي أعدّها وبناها نبي الأمة -المصطفى عليه السلام -أمة الإسلام فلقد أعلن الدعوة، ورسّخ أصول العقيدة، وفصّل تعاليم الملة، وقوى رباط الأمة حتى اشتدت وقويت وعلت ومُكّن لها وذلك وعد الله، وكان النتاج مجتمعاً مترابطاً في كينونته، متماسكاً في بنيته، يتحقق فيه ويصدق قول النبي -ﷺ -:"**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**"(١).

وخلاصة القول: لا يمكن أن يبنى مجتمع ودولة أو فرد وأمة إلا من خلال تربيةٍ عقديةٍ جادةٌ مؤصلة، وبناء قوة جسدية معنوية متمكنة؛ فتنتج مجتمعاً أصيل القواعد سليم الركائز، جلية مبادئه ومنطلقاته، عميقة ثوابته وأسسه ومرتكزاته.

---

(١) البخاري: الصحيح، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم رقم الحديث (٥٦٦٥).

المطلب الخامس: بناء روح التضحية والإيثار[١].

إن من مفردات ومعاني بناء أمة الإسلام التضحية والإيثار. كما أن من ملامح قوة العقيدة وتأثيرها على المرء إيثار النفس وبذلها كل بذل. مما تميز به قوة الإيمان والإرادة مع إيقان تمام الإيثار والتضحية، وهي ما جعلت سيد الشهداء حمزة دافعاً ذاته، باذلاً نفسه، تجاه ذلك المبدأ، وتلك القيمة وهي العقيدة يقود بها أوّل سرية في الإسلام في ثلاثين راكباً من المسلمين؛ لمواجهة قوة عدوٍ بلغ عداده عشرةُ أضعافِ قوّة المسلمين أي في نحو ثلاثمائة راكبٍ من قريش على أصح ما قيل[٢]. وهي ذاتُ العقيدة التي ضربت أروع الأمثلة في التضحية والإيثار في النفس والمال حتى وصف أهلها بآي القرآن بالذين يوثرون على أنفسهم و لو كان بهم خصاصة، ولقد صوَّرت لنا السّيرة النَّبوية أمثلة كثيرةٌ معلومة ونماذج عديدة في مدح خلق الإيثار والحث عليه ففي مندوبة الثناء والمدح جاء في الحديث الشريف: «**إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قل طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني، وأنا منهم**»[٣].

---

(١)كلمة الإيثار هي اشتقاقٌ من لفظ: آثَرَ يُؤثِر، إيثارًا، فهو مُؤثِر، والمفعول مُؤثَر، والمعنى آثر الشَّيءَ فَضَّله واختاره ومنه قول الحق تعالى وتبارك: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ سورة الأعلى آية (١٦). وآثره على نفسه: قدَّمه واختصَّه بالخير، قال ﷻ: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ سورة الحشر آية(٩). وفي معجم اللغة العربية المعاصرة الإيثار: تفضيل المرء غيرَه على نفسه و[أ ث ر] هي: مصدر آثَرَ عُرِفَ بِإِيثَارِهِ أي بِمَحَبَّتِهِ لِلْغَيْرِ وَتَفْضِيلِهِمْ عَلَى نَفْسِهِ عمر، أحمد مختار : معجم اللغة العربية المعاصرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م، ومسعود، جبران: معجم الرائد، دار العلم للملايين، ط٧، عام ١٩٩٢م، مادة (آثر).

يقول الإمام ابن قيم – رحمه الله تعالى –: "الإيثار درجتان: الأولى: أن تُؤْثِرَ الخلقَ على نفسك فيما يرضي الله ورسوله وهذه هي درجات المؤمنين من الخلق، والمحبين من خلصاء الله. الثانية: إيثارُ رضاء الله على رضاء غيره وإن عظُمت فيه المحن، ولو أغضب الخلْق، وهي درجة الأنبياء، وأعلاها لِلرسل، عليهم صلوات الله وسلامه". وإذا كان النوع الأوّل متداولاً عند أصحاب الأخلاق الكريمة في كلّ زمان ومكان فإنّ النوع الثاني أقلّ انتشارا لأنّه أصعب مراسا، فلا يقدر عليه إلاّ ذوو الهمم العالية والنفوس التي استرخصت ذاتها في مرضاة الله؛ لأنّ فيه يتجلّى بوضوح وقوّة معنى التضحية التي تقتضي أداء الواجبات وتجاوزَها ابتغاءً لمنزلة الإحسان إلى درجة تتوارى معها المطالبة بالحقوق.

(٢) ابن قيم، مُحَّد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) : مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، دار الكتاب العربي – بيروت، ط٣، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م ج٢، ص٢٨٣.

(٣) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الشركة، باب الشركة في الطعام والنهد والعروض، ج٣، ص ١٣٨، رقم الحديث (٢٤٨٦)، ولمسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل الأشعريين، ج٤، ص ١٩٤٤، رقم الحديث (٢٥٠٠).

ولنا في دروس الإيثار والتضحية أجملُ القيم، وأجلُّ الفوائد والعبر. فقد قدّم لنا الصحابة الكرام قيماً وآثاراً من فنون الإيثار. ومنها: **أن كل مغنمٍ وربح وفضيلة لا تنال بالضرورة في هذه البسيطة**، والأكيد أن أجرها وجزاءها في جنة عرضها السموات والأرض. وانظر إلى نبي الهدى يشير إلى الفاروق بهذه القاعدة الحكيمة يوم أن حاجه في أمر ملوك فارس والروم وماهم فيه من ترفٍ ونعيمٍ وهو نبي هذه الأمة بأجمعها جنها وإنسها. فقال له: "**الا ترضى يا عمر، أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة، أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم**[(١)]".

وهي ذات المعنى الذي حكاه للأنصار يوم حنين حين قال: «**ألا تحبون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون أنتم برسول الله**»[(٢)]. وصدق الله في محكم التنزيل حكاية عن المجرمين ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا﴾[(٣)]، فهذا مصعبُ بن عمير يضرب لنا في ذلك مثلاً رائعًا، حيث مات في أول الإسلام شهيدًا في غزوة أحد من العام الثالث للهجرة، فكان من أحواله ما يُدهِش ويُبهِر، خاصة حين المقارنة بين حاله عند استشهاده وحاله قبل إسلامه، فهو في مكة الشاب المِعْطار المرفّه، الذي يُعرَف من طيب رائحته قبل أن يبدو بمرْآه للعيون، فكيف بثيابه ومتاعه وطعامه وشرابه؟! وقد مات على هيئة أخرى لا تتفق مع حاله الأولى، فعن خَبَّابِ بن الأرتّ– رضي الله عنه– قَالَ: "**هَاجَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ نَلْتَمِسُ وَجْهَ اللهِ، فَوَقَعَ أَجْرُنَا عَلَى اللهِ، فَمِنَّا مَنْ مَاتَ لَمْ يَأْكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا، مِنْهُمْ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، وَمِنَّا مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ، فَهُوَ يَهْدِبُهَا (يجنيها ويقطفها)، قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ فَلَمْ نَجِدْ مَا نُكَفِّنُهُ إِلاَّ بُرْدَةً، إِذَا غَطَّيْنَا بِهَا رَأْسَهُ خَرَجَتْ رِجْلاَهُ، وَإِذَا غَطَّيْنَا رِجْلَيْهِ خَرَجَ رَأْسُهُ، فَأَمَرَنَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ نُغَطِّيَ رَأْسَهُ وَأَنْ نَجْعَلَ عَلَى رِجْلَيْهِ مِنَ الإِذْخِرِ**"[(٤)].

ونماذج الفداء ودروس التضحية كثيرةٌ، جهاداً في سبيل الله أو تضحية وبذلا وإيثارًا بالمالِ والنَّفس، ومنها نستقي أن دعوة الله عز وجل أعز وأنفس من النفس البشرية. فمن أمثلة صور التضحية في الهجرة تضحية آل الصديق كلهم حباً لله ونصرة لرسوله ﷺ وفداء له، وحماية لهذا الدين العظيم؛ فقد ضحى

---

(١) وتمام الحديث عن ابن عباس، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، قال: دخلت على رسول الله ﷺ، فسلمت، فإذا هو متكئ على رمل حصير ثم أثر في جنبه، فرفعت رأسي في البيت فو الله ما رأيت شيئاً يرد البصر إلا أهبة ثلاثاً، فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يوسع عليك، فقد وسع الله على فارس والروم وهم لا يعبدون الله تعالى، قال: فاستوى جالساً فقال: "أوفي شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا "، فقلت: استغفر لي يا رسول الله "البيهقي: شعب الإيمان، حديث رقم(٩٧١٨).

(٢) البخاري: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف في شوال سنة ثمان، رقم الحديث(٤٠٥٧).

(٣) سورة الأحقاف، آية (٢٠).

(٤) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا لم يجد كفناً إلا ما يواري رأسه أو قدميه غطى رأسه، حديث رقم(١٢٧٦)، وورد في صحيح مسلم: من كتاب الجنائز، باب كفن الميت رقم الحديث (٩٤٠).

صديق هذه الأمة بالمال وبالنفس بل وضحى معه سائر أهل بيته، وكذلك نموذج تضحية علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، بأن نام في فراش النبي ﷺ وهو ما يعرضه للموت من أعداء الدين، ثم لا ننسى نماذج وصور تضحية المهاجرين بترك ديارهم وأموالهم هجرة لله وفي سبيله في مقابل إيثار الأنصار وتقديمهم كل ما في وسعهم لإخوانهم نصرة لله وحماية للدعوة وأهلها، إذ أقبل المهاجرون إلى المدينة لا يملكون مِن أمر الدُّنْيا شيئًا، قد تركوا أموالهم وما يملكون خلف ظهرانيهم، وأقبلوا على ما عند الله، عزَّ وجلَّ، يرجون رحمته ويخافون عذابه، فاستقبلهم الأنصار الذين تبوَّءوا الدَّار، وأكرموهم أيَّما إكرام، ولم يبخَلوا عليهم بشيءٍ مِن حطام الدُّنْيا في صورة يعجز عن وصفها اللِّسان، ويَضعفُ عن تعبيرها البيان.

ومنهم من تنازل عن جاهه وثروته وماله لله، كأمثال ذي النورين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وكالصديق الذي قال يوم أن سئل: ما تركت لهم؟ قال: تركت لهم الله ورسوله، كما ضربوا في معارك القتال وساحات الوغى أروع ضروب الأمثلة وأروع صنوف التضحية، فهذا حنظلة[١] يزف إلى الموت وهو حديث عهدٍ بعرس حتى لقب بغسيل الملائكة، وهذا أبو دجانة تترَّس بنفسه دون رسول الله ﷺ يقع النبل في ظهره وهو منحنٍ عليه حتى كثرت فيه النبال[٢] وأصيبت عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته، فردها رسول الله ﷺ بيده فكانت أحسن عينيه وأحدَّها[٣]. والعجيب أن هؤلاء الصحابة، رضوان الله عليهم جميعاً، قدموا أروع نماذج الإيثَار وأجملها، ومَن يتأمَّل في قصص رائعاتهم يُخال له أنها ضرب مِن خيال، لولا أنَّها نقلت لنا مثبتة مسندة بالأسانيد الدقيقة والأحاديث الصَّحيحة.

(١) إن حادي التضحية كان أملك لنفس حنظلة بن أبي عامر وأملأ لحسه من داعي اللذة، فاستشهد إذ ضربه شداد بن الأسود في المعركة وهو حديث عهد بعرس، فهو غسيل الملائكة فقال رسول الله ﷺ: إن صاحبكم، يعني حنظلة، لتغسله الملائكة؛ ليعطي النموذج الأعلى للتضحية والإيثار والإخلاص لله ولرسوله، يقول المصطفى ﷺ إني رأيت الملائكة تغسل حنظله بن أبي عامر بين السماء والأرض بماء المزن من صحاف الفضة "وحنظلة هو حنظلة بن أبي عامر بن صيفي بن زيد بن أمية بن ضبيعة الأنصاري الأوسي، من بني عمرو بن عوف. من صحابة رسول الله، ﷺ، عرف حنظلة باسم غسيل الملائكة، ولد له ولد بعد استشهاده سموه عبد الله وصار واليًا على المدينة. انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٣، ص٣٢٢.

(٢) أبو دجانة الأنصاري، سماك بن خرشة بن لوذان بن عبد ود بن زيد الساعدي. كان يوم أحد عليه عصابة حمراء، يقال: آخى النبي – ﷺ – بينه وبين عتبة بن غزوان، وانظر الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١، ص ٢٤٤.

(٣) قال ابن إسحاق: وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان، حتى سقطت على وجنته، فردَّها رسول الله ﷺ، بيده، فكانت أحسن عينيه وأحدَّها، وفي الحديث عن جابر بن عبد الله: وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى. انظر ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، فصل رد رسول الله عين قتادة عندما سقطت يوم أحد.

والحق أن نبيَّ الحق قد أدرك عظمة تلك العقيدة في تربية نفوس أصحابه التي دعتهم للتضحية والبذل؛ ولذا قال ﷺ: «**فو الذي نفس مُحَّد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار. وأبناء أبناء الأنصار**»[١].

فقوة العقيدة هي القوة الأساس الناتجة عن قوة الشخص، وهي العامل الرئيس للتضحية والبذل. يدل على ذلك قول أنس -رضي الله عنه-:"**إنْ كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدُّنْيا فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها**"[٢].

فهذه صور من التضحية والفداء، وتلك بعضُ معالم الأخوة والإيثار، وذاك دورهما في بناء قوة المرء وبناء دولة الإسلام.

وبتلك الأسس والأهداف يكون النبي الكريم، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، قد اجتاز بالمسلمين دائرة بناء الفرد العقدي والمعرفي الأخلاقي ليخلص منه إلى واقع التطبيق العملي، وهو الأمر الحسي الملموس الذي نلمسه من خلال البناء النفسي، وتنظيمات الحياة الاجتماعية في المبحث الثاني.

(١) ابن أبي شيبة، عبد الله بن مُحَّد بن إبراهيم، (ت٢٣٥هـ): الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، مكتبة الرشد الرياض، عام ١٤٠٩هـ، حديث رقم (٣١٦٧٧). والحديث من رواية سعد بن مالك رضي الله عنه.

(٢) والمعنى أن الأنصار كانوا يعرفون جيدًا هذه المعاني قبل أن يدخل الرسول ﷺ إلى المدينة؛ لأنهم عاهدوا الرسول في بيعة العقبة الثانية على النفقة في العسر واليسر، وعلى السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على ألا تأخذهم في الله لومة لائم، وعلى أن ينصروه إذا قدم إليهم، ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم. وتمام الحديث عن أنس أن رجلاً سأل النبي ﷺ غنماً بين جبلين فأعطاه إياه فأتى قومه فقال: أي قوم، أسلموا فوالله إن مُحَّداً ليعطي عطاء ما يخاف الفقر، فقال أنس: إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها، مسلم: صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، شيئاً قط فقال: لا، وكثرة عطائه، حديث رقم (٢٣١٢).

المبحث الثاني: البناء النفسي وتنظيمات الحياة الاجتماعية

إن البناء الذي مارسه النبي ﷺ لوضع لبِنة الأساس لتأسيس دولة الإسلام في أساسه بناءٌ عقدي وبناء نفسي؛ فبناءُ العقيدةِ وبناءُ النَّفسِ صنوانِ لا يكادان ينفصلان بحال في غالب الظن –الذي نرجو ألا نأثم به– وشاهد ذلك قول الحق تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1].

وعلى هذا فلربما باتت وقائع ذلك البناء ظاهرة منذ تأسيس مسجده الشريف ﷺ الذي غدا منارة شامخة لتأسيس بناء قواعد الدولة وأركانها فأضحى شعاراً للعقيدة ورمزية الدين. وكان مجال تثبيت العقيدة في نفوس المسلمين، وميدان تطبيق شعائر العبادة والدين، فبه تمارس أحكام العبادات وبداخله تُفصَّلُ المعاملات، وهو مقرٌ للحكم ومكانٌ للعبادة ومدرسةٌ للعلم ودار للثقافة، ومركز للإعلام و تكوين الدعاة والقادة إلى آخره، وثَمة إشارة وإشادة يسيرة إلى دور المسجد في...

المطلب الأول: التربية الذاتية للفرد وتنظيم العلاقات الاجتماعية بين المسلمين ويمكن أن تقسم إلى عدة نقاط أو عناصر

الوظيفة الدينية، والتربية الاجتماعية المتمثلة بالمسجد وماله من قيم...

أولا: البناء المعرفي والاجتماعي.

لقد رَكَّزَ النبيُّ ﷺ على الحياة الدينية والروحيّة التي كانت الهدفَ الأوّل الذي بُعِثَ من أجل تحقيقه؛ وهو في ذلك سعى للبناء النفسي للفرد والتربية الاجتماعية، فبَادَرَ حين ذاك، ومنذ دخوله إلى المدينة، إلى تثبيت أركان الدولة الإسلامية على أسسٍ قوية، فكان بناء المسجد على رأس أولوياته ﷺ بوصفه اللبنة الأولى للبناء الاجتماعي والديني للدولة الجديدة الناشئة[2]. وعلى أن المسجد في وصف بنائه المتواضع من

---

(١) سورة الشمس، الآيات (٧ - ١٠).

(٢) يقول البوطي في فقه السيرة: "ولا عجب أن تكون إقامة المسجد أول وأهم ركيزة في بناء المجتمع الإسلامي؛ ذلك أن المجتمع المسلم إنما يكتسب صفة الرسوخ والتماسك بالتزام نظام الإسلام وعقيدته وآدابه، وإنما ينبع ذلك كله من روح المسجد ووحيه، ففيه تشيع آصرة الأخوة والمحبة بين المسلمين، وفيه تشيع روح المساواة والعدل حيث يقف المسلمون فيه كل يوم صفاً واحداً بين يدي الله عز وجل قد وقفوا على صعيد واحد من العبودية وتعلقت قلوبهم بربهم الواحد جل جلاله؛ كما وأن في المسجد ينصهر أشتات الناس في بوتقة من الوحدة الراسخة يجمعهم عليها حبل الله الذي هو حكمه وشرعه".البوطي، مُحَمَّد سعيد رمضان: فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر المعاصر بيوت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، د.ت ص ٢١٣.

الفَرش الرمليّ الحصبائيّ، وحوائطه اللَّبِنِيَّة، وسقفه الجريديّ، وأعمدته الجذعيَّة؛ لم يكن مكاناً للصلاة فحسب، وملجأً للعبادة فقط، فلم يكن هدف الرسول ﷺ إيجاد مكان للعبادة وإقام الصلاة؛ فالدين الإسلامي يجعل الأرض كلها مسجدًا للمسلمين وطهورا[١]، ولكنَّ مهمة المسجد كانت أعظمَ من هذا وأجلّ وأعمقَ، فلقد أراد الرسول ﷺ أن يبني بيتًا لله وبيتاً لجميع المسلمين يجتمعون فيه للعبادة والمشاورة فيما يهم أمر الإسلام والدولة، ويتخذون فيه قراراتهم، ويناقشون فيه إشكالاتهم، ويستقبلون فيه وفود القبائل وسفراء الملوك و الأمراء من هنا وهناك[٢].وبأسلوب العصر كان المسجد مقرًا للحكومة بالمدينة، وكان بهذا الوضع أشبه بمدرسة يتعلم فيها المسلمون، وتمتزج فيها نفوسهم وعقلياتهم. فتماشى في بنائه مع ظروف المجتمع المدنيّ، بيد أنه خَرَّج قادةَ العصر والعالم، وسادةَ الدنيا وأئمة المنابر، فكان مدرسةً للتعليم والثقافة، ومقرًّا للتوجيّه والقيادة، ومركزاً للعبادة والعلم والحكم والإدارة، وموضعًا للتشاور وفض الخصومات وتناول القضايا والمهمات، أضف إليه أنه كان مكاناً للتَّعارف والتآلف والوحدة بين المسلمين، ومأوىً للفقراء من أهل الصُّفة وفقراءِ المهاجرين، فمثل بتلك الوظائف مقراً للمجتمع المسلم ورمزاً ومنارة لشعائر الإسلام ونهجه، وسِر عظمته وعنوان وجوده، فكان بذلك مَعْلَماً حضارياً، ومركزاً روحياً وثقافياً وجهادياً؛ حتى عدّه البعضُ دائرةً سياسية عسكرية لتوحيد علاقات الدولة في الداخل والخارج، ومدرسةً علمية وتشريعية يجتمع في ساحاتها أصحاب الرسول ﷺ وتدار في باحاتها الندوات، وتُلقى على منبرها المتواضع التعاليم والكلمات، وكذلك عُدّ مؤسسةً اجتماعية يتعلم فيها النظام والمساواة ويمارس فيها الانضباط والوحدة فالإخاء، ومحكمةً يحكم النبي ﷺ فيه بين المتخاصمين بالحق والعدل والإنصاف، ومركزاً للنشاطاتِ السياسية وإدارة الشؤون العسكرية[٣].

---

(١) "وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فإيما رجل أدركته الصلاة فليصلِ" البخاري: صحيح البخاري، كتاب الصلاة، ، باب قول النبي ﷺ جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، من حديث جابر بن عبد الله، رقم الحديث ٤٢٧ ص٦٣٥.

(٢) كان أعضاء الوفود القادمين إلى النبي ﷺ، يلتقون به في المسجد، ويتبادلون معه الآراء فيرشدهم إلى الدين الإسلامي، وتشير مصادر السيرة عن توافدهم في عهد النبي ﷺ، ودخولهم عليه في مسجده، وقد سمح لبعضهم قبل إسلامهم أن يؤدوا صلاتهم فيه. ومن ذلك وفد نصارى نجران المؤلف من أربعة عشر شخصاً، دخلوا المسجد النبوي وقد حانت صلاتهم فقاموا في المسجد يصلون، فقال النبي ﷺ دعوهم، فصلوا إلى المشرق. كما أنزل وفد ثقيف ووفد خزاعة، ولقد تعمد النبي ﷺ ذلك لكي يطلع أعضاء هذه الوفود على أحوال المسلمين وعباداتهم، فتنشرح صدورهم للدخول في الإسلام، ولكون المسجد هو المكان الوحيد الذي كان النبي ﷺ يدير منه أمور المسلمين). ابن هشام: مصدر سابق، ج٢، ص ١٦٩-١٧٠.

(٣) أما ما يتعلق بالنشاط العسكري في المسجد، فهناك أخبار تدل على قيام النبي ﷺ بممارسة هذا النشاط فيه إذ كان =

فكان نقطة انطلاقة الجيوش الفاتحة، حيث تزود بالنصائح والوصايا النبوية، وبذلك كان المسجد مدرسة ومعهداً وجامعة ينهل فيه الناس من بحر العلم وصنوف المعرفة إلى جانب كونه مركزاً للفعاليات الدينية والسياسية العامة للأمة الناشئة، وهو أشبه ما يكون بقاعدة لإدارة جميع الشؤون وبث الانطلاقات، وبرلمانٌ لعقد المجالس الاستشارية والتنفيذية، ومنتدىً أدبي – بلغة العصر – تتبارى فيه المساجلات الشعرية والخطب الدينية(١) وتتلاقى وتتآلف فيه العناصر القبلية المختلفة التي طالما نافرت بينها النزعات الجاهلية في حروبها الضارية.

وهكذا كان المسجد اللبنة الأولى في قيام الدولة الإسلامية لأنه هيئ مركزًا للدولة الإسلامية، ومقراً لأداء فرائض الصلوات الخمس الجماعيَّة، وتلقي توجيهات المواعظ النبويَّة، فحقق بذلك الغرض من تأسيسه دينياً وسياسياً واجتماعيًا.

ولتكامل البناء الإنساني في أسمى صوره كان للإسلام نظرةٌ شمولية للبناء الاجتماعي بشقيه وتحديد أهميته وتطبيقاته وتوضيح معانيه ومدلولاته، ولا غَرو فالبناء النفسي هو لبه والأساس المكمل له؛ فمن المعروف والمألوف قطعاً أن أول ما يلمسه المسلم في منظومة بنائه النفسي أنه جزء لا يتجزأ من المجتمع الذي ينتسب إليه، فالإنسان اجتماعيٌ بطبعة ميالٌ بطبيعته إلى الأنس والجماعة، وهو دائما يجنحُ إلى الأمن في بيئته ومجتمعه، ولقد كان إنسان ما قبل الإسلام يتمحور في سلوكه الاجتماعي حول ذاته ونفسه، وينطلق في تعامله مع الآخرين من منظار مصالحه وأهوائه، وينساق بعيدًا مع أنانيته حتى وصل به الأمر أن هبط في القاع الاجتماعي إلى درجة الوأد لأبنائه، خشية الإملاق والفقر، كذلك كان التقسيم الطبقي

=

إعلان النفير عن الغزوات والسرايا يتم في المسجد. وكذلك كان المجاهدون يتوجهون إلى المسجد عندما يعودون من غزواتهم لتصفية آثار تلك الغزوات، ويذكر ابن هشام أن النبي ﷺ أمر عبدالرحمن بن عوف أن يتجهز لغزوة دومة الجندل سنة (٥) هـ /٦٢٦م، وهو جالس في المسجد بين أصحابه. بالإضافة إلى ممارسة النشاط العسكري فقد كان يُمارس في المسجد النشاط السياسي، ومن أبرز الأمور السياسية التي دارت في المسجد وصية النبي ﷺ التي أعلنها قبل وفاته، انظر ابن هشام: مصدر سابق، ج٤، ص ٢٤٣-٢٤٤.

(١) ومن أمثلة ذلك ما كان من عام الوفود إذ قدم وفد تميم على رسول الله ﷺ تكلم خطيبهم، فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن الشماس، أخي بني الحارث بن الخزرج: "قم فأجب الرجل في خطبته". فقام ثابت وأثنى على الله وأجابهم، قال ابن إسحاق: فلما فرغ ثابت بن قيس من قوله قال الأقرع بن حابس وأبي: "إن هذا الرجل لمؤتى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا ". فلما فرغ القوم أسلموا، وجوزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم. ابن كثير، البداية والنهاية، ج٥، ص٤٨٤.

والقبلي، هو ظاهر البناء الاجتماعي الجاهلي للمجتمع وقوامه، إذ تشكل واقع الجماعة لديهم إلى طبقتين أساسيتين رئيستين؛ طبقة الأشراف وهم أهل الثراء والجاه، وطبقة العبيد الذين يدورون في فلك أسيادهم وسادتهم .

فلما جاء الإسلام أولى عناية تامة للحياة الاجتماعية والروابط الجماعية ونقل بتشريعاته الأفراد من حالة التناقض والصراع إلى حالة التعارف والتعاون والتحاب، فشكلوا أُمّة واحدة مرهوبة الجانب بعد أن كانوا قبائل وجماعات متفرقة متناحرة لا يأمن بعضها بعضاً، ولا تقيم لهم الأُمم قيمة ولا وزناً.

أضف إليه تغيير الإسلام لعادات وتقاليد الجاهلية التي تُسيء لكرامة الإنسان وتسبب له العنت والشقاء إلى تعاليم العقيدة الإسلامية ومبادئها السمحاء. فعمد الإسلام إلى تنظيم العلاقات والروابط والصلات فيما بين الأفراد بعضهم مع بعض في سائر مجتمعاتهم وجُلّ اجتماعاتهم؛ فبينما كان فكر الإنسان الجاهلي منصبّاً حول ذاته متقوقعاً صوب مصالحها واحتياجاته، غدا بتفاعله مع إكسير العقيدة يُضحّي بالغالي والنفيس في سبيل مبادئ دينه وصالح الجماعة الإنسانية ومصالح مجتمعه، ولا سيما وقد أزالت عقيدة الإسلام تناقضه القائم بين دوافعه الذاتية ومصالح الجماعة من خلال إيقاظ حسّ شعوره بالمسؤولية تجاه الآخرين، وتنمية روح التضحية والإيثار لديه، ودفعه إلى الانصباب في قالب الجماعة، بتغيير صلاته الاجتماعية، التي كانت تقوم على أساس العصبية للقرابة والقبيلة، أو على أساس اللون أو المال أو الجنس، إلى روابط أسمى وأعمق وأدق تقوم على أسسٍ معنوية هي التقوى والفضيلة والأخوة الإسلامية.

ولقد كانت أهميه التأكيد على الجماعة في الإسلام تتجلى بحاجه الفرد إلى الأمن الاجتماعي، وإلى روح الجماعة إضافة إلى حاجته الملحة لممارسة كثير من الأنشطة والتعاملات والمنافع الضرورية بروح جماعية تجمع ما بين طرفي المتعاملين كالبيع والشراء والزواج وسائر العقود والمعاملات التي لا يَصح مباشرتها لواحد، وكذا أمر الحوار ونقل الآراء والأفكار بين الآخرين مثلاً؛ إذ لا يكون إلا بين جماعة من الناس وأقله بين اثنين. كذلك فإن المشاعر والأحاسيس النفسية في الأفراح والأتراح لا يمكن تصورها إلا بين الجماعة؛ ولهذا يقول المصطفى ﷺ إشاعة لروح الفرح الجماعي «**أولم ولو بشاة**»[1].

---

(١) البخاري: صحيح البخاري، كتاب النكاح ، باب الوليمة ولو بشاة، حديث (٤٨٧٢)، ص ١٤٠. وتمام الحديث ما أخبر به أنسٌ، رضي الله عنه، قال: "لما قدمنا المدينة نزل المهاجرون على الأنصار فنزل عبد الرحمن بن عوف على سعد بن الربيع فقال: أقاسمك مالي، وأنزل لك عن إحدى امرأتي، قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، فخرج إلى السوق فباع واشترى فأصاب شيئا من أقط وسمن فتزوج فقال النبي ﷺ: "أولم ولو بشاة".

في مقابل الأمر بالتكافل الاجتماعي بمواساة المصُاب والعزاء له «**اصنعوا لآل جعفر طعاماً فإنهم أتاهم ما يشغلهم**»[١].

وعلى كلٍ فالإنسان معنيٌ بتقويم سلوكه، ولا يظهر هذا السلوك إلا بممارسة النشاط الجماعي والاجتماعي، بل وأبعدُ من ذلك فأربعٌ من أركان الإسلام الخمسة لا تكون إلا جماعة فإقام فرائض الصلوات الخمس على الرجال لا تكون إلا جماعة ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[٢]. وركن الصيام في شهر رمضان يُؤدى أقرب ما يكون بصورةٍ جماعية، وإيتاء الزكاة تكافلٌ بين طرفين من الغني للفقير فيها روح الجماعة، وحج بيت الله الحرام خلطةٌ جماعية منظمة لأداء شعيرة واحدة، وفي ذروة سنام الإسلام الجهاد في سبيل الله جاء الحث الإسلامي على روح القوة الجماعية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾[٣].

والأمر والنهي لأهمية الجماعة تشريعٌ إلهي وتوجيهٌ نبوي؛ فلقد دلت الكثير من نصوص توجيهات الآيات القرآنية والنداءات الربانية على أهمية ذلك، وتواردت الكثير من الآداب والسنن النبوية في إيضاح ذلك؛ وكل ذلك لإيجاد الفرد الاجتماعي الذي يُحسن إلى مجتمعه وذاته، ولا أدلَ على ذلك من مباركة النبي ﷺ للعمل الجماعي بقوله: "**يد الله مع الجماعة**"[٤]، وكذلك الحث بالأمر الإلهي على روح التعاون الجماعي على الخير ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[٥] وفي مندوحة السفر الأمر بالجماعة "**الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثلاثة ركب**[٦]".

(١) رواه الترمذي وحسنه في الحديث رقم (٩٩٨) قال الترمذي. وقد كان بعض أهل العلم يستحب أن يوجه إلى أهل الميت بشيء لشغلهم بالمصيبة.

(٢) سورة البقرة آية (٤٣).

(٣) سورة الصف (٤).

(٤) رواه الترمذي (في الحديث رقم ٢١٦٧) عن ابن عباس رضي الله عنه، وله من حديث ابن عمر، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ، قال: "إن الله لا يجمع أمتي"، أو قال: "أمة مُحَّد ﷺ على ضلالة، ويد الله مع الجماعة" والحديث صحيح كما في صحيح الجامع برقم (١٨٤٨).

(٥) سورة المائدة آية (٢).

(٦) الترمذي: سنن الترمذي، رقم الحديث (١٦٧٤) وقال حديث حسن. وحسنه ابن حجر في "فتح الباري"ج٦، ص ٥٣ والألباني في "السلسلة الصحيحة"(٦٢) وقريب منع حديث عنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي الْوَحْدَةِ مَا أَعْلَمُ، مَا سَارَ رَاكِبٌ بِلَيْلٍ وَحْدَهُ).

وجاء عن الفرقة عن الجماعة في السنن لأبي داود قال ﷺ:"**إنما ذلكم من الشيطان**"[١].

بل وأوسع من ذلك إذ اعتبر الإسلام بُعد الإنسان عن الجماعة شكلاً من أشكال العقوبات لدى الناس جميعهم، فما السجن ولا النفي إلا شكل من أشكال الحرمان الاجتماعي، وفي بعض دروس السيرة ما يجسد حقيقة ذلك، حيث استخدم سلاح المقاطعة الاجتماعية لدى بعض الأفراد – كما هو الشأن مع الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك– فكان العزل من أقسى أشكال العقاب، وقد تولى التعبير القرآني تجسيد الأثر النفسي لهذا النوع من العقوبات[٢].

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾[٣]. وخلاصة الأمر "**الجماعة رحمة والفرقة عذاب**"[٤] و"**المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً**" كما صح عن الصادق المصدوق ﷺ"**وشبك بين أصابعه**"[٥].

على أن يكون هذا الاجتماع بين المسلمين محفوفاً بالحقوق ومغلفاً بالآداب والواجبات، يقول المصطفى ﷺ:"**وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره**" وأعظمَ من ذاك كما في تتمة الحديث "**كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه**"[٦].

---

(١) أبو داود: السنن، كِتَاب الْجِهَاد، باب مَا يُؤْمَرُ مِنَ انْضِمَامِ الْعَسْكَرِ وَسَعَتِهِ، رقم الحديث (٢٢٦٢) ونص الحديث عن أبي ثعلبة الخُشنيّ – رضي الله عنه – قال: كان الناس إذا نزلوا منزلاً تفرقوا في الشعاب والأودية فقال رسول الله ﷺ: "إن تفرقكم في هذه الشعاب والأودية إنما ذلكم من الشيطان ! "فلم ينزلوا بعد ذلك منزلاً إلا انضم بعضهم إلى بعض حتى يقال: لو بسط عليهم ثوب لعمهم ".

(٢) الجيوسي، عبدالله مُحَمَّد: البناء النفسي للمسلم في ضوء السنة النبوية وأبعاده الحضارية، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد(٢٥)١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م مجلة علمية محكمة، جامعة قطر، ص٣٦.

(٣) سورة التوبة آية (١١٩).

(٤) الشهاب القضاعي أبو عبد الله مُحَمَّد بن سلامة بن جعفر بن علي (ت٤٥٤هـ): مسند الشهاب، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط ١٤٠٧هـ، والحديث عن النعمان بن بشير رقم (١٥). رواه أحمد والطبراني والبيهقي بسند صحيح.

(٥) البخاري: صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب نصر المظلوم، ج٣، ص ١٢٩، رقم الحديث(٢٤٤٦)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ج٤، ص ١٩٩٩، رقم الحديث (٢٥٨٥).

(٦) مسلم: صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، حديث رقم ٢٥٦٤، ص ٩٤.

نعم لقد تناولت عناية الشارع الكريم البناء النفسي أولاً، ثم أتبعته بركيزة البناء الاجتماعي بكل معانيه وجوانبه المكونة له[١]؛ بما يحقق التربية الذاتية للفرد ومتطلباته النفسية، وبما يضمن وينظم حاجته الاجتماعية على مستوى أعمق وأوسع، فعلى الجانب الاقتصادي أتاح الإسلام حرية العمل والمنفعة الاقتصادية، فإذا كسب المال، حلالاً خالصاً من كسب يده وعرق جبينه، أخذ بيده نحو توجيهه الانتفاع بالمباحات ثم انتقل به إلى تنظيم متطلبات حياته من نواح اجتماعيه في مجتمعه، وبين الجماعة من الناس من حيث تنظيم تعاملاته ومعاملاته من تجارة واقتصاد، بل وصحة وأمن وسلامة على ما سنفصل في محاور المطلبين الأول والثاني من هذا المبحث.

المحور الثاني: تربية الفرد بالانتفاع بالمباحات المتاحة.

سبق البيان أن الشارع الحكيم تناول الإنسان بكل جوانبه الشخصية بما في ذلك البناء النفسي، وما يدخل في تركيبه من البناء الجسدي ومتعلقاته. والإسلام في هذا يهدف إلى تكوين شخصية تتمتع ببدن سليم وفكرٍ سوي مستقيم، وهو الذي أتاح أسباب هذا، وأباح الرزق حلالاً طيّباً" ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[٢] ولربما كانت من أسمى أهداف البعثة - بعد التعليم والتزكية- الانتفاع بالمباحات ومنافع الرزق الحلال ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[٣].

ولقد تظاهرت نصوص الشرع الكريم تحرص على الوفاء بحاجات الإنسان ومتطلباته من المأكل والمشرب والزينة والنوم واللباس والمتاع والمسكن وغيرها من المباحات والضرورات الملحة لحياة الإنسان ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[٤]، وفي الأخرى ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[٥] وقد أشار قبل ذلك -الخالق سبحانه - في معرضِ التنبيه على أهمية ما سخَّر من النعم لتوفير جوانب متطلبات الحياة الإنسانية من مسكنٍ ومأكلٍ ومشربٍ أوملبس ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا

(١) وهي الجانب الأسْري والجانب الاقتصادي فالتعليمي ثم الإداري.

(٢) سورة الملك آية (١٥).

(٣) سورة الأعراف آية (١٥٧).

(٤) سورة الأعراف آية (٣١).

(٥) سورة الأعراف آية (٣٢).

خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴾[١].

ورغم أن الشرع الحكيم أباحها وأتاحها ذلولاً مسخّراً ولكنَّه أخضعها لنظمٍ وقوانين حدد معها المباحات وميَّز منها المناهي والمحرمات. ففي مجال الأكل والشراب أحل الله سائر النعم والطيبات من الرزق وحرم الخبائث من المأكل والمشرب كلحم الخنزير، والميتة، وكل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير، وشرب الخمر والنبيذ إلى غيرها مما تناولته آيات الكتاب ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ﴾[٢] إلى غيرها من الآيات؛ لما فيه من الإضرار بالبدن، أو سوء المزاج في العقل والفكر. ودعا بعامةٍ إلى الوقاية من فساد العقل والبطن. وفضول الطعام ومن ويلات التخمة، وذهاب الفطنة؛ وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ في الحديث الشريف عن مقدام بن معد يكرب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لنَفسه وثلث لشرابه**»[٣].

وعن الأشربة تواترت نصوصُ سننِ الآداب النبوية في التشريع والتوضيح لجملة من الآداب والأحكام التشريعية[٤].

(١) سورة النحل أية (٨٠–٨١).

(٢) سورة المائدة آية (٣).

(٣) رواه ابن ماجه في السنن، باب الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع، وللترمذي في الجامع، باب ما جاء في كراهية الإكثار من الأكل، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٢٢٦٥).

(٤) ومنها ما جاء في باب النهي عن الشرب في حالات معينة، كالنهي عن الشرب قائماً، كما في الحديث المروي عن أنس – رضي الله عنه–: "أن النبي ﷺ زجر عن الشرب قائماً "أو النهي عن الشراب في هيئات معينه كالشرب من فم السقاء، ففي صحيح البخاري في باب الشرب من فم السقاء من كتاب الأشربة، حديث رقم (٥٦٢٧) عن أبي هريرة– رضي الله عنه– قال: "نهى رسول الله ﷺ عن الشرب من فم القربة أو السقاء "أو الشرب في آنية الذهب والفضة كما في الحديث، عن حذيفة "نهى رسول الله أن نشرب في آنية الذهب والفضة، وأن نأكل فيها "أو الشراب على مائدة خمر فقد جاء النهي عن الجلوس على مطعمين "الجلوس على مائدة يشرب عليها الخمر، وأن يأكل الرجل وهو منبطح على بطنه"كما في سنن أبي داود، ج٣، ص٣٤٩ أو التنفس في الإناء "إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء، إلى غير ذلك من الآداب والأحكام، وانظر صحيح البخاري، ج٧، ص١٤٨.

وفي النوم الذي هو مظنة راحة البدن ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾[١] جاءت التوجيهات النبوية من الأوامر والنواهي التشريعية في سنن النوم تباعاً فمن ذلك ما جاء عن النهي عن النوم على سطح غيرِ مسورٍ بحجارةٍ حتى لا يُسقط منه.

ففي الحديث الذي يرويه عبد الرحمن بن علي عن أبيه قال: قال رسول ﷺ: «**من بات على ظهر بيت ليس له حجار فقد برئت منه الذمة**»[٢].

على أن أهمَ ما ورد من آداب في هذا الباب ما جاء في الحديث المروي عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما، حين قال:"**قال رسول الله ﷺ: إذا كان جنح الليل أو أمسيتم فكفوا صبيانكم فإن الشياطين تنتشر حينئذ، فإذا ذهب ساعة من الليل فحلوهم فأغلقوا الأبواب واذكروا اسم الله؛ فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً وأوكوا قربكم، واذكروا اسم الله، وخمروا آنيتكم واذكروا اسم الله، ولو أن تعرضوا عليها شيئاً، وأطلقوا مصابيحكم**[٣]".

وتتعدى سنة التشريع في المباحات والاحتياجات من المأكل والمشرب والنوم إلى الحاجة إلى اللباس والزينة. فلقد كرم الإسلام الإنسان بأن جعل له لباساً يستر عورته ويحفظ له حُسن مظهره وهيئته، وهو مما انفرد به عن سائر المخلوقات، فاللباس نعمة من نعم الله على الإنسان وضرورة من ضروريات الحياة الإنسانية، وفي الحديث "**إن الله يحب إذا أنعم على عبده نعمة أن يرى أثر نعمته عليه**"[٤]. فهو ضرورة يحتاج إليه الناس؛ لحفظ أجسامهم وصونها من كل ما يؤذيها أو مما يُدفع به الضرر من حر أو برد أوستر العورة أو غيرها من الحاجات والمنافع. ومع الإباحة والحِل جاء التقنين فحُرّم تشبه النساء بالرجال، وتشبه الرجال بلبس ما يخص النساء ف"**لعن رسول الله الرجل يلبس لبسة المرأة والمرأة تلبس لبسة الرجل**"[٥]

---

(١) سورة الفرقان آية (٤٧).

(٢) أبو داود: السنن، أبواب النوم، باب في النوم على سطح غير محجر والحديث عن شيبان عن أبيه حديث (٥٠٤١)، ص ٣١٢.

(٣) البخاري: الصحيح، مصدر سابق، كتاب الأشربة باب تغطية الإناء حديث رقم (٥٣٢٤).

(٤) العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، (ت ٨٥٢هـ): بلوغ المرام من أدلة الأحكام، دار الآفاق الفكرية، القاهرة، (د.ت)، ص ١٦٤.

(٥) الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله مُحَّد بن عبد الله (ت٤٠٥هـ): المستدرك على الصحيحين، دار المعرفة، عام ١٤١٨هـ، والحديث من كتاب الأطعمة، لعن النبي المرأة تلبس لبسة الرجل، والرجل يلبس لبسة المرأة، والحديث عن أبي هريرة على شرط مسلم، ولم يخرجاه برقم (٧٤٩٢).

ومنع النساء من التعطر بحضرة الرجال الأجانب، وحرم لباس الشهرة وجر الثوب خيلاء، ولبس الحرير والمعصفر[١] للرجال وأبدله بالبياض[٢].

وفي الوقت الذي هدف به الشارع الحكيم من اللباس ستر العورة ألزم بها وشدد آمرًا بالمنع لكل لبسٍ يصِفُ أو يشفُّ ويكشفُ من الألبسة الضيقة الرقيقة، بل جعل ذلك مجالَ معصية الخالق وفتنة الشيطان للمخلوق قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[٣].

وأما ما يتعلق بالزينة فقد أباح الإسلام لأهله التجمُّل بأنواع الزينة، والتوسع في التمتع بالمباحات على شرط القصد والاعتدال وحسن النية، والوقوف عند الحدود الشرعية والمحافظة على الآداب الإسلامية ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾[٤]، فحث على التجمّل والتزين بكل صوره مما هو مباحٌ متاح ففي الحديث "**غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود والنصارى**"[٥] كذلك أمر بخضاب الحناء للشعر واللحى، والتطيب للجمعة والعيدين ونحوهما وقد جاء عن الإشادة بالطيب: "**مَنْ عُرِضَ عَلَيْهِ رَيْحَانٌ فَلَا يَرُدُّهُ فَإِنَّهُ خَفِيفُ الْمَحْمِلِ طَيِّبُ الرِّيحِ** "[٦] وعلى سبيل الأخذ

(١) والعصفر (بضم العين والفاء) صبغ، وقد عصفر الثوب (فتعصفر أي لوّن)، الرازي، مُحَمَّد بن أبي بكر بن عبد القادر(ت ٦٦٦هـ)، مختار الصحاح، دار الرسالة، الكويت (د.ت)ص٤٣٧.

(٢) جاء في سنن أبي داود"من لبس ثوب شهرة في الدنيا ألبسه الله ثوب مذلة يوم القيامة »ح (٣٣٩٩)، وعن خيلاء، اللباس جاء عن مسلم في صحيحه بحديث رقم (٢٠٨٥) عن ابن عمر: "لا ينظر الله إلى من جر ثوبه خيلاء "وعن لبس المعصفر في حديث علي رضي الله تعالى عنه لمسلم بحديث رقم (٢٠٧٧)أن رسول الله ﷺ "نهى عن لبس القُسي والمعصفر"وفي حديث أبي حذيفة جاء النهي "عن لبس الحرير والديباج، وأن نجلس عليه "وأما عن استحباب لبس البياض"جاء عن النسائي في السنن "عليكم بالبياض من الثياب فليلبسها أحياؤكم وكفنوا فيها موتاكم فإنها من خير ثيابكم "والحديث للنسائي، أبو عبد الرحمن بن شعيب (٣٠٣هـ): سنن النسائي، شرح الحافظ جلال الدين السيوطي، دار إحياء للتراث العربي، لبنان، (د.ت)، ج٨، ص٢٠٥.

(٣) سورة الأعراف اية (٢٧). وفي الحديث الذي خاطب فيه المصطفى أسماء بنت أبي بكر وقد رأى عليها ثياباً رقاقاً "يا أسماء، إن المرأة اذا بلغت المحيض لم تصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا وأشار إلى وجهه وكفيه ".

(٤) سورة الأعراف آية (٣١) وانظر ياسين: جوانب من متطلبات الحياة اليومية، مرجع سابق، ص ٣٠٨.

(٥) البخاري: صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب الخضاب، رقم الحديث (٥٥٥٩)، ص ٣٦٧.

(٦) مسلم: صحيح مسلم، كِتَاب الْأَلْفَاظِ مِنْ الْأَدَبِ .. بَاب اسْتِعْمَالِ الْمِسْكِ .. رقم الحديث (٤١٨٣)، ج١١ص٣٣١.

بمظاهر الزينة كلها، الاهتمام بنظافة الجسم وتجميله، وعن ذلك يقول المصطفى ﷺ"**خمسٌ من الفطرة الختان والاستحداد ونتف الإبط وتقليم الأظفار وقص الشارب**"(١).

وراعى الإسلام حاجة النساء إلى الحلي وفطرتهن على التجمل وحبهن للزينة ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ ﴾(٢)، ومع ذلك فقد أكدَّ على آداب المرأة في الزينة فلا يجوز تعمدُ إظهار شيءٍ منها بقصد ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾(٣) كما حرم عليهن الوصل والتفليج والوشم والنمص؛ ففي الحديث: "**لعن الله الواشمات والمستوشمات والنامصات والمتنمصات والمتفلجات(٤) للحسن المغيرات خلق الله**"(٥).

في الحين الذي رخَّص لهنَّ الكتم والحناء في اليد والرجِل والأظفار والشعر، والتزين بلبس الحرير والذهب "**أحل الذهب والحرير لإناث أمتي، وحرم على ذكروهم**"(٦) كما جاء استحباب اكتحالهن بالإثمد والتزين بالزعفران والطيب بما خفي ريحه وظهر لونه.

وعن إباحة الاستمتاع بالمسكن والمركب، وهو من الحِل المباح، جاء في الحديث الشريف قَوله ﷺ:"**أَرْبَعَةٌ مِنَ السَّعَادَةِ: الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ وَالْمَسْكَنُ الْوَاسِعُ، وَالْجَارُ الصَّالِحُ، وَالْمَرْكَبُ الْهَنِيءُ، وَأَرْبَعَةٌ مِنَ الشَّقَاءِ: الْمَرْأَةُ السُّوءُ، وَالْجَارُ السُّوءُ، وَالْمَسْكَنُ الضَّيِّقُ، وَالْمَرْكَبُ السُّوءُ**"(٧) والخلاصة أن الله تعالى أباح وأحل كل طيبٍ حلال، ولكن قيده بضوابطٍ شرعية دون سرف ولا مخيلة .

ومن تنمية احتياجات النفس بالمباحات الحسية إلى تنمية الميول والعواطف المعنوية كحب (المال والمدح والإطراء، أو الظهور والثناء) فمن كمال حكمة ديننا الإسلامي الحكيم وتمام دقة تشريعاته أنه لم يغفل جانب تنمية ميول الإنسان وعواطفه وتنمية غرائزه ودوافعه، من الرغبة في الثناء والمدح والإطراء وكل هذا وذلك من مكملات جوانب البناء النفسي بل من متطلبات حياة المرء في تعايشه الاجتماعي، والأمثلة النبوية التي غذّت

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، رقم الحديث (٢٥٧)، ص ٤٩١.

(٢) سورة الأحزاب آية (١٨).

(٣) سورة النور آية (٣١).

(٤) التفلج أن يفرج بين المتلاصقين بالمبرد ونحوه، وهو مختص عادة بالثنايا والرباعيات، وانظر العسقلاني، فتح الباري، ج١٠، ص ٣٧٢.

(٥) مسلم: صحيح مسلم، من كتاب اللباس والزينة، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة، والواشمة والمستوشمة، والنامصة والمتنمصة، والمتفلجات والمغيرات خلق الله حديث رقم (٢١٢٥).

(٦) العسقلاني: بلوغ المرام، مصدر سابق، ص ١٦٤.

(٧) ابن حبان: مُحَّد بن حبان التميمي، (ت٣٥٤هـ): صحيح ابن حبان ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ من حديث سعد بن مالك، رقم الحديث(٤١٢٢)، ص٣٥٤.

ذلك كثيرة، فمن ذلك فيما يخُصُ المسائل المالية وتأليف القلوب بها، ومثال ذلك ما رواه مسلمٌ عن ابن شهاب أنه قال: "**غزا رسول الله ﷺ بحنين فنصر الله دينه والمسلمين، وأعطى رسول الله ﷺ يومئذ صفوان بن أمية مائة من النعم ثم مائة ثم مائة**"(١) ويؤكد الأثر النفسي لهذا العطاء ما قاله صفوان عن نفسه: "**والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ**"(٢)، ولعل هذا هو السر في ترغيبه ﷺ بعض الكفار بالمال لاعتناق الإسلام(٣).

كذلك حرص الشرع الحنيف على التوجيه السليم فيما يتعلق برغبة المرء في المدح والثناء، وقد جُبلت النفس عليه، ومنه حب الظهور، ولعل فيما قاله ﷺ يوم الفتح: "**ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن**"(٤) من هذا القبيل، إذا لا يخفى على أحدٍ ما تركته هذه العبارة من أثر إيجابي في نفس أبي سفيان، فقد أشبعت نفسه مع أنها جاءت بعد قوله **(ومن دخل بيته فهو آمن)** فلا حاجة لمن يجد الأمن في بيته أن يدخل بيت أبي سفيان(٥).

وهكذا نرى جلال كمال تعاليم الشرع الحنيف، وتطبيقات النبي القدوة ﷺ في سنته الشريفة تسعيان لبناء النفس والجسد حسيًا ومعنويًا بما يصون إنسانية المرء عن المرادي والمهلكات في الطعام والشراب واللباس وسائر المنافع والمباحات بما يحقق النفع ويلائم الفطرة السوية.

المحور الثالث: الحرية الاقتصادية والحث على العمل والكسب الحلال.

إنّ توفير جوانب من متطلبات الحياة المختلفة والأساسية ضرورة أساسية ودعوة شرعية، فقد ورد الكثير من الأدلة الشرعية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي حثت على العمل والكسب الحلال؛ فلقد دعا الإسلام بادئ الأمر إلى كسْب المال بالجد والجهد والعمل فقال الرب سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾(٦).

---

(١) مسلم: الصحيح، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال لا، ج١، ص٣٨١، ح (٢٣١١)

(٢) مسلم : صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، شيئاً قط فقال :لا، وكثرة عطائه، حديث رقم (٢٣١٣).

(٣) البنا، أحمد بن عبد الرحمن : الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)، ج٩، ص ٦٠.

(٤) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة، حديث رقم (٣٤٣٤).

(٥) الجيوسي: البناء النفسي للمسلم في ضوء السنة النبوية وأبعاده الحضارية، مرجع سابق، ص ٢٦٤.

(٦) سورة الجمعة آية (١٠).

وسخَّر أسباب ذلك: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾[١] إضافة إلى منحه الحرية الاقتصادية في ميادين العمل كافة فمنذ الأزل سعى الإنسان الأول، جاهداً مجتهداً؛ من أجل الحصول على متطلبات الحياة المعيشية، من مأكل، وملبس ومشرب وغيرها، وسلك لهذا مختلف السبل، وفي عصر النُّبوة جاء التأكيد بشكل كبير على العمل والسعي وراء الرزق الحلال؛ لأن الإسلام دين اجتهاد يدعو إلى العمل وينبذ الخمول والكسل، فالعمل هو الحياة والحياة هي العمل يقول المصطفى نبي الحق والهدى ﷺ: "**التمسوا الرزق في خبايا الأرض**"[٢].

ولقد كان من الهدي النبوي الحث على كسب الرِّزق من كدِّ اليد، وأنه خيرٌ مِن مُساءلة الناس، وشنع مغبة ذلك غاية التشنيع ففي الحديث الشريف: "**ما مِن أحدٍ يَسأَل مسألةً وهو عنها غني، إلاَّ جاءتْ يومَ القِيامة كُدوحًا أو خُدوشًا أو خُموشًا في وجهه**"[٣] وأرشد إلى أن إجادة المرء مهنته في العمل

(١) سورة الملك آية (١٥).

(٢) ابن حجر العسقلاني: المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، تحقيق، حبيب الرحمن الأعظمي، وزارة الأوقاف للشؤون الإسلامية (د.ت)ج١، ص٣٨٤.

يعد العمل المصدر الأساس لعمران الأرض واستخراج خيراتها، والوسيلة الأولى لتوفير متطلبات الإنسان واستقرار حياته. فلولا عمله وسعيه في تحصيل معيشته لما أمكن أن يبقى حياً على الأرض؛ فالمولى تعالى سخّر طيبات الأرض لصالح حياة المرء واستقراره ولعمارة الأرض وإعمارها قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ سورة يس الآيات (٣٣- ٣٥). لقد حدد سبحانه أوقات السعي وراء متطلبات الحياة ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ سورة القصص آية (٧٧).وفي الوقت نفسه حث على الجمع بين العمل للدين والدنيا ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ وجعل اختيار العمل المناسب للفرد في مجتمعه متروكاً له ولتقديره؛ وبذلك منح الإسلام الفرد في المجتمع الحرية الاقتصادية، فله أن يباشر ما شاء من أوجه النشاط الاقتصادي، سواء أكان تجارياً، أم زراعياً، أم صناعياً، أم غير ذلك وعدم التوارد على صنعة واحدة؛ لأن في ذلك هلاك المجتمع، وعن ذلك يقول الإمام الغزالي –رحمه الله تعالى –: "فإن الصناعات والتجارات لو تركت بطلت المعايش وهلك أكثر الخلق، فانتظام أمر الكل بتعاون الكل، وتكلف كل فريق بعمل، ولو أقبل كلهم على صنعة واحدة لتعطلت البواقي وهلكوا"الغزالي، أبو حامد مُحَّد بن مُحَّد (ت ٥٠٥هـ/١١١١م): إ حياء علوم الدين، القاهرة، دار الشعب، (د. ت)، ج٢، ص٧٩.

(٣) نور الدين السندي أبو الحسن مُحَّد بن عبد الهادي التتوي (ت١١٣٨هـ) حاشية السندي على سنن ابن ماجه (كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه)، دار الجيل – بيروت، (د.ت)، ج١، ص٥٦٤رقم(١٨٤٠) وخُدُوشًا (بِضَمِّ أَوَّلِهِ)هُوَ مَصْدَرُ خَدَشَ الْجِلْدَ أي قَشَرَهُ بِنَحْوِ عُودٍ، وَالْخُمُوشُ وَالْكُدُوحُ مِثْلُهُ وَزْنًا وَمَعْنًى، وقوله (وَمَا يُغْنِيهِ) أَيْ عَنِّي يَمْنَعُهُ مِنَ =

صونٌ لكرامته وعفٌ لذاته عن الابتذال وسؤال الناس، فعَن الزُّبير بن العوَّام - رضي الله عنه - عن النبيﷺ قال: "**لَأَنْ يأخذَ أحدُكم حَبلَه، فيأتيَ بحُزمة الحَطبِ على ظهره فيبيعَها، فيَكُفُّ اللهُ بها وَجهَه، خيرٌ له من أن يسألَ الناس، أَعطَوْه أو منعُوه**"[1]، وقد سُئل رسول الله ﷺ عن أطيب الكسب؟ فقال: "**عملُ الرَّجُلِ بيده، وكلُّ بيع مبرور**"[2]، ونِعم الفتى عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه- الذي أعطى للبطالين درساً إذ قال: "**دلوني على السوق**"[3].

وتعدى الإسلام بنظرته المقدسة للعمل إلى توضيح حق العامل في ملكية أجره فهو يدعو إلى الوفاء به، وينذر من يجور عليه من أصحاب العمل بحربٍ من الله وخصومة، وفي هذا يقول، عليه السلام، فيما يحكيه في الحديث القدسي عن ربه، عز وجل: "**ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر ورجل با ع حرًا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعط أجره**"[4] ودعا كذلك إلى التعجيل بأداء الأجر، وفي ذلك يقول الرسول، عليه الصلاة والسلام: "**أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه**"[5].

وبالعمل يكون جني المال، ولقد أتاح الإسلام حرية تملك الفرد للأموال[6] **بل وحمى تلك الحرية الخاصة، ويسَّر سبل الحصول عليها وأحاطها بسياج قويٍ من الحماية**؛ فعظّم حرمة المال حتى ولو كان صاحب المال نفسه؛ ولذا قال تعالى حِجراً على السفيه واليتيم الصغير ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ

=

السُّؤَالِ فَلَيْسَ الْمُرَادُ بَيَانَ الْغِنَى الْمُوجِبِ لِلزَّكَاةِ وَالْمُحَرِّمِ لِأَخْذِهَا مِنْ غَيْرِ سُؤَالٍ.

(١) البخاري: صحيح البخاري، بَابُ بَيْعِ الحَطَبِ والكلأ رقم الحديث (٢٢١٢).

(٢) الطبراني: سليمان بن أحمد بن أيوب (ت٣٦٠هـ): المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢عام ١٤٠٤هـ، ج ١، ص ١٣٥، ح ١ وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة مج٢، رقم الحديث(٦٠٧).

(٣) البخاري: صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه، حديث رقم ٣٧٢٢، وعبد الرّحمن بن عوف القرشيّ الزهريّ (٤٣ ق هـ - ٣٢ هـ / ٥٨٠ - ٦٥٦م)، هو أحد الصحابة العشرة المبشرين بالجنة، ومن السابقين الأولين إلى الإسلام، وأحد الثمانية الذين سبقوا بالإسلام، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين اختارهم عمر بن الخطاب ليختاروا الخليفة من بعده. كان اسمه في الجاهلية عبد عمرو، وقيل عبد الكعبة، فسماه النبي عبد الرحمن. الذهبي، سير أعلام النبلاءج١ص٨١و ص٩٢.

(٤) البخاري: صحيح البخاري، باب إثم من منع أجر الأجير، رقم الحديث (٢٢٧٠)، ص٣٦.

(٥) ابن ماجه، ج٢، رقم الحديث (٢٤٤٣)، ص٨١٧.

(٦) إن الملكية الفردية في الإسلام تمنح صاحبها حقوقاً أهمها حرية حق التملك، وحق الدوام، وحق النوع، وحق المقدار، وحق التصرف على أن يكون ذلك إيجابياً.

لَكُمْ قِيَمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾[١] فبذا يكون الشرع قد أصَّل قاعدة أصيلة للمال في الإسلام، فشرَّع حرية امتلاكه مع ترشيد استهلاكه، وألزم أن يكون كسب المال مشروعاً وإنفاقه كذلك في حد المعقول والمشروع.

ومن مظاهر حماية الشرع القويم لحرية تملك الفرد للأموال أن حدّ الحدود وأقرّ العقوبات الدنيوية والأخروية لمختلف أنواع الاعتداء على ملكية المال كالسرقة أو غصب المال ونقل حدود الأرض ونحوها؛ فعن السرقة أمر الشارع بقطع اليد للسارق تعزيزاً: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢]، وأما الغصبُ ونقلَ حدودِ الأرض فمقترفها ملعونٌ في نظر الشرع، ومحرومٌ من رحمة الخالق، وفي هذا يقول، عليه السلام: "**من غصب رجلاً أرضاً ظلماً لقى الله وهو عليه غضبان**"[٣].

كذلك أقر الإسلام وأجاز، في سبيل حماية الملكية الفردية للمالك، أن يدافع عن ملكه بكل الوسائل حتى ولو ألجأه ذلك لقتل المعتدي "**من قتل دون ماله فهو شهيد**"[٤] بل إن الإسلام لينهى عن مجرد النظر بعينٍ نهمٍ إلى ملكية غيره ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[٥] وبذلك حقق الإسلام عدة أهدافٍ سامية منها: أولاً: أنه أوصد أبواب الكسب غير المشروع، والثاني: أنه حقق مبدأ تكافؤ الفرص بين الناس وقضى على أهم العوامل التي تؤدي إلى اتساع الفوارق الاقتصادية بين الأفراد والطبقات. وفي ذلك تحقيق للمساواة في شؤون الاقتصاد من أمثل طريق[٦]، وغرضٌ ثالث: وهو دفع

---

(١) سورة النساء آية (٥- ٦).

(٢) سورة المائدة أية (٣٨).

ويمكن أن تصل العقوبة إلى حد القتل أو الصلب أو كليهما معاً فيما لو قطع الطريق وسرق وقتل، وقد يكون الحد قصاصاً بالقتل في حال القتل دون السرقة والسلب، وبإقامة حد الحرابة فيما لو سلب المال دون قتل وبالتعزير حبساً وسجناً فيما لو قبض عليه قبل الوقيعة بأي تعد أو ظلم سرقة أو قتل. وانظر تفسير آية سورة المائدة ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ سورة المائدة آية: (٣٣).

(٣) الطبراني: المعجم الكبير، ج ٢٢، ص١٨، رقم الحديث٢٥. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩/ ١٤٥)

(٤) الترمذي في الجامع الصحيح (سنن الترمذي)مصدر سابق، ج٤، ص٣٠ ح (١٤١٢).

(٥) سورة طه، آية (١٣١).

(٦) مُحَمَّد واصل، نصر فريد: أسس ومبادئ النظام المالي والاقتصادي في التشريع الإسلامي. أبحاث ووقائع المؤتمر العام الثاني والعشرين، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ص ١٢.

الناس إلى العمل والكد والكسب للمال بجهد اليد وعرق الجبين رزقاً حلالاً، وصرفهم عن الكسل والبطالة والطرق الوضيعة الهينة التي تأتي بالكسب والتنمية بدون جهد وعناء[١].

كذلك حقق الإسلام بموقفه هذا غرضاً إنسانياً مهماً، وهو أن تقوم العلاقات الاقتصادية بين الناس على دعائم التكافل والتراحم والتعاطف والتواصي بالصدق والعدل والإحسان، وأن يجانبوا في معاملاتهم بعضهم مع بعض كل ما يأباه الخلق السليم، وما يؤدى إلى التنافر والتناقض، وصراع الطبقات بعضها مع بعض، واضطراب حياة الجماعات[٢].

وبالجملة حرّم الشارع الحكيم كل طرائق الكسب غير الشرعية كالربا أو الرشوة والتطفيف في الكيل والوزن أو غيرها من أكل أموال الناس بالباطل؛ والتوجيهات الشرعية في ذلك كثيرةٌ ما بين أمرٍ ونهيٍ، وسنَعرِضُ لجملةٍ منها في محور تنظيم الإسلام للمعاملات الاقتصادية.

المحور الرابع: إصلاح النظام الأسْري.

من مراحلِ اهتمامِ الدين القويم والشارع الحكيم بتنظيم حياة الإنسان العناية بتقويم نظام الأسْرة، ذلك المجتمع الأصغر الذي هو عماد الدولة ورمز قوة الأمة، فإذا انتظمت البيوت وصَلحت أحوالها وصَح أسَاسُها أثمر ذلك بوجود نشئ فاضل ودولةٍ فتية وأمةٍ قوية كما أرادها الإسلام ووصفها القرآن: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ ﴾[٣] ولاريب، فبعدَ أن تستقيمَ حياةُ المسلم بالانتفاع بسائر المباحات مما أحل المولى تعالى من الطيبات، وبعد أن يستقيم أمر كسبهِ ودخلهِ ومورد رزقه بما فرضت عليه تعاليم الدين الحنيف، جاءت رابطةُ العقدِ بتوجيهه إلى البناء الأسْري؛ ليطمئنَ فؤادهُ، وتسكنَ روحه برباطٍ مقدس، وميثاقٍ غليظ؛ به يكون تحصيل الذرية والولد وبهِ يُعفُّ المجتمع من الخَنا والفواحش والزّنى و شنيع الأمراض و الوباء و سائر البلوى، ويأتي الحث النبوي: "**إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**"[٤].

فكان التشريع بالزواج الصحيح، وجاء الإسلام بمراعاة رابطة الزوجية، بما يُقوّمها، ويُمكّنها، ويُحيطها بما يَحفظ وجودها ويُعلي منارها ويقوّي رِباطها، وعلى كل حال، فإن أحكام البناء الأسْري في الإسلام

(١) نفسه، ص ٨، ٩، ٣٠.

(٢) نفسه، ص ١٢.

(٣) سورة آل عمران آية (١١٠).

(٤) الترمذي: جامع الترمذي، كِتَاب النِّكَاحِ، بَاب مَا جَاءَ إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ، من حديث أبي هريرة، حديث رقم (١٠٠٠).

كثيرةُ الجوانب متعددةُ المسائل بما لا يتسع المقام هنا لذكرها وبسطها على تمامها، ولكن يكفي هنا الإشارة إلى بعضِ طرفٍ منها مما أمر به المولى عز وجل وسنه ﷺ تطبيقاً وتأصيلاً.

ففي الإسلام تفصيلٌ للواجبات وأحكام العِشرة المتعارفة، وتوضيح للحقوق الزوجية المتبادلة، ومن ذلك فرضية حق المرأة بالمهر أو الصَّداق، ومع المهر تأتي المؤونةَ والنفقة على قدر الطاقة والسَعة قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾[1] وحسنُ التبعلِ من المرأة لزوجها، وحُسن العشرة من الرجل للزوجة، والإحسان بالمعروف فيما بينهما ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[2] فإذا ساءت العشرة بينهما ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾[3].

ويدخل في الحقوق الزوجية مترتبات الواجبات الشرعية، والالتزامات المادية لما يتعلق بالعناية بحقوق الأبناء، ومن ذلك تحريم الوأد والقتل خشية الفقر والإملاق كما كان من عادات الجاهلية ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾[4] فجاءت السنة مؤكدة على استحباب طلب الولد "**تزوجوا الولود الودود؛ فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة**"[5] ثم الزم القيام بتبعات ذلك من الإحسان بالتسمية للولد والختان للصبي وحلق شعر الرأس والتصدق بوزنه من الورِق وهما من سنن الفطرة، ومن السنن أيضاً الرضاع والعقيقة والكِسْوة والنَّفقة والتأديب والتعليم بل وحتى التزويج في حال عدم قدرة الأبن الشاب على تحمل أعباء ونفقات الزواج، وكذلك الإلزام بالعدل بين الأبناء، جاء في الشُّعب عن الرسول ﷺ: "**من ولد له ولد فليحسن اسمه وأدبه فإذا بلغ فليزوجه فإن بلغ ولم يزوجه فأصاب إثمًا فإنما إثمه علي أبيه**"[6].

وفي العدل بينهم في العطاء والمنع: قال رسول الله ﷺ: "**اعدلوا بين أبنائكم، اعدلوا بين أبنائكم، اعدلوا بين أبنائكم**"[7].

---

(١) سورة الطلاق آية (٧).

(٢) سورة البقرة آية (٢٢٨).

(٣) سورة البقرة آية (٢٢٩).

(٤) سورة الإسراء آية (٣١).

(٥) الأصبهاني: إسماعيل بن مُحَّد بن الفضل: الترغيب والترهيب أبو القاسم، تحقيق أيمن بن صالح بن شعبان، دار الحديث١٤١٤ هـ، فصل في الترهيب من ترك النكاح وكراهة ذلك، ج٣، ص٢٥٢برقم(٢٤٦٤).

(٦) البيهقي: شعب الإيمان، رقم(٨٦٦٦)، ج٦، ص٤٠١.

(٧) أبو داود: السنن، رقم الحديث (٣٠٢٨) وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، وفي صحيح مسلم أن رجلاً =

كذلك العهد إلى الأبناء بالتربية الحسنة واختيار الزوجة الأم المربية قبل ذلك كله إذ جاء التحذير لذلك بقول: **"إياكم وخضراءَ الدِّمَن"فقيل: وما خضراء الدِّمَن؟ قال:"المرأة الحسناء في مَنبَت السُّوء"**[١].

وفي مقابل تلك الحقوق من قِبل الآباء والوالدين على أبنائهم، كان الأمر لهم بالبر والإحسان إليهما قولاً وفعلاً، والطاعة لهما بالمعروف، أي في غير معصية الخالق: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾[٢]. والصبر على الإتيان بحقوقهما والإنفاق عليهما والدعاء لهما، وهو حقٌ من أبسط حقوق الوالدين على الأبناء في الحياة ولاسيما حال الكبر، ويتأكد وجوباً بعد الممات مع وصل ودهما يقول المولى ﷻ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[٣]. وفي حديث عبد الله ابن مسعود لما سأل عن أي العمل أحب إلى الله ذكر منها بر الوالدين[٤]، ولما جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال من أحق الناس

=

اسمه بشير جاء إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: إن زوجته سألته أن يعطي ابنها غلاماً عبدا ويشهد رسول الله فقال له رسول الله وسلم: أله إخوة؟ قال: نعم. قال: أفكلهم أعطيته مثل ما أعطيته؟ قال: لا. قال: "فليس يصلح هذا وإني لا أشهد إلا على حق" مع العلم بأن العدل بين الأبناء لا يقتصر على العدل في المال فحسب، بل يشمل العدل في الأمور المعنوية كالعطف، والحنان والتقريب، وما إلى ذلك، وعدم الظلم أو العنف.

(١) ولعل ذلك ورد في الأثر، قال عنه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة رقم (١٤): ضعيف جداً بينما قال السخاوي في المقاصد الحسنة موضوع وقد تفرد به الواقدي. ونقول سواءٌ أصح الحديث أم لم يصح فالمعنى المقصود: يعني فساد النسب إذا كان الأصل غير سليم. والدِّمَن هي آثار الإبل والغنم وأبوالها وأبعارها، فربما نبَت فيها نبات فيكون منظره حسنًا أنيقًا ومَنبَته فاسد. والمراد التحذير من الزواج بذوات المنظر الحسن والجمال الفاتن بغير دين أو خلق، وماله من أثر في الذرية والولد.

(٢) سورة لقمان آية (١٥).

(٣) سورة الإسراء الآيات (٢٣– ٢٤) يتأكَّد البر ويلزم عند بلوغ الأبوين سن الشيخوخة، ومن صور البرّ الحسية للوالدين: تعليمُهما وإرشادهما إذا كانتْ فرصة التعليم قد فاتتْهما، ثم إعانتهما على أداء الحقوقِ الواجبة عليهما من أداء الفرائض، وسداد الديون، وصلة أرحامهما، وأما البر المعنوي فيتمثل بأن يكونَ الابن صورةً كريمة للأخلاق الفاضلة، فيقر عين والديه، ويجلب لهما الدعوة الصالحة ممّا يشاهد من حسن أعماله وكريم فعاله.

(٤) وتمام الحديث عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله تعالى؟ قال: الصلاة على وقتها، وقال: قلت: ثم أي؟ قال: بر الوالدين، قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله، البخاري: صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ سورة العنكبوت، آية (٨)، ج٨، ص ٢، رقم الحديث(٥٩٧٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، ج١، ص ٨٩، رقم الحديث (٨٥).

بحسن صحابتي قال: "**أمك**"، وكررها ثلاثاً، ثم قال: "**ثم أبوك**"[1]، ولتلاحمِ وشائجِ العلاقات الأسْرية وأواصر الصلات الأخوية كان الزام الاحترام والتعاطف والتحاب ما بين الصغير والكبير في الأسرة الواحدة والبيت الواحد حتى تسودَ المحبَّة والأنسُ والوفاقُ بين أفراد البناء الواحدِ وتُغرس الصداقةُ والأُخُوّة والتقدير بين الإخْوة في جو من التضامنِ الذي يقومُ على محاربة الأنانية، والمشاركة الوجدانية بين عناصر الأسرة المسلمة. وبذلك يكون الشارع الكريم قد نظم الكيان الأسْري من أوله إلى آخره، ورتب العلاقات بين عناصر أفراده.



(١) ونص الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ يعني: صحبتي، قال: أمك قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك"، البخاري: صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة، ج٨، ص ٢، رقم الحديث (٥٩٧١)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين وأنهما أحق به، ج٤، ص١٩٧٤، رقم الحديث (٢٥٤٨).

المطلبُ الثاني: تنظيمُ مُتطلباتِ الحياةِ والمصَالحِ العَامة.

المحور الأول: إقامة العدل وفض الخصومات بين الناس.

منهجٌ أصيل، ووصفٌ جميل، ومفهومٌ جامعٌ لمعاني العدلِ والاستقامة والقسط والموازنة، وهو بالخلاصة إقرار حقٍ بين طرفين وحكمٌ بين خَصمين، من أقوى الفرائض وأشرف العبادات[١]. شرعه ربِّ البريات على نبيهﷺ بقول: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾[٢].

إنه القضاء الإسلامي[٣]الذي يحقق العدلَ والقسطَ ويوفرُ بين أفرادِ المجتمع العدالةَ والأمنَ[٤]وبدايته كانت[٥] فمنذ قدم رسول الهدى ﷺ المدينة وأنشأ فيها دولته وأرسى القضاء وقواعد أصول العدالة، كانت نواة بذرته حين عقد ﷺ أول معاهدة حدد فيها بنود التعامل بين المسلمين من المهاجرين والأنصار مع يهود المدينة وجميع عناصر السكان فيها وحولها، في صحيفة المدينة، وكان مما جاء فيها "**وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدثٍ أو شجارٍ يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز و وجلّ، وإلى محمد رسول الله**)[٦].

(١) بحيث لا يمكن لأي تشريع في أي دولة إسلامية كانت أن تسن قانوناً أو دستوراً دون الرجوع الى الأخذ والاقتباس من الفقه الإسلامي، ذلك لأنه لم يترك أي قضية عالقة إلا وأخذ له جواباً شافياً وحلاً يرضي جميع الأطراف. محمصاني، صبحي: المجتهدون في القضاء، ط ١، مطبعة دار الملايين للنشر، بيروت سنة ١٩٨٠م، ص٣١٨.

(٢) سورة المائدة آية (٤٩).

(٣) إن القضاء بعامة يعني: (الفصل بين الناس في الخصومات طبقاً لأحكام الشريعة الإسلامية المستمدة من الكتاب والسنة والإجماع والقياس) ، وهو لغةً: (انقطاع الشيء وتمامه) وقيل: (هو عبارة عن اللزوم)؛ ولهذا سمي القاضي قاضيًا لأنه يُلزم الناس، ومنه قوله تعالى: "فاقض ما أنت قاض " أي ألزم بما شئت ومعناه فأصنع ما أنت صانعه على إتمام وأحكام. ابن منظور، مصدر سابق، ج٥، ص١٨٦.

(٤) من واجبات القضاء الإسلامي البت في جميع المنازعات وكافة القضايا لكل الواقعات بين المتنازعين بدون استثناء أي قضية؛ ذلك أن من صفات الشريعة الإسلامية الشمول والعموم لإصلاح الحياة ودرء الفساد؛ لذا شملت أحكامها جميع النوازل والمستجدات بما تضمنته من كليات عامة وقواعد شاملة فضلاً عن الأحكام الخاصة، آل الشيخ، حسين عبد العزيز: المبادئ القضائية في الشريعة الإسلامية، وارتباط النظام القضائي في المملكة العربية السعودية بها. مقال بتاريخ ١٤٢٦هـ، ص٥٤.

(٥) ولا ننسى حكم النبي، عليه السلام، بين قبائل العرب ووجهائها في حادثة الحجر الأسود قبل البعثة وقد رضوا به حكماً عدلاً بينهم، وإنما نعني نواة نظام القضاء كتشريع اسلامي.

(٦) ابن هشام: السيرة النبوية، مصدر سابق، ج٢، ص١٥١، ١٥٠.

فكان حينذاك رسول الله ﷺ قاضياً كما كان للشريعة مُبلغاً وكان ﷺ يحكم بين الناس بما يوحى إليه من ربه.

وفي حكمه راعى الحقوق والمصالح العامة والمشتركة فبت في القضايا والاستحقاقات، ونظر في الحقوق والمظلمات، وفصَّل في الخصومات بين أفراد الرعية، وكان أساس حكمه بين الناس العدل، وقد شرَّفه المولى بصفة الحكم فقال مخاطباً إياه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾[١] وبهما أمر الله، سبحانه وتعالى، المؤمنين وألزمهم بأن يكونوا قوامين بالقسط، وإذا حكموا بين النَّاس أن يؤدوا واجب الأمانة بالحكم بين الناس بالعدل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾[٢].

ونظام القضاء من أروع النُّظم المكتُّوبة والمدَّونة وأروع صوره ما كانت على عهده ﷺ فلقد مارس ﷺ مهمته عدْلاً حَكَمًا في الفصلِ في المنازعات وقطع الخصومات، وأقر ذلك بقوله: "**إذا جلس بين يديك الخصمان، فلا تقضين حتى تسمع الآخر كما سمعت من الأول، فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء**"[٣] وأَذِنَ ﷺ لنفرٍ من أصحابه بالقضاء بين الناس بالكتاب والسنة والاجتهاد، وعهدِ بذلك إلى بعض الولاة، ليكون القضاءُ جُزءاً من مهام أعمالهم، وقد جمع نظام القضاء الإسلاميّ جملة خصائص وسمات أهما وأبرزها:

- أن أحكام القرآن الكريم والسُّنةِ المطَّهرة مورد مَعيْن ومصَّدر غنى لمقومات بنائه وركائز أسسه بما يمدُّ البشرية بكل الحلول الناجعة والطرق الحكيمة الناجحة لمواجهة كل وضعٍ مُستحكم أو أمرٍ مستغلق فتجتاز بحكمة التشريع الرباني كل عقبة وتعالج كل مشكلة ومعضلة. وتساس كل مسائله المعلقة، وتناقش الصِّعاب مهما عَظُمت وبانت وفق قواعد ثابتة وكلياتٍ مرنه تواكب كل عصرٍ ومِصْر وتسع كل جديد وغريب.

- كذلك تميز القضاء في الإسلام عن غيره بالجانب التعبدي، فوسائل إثباتاته القضائية يظهر فيها الوازع الديني بشكل ظاهر وجلي، فالقيم الأخلاقية ومبادئ العقيدة تسهم بنصيب وافر في الإثبات وتوفر له الحيطة والاطمئنان في الأداء والفصل في النزاع، وتجعل من الإخِلال به مناطاً للجزاء الأخروي. فإذا تعسرت وسائل الإثبات أو تمكن أحد الخصوم من قلب الحق إلى باطل بإثبات ما ادعاه زوراً وبهتاناً، لم يبق إلا الوازع

---

(١) سورة النساء آية (١٠٥).

(٢) سورة النساء آية (٥٨).

(٣) الشوكاني، محمَّد بن علي محمَّد عبدالله(ت١٢٥٠هـ): نيل الأوطار، دار الحديث، ط١، عام ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، كتاب الأقضية والأحكام، باب جلوس الخصمين بين يدي الحاكم والتسوية بينهما، رقم الحديث (٣٩٠٥)، ج٨، ص٣١٦.

الديني الذي أشار إليه النبي الكريم ﷺ عند ما قال: "**إنما أنا بشرٌ، وإنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي بنحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها**"[١].

- ومن الميزات كذلك ما يدخل في مضمون معنى القضاء في الإسلام فمعناه الفصلُ في الخصوماتِ، وفضُ المنازعاتِ بين الظالمِ والمظلوم، وإقرارُ الحق بين الخصوم، وهو يعني بذلك الموازنة والوسطية في فرضية هذا النظام بأسسه ومقدراته "فهو ضربٌ من العدل لا يميلُ له ميزان، ولا يتأثر بالقربى والحنَان ولا يتغيرُ بالتباغضِ والشنآن"[٢] ولقد رسم المصطفى ﷺ لسلفه منهجاً في التوازن بين الخصمين وعدم أثرة ومحاباة أحدهما على صاحبه فقال: "**إذا جلس بين يديك الخصمان، فلا تقضين حتى تسمع الآخر كما سمعت من الأول، فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء**[٣]"وذلك مصداقاً وامتثالاً لأمر الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[٤]. ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٥] وفي الأخرى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٦] ولا أدلَ على عدله ﷺ في الناس ورسمه لقاعدة العدل القضائي في صورة قضائه لفاطمة المخزومية[٧] وهي الشريفة المخزومية التي سرقت، فقال:"- إذ كلمه أسامة بشأنها - **أتشفع في حدٍ من حدود الله؟"ثم قام فاختطب فقال:"أيها الناس، إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق**

---

(١) البخاري: الصحيح، مصدر سابق، كتاب المظالم، باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه، ج٢، ص١٩٤، رقم (٢٤٥٨).

(٢) الصالحي، صبحي: النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، دار العلم للملايين، ط١٣، عام٢٠٠١، ص٢٥١.

(٣) سبق تخريجه هامش (٣)، ص (١٠٨).

(٤) سورة النساء آية (١٣٥).

(٥) سورة الانعام آية (١٥٢).

(٦)سورة المائدة آية (٨).

(٧) وفاطمة المخزومية هي فاطمة بنت الأسود، وقيل: بنت أبي الأسود بن عبد الأسد المخزومية أسلمت وبايعت، وروى عن خبرها حبيب بن أبي ثابت مرفوعا أنّها كانت تسرق على عهد رسول الله ﷺ الحُلِيَّ، وروى مسلمٌ عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: "كَانَتِ امْرَأَةٌ مَخْزُومِيَّةٌ تَسْتَعِيرُ الْمَتَاعَ وَتَجْحَدُهُ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ تُقْطَعَ يَدُهَا " والحديث لمسلم في الصحيح، رقم (١٣١٦)وانظر ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، ج٨، ص٢٦٩.

فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمدٍ سرقت لقطعت يدها"[١].

– وسمةٌ جميلةٌ أخرى للقضاء الإسلامي هي تعدد وسائل الحجة والإثبات، وأهمها وأظهرها **إلزام الشهادة واشتراط العدالة**، وهي ما تجعل من صاحبها قائماً بشهادته حق قيام، قال الله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾[٢]. وقال سبحانه ﷻ: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَآءِ﴾[٣]. فالبينة على المدعي واليمن على من أنكر[٤] وهذا يعني أن المدعي ملزمٌ بإظهار ما يُبين صحة دعواه. فضلاً عن القرائن الأخرى وهي: **(شهادة الشهود والأشياء المكتوبة والفراسة)** وقد استخدمها النبي ﷺ في قضائه فكان المتخاصمان يحضران إلى الرسول ﷺ مختارين فيسمع كلام كلاً منهما، وكان من طرق الإثبات عنده: البينة، واليمين، وشهادة الشهود، والأشياء المكتوبة، والفراسة. فإذا أظهر أحد الخَصمين صِدقه بإحدى الطرق، حُكم له. وما تَعدُدُ هذه القرائنَ وكَثرتُها إلا لعناية الإسلام بقوَّة الحُجة ومصداقيتها؛ تحقيقاً للعدلِ ومنعاً للظلم وكفاً للجور. جاء عن السيوطي: "أنْ النَّبي ﷺ كان له حُكمُ الباطنِ كالظاهر، وحكمهُ في الظاهر كان تارةً في القضاءِ، وتارةً بالسياسةِ والسلطنةِ (أي: الإمارةِ العظمى) وتارةً بالفتوى، كما فصَّله ابن السبكي في قواعده أهـ"[٥].

– ولا يخفى أن من عدلِ الشرع و حكمته في أمرِ القضاء أنّ القاضي مأجورٌ في الحُكم في كلا الحالين إن أصاب أو أخطأ قال ﷺ: "**إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران وإن اجتهد فأخطأ فله أجر**[٦]".

– مراعاة جانب الإحسان وهو من أجلِّ مراتب عبادةِ الرحمن؛ وذلك بارتباطه بقاعدةِ الحلالِ والحرام، والثوابِ والعقاب، فشهادة الزُّور، أو كتمُ الحقائقِ أو ادعاء الباطل وما إلى ذلك حرامٌ وعقوبةٌ

(١) البخاري : صحيح البخاري، ج٤، ح(٦٧٨٨)، ص ١٧٥.

(٢) سورة الطلاق آية (٢).

(٣) سورة البقرة آية (٢٨٢).

(٤) البينة في الشرع هي اسم لما يبين الحق ويظهره.

(٥) السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت ٩١١هـ): تاريخ الخلفاء، تحقيق مُحَمَّد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ص ٢٦٧-٢٦٨. و السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي(ت ٧٧١ هـ): الأشباه والنظائر، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود و علي مُحَمَّد عوض، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١١٤١، ١ هـ – ١٩٩١م.

(٦) البخاري: صحيح البخاري، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، حديث رقم (٧٣٥٢).

وجزاء، ففي الصحيحين "**من حلفَ على يمينٍ يقتطعُ بها مالُ امرئٍ مسلمٍ وهو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان**"[١] وهذا المعنى كفيلٌ بتربية الوازع الديني عند المسلم مما يجعلُه مراقباً لأعماله في جل دقائق حياته من تصرفاتٍ قولية أو فعلية؛ وقد حرص الإسلامُ، بادئ ذي بدء، على غرسِ العقيدة في وجدانِ المسلم قبل تكليفه بالأحكام التشريعية، وأحاطه بسياج من الأخلاق بجانبِ التكاليف، ليكون ذلك هو الضامن لتنفيذ تلك الأحكام الشرعية، وهو الحامي لصحة التنفيذ وحسنِ السلوك والبعدِ عن الانحراف، فهو الرقيب على نفسه في الطاعة وفي التطبيق.[٢]

وعموماً فخاتَمةُ القول، إن النَّبي ﷺ أخذ على عاتقه مهمةَ الفصلِ في المنازعاتِ وقطع دابر الخلافات، وبذلك وضع حداً للتَّحكيم الذي مارسه العرب قبل الإسلام فجاء، عليه السلام، بقضاءٍ تشريعيَّ مُحْكَمٌ ومُحكَّمٌ يرتكزُ على أصولٍ جامعة وقواعد كليةٍ مرنةٍ رائدة، وثوابت أساسيةٍ متكاملة، ورؤيا ذات عمق؛ لتحصيل مصالح العباد، ودرءَ الشرور عنهم وإزالة الفساد؛ فتحفظ حقوقهم، وتنشر بينهم روح العدل والأمل فالأمن.

المحور الثاني: تنظيم التعاملات الاقتصادية.

مما هو مألوفٌ ومعروف أن نظام الاقتصاد يُعدُ جزءًا من نظام الإسلام الذي يعملُ على تحقيقِ مقاصد الشريعة الإسلامية المتمثلة في الكليات الشرعيَّة الخمس وهي (**حفظ الدين، والنفس، والعقل والنسل، والمال**)، ولما كانت الكلياتُ الأربعِ الأولْ هي في ذاتِ الإنسانِ وداخله وكان المالُ وهو الكليةُ الخامسة خارج الإنسان فكان على هذه الحال، كالروحِ من الجسدِ لا غنىً لأحدهما عن الآخر في هذه الحياة الدنيا؛ لمعيشة الإنسان واستخلافه في الأرض[٣].

---

(١) أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود رضي الله عنه في كتاب التفسير، باب "إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ سورة آل عمران الآية٧٧ والحديث رقم (٤٥٤٩ — ٤٥٥٠) ج٣، ص٢٠٧ومسلم في كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق المسلم بيمين فاجرة بالنار رقم (١٣٨) ج١، ص ١٢٢ — ١٢٤.

(٢) أنظر آل الشيخ: حسين: المبادئ القضائية في الشريعة الإسلامية وارتباط النظام القضائي في المملكة العربية السعودية بها، مقالات متعددة في المبادئ القضائية في الشريعة الإسلامية من جمع وترتيب آل الشيخ، ص٥. وابن عاشور: محمَّد الطاهر بن محمَّد بن محمَّد الطاهر (ت ١٣٩٣هـ): مقاصد الشريعة الإسلامية، المكتبة الشاملة موافق للمطبوع، ص٥١٣.

(٣) واصل، نصر فريد محمَّد: أسس ومبادئ النظام الاقتصادي والمالي، المجلس الأعلى للشؤن الإسلامية، أبحاث ووقائع المؤتمر الإسلامي العام الثاني والعشرين، جمهورية مصر العربية، بحث مشاركة لمفتي الديار المصرية، مقدمة البحث، ص٢.

والواقع أن النظام الاقتصادي في الإسلام قد عني بالتوازن في رعاية المصلحة الاقتصادية للفرد والجماعة من جهة بحيث كفل حقوق الفرد والجماعة والعامة والخاصة، كذلك راعى التوازن بين الجانبين المادي والروحي من جهة أخرى، وأيضاً اهتم بمجموعة القيم الأخلاقية التي عمل على غرسها في نفس أفراد المجتمع المسلم. ولاريب فهو النظام الوحيد الذي ربط بصراحة ووضوح، في نظريته الاقتصادية بين الاقتصاد والأخلاق[١]، وبين الدين والمعاملات.

وثمة قيمٍ أخلاقية في التعاملات والمعاملات الاقتصادية جاءت في نصوصِ التشريع الإسلامي ما بين أمرٍ ونهي تمثلت في: أنه لا إفراط ولا تفريط، ولا إسراف ولا تبذير ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[٢].

كما جاء الحث على الصدق في البيع والشراء، والأمانة في تقديم الرأي في السلعة المعروضة. يقول الرسول ﷺ: "**ثَلاثَةٌ لا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: رَجُلٌ كَانَ لَهُ فَضْلُ مَاءٍ بِالطَّرِيقِ فَمَنَعَهُ ابْنَ السَّبِيلِ، وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا لا يُبَايِعُهُ إِلا لِدُنْيَا فَإِنْ أَعْطَاهُ مِنْهَا رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ مِنْهَا سَخِط، وَرَجُلٌ أَقَامَ سِلْعَتَهُ بَعْدَ الْعَصْرِ فَقَالَ: وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ لَقَدْ أُعْطِيتَ كَذَا وَكَذَا، فَصَدَّقَهُ الرَّجُلُ، فَاشْتَرَاهَا مِنْهُ**"[٣] كما حرَّص من باب الأمانة في البيع والشراء على إطلاع المشتري على عيوب السلعة المباعة، فعن عقبة بن عامر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**المسلم أخو المسلم، ولا يحل لمسلم باع من أخيه بيعًا فيه عيب إلا بينه له**"[٤].

وأكد على الوفاء بالعهود بموجب بنود العقود التجارية بقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[٥] فلا يحل مخالفة العقود لأكل أموال الناس بالباطل، وقد ورد عن الرسول ﷺ قول: "**من اقتطع مال مسلم بيمينه لقي الله يوم القيامة وهو عليه غضبان**"[٦].

(١) أحمد يوسف: قيم الإسلامية في السلوك الاقتصادي. دار الثقافة، القاهرة عام ١٤١٠هـ، ص١٠٠.

(٢) سورة الإسراء آية (٢٩).

(٣) البخاري: صحيح البخاري، حديث رقم(٢٣٥٨)، ص ٥٦٨.

(٤) ابن ماجه: سنن ابن ماجه، كتاب التجارات، باب من باع عيباً فليبينه، رقم الحديث (٢٢٣٧) والحديث عن عقبة بن عامر الشوكاني: نيل الأوطار، مصدر سابق، ج٥، ص٢٦٨.

(٥) سورة الإسراء آية (٣٤).

(٦) الطبراني، : المعجم الكبير، ج ١٠، حديث رقم (١٠٢٤٨)، ص١٧٣.

وحث على السماحة والعفو والمسامحة وحسن المعاملةِ بين البائعِ والمشتري، بإنظار المدين حتى وقت اليسر، أو التصدق عليه بالمسامحةِ والعفو مصداقاً لقول المولى عز وجل: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[١]، وعن السَماحةِ وحسنَ المعاملةِ جاء في حديث جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال :"**رحم الله رجلاً سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى**"[٢]. كما أمر بالعدل واستيفاء النَّاسِ حقوقهم مصداقاً لقوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[٣] واشترط التراضي بين المبتاعين في البيع والشراء قال تعالى: ﴿ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾[٤] إلى غيرها مما لا يتسع هنا المقام لحصره.

وفي مقابل تلك الأوامر الإلهية كانت هنالك جملة من الخِلال في التعاملات الاقتصادية نهى عنها الإسلام وحذَّر عن الإتيان بشيء منها ومن تلك...

-النهي عن الغش في التجارة وخداع الناس "**من غشنا فليس منا، والمكر والخداع في النار**"[٥]. كذلك جاء النهي عن التنافس غير الشريف، فنهى الرسول ﷺ عن البيع بالمناجشة، وعن بيع الحاضر للبادي، واحتكار السلع[٦]، وعن تلقي الركبان وبيع الرجل على بيع أخيه كما جاء النَّهي عن جملةٍ من البيوع المحرمة كالمحاقلة، و المزابنة، والمخابرة[٧]، وبيع الخمر والميتة والأصنام[٨] إلى غيرها.

(١) سورة البقرة آية (٢٨٠).

(٢) البخاري: صحيح البخاري، حديث رقم (٢٠٧٦)، ص٥٠٠.

(٣) سورة الإسراء آية (٣٥).

(٤) سورة النساء آية (٢٩).

(٥) الطبراني: المعجم الكبير. ج١٠، حديث رقم (١٠٢٣٤)، ص١٦٩، وفي الحديث التحذير من مغبة الغش والجشع وتقرير مصير فاعله.

(٦) وعن الاحتكار جاء لمسلمٍ في صحيحه عن مُعمَّر بن عبد الله أنْ النَّبي ﷺ قال: "لا يحتكر إلا خاطئ "والمحتكر هو الذي يعمد إلى شراء ما يحتاج إليه الناس من الطعام فيحبسه عنهم ويريد إغلاءه عليهم، وهو ظالم للخلق المشترين.

(٧) المحاقلة هي: بيع الحقل وهو الزرع (الحب في سنبله) بالحنطة كيلاً، وأما المخابرة فهي الأرض البيضاء يدفعها الرجل إلى الرجل ينفق فيها ثم يأخذ من الثمر قيل الربع أو الثلث. والمز ابنة بضم الميم وفتح الزاي — وهو — مشتق من الزبن وهو الدفع .. والمزابنة: بيع ما في رؤوس النخل بالتمر، والمحاقلة: بيع السنبل من الزرع، يعني بالحب المصفى "وانظر ابن عبد البر، عمر يوسف بن عبد الله بن مُحَمَّد(ت ٤٦٣هـ): الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار، كتاب الاستذكار، كتاب البيوع، باب ما جاء في المزابنة والمحاقلة، ج١٩، رقم الحديث(٢٨٥٦٤)، ص١٥٨.

(٨) وقد جاء بعض هذا في حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه - "أن رسول الله ﷺ نهى عن المزابنة والمحاقلة، والمزابنة اشتراء الثمر بالتمر في رؤوس النخل"، وفي حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله يقول -عام =

وفي العموم جاء النَّهي عن أكلِ حقوقِ الآخرين بالباطلِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾[1] وعلى رأس هذا الباطل الربا والرشوة، وقد جاء التحريم لهما بخاصة قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[2] "وعَنْ الرشوة ما جاء في الحديث "**لُعن الراشي والمرتشي والرائش**"[3].

وكذلك جاء النهى عن التطفيف في الكيل والوزن قال تعالى: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾[4] مبيناً الجزاء بـ ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾[5]، وفي سبيل ذلك عرفت أسماء الأكيال المستعملة في عهده ﷺ كالمكيال، والصاع، والمد، والفَرْق، والعَرَق، والوسَق[6] وشاهد ذلك قوله ﷺ - لأهل المدينة في حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "**اللهم بارك لهم في مكيالهم وصاعهم ومدهم**"[7] . وحُددت سعة مقدارها وأوزانها لقوله ﷺ: "**الوزن وزن أهل مكة**" يريد الذهب والفضة، فحدد العيار في وزن الدراهم على وزن أهل مكة دون ما يتفاوت وزنه منها في سائر البلدان"[8].

والحقُ أنَّ هذه الأوامرَ والنَّواهي الشرعيَّة في الأمور الاقتصادية ماهي إلا من باب تأكيد الحرص والعناية الإسلامية بالحقوق المتبادلة بين المسلمين، وتحقيق آصرة التحاب والتعاون الخلاق فيما بينهم.

=

الفتح وهو بمكة -: "إن الله ورسوله حرم بيع الخمر، والميتة، والخنزير، والأصنام. البخاري: صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب المزامنة، ص ٨٢. وكتاب البيوع، باب بيع الميتة والأصنام، ص ١١٢.

(١) سورة النساء آية (٢٩).

(٢) سورة آل عمران آية (١٣٠).

(٣) الطبراني: المعجم الكبير. ج ٢، حديث رقم (١٤١٥)، ص٩٤، ٩٣، من طريق يحيى بن أبي زائدة، عن ليث بن أبي سليم، عن أبي الخطاب، عن أبي زرعة، عن ثوبان.

(٤) سورة الرحمن آية (٨).

(٥) سورة المطففين آية (١-٣).

(٦) هي من جملة أدوات الكيل والمقاييس النبوية الثابتة في الكيل المدني والوزن المكي في ذلك الوقت، وفائدتها ضبط التعاملات التجارية والمالية في الإسلام بعد أن كانت قائمة على الاسناد إلى الأعراف ومنها كذلك الإردب والمكتل والكر والكليجة وغيرها الكثير من المكاييل المستخدمة آنذاك، انظر الخزاعي في الدلالات السمعية، ص٦٠٠.

(٧) والحديث للبخاري في صحيحه ج٨، ص١٨١باب صاع المدينة، وهو المكيال النبوي الذي توارثه أهل المدينة قرناً بعد قرن. انظر الخزاعي، علي بن مُحَمَّد بن مسعود (ت ٧٨٩هـ): الدلالات السمعية، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت -لبنان، ط١، عام ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ٦١٩.

(٨) الخزاعي: تخريج الدلالات السمعية، مصدر سابق، ص٦٠٠.

المحور الثالث: الحسبة والرقابة على السوق.[١].

تميز النِّظام الاقتصادي في الإسلام بطابعه التعبدي، وقد لمسنا ذلك منذ استقلال الرسول ﷺ بسوقٍ خاصة للمسلمين بالمدينة. ومنذ أن باتت تطبيقات السياسة الشرعية النبوية في النظام الاقتصادي جلية واضحة بعيدة كل البعد عن تعاملات الجاهلية التي سادت بمكة، أو ممارسات اليهودية التي شاعت بيثرب، فالتعاملات الاقتصادية الإسلامية تنبع من إيمان المرء بالخالق وإحسانه في عبادته، فتكون كقوة طاقةٍ محركة له، ودافع إلى كل عمل صالح؛ إذا علمنا أن الإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه كلٌ متكامل لا يصح إشباع جانبٍ منه على حساب جانب آخر.

ونظام الحسبة متسع المجال متعدد الوظائف[٢] وعموماً فما يهمنا في أمر الحسبة والرقابة الاقتصادية هنا هو حسبة السوق ورقابة أمره. ولعل مبدأ رقابة السوق والحسبة فيه تكمن في النهي عن منكرات الأسواق في البيع والشراء، والرقابة في إقامة الصلوات، وواجب أداء العبادات، والحسبة في الطرقات، وأماكن تجمعات الناس.

(١) الحسبة في معناها اللغوي مشتقةٌ من الحسب والكف وهو منع ارتكاب المحظور وإنكار قبيح العمل.أو هي باختصار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وللمزيد في تعريفات الحسبة انظر ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ): الحسبة في الإسلام، أو وظيفة الحكومة الإسلامية، تحقيق علي بن نايف الشحود، ط٢، عام ١٤٢٨هـ، تعريف عام عن الحسبة، المقدمة، ص٢.
ولعلنا قدمنا مطلب الحسبة والرقابة على السوق كمحور من محاور تنظيم التعاملات والمعاملات الاقتصادية وهي في الأساس من المهام والوظائف الإدارية؛ لتعلقاتها، ولاسيما فيما يختص بجانب (رقابة السوق) بالعلاقات التجارية من بيع وشراء ونحوه.

(٢) اتسعت مجالات الحسبة وتعددت وظائفها لتشمل مراقبة الأسواق وما فيها من غِشٍ وتدليس ومراقبة الأسعار. ومنع التجار من رفعها وجني الأرباح غير المشروعة وما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش وغيرها في المكاييل والموازين وحمل المماطلين على الإنصاف. والنظر في تعديات الجيران بعضهم على بعض وتجاوز حد الجوار. والنصح لأهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة. وشملت كذلك حدودُ الحسبةِ والمهام المخولة للمحتسب النظر في قضايا الإصلاح والتأديب كمنع معلمي الكتاتيب من ضرب الصبيان أو منع أصحاب الدواب من تحميلها ما لا تطيق حمله، ومنع أصحاب السفن من زيادة حمولتها حتى لا تغرق، إلى غير ذلك.فضلاً عن أنها ضمت النصح بأداء الأوامر التشريعية كأمر العامة بالصلوات الخمس، وتعهد الأئمة والمؤذنين بالمناصحة بعدم التفريط والنظر في واجبات الإمامة والأذان،كذلك الأمر بالجمعة والجماعات، وصدق الحديث، وأداء الأمانات، والنهي عن المنكرات من الخيانة والكذب والتدليس، وما يدخل من الغش في الصناعات والمبيعات والديانات وكل ما فيه مراعاة للأحكام الشرعية مع السهر على إقامة الحدود على مستحقيها في بعض الأحايين، وللمزيد في مهام المحتسب انظر الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٢٥٣. وابن تيمية: الحسبة في الإسلام، ص٩.

وجملةُ القولِ: إنَّ الحسبة تشريع إسلامي أصيل[١] سنه النبي الكريم ﷺ وكان أول ممارس له في التاريخ الإسلامي، وقد سن لنا، وهو القدوة المهداة، نهجاً مستقيماً في ذلك فكان يمشي ﷺ في الأسواق وينهى عن الغش والتطفيف في الوزن والكيل، وكان من هديه تعيين من يراه أهلاً للقيام بالحسبة فيمده بما يحتاج إليه من الأعوان والوسائل، ويفضي له بصلاحيات حسبة الأسواق، ورقابة أمرها وأمر مرتاديها وأمر ما يقوم عليها[٢].

وقد استعمل عبد الله بن أمية بن العاص رضي الله عنه[٣]، على سوق المدينة فكان أولَ موظفٍ محتسبٍ في الإسلام، وكذلك استعمل الفاروقَ عمر – رضي الله عنه– على سوق المدينة[٤]. وسار الصحابة الكرام – رضوان الله عليهم جميعاً – على نهج نبيهم ﷺ من النظر في مخالفة الأسواق وتأديب مرتكبيها وتحذيريهم من اقترافها، واجتهدوا في حمل الناس على مراعاة المصالح العامة فيما بينهم في أمر معاشهم وسائر تعاملاتهم.

---

(١) تشير العديد من المصادر التاريخية إلى أن الحاضرة اليونانية قد عرفت نظاماً اقتصادياً انتشر مع انتشار السيطرة اليونانية بالبلدان تضمن تعيين ما يدعى (أغور أنوموس) أي صاحب السوق، والواقع أن هذا النظام قد اتسم بطابع مادي صرف تحدد بالإشراف على أمور السوق والتأكد (من صحة المكاييل وجودة المتاجر والبضاعة المعروضة للبيع وسلامة المعاملات التجارية) كما أن اليونان قاموا بتطبيق هذه الصيغة بعد تحديدها في المدن التي سيطروا عليها، ثم احتفظ الرومان والبيزنطينيون بها وطوروها فكانت تلك المدن تخضع لسلطان صاحب السوق؛ وعليه فقد زعموا أن نظام الحسبة إنما هو نظام أسبق من الحسبة في الإسلام، لكن المتأمل في أساليب ممارسة النبي لصيغة الحسبة وتطبيقها على أرض الواقع، فضلاً عن جوانب السلب والقصور في الأنظمة القديمة، يدرك أنه لا يمكن عد نظام السوق اليوناني أساساً لفكرة الحسبة في الإسلام؛ لأن الحسبة في المجتمع الإسلامي تتضمن جانبين، أحدهما: مادي وهو(ما يتعلق بالسوق)، والآخر: معنوي وهو(أخلاقي)، وللمزيد في نشأة الحسبة انظر: أبو النجيب عبدالرحمن بن نصر بن عبد الله (ت ٥٩٠هـ): نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة، المكتبة الشاملة، موافق للمطبوع، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، عام ٢٠١٠م.

(٢) وقد تسمى هؤلاء بالعمال ولهم جباية الصدقات أو الخراج وأمور المال وغيرها كتخريص النخيل لأهل خيبر لعبد الله بن رواحة، رضي الله عنه، وكان النبي، عليه السلام، يستوفي الحساب على العمال، ويحاسبهم على المستخرج والمصروف، ومن هؤلاء ابن اللتبية الذي قال النبي ﷺ له: "ما بال الرجل نستعمله على العمل بما ولانا الله، فيقول: هذا لكم، وهذا أهدي إليّ... والحديث ذكر في الصحيحين البخاري، ج١٢، ص ٣٤٨، ومسلم ج١٢، ص ٤٦٠.

(٣) سعيد بن العاص بن أمية: سعيد بن العاص هو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي، كنيته أبو عبد الرحمن، مات أبوه يوم بدر في جيش قريش، كان أحد أشراف قريش وأجوادها وفصحائها وقد كان أحد من ندبه عثمان لكتابة المصحف لفصاحته، وشبه لهجته بلهجة الرسول ﷺ. وانظر الذهبي: سير أعلام النبلاء، سعيد بن العاص، ج٣، ص ٤٤٥ و ص ٤٤٩.

(٤) القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد (ت ٨٢١هـ): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، وزارة الثقافة المصرية، القاهرة، عام ١٩٦٣م، ج٥، ص٤٥٢.

ولنا خيرُ مثالٍ لحسبة السوق مما ضربه المصطفى ﷺ كنموذجٍ لصاحبِ صُبرة الطعام، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة، رضي الله عنه: "**أن رسول الله ﷺ مر على صبرةٍ فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً، فقال: ما هذا يا صاحب الطعام؟ قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال: أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟ من غشنا فليس منا**"وفي رواية:"**من غشني فليس مني**"[١].

وجاء في حسبته ﷺ في السوق ما رواه أنس- رضي الله عنه- قال: "غلا السعر على عهد رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله لو سعَّرت، فقال: **إن الله هو القابض الباسط، الرازق المسعَّر، وإني لأرجو أن ألقى الله ولا يطلبني أحدٌ بمظلمة ظلمتها إياه في دمٍ ولا مال**"[٢].

وكذلك مما يدخل في حسبة الأسواق مراقبه الطرقات فقد جاء الأمر النَّبوي بالتحذير، ومن ثم التوضيح لآداب الطريق بقوله ﷺ:"**إيَّاكم والجلوس في الطرقات** "فقالوا: ما لنا بد، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: (**فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها**) قالوا: وما حق الطريق ؟ قال: (**غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر**)[٣] ولربما جاء إيرادنا لهذا الحديث في حسبة الطريق هنا لما يغلبُ على الظن أن جملة تلك الآداب النَّبوية مما يدخل في باب إتيان الأسواق والجلوس بها، ولاسيما في عصرنا الحاضر.

ومن حسبة الأسواق الأمر بأداء الواجبات التعبَّدية كالأمر بإغلاق محال البيع والشراء لأداء شعائر الصلوات امتثالاً لقوله تعالى: -في سورة الجمعة- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾[٤]

ومن المقرر أنَّ الشريعة الغراء جاءت بأحكامٍ تضم أوامر ونواهي وتشريعات تحفظ للناس حقوقهم، وتهذَّب أخلاقهم وسلوكياتهم، ومن المقرر أن ولاية الحسبة في الإسلام إنَّما جاءت للتحقق من الالتزام بتطبيق تلك الأوامر والانتهاء عن النواهي والزواجر.

(١) والحديث في صحيح مسلم ج٢ص ٤٦٨ ووجدناه بلفظ: ليس منا من غش، في رواية أبي داود في سننه ج٩، ص ٣٢١.

(٢) الترمذي: السنن، كتاب البيوع، رقم الحديث(١٣١٤) وابن ماجه: السنن، كتاب التجارات، رقم الحديث (٢٢٠٠).

(٣) البخاري، صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب أفنية الدور والجلوس فيها، والجلوس على الصعدات، حديث رقم (٢٤٦٥).

(٤) سورة الجمعة الآيات (٩-١١).

المحور الرابع: العناية بالمصالح العامة (الصحة والأمن وسلامة المجتمع)

إن من أولويات الشارع الحكيم شموليته المتكاملة لجميع أوجه مصالح المجتمع وصالحه ومصالحه وإصلاحه، فمن متطلبات الحياة العامة كأساسٍ حيوي رئيس وضروري لحياة المجتمع المدني، **العناية بالمصالح العامة**، وهذه المصالح تمثلت ب الأمن البيئي وبالصحة العامة، وسلامة المجتمع؛ وذلك بالاهتمام بنظافة البيئة، وبرعاية الفرد الصحيَّة من خلال: تحديد مواضع قضاء الحاجة أو ما يسمي بالمناصع، وتهيئة أماكن خاصة لرمي الأوساخ و القاذورات وسائر النفايات، وتخصيص أماكن أخرى خاصة لمزاولة مهنٍ حرفيةٍ خاصة للذبح كالمجازر أو ما يسمى بالمناحر، فضلاً عن تحديد مواطن الدفن (المقابر)، وكذلك العناية بالتطبيب والعلاج والتداوي والاستشفاء إلى غيره، وبه يتحقق الأمن البيئي على ما سيأتي.

وظهرت في العهد النَّبوي في المجتمع المدني بعض الممارسات العلاجية، وبعض صور الوقاية الصحية، فوجدت العديد من الأسماء اللامعة في سماء الطب والتمريض فبرز من الصحابيات ممن كانت لهن إسهامات في معالجة جرحى المسلمين من مثل نسيبة بنت الحارث المعروفة بأم عطية الأنصارية[١]، وكذلك كُعيبة بنت سعدٍ الأسلمية[٢]، وحمْنة بنت جحشٍ الأسدية[٣]، وأيضاً أم سليم بنت ملحان[٤]، وأم سنان الأسلمية[٥] وغيرهن، رضي الله عنهن، جميعاً.

(١) أم عطية من الصحابيات الجليلات المجاهدات في سبيل الله، وهي امرأة من الأنصار، اشتهرت بكنيتها، (أم عطية)واسمها نسيبة بنت الحارث، وقيل نسيبة بنت كعب، وكانت من المجاهدات الصحابيات، خرجت للغزو مع النبي سبع مرات، وتصنع الطعام، تداوي فيهن الجرحى، وتسعف المصابين، وتسقي العطشى، وتنقل القتلى إلى المدينة المنورة. وبعد وفاة النبي ﷺ انتقلت "إلى الإقامة في البصرة، وكانت من فقيهات الصحابيات أخذ عنها كثير من أهل البصرة الفقه، خاصة فقه الجنائز وغسل الميت. انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢، ٣١٨.

(٢) كُعَيْبَة بنت سعيد، وقيل: بنت سعد الأسلمية، وقيل: اسمها رفيدة الأسلمية من بني أسلم، بايعت بعد الهجرة، وذكر أنها شهدت خيبر مع رسول الله ﷺ، فأسهم لها سهم رجل، وهي التي كانت لها في المسجد خيمة تداوي فيها المرضى والجرحى.. وانظر ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة جـ٨، ص ٢٩٧.

(٣) هي حمنة بنت جحش بن رياب الأسدية أخت زينب بنت جحش. وكانت عند مصعب بن عمير وقتل عنها يوم أحد، فتزوجها طلحة بن عبيد الله فولدت له محمدًا وعمران ابني طلحة بن عبيد الله، وكانت من المبايعات، ولما شهدت أحدًا كانت تسقي العطشى وتحمل الجرحى وتداويهم. وانظر ابن الأثير: أسد الغابة، رقم (٦٨٥٨) .

(٤) أم سليم هي أمية بنت قيس بن أبي الصلت الغفارية، شاركت مع النبي ﷺ في القتال بعد أن استأذنته. وقد ذكرت ذلك قائلة "جئت رسول الله ﷺ في نسوة من غفار للخروج معه لنداوي الجرحى، ونعين المسلمين بما استطعنا". وانظر ابن الأثير: أسد الغابة، ج٥، ص ٤٠٥.

(٥) أم سنان الأسلمية أسلمت وبايعت بعد الهجرة، وروي عنها أنها قالت: "لما أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى خيبر جئته، =

وكانت أغلبُ ممارسات الطب تزاول في البيوت فلم توجد مقار مخصصة للاستشفاء أو دور خاصة للعلاج.

كما كانت تزاول هذه المهنة في الخيام إبان المعارك الحربية وفي ساحات القتال[١]، ومن ذلك في معركة الخندق فقد ضربت خيمة لمرأة طبيبة من بني أسلم يقال لها رفيدة[٢].

في مسجده ﷺ فكانت تُطببُ بها جرحى المسلمين، ومن أولئك سعد بن معاذ الذي قال الرسولﷺ في شأنه حين أصيب بالخندق : "**اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب**"[٣].

كذلك من مظاهر العناية النبوية بالصحة البدنية الأمر النبوي بالتداوي والحث على العلاج والاستشفاء؛ فعن أسامة بن شريك –رضي الله عنه– قال: **قَالَتْ الأَعْرَابُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلا نَتَدَاوَى ؟ قَالَ:"نَعَمْ، يَا عِبَادَ اللَّهِ تَدَاوَوْا، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً، إِلا دَاءً وَاحِدًا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُوَ ؟ قَالَ: الْهَرَمُ**"[٤] مع التأكيد على مراجعة الطبيب؛ فعن سعد بن أبي رافع –رضي الله عنه–

=

فقلت: يا رسول الله، أخرج معك في وجهك هذا أَخرز السِّقاء، وأُدَاوِي المريض والجريح إن كانت جراح ـ ولا تكون ـ وأبصر الرَّحْل فقال رسول الله: "اخرجي على بركة الله فإنّ لك صواحب قد كَلَّمنني، وأذنتُ لَهُن من قومك ومن غيرهم، فإن شئتِ فمع قومك وإن شئتِ فمعنا". قلت: معك. قال: "فكوني مع أُمّ سَلَمَة زوجتي". قالت: فكنت معه، وحكت عن نفسها فقالت: "جئت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، إني جئتك على حياء، وما جئتُ حتى أُلجِئتُ من الحاجة. فقال: "لَوِ اسْتَغْنَيت لَكَانَ خَيْرًا لَكِ".وانظر ابن الاثير: أسد الغابة، جـ٧، ص ٣٣٥. وانظر الطبري: تاريخ الأمم والملوك: مصدر سابق، دار المعارف، مصر ١٣٨١هـ، ج٢، ص٥٨٦.

(١) ذكر الشيباني (ت ١٨٩ هـ) أن أم عطية كانت تغزو مع الرسول صلّى الله عليه وسلم لتقوم على المرضى وتداوي الجرحى، وذكر أنس بن مالك (ت ٩١ هـ) أن الرسول صلّى الله عليه وسلم كان يغزو بأم سلمة ونسوة من الأنصار معه إذا غزا يسقين الماء، ويداوين الجرحى. انظر الشيباني، شرح كتاب السير (ج ١، ص ٣٠١) ومسلم في الصحيح (ج ٣، ص ٤٤٣).

(٢) ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله مُحَّد بن أبي بكر الدمشقي (ت ٧٥١هـ): الطب النبوي، دار العلوم الحديثة، بيروت، عام ١٤٠٤هـ – ١٩٨٣م، ص٤١، وقيل: اسمها كعيبة الأسلمية وهي التي قدمنا عنها آنفاً هامش ٢ ص١٠٤.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٤، ص ١٩٨– ١٩٩.

(٤) الترمذي: السنن رقم الحديث (٢٠٣٨) وصححه الألباني في صحيح الترمذي. (الْهَرَمُ) هو الضعف بسبب كبر السن، وأمراض الشيخوخة، فليس له دواء.

قال: "**دخل عليَّ النبي ﷺ يعودني، فوضع يده بين ثدييّ حتى وجدت بردها على فؤادي، فقال إنك مفؤود، ائت الحارث بن كلدة فإنه يتطبب**"[١].

ومثلما حرّص على مراجعة الطبيب حث أيضاً على تعلم مهنة الطب، فعن الشفاء بنت عبد الله – رضي الله عنها –قالت: "**دخل علي رسول الله ﷺ وأنا عند حفصة فقال لي: ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتيها الكتابة**"[٢].

وبين أن الطبيب ضامنٌ لأي ضررٍ يلحق الإنسان، من جراء الجهل بهذه المهنة فقال ﷺ: "**من تطبب ولم يعلم منه الطب فهو ضامن**"[٣].

بل إن من المفيد أن نعلمَ أن النَّبي ﷺ كان له دورٌ كبيرٌ في الإجراءات الوقائية من بعض الأمراض، وخاصة المعدية كالطاعون والجذام مثلاً، فمن أقواله ﷺ: "**إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه**"[٤].

وفي حديث آخر "**فر من المجذوم، كما تفر من الأسد**"[٥] **وقال" إذا شرب الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعًا**"[٦].

كذلك من الأمور الصحيَّة حثه ﷺ على اتخاذ أسباب الوقاية: فثبت عنه قول: "**لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، ولا نوء ولا غول، ويعجبني الفأل**"[٧] وقوله: "**لا يورد ممرض على مصح**"[٨] واتخذَ

(١) أبو داود: السنن، كتاب الطب، باب في تمرة العجوة، والحديث عن سعد برقم (٣٣٧٧)، والخبر جاء ذكره عند ابن الأثير في أسد الغابة، ج٢، ص٣٤٨.

(٢) أبوداود: السنن، مصدر سابق، ج٤، ص١١.

(٣) أبو داود: سنن أبي داود، كتاب الديات، باب فيمن تطبب بغير علم فأعنت، ج٤، ص ١٩٥. وللمزيد في هذا الموضوع انظر ياسين، مؤيد عبيد: جوانب من متطلبات الحياة في المجتمع المدني أثناء عصر الرسالة، مجلة جامعة الأنبار، ع٣، ص ٣١٥.

(٤) أبو داود، السنن، مصدر سابق، ج٣، ص١٨٧.

(٥) ابن قيم: الطب النبوي، مصدر سابق، ص ١١٦.

(٦) البخاري: الصحيح، ، ج١، ص٥٤.

(٧) مسلم : الصحيح، كتاب السلام، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء، برقم ٢٢٢٢.

(٨) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الطب، باب لا عدوى، برقم ٥٧٧٥، ومسلم في كتاب السلام، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء، برقم ٢٢٢١.

رجالاً متخصصين لغسل الموتى، ومن أولئك أبو طلحة زيد بن سهل[١]، وذلك التخصيص لغسل الموتى ومتعلقاته يدلنا بالتأكيد على مدى عناية الإسلام بالنظافة بعامة للأحياء والأموات.

وأعجب من ذلك إذا علمنا أن النَّبي ﷺ قد مارس الطب بنفسه فمارس الرقية لبعض أصحابه ﷺ فعن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه "**أنه أتى النبي ﷺ قال عثمان: وبي وجعٌ كاد يهلكني قال، فقال رسول الله ﷺ: امسحه بيمينك سبع مرات، وقل أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد، قال: ففعلت ذلك، فأذهب الله عز وجل ما كان بي، فلم أزل آمر به أهلي وغيرهم**"[٢]، ومثلما مارس رسول الله ﷺ مهنة الطب بالرقية كذلك مارس مهنة الطب بالتجربة، فقد ذكر أن رسول الله ﷺ كوى سعد بن معاذ في أكحله بمشقص، ثم حسمه سعد بن معاذ وقيل غيره[٣].

كما تعلمت عائشة أم المؤمنين –رضي الله عنها –مهنة الطب النبوي أو كما يسمى في اصطلاح العصر بـ (الطب البديل)[٤] ومارسته بالتعلم والسماع والخبرة والتجربة، ويحكي عن ذلك عروة وهو ابن أختها: قال قلت لها: "**يا خالة الطب من أين عُلّمته ؟ عرفنا أنك علمت الفقه والأحكام من الرسول ، والنسب من أبي بكرٍ والشعر من حفظٍ، لكن الطب من أين لك هذا الطب ؟ فقالت: "كنت أمرض فيُنعت لي الشيء، ويمرض المريض فينعت له، وأسمع الناس ينعت بعضهم لبعضٍ فأحفظه**"[٥].

وكما كانت العناية النبوية بالصحة العامة امتدت إلى سلامة البيئة وصحة المجتمع وإلى ما يتعلق بالتخلص من الأوساخ أو بالتّخصيص لأماكن خاصة لرمي النفايات، فدين الإسلام دين نظافة ودين

---

(١) أبو طلحة زيد بن سهل بن الأَسْوَد بن حَرَام بن عُمَر، وهو مشهور بكنيته، وهو زوج أم سُلَيم بنت مِلْحان أم أنس بن مالك. وكان آدمَ مربوعًا، ومن الرّماة وهو الذي حفر قبر رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم ولَحَدَه، وكان يَسْرُد الصوم بعد رسول الله، صَلَّى الله عليه وسلم، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبي عُبَيْدَة بن الجَرَّاح، أسد الغابة، جـ٤، ص ٢٦٠.

(٢) أبو داود، السنن، مصدر سابق، ج٢، ص١٢.

(٣) ابن ماجه: سنن ابن ماجه، ج٢، ص١٦٢، وانظر ياسين: جوانب من متطلبات الحياة في المجتمع المدني، المرجع السابق، ص٣١٥.

(٤) الطب البديل ويعني العلاج التقليدي بالأدوات والوسائل الطبيعية غير الكيمائية المعروفة حاليًا.

(٥) والحديث بتمامه رواه هشام بن عروة عن أبيه، قال: لقد صحبت عائشة، فما رأيت أحداً قط كان أعلم بآية أنزلت، ولا بفريضة، ولا بسنة، ولا بشعر، ولا أروى له، ولا بيوم من أيام العرب، ولا بنسب، ولا بكذا، ولا بكذا، ولا بقضاء، ولا طب، منها. فقلت لها: يا خالة، الطب، من أين علمته ؟ فقالت: كنت أمرض فينعت لي الشيء، ويمرض المريض فينعت له، وأسمع الناس ينعت بعضهم لبعض، فأحفظه. قال عروة: فلقد ذهب عامة علمها، لم أسأل عنه. الذهبي: سير اعلام النبلاء، ج ٢، ص١٨٣.

طهارة للظاهر والباطن بل للباطن قبل الظاهر، فأمر بنظافة البدن وحرَّص على الاهتمام بنظافة البيئة، وكفل أجر ذلك بنص الحديث: "**إماطة الأذى عن الطريق صدقة**"[١] كذلك قدّر وأكرم المرأة السوداء التي كانت تقم المسجد[٢]، وفي ذم الأذى عن أعين الناس في الطرقات ما جاء في حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ "**اتقوا اللعانين الذي يتخلى في طريق الناس أو ظلهم**"[٣]، وعن معاذ، رضي الله عنه : "**اتقوا الملاعن الثلاث: البَراز في الموارد وقارعة الطريق والظل**"[٤] بل أمر بالعناية بجمال البيئة وحسن منظرها؛ ففي الحديث "**ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً، فيأكل منه طير، أو إنسانٌ، أو بهيمة إلا كان له به صدقة**"[٥]، ومنع من التبول تحت شجرٍ مثمر حفاظاً على الثمر والشجر والذوق العام؛ فجاء في الحديث "**ولا يبولن تحت شجرة مثمرة**"[٦]، وكذلك فقد حدد أماكن خاصة لرمي الأوساخ والمهملات؛ لأجل منع الضرر عن الناس وحفاظاً على نظافة المجتمع المدني. ويُروى أن بئر بضاعة كانت موضعاً تطرح فيه الأوساخ"؛ **فعن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه: قيل لرسول الله، إنه يستقى لك من بئر بضاعة وهي يطرح فيها ما يكره من النتن فقال: الماء لا ينجسه شيء: إلا ما غلب على ريحه وطعمه ولونه**"[٧] وفي رواية أنه قيل للنبي ﷺ: "**إنه يستقى لك من بئر بضاعة، وهي بئر تلقى فيه الكلاب والمحائض وعَذر الناس**" والشاهد من كلا الحديثين هو التخصيص لأماكن رمي العَذر والنفايات.

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، رقم الحديث (١٦٦٨).

(٢) عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: فَقَدَ النبي، صلى الله عليه وسلم، امرأةً سوداء كانت تلتقط الخِرَق والعيدان من المسجد، فقال: "أين فلانة؟"، قالوا: ماتت، قال: "أفلا آذنتموني؟!"، قالوا: ماتت مِن الليل ودُفنتْ؛ فكرِهنا أن نوقظك، فذهب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى قبرها، فصلى عليها وقال: "إذا مات أحد من المسلمين، فلا تدَعُوا أن تُؤذِنوني"، البخاري: صحيح البخاري رقم الحديث (٤٥٨) وشكَّ الراوي رجل أو امرأة. البيهقي، أبو بكر أحمد بن حسين (ت ٤٥٨ هـ): السنن الكبرى، حيدر أباد، المطبعة العثمانية، عام ١٣٥٤ هـ، ج٤، ص٥٢، رقم الحديث (٦٩٨١).

(٣) مسلم: صحيح مسلم، من حديث ابي هريرة رقم الحديث (٤٠٢)، ص٢٧١.

(٤) أبوداود: السنن، كتاب الطهارة، باب المواضع التي نهى النبي ﷺ عن البول فيها، ج١، ص٢٠، من حديث معاذ بن جبل.

(٥) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الحرث والمزارعة - باب فضل الزرع والغرس، رقم الحديث (٢٣٢٠).

(٦) وانظر الحديث في الأوسط للطَّبَرَانِيّ، باب النَّهْيَ عَنْ قَضَاءِ الْحَاجَةِ تَحْتَ الأَشْجَارِ الْمُثْمِرَةِ، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ، وانفرد الطبراني بزيادة لفظ (ولا ضفة النهر الجاري).

(٧) بئر بضاعة، بضم الموحدة على المشهور، وحكى كسرها، وفتح الضاد المهملة وأهملها بعضهم، وهي غربي بئر حاء جهة الشمال إلى المدينة، وهي اليوم تقع في المنطقة الشمالية الغربية للمسجد النبوي الشريف، موضع فندق أنوار المدينة موفنبيك.

كذلك فقد حرص النبي، عليه السلام، على تحديد مواضع مناحر الذبح، ومن ذلك مجزرة في (بقيع الزبير) الذي استقطعه النبي ﷺ له، وذُكر عنه أنه كان ﷺ ينحر ذبائح الأضاحي بالمصلى[١] كما فعل أصحابه ذلك، فيذكر أن صحابته، رضوان الله عليهم جميعاً، كانوا ينحرون في المنحر يعني منحر النبيﷺ[٢]، ويعني هذا أن ذلك المكان خصص لذبح الأضاحي[٣].

والظاهر أن مواضع قضاء الحاجة كانت بطبيعة الحال أولى من المجازر؛ ولذا حُددت الأكناف قرب البيوت، خاصة بعد فرض الحجاب على أمهات المؤمنين ونساء العالمين، تقول أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها -:"**فخرجت مع أم مسطح قبل المناصع، وكان متبرزنا، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا**" والشاهد من الحديث اتخاذهم الأكناف، وكانت بادئ ذي بدء بعيدةً عن العمران والبيوت، أو في المواضع القديمة والأماكن البعيدة كبئر أيوب مثلاً[٤].

ومن المهمات الأخرى من جوانب الصحة وسلامة المجتمع المدني تحديد **مواضع الدفن** وهي أماكن خاصة اتخذها النبي، عليه السلام، لإكرام الموتى عرفت ب (بقيع الغرقد)[٥].

وكان يقال له كما ذكر ابن سعد (بقيع الخبجبة)[٦]، وأول من دفن فيه من المهاجرين عثمان بن مظعون، رضي الله عنه[٧]، ومن الأنصار أسعد بن زرارة، وعندما توفي إبراهيم، عليه السلام، ابن رسول

(١)ونص الحديث «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَنْحَرُ، أَوْ يَذْبَحُ بِالْمُصَلَّى» البخاري: صحيح البخاري، أَبْوَابُ العِيدَيْنِ -بَابُ النَّحْرِ وَالذَّبْحِ يَوْمَ النَّحْرِ بِالْمُصَلَّى ج٢، ص ٢٣.

(٢)ونص الحديث «كَانَ يَنْحَرُ فِي المَنْحَرِ» قَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ: «مَنْحَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» البخاري: صحيح البخاري، كِتَابُ الحَجِّ -بَابُ النَّحْرِ فِي مَنْحَرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمِنًى، ج٢، ص ١٧١.

(٣) ياسين، مؤيد عبيد: جوانب من متطلبات الحياة في المجتمع المدني اثناء عصر الرسالة، مجلة جامعة الانبار للعلوم الانسانية، العدد الثالث ٢٠٢٠، ص ٣١٦.

(٤) وهي بئر تقع شرقي سوق المدينة شامي بقيع الغرقد.

وفي الحديث ما يؤكد ذلك تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها "أمرنا أمر العرب الأول في البرية قبل الغائط وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا "البخاري: صحيح البخاري، ج٥، ص٤٠٦.

(٥) البقيع كل مكان فيه أروم الشجر وبه سمي بقيع الغرقد بهذا الاسم والغرقد كبار شجر العوسج وهو مقبرة أهل المدينة ويوجد داخلها، وانظر العباسي، أحمد بن عبد الحميد (ت ق١٠هـ): عمدة الأخبار في مدينة المختار، تحقيق محمد الطيب الانصاري، مطبعة المدني، القاهرة، عام ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م، ص٢٨٣.

(٦) ابن سعد: الطبقات، مصدر سابق، ج٣، ص٣٩٧. جاء في تاج العروس ج٨ بقيع الخبجة وعند السهيلي في الروض الخبخبة.

(٧) وضع رسول الله ﷺ حجرا عند رأس ابن مظعون وقال: "هذا فرطنا فكان اذا مات الميت بعده قيل يا رسول الله أين ندفنه =

اللهﷺ دفنه رسول الله ﷺ في البقيع[(١)]، وإزاء ذلك رغب الناس في الدفن في البقيع فقطعوا أشجاره واختارت كل قبيلة ناحية عرفت فيه مقابرها[(٢)].

إضافة إلى ذلك مقبرة جبل أحد، وهي مقبرة خاصة بشهداء المعركة، وقد ضمت رفات سيد الشهداء وأسد الله عم رسول الله ﷺ حمزة بن عبد المطلب[(٣)].

ويمكن القول بأن هذه التدابير النبوية هي من أهم الإجراءات للأخذ بأسباب الصحة العامة وسلامة المجتمع، ولا سيما وأن لها تعلقات في الأمن البيئي من الجانب المعنوي، وأما فيما يتعلق بالأمن البيئي من الناحية الحسية فنجد أن دين الإسلام الحنيف قد أمَّن كل ما يفضي إلى عدم استتباب روح الأمن، ومن ذلك أنْ عني بالمحافظة على الآداب العامة من خلال إقامة الحدود الربانية: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾[(٤)] وبتشريع بعض الأحكام التي من شأنها أن تعلي منار الأمْن وتسهم في تحقيقه.

والحاصل أن كل تلك الفروض وتلك التشريعات ماهي إلا من سبيل تطبيقات الأمن في مستوياته الثلاثة أمنٌ صحي، وأمنٌ فكري، وأمنٌ في البيئة والمجتمع.

=

؟ فيقول رسول الله عند فرطنا عثمان بن مظعون "فكان موضعا معلم، وانظر ابن سعد: الطبقات، مصدر سابق، ج٣، ص٣٩٧.

(١) العباسي: عمدة الأخبار، المصدر السابق، ص ١٥٠-١٥١.

(٢) العباسي: عمدة الأخبار، المصدر السابق، ص ١٥٠-١٥١.

(٣) كما وجدت مقابر خاصة للمهاجرين والأنصار، في محال سكناهم، ومن تلك مقبرة بني خطمة قرب بئر غرس، ومقبرة بني سلمة، وهي عند خطط بني حرام، ومقابر بني سالم، وبني بياضة، وكذلك مقبرة قباء، وانظر السمهودي: وفاء الوفا، ج٣، ص٨٧٢.

(٤) سورة البقرة آية (١٧٩).

المبحث الثالث: تنظيم شؤون الإدارة والأمور العسكرية

الوظيفة الإدارية وحكومة الرسول ﷺ في المدينة.

أصلّ الرسول ﷺ أهم معاني الإدارة الإسلامية، وقد تجسدت تلك المعاني بالتطبيقات والممارسات الحسية التي انتهجها ﷺ في رسم سياسة دولته، والحق أن تلك الإدارة استمدت أصولها الشرعية من الوحي، وأسندت تقدير أمورها الدنيوية إلى مبادئ الشورى والاجتهاد، فكان أبرز سماتها أنّها إدارة جماعية، احتكمت إلى العقيدة والإيمان، واستتبعته بالقياس والإجماع في الحكم، فكانت بذلك حكومة متفردة لَم تسُقْها الأهواء الفردية، ولا عصبيات الجاهلية، وإنما هي سلطة تشريعية وشورية، وإدارة معنوية قوية، لفظت الاستبداد واستغلال المنصب، وقامت على العدل والمساواة، وحرية المعتقد والرأي، فكانت إدارة راعية وواعية ذات مسؤولية تؤمن بأنّ الولاية والإمارة أمانةٌ واجبٌ أداؤها، وأنّ الوظيفة الإدارية ليست موضع تشريف بقدر ماهي مناط أمانةٍ وتكليف، لا تعطى لمن يطلبها، وإنّما هي التي تطلبه، ولا تكون إلا لذوي القدرة والكفاءة والأمانة وهذا ما سنه رسول الأنام، عليه السلام، حيث أقر مبدأ الشورى، وحدد مسؤولية العلاقة بين الحاكم والمحكومين، ورتب التعاملات الداخلية، وبها ومعها نظم العلاقات الخارجية.

المطلب الأول: بناء منظومة الحقوق المتبادلة بين الحاكم والمحكومين.

إن كل حقٍ مشروع يقابلهُ واجبٌ مفروض يتعين أداؤه، ويُستلزم ايفاؤه، وأوامر الدين ونواهيه تتضمن في الكثير منها واجباتٍ على طرف من الأطراف في طيها حقوق لطرف آخر. وهذا ما نراه جلياً واضحاً في علاقة الحاكم المسلم بالرعية، فللرعية حقوق على الحاكم تندرج جميعاً تحت حفظ الدين وسياسة الدنيا، وللحاكم في مقابلها حقوق على الأمة مثبتة في نصوص التشريع الحكيم، ولقد بين نبي الهدى ﷺ هذه الحقوق ومنها : **البيعة لولي الأمر، ومن ثم تقديم الطاعة له**؛ يقول المصطفى ﷺ "**من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية**"[(١)].

وألزم الطاعة بالمعروف لولي الأمر كمبدأٍ من مبادئ الحكم الإسلامي، وأساسٍ من أسسه، وحق من حقوق الحاكم على رعيته بنص القرآن وصحيح السنة في غير معصية الخالق؛ فجاء عنه في الحديث الشريف "**على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره ما لم يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**"[(٢)].

(١) مسلم: الصحيح، ج ٣، ص ١٤٧٨رقم (١٨٥١).

(٢) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية رقم الحديث (٦٧٢٥)، ص١٣٢.

وفي الحديث المتفق عليه عن عبادة بن الصامت قال: "**بايعنا رسول الله على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وألا ننازع الأمر أهله، قال: إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان**"[١].

ومن لوازم تلك الطاعة **المعاونة والنصرة والتأييد**؛ لتحقيق مقاصد الإمامة وواجبات الشرع، فالطاعة بطبيعة الحال صورة من صور المعاونة والتأييد، كما أن المعاونة والنصرة والتأييد من لوازم الطاعة. ومن مظاهر النصرة والتأييد: عدم الخروج على الإمام، وكذلك عدم معاونة الخارجين عليه، بل وعدم السكوت عنهم، أكد ذلك المبدأ نبي الهدى ﷺ؛ ففي الحديث الشريف "**من بايع إماماً فأعطاه صفقة يده، وثمرة فؤاده فليطعه ما استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر**" و"**من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه**"[٢].

ومن الحقوق أيضاً بذل المحبة والتقدير لولي الأمر، وكذلك الدعاء للإمام والحاكم بالهداية والسداد والتوفيق، لعاجل نفع ذلك وخيره لهم فإن كانت من الله الإجابة كانت على العامة النفع والإفادة؛ وهذا هو هدي السلف الصالح؛ ولذا قال الفضيل بن عياض: "**لو كانت لي دعوة مستجابة لجعلتها للإمام؛ لأن به صلاح الرعية، فإذا صلح أمنت العباد والبلاد**"[٣].

ومن الحقوق التي أمر بها النبي ﷺ النصيحة: وهي واجبٌ على الرعية تجاه الإمام، وواجبٌ على الإمام تجاه الرعية؛ ولذا يُعبر عنها أحياناً بصيغة المفاعلة – المناصحة – وهي مما يحبه الله ويرضاه لجماعة المسلمين؛ لذا قال النبي ﷺ تأكيداً لهذا الجانب: "**إن الله يرضى لكم ثلاثاً: وذكر منها، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم**"[٤].

وآخر ما نختم من واجبات الرعية تجاه الإمام ما يسمي **بالكفاية أو الكفالة**، وهي تحديد راتب مالي من خزينة الدولة للحاكم، وقد وضح النبي ﷺ حدود ذلك وبينه في حقوق عمّاله؛ فعن المستورد بن شداد عن رسول الله ﷺ قال: "**من كان لنا عاملاً فليكتسب زوجة، فإن لم يكن له خادم فليكتسب**

---

(١) البخاري: الصحيح، ج ٦، ص ح٢٥٨٨رقم الحديث (٦٦٤٧)، ومسلم: الصحيح، ج٣، ص ١٤٧٠رقم الحديث (١٧٠٩).

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كِتَاب الْإِمَارَةِ، بَاب حُكْمِ مَنْ فَرَّقَ أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ وَهُو مجتمعَ، عن عرفجة بن شريح، رقم الحديث (٣٤٤٩).

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ج٢٨، ص٣٩١. ولذا كانت الدعوة لولي الأمر من العامة (...وهيئ له البطانة الصالحة الناصحة التي تعينه على الحق وتدله عليه).

(٤) مسلم: صحيح مسلم، من حديث عبد الرحمن بن صخر، حديث رقم (٣٢٤٢) ص٥٩٣.

خادماً، فإن لم يكن له مسكن فليكتسب مسكناً، فمن اتخذ غير ذلك فهو غال أو سارق"(١) فللحاكم حقُ ما يكفيه من بيت مال المسلمين فهو أجيرٌ يتفرغ لخدمتهم؛ ولأداء الواجبات الملقاة على عاتقه تجاههم وجب على المسلمين أن يوفروا له ما يسدُ حاجته نظير تفرغه لهذا العمل، وهو حقٌ إلهيٌ مفروضٌ واجب، جعله المولى تعالى للعاملين على الصدقات، فكيف بمن هو قائمٌ بسائر ولايات دولة الإسلام بجهده وصبره، فصار من حق ولي الأمر على الدولة: أن يُحددَّ له راتبٌ يكفيه وأهله، ليتفرغ للمهام الموكلة إليه. وقد فطن المسلمون الأوائل إلى هذه الحقيقة في وقتٍ كان الحاكم فيه يملك البلاد والعباد في شتى بقاع الأرض، بينما تقنع الرعية بما يجود به عليهم؛ فورد عن حميد بن هلال(٢) قال: لما ولي أبو بكر قال أصحاب رسول اللهﷺ: **افرضوا لخليفة رسول الله ما يغنيه"**(٣).

وفي مقابل تلك الحقوق من الرعية للحاكم تأتي حقوق الحاكم لرعيته، وهي مسؤوليةٌ شرعية وأمانةٌ ربانية أوجبها الخالق للحاكم تجاه من هم تحته يقول ﷺ:"**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته"**(٤) ويؤيد أهمية جانب تلك الأمانة وعظم مسؤوليتها ما كان في حوار المصطفى ﷺ لأبي ذرٍ الغفاري؛ فعن أبِي ذرٍّ قال: "**قلت يا رسول اللَّه! أَلا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: يا أبا ذرٍّ، إنك ضعيف، وإنها أمانةٌ، وإنّها يومَ القيامة خزي وندامةٌ، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها"**(٥) وتحقيق مسؤولية الحاكم على الرعية يكون بالمحافظة على دين الله تعالى، وإقامة حدوده، وتكاليف تشريعه(٦).

---

(١) أبو داود: السنن، عن مستورد بن شداد، قال من اتخذ غير ذلك فهو غال أو سارق، حديث رقم (٢٥٦٠).

(٢) اسمه حميد بن هلال بن هبيرة، و يقال: ابن سويد بن هبيرة العدوي، أبو نصر البصري (من عدي تميم) كنيته أبو نصر، وقيل: العدوي البصري يعتبر حميد بن هلال العدوي من الطبقة الثالثة من طبقات رواة الحديث النبوي التي تضم الوسطى التابعين ورتبته عند أهل الحديث وعلماء الجرح والتعديل رتبته يعتبر ثقه، وانظر الذهبي: سير أعلام النبلاء، الطبقة الثالثة، ج٥، ص ٣١٠.

(٣) جاء عَنْ حُمَيْدِ بْنِ هِلالٍ، قَالَ: " لَمَّا وَلِيَ أَبُو بَكْرٍ، قَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّه - : افْرِضُوا لِخَلِيفة رَسُولِ اللَّه ﷺ مَا يُغْنِيهِ، قَالُوا: نَعَمْ، بُرْدَاهُ إِذَا أَخْلَقَهُمَا وَضَعَهُمَا، وَأَخَذَ مِثْلَهُمَا، وَظَهْرُهُ إِذَا سَافَرَ، وَنَفَقَتُهُ عَلَى أَهْلِهِ كَمَا كَانَ يُنْفِقُ قَبْلَ أَنْ يُسْتَخْلَفَ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: رَضِيتُ.. "حدث الألباني في إرواء الغليل، ج٨، ص٢٣٢ رجاله ثقات، رجال مسلم، إلا أنه مرسل وانظر: ابن عساكر في تاريخ دمشق، حرف العين، رقم الحديث(٣٠٣٦٤).

(٤) البخاري: صحيح البخاري، كتاب العتق، باب العبد راع في مال سيده، رقم الحديث (٢٤١٩)، ص ٢١٥.

(٥) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، رقم الحديث (١٨٢٥).

(٦) وقد فطن لذلك المعنى صدّيقُ هذه الأمة حين قال يوم أن بُويع بالخلافة: "أيها الناس، إني قد وليت عليكم ولست =

ومن حقوق الإمام لزومُ المحافظةِ على الآداب العامة؛ تحقيقاً لأمن المجتمع، وحمايةً لحرية الناس وحقوقهم، كذلك تلزمُ عناية الحاكم رعاية عامة مصالح الأمة؛ فيوجب عليه الدين والأمانة المسؤولية بأن ينهض برعيته علميًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا، وفي سائر مجالات الحياة؛ ليوفر لمجتمعه ما يحفظ به كرامة أفراده وإنسانيتهم. يقول المصطفى ﷺ: "**إن شر الرعاء الحطمة**"[(١)] ومن الحقوق التي أكدها ﷺ تولية أصحاب الخبرة والاختصاص وأهل العلم الأمنَة النصحاء فيما فيه نفع البلاد والعباد. وهذا هو أساس مقياس اختيار القيادات؛ ولذا قال رسول الله ﷺ:"**إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، قال: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: إذا أُسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**"[(٢)] ومع التخصيص تأتي الرقابة ومحاسبة المكلفين بتقويم معوجهم، والتسديد لمن صح منهم في الرأي وأجاد، وبالعزل والفصل لمن أساء التدبير، أو انشق وحاد عن الصواب.

وتلزم ولي الأمر استشارة أهل العقد والحل، والصلاح والإصلاح فيما يخص صالح العباد وأمور البلاد، والاستماع إلى شكواهم وجائعهم وضعيفهم ومظلومهم، والوقوف معهم ومنع مظلمتهم، مع إتيان العدل فيما بينهم، ويمتد ذلك إلى الرعايا من غير المسلمين، ولقد فصل ذلك ﷺ فبين وعد الله بالأجر الجزيل للحاكم العادل فيقول ﷺ في حديث أبي هريرة: "**سبعة يظلهم اللَّه في ظلّه يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل**"[(٣)] وعن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال: "**إن المقسطِين عند اللَّه على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين: الذين يعدلون في حكمهم وأهليهمَ و مَا وَلُوا**"[(٤)].

=

بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له، ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص٦٥٦.

(١) ورد عن أبي سعيد الحسن البصري أن عائذ بن عمرو - رضي الله عنه - دخل على عبيد الله بن زياد، فقال: أي بني، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن شر الرعاء الحطمة"فإياك أن تكون منهم، فقال له: اجلس فإنما أنت من نخالة أصحاب مُحَمَّد ﷺ فقال: وهل كانت لهم نخالة إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم، والحطمة: العنيف في رعيته لا يرفق بها في سوقها، ومرعاها، وشربها. وفي هذا الحديث: أمر الأمراء بالمعروف، ونهيهم عن المنكر برفق. والحديث لمسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم، رقم حديث(١٨٣٠).

(٢) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة، عن أبي هريرة، حديث رقم (٦١٣١).

(٣) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، ج٢، ص ٧١٥، رقم (١٠٣١).

(٤) مسلم: صحيح مسلم ج٣، رقم الحديث (١٨٢٧)، ص١٤٥٨.

ولعل في الحفاظ على تلك الحقوق أسمى معاني الاتحاد والائتلاف والتماسك بين أفراد الأمة ما يجعلها في موضع الريادة والصدارة، والهيبة والقوة أمام العدو؛ يقول المولى سبحانه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1].



(١) سورة الأنفال آية (٤٣).

المطلب الثاني: تقرير مبدأ الشورى[١].

الشورى مبدأ من مبادئ الإسلام وأساسيات الحكم، ومن منطلقات العدل وتقدير الرأي، ميزةٌ من سمات الإسلام وتأكيد لعدله، وكرامةٌ للمرءِ بمناقشة رأيه وعرض فكره. والشورى مبدأٌ عظيمٌ ومسلكٌ حكيم أقره أمرًا التشريع الإلهي القويم بقول: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[٢] وامتدح ممارسيه ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٣]، وقد مارسها المصطفى ﷺ بين أصحابه[٤].

فقد كان الرسول ﷺ يجمع الناس في المسجد ويقول لهم: حدثنا وكيع عن رجل عن الضحاك قال : " ما أمر الله عزوجل نبيه ﷺ بالمشورة لإلا لما علم فيها من الفضل ثم تلا وشاورهم في الأمر "[٥]

ولا أدلَ على ممارسة النبي ﷺ للجانب السياسي من إقراره ﷺ لمبدأ الشورى في الاختيار؛ فلقد تم الأمر بانتخاب تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس[٦]، وهذا يدل على أن الرسول ﷺ أعطى للأمة حق الاختيار

---

(١) الأصل في كلمة الشورى: الشين، والواو، والراء: (شور) مشتقة من شَوَرَ العسلَ، ووجه المناسبة أن المستشار بمثابة النحلة التي تطوف على أنواع العسل والثمار؛ لتتغذى منها فتخرج أحسن ما عندها. وللمزيد عن معنى الشورى انظر معجم مقاييس اللغة، أحمد فارس، تحقيق وضبط عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت عام ١٤٢٠هـ، ج٣، ص ٢٢٦.
والجميل في التشريع الحكيم أن جعل لأمر الشورى متسعاً بين المسلمين فكفل لهم حرية القول والتعبير مع حرية الرأي والتفكير، حسبما يُرى من المصلحة في كل زمان أو أي مكان، فتُقلَّب الأمورَ شورى بين جمعٍ من المسلمين من ذوي الفقه والنهى والقيادة، وأصحاب الرأي السليم والكياسة، وفي هذا ما يؤكد مرونة مبادئ الإسلام.

(٢) سورة آل عمران آية (١٥٩).

(٣) سورة الشورى آية (٣٨).
والعجيب أن الشورى في القرآن الكريم هي النهج اللازم لأمر المؤمنين العام، وقد وردت في آيتين تمثلان قاعدة من إحدى قواعد النظام السياسي الإسلامي وقد جاءتا بمعنى استعراض النفس في ميدان القتال قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ وكذا بالأمور العسكرية وذلك من أجل جمع الرأي لقوله تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾.

(٤) في كل مالم ينزل به وحي السماء من عقائد الشريعة والحلال والحرام التي أصبحت معلومة من الدين بالضرورة كالصلاة والزكاة ونحوها فليس لأفراد الأمه فيها رأي ولا مشورة (ما كان من أمر دينكم فإلي وما كان من أمر دنياكم فأنتم أعلم به)، وانظر سعيد بن عبد المنعم الحكيم: الرقابة على أعمال الإدارة في الشريعة الإسلامية والنظم المعاصرة، دار الفكر العربي، د.ت ط١، عام ١٩٧٦م، ص٢١٥.

(٥) ابن أبي شيبة، مسند ابن أبي شيبة، ج١، ص١٤٨. والخبر خرج النبيﷺ البخاري: صحيح البخاري، كتاب المغازي، حديث رقم(٣٩٧١).

(٦) تروي بعض المصادر التاريخية غير هذا الإجماع فتشير إلى أن النبي ﷺ هو الذي اختار النقباء وقال لهم: "فلا يجدن منكم =

والانتخاب في تسمية مسؤوليهم، وكذا يشير على أنَّ مبدأ الاختيار والانتخاب كان سمةً بارزة ومفهوماً أساسياً في نظام الحكم الإسلامي، وأنه ﷺ مارسه بين أصحابه، فأكد بتلك الممارسات السياسية أهمية تشكيل النظام السياسي كحكومة إدارية في ظل دولة الإسلام.

والسيرة النبوية حافلة بتطبيقات الشورى وصورها؛ يؤيد ذلك قول المصطفى ﷺ:"**المستشار مؤتمن فإذا استشير فليشر بما هو صانع نفسه**"[١]. وفي الأثر: "ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار، ولا عال من اقتصد"[٢].

ونبي الله ﷺ قدوة أصحابه، وقد مارس أصحابه من بعده ﷺ مبدأ الشورى فكانوا خير من طبقه[٣].

وأهم ما نختم به عن الشورى هي أهميتها الشرعية، وفائدتها السياسية، ومن ذلك أولاً:

- إن للشورى ركيزة دينية وأهمية شرعية فهي بين ركنين عظيمين من أركان الإسلام هما الصلاة - عماد الدين- والزكاة بل وقدمت الشورى على الزكاة تأكيداً لعظم شأنها[٤].

=

أحد في نفسه أن يؤخذ غيره فإنما يختار لي جبريل عليه السّلام" وانظر ابن سعد، الطبقات الكبرى، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٢٢. ويؤيد هذا الرأي ما أشار إليه مالك بن أنس (ت١٧٩ هـ) بقوله: "كنت أعجب كيف جاء من قبيلة رجل، ومن قبيلة رجلان حتى حدثني شيخ من الأنصار أن جبريل كان شير إليهم يوم البيعة. وانظر الذهبي، أبو عبد الله مُحَمَّد أحمد عثمان (ت ٧٤٨هـ): السيرة النبوية، تحقيق حسام الدين القدسي، بيروت، دار مكتبة الهلال، د. ت، ص ٢٠٧.

(١) البخاري: الأدب المفرد، باب المستشار مؤتمن رقم الحديث (٢٥٦)، ص ٧١٨٢ والترمذي: السنن، كتاب الأدب، باب إن المستشار مؤتمن حديث رقم (٢٨٢٢)، وقال هذا حديث حسن غريب.

(٢) وما تردد عنه أنه حديث فلا يصح فقد ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة وقال: موضوع، جاء عند الطبراني في المعجم الصغير، برقم (٩٨٠)عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، وفي إسناده عبد القدوس بن حبيب وهو كذاب، ورواه عنه ابن عبد السلام وتفرد به عنه، واتهمه ابن حبان بالوضع، فهو حديث موضوع مكذوب على رسول الله ﷺ. لكن المقولة حسنة، وهي حكمة، فالاستخارة والمشورة من هدي النبي ﷺ وصحبه، فأن يستخير الإنسان ويستشير أمر محمود، لكن رفعه لحديث حرامٌ ولا يجوز.

(٣) كان الفاروق من أكثر الناس إيمانا بأهمية أخذ رأي الأمة كأساس من أهم الأسس التي أقام عليها حكمه مستفيداً ومقتدياً برسول الأمة ﷺ، وقد كان يقول: "الرأي الفرد كالخيط السميل أي (الذي يفتل على قوة واحدة)، والرأيان كالخيطين المبرمين، والثلاثة مرار أي (حبل)، لا يكاد ينتقص ولا يكاد يحل، وكان يقول"لا خير في أمر أبرم من غير شورى. فهمي، مصطفى أبوزيد: النظرية العامة للدولة، ط ١، الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٨٥، ص ٣٣٧. ونستفيد من تعليق وتعليل شيخ الإسلام -ابن تيمة رحمه الله تعالى -عن ذلك إذ قال: "ولهذا كان رأي عمر، وحكمه، وسياسته من أسدَّ الأمور، فما رؤي بعده مثله قط، ولا ظهر الإسلام وانتشر، وعزَّ كظهوره، وانتشاره، وعِزَّة في زمنه"اهـ ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم (ت ٧٢٨هـ): منهاج السنة النبوية، تحقيق مُحَمَّد رشاد سالم، ط١، عام ١٤٠٦هـ، ج٨، ص٥٨.

(٤) رأى بعض الباحثين من خلال تدبرهم لآية ﴿والذين استجابوا...﴾أن الشورى وصف ملازم للمؤمنين كالصلاة؛ فإذا =

– إن الواقع التاريخي شاهدٌ على أن أسعد الأوقات التي مرت بها الأمة يوم طبقت شرع الله، وساد مبدأ الشورى في حياتها، والعكس إذ انتشر الاستبداد الذي تُولد عنه الفتن والنزاعات(١).

– كذلك فمن فوائد الشورى أن الأمر إذا تم عن طريق المشاورة تقل فيه نسبة الخطأ وتكثر به الإصابة، وأن الحاكم الحصيف العاقل لابد له من الاستشارة مهما بلغ من رجاحة عقله وكثرة تجاربه وسعة اطلاعه.

– أن الشورى في حقيقتها توزيع للمسؤولية، فلا تقع نتيجتها، مهما كانت، على كاهلٍ واحدٍ بعينه، بل يتقاسمها الجميع، فلا يتلاوم الناس ويتنافرون ويتشاجرون إن كانت نتيجتها على خلاف المأمول(٢).

– أن المجتمع الذي تطبق فيه الشورى على الطريقة الشرعية يشعر فيه الأفراد بالمسؤولية تجاه قضاياهم الدنيوية والدينية.

– أن في الشورى حواراً للعقل، وتقديرًا للمرء، وإشادة بالرأي والفكر، ففضلاً عما فيها من محاورة الأفكار والعقول، فيها تقريب القلوب، وتخليص الحق من احتمالات الآراء، واستطلاع أفكار الرجال، ومعرفة مقاديرها؛ فإن الرأي يمثل في العادة عقل صاحبه كما تمثل المرآة صورة شخصه إذا استقبلها(٣).

– أن الشورى وقايةٌ للمجتمع من الاضطراب، وقلة الاستقرار؛ فهي تولد الثقة بين الحاكم والمحكوم، وهي صمام أمان وحاجزٌ عن الفتن والقلاقل، فمن خلالها تدرس المسائل والقضايا من أهل الحل والعقد والعلماء والخبراء، فإما أن يؤخذ بها، وإما أن ترد، وعلى كلا الحالين ترتاح النفوس، وتزول الضغائن، وبذلك يسود المجتمع الترابط والإخاء والمحبة والألفة والتراحم، والتقدير بين الحاكم والمحكومين(٤).

=

كان لا يُسمح للمسلم بترك الصلاة؛ فكذلك لا يسمح له بترك إقامة الشورى، خاصة في الأمور المتعلقة بالمصالح العامة، ويتأكد ذلك بأن الله ﷻ ذكر صفة الشورى بعد صفة الصلاة التي هي عماد الإسلام، وقبل صفة الزكاة، وهذا يدل على عظيم شأن الشورى. الأنصاري، عبد الحميد: الشورى وأثرها في الديمقراطية، دراسة مقارنة، المكتبة العصرية، بيروت عام ط٣، عام ١٤٠٠هـ، ص٥٣، ٥٢.

(١) السامرائي، نعمان عبد الرزاق: النظام السياسي في الإسلام، (د. م)، الطبعة الثانية، عام ١٤٢١هـ، ص١٣٥و١٣٨.

(٢) الحمد، مُحَمَّد إبراهيم: الإسلام، المرجع السابق، ص٣٩٢، ٣٩٩.

(٣)المرجع السابق.

(٤) سعود سليمان وآخرون: النظام السياسي في الإسلام، ص١٣٧–١٣٨.

المطلب الثالث: إعداد قوة الجيش[(١)].

كان للرسول ﷺ باعتباره حاكم الدولة الإسلامية الأول دور كبير في تطبيق صور التنظيم الإداري من ترتيب ولايات الدولة وتقرير مبدأ الشورى والحسبة، واستقبال الوفود، وما يختصُ بالمهام الجهادية من الإعداد للجيش والقوة وعقد التحالفاتِ السياسية، وكُلُها والكثيرُ معها تمثلُ دستوراً سياسياً ونظاماً إدارياً لإدارة الدولة الإسلامية. وما يهمنا هنا بهذا الخصوص هو التمهيد والتلخيص لإعداد قوة الجيش نشراً للإسلام والدعوة إليه، وإرهاباً للعدو وتقلصياً ودفعاً لضرره، وبذلاً لحماية الدولة، وهي من أخصِّ وأدقِّ الأعمال الإدارية.

والإعداد لقوةِ الجيش، دفاعاً أو هجوماً، سياسةٌ نبويَّة وضرورةٌ شرعيَّة، فضلاً عن كونها وظيفة إدارية سعى المختار، عليه السلام، للاستعداد لها داخلياً وخارجياً.

وانطلاقاً من الأمر الإلهي في الآية الكريمة: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[(٢)] وبمطالعةِ بعضٍ من شروح كتب التفسير المؤصَّلة نلحظُ أن المقصود بإعداد القوة: هو الاستعداد بكل ما يُستطاع ويُقدرُ عليه من القوة البدنية والحنكة العقلية وكل أنواع السلاح، وما يدخل في ذلك صناعةً وتدبيراً من إعداد المراكب وفي مقدمتها الخيل، أو بناءِ الحصون، أو حفرِ الخنادق، أو ما إليها من خطط الاستعداد والإعداد كالاستكشاف الأمني وغيره[(٣)].

---

(١) تناولت الدراسة في هذا البحث جانب التنظيم العسكري الإداري في ثلاثة مواضع، في مباحث أو مطالب متفرقة، ومنها (الإعداد للجيش وإرهاب العدو، الاستراتيجية الحربية في مواجه العدو داخلياً وخارجياً، وأخيراً الجهاد في سبيل الله وبناء القوة العسكرية. وقد عنينا في هذه الدراسة، وعمدنا إلى تقسم هذه العناصر الأساس إلى محاور ونقاط ثلاثة مهمة، وهي على التوالي (تمهيد وتلخيص، ثم التفصيل، ويليه محور التطبيق)، فشمل محور التمهيد أولاً: مرحلة الإعداد للجيش وإعداد القوة، وشملت مرحلة التفصيل الاستراتيجية الحربية في مواجه العدو داخلياً وخارجياً وهو ما يتعلق بمواجهته ﷺ لليهود في داخل المدينة وخارجها، ومن ثم تلتها مرحلة التطبيق التي تضمنت بناء القوة العسكرية من حيث التقديم لدراسةٍ تطبيقية لأساليب سياسة القتال بعرض نماذج من السيرة النبوية تبرز صفات القيادة العسكرية المثلى للقتال؛ ذلك أن مجال البحث وأهدافه ليس دراسة المعارك القتالية وتفصيل أحداثها، وإنما استخلاص واستنتاج البراعة النبوية والسياسة الإدارية لمواجهة الأعداء، وبناء قوة الدولة داخلياً وحمايتها من الخارج.

(٢) سورة الانفال آية (٦٠).

(٣) وانظر السعدي، عبد الرحمن بن ناصر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ط١، عام ١٤٢٤هـ، تفسير سورة الانفال أية ٦٠، ص٣٦٩.

وسؤال يطرح هنا لماذا خصت الخيل في الآية وهي داخله ضمن معنى القوة ؟ ولعل ذلك لأهمية الرباط في سبيل الله، =

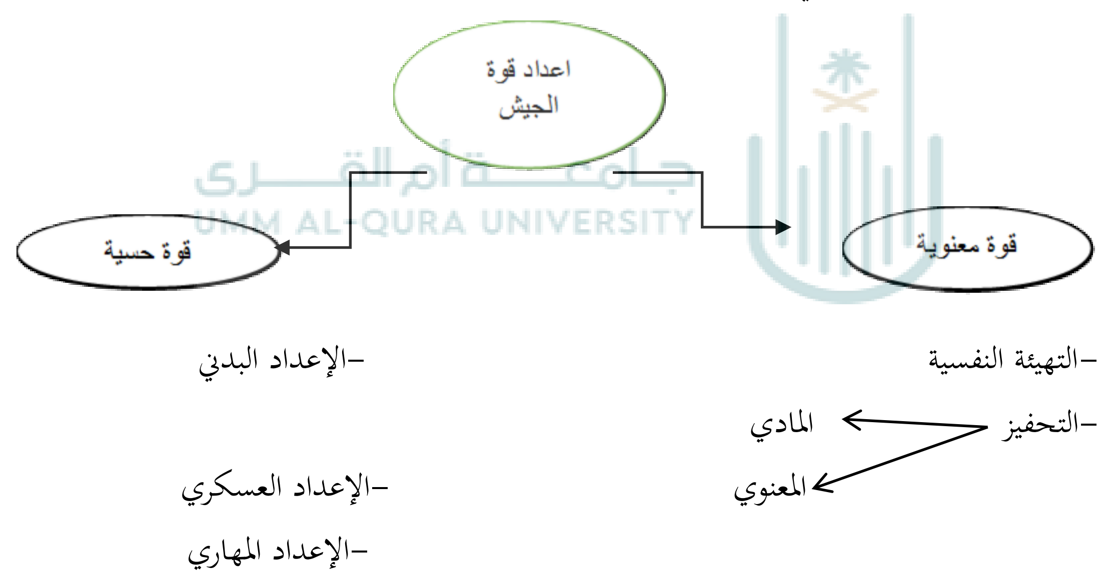
ولرُبَ ما قصده المفسرون يمثل استنتاجاً لتحديد الكيفية التي تناول بها النَّبي ﷺ إعداد قوّة جيشه، فباستقرائنا لنَص الآية الكريمة وغيرها من آيات الجهاد نجد أن قوة الإعداد تمثلت بجانبين:

جانبَ الاعدادِ المعنوي، وجانبَ الاعدادِ الحسي، ويضم الأول: التهيئة النفسية أو ما يسمى بالإعداد النفسي، ويضم كذلك عنصر التحفيز بنوعيه المادي المحسوس كالدُّعاء أو بهتافات شعر الحماسة والجهاد؛ لرفع الروح المعنوية للمقاتلين ونحوه، ويمكن أن نشير إلى هذا النوع من التحفيز بالإعداد الروحي.

وثَمة نوعٌ آخر وهو من قبيل التحفيز أيضاً، ويتمثل هذا بالعطاء الملموس كتقسيم الغنائم، وضرب أسهم المجاهدين، وتحديد سهم كل مقاتل.

وأما الجانبَ الثاني: وهو الجانبُ (**الحسي**) فيضمُ، الإعدادَ البدنيّ، والتدريب العسكري في ميدان القتال، كما يضمُ أيضاً التعليم والتدريب على المهارات القتالية بمعنى (الإعدادِ المهاري).

ولعل قوة الإعداد التي قصدنا آنفاً تمثل التخطيط الشجري التالي:



–التهيئة النفسية
–التحفيز ← المادي ← المعنوي

–الإعداد البدني
–الإعداد العسكري
–الإعداد المهاري

أولاً: القوة المعنوية: وهي تضمُ ما يمثل التهيئة النفسية: وهو الجانب الذي تكفل به المصطفى ﷺ من تهيئة نفوسِ أصحابه الكرام، رضوان الله عليهم، للقتال وترغيبهم بانطلاقة فريدة نحو ساحات الوغى،

=

والمرابطة بعامة ورباط الخيل على وجه الخصوص، فهي أبرز وسيله قتالية للراكب آنذاك، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة وجاء في ختام سورة آل عمران: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ آية (٢٠٠) ما يدل على التأكيد لأهمية الرباط، وفي السنة احاديث كثرةٌ معلومة في هذا الخصوص.

وقد وجّه المولى، عز وجل، نبيه المصطفى ﷺ لهذا الأمر بصيغة الأمر تارة، وبالاستفهام الإنكاري أخرى قال جلّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾[(١)].

وقال في الأخرى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾[(٢)].

فالتهيئة والإعداد النفسي أمرٌ ذو بال، وفيه حثٌ وحض على روح الجهاد، قال ﷺ: "**اغزوا بسم الله، قاتلوا من كفر بالله**"[(٣)].

ويخبرنا (الشريف) في إدارة الدولة: "**إن الإعداد النفسي لا يقتصر على التصور فقط ووضوح الرؤية من غير عملٍ يكون بمنزلة الوقود اللازم للآلة؛ فإن الآلة وإن كانت صالحة للعمل فإنها تحتاج إلى إمدادها دوماً بالوقود ليضمن استمرار عملها وعدم انقطاعه، والعمل الذي يكون للنفس بمنزلة الوقود للآلة هو فعل الطاعات وترك المعاصي والمنكرات، ومن هنا كانت هناك التوصيات من الأمراء والقادة والجيوش المقبلة على القتال، أو للعمال بالحرص على التقيد بأوامر الشرع في كل ما يأتون ويدعون**"[(٤)].

ونقولُ: إنَّ صور هذا الإعداد كثيرة فمنها: الترغيب في القتال، ومنها التهيئة والاستعداد بالعُدةِ والعتادِ والزّاد، وكذلك بالصبر في أرض المعركة والثبات عند اللقاء. وقد عمل ﷺ على بث روح الحماسة في نفوس أصحابه من الجنود المقاتلة حتى يكونوا أقوياء على قتال أعدائهم، وذلك بترغيبهم بالجنَّة والحث على الشهادة مما أعد الله نزلاً للشهداء، ومن جزيلِ الأجر وعظيم الثواب، ومن ذلك قوله عليه السلام: - في حديث أبي هريرة، رضي الله عنه -"**إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين ما بين السماء والأرض**"[(٥)]، وكذلك تهيئتهم نفسياً بحثّهم على التّحليّ بالصبر في ميادين القتال،

---

(١) سورة الانفال آية (٦٥).

(٢) سورة التوبة آية (١٣).

(٣) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها، حديث رقم (١٧٣١) والحديث لسليمان بن بريدة عن أبيه.

(٤) الشريف، مُحَّد شاكر: إدارة الدولة الإسلامية، موسوعة فقه السياسة الشرعية، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر، مج٢، ط١عام ١٤٣٤هـ، ص ٢٤٣.

(٥) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، رقم الحديث (٢٦٣٧)، ص١٦.

وتمثّل الجدِّ والنّشاط. ومن ذلك ما فعله النبي ﷺ يوم أحدٍ، فقد خطب الناس قائلاً: "**يا أيها الناس، أوصيكم بما أوصاني الله في كتابه من العمل بطاعته، والتناهي عن محارمه، ثم إنّكم اليوم بمنزل أجرٍ وذخرٍ لمن ذكر الذي عليه، ثم وطّن نفسه على الصبر واليقين والجدّ والنشاط، فإن جهاد العدوّ شديدٌ، شديدٌ كربُه، قليلٌ من يصبر عليه، إلاّ من عزم الله رُشده، فإنَّ الله مع من أطاعه، وإن الشيطان مع من عصاه، فافتتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله، وعليكم بالذي أمركم به، فإنّي حريصٌ على رشدكم، فإن الاختلاف والتنازع والتثبيط من أمر العجز والضعف مما لا يحبّ الله، ولا يعطي عليه النصّر ولا الظّفر**"[١]. ولم يكتف النّبي ﷺ بغرسِ الإيمان في نفوس الصحابة، بالصبر، واحتساب الأجر، بل غذى هذه الأشياء بحب الله، ورسوله، والجهاد في سبيله، وهذا الحب هو الذي دفع أبا دجانة[٢]. ليجعل من نفسه ترساً للنبي ﷺ يوم أحد ليحميه من سهام الأعداء[٣].

كذلك من صور وضروب التهيئة التدريبِ على الثبات، ومنها: أنه ﷺ أخذ يطمئن أصحابه بالنصر حتي إنه حددَّ مصارع بعض المشركين على أرض القتال، وأيضاً من جوانب التهيئة والإعداد التجهيز بالعُدة والزّاد والعتاد، وقد ورد أنْ النّبي ﷺ كان يأمر أهله أن يجهزوه عندما يخرج للجهاد[٤]؛ فكان على المقاتل ابتداء أنْ يُعدَّ نفسه للجهاد فيشتري راحلته، ويشتري سلاحه، ويحمل معه إذا خرج للقتال زاده ومتاعه[٥]، ويذكر أنس بن مالك– رضي الله عنه– في حديثه عن معركة بدر:"**أن الرسول ﷺ أمر من كان ظهره حاضراً بالخروج معه**"[٦].

فكان المحاربُ يصطحب معه زاده في رَحله، وكان تجهيز الجيش بالطعام يتم بطرق متعددة، فقد كان التمر أغلب زاد الجند يضاف إليه السويق واللحوم المقددة أو الطازجة، وذُكر أيضاً أن الرجل في تبوك كان

---

(١) الواقدي، مُحَّد بن عمر (ت ٢٠٧هـ): كتاب المغازي، تحقيق: مارسن جونس، بيروت – عالم الكتب، الطبعة الثالثة (١٩٨٤م)، ج١، ص ٢٢١–٢٢٣. ولم نجد لهذه الخطبة تخريجاً سوى ما جاء في المغازي عن الواقدي. وللمقريزي (٨٤٥هـ) في الإمتاع: إمتاع الأسماع ج١، ص١٢١، ١٢٢.

(٢) أبو دجانة، سماك بن خرشة بن لوذان بن عبد بن ساعدة الأنصاري الخزرجي الساعدي، شهد بدراً وأحداً، كان قوياً شجاعاً، شارك في اليمامة، اشترك في قتال مسيلمة. انظر ابن الأثير: أسد الغابة، ج٥، ص١٨٤.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٣، ص ٣٠.

(٤) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ١٠١.

(٥) وانظر عبد الرؤوف عون: الفن الحربي في صدر الإسلام، القاهرة، دار المعارف ١٩٦١ م، ص ١٢٥.

(٦) مسلم، صحيح مسلم، ج ٣، ص ١٥١٠.

يحمل معه الدقيق والسويق والتمر[١]، وهكذا فإن النَّبي ﷺ حاول بشتّى الطرّق تجهيز المقاتلة بما يحتاجون إليه من زادٍ وسلاحٍ وعتاد.

وبلغ من حرص النَّبي على الإعداد أنه خطط لإعداد السلاح داخليّا لئلّا يتحكم به أحد في الساعات الحرجة، فيذكر عنه ﷺ أنه يذكر أن عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة أرسلا إلى جرش ليتعلما صناعة الدبابات والمنجنيقات وغيرها، وقد كانت من أضخم الآلات الحربية آنذاك[٢].

ومن صور الإعداد: التحفيز بالدعاء ومن ذلك قوله ﷺ في بدر الكبرى: "**اللهم أنجز لي ما وعدتني**"[٣].

أو بطِيب الكلام وبالفأل وتطيب الخاطر ومن ذلك قوله: "**سيروا على بركة الله؛ فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله؛ لكأني أنظر إلى مصارع القوم**"[٤].

---

(١) الواقدي: المغازي، ج ٣، ص ١٠٢٨.

(٢) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٢٧، وانظر الكرمي: الإدارة في عصر الرسول ﷺ، ص ١٩١، ١٩٢.

(٣) صح عن ابن عبد الله بن عباس قال: حدثني عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا فاستقبل نبي الله، صلى الله عليه وسلم، القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه "اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض "فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عز وجل "إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين "فأمده الله بالملائكة، والحديث لمسلم: صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم حديث رقم (١٧٦٣)، ص٤٣٤.

(٤) صح عن النبي ﷺ أنه أراد الاستيثاق من أمر الأنصار في القتال والحرب فقال : أشيروا علي أيها الناس، وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عدد الناس، وأنهم حين بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله: إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا، فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم. فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال أجل، قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصبرٌ في الحرب، صدقٌ في اللقاء. لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، فسّر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك. ثم قال: "سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم "البخاري: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم الحديث (٣٩٤٤)، ص١٥٣٢، وانظر ابن هشام: السيرة النبوية، غزوة بدر الكبرى، استيثاق الرسول ﷺ من أمر الأنصار، والمباركفوري: الرحيق المختوم، ص١٨٩.

وبالشعر الحماسي كذلك فقد قال النبي ﷺ لحسان بن ثابت: "**إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ مَعَكَ مَا دُمْتَ تُنَافِحُ عَنْ رَسُولِهِ**"، وقال: "**أُهْجُهُم – أَوْ هَاجِهِم – وَجِبْرِيلُ معك**"، وقال: "**اللهمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ القُدُسِ مَا دَامَ يُنَافِحُ عَنْ رَسُولِكَ**"، وقال عن هجائه لهم: "**والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ فِيهِم من النَّبْل**"[١].

أو بالتحفيز بالغنيمة (غنائم الحرب) التي فرضها الله وتولى ﷻ تقسيمها في آية سورة (الأنفال) ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ....﴾ كأجرٍ دنيوي للمقاتل. فما الحرب إلا الظفر بإحدى الحسنين إما النصر والغنيمة والظفر[٢]، وإما الشهادة، أعظم المثوبةِ والأجر.

ثانيًا الإعداد الحسي: ويدخل فيه جملةٌ من الاستعدادات ومنها:

أ– الإعداد البدني: ويتمثل بقوة البدن وسلامته وخلوه من كل ما يعصف به ويضعف قوته ويهدُّ كيانه؛ فالمؤمن القوي خيرٌ وأحب الى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير. وقد رأينا عناية الإسلام بجانب التحريم والتحليل لبعض أنواع الأطعمة والأشربة والنهى عن كل مُسكرٍ ومفتّر، فضلاً عن الندب لرضاع الصبي منذ سني عمره في الحولين ليقوى ويشبُ صحيحاً قوياً منذ نعومة أظفاره، كما حث الدين

(١) قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله: "وإنما خصَّ النبي ﷺ جبريل، وهو روح القدس، بنصرة من نصره، ونافح عنه؛ لأن جبريل صاحب وحي الله إلى رسله، وَهُوَ يتولى نصر رسله، وإهلاك أعدائهم المكذبين لهم، كما تولى إهلاك قوم لوط وفرعون، في البحر.فمَن نصر رسول الله، وذب عنه أعداءه، ونافح عنه: كان جبريل معه، ومؤيِّداً له، كما قال لنبيه ﷺ: (فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ) سورة التحريم، آية (٤) انتهى. ابن رجب: فتح الباري، ج٢، ص٥٠٩.

(٢) ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ سورة الانفال: آية (٤١) والمعنى المقصود "أَنَّمَا غَنِمْتُمْ وأخذتم من مال الكفار قهراً بحق، قليلاً كان أو كثيراً. "فَأَنَّ باقيه لكم. أيها الغانمون، لأنه أضاف الغنيمة إليهم، وأخرج منها خمسها. فدل على أن الباقي لهم، يقسم على ما قسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم: للراجل سهم، والفارس سهمان سهم لفرسه، وسهم له. وأما هذا الخمس، فيقسم خمسة أسهم، سهم لله ولرسوله، يصرف في مصالح المسلمين العامة، من غير تعيين لمصلحة، فهو لله ولرسوله، والله ورسوله، غنيان عنه والخمس الثاني: لذي القربى، وهم قرابة النبي، صلى الله عليه وسلم، من بني هاشم، وبني المطلب، والخمس الثالث، لليتامى ولهم خمس الخمس، والخمس الرابع للمساكين، من المحتاجين الفقراء والخمس الخامس، لابن السبيل، وهو: الغريب المنقطع به في غير بلده. وانظر ابن سعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج١٠، سورة الأنفال آية (١٤).

الحنيف على ترشيد الاهتمام نحو نظافة الأبدان والرقعة والثوب والبيئة لما له من تأثير في صحة النَّفْس والنَفَس والجسد، وقوة وسلامة البدن؛ ولهذا كان من دعائه ﷺ للمدينة "**وانقل حماها إلى الجحفة**"(١).

وهذه إجراءات ووسائل احترازية لصحة وسلامة وقوة الجسد؛ فالعمل العسكري يحتاج إلى اللياقة، وإلى قوة الجسم وفتّوة العضلات، و في هذا ما فيه من إظهار قوة المؤمنين وإظهار جلدهم بكل صورة، وأيّ وسّيلة، وما آية الصف إلا من قبيل ذلك الأمر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾(٢)، ولقد أعجب نبي الحق ﷺ بمشية أبي دجانة- في الحرب- جلدًا وتبخترًا وعرضِ فتّوة فقال إذ رآه: "**إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن**"(٣) كل هذا مضافة إليه قوة الإرادة النفسية والذاتية الدافعة للجندي المحارب نحو تحقيق الغايات والمآرب، إما النصرَ والظفرَ، وإما الشهادة والجنة ورضا الخالق. وقد أعطى المصطفى، عليه السلام، أمثلة للياقة الجسد فكان من لياقته أنه شارك أصحابه في المسير الطويل المضني في غزوة بني المصطلق وتعبوا ولم يتعب، وفي حفر الخندق، فكانوا إذا اعترضتهم صخرة أو نحوها لجؤوا إلى رسول الله ﷺ فضربها بمعوله فتتفتت وعادت تراباً ناعماً؛ ما يُنبئ عن قوة العزيمة وقوة الجسد، وكذا الحال في استحثاثهم السير قُدماً -قوة وجلدًا وصبراً- في حملة حمراء الأسد(٤).

بل مارس ﷺ رياضة السباق والجري حتى دونما حرب مع زوجه أم المؤمنين عائشة وبعض أصحابه. فعن ابن عمر -رضي الله عنه -قال:"سابق النبي ﷺ بالخيل التي قد أضمرت من الحفياء، وكان أمدها ثنية الوداع، وسابق بين الخيل التي لم تضمر، من الثنية إلى مسجد بني زريق، وكان ابن عمر فيمن سابق"(٥).

---

(١) البخاري: صحيح البخاري، باب الدعاء برفع الوباء والوجع، ص ١٨٤، حديث رقم (٦٠١١).

(٢) سورة الصف آية (٤) إن الأمر الإلهي لمعشر المقاتلين لتوحيد الصف في الجهاد معنىً من معاني القوة والجلد.

(٣) في ميدان أحد كان شعار أصحاب رسول الله ﷺ "أمت. أمت "، واقتتل الناس حتى حميت الحرب، فقال رسول الله ﷺ: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقام إليه رجال فأمسكه عنهم حتى قام إليه أبو دجانة، سماك بن خرشة، فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: أن تضرب به العدو حتى ينحني، قال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه فأعطاه إياه، وكان أبو دجانة رجلاً شجاعًا يختال عند الحرب، وإذا اعتصب بعصابة له حمراء علم الناس أنه سيقاتل، فلما أخذ السيف من رسول الله ﷺ أخرج عصابته تلك فعصب بها رأسه وجعل يتبختر بين الصفين، فقال رسول الله ﷺ حين رأى أبا دجانة يتبختر: إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن، وانظر الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٦، ص٣٩٦.

(٤) عندما أمر ﷺ جمع الصحابة الكرام بملاحقة مشركي مكة بعد هزيمة أحد فكان هذا بحد ذاته انتصاراً للمسلمين إذ عسكر الجيش ومكث بحمراء الأسد قرابة الثلاثة أيام. وانظر ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص١٢٢ والزاد، ج٢، ص٩١، والرحيق المختوم، ص ٢٥٨.

(٥) البخاري: التاريخ الكبير، ج٣، ص١٥٤.و العسقلاني: بلوغ المرام، كتاب الجهاد، باب السبق والرمي، حديث رقم =

وعن عائشة -رضي الله عنها- أنَّها كانت مع رسول الله ﷺ في سفر وهي جارية -تعني أنها صغيرة السن شابة خفيفة- فقال ﷺ لأصحابه: **تقدَّموا،** ثم قال: **تعالي أسابقك،** فسابقته، فسبقته على رجلي، فلما كان بعد، وفي رواية قالت: فسكت عني، حتى إذا حملت اللحم وبدَنت، ونسيت؛ خرجت معه في سفر، فقال لأصحابه: **تقدَّموا،** ثم قال: **تعالي أسابقك،** ونسيت الذي كان، وقد حملت اللحم، فقلت: كيف أسابقك يا رسول الله وأنا على هذا الحال؟ فقال: **لتفعلن،** فسابقته، فسبقني، فجعل يضحك وقال: **هذه بتلك السبقة**"[١] وان كان ظاهر معنى الحديث حسن عشرة المصطفى ﷺ لأهل بيته وملاطفته لهم فلا بأس إلى التقاط بعض الدلالات التي يشير إليها، فمن ذلك ما فيه من الإشارة إلى معاني القوة والحيوية وتجديد النشاط في السفر وفي الإقامة، أو حتى في الحضر.

وقد هيأ ﷺ أسباب القوة فكانت شجاعته مضرب المثل وعن تلك الشجاعة يقول علي رضي الله عنه: (كنا إذا احمر البأس وحمي الوطيس ولقي القومُ القومَ اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون منا أحد أدنى إلي القوم منه)[٢]. ولتلك الشجاعة كان كبار القادة من المشركين يحنون هاماتهم لشخص رسول الله ﷺ في المناورة العسكرية.

كما مارس المصطفى ﷺ ذلك اختبارًا لأصحابه وتأكيدًا لقوتهم وقطعاً لألسن السوء عنهم في عرض بيَّن فيه قوتهم البدنية إخافة وترويعاً لأعدائهم من المشركين وذلك في عمرة القضاء "**إذ لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة وقد وَهَنَتْهُم حُمّى يثرب، قال المشركون: إنه يقدم عليكم غداً قومٌ قد وَهَنَتْهُم الحمّى ولقوا منها شدةً، فجلسوا مما يلى الحِجْر، وأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا ثلاثة أشواطٍ، ويمشوا ما بين الركنين، ليرى المشركون جَلَدَهم، فقال المشركون: هؤلاء الذين زعمتم أن الحُمّى قد وَهَنْتهم؟ هؤلاء أجلدُ من كذا وكذا**"[٣]. قال ابن عباس: "**ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها، إلا للإبقاء عليهم**"[٤]، فرسول الله حتى يبين قوة المسلمين الجسدية أمرهم، في الطواف، أن يرملوا، أي يسرعوا في المشي حتى يرى المشركون قوتهم، ولما كان هذا الغرض يتحقق ببعض أفراده فلم يأمرهم بالرمل إلا ثلاثة

=

(١١٣٠)، ص٤٣٥.

(١) أبو داود: السنن، رقم الحديث (٢٥٧٨).

(٢) ابن حنبل: مسند أحمد، رقم الحديث(٦٥٦) ص ٦٣٩، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) مسلم: صحيح مسلم، رقم الحديث (١٢٦٦).

(٤) نفسه.

أشواطٍ فقط، وأن ما بين الركنين يكون مشياً فقط؛ لأن المشركين لم يكونوا يروهم في هذا المكان، وكذلك اضطبع المسلمون في طوافهم بكشف الكتف الأيمن للعلة نفسها، وقد أحدث هذا الاستعراض في نفوس المشركين الأثر المطلوب حيث قالوا:"هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم، هؤلاء أجلد من كذا وكذا"(١).

وعن ب/ الإعداد القتالي:

أعدَّ رسول الله ﷺ للقتال بكل أنواع التهيئة النفسية والمادية والمعنوية، وبكل ما يحقق الهدف من ترتيب الجيش ووضع الخطط العسكرية والتدريب على المناورات الحربية، وتقسيم الأدوار بين المقاتلة واستخدام الوسائل، وكذلك الأدوات والآلات المساعدة لتحقيق النصر والظفر بإذن الله؛ فمن التنظيم النَّبوي العسكري، أنَّه كان، عليه السلام، لا يباشر الجهاد دون إنذار، وفي الحديث "**إذا لقيت عدَّوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خِصال، أو خِلال، فأيتهنَّ أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم**"(٢) وكان من هديه ﷺ التورية في معارك القتال، وفي الصحيح "**لم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها**"(٣).

ومن تنظيمه الجيش تقسيمه، إما بحسب المهارة القتالية، فيقسم الجيش إلى قلب، وميمنة، وميسرة، ومقدمة، وساقة، واضعاً على كل قسم منها أميراً، وإما بحسب أنواع السلاح كالرماة مثلاً. واهتم بالوصايا للجند كما استخدم الشعار واللواء والراية في حرب العدو(٤)، فعن البراء، رضي الله تعالى، عنه أن النبي ﷺ قال: **إنكم ستلقون العدوّ غداً، وإن شعاركم لا ينصرون**"(٥)

(١) الشريف: إدارة الدولة، مرجع سابق، ص ٢٤٦.

(٢) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب لا تمنوا لقاء العدو، رقم الحديث ٢٨٦١، ص ١٨١.

(٣) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من أراد غزوة فورى بغيرها رقم حديث (٢٧٨٧)، ج ٦، ص ١٣٢.

(٤) واللواء غير الراية، فاللواء ما يُعقد في طرف الرمح ويلوى عليه، والراية ما يعقد فيه ويترك حتى تصفقه الرياح، انظر العسقلاني: فتح الباري، ج٦، ص ١٢٦. وكان لكل قبيلة مشاركة في الحرب راية خاصة بها كما وقد اهتم ﷺ بوصاياه للجند لكل قبيلة، ولعل الحكمة من اتخاذ الراية هو الشعور بالوحدة بين أبناء القوم الواحد، فتكون الراية علامة اجتماع كلمتهم، ودلالة على اتحاد قلوبهم، إذا كانوا في معركة أو قتال، انظر البصيري، بدرية عبد العزيز: إدارة الدولة النبوية في العهد النبوي، دراسة تاريخية، جامعة الملك سعود، ١٤٢٤هـ، ص٢٢٨.

(٥) ابن حنبل: المسند، ج٥، ص ٣٦٨.

وجاء من وصاياه لجنده "**لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليداً، ولا امرأة، ولا كبيراً فانياً، ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقربوا نخلاً، ولا تقطعوا شجراً، ولا تهدموا بناءً**"(١).

ولقد كان النبي ﷺ يوجه جنده إلى أساليب القتال من الصمت والثبات في أرض المعركة، ومن استخدام النّبل والرمي بالسهام والرماح، أو استخدام الخدعة في الحرب، فمن ذلك أن قال لهم يوم بدر: "**إذا أكثبوكم فارموهم بالنبل ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم**"(٢) وجاء من وصاياه "**لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا واذكروا الله، فإن اجتمعوا وصاحوا فيكم فعليكم بالصمت**»(٣).

وعن الخدعة، كإحدى وسائله ﷺ في حرب أعدائه، ما ذكر ابن إسحاق: "أن الرسول ﷺ أذن للنفر الذين بعثهم لقتل ابن الأشرف(٤)(ت٣هـ) أن يقولوا ما يشاؤون من كلام يخدعون به"(٥).

ومن مهارة الإعداد القتالي للحرب اختيار موضع القتال وتحديد زمنه، فمن ذلك أن جعل الرسول ﷺ الشمس خلفه فكانت في عيون أعدائه، وكانت أحب أوقات اللقاء عنده أول النهار، فإن لم يقاتل أول النهار أخرّ ذلك إلى وقت الزوال حتى يحل وقت الصلاة وتَهُبَّ الرياح ويدعو المسلمون(٦).

واستخدم أمراءَ للجيش إذا لم يتول القيادة بنفسه(٧). واشترط فيهم الصَّلابة والشجاعة والكفاءة والخبرة والدربَة بشؤون الحرب، والتقوى والسبقِ إلى الإسلام، وحث على اتخاذ النقيب والعريف، وفي ذلك يقول:"إن

---

(١) مسلم: الصحيح، ج٧، ص١٣١.

(٢) الواقدي: المغازي، مصدر سابق، ج ١، ص ٦٧.

(٣) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب لا تمنوا لقاء العدو، رقم الحديث ٢٨٦١، ص ١٨١. وانظر منكلي مُحَّد بن محمود (ت ٧٧٨ هـ): التدبيرات السلطانية في سياسة الصناعة الحربية، تحقيق صادق مُحَّد الجميلي، مجلة المورد، بغداد، عام ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٣ م، مج ١٢، ص ٤، وص٣٣٨.

(٤) كعب بن الأشرف، رجل من طيئ وأمه من يهود بني النضير، ذكر في سيرة النبي مُحَّد بأنه أمر بقتله ونفذ ذلك الأمر جماعة من الأوس وكان سبب ذلك شدة ايذائه وهجاءه للنبي ﷺ، ولقد قتله مُحَّد بن مسلمة، انظر مسلم: صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب قتل كعب بن الأشرف طاغوت اليهود، ص ٤٩١.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٥٠، ٥١، ويتكرر كثيراً قول: الحرب خدعة على أنها من حديث "خذل عنا؛ فإن الحرب خدعة "مما أخرجه الطبري في تهذيب الآثار، ج١، ص١٠٩، ٢٢٦، والصحيح أنه لم يرد عن رسول الله ﷺ هذا الحديث، وقد قال عنه الألباني ضعيف جداً، وانظر السلسلة الضعيفة والموضوعة ج٨، ص٢٥٣.

(٦) الواقدي: المغازي ج١، ص ٥٦٠

(٧) إن أول أمير في الإسلام هو عبد الله بن جحش الذي قال عنه ﷺ: "الأبعثن عليكم رجلاً أصبركم على الجوع والعطش"وانظر ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، ج ٣، ص ٢٤٨.

العرافة حق، ولابد للناس من العرفاء"[١] وأوصى باستخدام العيون والأدلاء؛ لتوفير المعلومات اللازمة عن تحديد مسير الجيش، وعن طبيعة الجند، وعن أرض القتال، ومن ذلك وصاياه لأسامة ابن زيدٍ في غزو الشام"... وخذ معك الأدلاء وقدم الصوت والطلائع"[٢] كما استخدم الاستشارة لأصحابه لمواجهة أعدائه، ومثاله: تحديد موضع الجند يوم بدر(٢هـ)[٣]، والنظر في شأن الأسرى يوم أحد (٣هـ) ، كما استشار ﷺ أصحابه –رضوان الله عليهم– في شأن الخروج من المدينة، أو البقاء فيها عند مهاجمة الأحزاب لهم في الخندق (٥ هـ)[٤].

ومما اتخذ ﷺ إعداداً للقتال العريش، وكذا القبة، فقد بُني له عريشٌ ﷺ في بدر وجُعِلَ له أيضاً قبةٌ من أدَمٍ في الخندق يأوي إليها عند انتهاء نوبة حراسته[٥].

وعلى كلٍ فإن هذه، وغيرها الكثير مما سيرد بعون الله في مبحث صفات القيادة العسكرية، لأمثلة تبرهنُ على الإعداد النَّبوي لمرحلة القتال، ويستفاد من تلك القيادة الحكيمة الروح المعنوية الحقة التي بثها الهادي، عليه السلام، في جنده، وأن جيشه على قلة عدده عن خصمه إلا أنه كان عظيماً في تسليحه الإيماني، دقيقاً في تنظيمه، وهذا ما دفع بروحٍ حماسية الصحابة الكرام –رضوان الله عليهم – وحرّصهم على الموت أكثر من حبهم للحياة؛ لما وقر في نفوسهم وتوطَّن في افئدتهم من حب الله ورسوله والدار الآخرة.

---

(١) مسلم: الصحيح، ج ٣، ح١٣٦٢، والعِرافة تدبير أمور القوم والقيام بسياستهم، ولابد للناس من العرفاء ليتعرف على أحوالهم في ترتيب البعوث والأخبار والعطايا والسهام وغير ذلك، انظر ابن خلدون: المقدمة، مصدر سابق، ص ٢٢٧.

(٢) أبو داود: السنن، ج ٣، ص ٩٢، ٩٣.

(٣) حدث حين أشار الحباب بن المنذر بن الجموح قبل موقعة بدر الكبرى على النبي ﷺ، عندما قال له: "يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الحرب والمكيدة ؟ قال النبي ﷺ "بل هو الرأي والحرب والمكيدة، قال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً، ثم نقاتل القوم، فنشرب، ولا يشربون، فقال النبي ﷺ "لقد أشرت بالرأي "ابن الأثير: أسد الغابة، ج١، ص ٣٦٤-٣٦٥. والحباب بن المنذر بن الجموح بن زيد بن حرام بن سلمة الأنصاري الخزرجي، يكنى أبا عمر، شهد بدراً، وكان يقال له ذو الرأي، وقد شهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ، توفي في خلافة عمر بن الخطاب. انظر ابن حجر: الإصابة، ج١، ص٣٠٢، كذلك ما حدث قبل غزوة أحد عندما استشار أصحابه في البقاء بالمدينة، أو الخروج منها لقتال المشركين من قريش الذين اجتمعوا على قتاله في معركة أحد (٣هـ/٦٢٥م)، انتقاماً لهزيمتهم في معركة بدر، انظر ابن هشام: مصدر سابق، ج٣، ص٩.

(٤) ابن سيد الناس: عيون الأثر، مصدر سابق، ج ١٢، ص ٣٥٥، وانظر الكرمي: الإدارة في عصر الرسول ﷺ، مرجع سابق، ص ١٤٩.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٤، ص ٩٩.

ج/ الإعداد المهاري: ويتلخص بالتدريب على فنون القتال؛ وذلك بممارسة اللياقة البدنية، والتدريب على الأسلحة الحربية، والخُطط العسكرية، وأدوات القتال، ومن ذلك تعلم الرمايةَ وفنون الحرب: فعن سلمة بن الأكوع، رضي الله عنه، قال:"**خرج رسول الله ﷺ على قوم من أسلم يتناضلون بالسوق. فقال:"ارموا بني إسماعيل! فإن أباكم كان رامياً، وأنا مع بني فلان" لأحد الفريقين. فأمسكوا بأيديهم، فقال:"ما لكم؟"قالوا: وكيف نرمي وأنت مع بني فلان؟ قال:"ارموا وأنا معكم كلكم**"[١]

وعن عقبة بن عامر -رضي الله عنه-: **أن رسول الله ﷺ قرأ على المنبر هذه الآية:** ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ **ثم قال: "إلا إن القوة الرمي" قالها ثلاثاً**"[٢].

وعن النبي ﷺ أنه قال: "**من ترك الرمي بعدما علمه فقد ترك سنة**"[٣] وفي الأثر "**علموا أبناءكم السباحة والرماية، ونعم لهو المؤمنة في بيتها المغزل، وإذا دعاك أبواك فأجب أمك**"[٤].

ويتضح من شواهد نصوص السنة حس السياسة الإدارية والحنكة العسكرية النبويَّة وشمولها لجميع جوانب أمور الحرب والقتال، سواء أكان ذلك في تنظيم الجيش أم تعبئته مادياً ومعنوياً، إضافة إلى استخدام العيون والتورية والخدعة في الحرب وغيرها؛ ما نتج عنه انتصارات المسلمين المتتابعة، بفضل الله ﷻ، ثم بفضل السياسة الشرعية التي طبقها ﷺ ثم حنكته الإدارية التي مارسها، ولاشك أن هذه الإدارة هي اللبنة الأولى والركيزة الأساس للإدارة العسكرية، التي سار عليها من أتى بعده ﷺ.

---

(١) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب التحريض على الرمي رقم الحديث (٢٧٤٣). وهو أصح حديث في الرمي. وأما حديث "ارموا، واركبوا، وإن ترموا خير لكم، وأحب إليَّ من أنْ تركبوا فإن كل لهوٍ لها به المؤمنُ باطلٌ إلا في ثلاث: رميك عن قوسك، وتأديبك فرسك، وملاعبتك مع أهلك، فإن ذلك من الحق"فهو من الأحاديث الضعيفة والمتروكة، وانظر ابن القطان: بيان الوهم ج٥، ص٧٣، العراقي: الإحياء ج٢، ص٣١١، الألباني: غاية المرام، ص ٣٣٨.

(٢) ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ): تفسير القرآن العظيم، دار طيبة عام ١٤٢٢هـ، تفسير سورة الأنفال أية ٦٠، ج٤، وانظر الحديث عند مسلم في الصحيح برقم (٥٠٥٥) وفي الشعب للبيهقي، ص ١٥٤.

(٣) مسلم : الصحيح، مصدر سابق، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه، حديث رقم ١٩١٧.

(٤) قال الشيخ الألباني: (ضعيف) وهو من رواية بكر بن عبدالله بن الربيع الأنصاري. انظر حديث رقم (٣٧٢٦)، في السلسلة الضعيفة والموضوعة، على أنه مما يؤخذ به في فضائل الأعمال على ضعفه، وذكر أنه من قول الصحابي الجليل ثاني الخلفاء الراشدين عمر، رضي الله عنه.

المطلب الرابع: استقبال الوفود وترتيب أوضاعهم.

إن من تنظيمات شؤون الإدارة والنظر في ترتيبات الأمور العسكرية مسألة استقبال الوفود وترتيب أوضاعهم[١].

وهي من شؤون التنظيمات الإدارية المهمة في الدولة الإسلامية، التي وضع النبي ﷺ لها لبِنةً أساس تنظيماً وترتيباً، وصاغ لها تخطيطاً إدارياً رئيساً سُنةً وهدياً وتشريعاً، فقد جعل له ﷺ نظامًا حسنًا خالصاً، ومنهجاً متكاملاً خاصاً في معاملة الوفود وترتيب وضع وفادتهم ولقياهم بَدءاً بمرحلة تهيئةِ استقبالهم وانتهاءً بمرحلة وداعهم وما يتخلل ما بين المرحلتين من تهيئة النُزل ومكان الاستقبال، أو بمنحهم الهدايا وإجزال الهبات و العطايا، أو الإكرام بحُسن الُلقيا والضيافة أو الدعوة إلى الإسلام، وما إلى ذلك من النظر في مآربهم وغرض مجيئهم[٢].

فعن الاستقبال أولاً، فقد عين رسول الله ﷺ بعض أصحابه لاستقبال أولئك الوفود من حين وصولهم إلى المدينة، ويسّر أمر معاشهم خلال مدة إقامتهم بها، بل وهيأ لهم مكان النُزل والإقامة فكان من ذلك المسجد[٣].

---

(١) وكانت الوفادة إليه ﷺ، قد بدأت قبل الفتح، إلا أن الوفادة العامة، وفي صورة متوالية مستمرة إنما وقعت بعد عام فتح مكة في السنة التاسعة؛ ولذلك سميت السنة التاسعة من الهجرة بعام الوفود. ولا ننسى وفود العهد المكي أساسا.

(٢) تفرق سفراء النبي، عليه السلام، يدعون الملوك والأمراء في الأمصار إلى دين الإسلام، خاصة بعد فتح مكّة في العام الثامن للهجرة، وانتهاء غزوة تبوك، وسقوط آخر المعاقل المقاومة لدولة الإسلام، وظهور نتائج الصراع بين الحق والباطل، وبين التوحيد والشرك، بادرت قبائل العرب إلى الإسلام، وأقبلت الوفود إلى النبي ﷺ، من كل حدبٍ وصوب، كما قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ (النصر: آية٢)، فجاءت العشائر وافدةً إلى النبي – ﷺ– تسأله عن الإسلام، وتستفسر عن أحكامه، وتستفصل عن معانيه، فكان من الطبيعي أن يهيئ النبي – ﷺ – مكاناً لاستقبال هذه الوفود يناسب مكانة زعمائهم، ويليق بحفاوة استقبالهم، وكرم ضيافتهم، و خاصة حينما رأى النبي – ﷺ– أن أغراض هذه الوفود تختلف فمنهم: طالبٌ للعلم، وآخر معلنٌ للإسلام، وثالثٌ طالبٌ لمعونة، ورابعٌ يريد عقد معاهدة...وغيرها.

(٣) تعددت أغراض الوفود بحيث إن تلك الأغراض لا يمكن أن يقوم بها غير المسجد؛ ولما كان تأثير المسجد أبلغ في النفوس؛ جعله النبي – ﷺ مكاناً لاستقبال هذه الوفود، مع ما هم عليه من الكفر والشرك، ليشهدوا تسارع المسلمين إلى المسجد، وحبهم للإسلام، ويسمعوا كلام الله الذي لو نزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله، فتلين قلوبهم لذكر الله، ويستجيبون لدعوة الإسلام؛ فكان المسجد في عهده – ﷺ – أشبه بقاعة رسمية تعقد فيها كل الاجتماعات، وتستقبل فيها كل الوفود. والسبب في ذلك؛ لكي يكون لهم نصيب في سماع الخير والذكر، كما كان من شأن وفد أهل الطائف من ثقيف إذ لما قدموا المدينة ضرب عليهم رسول الله قبة في ناحية المسجد ليسمعوا القرآن، ويروا الناس إذا =

وكذلك، فقد أعد رسول الله ﷺ لهم عددًا من دور المدينة لإنزالهم فيها، وقد خصصت كل دارٍمن تلك الدور؛ لاستقبال وفدٍ أو قبيلةٍ بعينها.

ولعلنا نتساءل عن صفاتِ تلك الدور ومؤهلاتها التي أهلَّت لاستقبال أضياف النَّبي ﷺ من وجوه القوم وأعيان القبائل وساداتها، ورؤسائها، ورجالاتها من أهل الحل والعقد، ولعل من أسباب ذلك ما اختصت به تلك الدور من السَعة والرَحبة وحُسنِ البهاءِ والجمال، ومن تلك دار النَّجارية[1] –رضي الله عنها – فقد ذُكر أنَّها دارٌ واسعة رحبة، وفيها نخيلٌ وزروع، وخُضْرة[2].

فهذه دار رملة بنت الحارث النجارية[3]، وقد نزل بها وفد تميم عيينة بن حصن ومن معه، ووفد بني كلاب، ومن تلك الدور أيضا **دار المغيرة بن شعبة،** ونزل بها الأحلاف من ثقيف، وكذلك **دار أبي أيوب الأنصاري،** ونزل بها وفد نجران، ودار يزيد بن أبي سفيان، ونزل بها وفد همدان، وغيرها من الدور[4]، وهي دلالة تؤكد على أولاً: التقدير لمنزلة الإنسان وقدره ومكانته مع أنه ﷺ أعظم مكانة وأرفع شأناً من زعيم الوفد؛ وما ذلك إلا تواضعاً منه وإكراماً لضيفه.

ثانياً: حسن الاستعداد مع حسن الاستقبال. ومن صور ومظاهر حُسن الاستعداد القيام بحقهم، تجهيزاً وترتيباً، سواءً أكان حُسن الاستعداد في المكان أو الحال فضلاً عن الإكرام والإجلال؛ حفاوة وترحيباً

=

صلوا؛ ولذا أجاب زعيمهم حين قال "أنزل قومي علي فأكرمهم فإني حديث الجرح فيهم"، فقال رسول الله – ﷺ –: ((لا أمنعك أن تكرم قومك، ولكن أنزلهم حيث يسمعون القرآن)) فالشاهد حيث يسمعون القرآن.

(١) ونعني بها رملة بنت الحارث النجارية.

(٢) وشاهد ذلك من حديث أبي الربيع الكلاعي عن الواقدي، أن حبيب بن عمرو كان يحدث قال: قدمت وفد سلامان، على رسول الله ﷺ ونحن سبعة نفر، فانتهينا إلى باب المسجد، فصادفنا رسول الله ﷺ خارجاً منه، إلى جنازة دعي لها، فلما رأيناه قلنا: يا رسول الله السلام. فقال رسول الله: وعليكم السلام، من أنتم ؟ قلنا: قوم من سلامان، قدمنا عليك لنبايعك على الإسلام، ونحن على من وراءنا من قومنا فالتفت إلى ثوبان غلامه فقال: أنزل هؤلاء حيث ينزل الوفد، فخرج ثوبان حتى انتهى بنا إلى دار واسعة وفيها نخل، وفيها وفود من العرب، وإذا هي دار رملة بنت الحارث النجارية. وساق الحديث "الكلاعي: الاكتفاء، مصدر سابق، ج١، ص٦١٨.

(٣) رملة بنت الحارث بن ثعلبة بن الحارث بن زيد الأنصارية النجارية امرأة من الأنصار من بني النجار تكرر ذكرها في السيرة. تكنى أمّ ثابت، وأمّها كبشة بنت ثابت بن النعمان، وتزوّج رملةَ معاذُ بنُ الحارث بن رفاعة، وذكرها ابن حبيب فيمن بايع رسول الله، صَلَّى الله عليه وسلم، من الأنصار، وذكر ابن إسحاق في "السيرة النبوية"أن بني قريظة لما حكم فيهم سعد بن معاذ حُبِسُوا في دار رملة بنت الحارث، انظر ابن الأثير: أسد الغابة، جـ٧، ص ١١٦.

(٤) وانظر الكتاني: نظام الحكومة النبوية (التراتيب الإدارية)، المصدر السابق، ج١، ص٣٤٥.

وتقديرًا بالتزين والتطيب بأحسنِ الحُلل وأجملِ الزّي واللباس. وكذلك إكرامهم بحسنِ استقبال وفادتهم أو إكرامهم بإجزال العطايا والهبات لهم وإكرامهم بحُسنِ السماع والاستماع والإصغاء، والمحاورة لهم بأحسن الكلام والفِعال، مع التلطف بدعواهم إلى الإسلام حيناً، أو بقبول الجزية عنهم في حينٍ آخر، ثم بحسن صلتهم وجوائزهم إذا رجعوا إلى بلدانهم، مع تزويدهم بالوصايا والآداب الإسلامية[١].

وعن التجهُزِ بالمكان فقد اتخذ النَّبي ﷺ قبةً في المسجد النَّبوي يستقبل فيها الوفود كما بنى الصحابة لرسول الله ﷺ دكة من طينٍ يجلس عليها حين يستقبل أولئك الوفود.

كذلك من التخطيط الإداري والتنظيم السياسي أن جعل على ذلك تكليفاً **خالد بن سعيد بن العاص**[٢]؛ لاستقبالهم وتهيئة لقائهم به ﷺ والاستئذان لهم عنده ﷺ وكذلك فقد أمر النَّبي، عليه السلام، أصحابه بأن يحسنوا استقبال عامة الوفود، ويكرموا وفادتهم فقاموا بذلك خير قيام. وكان هو بادئهم فقد رحب ﷺ بوفد (تجيب)[٣]، وقد جعلوا يسألونه عن القرآن والسنن، فازداد رسول الله ﷺ فيهم رغبة، وأمر بلالاً أن يُحسن ضيافتهم ووفادتهم[٤].

وإكرامهم، وحباهم ورحب بهم، وكذلك الحال مع وفد (بَلِيّ)[٥] إكراماً وترحيباً إذ جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وهو جالسٌ مع أصحابه في بيته في الغداة فسلموا عليه وتكلموا معه فقال ﷺ لزعيمهم وقد أقبل

---

(١) كما في حال وفد تميم وكلام خطيبهم، ثم ما كان من إجابة خطيب رسول الله ﷺ لهم لثابت بن قيس، الذي سبق الحديث عنه.

(٢) خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي السيد الكبير أبو سعيد القرشي الأموي، أحد السابقين الأولين. كان خامساً في الإسلام، وهاجر إلى أرض الحبشة، وأقام بها بضع عشرة سنة، أول من كتب: بسم الله الرحمن الرحيم وروي أن رسول الله – ﷺ – استعمله على صنعاء، وأن أبا بكر أمره على بعض الجيش في غزو الشام كان خالد بن سعيد وسيماً جميلاً، قتل يوم أجنادين. وانظر الذهبي: سير أعلام النبلاء الصحابة، رضوان الله عليهم، خالد بن سعيد، ج ١، ص٢٦٠.

(٣) تجيب: فرع من قبيلة كِندة. وقد قدموا على الرسول ﷺ وهم ثلاثة عشر رجلاً، وجلبوا معهم صدقات أموالهم التي فرضها الله عليهم، فسُرَّ رسول الله بهم، وقال: مرحباً بكم وأكرم منزلتهم وحباهم، وأمر بلالاً أن يُحسن ضيافتهم وجوائزهم، وأعطاهم أكثر مما كان يُجيز به الوفد. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥.

(٤) الحاكم: المستدرك على الصحيحين، ج٢ ص٦١.

(٥) بلي: هي قبيلة قضاعية حميرية من قبائل شمال وغرب الجزيرة العربية، وأما قضاعة فهو: قضاعة بن مالك بن حمير بن كهلان بن سبأ ين يشجب بن يعرب بن قحطان، وانظر السهيلي: الروض الأنف، أصل العرب وأولاد عدنان ومعد وقضاعة. الجزء الأول، وابن حزم في جمهرة أنساب العرب، ص١٨٠.

عليه: "**يا رويفع**"، قال: "لبيك. قال ﷺ: "**من هؤلاء القوم**"؟ **قال**: **قومي**. **قال** ﷺ:"**مرحباً بك وبقومك**"[١].

وأيضاً سُرَّ بإسلام وفدِ **بني أسدٍ**[٢] وأمرهم بدعوة قومهم، وتعليمهم الإسلام وأكرم وفادتهم حتى عادوا إلى ديارهم.

وأما عن حُسن الحفاوة والترحيب فقد كان الرسول ﷺ حين يلتقي بالوفد يلبسُ أحسنَ ثيابهِ، ويأمرَ أصحابه بذلك، فقد لبس ﷺ وأبو بكر وعمر –رضي الله عنهما – يوم استقبال **وفد كندة**[٣] حُللاً يمانية. وعن ضيافتهم ورد في طبقات ابن سعد[٤] أن وفدَ بني حنيفة نزلوا دار رملة فأكلوا مرة خبزًا ولحمًا، ومرة خبزًا ولبنًا، ومرة خبزًا وسمنًا. ومن إكرام الضيافة إلى الإكرام بالعطايا والهبات، ومنها ما ورد عن النَّبي ﷺ أنَّه أعطى **فروة بن عمرو الجذامي**[٥] اثنتي عشرة أوقية من الفضة، وأعطى كل واحد من وفد تميم مثله، وفعل ذلك مع كل من وفد عليه. وقد أجاز بني تجيب بأفضل ما كان يجيز به الوفود. بل وأجاز صاحبهم إذ لما أفضوا سألهم هل بقي منهم أحد، قالوا: **غلامٌ خلفناه في رحلنا، هو أحدثنا سناً، قال: أرسلوه فأقبل**

---

(١) قدموا عليه ﷺ في شهر ربيع الأول سنة تسع فأنزلهم، صلى الله عليه وسلم، في منزلٍ ببني جديلة. وانظر الكلاعي: الاكتفاء، مصدر سابق، ج١، ص٦٠٥.

(٢) وهؤلاء بنو أسد بن خُزيمة، وفدوا وهم عشرة رجال على رسول الله في أول سنة ٩ للهجرة، ليعلنوا إسلامهم، وفيهم: حضرمي بن عامر، وضرار بن الأزور، وطلحة بن خويلد، وغيرهم، فقال حضرمي بن عامر: "أتيناك نتدرع الليل البهيم، في سنة شهباء، ولم تبعث إلينا بعثاً"، دلالة على أنهم يمنون على رسول الله ﷺ بإسلامهم، فنزل فيهم قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ سورة الحجرات آية (١٧) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢٢٣.

(٣) أرسلت كندة وفداً إلى النبي ﷺ يرأسهم الأشعث بن قيس، رضي الله عنه، فأعلنوا إسلامهم، واستقرّوا في المدينة أيّاماً ليتلقّوا العلم من النبي ﷺ، وكان من جملة ما سألوه السؤال عما اشتهر لديهم من عودة أصول أهل قريش إلى كندة، فنفى النبي، عليه الصلاة والسلام، ذلك قائلاً: "نحن بنو النضر بن كنانة، لا نقفو أمّنا، ولا ننتفي من أبينا "والمقصود بالقول السابق إثبات نسبتهم للنضر بن كنانة، ولذلك كان الأشعث بن قيس، رضي الله عنه، يقول: "لا أوتى برجل نفي رجلاً من قريش من النضر بن كنانة إلا جلدته الحد "رواه ابن ماجه: كتاب الحدود، باب من نفى رجلاً من قبيلة، ج٢، ص٨٧١، والحديث عن الأشعث بن قيس.

(٤)انظر تفصيلات الوفود في المغازي عند البخاري في الصحيح وكذلك الأدب المفرد، وعند ابن سعد في الطبقات الكبرى، ج١، ص٢٩١-٣٥٩، وفي الزاد لابن قيم الجوزية، ج٣، ص٦٥٧وما بعدها.

(٥) وقيل: اسمه فروة بن عمرو، وقيل: فروة بْن نفاثة، وقيل: ابْن نباتة، وقيل: ابْن نعامة الجذامي. أهدى إلى النبي ﷺ بغلته البيضاء، وكان منزله معان وما حولها من أرض الشام، وكان عاملاً للروم على من يليهم من العرب. ابن الاثير، علي بن أبي الكرم محمَّد: أسد الغابة في معرفة الصحابة (٦٣٠هـ) دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ –، ج٤، ص٣٤٠.

وقال: يا رسول الله! أنا من الرهط الذين أتوك آنفاً، فقضيت حاجتهم فاقض حاجتي. قال: وما حاجتك؟ قال: تسأل الله أن يغفر لي ويرحمني ويجعل غناي في قلبي، فدعا له بذلك، وأمر له بمثل جائزة أصحابه[١].

وعن حُسنِ المعاملة والإكرام في الحوار والإصغاء كان الرسول ﷺ يستقبل الوفد، ويستمع منه أولاً؛ ليعرف موضوعه، وحاجته فيحقق غايته ويؤدي له سؤله وغرضه، أو يكلف أحدًا من أصحابه بالرد نيابة عنه لقضاء أمره. وكذلك أيضاً كان يجيب عن أسئلة الوفد ويقبل منهم الجزية، ويعرضُ عليهم الإسلام، أو يعلمهم تعاليم دين الإسلام إن هم أتوه طائعين مسلمين مختارين مسالمين. فإذا ما قضى الوفد حاجته وقفل راجعاً تولى ﷺ واجب توديعه بمثل ما استقبل به، فلقد كان من هديه ﷺ أن يُحسن توديع الوفود كما يُحسن استقبالهم، وكان يوصيهم بالدعوة، ويبعث معهم من يعلمهم القرآن إن احتاجوا إليه.

كما كان من هديه، عليه السلام، ترتيب أوضاعهم بمعرفة غَرضِ مجيئهم، ومن ثَم البدارُ لتحقيق مآربهم بحسبِ الغرضِ الذي أتوا من أجله، ولقد تعددت وفود هؤلاء القوم[٢] وتعددت مطالبهم وتباينت مشاربهم فأتوا جماعاتٍ ووحداناً فلربما وفد الرجل وحده، أو وفد ومعه رهطٌ صغير لأجل غرضٍ بعينه. فمنهم من جاء يريد رد السبايا والأسرى، كما في حال وفد هوازن، ووفد تميم.

ومنهم من جاء يريد الأمان لنفسه فقط، أو لنفسه وقومه كليهما، ومنهم من جاء يفاخر ويباهي، أو يناظر ويجادل مثل (وفد نجران). ومنهم من جاء يريد رد السبايا والمأخوذين مثل (وفد هوازن وتميم)، ومنهم من جاء يقر بالطاعة والجزية مثل (وفد تجيب)، ومنهم من جاء يبدي رغبته في الإسلام، ويبدى رجاء ذلك من قومه، مثل (وفد ضمام بن ثعلبة) ومنهم من طلب الموادعة فأداها لهم مثل (وفد أشجع)[٣]. ومنهم من جاء مسلماً طائعاً ممثلاً لقومه، يرغب في معرفة تعاليم الإسلام وأحكامه، مثل وفد فزارة، ووفد عبد قيس، وفد عذرة وبلي، ووفد بني أسد بن خزيمة وغيرهم[٤].

---

(١)ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ١، ص٢٤٤ - ٢٤٥.

(٢) حتى ازداد عدد تلك الوفود في ذلك العام على الستّين وفداً — كما تشير مصادر التاريخ -، واهتمّ بعض العلماء في ذكر تفاصيلها وإيراد أخبارها كابن إسحاق في سيرته، وابن سعد في الطبقات.

(٣) إذ قدموا على رسول الله ﷺ عام الخندق وهم مائة ورأسهم مسعود بن رخيلة فنزلوا شعب سلع، فخرج إليهم رسول الله ﷺ وأمر لهم بأحمال التمر، فقالوا: يا مُحَمَّد، لا نعلم أحدًا من قومنا أقرب دارًا منك، ولا أقل عددًا، وقد ضقنا بحربك وبحرب قومك فجئنا نوادعك، فوادعهم ﷺ، ثم أسلموا بعد ذلك.

(٤) وللمزيد عن أخبار الوفود انظر ابن كثير البداية والنهاية، كتاب الوفود الواردين على رسول الله ﷺ، ج ٥. وصفي الرحمن =

ولعل من ثمار ذلك ونتائجه.

- تكاثر الوفود تباعاً على نبي الأمة آنذاك من العام التاسع للهجرة[١]؛ لينبئ بتيقن العرب بانتصار الإسلام وعظمته إذ آمنوا بصدقه وأحقيته ولذا تسارعت خطاهم نحو المدينة بإرسال وفودهم وممثليهم تترى إلى الرسول الأمين ﷺ إما مُبَايْعةً للدخول في الإسلام أو لتَعَلُّمِ أحكامه.

- إن المواجهة الصادقة بين الوفود ورسول الله ﷺ كثيرًا ما كانت تحقق الثمار المطلوبة، وبها انتشر الإسلام في أنحاء الجزيرة العربية كافة.

- وضع رسول الله ﷺ سياسة حسنة في التعامل مع رجال الوفود التي قدمت إليه في المدينة؛ لأن كل وفد يمثل قبيلته وجماعته، فتقدير الوفد وتكريمه يُعد تكريمًا للقبيلة كلها، وحُسن المعاملةِ لهم فيه دعوة إلى الإسلام بالتربية الأخلاقية السلوكية، وإبرازُ حسن الخلق من أساسيات التَّحرك بالدعوة بل هو الدعوة بعينها. وعليه يجب على المسلمين أن يهتموا بهذا الجانب الحيوي، وبخاصة أن العالم المعاصر تشابكت مصالحه، وكثرت اللقاءات فيه، وساعدت المخترعات الحديثة في تواصل الناس، وترابط المصالح، وبذلك تلتقي الدعوة مع الفطرة، ومع التقدم الحضاري الإنساني[٢].

- إن تأليف القلوب بالهدايا والأعطيات يولد التودد والتحاب؛ ولذا جاء في الحديث **(تهادوا تحابوا)**[٣] كما أن كريم التعامل النبوي مع النماذج والشخصيات كافة؛ فيه ما يؤكد قرآنية خلق النبي ﷺ الذي أوتي من جوامع الخلق الحسن ما جعله يستوعب تلك الوفود على اختلاف رجالاتها وتباين مواقفها في الأقوال والخِلال فيكسبها جميعها حباً وقربة وإسلاماً[٤].

=

المباركفوري: روضة الأنوار، الوفود والدعاة والعمال، انظر الصفحات من ٣٢٤إلى ٣٤٣.

(١) قيل عدد الوفود ما يقارب المائة على ما ذكر ابن سعد في الطبقات ج١، ص ٢٩١، وقيل ستة وتسعون وفداً وانظر تفصيلات الوفود في والمغازي والطبقات والزاد.

(٢) علوش، أحمد بن أحمد: السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني، المكتبة الشاملة، ج ١، ص ٦٦٣.

(٣) البخاري: الأدب المفرد، رقم الحديث (٥٩٤). والبيهقي في السنن الكبرى، ج٦، ص١٦٩.

(٤) قال أنس بن مالك، رضي الله عنه: "بينما نحن جلوس مع النبيﷺ، في المسجد دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله(ربطه)، ثم قال لهم: أيكم مُحَّد؟، . والنبي ﷺ متكئ بين ظهرانيهم، فقلنا هذا الرجل الأبيض المتكئ، فقال له الرجل: ابن عبد المطلب؟ فقال له النبي – صلى الله عليه وسلم –: قد أجبتك، فقال الرجل للنبي ﷺ: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة، فلا تجد عليَّ(تغضب) في نفسك، فقال: سل عما بدا لك، فقال: أسألك بربك ورب من قبلك، آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: اللهم نعم. قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن تصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: اللهم نعم.

=

– إن تتابع الوفود مذعنين منصاعين لله رب العالمين ليؤكد تأسيس دولةٍ قوية مهيبة الجانب غدت مبادئ دعوتها تُترجم إلى سُلوكياتٍ وأفعال، بل وغدا من يقوم بنشر عقيدتها هي الدولة ذاتها وليس الأفراد فحسب، وكذلك فقد غدت حكومتها عالمية، فإما أن ينصاعوا تحت لواء حكمها، أو يذعنوا للجزية أذلة وهم صاغرون.

– أخذت هذه الوفود الإسلام من منبعه الصافي، وعادوا به إلى قومهم منذرين، مبشرين ونشروه في مشارق الأرض ومغاربها؛ لأنهم تخرجوا في جامعة الحبيب ﷺ كما في وفد بَلِيّ إذ تعلموا الفرائض عن رسول الله ﷺ وغيرهم كثير.

– التأني والصبر في الدعوة إلى الله، وألاَّ يعجل بالعقوبة والدعاء على العصاة(١). ومن أولئك وفد دوس الذين طلب سيدهم الطفيل بن عمرو من النبي، عليه السلام، الدعاء عليهم؛ لأنهم لم يجيبوه إلى الإسلام إذ دعاهم فدعا النبي، عليه السلام، لهم لا عليهم وقال:"**اللهم اهد دوساً وآت بهم**"(٢).

=

قال: أنشدك بالله. آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: اللهم نعم. قال: أنشدك بالله. آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها في فقرائنا؟ فقال النبي ﷺ: اللهم نعم. فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر، ورجع ضمام بن ثعلبة ـ رضي الله عنه ـ إلى قومه مسلماً، وأخبرهم بما أمره به رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الإسلام، فما أمسى من قومه رجل ولا امرأة إلا أسلم، وكان ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقول: "فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة "وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ يقول: "ما رأيت أحسن مسألة ولا أوجز من ضمام "الذهبي: سير أعلام النبلاء ج٢٣، ص٢٧٥.

(١) ابن قيم: زاد المعاد، ج٣، ص٦٠٨.

لطالما آذت ثقيف النبي ـ ﷺ ـ حتى أرسل الله ـ عز وجل ـ له مَلَك الجبال ليأمره بإهلاكهم، فقال رسول الله ﷺ: ".. بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً "مسلم: صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، حديث رقم (١٧٩٥)، فذلك هو رسول الله ـ ﷺ ـ الذي لا يعرف انتقاماً لنفسه، ولا يحمل ضغينة لأحد، بل يحمل لهم هداية الناس، وإن آذوه، مع الأخذ بأيديهم إلى الله، بل إن بإسلامهم والقضاء على صنمهم اللات تم القضاء على ثاني أكبر طواغيت الشرك في الجزيرة العربية.

(٢) رزق الله أحمد، مهدي: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية دراسة تحليلية، مركز الملك فيصل، عام ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م، ص٦٥١.

البخاري: صحيح البخاري، كتاب المغازي، حديث رقم(٤٣٩٢).

كذلك فمن الدروس المعتبرة في هذا الجانب جلاء بعض السنن والآداب النَّبوية؛ فمن ذلك توضيح **أدب الاستئذان ومحاورة رسول الأنام** عليه السلام[(١)]، ومن ذلك الحث على **فضيلة خصلتي الصبر والأناة،** وهما صفتان جليلتان يحبهما الله ورسوله كما جاء الخبر عن ذلك في حديث وفد عبد قيس[(٢)]، وكذلك **أداب الاستغاثة لطلب سقيا المطر** فقد عَلّمنا دعاء النَّبي ﷺ لبني فزارة هديه وسنته في استسقاء طلب المطر[(٣)]، ومن السنن والآداب المصافحة التي كانت للأشعريين من أهل اليمن[(٤)]، أو تقرير آداب الضيافة وهي ثلاثة أيام، يؤيد ذلك سؤال شيخ وفد بَلِيّ أبي الضبيب:**"يا رسول الله، إن لي رغبة في الضيافة، فهل لي في ذلك أجر؟ قال نعم، وكل معروف صنعته إلى غني أو فقير فهو صدقة، قال: يا رسول الله، ما وقت الضيافة ؟ قال ثلاثة أيام، فما كان بعد ذلك فهو صدقة، ولا يحل للضيف أن يقيم عندك فيحرجك"**[(٥)].

(١) إن ما نزل من آداب فواتح سورة الحجرات التي نزلت على وفد تميم لتؤكد ذلك.جاء في صحيح البخاري حدثنا بسرة بن صفوان اللخمي، حدثنا نافع بن عمر، عن ابن أبي مليكة قال: "كاد الخيّران أن يهلكا أبو بكر وعمر، رضي الله عنهما، رفعاً أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس، رضي الله عنه، أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر، قال نافع: لا أحفظ اسمه، فقال أبو بكر لعمر – رضي الله عنهما –: ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك فأنزل الله – تعالى –: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ (الحجرات: من الآية٢) البخاري: صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن: ج٦، ص ٤٦. وانظر كذلك ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٢٠٦.

(٢) وفد عبد قيس الذي كان فيهم عبدالله بن عوف الأشج، وكان أصغرهم سناً، فتخلف عند الركائب حتى أناخها، وجمع المتاع، وأخرج ثوبين أبيضين فلبسهما، ثم جاء هوناً حتى سلم على رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله: "إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة "، البخاري: الأدب المفرد، رقم (حديث (٦٨٥٠).

(٣) قدم وفد بني فُزارة سنة تسع بعد مرجعه، - ، من تبوك، في بضعة عشر رجلاً جاؤوا مقرين بالإسلام، وشكوا جدب بلادهم، وقالوا: فادع الله لنا ربك يغيثنا، فصعد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، المنبر، فرفع يديه واستسقى وقال: "اللهم اسق بلادك وبهائمك، وانشر رحمتك، وأحي بلدك الميت، اللهم اسقنا غيثًا مغيثًا، مريحًا، طبقًا، واسعًا، عاجلاً، غير آجل، نافعًا غير ضار، اللهم سقيا رحمة، لا سقيا عذاب، ولا هدم ولا غرق، ولا محق، اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء"، وانظر زاد المعاد، ج٣، ص٦٥٣.

(٤) وفي حق أدب المصافحة روي عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: "يقدم عليكم غداً أقوام هم أرق قلوباً للإسلام منكم، قال: فقدم الأشعريون فيهم أبو موسى الأشعري، فلما دنوا من المدينة جعلوا يرتجزون يقولون: غداً نلقى الأحبة محمّداً وحزبه، فلما أن قدموا تصافحوا، فكانوا هم أول من أحدث المصافحة". أحمد بن حنبل: المسند، ج٣، ص١٥٥، رقم الحديث (١٢٥٨٢).

(٥) وانظر ابن قيم في زاد المعاد، ج٣، ص٦٥٧ وما بعدها، وقد تضمن الحديث جملة من الآداب والأحكام، وله شواهد =

– نزول بعض آيات من القرآن الكريم وأوامر الشرع الحنيف؛ ففي وفد بني أسد نزلت ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾[١]. وفي أهل نجران نزلت آيات المباهلة ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[٢] ومنها، أي من أوامر الشرع، قوله ﷺ:"**يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا**" عندما بعث معاذ بن جبل، وأبا موسى الأشعري لوفود رسول ملوك حمير.

– إظهار بعض مكارم الصحابة الأطهار، وتوضيح مكانتهم، ومنهم جرير بن عبد الله البجلي[٣]، رضي الله عنه، وزيد الخير الذي سماه زيد الخير[٤]، و أبو عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة، وخطيب رسول الله على وفد تميم (ثابت بن قيس بن الشماس)[٥]. وكذلك إظهار مكانة قبيلة بعينها على وجه الخصوص[٦].

=

صحيحة في الصحيحين وانظر صحيح مسلم، ج٣، ص ١٣٥٢.

(١) سورة الحجرات آية (١٤) أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد أنه قال: أجمع جمهور المفسرين على أن هذه الآية نزلت في أعراب بني أسد، حين قدموا المدينة، وامتنوا بإسلامهم وقالوا آمنا. وكانوا يمنون على رسول الله ﷺ ويقولون: أتيناك بالأنفال والعيال والذراري، ولم نقاتلك كما قاتلك هوازن وغطفان، يفدون على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ويروحون بهذه المقالة ويمنون عليه ويريدون أن يصرف إليهم الصدقات، فنزلت الآية، انظر: تفسير الطبري، ج٢٦، ص ١٤١، وزاد المسير ج ٧، ص٤٦٧، وتفسير ابن كثير، ج٤، ص ٢١٩، والدر المنثور، ج٦، ص١١١.

(٢)انظر ابن كثير: تفسير القران العظيم، تفسير آيات سورة آل عمران، آية ٦١، ج٢، ص ٤٩، وما بعدها.

(٣) جرير بن عبد الله بن جابر وقيل: أبو عبد الله البجلي القسري، من أعيان الصحابة وبايع النبي ﷺ على النصح لكل مسلم، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢، ص٥٣١.

(٤) يقول جرير بن عبد الله البجلي: "بعث إليّ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأتيته فقال: "ما جاء بك"؟ قلت: جئت لأسلم. فألقى إليّ كساءه وقال: "إذًا أتاكم كريم قوم فأكرموه"وأما عن فضل زيد الخير فقد قال رسول الله ﷺ "ما ذكر لي رجل من العرب بفضل، ثم جاءني إلا رأيته دونما يقال فيه، إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما فيه"، وسماه زيد الخير. البخاري: صحيح البخاري، حديث رقم(٤٣٨١) وعن سمة جرير البجلي جاء في المسند:"يدخل عليكم من هذا الباب أو من هذا الفج من خير ذي يمن إلا أن على وجهه مسحة ملك" ابن حنبل: المسند ج٤، ص٣٦٠، حديث رقم(١٩١٨٠).

(٥) سبق الترجمة به، ص(٩٠).

(٦) ومن ذلك قبيلة أسلم إذ يروى في السيرة أنه قدم عمير بن أفضى في جماعة من أسلم فقالوا: قد آمنا بالله ورسوله، واتبعنا منهاجك فاجعل لنا عندك منزلة تعرف العرب فضيلتها فإنا إخوة الأنصار، ولك علينا الوفاء والنصر في الشدة والرخاء. فقال رسول الله ﷺ: "أسلم سلمها الله، وغفار غفر الله لها". وكذلك الحال مع وفد الأشعريين، فقد روى مسلم بسنده عن أبي هريرة، رضي الله تعالى عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة، وأضعف قلوبًا،

=

-كذلك فمن الدروس المفيدة تقرير وتأكيد تحريم بعض المناهي الشرعية(١).

-حسن المعاملة بالاستئثار بالدعاء لبعض القوم، كما فعل ﷺ مع وفد همدان، وكذلك وفد دوس وغيرهم(٢).

-إظهار وتخصيص معجزة النبي ﷺ بعلم الغيب بالقدر الذي آتاه الله إياه(٣).

-ربط بعض الوفود بالمصالحة على الجزية بدولة الإسلام، كما كان من أهل نجران؛ إذ قُطعت الأواصر بينهم وبين الروم، فكان ذلك تأميناً لظهر المسلمين وهم يخططون لمواجهة الروم في الشام(٤).

=

والإيمان يمان، والحكمة يمانية، السكينة في أهل الغنم، والفخر والخيلاء في الفدَّادين من أهل الوبر قبل مطلع الشمس "والحديث في صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان ج٢ ص٣٠. ولما لقوا رسول الله ﷺ أسلموا وبايعوا، فقال رسول الله ﷺ: "الأشعريون في الناس كصرة فيها مسك". زاد المعاد، ، ج٣ ص٦١٩. والحديث جاء عند ابن سعد في الطبقات، ج١، ص٣٤٩، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة ج٧، ص٤٠٦، رقم الحديث (٣٣٩٧).

وفي وفد نجران لقب أبو عبيدة بالأمين إذ لما رضى الوفد بإعطاء الجزية جعل لهم الذمة والأمان والحرية في الدين، ثم قالوا: أرسل معنا رجلاً أميناً، فأرسل معهم أبا عبيدة عامر بن الجراح، ومن حينها سمى بأمين هذه الأمة. صحيح البخاري حديث (٤٣٨١).

(١) كما في لبس الحرير للرجال أو تحريم الكهانة والرمل وغيرها، وشاهد ذلك لما قدم وفد كندة على رسول الله ﷺ وبهم الأشعث بن قيس في ثمانين راكبًا من كندة، فدخلوا على رسول الله ﷺ مسجده وقد رجلوا جممهم وتكحلوا عليهم جبب الحبرة، وقد كففوها بالحرير فلما دخلوا على رسول الله ﷺ قال: "ألم تسلموا؟ ".قالوا: بلى. قال ﷺ: "فما بال هذا الحرير في أعناقكم"؟ وكما في وفد عذرة إذ نهاهم عن السؤال للكاهنة، وذبائح النصب، وقد أسلموا وأقاموا أياماً ثم رجعوا وعلى إثرهم جاء وفد بلى – وسألوه عما كانوا يفعلونه في الجاهلية من العيافة، وهي زجر الطير – والكهانة، وضرب الحصباء، فنهاهم عن ذلك. وسألوه عن الرمل، فقال: علمه نبي، فمن صادف مثل علمه فذاك وإلا فلا، ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج٢، ص٣٠٩.

(٢) فاز بدعاء النبي ﷺ وفد همدان إذ دعاهم إلى الإسلام فأسلموا جميعًا، وكتب عليّ ببشارة إسلامهم إلى رسول الله ﷺ فلما قرأ الكتاب خر ساجدًا، ثم رفع رأسه فقال: "السلام على همدان، السلام على همدان"البخاري، ، ج٧، ص٦٦٣، والبيهقي في السنن، ج٢، ص٣٦٦، وفي دلائل النبوة، ج٥، ص٣٦٩.

(٣) ومن ذلك إخبار النبي ﷺ لوفد عُذْرَة وبلى بفتح بلاد الشام فقد أتوا إلى النبي ﷺ وذكروا قرابتهم من قصي ونصرتهم له في إخراج بني بكر وخزاعة من مكة. فرحب بهم النبي، عليه السلام، وبشرهم بفتح الشام. أو التنبؤ بشر مسيلمة وهلاكه بقوله له: "ولئن أدبرت ليعقرنك الله"أو كما في رواية البخاري: "ولن تعدو أمر الله فيك". أي إن أدبرت عن طاعتي ليقتلنك الله، وكان إذ قتله الله تعالى يوم اليمامة وهذا من معجزات النبوة، وجاء في ذلك: "أن النبي ﷺ رأى في المنام أنه أتي بخزائن الأرض، فوقع في يديه سواران من ذهب، فكبروا عليه وأَهَمَّاهُ، فأوحى إليه أن انفخهما، فنفخهما فذهبا، فأولهما كذابين يخرجان من بعده "مسلم: صحيح مسلم، كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي ﷺ، ج٤، حديث رقم (٢٢٧٣) وانظر تمام الخبر عند ابن كثير، البداية والنهاية ج٥.

(٤) العمري، أكرم ضياء: السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العبيكان، الرياض عام ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، ج٢، ص ٥٤٣.

والخلاصة أن تلك الوفود وغيرها آنست منهجاً نبويًّا كريماً في تعامله ـ ﷺ ـ معهم، وبينت لنا اهتمامه – ﷺ ـ بهم، وحرصه على تعليمهم أمور دينهم، وحكمته في تعامله ودعوته لهم، مع اختلاف معتقداتهم وأفكارهم، فرجعت تلك الوفود دعاة هداة، يعلمون أقوامهم مما تعلموا فأسلموا، وبذلك تمت سيادة الإسلام على كافة أنحاء الجزيرة العربية في العام التاسع الهجري.

وبعد، فهذا أولُ أُسٍ من أسس بناء الدولة الإسلامية، وهو بناء الشخصيَّة الإنسانية المتكاملة بكل ما تحويه من بناء قوة العقيدة، وقوة الأمة ووضع الملامح الأساس في رسم منهج الدولة.

وإذا كانت المرحلة الأولى مرحلة تأسيس وترسيخ فإن ثَمَّة مرحلة أخرى تتمثل بالممارسة والتطبيق في أسٍ ثانٍ رئيس. من أسس بناء الدولة لا يقل أهمية عن سابقه فيما سنسطر من مباحث الفصل الثاني المعنون ب: **(ممارسة السلطة التنظيمية والسياسية)** في الصفحات القادمة، بعون الله تعالى.



الفصل الثاني

بناء المجتمع المدني

وممارسة السلطة التنظيمية والسياسية

المبحث الأول: بناء روح الجماعة وتنظيمات المجتمع المدني

المبحث الثاني: صد العدوان والاستراتيجية النبوية في مواجهة اليهود بالمدينة

المبحث الثالث: النتائج والآثار المترتبة على الممارسات العملية والتطبيقية لصحيفة المدينة

توطئة ومدخل:

إن الوقوف على دراسة منهجية نبي الهدى ﷺ لبناء دولة الإسلام من حيث الممارسة العملية أمرٌ غاية الأهمية؛ فبه يتعينُ جملةً من الأهداف أولها: المعرفة الحسية والحقيقية لمقومات التخطيط الإداري البنَّاء لبناء دولة الإسلام، تلك الدولة التي قامت على الأساس الديني فالاجتماعي، ومن ثم الجانب السياسي[١]، وبها سَطّر غالبية من كتب عن عوامل وأسس بناء المجتمع المدني في العهد النبوي، ونحن بهذا التلخيص و الاستنتاج، وهذا التقصي والاستقراء لا نخالف من اجتهد واستنبط وسَطّر وألفّ، واعتبر هذه هي الأسس والعوامل الثلاثة لبناء دولة الإسلام الأولى.غير أننا وجدنا أن هذه العوامل الثلاثة بمجموعها تمثل أساً ثانياً من عوامل البناء، وهو الأس الذي يتمثل بالممارسة الفعلية والتدابير السياسية والتطبيقات العملية لركائز الإيمان في النفس، وسمو العقيدة في الفكر والذهن لتخلص بها إلى ممارسة التطبيق العملي والتجسيد الفعلي في أرض الواقع لتلك العقيدة وهذا الدين. وفيه من الأهداف ثانياً: الإلمام بمبادئ الإدارة النبوية العامة وتطبيقاتها العملية، ودراسة التأصيل الإسلامي للتخطيط السليم؛ إدراكاً لسياسة المصطفى في سوس الدولة، وفهماً لفقه دقائق السيرة العطرة، وما ذلك إلا لإفادة إعادة النظر لتخطيط المجتمعات المسلمة في عالم اليوم، سواء أكان في النظم السياسية أو حتى بالتنظيمات الإدارية علها أن تكوّن أساساً إسلامياً واعدًا في مواجه العقبات والمشكلات الآنية والمستقبلية.

وثالثُ الأهدافِ التأكيد على أن منهجية التخطيط الإداري الإسلامي تعتمد على المنهج الفكري (العقدي) وتسعى لتحقيق هدف شرعي هو عبادة الله، ومن ثَم عمارة الأرض تحقيقاً لسنة الاستخلاف **(إني جاعلٌ في الأرض خليفة)**، وهي بذا تأخذ الطابع التعبدي والنمط السلوكي الإنساني فتكون **أسلوب حياة، ومنهج تطبيق، ونموذج قدوة** في الفكر والممارسة، سلوكاً وفعلاً، للمجتمعات المسلمة.

والمتتبع لتلك الصور وتلكم المعاني من التطبيق في الممارسات السياسية والتنظيمية في المجتمع المدني الجديد يجد أنها حققت بحق قيام دولة الإسلام الأولى بالمدينة، وجسدت بصدق واقع تطبيق ذاك الرعيل لمنهجية هذا الدين القويم. وما بناء الشخصية المتكاملة في أول عوامل بناء الدولة إلا مرحلة تأسيسٍ وترسيخ، تأسيسٍ لنواة دولة الإسلام وترسيخٍ للعقيدة في نفوس معتنقيها[٢]. ثم ما لبث أن صاغ لتلك

(١) أغلب ما ألف حول مسألة (عوامل بناء الدولة) ينضوي تحت أسسٍ ثلاثة: دينية، واجتماعية وسياسية، فأما الأساس الديني فتمثل ببناء مسجده الشريف ﷺ. وأما الأساس الاجتماعي فاختص بمسألة حل مشكلات الهجرة وتنظيم العلاقات السكانية، وآخر الأسس الجانب السياسي وتمثل بإعلان منهج سياسة الدولة وطريقة تنظيمها من خلال ما عرف بصحيفة المدينة، وهذا ما سجل في غالب ما اطلعنا عليه في المؤلفات والمراجع.

(٢) سبق البيان في ذلك فمنذ أن حطَّت خُطا رِحال نبيّ الهدى ﷺ بمأرز الإيمان طابة، وبعد أيامٍ قلائل أقام مسجده ﷺ فكان بناؤه وعِمَاده إيذانا بإعلان قيام دولة الإسلام، وتحديد ملامح منهاجها.

الدولة سياسات واستراتيجيات **محكمة بيّنة دقيْقة**، ووضع لها غايات وأهدافٍ **مُقنّنه مُتْقنة عميْقة** أسهمت في بناء روح الجماعة، وسَعَت من فورها لبناء شخصية الأمة الإسلامية الموحدة، ولعل الخارطة المفهومية بالنموذج التالي تفصّل وتستوضح المقصود من ذلك.



(١)وتعني مجموعة الخطط والمبادئ والقواعد التي تقنن وتستخدم لتحقيق الأهداف .
(٢)هي النتائج المطلوب تحقيقها على أن تكون محددة و واضحة وواقعية .
(٣)هي الأدوات والأنشطة الحسية والمعنوية اللازم توافرها في إطار السياسات المحددة وصولاً إلى الأهداف .

٢/ بناء قوة الدولة

مكوناته = الرسولﷺ وأهل البيعة وأصحابه الكرام ومستشاروه من المهاجرين والأنصار.

السياسات والاستراتيجيات = _حكومة المدينة

_الجهاد وصد العدوان.

الهدف = _التمكين للدين وحماية الدعوة

_ تحقيق عالمية الرسالة الإسلامية.

الخطوات والوسائل

على المستوى الاجتماعي
تخيف آثار العصبية القبلية

على المستوى الديني
إحكام و إحلال السياسة الشرعية

على المستوى السياسي
داخليا : الأمان على الكليات الخمس
خارجيا : نشر الإسلام ،جهاد الأعداء

٣/ بناء شخصية الأمة (الإسلامية _ والأمة السياسية)الموحدة

مكوناته=
- المسلمون
- اليهود .
- الموالي والأعراب من الوثنيين وبقيه الديانات والعناصر الأخرى

السياسات و الاستراتيجيات = بناء الأمة الإسلامية وربطها بالرعية السياسية في قوةٍ جماعية موحدة.

الهدف = تأكيد قوة حكومة الدولة داخلياً ، وتأهيلها وإعدادها خارجياً.

الوسائل والخطوات = بإعلان وإقرار وتوظيف الحقوق والالتزامات الجماعية المشتركة في بنود صحيفة المدينة.

النتائج و المخرجات

- حرية ممارسة تعاليم الشريعة الإسلامية تطبيقاً على أرض الواقع، مع حرية ممارسة العبادات بإطلاقها (أداء اليهود لشعائرهم الدينية).
- إزالة العصبية القبلية وإيجاد وحدة سياسية بين جميع الفئات والعناصر السكانية في المجتمع المدني.
- الاستقلال السياسي للمجتمع المدني بصوره كافة ثقافياً وحضارياً واقتصادياً، ونقله من المجتمع الإقليمي المحدود إلى العالمية اللامحدودة باسم الدولة الإسلامية.
- حماية الدعوة، والحفاظ على ممتلكات الدولة عن طريق الإذن بالجهاد، صدًا للعدوان وتحقيق النصرة والمنعة والتمكين لهذا الدين.
- مثَّل الإسلام العقيدة الاسمية للعرب وللأمة الجديدة في مجتمع المدينة تصديقاً لقول الحق ﷻ: " ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

المبحث الأول: بناء روح الجماعة وتنظيمات المجتمع المدني.

إذا كان بدء مرحلة التأسيس وتكوين الشخصية السوية المتكاملة يكمن ابتداءً ببناء العقيدة، وانتهاءً بالبناء الاجتماعي؛ فإن بداية مرحلة الممارسة والتطبيق تبتدئ ببناء روح الجماعة وتنظيم المجتمع، وتنتهي بصد عدوان أعداء الله ونصرة دين الإسلام؛ تحقيقاً لوعود بيعة الحرب، وعالمية الرسالة.

وخلاصة الفكرة في أسس وعوامل بناء الدولة تتمثل من خلال الرسم التخطيطي التالي.

١/ بناء الشخصية المتكاملة = بناء عقدي ⟷ بناء نفسي ⟷ بناء اجتماعي.

٢ / ممارسة السلطة السياسية والتنظيمية = بناء روح الجماعة ⟷ بناء قوة الدولة

← بناء الأمة الإسلامية والرعية السياسية الموحدة.

أما وقد تكونت الدولة بعد تأسيسها، وتم تنظيم سياستها وإدارتها الداخلية، فيكون حينئذٍ الأس الثالث والأخير ويُعنى بتنظيم جوانب العلاقات الخارجية بمكوناتها وأساساتها؛ووسائل ذلك[1] من خلال:

٣/ تنظيم العلاقات الخارجية = ⟷ تأمين الجبهة الداخلية قبل الانتشار في الخارج ⟷ توطيد العلاقات الخارجية بالمحيطين الأقربين ⟷ المفاوضات والمعاهدات السلمية مع الأعداء ⟷ الدعوة والجهاد في سبيل الله ⟷ مواصلة أمانة تبليغ الدعوة بإرسال الرسل والسفراء إلى زعماء الدول غير المسلمة.

المطلب الأول: بناء روح الجماعة وتنظيم العلاقات الاجتماعية بين الفئات والطوائف السكانية.

لربما كان من الضرورةِ بمكان العرض المجمل لأحوال المجتمع اليثربي بوجازة قبل أن نفيء إلى دراسة مباحث سياسة الرسول الأكرم ﷺ في بناء روح الجماعة الإسلامية وتقويتها، وخطواته ، عليه السلام ، لسياسة دولته وإدارة تنظيمها.

ففي ضوء ما تطالعنا به سيرة الرسول ﷺ من صورٍ ونقول حول ما يتعلق بالوصف العام لمجتمع المدينة قبل هجرته ، عليه السلام ، نجد أن ذلك المجتمع شكَّل

---

(١) وسيفصّل لاحقاً في الفصل الثالث من الباب الثاني، بحول الله تعالى.

مزيجاً إنسانياً متنوعاً من حيث الدين والعقيدة بل ومن حيث تركيب الفئات السكانية الاجتماعية وتباينها في العادات والتقاليد والأعراف والسلوك ، فضلاً عن قوامها السياسي؛ ما أثّر بكل تأكيد في تنظيم إدارتها الداخلية، وتكوينها البنائي.

والواقع أن السمات العامة لهذا المجتمع قبيل الهجرة النبوية يضم جملة من العناصر المهمة وهي على التوالي:

الحالة الاجتماعية.

كونت الحياة الاجتماعية في مجتمع المدينة السكاني –خلال العصر الجاهلي – خليطاً متبايناً متمازجاً في عناصر قاطنيه، ولم يخرج في حقيقته عن نظام المجتمعات العربية في باقي أنحاء الجزير العربية، حيث كان يقوم على أساس النظام القبلي، فالقبيلة فيه هي وحدة الحياة الاجتماعية، ومن الملاحظ كذلك أن هذا المجتمع لم يكد يخلو من وجود نظام طبقي[١] بيد أن البُنية الاجتماعية المكونة له على الأغلب تشكلت من ثلاثة عناصر أساسية، أبرزها بنو قيلة الأزديين من اليمن، وهم الذين عرفوا بالأوس والخزرج[٢]، ثم قبائل اليهود الذين ينتمون إلى ثلاث قبائل أساسية وهي: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع[٣]. إضافة إلى أفخاذٍ قليلة الشأن من قبائل أخرى متعددة ليس لها أثر يذكر في تحريك الحياة الاجتماعية، وإنما هم تَبَعٌ للعنصرين الأولين.

ويبدو أن هذا المجتمع لا توجد فيه أغلبية مهيمنة؛ بل كان ثلثًا للأوس وثلثًا للخزرج وثلثًا لليهود؛ إلا أن هذا التقسيم رغم بساطته التكوينية كان في غاية التعقيد؛ لأن العلاقة بين هذه العناصر قائمة على الحقد

(١) انحصرت طبقات ذلك المجتمع في ثلاث طبقات، أولها: الأحرار الصرحاء، وهم أبناء القبيلة الأصليون الذين تجمعهم صلة النسب والدم ويعد ضمن هذه الطبقة اليهود، ثم طبقة الموالي، وهم الذين ينضمون إلى قبيلة غير قبيلتهم الأصلية، إما حلفاً أو جواراً أوعن طريق العتق، وآخر الطبقات العبيد الذين يجلبون إلى القبيلة إما عن طريق الشراء، أو أن يكونوا أسرى حرب، وهذه الطبقات الثلاثة كانت موجودة في يثرب، وكان لكل طبقة منها مميزاتها الخاصة، ووضعها الاجتماعي اللائق بها، انظر الوكيل، مُحَمَّد السيد الوكيل: يثرب قبل الإسلام، دار المجتمع للنشر والتوزيع، جدة، ط ٢عام ١٤٠٩هـ ج١، ص١٨٩.

(٢) أما الأوس والخزرج الذين ينسبون إلى الأزد والغساسنة، فيطلق عليهم اسم العرب اليمانية، ومنهم الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان الذي حالف أبوه بني عبد الأشهل فسماه قومه اليمان لكونه حالف اليمانية، وقد ربطت الروايات التأريخية قدومهم للمدينة بانهيار سد مأرب، أو بهجرة كثير من القبائل اليمانية للشمال إثر حادثة سيل العرم، انظر البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص١٢. وابن حجر العسقلاني في الإصابة، ج١، ص٣١٧.

(٣) منذ القرن الخامس وحتى منتصف ق ٦م تسلم اليهود السلطة في المدينة وكانوا يشكلون معظم سكانها. انظر الحموي، معجم، ج ٥، ص ١٠٠.

والحسد والتربص والحذر يستوي في ذلك الحال بين العرب والعرب، وبين العرب واليهود، واليهود و اليهود[١]. وفي غمار هذا التنافر أصبح من الصعب جدًا إقامة علاقة تفاهم ووئام بين تلك العناصر؛ لأن الحروب، التي استمرت مائة وعشرين سنة[٢]، استنزفت الكثير من طاقتهم ومجهوداتهم وأنفسهم، حيث حالف الأوس يهود بني قريظة وحالف الخزرج يهود بني النضير وبني قينقاع. وكان آخر ما وقع بينهم من حروب ما عرف باسم موقعة بُعاث التي مات فيها أكثر رؤسائهم، وذلك قبل الهجرة النبوية بسنوات قليلة[٣].

الحالة الدينية.

إن المدقق في التكوين الاجتماعي سابق الذكر يجد أن تلك الخُلطة الاجتماعية أدت إلى انشطار ديني؛ فلقد ساد في هذا المجتمع اليهودية تلاها الوثنية وإن كانت الوثنية أشد انتشارًا وتوسعاً، ولا يستبعد وجود المجوس عبدة النار من الفرس في يثرب فلقد استقبلت قبل الهجرة كثيرًا من الموالي الفرس[٤]، كما وجد بعض النصارى بيثرب. ويبدو أن معظمهم لم يستقروا بصفة دائمة في المدينة، وإنما كانوا يتغشونها لإنجاز بعض شؤونهم التجارية. وعموماً كانت الغالبية العظمى لليهود، واليهود كانوا يدينون بدينٍ سماوي ويدعون اتباع موسى عليه السلام، وكانوا يتعالون على عرب الأوس والخزرج بأنهم أهل العلم بالأديان والشرائع، وأنّ فيهم الربانيين والأحبار، ويفاخرون عليهم بذلك، وأما العرب من الأوس والخزرج ومن تبعهم فقد كان وضعهم الديني خاضعاً لسلطان الوثنيّة السائد في المنطقة، حيث انتشرت فيهم مظاهر الشرك المختلفة من عبادة الأصنام وتعظيمها، وكان لهم أصنامهم الخاصّة بهم وأشهرها (مَناة) وكانوا يقدّمون لها القرابين والنذور المختلفة، ويطوفون بها كطوافهم بالبيت، إلى غير ذلك من مظاهر الشرك والضلال، وعلى كلٍ فقد ازداد خوف اليهود – الذين انحرفوا كثيراً عن عقيدة التوحيد – من السِلم الجبري الذي نجم عن حرب بُعاث، والتي حدثت بين الأوس والخزرج نظرًا للإنهاك الحاد الذي حدث من جرائها، فكانوا يتوعدون العرب

---

(١) الخطراوي، مُحَمَّد العيد: المدينة في العصر الجاهلي (الحياة الاجتماعية والسياسة والثقافية والدينية)، الوكالة العامة للتوزيع، دمشق، ط ١، ١٤٠٣هـ، ص١٣.

(٢) والمقصود بها حرب بُعاث وهي آخر الحروب بين الخزرج والأوس.

(٣) البوطي، مُحَمَّد سعيد: فقه السيرة، دار الفكر، دمشق، ط٦، ١٣٩٧م، ص١١٦.

(٤) الخزاعي: تخريج الدلالات، مرجع سابق، ص٦٠.

وما كانت حظوة ترجمان رسول الله ﷺ زيد بن ثابت الأنصاري النجاري بتعلم السريانية والفارسية والرومية والقبطية والحبشية إلا لتعدد الألسن وتعدد وجود هذه الأجناس المختلفة، وتقاطرها على أرض يثرب.

بظهور نبيٍ وأنهم سوف يتبعونه وينتصرون به عليهم[١] ويقولون: " **تقارب زمان نبي يُبعث، الآن نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم**"[٢].

الحالة السياسية.

إن قوى الكيان السياسي في المجتمع اليثربي تشكلت من عناصر سكانه الأساس اليهود والأوس والخزرج وكما هو معلوم فإن السيادة والرياسة فيه انتقلت إلى العرب بعد يهود، والواقع أن للتنوع السكاني في الأصل دوراً كبيراً في اضطراب الأمور، فلم يكن ثَمّة نظام سياسي عام مقنن يحتكم إليه أفراد ذلك المجتمع قبيل الإسلام. فكان عماد العرب من أوس وخزرج في تنظيمهم السياسي إذ ذاك قائماً على الأحكام والأعراف القبلية السائدة عند الأعراب في البوادي، رغم أنهم سكان مدنٍ وقرى. وفي المقابل كانت سيادة الحكم عند اليهود لدى زعمائهم ورؤسائهم وأحبارهم. على أن قوة اليهود التجارية كان لها أثرٌ في تنامي قوتهم السياسية إذ كان لانتشارهم واستقرارهم على الطريق التجاري[٣] فرصة لاتساع نفوذهم السياسي هناك؛ تبعاً لثرائهم وجاههم وقوة اقتصادهم ما زاد من قوة سلطانهم وقوىّ شوكتهم على من دونهم، وفي ذلك يقول ابن رستة:"**وكانت قريظة والنضير ملوكًا على مدينة الأوس والخزرج**"[٤]. لكن ضلوع اليهود بهذا الدور السياسي بدأ يأفل مع بداية النصف الأول من ق٦م[٥]. حيث تمكن استقرار الأوس والخزرج في

(١) ابن ادريس، عبد الله عبد العزيز: مجتمع المدينة في عهد الرسول ﷺ، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض، عام ١٤٠٢هـ، ص ٤٥و٥٤.

(٢) أورد ذلك ابن إسحاق في السيرة: حيث قال:"حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه قالوا: (إن مما دعانا إلى الإسلام – مع رحمة الله تعالى وهداه لنا– لما كنا نسمع من رجال يهود، وكنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقاتلكم معه قتل عاد وإرم فكنا كثيرا ما نسمع ذلك منهم؛ فلما بعث الله رسوله ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه، فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزلت هذه الآيات من البقـــــرة ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ ا.هـ. السـيرة النبويـة. ج١، ص٢٢. وعلق الذهبي في الميزان بأنه صحيح حسن، وانظر الصحيح المسند في أسباب النزول ص١٩-٢٠، وعلي بن برهان الدين:السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، بيروت، دار المعرفة، ١٤٠٠ هـ، ج١، ص٣٠٠.

(٣) وهو طريق البخور الواصل بين اليمن وبلاد الشام واتصالهم بيهود حمير في اليمن، ويهود فلسطين (طبريا) وله دور مهم في قوتهم السياسية.

(٤) ابن رستة، أبو علي، أحمد (٣٠٠هـ):الأعلاق النفيسة، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٨٩٣م، ص١٧٧.

(٥) كان لليهود نفوذ وسيطرة على الأنشطة الاقتصادية في الحجاز قبيل الإسلام، الأمر الذي أدى إلى تذمر العرب، وسعيهم =

أرض يثرب من سيادة نفوذهم فكان إذ ذاك نقطة تحولٍ سياسية في تاريخ المجتمع اليثربي، إذ تمكن الخزرج من ضرب اليهود في الحجاز بمساعدة الغساسنة وإنهاء دورهم بانتزاع السلطة منهم وتولي الزعامة والرئاسة عليهم فيها[١]. وهو ما دفع باليهود إلى عقد التحالفات مع الأوس والخزرج طلبًا للتعزيز والحماية، وبذا تحول اليهود في المدينة من سادة إلى تَبع كما بدأ دورهم السياسي في المنطقة بالأفول في هذه الفترة تبعاً لضلوع قوة بيزنطة والغساسنة وتأثيرهما على الخط التجاري[٢].

الحالة الاقتصادية.

سادت سائر الأنشطة الاقتصادية المجتمع اليثربي؛ فكانت هناك الزارعة التي تفوّق فيها العرب رغم مشاركة اليهود لهم فيها وتعاليهم وتفاخرهم عليهم بها، و في ذلك كانوا يرددون:" **نحن أعلم بالأرض منكم**"[٣]. كما قامت هنالك التجارة التي تفوق بها اليهود على العرب نتيجة لتعاطيهم الصيرفة والسمسرة وتعاملهم بالربا والرشوة وسائر مظاهر الخديعة والمكر في البيع والشراء، حيث وصف اليهود بالعادة أنهم على درجة من الذكاء في التجارة وتثمير الأموال، حتى قيل: "**وأصبحت تجارة المدينة في أيديهم**"[٤]، إضافة إلى تميزهم بالبراعة ببعض الصناعات المربحة كالصياغة والأسلحة والنسيج، واحتكار صناعة الخمر وتجارته"[٥].

=

لتحطيم تلك السيطرة، وبخاصة في يثرب، فهذا الزعيم الخزرجي عمرو بن النعمان البياضي يعد قومه يوم بُعاث بقوله: "والله لا يمس رأسي غسل حتى أنزلكم منازل بني قريظة والنضير على عذب الماء وكريم النخيل"، وربما كان السبب نفسه الذي دفع أهل يثرب للاستعانة بالقوى الخارجية (الغساسنة) على اليهود الذين ربما سارعوا في انتهاز الفرصة مدفوعين من حلفائهم الروم للتنكيل باليهود الموالين للفرس أعدائهم التقليديين في نطاق الصراع الدائر بين القوتين على طرق التجارة، ولعل من أعظم الأسباب ضعف نفوذ اليهود و تفرق وحدتهم واختلافهم على أنفسهم مما حكاه القرآن في سورة البقرة، آية (٥٨) وآية (٣١٤)، انظر تفسير الطبري في الجامع، ج ١، ص ٣١٢ وانظر الخبر عند السمهودي في الوفاء، مصدر سابق، ج ١، ص١٧٩.

(١) علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب القديم، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، (ب.ط)، ج ٧، ص ٥١٦.

(٢) ياسين، خالدة عبد اللطيف: موقف النبي ﷺ من يهود الحجاز، جامعة النجاح الوطنية نابلس، فلسطين ٢٠٠٩م، ص٦٢.

(٣) ابن زنجويه، حميد بن مخلد بن قتيبة الأزدي النسائي (ت ٢٥١ هـ): الأموال، تحقيق شاكر ذيب فياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ج١٣، ص٤٨٣.

(٤) زيدان، جورجي: العرب قبل الإسلام، تعليق حسين مؤنس، دار الهلال، (ب. ط)، (ب. ت) ص٢٨٠.

(٥) شاهين، رياض مصطفى أحمد: النشاط الاقتصادي لليهود في الحجاز قبل الإسلام، مجلة الجامعة (سلسلة الدراسات الإنسانية)، عام ٢٠٠٤ م، عدد ١، مج ١٢، ص ١٩٧.

وكذلك تفوقوا في الأنشطة الصناعية على العرب وخاصة منهم بني قينقاع، حيث إن العرب كانوا يرون أن ممارسة مثل هذا العمل من الامتهان إلا ما كان في حدود ضيقة كصناعة البناء والتجارة(١).

والظاهر أنه على الرغم من التفوّق العددي للعرب آنذاك إلا أن السيطرة الاقتصادية كانت بيد اليهود، حيث استغلّوا حاجة العرب إلى المال لشراء الحاجيات، ولتغطية نفقات الحرب القائمة بين الأوس والخزرج، فكانوا يقرضونهم بالرّبا، ويغالون عليهم في الفوائد أضعافاً مضاعفة، مستغلّين في ذلك نقص الموارد وقلة ذات اليد، مما أوقع الكثير من العرب في الديون المثقلة، وجعلهم أسارى تحت سلطانهم.

وجملة القول: إن هذا التفاوت في النسيج الاجتماعي من حيث الدين ومن حيث الانتماء القبلي والعشائري، ومن حيث نمط المعيشة، بين العرب الوثنيين من الأوس والخزرج، وبين قبائل اليهود الثلاثة، وكذلك الأعراب الذين يساكنون أهل يثرب، مضافاً إليهم الموالي والعبيد، والأحلاف، ومن وفد إليهم من المهاجرين؛ كل هذا استلزم عناية واستدعى مزيد دراية لسوسهم وحكومتهم، وهنا نتلّمس الحكمة النبوية والحنكة الإدارية من لدنه ﷺ بثاقبِ فكره، ونافذِ بصيرته، وسداد رأيه ووعيه، إذ أدرك تفاوت قاطني المجتمع اليثربي وتباين ساكنيه فحدد مطالب وحدة ذلك المجتمع. فلقد وهِب رسول الله ﷺ مالم يُوهب نبيٌ قبله من فن القيادة الملهمة في تصريف الأمور والتخطيط لها، وسوسها عسكرياً وسياسياً مع التدبير لها. فمنذ فجر البعثة عمد ﷺ وحرص على تأسيس منطلق الدعوة لتحقيق عالمية الرسالة، فنراه قد برع بكل تخطيطٍ سياسي وفكرٍ إبداعي حيث تمكن من اختيار المكان والزمان واختيار الصحب والجوار بتوجيه رباني؛ على أن هذا الاختيار بشتى صنوفه وتعدد أنواعه ما كان إلا تأسيساً مرتبطًا بعرا الإيمان، موثوقاً برابطة عقيدة الإسلام. فالمتصفح لوقائع السيرة يجد أن سياسة الرسول ﷺ في بناء روح الجماعة الإسلامية، وكذا في تنظيم كيان المجتمع وقوته، ما هو إلا من قَبيل الإعداد المسبق؛ فما كانت المؤاخاة، وهي وسيلة من وسائل الرباط الجماعي والتنظيم المجتمعي، مسألة فجائية أو منظومة خيالية، وإنما كان لها جذورٌ وأصول. ولا عجب ولا غرابة فلقد سعى النبي المصطفى، عليه السلام، لبناء تلك الجماعة الإسلامية الموحدة منذ أحداث بيعة العقبة الأولى، أو ما عرف ببيعة التوحيد(٢).

---

(١) شعيبي، فيصل أحمد: التخطيط الإداري الإسلامي في العهد النبوي، بحث علمي منشور جامعة الملك عبد العزير، كلية الإدارة والاقتصاد، ١٤٢١هـ، ص٦٧.

(٢) ففيها من الإجراء والتدبير الذكي أن اتخذ النبي ﷺ من مصعبٍ بن عُمير مُعلّم المدينة الأول فقد بعثه الرسول ﷺ مُكلفا إياه الإشراف على تطور الأوضاع في المدينة فضلاً عن تكليفه بتفقيه المسلمين بأمور الدين.فكان معلَّم القوم الإسلام، وكان أول سفير في الإسلام. وكان من مهامه العظام أن يتطلع على أحوال يثرب عن قرب، ويتعرف إلى طبيعة أهلها وحقيقة شعورهم تجاه الدعوة ورسولها؛ ليعطي صورة صادقة لهذا البلد الذي توجهت إليه أنظار الرسول، عليه السّلام؛ =

ومن الملاحظ أولاً أنه لم يسارع ﷺ بالانتقال إلى من واعدوه النُصرة منذ الأيام الأولى للدعوة، حتى تأكد من تأسيس قاعدةٍ صلبة للدين الجديد هناك، وحتى استوثق من التكوين العقدي والتهيئة النفسية لتلك البذرة المؤمنة، وأكد ذلك واثبته ميثاق بيعة الحرب بعد عام قابل تأكيدًا على البيعة الأولى؛ فتأكد له إذ ذاك صدقُ مبايعيه وقوة إيمانهم ولدعوتهم له في أرضهم ومنعته ونصره، والصحيح أن تلك المعاني لتعطي دلالة أكيدة على أن خط النبي ﷺ السياسي كان واضحاً جلياً ظاهرًا في هذه المرحلة بتركيزه على البناء الداخلي (العقدي)لأهالي يثرب، فأعدهم إعدادا قوياً ليكونوا قادرين على استقبال المهاجرين وما يترتب على ذلك من تبعات[١]، بل وإعداد المهاجرين قبلهم بمثل ما أعد به مسلمو يثرب.

كذلك فمن التدابير المدروسة والخطط والوسائل المحسوسة تهيئته ﷺ وإعداده وإقامته لموضع دعامة الأمة الأساس مسجده الشريف –شعار الدولة وعمادها– بجوار أخواله من بني النجار ليكون له المنعة والنصرة بجوارهم.

نعم إن الإعداد القوي (المسبق) والتهيئة المتمكنة للعناصر الأربع السالفة الذكر (الإنسان، والزمان، الصحب، والجوار) إن هذا بمجمله قد هيأ لبناء الجماعة وتنظيم المجتمع بحد ذاته. ومن المؤكد أن هذا التنظيم المبكر للجماعة الإسلامية ما هو إلا من قَبيل الإرهاصات والمقدمات لمواصلة الإجراءات السياسية لتأسيس ذلك الكيان السياسي الإسلامي المتفرد والجديد. فبوصوله ﷺ إلى المدينة بدئت مرحلةٌ جديدةٌ للتنظيم الإداري والعمل السياسي في المجتمع المدني، فاستطاع ﷺ بصفته الحاكم والقائد أن يؤسس المجتمع السياسي الأول، وبدأ بمرحلة إرساء قواعد الدولة وبناء مجتمع الأمة (المسلمة)، وكرّس لها من التوجيه والبعد السياسي والفكر الإداري المستمر، ما أهّل الدولة للنضج، في جميع ميادين العمل السياسي والإداري التنظيمي.

وكان أول عماده لبناء الدولة **بناء روح الجماعة الموحدة** وأول أدوات ووسائل ذلك **المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار**.

=

ليكون منطلقاً لدولة الإسلام، فيخرج الرسول ﷺ بتقدير صحيح، ويتصرف على أساسه بمنظورٍ واضح دقيق.

(١) الشامي، صالح أحمد: السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة، المكتب الإسلامي، ط٢عام ١٣٢٢هـ، ص ١٢٠، ١٢١، والصلابي، علي مُحَمَّد: السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، دار المعرفة، ط٧، عام ١٤٢٩هـ، ج١، ص ٢٥٣.

المحور الأول: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

خطا النَّبي ﷺ خطوة غاية في الأهمية لإقامة الدولة الجديدة والقضاء على بعض قيم النظام القبلي من دون أن يمس القبيلة بشيء، مستثمراً حالة التعاطف وحرارة الإيمان التي بدت من المسلمين فجعل أساس العلاقة بين الأفراد رابطة العقيدة والدين متجاوزاً علقة الدم والعصبية[١]. فلقد أدرك ﷺ ببعد نظره حاجة المجتمع المدني إلى الوحدة فيما بين أفراده مستفيدًا من تلك الأصول والقيم الدينية والأخلاقية التي رباهم عليها سنين طوالاً المسلمين في مكة وأعدّهم عليها، كما رسّخ عليها نفوس معتنقي هذا الدين الجديد من أهل يثرب وقد أطمأنت نفوسهم عليها وعاهدوه بها. فهيأ نفوس مسلمي مكة للهجرة والانتقال وترك الديار والأوطان، وأعد نفوس مسلمي يثرب لروح التضحية والبذل والعطاء؛فآلف بين تلك النفوس العظيمة بتلك القيم الدينية المثلى، وآلف بين أرواحهم بأسمى معاني الأخوة والمحبة في الله، فآخي بين مسلمي مكة ومسلمي يثرب **أخوة الإسلام** وقال:"**تآخوا في الله أخوين أخوين**"[٢]، فتآخى المسلمون على إثر التنبيه النبوي الكريم أَخَوَيْنِ أَخَوَيْنِ فكان أبو بكر الصديق، وخارجة بن زهير أخوين، وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك، أخوين، وأبو عبيدة بن الجراح وزيد بن سهل أخوين، وسعد بن معاذ، وعبد الله بن مسعود وقيل سعد بن أبي وقاص أخوين. وهكذا فنماذج المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار كثيرة[٣]، وليس معنى هذا أنه لم يكن المؤخاه إلا بين هؤلاء، وإنما كان هذا أول ما آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وصار يجددها بحسب من يأتي إلى المدينة مهاجرًا ومن دخل في الإسلام بعد ذلك[٤].

وكان من تبعات هذه المؤاخاة ونتائجها أن سمى ﷺ مسلمي مكة بالمهاجرين ولم يرض باسم الأوس والخزرج لمسلمي يثرب بل سماهم الأنصار[٥]، وأبدل باسم أرض يثرب المدينة، وكل هذا الإجراء ليصهرهم في بوتقة الجماعة وروحها، و بهذه اللفتة النبوية الكريمة كانت بداية مرحلة ميلاد المجتمع الإسلامي الجديد

(١) الصلابي، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، ج ١ص٥٠٤.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ج ١ ص ٥٠٤ـ ٥٠٧.

(٣) وانظر ملحق رقم (٣) لأسماء من آخى النبي ﷺ بينهم.

(٤) العسقلاني: فتح الباري، مصدر سابق، ج، ١٠، ص ٣٥١.

(٥) جاء في «دائرة المعارف الإسلامية» في مادة أنصار (Ansar): لكأن مُحَمَّداً أراد أن يشابه بين كلمة الأنصار والنصارى المطلقة على المسيحيين، وهذا خطأ واضح لأن كلمة أنصار جمع نصير، أما نصارى فنسبة إلى قرية بالشام تسمى ناصرة أو نصران، وفوق ذلك فإن سبب تسمية الخزرج والأوس بالأنصار معروف وهو لأنهم نصروه ﷺ وقد جل رسول الله ﷺ عن التشبه والتقليد.

في المدينة؛ فشرع رسول الله ﷺ يمزج بين عنصري الأمة الإسلامية الناشئة، المهاجرين والأنصار، مزجًا قوياً محكماً، بمزاجٍ غليظ، ورباطٍ وثيق ألا وهو أعمق رباط وأدق ميثاق" رباط الأخوة في الإسلام "[١].

ذكر ابن سعد أن المؤاخاة كانت بعد الهجرة وقبل غزوة بدر الكبرى عام(١هـ) ٦٢٢م وكان إعلان هذا التشريع في دار أنس بن مالك كما صرحت أغلب الروايات[٢]، وذكر في رواية أن المؤاخاة عقدت بالمسجد[٣]. فتقرر بأن يكفل كُلُّ أنصاري مهاجرًا، فيغنيه مما يحتاج إليه من لوازم الدنيا، من مأكلٍ ومسكنٍ وخلافه. وأن يكفل كل مهاجرٍ أنصاريًا، فيغنيه مما يحتاج من لوازم الدين، من تزكيةٍ، وتعليمٍ للكتاب والهدي الحكيم. زاد من ذلك حين تقرر بادئ الأمر أن يرث كل منهما الآخر فبلغت الأخوةُ آنذاك ذروتها وأعلى مراتبها؛ فلما تحققت أهداف الأخوة نسخ هذا الحُكم[٤]، ولقد سجل هؤلاء الصحب الكرام أروع النماذج وقدموا أفضل الصور والمعاني في الأخوة في الله والتحاب به.

ومن المهم هنا أن نستجلي أهم أهداف وأروع ثمرات المؤخاه وأبعاده، ومن ثَم نستوضح أبرز النتائج والآثار الحسية والمعنوية له.

(١) عقد رسول الله ﷺ هذه الأخوة بينهم في المسجد، ليزيدها توكيداً، ولكي تأخذ صبغة شرعية لا يجوز فصمها أو التهاون فيها، نقل ابن حجر عن أبي سعيد في شرف المصطفى "كان الإخاء بينهم في المسجد " انظر العسقلاني: فتح الباري ج٧، ص ٢٧١.

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب مؤاخاة النبي بين أصحابه، رضوان الله عليهم جميعاً. حديث رقم (٢٥٢٩)، وانظر الخبر لدى ابن سعد في الطبقات يقول:" وقد شملت هذه المؤاخاة تسعين رجلاً خمسة وأربعين من المهاجرين وخمسة وأربعين من الأنصار، ويقال إنه لم يبق من المهاجرين أحد إلا آخى بينه وبين أنصاري "أهـ الطبقات الكبرى، ج ١، ص ١١٥.

(٣) جمع بين الروايات الحافظ ابن حجر في الفتح فقال:" ويمكن الجمع على أن ابتداء المؤاخاة كان في أوائل قدومه ﷺ في المدينة، واستمر يجددها بحسب من يدخل الإسلام أو يحضر إلى المدينة، وهلم جرا، وليس باللازم أن تكون المؤاخاة وقعت دفعة واحدة "، العسقلاني ابن حجر: فتح الباري، ج ٤، ص٧٢٧.

(٤) وذلك حين تحسنت الظروف الاقتصادية للمهاجرين؛ فلاشك أن التوارث بين المتآخين كان لمعالجة ظروف استثنائية مرت بها الدولة الناشئة. فلما ألف المهاجرون جو المدينة وعرفوا مسالك الرزق فيها، وأصابوا من الغنائم التي حصل عليها المسلمون إثر انتصارهم في معركة بدر في السنة ٢هـ، رد التوارث إلى وضعه الطبيعي المنسجم مع الفطرة البشرية على أساس صلة الرحم، و قرابة الدم وأبقى على الحقوق المترتبة على الأخوة في الدين التي تربط بين المسلمين جميعاً وألغي حق التوارث بين المهاجرين والأنصار، وأبطل التوارث بين المتآخين بنص القرآن الكريم ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ سورة الانفال آية ٥٧ وانظر ابن قيم في الزاد، ج٢، ص٧٩وتفسير الشوكاني في فتح القدير، ج٢، ص ٣٣٠-٣٣١وسبب نزول آيات الأنفال ٧٥. انظر الهيثمي: مجمع الزوائد ج٧، ص ٢٨.

أولاً: وقفة في دراسة أبعاد المؤخاه بين المهاجرين وأنصار.

- البعد العقدي (الإيماني).

إن من أقوى الدعائم في بناء الأمة المسلمة وتأسيس بنية المجتمع المدني الأول المؤخاه في الله والحب فيه، والحق أن هذا المؤخاه الذي تم بين المهاجرين والأنصار كان مسبوقاً بعقيدة تم اللقاء عليها، والإيمان بها، فكان أجلّ وأسمى بل أعلى وأروع أنواع الارتباط وأرقاه؛ لاتصاله بوحدة العقيدة والفكر والروح. وقد حصر هذا المؤخاه برباط الإيمان ورباط العقيدة ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[١]. وتم إعداد الأفراد وصقلهم في بوتقة الجماعة الواحدة، فكونتا قاعدة صلبة، بدأت تعطي ثمارها بصورة أظهر بعد أن التحمت بالمجتمع المدني الجديد، وانصهرت كلتاهما في معاني العقيدة وأخوة الدين فكانتا صورة صادقة لتعاليم الإسلام وتطبيقاته، وكانت بذرة خصبة في تأسيس ذلك المجتمع وإقامة بنيانه. فبروح رابطة العقيدة، وسمو الإيمان الوثيق في النفس، واستقامة السلوك والصدق في المعاملة مع دفء الحب في الله، تمت المؤاخاة، وتم الوفاق بين المهاجرين والأنصار، وهذه صورة حقيقة الإيمان في نفوس اتباعه وهو الذي جعل تقوى الله أساساً لهدى النفس، وتلك هي الصورة التطبيقية والممارسة الفعلية لمعنى العهد بين الرسول ﷺ وأتباعه المبايعين له بيعة التوحيد، وبيعة الحرب؛ فهي المبايعة الحقة والعهد الصدق، وذلك أثرها في النفس والسلوك، إذ تجلَّت الأخوة في أرقى معانيها، وأدق تطبيقاتها، نصرةً للدعوة، وتحقيقاً لوعد البيعة ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[٢].

وثَمة بعدٌ إيمانيٌ عميقٌ في مسألة المؤخاه وهو أن العقيدة تضع الناس كلهم في مصاف العبودية الخالصة لله دون الاعتبار لأي فارق إلا فارق التقوى والعمل الصالح، إذ ليس من المتوقع أن يسود الإخاء، والتعاون والإيثار بين أناس فرقتهم العقائد والأفكار المختلفة، فأصبح كل منهم ملكاً لأنانيته وأثرته وأهوائه[٣].

وصورةٌ أخرى من أبعاد المؤخاه الإيماني هو توطين النفس وتطويعها وإقناعها على مغالبه هواها في سبيل الله، فإذا علمنا أن هؤلاء المهاجرين لم يكونوا فقراء أصلاً، بل كانوا يملكون المال، ويملكون الدار، وكل أسباب الحياة، لكنهم تركوا ذلك كله ابتغاء مرضاة الله، وبذلوه كله رضا وطاعة لله، فليس من السهل ترك

(١) سورة الحجرات آية (١٠).

(٢) سورة الأحزاب، آية (٢٣).

(٣) البوطي: فقه السيرة، مرجع سابق، ص١٥٦.

هذا كله إلا لمن تمَّلك الإيمان سويداء قلبه فاستجاب لداعي ربه، ولقد أدرك الرسول ﷺ ذلك منهم فجاء في الحديث الشريف «**اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد**»[(١)].

وفي مسألة المؤخاه ما فيها من المشاركة الفاعلة بين المهاجرين والأنصار والتعاون المشترك على البر في تعليم أمور الدين وتنظيم أمور الدنيا.

ومن أبعاد المؤخاه الإيمانية المهمة أيضاً تكوين أمة وجماعة إسلامية واحدة قوية تستطيع متابعة نشر دين الله في الأرض ورد العدوان.

ومن الأبعاد تسمية يثرب بالمدينة[(٢)] وما فيه من دلاله على خروجها من بوتقة الأشخاص أو القبائل وما إليه، إلى مسمى له دلالته على التمدن أو الحضارة والاستقلالية بعيدًا عن التبعية وذلها[(٣)].

والخلاصة إن في مدلول الأخوة الإيمانية في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[(٤)] لمعنىً مهم له دلالته ومعطياته ومراميه؛ لأنه يمثل حقيقة الإيمان وما ينطوي عليه جاء في حديث أبي هريرة:«**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم وهو مؤمن**»[(٥)].

وكما حقق موضوع المؤخاه بُعدًا إيمانياً وإنسانياً حيوياً فقد تناول كذلك:

- البعد الاقتصادي.

الحقُ أن في معنى الأخوة الإسلامية معنىً دقيقاً للمسؤولية الجماعية والتعاون الجماعي والمشاركة بين

---

(١) البخاري: الصحيح، ج٢، ص ٦٦٧، حديث (١٧٩٠).

(٢) من المعروف عند اللغويين والمؤرخين العرب أن يثرب ليس اسما للمدينة، وإنما هو اسم لقرية كانت تقع في الشمال الشرقي لجبل سَلَع بينه وبين وادي قناه، وهي المنطقة التي كان يسكنها جماعات من العرب والعماليق قبل مجيء اليهود، وعندما حل المصطفى ﷺ بأرضها لم يرض بهذا الاسم، وكأنه لمح فيه معنى التثريب وهو اللوم والتوبيخ فغيره إلى المدينة روى مسلم في صحيحه عند أبي هريرة: قال رسول الله ﷺ:" أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون يثرب وهي المدينة، تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد "مسلم: صحيح مسلم، ج٢، ص١٥٤.

(٣) أشار القرآن الكريم في موضع واحد إلى يثرب حكاية عن المنافقين وذلك في أحداث غزوة الأحزاب ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ ﴾ سورة الأحزاب، أية (١٣)، ويثرب أصبح بعدها اسمًا مرتبطا بالمنافقين وانظر ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج٤، ص ١٠٧- ١٠٨.

(٤) سورة الحجرات، آية (١٠).

(٥) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب لا يشرب الخمر، ص ٥٦، حديث رقم (٦٣٩٠).

الأطراف المتآخية، ولا أدل على ذلك من قول الأنصار من حديث أبي هريرة، ﷺ، قال: قالت الأنصار للنَّبي، ﷺ اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: «لا»، فقالوا: تكفونا المؤونة ونشرككم في الثمرة، قالوا: سمعنا وأطعنا[(١)].

ومن الأبعاد الاقتصادية الأخرى للتآخي محاولة معالجة الرسول الكريم ﷺ للأزمة الاقتصادية من خلال تطبيق المنهج الرباني في فرضية فريضة الزكاة والصدقات ونحوها مع إعالة المهاجرين وإعادة تأهيلهم اقتصادياً للعودة لممارسة حياتهم الطبيعية، وقد ضُربت لنا النماذج والأمثلة الواقعية الحيَّة من لدن المهاجرين في ممارسة العمل مع الثقة بالنفس والاعتماد الذاتي والسعي وترك البطالة.

وفي التآخي إزالة للفوارق الطبقية في المجتمع المدني في محاولة محكمة للقضاء على الفقر والبطالة، مع توحيد وترابط الجهود بين المتآخين، واستثمار واستغلال كل الموارد المتاحة في المدينة.

ومن الأبعاد أيضاً تحقيق الاستقلالية الاقتصادية للجماعة الإسلامية بعيداً عن مركز الثروة غير المشروعة من قبل اليهود وسيطرتهم المادية على جميع الأنشطة الاقتصادية في المجتمع المدني بعامة؛ حيث أسس رسول اللهﷺ للمسلمين سوقًا وشاهِد ذلك قوله: ﷺ «**هذه سوقكم فلا يضيق ولا يؤخذ فيه خراج**»[(٢)].

وكذلك من أبعاد المؤاخاة اقتصادياً تلاقح الأفكار بين المهاجرين والأنصار في ممارسة الأنشطة الاقتصادية، زراعة[(٣)] وصناعة وتجارة، وتعزيز الاستفادة من الخبرات المتبادلة لصالح الدولة.

وثَمة بُعد مهم للتآخي أيضاً قريب من البعد الاقتصادي ألا وهو:

- البعد النفسي والاجتماعي.

إن من نتاج الأخّوة العقدية الإيمانية وثمراتها أن ظهر في المجتمع المدني ظاهرةً عظيمة من الصور التطبيقية لمبادئ الدين الحق تمثلت بالتكافل الاجتماعي بين المسلمين وبالتعاون المحمود ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[(١)].

(١) البخاري: صحيح البخاري، كتاب المزارعة، باب إذا قال: اكفني مؤونة النخل وغيره وتشركني في الثمر، ص١٢، رقم الحديث (٢٠٠٢).

(٢) ابن ماجه: السنن، كتاب التجارات، باب الأسواق ودخولها، ج٣، ص٥٧، رقم الحديث (٢٢٣٣).

(٣) ومن ذلك قول المصطفى ﷺ في أمر توبير النخل:" أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ فَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ دِينِكُمْ فَإِلَيَّ" وفي لفظ قريب منه في حديث عائشة، ﷺ:"كَانَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ؛ فَشَأْنُكُمْ، وَكَانَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ دِينِكُمْ فَإِلَيَّ "، مسلم: صحيح مسلم، رقم الحديث (٢٣٦٣)، أحمد بن حنبل: مسند احمد بن حنبل، رقم الحديث (٢٤٩٦٤).

ومن الأبعاد أيضاً أن المؤاخاة حققت هدفاً وبُعداً نفسياً واجتماعياً عميقاً، تمثل في إذهاب وحشة الغربة للمهاجرين، ومؤانستهم عن مفارقة الأهل والعشيرة، وشدّ أزر بعضهم بعضاً بإخوانهم من الأنصار، وعن هذا يقول السهيلي: "**آخى بين أصحابه حين نزلوا المدينة ليذهب عنهم وحشة الغربة، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشد أزر بعضهم ببعض؛ فلما ظهر الإسلام واجتمع الشمل وذهبت الوحشة، أنزل الله سبحانه:** ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾[٢] **أعْني في الميراث، ثم جعل المؤمنين كلهم إخوة فقال:** ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ **يعني في التواد وشمول الدعوة** "[٣].

ومن هنا كان السبب الاجتماعي في تخفيف حدة الغربة وما وقع على المهاجرين من آثار مفارقة الوطن عاملاً من عوامل إعلان المؤاخاة، فهي تؤدي إلى مواساة المهاجرين، وتجعل لهم أخوة يعتنون بهم، ويقومون بشؤونهم حتى لا تؤثر عليهم مفارقة الأهل والوطن، فيسرت بذلك للمهاجرين صلة وثيقة بأهل المدينة من الأنصار، وخففت من عزلتهم، ووسعت نطاق علاقاتهم، وأمنّت لهم ملجأً يعينهم على تخفيف الشدائد عنهم[٤].

من الأبعاد النفسية تطييب النبي ﷺ لنفسيات المهاجرين فقد كانت علائق وجودهم بالمجتمع الجديد حديثة؛ ففضلاً عن تركهم لأموالهم ودورهم وأرضهم مع اختلاف مُناخ مكة عن المدينة مما أصابهم بالوهن والحمَّى فكرهوا لأواءها وبقاءهم بها حدثت أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، أن بلالاً شكا وباء المدينة وحمَّاها حتى قال: "اللهم العن شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأمية بن خلف كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء" فدعا النبي ﷺ فقال:«**اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، اللهم بارك لنا في صاعنا وفي مدنا، وصححها لنا، وانقل حماها إلى الجحفة**»[٥].

=

(١) سورة المائدة، آية (٢).

(٢) سورة الأنفال آية (٥٧).

(٣) السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت٥٨١هـ): الروض الأنف، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، القاهرة، دار نصر للطباعة (د.ت)، ج٢، ص ٢٩٦.

(٤) العلي، صالح أحمد: الدولة في عهد الرسول، بغداد: مطبعة المجمع العلمي العراقي، ط١ عام ١٩٨٨م، ص٨٨.

(٥) العسقلاني: فتح الباري، شرح صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، ص١٢١، رقم الحديث (١٧٩٠).

ومن الأبعاد الاجتماعية المهمة أيضاً إزالة الفوارق الاجتماعية وإبدال ترّهات الجاهلية، ونزعات العصبية القبيلة بالأخوة الإيمانية، ففي الحين الذي أبطل ﷺ تلك العادات القبيحة المتأصلة رسَّخ عقيدة الإيمان ورابطة العقيدة وآصرة التآخي، وقوىّ وشائج المحبة بين أفراد هذه الجماعة المدنية المسلمة.

ومن الأبعاد الاجتماعية أن مبدأ التآخي رسم وأقرَّ مقام المصْطفى ﷺ في الناس، ومعرفة دور ما تركه من وحي في النشاط، والخُلق والحركة، والسلوك؛ لأن رسول الله ﷺ لم يستقبل الوحي ليبقى فكرة مجردة، وإنما حولها بالإيمان إلى طاقة عملية، وحركة شاملة في أعمال الناس وأخلاقهم وخلالهم، وصبغ المجتمع المدني وساسه بما شرع الله تطبيقاً عملياً وفعلاً سلوكياً لتتأسى به كل المجتمعات بعد ذلك.

وفي التآخي بين المهاجرين والأنصار تحقيق أقوى مظهرٍ من مظاهر عدالة الإسلام الإنسانية وأخلاقياته البناءة؛ فنرى أن الإسلام قد حقق العدالة الاجتماعية بين الأفراد، فحمَّل الغني مسؤولية ذوي الحاجة ليعينه عليها بما أنعم الله عليه وآتاه، ليس تفضلاً منْه ولا منَّة، وإنّما كرمٌ وعدلٌ وإحسانٌ وخُلُق إيمان.

ومن البعد الاجتماعي إلى بعدٍ أساسيٍ آخر ألا وهو:

– البعد السياسي.

إن من أولويات البعد السياسي لمسألة التآخي، أنّه يعتبر أعظم حدث حوّل مجرى التاريخ، وغيَّر مسيرة الحياة ومناهجها التي كانت تحياها، وتعيش محكومة بها في صورة قوانين ونظم وأعراف، وعادات وأخلاقيات وسلوك للأفراد والجماعات، إلى وحدةٍ جماعية واحدة متماسكة؛ فلقد أعد رسول الله ﷺ الأفراد وصقلهم في بوتقة الجماعة، وكوّن بهم قوةً واحدة لدرء أي خطرٍ يتعقبهم أو يحول دون تآلفهم.

ومن البعد السياسي في مسألة التآخي أنْ مثَّل مجتمع المدينة وحدة سياسية كانت تفتقدها، سواء بين القبائل العربية أو حتى قبائل اليهود، في الحين الذي كان جموع اليثربيين يتطلعون إلى مثل ما كانت عليه مكة والطائف من الوحدة السياسية والتنظيمات الإدارية. إذ شكلت مكة أهم مراكز السياسة والتجارة في شبه الجزيرة العربية، فضلاً عن الزعامة الدينية التي حظيت بها لوجود الكعبة بها، إضافة إلى وجود أكبر القبائل العربية وأعرقها فيها. والواضح أن جملة الفوارق بين مكة والمدينة من ناحية البيئة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ساعدت على تجذّر المسلمين فيها وعلى قيام وحدةٍ سياسية جديدة في مجتمعٍ طالما طالت أنظار القوم إلى مثله.

كذلك فإن لحقيقة مسألة التأخي في الإسلام، على مستوى البعد السياسي، أثراً في غاية الأهمية؛ فقد سعى المصطفى ﷺ لتكوين نسيجٍ مترابطٍ من المسلمين في وحدة جماعية متكاملة يتحركون فيها مستجيبين لأوامر

الرسول والرسالة كفردٍ واحدٍ في ظرف تعددت فيه الجهات المعادية ولم تتوقف عن دسائسها؛ يقول المصطفى ﷺ- في الحديث الذي رواه علي، رضي الله عنه: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، ألا لا يقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عهد بعهده، من أحدث حدثاً فعلى نفسه، أو آوى محدثاً، فعليه لعنة الله والملائكة، والناس أجمعين**»[1] وشاهد ذلك قوله ﷺ: «**وهم يدٌ على من سواهم**».

كذلك من الأبعاد السياسية تناقل الخبرات التنظيمية ووسائل المقاومة والصمود والتجربة الإيمانية، وقد عانى الأوس والخزرج ويلات الحرب وتمرسوا في معرفة أسرارها وكيدها، فلربما كانت المؤاخاة مدعاةً لتشارك الأنصار مع إخوانهم من المهاجرين لتناقل خبرات القتال، ومزاولة نشاط الحرب، وممارسة فنون القتال في أرض الجهاد وساعات الوغى ضد أعداء الإسلام بعد ذاك.

وأيضاً إن في الوحدة الجماعية الإسلامية بين المهاجرين والأنصار إشعارًا للعدو بالقوّة الإسلامية للدفاع عن أنفسهم، وصد عدوان أعدائهم، وإشعار المسلمين بمسؤولية الذود عن حياض الدين وفق قيم تعاليم هذا التشريع العظيم بعيداً عن الروح القبلية والعنصرية.

ومن أبعاد المؤاخاة السياسية وجود الجهاز الإداري (الطبقة السياسية من الصحابة الكرام) من النقباء الاثني عشر من زعماء الأنصار، ومن أصحاب الرأي والمشورة للرسول، ﷺ في الدولة الإسلامية (كبار الصحابة من السابقين الأولين في الإسلام)، وهؤلاء من كان لهم شرف تحمل أمانة مسؤولية الدولة بمعية قائدهم ورسولهم نبي الله ﷺ.

وخلاصة القول: إن مسألة المواخاة وضعت كلاًّ من الأنصار والمهاجرين أمام مسؤولية خاصة من التعاون والتناصر والمؤانسة، بسبب مفارقة المهاجرين لأهلهم، وتركهم ديارهم وأموالهم في مكة ونزولهم ضيوفاً على إخوانهم الأنصار في المدينة، فكان من إقامته ﷺ لمسألة التآخي بين أفراد المهاجرين والأنصار ضمانة لتحقيق هذه المسؤولية، ولقد كان من مقتضى هذه المسؤولية أن يكون هذا التآخي أقوى في حقيقته وأثره من أُخوة النسب والرحم المجردة، فلما استقر أمر المهاجرين في المدينة وتمكن الإسلام فيها، غدت الروح الإسلامية هي وحدها العصب الطبيعي للمجتمع الجديد.

(١) ابن حنبل: مسند أحمد بن حنبل، ج١، ص ١٢٢.

ولقد قدم هذا المجتمع المتآخي المسلم والموحد صورة فريدة في دنيا الناس، لم تُسبق، ولم تُلحق، إذ صنع من الضعفاء قوة، ومن الفقر غنى، ومن التشرذم والضياع رجالاً عرفوا الحقيقة، وتمسكوا بها، فعاش الحق لهم وسار بهم، وصاروا أمثولة رائعة، ومثالاً تجريبيًا يرسم المعنى الحقيقي للتآخي لمن يريد حياة الكرامة والعزة والرقي[١].

ثانياً: آثار ونتائج التآخي بين الطرفين.

لا عجب أن جاءت نتائج هذا البرنامج حسب مقدماته: مادية ومعنوية شاملة واسعة رسمياً وشعبياً، فردياً واجتماعياً، على النحو التالي:

أ- الآثار والمعاني المادية للتآخي.

إن مسألة التآخي من أهم الدلالات السياسية والتربية العقدية التي مارسها النَّبي ﷺ في بناء وتوطيد روح الجماعة وإعلاء رأي الأمة، وأكثر من ذلك إذ هي وسيلة وأداة وخطوة لقيام الدولة؛ فلقد قام المجتمع المدني على أساس الحب والتآخي[٢] مصداقاً لقول الباري في الآية: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾[٣].

فكان التآخي إذن عقدًا تاريخياً سياسياً واجتماعياً حقيقياً -لا افتراضياً- لتأسيس الدولة الإسلامية الأولى في التاريخ[٤]، ونقطة تحولٍ كبيرٍ في تاريخ الإسلام كحجر الزاوية في بناء تلك الدولة، والأساس الذي قامت عليه وتقوم عليه كل الحكومات السياسية فيما بعد[٥].

(١) غلوش، أحمد: السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني، مرجع سابق، ج١، ص ٢٨.

(٢) لم يكتف الإسلام بإعلان أخوة المسلمين، ولم يرض رسول الله ﷺ بالأخوة وحدها رباطاً يشد به قلوب المؤمنين، فقد تكون مع الأخوة عداوة وبغضاء، فكثيراً ما تقع الخصومة والخلاف بين الإخوة، فكان لابد من إيجاد علاقة تكون أساسا لتلك الأخوة فكانت المحبة أساس التآخي، ولقد نمَّى الرسول ﷺ ذلك وجعله مناط تنافس؛ جاء عند البخاري عنه ﷺ :"ما تحاب اثنان في الله تعالى إلاكان أفضلهما أشدهما حباً لصاحبه".انظر الأدب المفرد حديث (٢٥٦).

على أن بقية أسس بناء المجتمع المدني بعد التآخي والتحاب تكمن بالعدالة والمساواة؛ وعليها بنى الإسلام الأمة التي دانت به، ووضع أساس حضارة قائمة على دعائم روحية ثابتة؛فالأخوة شاملة لا تختص بجماعة دون جماعة، فالمسلم أخو المسلم، والمحبة هي الوشيجة التي تربط بين قلوب المسلمين، والعدالة هي أساس التعامل بينهم، والمساواة حق من حقوقهم، انظر الوكيل: المدينة المنورة عاصمة الإسلام الأولى، ج٢، ص ٢٢.

(٣) سورة الحشر آية (٩).

(٤) الطهطاوي، رفاعة: الأعمال الكاملة، تحقيق مُحَّد عمارة، (د.م)، بيروت، عام ١٩٧٧م، ، ج٤، ص ١٥٩.

(٥) الريس، مُحَّد ضياء الدين: النظريات الإسلامية، ط ٣، مكتبة الأنجلو المصرية، عام ١٩٦٠م، ص ١٧، ١٦.

مثَّل التآخي لبنة للترابط الشديد واللُحمة القوية بين أفراد الجماعة المسلمة كترابط لبنات البناء المرصوص؛ فالمسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا[١].

ومن المعاني أن أدى التآخي إلى ظهور السلطة السياسية والموحدة والمستقلة في المجتمع الإسلامي المدني، بل يمكن القول بأن مسألة التآخي قد حققت عناصر نشأة الدولة[٢] الأربعة (الإقليم، والشعب، والقائد، والمنهج)، وهكذا انتقلت الجماعة المسلمة المنظمة القوية إلى المدينة، والتحمت مع إخوانها الأنصار، وتشكل المجتمع المسلم الذي أصبح ينتظر قائده الأعلىﷺ ليعلن ولادة دولة الإسلام، التي صنعت فيما بعد حضارة لم يعرف التاريخ مثلها حتى يومنا هذا. بل وإن مسألة التآخي جعلت المهاجرين والأنصار يشكلون النواة المركزية للأمة التي تعمل على تحقيق أهدافها والجهاد في سبيلها[٣].

ومن الأثار والمعاني الحسية والمادية الملموسة للتآخي تحقيق قوة الدولة، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، وقد تم الإشارة إلى ذلك في دراسة أبعاد التآخي.

ومن الأثار المحسوسة أيضاً انتشار العلم في المدينة، ولا سيما العلم الشرعي والتفقه في الدين بين جماعة المسلمين[٤].

(١) سالم، عطية مُحَّد: مجموعة الرسائل المدنية، دار الجوهرة، المدينة المنورة ١عام ١٤١٦هـ، ج٢، ص١٤٨. والحديث سبق تخريجه.

(٢) من الملاحظ أن الرسول ﷺ لم يستخدم مصطلح (دولة) لوصف السلطة الناشئة في المدينة، وإنما استخدم مصطلح أمة الذي يحمل معنى أوسع من معنى دولة، أما مصطلح دولة فقد استعمل في العصور الإسلامية التالية بمعنى الأسر الحاكمة نحو قولهم دولة، بني أمية ودولة بني العباس، الهلابي، عبد العزيز، والملاح، هاشم يحي: الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، عام ٢٠٠٥م، مج ٢، الإسلام وبناء الدولة العربية، ص ١٣٩.

(٣) الهلابي والملاح: الكتاب المرجع في تاريخ الأمة، المرجع السابق، مج٢، ص ١٣٩.

(٤) ذكر البلاذري أن الذين كانوا يقرؤون ويكتبون من الأنصار لما دخل الإسلام المدينة أحد عشر رجلاً، وأن الذي كان يجمع الرمي والعوم مع الكتابة يسمى الكامل " البلاذري: فتوح البلدان، ص ٤٥٩.

ولعل أبرز ما عني به الرسول الأعظم لبناء الدولة نشر العلم والمعرفة؛ ولا عجب إذا كانت أول آيات الوحي (اقرأ)، وجعل، عليه السلام، فداء أسرى بدر الذين يحسنون الكتابة أن يعلم كل واحد منهم عشرة من المسلمين، وأمر رسول الله ﷺ عبد الله بن سعيد بن العاص أن يعلم الناس الكتابة بالمدينة، وكان عبادة بن الصامت يساهم في تعليم المسلمين ولا سيما أهل الصفة الكتاب والقرآن، وبذلك انتشرت الكتابة بين المسلمين حتى بلغ عدد كتابه، عليه السلام، اثنين وأربعين رجلاً، الكتاني: التراتيب الإدارية، ج١، ص٤٩.

والجميل في مسألة التآخي أن له أثراً مادياً تمثل بالإيثار ليس على المستوى الفردي وإنما على المستوى الجماعي كذلك[١]، وليس في العهد النبوي فحسب بل سجل لهم القرآن الكريم هذه السجيَّة وحُفظت لهم كمفخرة باقية خالدة إلى الأبد ودرساً لمن بعدهم من الأجيال ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[٢] فلقد امتدت معهم هذه الروح إلى ما بعد حياة الرسولﷺ وبقي أثر المؤاخاة معهم يصحبهم في حلهم وترحالهم[٣].

أن مسألة التآخي ميزت حقيقة الإيمان، وبينت أهل النفاق والخذلان، يقول المولى ﷻ: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾[٤].

ومن الآثار المادية المحسوسة تنمية جوانب الإبداع والمهارات المعنوية والحركية لدى الصحابة الكرام، ﷺ، فعلى هذا الأساس والمنهج من التنمية والإفادة شرعت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار كي تنمي المهارات والقدرات والمواهب لدى الجيل القرآني الفريد، فعمل النبي ﷺ على الجمع بين الشخصيات المتشابهة والمتقاربة في الميول والأفكار، فتعززت المهارات وصقلت المواهب وسمت الأخلاق لدى الصحابة، رضوان الله عليهم جميعاً؛فمن خلال الجمع بين المتماثلين في المواهب، انتجت بيئة ومناخاً لتطوير هذه المهارات من خلال الانسجام التام بين الأفراد؛ فقد جمع النبي ﷺ **صفات الشجاعة والإقدام والحرص على الجهاد** بين العديد من

(١) أورد البيهقي في الشّعب عن عبد الله بن عمر قال: " أهدي لرجل من أصحاب رسول الله رأس شاة فقال: " إن أخي فلاناً وعياله أحوج إلى هذا مني فبعث به إليه، فقال الآخر: إن أخي فلاناً وعياله أحوج إلى هذا مني فبعث به إليه، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها سبعة بيوت حتى رجعت إلى الأول" شعب الإيمان حديث رقم (٣٧٨)، فهذه بيوت سبعة لا يدري بعضها عن بعض، ربطت بينهم الأخوة الإسلامية فأنتجت هذا الإيثار حتى انطلقت الهدية فطافت عليهم جميعاً حتى انتهت إلى حيث بدأت.

(٢) سورة الحشر الآيات (٩، ١٠).

(٣) يخبر عن ذلك عكرمة بن أبي جهل في غزوة اليرموك في عهد الصديق ١٥هـ /٦٣٦م بين المسلمين والروم قال: قاتلت رسول الله ﷺ في مواطن وأفرُّ منكم اليوم؟! ثمَّ نادى: مَن يبايع على الموت؟ فبايعه عمُّه الحارث بن هشام، وضرار بن الأزور في أربعمائة مِن وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا قدَّام فسطاط خالد حتى أُثْبِتُوا جميعًا جراحًا، وقُتِل منهم خلقٌ، منهم ضرار بن الأزور –ﷺ– فلمَّا صرعوا مِن الجراح استسقوا ماء، فجيء إليهم بشربة ماء، فلمَّا قربت إلى أحدهم نظر إليه الآخر، فقال: ادفعها إليه. فلما دُفِعَت إليه نظر إليه الآخر، فقال: ادفعها إليه. فتدافعوها كلُّهم – مِن واحد إلى واحد– حتى ماتوا جميعًا ولم يشربها أحد منهم، ﷺ، أجمعين، ابن كثير: البداية والنهاية الجزء السابع.

(٤) سورة التوبة، آية (١٠١).

الذين عقدت المؤاخاة بينهم، ولعل ذلك مما يؤكد نجاح المؤاخاة في تنمية حب الجهاد والحرص على الشهادة[١]، فمن الذين آخى بينهم النبي ﷺ ولقوا الشهادة مقبلين غير مدبرين، الصحابي الجليل عثمان بن شماس[٢] وحنظلة بن أبي عامر الراهب، رضي الله عنهما[٣]، اللذان استشهدا في معركة أُحد[٤].

كذلك آخى ﷺ بين المتشابهين من الصحابة **في الجانب الإداري والقيادي** فكان ممن وجد ﷺ بحنكته أنهما خليقان بالإمارة والقيادة ولديهم قدرات إدارية الصحابي الجليل زيد بن حارثة، الذي آخاه ﷺ مع الصحابي الجليل أسيد بن حضير الأنصاري، فزيد كان يعده ﷺ ليكون قائداً فذاً، ويربيه ليكون أميرًا، وهو يرى فيه خصائص الإمارة خليقاً وجديرًا بها[٥]، وشاهد ذلك قوله ﷺ «**وأيم الله إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان من أحب الناس إلي**»[٦] فما أرسل النبي زيد بن حارثة في سرية إلا وكان زيدٌ قائدها لما يدل على قوته وشجاعته ومهارته، أما أسيد بن حضير فقد كان قديم الإسلام شهد العقبة الثانية، وفيه تقول أم المؤمنين: "**ثلاثة من الأنصار لم يكن أحدٌ يعتد عليهم فضلاً كلهم من بني عبد الأشهل: سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير وعباد بن بشر**"[٧].

وكما جمعت صفات الشجاعة بين الصحابة جمعت صفات أخرى بين آخرين، منها الكرم والسخاء حتى عُرف العديد من الصحابة بالجود، مما يدل على أن المؤاخاة ليست عملية اعتيادية، بل عملٌ إبداعي نمّى المهارات والقدرات التي تميز بها الصحابة.

ومن أبرز الذين جمعت بينهم المؤاخاة وكانوا قد عرفوا بالكرم والجود وعرفوا بالعطاء والسخاء، وكانوا نماذج للخير طلحة بن عبيد الله الصحابي الأنصاري، وكعب بن مالك اللذان ضربا مثلاً في الكرم حتى

---

(١) صالح، محمد العلي: الرسول ﷺ تنمية الإبداع من خلال المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، كلية الآداب، جامعة الموصل، ص ١٣.

(٢) عُثْمَانُ بنُ شَمَّاس بن لَبِيد المِخْزُومِي، مهاجري، شهد بدرًا، وقتل يوم أُحد كان من أَحسن الناس وجهًا، قتل يوم أُحد شهيدًا، وكان يقي رسول الله ﷺ بنفسه. ابن الأثير: أسد الغابة، ج٣، ص ٥٧٢.

(٣) حنظلة بن أبي عامر الأنصاري الأوسي هو حنظلة الغَسِيل، سبقت ترجمته في الفصل الأول.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٣، ص ٨٦، والعسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ج٢، ص ٢٨٧.

(٥) صالح، محمد العلي: الرسول ﷺ تنمية الإبداع من خلال المؤاخاة، مرجع سابق، ص١٥.

(٦) أخرج البخاري في صحيحة عن عبد الله بن عمر" بعث النبي بعثاً وأمَّر عليهم أسامة بن زيد فطعن بعض الناس في إمارته فقال:" إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنوا في إمارة أبيه من قبل، إلى تتمة الحديث، البخاري: صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب زيد بن حارثة، ج١٥، ص ٢٣٢.

(٧) مسلم: الصحيح، ج٣، ص١٥١٠.

عُدّت تجربتهما نموذجاً فريدًا بين عمق الإيمان والمحبة[١]، فأما الأول فقد قال عن نفسه: "**سماني رسول الله يوم أحد طلحة الخير، وفي غزوة ذي العشيرة طلحة الفياض ويوم حنين طلحة الجود**"[٢]، وأما الثاني فأبرز ما ورد في جوده أنه تنازل عن شطر دَيْنه لأبي حدرد الأسلمي له بسبب إشارة النبي ﷺ له[٣].

وجمعت كذلك صفات العلم والتمسك بالهدي النبوي وحسن الخلق والفقه والزهد بالدنيا بين العديد من الصحابة الذين عقدت بينهم المؤاخاة. فمن أولئك جعفر بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، رضي الله عنهما، ففي وصف جعفر قال ﷺ:" **أشبهت خَلقي وخُلقي**"[٤] ويكفي في معاذٍ وصف ابن مسعود له بأنه كان: **أمةً قانتاً لله حنيفاً وكان من أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً، وأسمحهم كفاً**"[٥]. أوعن قول جابرٍ بن عبد الله، ﷺ: "**كان من أحسن الناس وجهاً، وأحسنهم خلقاً، وأسمحهم كفاً**"[٦].

ومن جملة الآثار المحسوسة كذلك في المؤاخاة توالي نزول بعض الآيات الكريمات في الثناء على المهاجرين والأنصار، وإعلاء شأنهم في طرفٍ من آيات سورة التوبة، يقول المولى ﷻ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٧] وكذلك في آيات الحشر قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٨].

سجلت من خلال المؤاخاة مآثر هؤلاء الأنصار على مداد أسطر التاريخ بمدادٍ من نور وكان حب الأنصار دلالة الإيمان؛ فقد روى الشيخان في صحيحيهما عن أنس بن مالك، ﷺ، قال: قال الرسول ﷺ: «**آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار**»[٩].

---

(١) صالح: الرسول وتنمية الإبداع، مرجع سابق، ص ١٨.

(٢) البخاري: صحيح البخاري، ج٧، ص٩٦. وانظر ابن الأثير : أسد الغابة، ج، ٢، ص٤٤.

(٣) مسلم: صحيح مسلم، ج٣، ص ١١٩٣.

(٤) البخاري: صحيح البخاري، ج٧، ص٦٢٥.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء مصدر سابق، ص١٠٥.

(٦) البيهقي: السنن الكبرى، ج٦، ص٨٣.

(٧) سورة التوبة آية (١١٧).

(٨) سورة الحشر آية (٩).

(٩) والأحاديث في هذ الجانب كثيرة. والحديث للبخاري في صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة الايمان حب الأنصار رقم =

ب-الآثار والمعاني المعنوية للتآخي.

إن من أبرز الآثار والنتائج المعنوية للتآخي تحقيق وحدة الأمة؛ ذلك الأثر المعنوي الذي يتمثل بقوتها في جميع جوانب الحياة المختلفة، ولا سيما في الجانب السياسي والجانب الاجتماعي، ففي الحديث عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال ﷺ «**المسلمون تتكافأ دماؤهم يسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم وهم يدٌ على من سواهم، يرد مشدهم على مضعفهم، ومتسريهم على قاعدهم لا يقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عهد في عهده**»[1] هذه الوحدة الجماعية أدت إلى قوة المسلمين واتحادهم وإضعاف شوكة اليهود أعدائهم، ومن ثم مواجهتهم إما بالطرد أو الإجلاء أو بعض الإجراءات، فضلاً عن الحماية لهذا الدين القويم، وإتاحة حرية نشره في الأرض.

وأما من الجانب الاجتماعي فيمكن القول:إن التآخي قد مكَّن لنهوض الدولة الجديدة؛ لأن أي دولة لا يمكن أن تنهض وتقوم إلا على أساس من وحدة الأمة وتساندها، ولا يمكن لكل من الوحدة والتساند أن يتم بغير عامل التآخي والمحبة المتبادلة، فكل جماعة، لا تؤلف بينها آصرة المودة والتآخي الحقيقية، لا يمكن أن تتحد حول مبدأ ما، وما لم يكن الاتحاد حقيقةً قائمةً في الأمة أو الجماعة فلا يمكن أن تتألف منها دولة[2].

ومن الأثار المعنوية انتقال الدعوة الإسلامية إلى جديد التنظيم الإداري والسياسي النبوي؛ مما مكَّن للمسلمين من الاستقلالية في دينهم وطرائق معاشهم في وطنٍ واحدٍ يجمعهم ويخصهم بنبيٍ خَاتمٍ يسوسهم.

وكذلك فيه من الآثار المعنوية تحقيق العهد والميثاق بالنصرة والمنَعة للنَّبي ﷺ ولدعوته من لدن المسلمين بمهاجرهم وأنصارهم كافة الذين عاهدوه ﷺ على الأحمر والأسود، وعاهدهم ﷺ الدم بالدم. ففي التآخي من المعاني إرادة التجّمعِ بين مسلمي مكة ومسلمي المدينة في دولة آمنه لنشر دين الله، وإحكام شرعه، ولملاقاة العدو في دار الحرب ودحره.

ومن معاني التآخي، كأثرٍ معنوي على النواحي الرسمية، أنَّ تلك الآثار والروح الأخوية لم تكن ثَمة عواطف شعبية وتبادل شعور فردي فحسب، بل كان لها آثار رسمية في مجال الدولة والمسؤولية.

=

الحديث (١٧) ومسلم في صحيحه، كتاب الايمان، باب الدليل على أن حب الأنصار من الايمان رقم (٧٤).

(١) أبو داود: السنن، كتاب الجهاد، باب في السرية ترد على أهل العسكر، ص٢٧٥١. وقال الألباني:"حسن صحيح "، إرواء الغليل، ص (٢٢٠٨).

(٢) البوطي: فقه السيرة النبوية، مكتبة الدعوة، القاهرة، عام ١٣٩٨هـ، ص ١٥٧-١٥٨.

وفيه أيضاً إدراك أمانة مسؤوليته وجهده ﷺ لإدارة دولته، والإيمان المطلق بأنه مؤيد من الله بما يوحى إليه، وكذا الإلمام بالأسلوب العملي والعلمي الذي انتهجه، عليه السلام، لمواجهة تحديات ومشكلات الهجرة والتنوع السكاني.

وفيه كذلك استيعاب جوانب الإبداع الإداري النبوي في استفادته ﷺ بحكمة وحنكة من أوضاع المدينة قبل الهجرة في كل جوانب الحياة العامة ومناحيها لتحقيق أهداف الدعوة وإقامة الدولة.

ومن المعاني والأهداف كذلك إدراك عمق قوة العقيدة الإيمانية التي غذت نفوس معتنقي هذا الدين ومكنتهم من نصرة عقيدة التوحيد بالنفس والروح والمال.

وأمرٌ مهمٌ هو تحول مظاهر الحياة، وكل الأنشطة وسائر المؤسسات في المجتمع المدني إلى شريعة إسلامية تتحرك مع الناس وبهم في صورة عملية تعبر عن دين الله تعالى، وتؤكد التفاعل العظيم بين تعاليم الله وبين المؤمنين الصادقين[١]؛ وذلك نتيجة لانتشار التعليم والفقه في الدين، كأثرٍ حسيٍ ماديٍ، وتطبيقه عمليًا ومعنويًا.

ومن المعاني والآثار إدراك أن التكافل الاجتماعي كان من أهم العناصر التي مهدت لإقامة رسول الله ﷺ وصحابته المهاجرين معه، إقامة طيبة، تنبض بالإيثار على النفس، وبود الأخوة الصادقة المؤمنة[٢].

وفيه من النتائج تهيئة المسلمين نفسياً وتربيتهم سلوكياً على التضحية والإيثار للانفتاح على العالم لنشر رسالة الإسلام والجهاد في سبيل الله، وإذا كانت الهجرة تمثل انتقالاً من أرض الكفر إلى أرض الإيمان، وإعادة إحياء النفس والحياة من جديد في بيئة آمنة؛ ومع ذلك فإن نفوساً تاقت إلى العلياء لتبذل نفسها رخيصة هينة في سبيل الله، فكما كانت الهجرة إلى الحبشة دُربة على فراق كل غال فإن من أبعاد الهجرة للمدينة وجوانبها المعنوية والحسية التربية النفسية والبدنية دربةً على الجهاد في سبيل الله.

ومن النتائج المعنوية أن أثّرت هذه المعاملة الكريمة في نفوس المهاجرين فلهجت ألسنتهم بكرم الأنصار؛ فعن أنس ﷺ، قال، قال المهاجرون: **"يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلاً من كثير، لقد كفونا المؤونة، وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله قال:«لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم»**[٣].

(١) غلوش، أحمد أحمد: سلسلة تاريخ الدعوة، ج١، الدرس١٦.

(٢) الصلابي: السيرة النبوية، عرض وقائع وتحليل أحداث، ج١، ص٢٦١.

(٣) الترمذي: السنن، ج٤، ص٦٥٣.

ولعل من أبرز النتائج الشعبية، وهي آخر ما نختم به، أن مجتمع المدينة الإسلامي وصل إلى مالم تصله الإنسانية في أيّ مجتمع مثالي في تاريخها الطويل، فكان مسرحها هذه المدينة وأبطالها وشخوصها أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار، فظلت حلقاتها إكليلاً في جيد الزمان وتاجاً في جبين التاريخ[١].

والخلاصة أن القرآن الكريم صوَّر النتيجة المزدوجة (المادية والمعنوية) للتآخي بقوله ﷻ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾[٢] فقد أنتجت هذه الأخوة في الله تلك الرحمة بين الجميع مما أكسب المجتمع العطف ولين الجانب وحبّ الخير للآخرين، كما جعلتهم يلتف بعضهم حول بعض التفاف شطء الزرع حول أصله؛ مما يكسب المجتمع الترابط والتماسك والقوة الحسيّة التي تغيظ الكفّار. ومجتمع سَادتْه الرحمة فيما بينهم، وتوفرت له القوة على عدوهم، كان جديرًا بالسيادة وقيادة العالم، وبالفعل وصلت الرحمة بينهم إلى حد الإيثار على النفس، ووصلت قوة الترابط إلى حد الإطاحة بعرشي كسرى وقيصر[٣].

وهكذا كانت المؤاخاة عملاً إبداعياً جمع بين المهاجرين والأنصار لمواجهة تحديات بناء الدولة الإسلامية الأولى، وفيه تمكن المسلمون من بناء مجتمعٍ قائمٍ على دعائم ثابتة من أبرزها الحب والتعاون والإيثار؛ فانعكست آثارها الايجابية على النجاح الكبير الذي تحقق خلال العهد المدني للدعوة الإسلامية في كل الجوانب، وأخيرًا فإن المؤاخاة التي شرعت بين المؤمنين باقية لم تنسخ سوى ما يترتب عليها من توارث فإنه منسوخ، وبوسع المؤمنين في كل عصر أن يتآخوا بينهم أخوّة إيمان قائمة على المواساة والارتفاق والنصيحة.

(١) سالم، عطية محمد: مجموعة رسائل المدينة، مرجع سابق، ج٢، ص١٤٨.

(٢) سورة الفتح آية (٢٩).

(٣) سالم: مجموعة رسائل المدينة، ج٢، ص١٤٨-١٤٩.

المحور الثاني: المسالمة بين الأوس والخزرج.

– نظرة تاريخية مجملة حول قبيلتي الأوس والخزرج في الجاهلية والإسلام.

يتفق المؤرخون على أن الخزرج والأوس قبيلتان مشهورتان عظيمتان من العرب في يثرب تذكران غالباً معاً فيقال الأوس والخزرج، لكن غلب اسم الخزرج لكثرتهم، والأوس والخزرج كلاهما ابنا حارثة بن ثعلبة وعرفوا جميعاً(ببني قيلة)، (وقيلة) بنت كاهل:هي الأم التي تجمع القبيلتين، ولذلك يقال لهما ابنا قيلة، وأصلهم قحطانيون خرج جدهم من اليمن بعد تفرّق أهل سبأ بسيل العرم إلى يثرب[١]، وعندما وصلتا إلى يثرب أعجبتا بما فيها من أرضٍ خصبةٍ وينابيع ثرة، والعجيب أن يهود المدينة قد سمحوا لهم بالنزول قريباً منهم؛ ولعل ذلك لحاجتهم إلى الأيدي العاملة لاستثمار الأراضي[٢] وسرعان ما تحسنت أحوالهم، وتنظمت أوضاعهم فتوجس منهم بنو يهود وخافوا منافستهم فتداعى عقلاء الطرفين إلى عقد حِلفٍ ومعاهدة يلتزمان فيها بالسلام والتعايش والدفاع عن يثرب إزاء الغزاة، فتحالفوا على ذلك والتزموا به مدة زمانٍ، ازداد خلالها عدد الأوس والخزرج ونمت ثرواتهم، ففسخ هنالك اليهود الحلف الذي بينهم ونبذوه وقتلوا عدداً من أفراد القبيلتين وعملوا على إذلالهم، إلى أن كان خلاصهم (اليهود) بالغساسنة[٣].

فعادوا إلى الوفاق وعاشوا فترة أخرى حياة متوازنة[٤]، إلا أن ذلك لم يدم إذ إن توسع هؤلاء العرب بالمزارع

(١) وانظر ابن الأثير، علي بن مُحَمَّد الجزري: الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفداء القاضي، دار الكتب العلمية، ط١عام ١٤٠٧، ج١، ص٤٠١.

ويثرب: تعد أم قرى المدينة قبل نزول الأوس والخزرج فيها، وكان بها معظم اليهود النازلين فيها على عهد العماليق، وتقع تحديدا ما بين طرف قناة إلى الجرف وما بين المال الذي يقال له البربي إلى زبالة شمالي جبل سلع إلى قرب وادي قناة، السمهودي: الوفا ج١، ص١٥٩.

(٢) وانظر الملحق رقم (٤) في مخطط توزيع سكان يثرب.

(٣) بقي الأوس والخزرج على تلك الحال إلى أن ظهر فيهم (مالك بن العجلان) الذي استنجد بأبناء عمومته، الغساسنة في الشام، فاستجابوا له وأرسلوا جيشاً بقيادة أبي جبيلة فنزل سفح جبل أحد وكسر شوكة اليهود، وقتل منهم ثلاثمائة وخمسين رجلاً، ولعل في ذلك كسراً لشوكة اليهود، وضمانا لعدم اتصالهم بيهود اليمن، وللمزيد انظر السمهودي ج١، ص١٨٢.

(٤) كانت يثرب واحة خصيبة التربة من أمهات المراكز الزراعية، فهي واقعة على طريق القوافل التجارية التي تحمل الطيوب بين اليمن والشام، وذلك ما جعلها مطمعاً للقوى المنافسة إذ كانت محطة تجارية هامة ومركزاً اقتصادياً مرموقاً في مجال الصناعة والتجارة وهو ما كان يحرك روح العداء ويثير الحروب، سواء أكانت بين العرب واليهود من جهة، أو بين الأوس والخزرج أنفسهم، انظر ابن إسحاق السيرة النبوية، ج٣، ص٧٨٨، وج٢، ص ٣٠٠.

وبناء المنازل والآطام في سائر أنحاء (يثرب)[١] دعا باليهود أن جددوا غدرهم ونبذوا حلفهم وخططوا استعادة سلطانهم، فبيتوا المكر وعمدوا إلى الدس والحيلة والتفريق بين القبيلتين بعضهم مع بعض، ونجح كيدهم فأشغلت القبيلتين بحروب ضارية ومعارك طاحنة وأيام قتال مريرة[٢]. فتارة كان النصر فيها للخزرج وأخرى للأوس، وكان الظفر في أكثرها للخزرج، ثم إن يهودًا قد وجدوا أن في استمرار ذلك النزاع بين القبيلتين فرصة لبقائهم بيثرب فأعادوا التحالف معهم، وجعلوا كل قبيلة منهم تحالف واحدة من القبيلتين الأوس والخزرج تمهيداً لإيقاع الفتنة بينهم، فتحالف بنو النضير وبنو قريظة مع الأوسيين، وتحالف بنو قينقاع مع الخزرجيين، وبدأت كل فئة يهودية تسعّر النار في حليفتها على الطرف الآخر وتذكي العداوة والشقاق بينهما، حتى أُشعل فتيل نار الحرب الضرماء من جديد واستمرت قرابة مائة وعشرين عاماً، و قد بلغت العداوة بينهما مبلغاً عظيماً قبيل الهجرة، ولم تنته حتى جاء الإسلام فأطفأها.

على أن أولى المعارك بين الأوس والخزرج بدأت بحرب سمير وانتهت بحرب بعاث[٣] سنة ٦١٦م أي قبل الهجرة بخمس سنوات. وهزم فيها الخزرج[٤]. فلما سئموا القتال أجمعوا على تتويج عبد الله بن أبي ابن سلول ملكاً عليهم. ولعلهم أرادوا بذلك الوحدة السياسية التي تاقت نفوس أفراد المجتمع إليها منذ القدم وهم يتطلعون لها بُغية تقوية نفوذ يثرب في جانب الوحدة السياسية وجانب القوة الاقتصادية والتي تبوأت به مكانتها المرموقة في الصناعة والتجارة؛فكانت من أعظم أقاليم الحجاز شهرة بذلك إذ ذاك.

والحقيقة إن هذا التتويج لابن سلول قد انتهى بقدوم النبي ﷺ ليثرب إذ سارع الأوس والخزرج للدخول بالإسلام بل وقبول سيادة النبي، عليه السلام عليهم[٥]، فهم يطمحون بزعامة سيد قومٍ يقتحم الخصام الذي

(١) السمهودي: الوفا، ج١، ص١٦١.

(٢) منها حرب سمير، وحرب كعب بن عمرو، وحرب يوم السرارة، وحرب يوم الديك، وحرب يوم فارع، وحرب يوم الربيع، وحرب حضير بن الأسلت، وحرب حاطب بن قيس، وحرب يوم بعاث. وللمزيد عن تلك المعارك انظر إبراهيم شمس الدين: مجموع أيام العرب والإسلام من منشورات دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ص١١٤–١٣٠.

(٣) بُعاث: (بضم أوله وبالعين المهملة والثاء المثلثة) موضع على ليلتين من المدينة النبوية فيها كانت الوقيعة واليوم المنسوب إليها بين الأوس والخزرج قبل الإسلام، الحميري، ابن عبد المنعم أبو عبد الله مُحَّد الحِميرى (ت٩٠٠هـ): الروض المعطار في خبر الأقطار تحقيق: إحسان عباس مكتبة لبنان ط٢– ١٩٨٤م، ص١٠٩.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج١، ص١٨وص١١٧ وما بعدها.

(٥) لقد اعتبر يوم بعاث يوماً قدمه الله لرسوله ﷺ في دخول الأوس والخزرج الإسلام، ولا سيما وقد افترق ملؤهم وقتلت سراتهم، أضف إلى ذلك إرادتهم السبق في دخول الإسلام عن اليهود الذين ما برحوا يستفتحون عليهم بظهور نبي يتبعونه ويقاتلونهم به، كما أن التنافس والتفاخر القبلي بين الحيين جعلهم يتسابقون في الدخول في الإسلام ونصرة نبي الأنام؛ =

قسمهم إلى معسكرين، ويقضي على الفوضى السائدة بينهم، خصوصاً وأنه كان رجلاً حيادياً لم يغمس بالخصومة المحلية القائمة بينهم[١]؛ ولذا قالوا: "**إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك**"[٢] بيد أن ابن سلول حسد النَّبي ﷺ إذ منع التتويج فأخذته العزة وأضمر الشر، ودبر المكائد العظام، وقصصه في هذه الناحية كثيرة جداً مما حكاه القرآن، وروته شواهد السيرة وأحداثها.

على أن أهم سؤال يبتدر الأذهان هو متى وقعت المسالمة تاريخياً، وكيف تمت فعلياً؟

استنادًا إلى وقائع التاريخ ودروس السير فلم تحدد الكيفية الفعلية لمسألة المسالمة بين الأوس والخزرج، ولم نقف على الفترة التاريخية لهذا الحدث ولم يعن المؤرخون على تخصيصها بموضوع مستقل ومنفرد كما هو الحال في موضوع المؤاخاة فلم تفصّل أحداثها، ولم تؤصّل شواهدها إلا بنحوٍ يسير، وقد أتت ضمنياً بإشارات مجملات في الحديث عن المؤاخاة، أو في مثل واقعة بُعاث وأيامِ العرب في الجاهلية وما جرى فيها من ثارات وخصومة.

والواقع، ومن خلال استقراء مصادر المؤرخين المعتمدة، نجد أن مسألة المسالمة في الحقيقة كانت بين قبيلتين كبيرتين، هما قبيلتا الأوس والخزرج، وكانت قبيلة الخزرج تفوق الأوس عددًا (بقرابه ثلاثة أضعاف) وكانت صعوبة الأمر أن يسالم ﷺ بين طائفتين، وأن يصهر فيما بين القبيلتين في كيان واحد في رابطة موحدة قوية لربما كانت ضماناً لحماية المدينة من الداخل، ودفاعاً عنها من عداءات الخارج، ولا سيما ودماء القوم لازالت تنزف من ويلات بُعاث، وما فتئت أعين القوم تقطُر أسفاً على قتلى الحروب الطويلة، كل ذلك في فترةٍ وجيزةٍ ما بين بعاث –التي كانت قبل بيعة العقبة الأولى بسنتين فقط – وإلى حين الهجرة ليتفرغ بعدها لحل إشكالات الهجرة، فكان اعتماده ﷺ على صدق إيمان الأنصار في التأليف بين قلوبهم برباط العقيدة الذي انتقل بهم من قوانين الأرض الوضعية المادية؛ إلى قانون رب البرية؛ فترك لذلك الأوس والخزرج كل العداوات القبلية، وتلاشت في نفوسهم تارات الجاهلية، وتوحدوا معًا بمعية الرسول ﷺ في خندق واحد، وهذه كانت أول خطوة قام بها رسول الله حتى قبل خطوة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار[٣]. والغريب أننا نعرف في التاريخ جيدًا أمر المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ولكن الكثيرين لا يعرفون أن رسول الله وحَّد بدايةً بين

=

وهذا ما دعا بالخزرج إلى إعلان استعداد محالفتهم للرسول ﷺ وطلبهم منه الهجرة إليهم.

(١) يوليوس فلهاوزن: الدولة العربية، ترجمة يوسف العش، دمشق ١٣٧٦هـ، ص١٣-١٣.

(٢) ابن إسحاق: السيرة، ج٢، ص٢٩٢.

(٣) السرجاني، راغب: رسول الله وطوائف المدينة: سلسلة محاضرات السيرة النبوية قيام الدولة الإسلامية للشيخ صوتيات، وانظر التفريغ النصي، تاريخ الإضافة ١٧/ ٤/ ٢٠١٠م.

طرفي الأنصار (الأوس والخزرج)، ثم جاء بعد ذلك أمر المؤاخاة. فكانت أول طائفة تعامل معها الرسول هي الأوس والخزرج فوحَّد بينهم على أساس الدين[١] وآصرة العقيدة.

وعلى كل حال فإن مما يثبت تلك المسالمة وتقدمها على موضوع المؤاخاة قوله ﷻ في الآية الكريمة: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾[٢].

وخلاصة القول: إن موضوع المسالمة والصلح بين القبيلتين كان أبعد من بيعتي العقبة، لكن الإسلام وطدّ وقوى ووثق تلك الصلات والعلاقات ما بين الأوس والخزرج أبداً إلى أبعد من المسالمة والصلح؛إذ آلف بين القلوب، ووحد بين النفوس إلى حد الأخوّة، وهي أخوة الإيمان التي قد تكون في كثير من الأحيان أوثق من أخوة النسب والرحم؛ وشاهد ذلك من نصوص التشريع ما جاء في طرف آيات سورة الأنفال ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾[٣] وحديث شأس اليهودي[٤]، وعلى الأساس السابق يمكن أن نجمل أبرز أبعاد المسالمة في نقاط وجيزة.

---

(١) السرجاني: رسول الله وطوائف المدينة، المرجع السابق.

(٢) سورة آل عمران، آية (١٠٣). ذكر ابن كثير في تفسير سبب نزول هذه الآية أنها نزلت في شأن الأوس والخزرج، فإنه كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، وعداوة شديدة وضغائن، وإحن وذحول طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم، صاروا إخواناً متحابين بجلال الله، متواصلين في ذات الله، متعاونين على البر والتقوى، وكانوا على شفا حفرة من النار بسبب كفرهم، فأبعدهم الله منها: أن هداهم للإيمان. وقد امتن عليهم بذلك ﷺ يوم قسم غنائم حنين، فعتب من عتب منهم لما فضل عليهم في القسمة بما أراه الله، فخطبهم فقال: يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي ؟ "كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمن. فالشاهد ﴿ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا ﴾ ، (وكنتم متفرقين فألفكم الله بي) وانظر ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ): تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير ابن كثير، دار طيبة، سنة النشر: ١٤٢٠، سورة أل عمران مج ٢، ص٦٣ آية ١٠٣.

(٣) سورة الأنفال، آية (٦٢، ٦٣).

(٤) حدث بين الأوس والخرج خصومة بعد الإسلام حتى ثاروا إلى السلاح وكادوا يقتتلون لولا تدخل النبي ﷺ بينهم؛ وذلك بسبب دسائس اليهود ومكرهم وكيدهم، وما دبره اليهودي شاس بن قيس لحقده على ألفة الأوس والخزرج على الإسلام. فقد روى الطبري بسنده، وغيره عن زيد بن أسلم قال: مر شاس بن قيس – وكان شيخاً قد عسا في الجاهلية عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم – على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من جماعتهم وألفتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: =

أولاً: وقفه مع أبعاد المسالمة بين الأس والخزرج.

لربما كان من الصعوبة بمكان الفصل بين الأبعاد والآثار المترتبة على المسالمة بين قبيلتي الأوس والخزرج، وسابقتها المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في مبحثين منفصلين، ذلكم أن الجوانب بينهما متداخلة؛ لأن الأنصار هم بلا شك الأوس والخزرج وفّق بينهما الإسلام وجمع بينهما ووحّد رسول الأنامﷺ فكانوا أنصاراً بوحي القرآن، وكانوا أنصاراً لله ورسوله ولإخوانهم المهاجرين، فلفظ الأنصار أعمَّ وأشمل وأوسع إذ ذاب لفظ **(الأوس والخزرج)**، وانصهر في بوتقة التوحيد والإسلام، فكان أحب إلى نفوسهم كأحب اسمٍ سماهم به الله ورسوله عن اسم القبيلة وثاراتها الجاهلية.

وعموماً فيمكن إجمال أبعاد المسالمة بين الأوس والخزرج بما يلي:

- البعد الإيماني العقدي.

من أبرز آثار المسالمة بين الأوس والخزرج إسلام الأنصار نكاية باليهود؛ يؤيد ذلك طرف من آيات سورة البقرة، وما حكاه عاصمٌ الأنصاري، فقد روى مُحَّد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري عن رجالٍ من قومه قالوا: "**مما دعانا إلى الإسلام - مع رحمة الله وهداه - ما كنا نسمع من**

=

قد اجتمع ملأ بني قيلة -يعني الأنصار الأوس والخزرج- بهذه البلاد، لا والله، ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شاباً من يهود وكان معه فقال له: اعمد إليهم فاجلس معهم فذكرهم يوم بعاث وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، ففعل، فتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب فتقاولا، وقال بعضهم لبعض: إن شئتم رددناها الآن جذعة، وغضب الفريقان وقالوا: قد فعلنا، السلاح السلاح، موعدكم الحرة فخرجوا إليها وتحاوز الناس على دعواهم التي كانت في الجاهلية، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه حتى جاءهم فقال: يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف بين قلوبكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً؟! فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس، فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ والآيتين بعدها [آل عمران:٩٨-٩٩] وأنزل في الأوس والخزرج: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ سورة آل عمران آية (١٠٠، ١٠١)، الشوكاني: فتح القدير، ج١، ص٥٤٨. وروى القصة ابن إسحاق دون إسناد، ورواها ابن حجر في الإصابة، ورويت مختصرة ومطولة من طرق الزيلعي في تخريج الكشاف من رواية الطبري في تفسيره عن زيد بن أسلم، ج١، ص٢٠٨.

رجال يهود، وكنا أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا أهل الكتاب، عندهم علم ليس عندنا، وكانت لا تزال بيننا شرور، فإذا نلنا منهم ما يكرهون قالوا لنا: (قد تقارب زمان نبي يبعث الآن فنقتلكم معه قتل عاد وإرم)، كثيراً ما كنا نسمع ذلك منهم، فلما بعث مُحَمَّد رسولاً من عند الله أجبنا حين دعانا إلى الله، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزلت الآيات في البقرة: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١).

– إذابة الأحقاد والضغائن النفسية والخلافات الحربية بين كلا الطرفين فضلاً عن العصبيات القبلية، وثارات الجاهلية؛ بفضل دخولهم الإسلام ووجود نبي الأنام ﷺ بين ظهرانيهم، وعن هذا يقول جبير بن مطعم:إن رسول الله ﷺ قال: «**ليس منَّا من دعا إلى عصبيّة، وليس منَّا من قاتل على عصبيّة، وليس منَّا من مات على عصبيّة**»(٢).

– باستثمار النَّبي ﷺ جانب قوة التّقوى والإيمان لديهم فكان أن ربط ذلك بقضية الجهاد في سبيل الله، وما سميت بيعة الحرب بهذا الاسم إلا لمعاهدتهم إياه بالمنعة وبالنصرة؛يؤيد ذلك قول البراء بن معرور لأبي الفضل العباس بن عبد المطلب عم النَّبي ﷺ أثناء بيعة العقبة الثانية: «**لك والله عندنا كتمان ما تحب أن نكتم، وإظهار ما تحب أن نظهر، وبذل مهج أنفسنا، ورضا ربنا عنا، إنا أهل حلقة وافرة، وأهل منعة وعز، وقد كنَّا على ما كنَّا عليه من عبادة حجر ونحن كذا، فكيف بنا اليوم حين بصّرنا الله ما أعمى على غيرنا، وأيدنا بمحمد ﷺ أبسط يدك، فكان أول من ضرب على يد رسول الله، ﷺ**»(٣).

– البعد الاقتصادي.

– البعد عن اليهود، واستقلالية المسلمين بذواتهم مادياً ومعنوياً.

– اتحاد الأنصار مع المهاجرين، وهم أهل زراعة ومعرفة بالأرض، قوة وزيادة في الاقتصاد المادي والتجاري ورفع لبؤس البطالة وقله ذات اليد والحاجة، ولا سيما وأن من المهاجرين كثيرين أصحاب تجارة وبيع.

---

(١) سورة البقرة آية (٨٩). والحديث ورد عند ابن هشام في السيرة النبوية، ج١، ص٢٢٥. وفي تاريخ الطبري، ج ٢، ص٣٣، والسهيلي في الروض الأنف، ج٢، ص٢١٢-٢١٣، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية قال: إسناده صحيح، ص٥٧.

(٢) أبو داود: السنن، أبواب النوم، باب في العصبية، رقم (٥١٢١)، ص٢٢.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٤، ص ٦، ٥.

– البعد الاجتماعي.

– إقامة مجتمع مختلف عن نظام القبائل يسوده الأمن وتحفه الطمأنينة محكوم بحكم منهج الشريعة الغراء الذي ارتضوا به على من دونه؛ إذ استبدلوا زعامة سيد الخزرج عبد الله بن سلول فيهم بمقابل سيادة سيد البشر ﷺ لدولة الإسلام الأولى.

– في توحيد الاسمين (الأوس والخزرج) تحت راية الإسلام ما له من عظيم أثر في النفوس إذ بذلك امتنع الشقاق وتصافت النفوس وساروا جميعاً نحو غرض واحد وهدف ومبدأ واحد وهو نشر الإسلام. ولعل تسميتهم بالأنصار؛ لأنهم ناصروا إخوانهم المهاجرين في مكة فمنحوهم الحماية والنصرة فهم أنصار دين الله وأنصار رسول الله، وهو لقب في معناه روح التآخي والمسالمة ونَفَسُ الايمان.

– سيادة الحب والمودة في المجتمع المدني بعيدًا عن الفوضى والاضطرابات، وعموم الأمن والرخاء في سائر المجتمع المدني المسلم.

– البعد السياسي.

– استفادة الرسول ﷺ من مهارات البيان ومهارات الشجاعة القتالية لدى الكثيرين من الأوس والخزرج لتكون قوة مضافة إلى شجاعة المحاربين من المهاجرين في منازلة أعدائهم؛ فقد كفلت هذه المسالمة والصلح وجود مواهب وقدرات استطاع النَّبي ﷺ معرفتها وصقلها والاستفادة من جميع المهارات الفنية المتعددة والمتنوعة للصحابة وتنمية الإبداع فيهم، استثماراً لجميع الطاقات، وتحفيزًا للهمم ورفع الكفاءات، ومن ذلك ما نصر به أولئك الأخيار نبي الله ﷺ ودينه من القدرة على الفصاحة والبيان؛ فلقد كان الأنصار ذوي بيان، أوسهم وخزرجهم، قريبين في ذلك من القرشيين في مكة، وممن اشتهر منهم كعب بن مالك(١)

(١) كعب بن مالك بن أبي كعب بن القين بن كعب كان أحد شعراء رسول الله، صَلَّى الله عليه وسلم، الذين كانوا يردُّون الأذى عنه، وكان مجودًا مطبوعًا، قد غلب عليه في الجاهليّة أَمْرُ الشعر، وعُرِف به، ثم أسلم وشهد العقبة، ولم يشهد بَدرًا، وشهد أُحُدًا والمشاهد كلها حاشا تبوك فكان هو أَحد "الثَّلاثة الذين خُلِّفوا عن تبوك، ثم تاب فتاب الله عليه، وأنزل فيه وبمن معه آيات تتلى، تُوفِّي كعب بن مالك في زمن معاوية، سنة خمسين. وقيل سنة ثلاث وخمسين، ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله بن مُحَمَّد بن عبد البر القرطبي (ت٤٦٣هـ): الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي مُحَمَّد البجاوي، دار الجيل، بيروت ط١، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢م، جـ٣، ص ٣٨١.

وعبد الله بن رواحة[١]، رضي الله عنهما، لكن الذي برع في البيان الشعري منهم على وجه الخصوص حسان بن ثابت[٢] وكما برع حسان في الشعر برع ثابت بن قيس[٣]، رضي الله تعالى عنه، في الخطابة فكان يُعرف بخطيب النَّبي ﷺ.

- تحويل الطاقة المبعثرة للأفراد إلى بناء متكامل، فبدل استنزاف الطاقات في ضرب رقاب بعضهم بعضاً استجابة لداعي الشيطان؛تحولت طاقة الأفراد المبعثرة في هذا المجتمع إلى بناءٍ متكامل يسمو ويعلو رافعاً رايات الجهاد في سبيل الله، في ظل جماعة إسلامية واحدة، موحدةٍ جهودها في حرب أعداء الإسلام.

ثانياً: آثار ونتائج المسالمة بين الطرفين.

أ- النتائج والآثار المعنوية.

ثَمة آثار ونتائج معنوية تطالعنا من خلال المسالمة بين أهم عنصرين مهمين عملاقين في يثرب القديمة وهما:(الأوس والخزرج) تكمن في أن في إسلامهما وتوحدهما العقدي الإيماني فيه من النتائج المعنوية بناء الفرد المسلم في المجتمع المسلم كخطوة من خطوات بناء الدولة وهيكلتها إدارياً برئاسة النبي ﷺ ومعية إخوانهم المؤمنين من المهاجرين.

وكذلك فيه من الآثار والمعاني ما يُنبئ ببناء مجتمع إسلامي جديد يقوم على روابط جديدة تختلف عن الروابط المعروفة لدى العرب قبل الإسلام، وهي رابطة العقيدة والأخوة الإسلامية التي أصبحت الرابطة

---

(١) عبد الله بن رواحة هو ابن ثعلبة بن امرئ القيس بن ثعلبة، الأمير السعيد الشهيد الأنصاري الخزرجي البدري النقيب الشاعر. شهد بدراً والعقبة، يكنى أبا مُحَّد، وأبا رواحة، وليس له عقب، وكان من كتاب الأنصار، كان ثالث الثلاثة الذين سماهم في غزوة مؤتة وقد استشهد بها لما جهز النبي - ﷺ- إلى مؤتة الأمراء الثلاثة، فقال: " الأمير زيد فإن أصيب فجعفر، فإن أصيب، فابن رواحة " فلما قتلا، كره ابن رواحة الإقدام، ثم ارتجل أبياتاً فقاتل حتى قتل، الذهبي: السير، ج١، ص ٢٣١-٢٣٤.

(٢) حسّان بن ثابت بن المنذر، وهو من أنصار الخزرج، وحسان أدرك الإسلام وكان عمره ستين عاماً عرف بأنه شاعر ومنافح عن الرسول ﷺ، وهبه رسول الله ﷺ سيرين أخت مارية فولدَتْ له عبد الرّحمن بن حسّان. وصفَتْ عائشة، ﵂، رسولَ الله ﷺ فقالت: كان والله كما قال فيه شاعرُه حسّان بن ثابت، ﵁، قيل: إنه مات في خلافة علي، رضي الله عنه، ولم يختلفوا أنه عاش مائة وعشرين سنة، منها ستّون في الجاهليّة وستّون في الإسلام، وأدْرَكَ النابغة الذّبياني، وأنشدهُ من شِعْرِه، ابن عبد البر: الاستيعاب، مصدر سابق، ج١، ص ٤٠٠.

(٣) (سبق ترجمته ص٩٠).

الأولى التي تربط جميع أفراد المجتمع المسلم، وتكوّن مجتمعاً متماسكاً بعيداً عن عصبيات الجاهلية، فلا حمية إلا للإسلام، ولا رابطة إلا والإسلام فوقها[1].

- وفي إذابة العصبيات وسيادة التواد بين الطرفين ما أوجد بعداً اجتماعياً فيه من النتائج الإيجابية القضاء على الأمراض الاجتماعية المتأصلة في المجتمع من مخلفات التناحر القبلي والتوتر النفسي بين أفراده وتبديد قوته فيستغلّها المتآمرون في القضاء على الإسلام وتبديد قوته وذهاب ريحه، وفي المسالمة توفير الجهود والطاقات البشرية لخدمة الإسلام في مراحله اللاحقة كما أسلفنا في مسألة التآخي.

- ومن المعاني والآثار المعنوية أيضاً أن طوت المدينة صفحة دامية من تأريخها، إذ كانت لا تخلو أيامها من صراع مرير بين الأوس والخزرج يؤججه اليهود بخبثهم ودسائسهم، فانفتح على العالم عهد جديد من الحياة الإنسانية الراقية حيث زرع رسول الله ﷺ بذلك عنصر بقاء الأُمة، وفاعليتها الإيمانية وسلمها الاجتماعي، ولا أدل على ذلك من اجتثاث هذا الطبع المتأصل من جذوره، واستئصال شأفته من أعماقه بتغييره ﷺ لمسمى القوم باسم جامع وهو الأنصار ليجتمعوا تحت سقف واحد، وليحل محل الأسماء القبلية التي كانت مرتبطة بالانقسامات والصراعات، فيزول ما بينهم من الفرقة والخصام، ولقد أصبحت الحروب تحت مسمى (الجهاد في سبيل الله) سبباً في جمعهم، بدلاً من تفرقهم كما كان ذلك من قبل .

ب-الآثار والنتائج المادية.

من جملة الآثار والنتائج المادية المهمة في المسالمة...

- أن برنامج السِلم بين الحيين أثبت قوة العقيدة، وأنها أساس كل شيء، ومن ذلك عندما حميت نفوس القوم وغضب بعضهم على بعض، وثاروا، ونادوا بشعارهم وطلبوا أسلحتهم، وتواعدوا إلى الحرة، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتاهم فجعل يسكّنهم ويقول: «**أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ ويذكرهم بنعمه الإسلام وفضله عليهم وتلا عليهم** ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا...الآية﴾[2] **فندموا على ما كان منهم، واصطلحوا وتعانقوا، وألقوا السلاح**»[3].

---

(١) صالح : الرسول ﷺ وتنمية الإبداع، مرجع سابق، ص ٥.

(٢) سورة آل عمران آية (١٠٣).

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٩١. وذكر عكرمة أن ذلك نزل فيهم حين تثاوروا في قضية الإفك. والحديث رواه الطبري عن ابن عباس من طريق إبراهيم بن الليث.

ومن الملاحظ أنه في الوقت الذي كان فيه الإسلام عاملاً لتوحّد (الأوس والخزرج)، كان هنالك ثمة اضطراب مريب وتحرك جسم غريب سرى في مجتمع المدينة الموحد، وكان من المحسوسات المهمة بيّنه الله تعالى وأجلاه وهم جماعة المنافقين المفسدين ممن أبطنوا الكفر والنفاق وأعلنوا الطاعة والإيمان؛ فكشف الله خباياهم وفضح أسرارهم ونواياهم بوحي القرآن، قال عز من قائل: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾[1]. ترتب على هذا أن كان من الآثار المادية السلبية إظهار وإعلان اليهود حسدهم وكراهيتهم للإسلام والمسلمين شاركهم بذلك المنافقون فظهرت أولى المواجهات والصدامات ما بين اليهود والمسلمين.

المحور الثالث: موادعة اليهود ومعاهدتهم.

من التدابير المدروسة والإعدادات والوسائل المحسوسةِ لمتابعة بناء المجتمع المدني ومتابعة تنظيم عناصر سكانه، النظر في وجود اليهود كأحد أبرز العناصر المهمة في مجتمع المدينة، والحقيقة أنه يمكن القول بأنه لا توجد ثَمة علاقة واضحة بين الرسول ﷺ واليهود في الفترة المكيَّة، ويمكن القول بأن موقف الدعوة الإسلامية منهم في هذه الفترة هو انعكاس لنظرة الإسلام وتصوره لأهل الكتاب عامة، واليهود أو بني إسرائيل خاصة، فقد أكدت آياتٌ كثيرةٌ نزلت في العهد المكي على التوافق بين ما جاء في القرآن وما عند أهل الكتاب، فأقر القران الكريم بوحدة المصدر والهدف بين جميع الرسالات السماوية[2]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[3] وكذلكم ليس هناك ما يشير إلى أن اليهود ساندوا قريشًا في عدائها لمحمد ﷺ ودعوته إلا بإمدادها الأسئلة المعجزة للرسول ﷺ حيث استعانت قريش بيهود يثرب للتثبت من أمر محمدٍ بصفتهم أهل كتاب وعلم[4]، وعموماً فقد رسم القرآن الكريم في سوره المكيَّة صورة واضحة لا تدع مجالاً للشك في صدق نية الرسول ﷺ في التعامل والتعاون مع اليهود، بصفتهم أهل كتاب، وقد توجه ﷺ والمسلمون معه في صلواتهم إلى بيت المقدس الذي كان اليهود يتوجهون إليه، كذلك صام الرسول ﷺ وأمر المسلمين بصيام يوم عاشوراء وهو يومٌ اعتاد اليهود صيامه، وأحل القرآن الكريم للمسلمين أكل طعام أهل الكتاب والزواج منهم.

(١) سورة التوبة آية (١٠١).

(٢) ياسين خالدة: موقف النبي ﷺ من يهود الحجاز، ص٦٧.

(٣) سورة الأنبياء آية (٢٥).

(٤) ابن إسحاق: السيرة النبوية، ص ٢٠١ وابن هشام:السيرة النبوية، ج١، ص١٧٤.

ولعل السؤال المهم هاهنا ماهي أسباب المعاداة وأسباب الموادعة؟

معاداة اليهود للنَّبي ﷺ وموادعته عليه السلام ومعاهدته لهم.

وعن بداية الصدام بين اليهودية والإسلام يمكن القول: إن كثيرًا من نصوص القرآن الكريم أشارت إلى نفسية اليهود وموقفهم العدائيّ والعنصريّ تجاه الإسلام ونبيه، ولقد كان هذا العداء منذ اليوم الأول الذي وطئت فيه قدمه الشريفة ﷺ يثرب يؤكد ذلك شهادة صفية بنت حُيي بن أخطب التي تزوجها الرسول فيما بعد، فعن أول اتصال بين اليهود والرسول ﷺ تقول صفية أم المؤمنين، رضي الله تعالى عنها:"**فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، نزل قباء في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي حيي بن أخطب، وعمي أبو ياسر بن أخطب مُغلّسَيْن. قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس. قالت: فأتيا كالّين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى. قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع فو الله ما التفت إليَّ واحدٌ منهما، مع ما بهما من الغم. قالت: وسمعت عمي أبا ياسرٍ، وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتثبته ؟ قال: نعم قال: فما في نفسك منه ؟ قال عداوته والله ما بقيت**"[(١)].

والحق أن أول أسباب العداء: حسد اليهود لعروبة النبي ﷺ[(٢)] –وفي ظنهم أنه نبي من أنبياء بني إسرائيل– ما دفع بكبراء أحبارهم إلى مجافاة العقل والمنطق[(٣)] والحيلولة بين قومهم والتصديق به مع علمهم بنبوته وتعيُن اتباعه.

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص ١٣٧–١٤٠، السهيلي: الروض الأنف، ج٤، ص٣١٠.

(٢) جاء في العهد القديم، سفر التكوين: " إن ما بشرت به التوراة من ظهور نبي جديد يخرج من جبال فاران –هو جبل مكة؛ حيث سكن إسماعيل – وتكون يثرب عاصمة ملكه ودار هجرته " التوراة، سفر التكوين، الإصحاح٢١، (٢٠: ٢١)؛ ولعل هذا ما سارع من خطا اليهود إليها طمعاً في أن يكون هذا النبي من بنى إسرائيل، فينقذهم من ذل النصارى الروم، فلما بعث الله رسوله ﷺ، وعلم اليهود أنه من العرب، وليس من بنى إسرائيل، تحرك الحقد في قلوبهم، وثار الحسد في نفوسهم مع أنهم: ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ ، فنقض اليهود كل العهود والمواثيق، التي أبرموها –كتابة – مع رسول الله ﷺ وتآمروا وغدروا وتحالفوا مع قريش، وكادوا للمسلمين بالدسائس، والمؤامرات ولم تنفع معهم جميع محاولات الإصلاح، ولم يجيبوا داعي الله مع أنهم يعلمون علم اليقين أن الإسلام هو الدين الحق، ولم يحافظوا على معاهدات السلام وحسن الجوار، بل تنكروا لهم ونقضوها، وتعايشوا مع المسلمين بالغدر والخديعة وحاولوا هدم كيان هذا الدين بكل جهد وحيلة.

(٣) فضح عبد الله بن سلام حَبر بني قينقاع قومه اليهود وجادلهم في أهوائهم المنحرفة تجاه رسول الله ﷺ بقوله:"يا معشر يهود، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فإنكم والله لتعلمون أنه رسول الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته " ابن هشام ج٢، ص ١٦٣–١٦٤.

- ومن أسباب العداء اتساع نشاط الأوس والخزرج الاقتصادي والسياسي في يثرب، واتفاق الفريقين وتصالحهما بعد فِجَار يثرب (حرب بُعاث) ومحاولتهما وضع حدٍ لمآسي الحرب بينهما مما أسقط في يد يهود، وشعروا بالخطر الذي يتهدد مصالحهم من جراء هذا التقارب[١].

-كذلك فإن أول إشارة تثير الانتباه حول موقف اليهود من الرسول ﷺ وأتباعه تتمثل في اتفاقية بيعة العقبة الثانية عام ٦٢٢م، وما تم فيها من توثيق البنود بين الرسول ﷺ والوفد اليثربي (من الأوس والخزرج) على الإسلام ومناصرة الحرب من الطرفين؛ فأما عن الإسلام فقد سارع أولئك النفر من الوفد اليثربي على التصديق بدعوته ﷺ قائلين: «**تعلمن والله أنه للنَّبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه**»[٢] فسارع هؤلاء بتصديق رسول الله والإيمان بنبوته و كفر به اليهود وعادوه وكذبّوا نبوته فقد كانوا يتوقعون ظهور نبي منهم يؤمنون به ويقاتلون معه العرب. وأما عن مناصرة الحرب فتكمن بما قاله ﷺ للهيثم بن التيهان إذ عندما تمت البيعة أراد أحد شيوخ الخزرج، واسمه الهيثم بن التيهان[٣]، استيثاق العهد والوعد بين المتبايعين فقال: **يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها، يعني اليهود، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم»**[٤]، وفي هذا السياق يفهم من موقف الهيثم بن التيهان بأن المرحلة القادمة ستؤدي حتمًا إلى إنهاء تحالفات الخزرج والأوس مع اليهود وغيرهم من المشركين[٥]؛ فالدين الإسلامي الجديد لن يقبل التحالف مع دين آخرٍ كاليهودية أو غيرها، ففي الإسلام تمثل العقيدة الأساس الأول والأخير في التحالفات والعمل المشترك، وهذا يتعارض مع اليهودية التي قبلت

(١) لجأ اليهود إلى الدس والوقيعة بين القبيلتين، وأخذوا يحالفون القبيلة المهزومة على المنتصرة حتى تضعف شوكتها وتمنع تسلطها فيحتفظون دون القبيلتين بالسيادة واحتكار الموارد الاقتصادية.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص٣٥٤.

(٣) ابن التيهان أبو الهيثم، هو مالك بن التيهان بن بلي بن عمرو الأنصاري حليف بني عبد الأشهل، قيل: إن أبو الهيثم يكره الأصنام في الجاهلية ويؤفف بها، ويقول بالتوحيد هو وأسعد بن زرارة، وكانا من أول من أسلم من الأنصار بمكة. آخى رسول الله ﷺ بينه وبين عثمان بن مظعون. شهد بدراً والمشاهد، وبعثه ﷺ إلى خيبر خارصاً بعد ابن رواحة. قيل: إنه توفي في خلافة عمر، و انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١، ص ١٩١، ١٩٠.

(٤) ابن هشام: السيرة، ج ٢، ص٥٧. الطبري: تاريخ، ج ٢، ص٣٦٣ والسهيلي: الروض، ج ٤، ص ٨٣.

(٥) انظر: ابن عساكر، أبو القاسم علي الشافعي (ت ٥٧١ هـ): تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ترتيب عبد القادر بدران، دار المسيرة، بيروت، لبنان، ١٩٧٩ م، ط٢، ج ٥، ص ٤٥٦.

التحالفات مع الوثنية في الجزيرة العربية، ومن المحتمل أيضًا أن مقولة الهيثم بن التيهان تعبرُ عن وعيه في قراءة المستقبل، وحتمية الصدام بين المشروع الإسلامي والسيطرة اليهودية على اقتصاد المدينة(١).

- ومن الأسباب أيضاً استجابة الأوس والخزرج للإسلام بما هيأة الله لرسوله ﷺ من فتح قلوب الأنصار للحق والدخول في الإسلام، نكايةً باليهود ومحاولة التخلص من استغلالهم الاقتصادي، وكذلك تخلصاً من حليفهم الذي رشحوه لسيادة حكم المدينة.

- تأكد المشروع السياسي والاقتصادي النبوي وسيادة النبي والإسلام في المدينة؛إذ أظهرت وثيقة المدينة معالم المشروع السياسي الإسلامي الذي يتلخص في إنشاء دولة قائمة على العقيدة أو الدين الجديد، وهذا بحد ذاته أثار مخاوف اليهود على وضع زعامتهم الاقتصادية في الجزيرة العربية بنهيه عن الاحتكار والاستغلال والربا من ناحية، ووضع دينهم وحتمية انهيار تحالفاتهم من ناحية أخرى، فضلاً عن إنهائه للانقسامات والاضطرابات القبلية بين الأوس والخزرج، مضافاً إلى ذلك تزايد هجرة الداخلين في الدين الجديد للمدينة مما فتّ في عضدهم وأضعف مركزهم وعزز قوة المسلمين(٢)، وهنا لن يكون أمامهم أمل في استعادة سلطتهم في المدينة التي سلبت منهم.

- ومن الأسباب أن اليهود كانوا يطمعون في ضم الرسول ﷺ إلى صفوفهم، وأن يزدادوا به على النصارى قوةً ومنعة فوافقوا على العهد، ولما ازداد المسلمون شوكة وقوة، وأخذ اليهود المهتدون من أمثال عبد الله بن سلام(٣) يعتنقون الإسلام عن صدق وإيمان، خشي اليهود أن تتسع دائرة انتشاره بين قبائلهم

---

(١) ياسين: موقف الرسول ﷺ من يهود الحجاز، مرجع سابق، ص ٨١.

(٢) سجل بعض الباحثين أن من ضمن عداوة اليهود للإسلام كسبب أول رئيس هو ما ينبع من عقيدة اليهود نفسها مستدلين بما جاء في سفر التثنية:" إذا قام في وسطك نبي أو حالم حلماً وأعطاك آية أو أعجوبة ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التي كلمك عنها، فلا تسمع كلام ذلك النبي أو الحالم، وذلك النبي أو الحالم يقتل لأنه تكلم بالزيغ من وراء الرب " سفر التثنية، الإصحاح ١٣، ص٣٠٠.

ونحن نرى أن أصل التشريعات السماوية هو عقيدة التوحيد والفطرة التي فطر الله الناس عليها، وأن كل شريعة ناسخة لما قبلها وليس لما بعدها، وأن الدين الإسلامي هو الدين العالمي الوحيد الذي خلده الله، ونسخ به جميع ما قبله ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾، فضلاً عن التحريف والتأليف الذي دأب عليه اليهود لكتبهم؛ فلعل هذا النص في السفر محرفٌ مغلوط ومختلقٌ موضوع، أضف إلى ما عرف عنهم من الطبع المتأصل في الكراهية والحقد لمن سواهم، فهذا الأمر نرى أنه نابعٌ من أصل طبيعة اليهود لا من مصدر عقيدتهم المحرفة. والآيات من سورة آل عمران آية (٨٥).

(٣) هو عبد الله بن سلام بن الحارث (أبو يوسف الإسرائيلي) وهو صحابي جليل وكنيته: أبو يوسف، من ذُرِّية النبي يوسف =

اليهودية، فبدؤوا بشن العداء ضد الإسلام ورسول الإسلام والمسلمين معه ليحولوا دون إسلام بقية اليهود، كما عاضدوا المنافقين وشجعوهم[١].

وانطلاقًا من هذه الأسباب مجتمعة، بدأ اليهود بالتحرك ضد الرسول ﷺ ومحاربه دعوته، فقدموا وسائل وتكتيكات، وقاموا بخططٍ وخطوات كيدية محاربة للنبي، ﷺ وللإسلام وأتباعه.

وسائل اليهود وخطواتهم للكيد للإسلام وأسباب موادعتهم، والإجراءات النبوية ضدهم.

لقد اتبع اليهود عدة وسائل مهمة لمحاربة الإسلام، معنوياً وحسياً وفكريًا، خاصة وأنهم يمتلكون إمكانات ذلك، بصفتهم أهل كتاب، ومن أسفٍ أن موقفهم كان سلبياً من الشريعة الإسلامية، ومن دولة الإسلام الناشئة.

وعلى كل حال اقتصر بادئ أمرهم بالمجادلة والتشكيك في الدين ساعدهم في ذلك معرفتهم وبراعتهم في الحجاج العقلي والفكري؛حيث تمكنوا من أن يغرسوا في أذهان بعض العرب بأنهم أهل الكتاب وذوو العلم والفضل بين الأمم[٢].

– شنهم لحرب إعلامية وتوجههم بتوجيه أسئلة تمس جانب دعوة الرسول ﷺ ومنهجه الديني؛ ليتبينوا خطه السياسي فسألوه ﷺ أسئلة تصل إلى حد التعنّت، لا للاستدلال على صحة رسالته، وإنما قصدوا بذلك إحراجه ﷺ وتشكيك المسلمين في دينهم، فسألوه عن الروح، وعن الساعة، وعن أصحاب الكهف، وغيرها[٣].

=

من بني اسرائيل. قال عنه الذهبي في السير: " الإمام الحَبْر، المشهود له بالجنة، حليف الأنصار، من خواصّ أصحاب النبي " ليسوا سواء من أهل الكتاب...الآيتين من آل عمران، وجاء من غير وجه برواية إسنادها قوي: أنه رأى رؤيا، فقصها على النبي ﷺ فقال له: تموت وأنت مستمسك بالعروة الوثقى "انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢، ص٤١٤-٤١٧.

(١) المصري، جميل: أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية في ق١هـ، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ط١، ١٤١٠هـ، ص ٦٨.

(٢) المصري: أثر أهل الكتاب، المرجع السابق، ص٦٩.

(٣) وانظر تفاصيل هذه الأسئلة عند ابن هشام ج٢ ص١٦٧.

- ومن الوسائل والخطوات تظاهرهم بالدخول في الإسلام ثم الانسلاخ منه كيدا للدعوة الإسلامية في الداخل، بإعلان الدخول في الإسلام، ثم إعلان الانسلاخ منه إيهاماً للعرب، عامة والمسلمين خاصة، بأن هذا الدين ليس على شيء.

- محاولتهم التلبيس على النبي ﷺ بأن في كتابهم الهدى بقولهم: "**ما الهدى إلا ما نحن فيه فاتبعنا يا مُحَمَّد تهتد**"[١]، جاء في أسباب النزول للسيوطي أن لفيفاً من سادات اليهود وكبرائها جاؤوا إلى النبي ﷺ فقالوا: "**يا رسول الله، يوم السبت يوم نعظمه فدعنا فلنسبت فيه، وإن التوراة كتاب الله فدعنا فلنقم بها الليل**"[٢] ولما يئسوا وعجزوا عادوا إلى أسلوب العرب الجاهليين الوثنيين، إذ قالوا بل نتبع يا مُحَمَّد ما وجدنا عليه آباءنا فهم كانوا أعلم وخيرًا منا[٣].

- إشاعة رؤساء اليهود وأحبارهم نعوتاً مخالفة لنعت النبي ﷺ وصفات نبوته المعروفة لدى أهل الكتاب بقولهم:" **إن نعت النَّبي الذي يخرج في آخر الزمان لا يشبه نعت هذا النَّبي**"[٤].

- إثارة الفتن والأحقاد بين الأوس والخزرج من جديد وقد سبق بيان ذلك. ثم لا ننسى مسألة تحويل القبلة إذ نزل أمر التحويل نزول الصاعقة على يهود، فنشطوا للطعن في الإسلام ولتشكيك المسلمين في دينهم، وتفننوا في مجادلة النَّبي ﷺ بما يعلمون ومالا يعلمون، ومن ذلك أن أتاه رفاعة، وقردم بن الأشرف، والربيع بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع، فقالوا: "**يا مُحَمَّد ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها وأنك على ملة إبراهيم ودينه.. ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك وهم يريدون بذلك فتنة رسول الله ﷺ عن دينه**" [٥].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير سورة البقرة، ج١، ص ١٨٦، جاء للنويري في نهاية الأدب في فنون الأدب أنه صوريا الفيطوني الملقب بالأعور.

(٢) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ): أسباب النزول بهامش تفسير الجلالين، مكتبة الملاح، دمشق ١٣٨٣هـ، ص٩٧، وهم ثعلبة بن يامن، وأسد وأسيد أبناء كعب، وسعيد بن عمرو بن زيد، وانظر تفسير سورة البقرة الآيتان ٢٠٨-٢٠٩.

(٣) تفسير القرطبي، أبو عبد الله مُحَمَّد الأنصاري : الجامع لأحكام القرآن، دار الكتاب العربي عن دار الكتب المصرية ١٢٨٧هـ، سورة البقرة ج١، ص ١٩٥.

(٤) السيوطي: أسباب النزول، مصدر سابق، ص ٦٣.

(٥) ابن هشام: السيرة ج٢، ص١٧٦.

ومحاولات اليهود كثيرة في هذا الجانب من الصد والتشكيك للمسلمين بدينهم حتى بدأ النفور ظاهرًا بين الطرفين، وحتى استبّ الطرفان وتشاجرا في بعض الأحيان في خطط أحياء المدينة، وكل هذه المصادمات كانت حسية. إلى أن كانت الشررة الأولى حيث معركة بدرٍ الكبرى التي رأى اليهود أن تشريع القتال للمسلمين وانتصارهم المسلح على الوثنية فيها إيذان بالقضاء عليهم، وعلى كيانهم المادي والمعنوي؛ ولذا نقضوا عهدهم مع الرسول ﷺ ووقفوا في صفّ الوثنية علنًا.

ولئن كانت بداية مواجهة الرسول ﷺ لهم بالموادعة والمعاهدة إلا أن تصرفاتهم المشينة، ونقضهم للمعاهدات والمواثيق قد أوقدت نار الحرب ضدهم فتطور الخلاف إلى مرحلة المواجهة المادية تارة، والمواقف العسكرية المباشرة في الحين الآخر، والتي انتهت بالقضاء عليهم، وإنهاء وجودهم في المدينة وأطرافها.

وهكذا ترسم لنا دروس السيرة وشواهدها حكمة النبي ﷺ ودقة تصرفاته، وتعدد سعيه، وخط سياسته في بناء الفرد والمجتمع ومن ثم الدولة فالأمة، وفي تعاملاته مع الكافة بالطرق المثلى والقيم الإلهية العليا، فمع الأوس والخزرج قام ﷺ بالصلح بينهما على أساس العقيدة والإيمان، ومع المهاجرين قام بخطوات منظمة ومرتبة لاستيعابهم في المجتمع المدني، بل وتفعيلهم في بناء الأمة، فتحول المهاجرون من عبءٍ اقتصادي وسياسي واجتماعي على دولة المدينة إلى قوةٍ فاعلة تضاف إلى خير المدينة وقوتها، ومع المسلمين في الحبشة استقدم ﷺ بعضهم وأبقى بعضهم لحين استقرار أوضاعها، ومع المسلمين في القبائل البعيدة عن المدينة، ممن ليسوا من أهل مكة، أبقاهم ﷺ في قبائلهم لينشروا الإسلام فيها، وليوسعوا كذلك نطاق الحركة الدعوية في الجزيرة العربية جميعها، ومع المستضعفين من المسلمين في مكة، والذين لا يستطيعون الهجرة، ألزمهم كتمان الإسلام قدر المستطاع وتجنب الصراع مع المشركين؛ لكي لا يُستأصلوا إلى أن يأتي الله ﷻ بأمره، ومع أهل الصُّفة[١] وهم فقراء مهاجري مكة، ممن لم يكن لهم مال ولا مأوى خصص وهيئ لهم موضع إقامة في مؤخر مسجده الشريف سميت بالصُّفة ومع المشركين من الأوس والخزرج كانت استراتيجيته ﷺ في التعامل مع هؤلاء هي الدعوة بالتي هي أحسن، ومحاولة ضم العناصر النافعة منهم إلى الأمة الإسلامية، مع محاولة تجنب الصراع أو الصدام معهم ما أمكن، حتى لا تكون ثَمّة صراعاتٌ داخلية تضعف

(١) كلمة الصُّفة تطلق في الغالب على المكان المظلل في بيوت الناس، وهي الجزء المسقوف في مؤخرة مسجده الشريف ﷺ وكان موضعها مقدمة المسجد قبل تحويل القبلة، وقد أمر ﷺ بتظليله فظُلل أو سُقف، وأطلق عليه أسم الصُّفة أو الظُّلة حيث لم يكن لها ما يستر جوانبها من قبل، وذكر النسائي في سننه أنه توجد كذلك صفة للنساء في المسجد النبوي، وكذلك توجد صفة زمزم بمكة، وانظر النسائي: السنن، ج ٨، ص٨٨ وج٣، ص١٣٥. والسمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٣٢١.

من بنيان الأمة الإسلامية الناشئة؛ ولذا كان من تدبيره ﷺ أن عقد معهم معاهدة السلم والتعاون لحفظ أمن المدينة[١]، ومع المشركين من الأعراب حول المدينة حاول ﷺ أن يصل بالدعوة إليهم قدر ما يستطيع، ثم أظهر لهم القوة حتى لا يكون منهم مجرد التفكير في الغدر والإغارة عليها، أو على قوافل المسلمين في أطرافها، ولا سيما وأن هذه القبائل من العرب اشتهرت بالسلب والنهب. ومع القبائل المشركة الكبرى حول المدينة عقد ﷺ معاهدات ومحالفات تقوم في أساسها على حسن الجوار، وعدم الاعتداء، وأخرى تهدف لفك ارتباطهم بأحلافهم مع قريش، ومع مشركي مكة ممن ناصبوه العداوة والبغضاء وآذوه وأخرجوه صبر على إيذائهم رجاء هدايتهم ودخولهم في الإسلام، وكف عنهم لما لم تكن في طاقته مواجهتهم، وخرج من بين أيديهم مستنصرًا بغيرهم، وعمل على مواجهتهم وإضعافهم، وحاربهم لما شرع الله له الجهاد، ثم صالحهم في مرحلة متأخرة حتى مكنه الله منهم وخضعوا له وأصبحوا هم وأبناؤهم من أتباعه وجنده. وأما يهود المدينة فقد عاهدهم ﷺ على حذرٍ منهم لِمَا عُرف عنهم من خسة وخيانة وغدر، فلما بدرت العداوة منهم، وظهر الغدر والخيانة فيهم، عاقبهم بما يستحقون إجلاءً وطردًا وسبياً.

وهكذا نجد تعاملاته ﷺ مع مختلف الملل والنحل، فهذه جميعها طوائف مختلفة تعامل معها الرسول ﷺ ببراعة، ودقة فضلاً عن تعاملاته السياسية مع الملوك والأمراء في مختلف البلدانِ والدول حيث راسلهم ودعاهم للإسلام.

---

(١) وسيأتي تفصيل ذلك في الفصل الأول من الباب الثاني من هذه الدراسة.

المطلب الثاني: تنظيمات المجتمع المدني وإعلان منهج سياسة الدولة.

لئن كانت بداية الممارسات التنظيمية للرسول المصطفى ﷺ بالمدينة بدءاً بالتنظيم الإداري المتمثل بالمسجد، فقد أتبعه ﷺ بالتنظيم السياسي الذي اعتمده بإعلان المنهج (التشريعي – التنظيمي) ليكون لبنة ونواة للبناء المجتمعي الذي ينظم سائر أمور الجماعة في ذلك المجتمع.

ولقد كان هذا الإجراء من أولى الدعائم المهمة التي اعتمدها الرسول ﷺ في برنامجه الإصلاحي والتنظيمي للأمة وللدولة والحكم، وهي خطوةٌ لا تقل أهمية عن الخطوة الأولى في البناء التنظيمي المادي الإداري، وهو الملم العارف بطبيعة الأوضاع المعقدة داخل مجتمع يثرب، فضلاً عن المدلهمات المحيطة بها من الخارج، وفي كل جانب.

فتركيبة ذلك المجتمع من أطياف وعناصر متباينة، كما رأينا من قبل، من أوس وخزرج، ثم أنصارٍ ومهاجرين، مضافاً إليهم الأكثرية الغالبية لبني يهود على اختلاف قبائلهم، ثم لا ننسى جماعات فلول بعض المشركين في الداخل والأطراف بما يقابلهم في الخارج من زعامات مشركي مكة من قريش، ومن دان بدينها وكيدها ومكرها للإسلام وأهله، وقد ارتأى هؤلاء أن في الهجرة النَّبوية زعزعة لصدارتهم السياسية وزعامتهم الدينية ومكانتهم الاقتصادية بين أوساط العرب، وكل ذلك على مرأى منه ﷺ ومسمع.

وهنا أدرك رسول الهدى ﷺ ببعدِ نظره وثاقبِ فكره وهداية الوحي له أهمية التنظيم الاجتماعي والتخطيط السياسي، وأن تنظيم المجتمع المدني، وإدارة بناء رابطة الوحدة الاجتماعية، وحل إشكالياتها تحتاج إلى مزيد تقريرٍ وتأكيد. ففضلاً عن التغير الجذري في ترتيب العلاقات بين الفئات السكانية، من خلال المسالمة والمؤاخاة والموادعة، فلابد من إعلان نظام شامل متكامل يحدد السياسة العامة والمنهجية المتخصصة لكل فئة ؛ لأجل وحدةٍ سياسيةٍ جماعية بين فرقاء عديدين في بيئة متنوعةٍ عقائد قاطنيها، متفاوتةٍ أعراقُ ساكنيها، متعددةٍ ثقافاتُ مواطنيها، فكان من جميل حكمته وبديع حنكته في السياسة والتدبير، عليه الصلاة وأتم التسليم، أن أعلن وأقرَّ نظاماً ومنهجاً ومبدأً شاملاً عاماً عرف عند المؤرخين **بصحيفة المدينة، أو كما هو الدارج صحيفة الدستور**، ولربما كان مقصدهم بمصطلح دستور:(المنهاج والطريقة والنظام النَّبوي في سياسة المجتمع المدني)[1].

(١) يحلو للبعض إطلاق لفظ الدستور والقانون على صحيفة المدينة النبوية. والذي نراه أنها، لفظاً ومعنىً، المنهج والنظام الذي سنه نبي الهدى ﷺ من المبادئ الكلية والمقاصد العليا التي شرّعها المولى ﷻ في التشريع الإسلامي.

والواقع أن الصحيفة تعدُ إحدى أهم دعائم الدولة المدنية الإسلامية ومرتكزاتها في مجتمع المدينة، وأكثر الوثائق النبوية تأسيساً للدولة وتأصيلاً لنظام الحكم فيها، وهي بلا شك تمثل أكثرها عناية والتزاماً بترسيخ أسس دولة الإسلام، فمنها انبثق إعلان منهج سياسة الدولة، وطبيعة السلطة السياسية الحاكمة فيها، إضافة إلى مداراتها للجوانب العقدية، وتناولها للتنظيمات الإدارية، ومراعاتها للأبعاد الإنسانية الهادفة التي أرساها الرسول ﷺ لساكني (يثرب) كافة ؛ إذ ارتسمت وسطرت أُسس العلاقة بينهم جميعاً في مجتمع واحدٍ متكاملٍ موحد.

والصحيفة أو الوثيقة هي أول ميثاق مدني –غير الوحي – مكتوب في الدولة الإسلامية[١] يعبر عن الدولة بصفتها صاحبة السيادة والسلطان على إقليمها، وينظم السياسة الداخلية بعقدٍ اجتماعي توافقي بين الحاكم والمحكوم، فضلاً عن تنظيمها لطوائف المجتمع وعناصر فئاته كلها على أساس العدل، والمساواة وتقرير الحقوق وتأكيد الواجبات.

ومن روائع ما اشتملت عليه هذه الوثيقة: أنها تضمنت جملة القيم والمبادئ الإنسانية التي عليها قوام إدارة الدولة، قديماً وحديثاً، إلى غيرها من مبادئ وموضوعات مما سيناقش تباعاً في محاور المطلب.

المحور الأول: المبادئ والمضامين العامة لصحيفة المدينة وأهميتها في بناء دولة الإسلام.

إن المدقق بمضامين تلك الوثيقة، وما فيها من مواد مستوحاة من تشريعات الخالق سبحانه ووحيه، يجدها نظاماً شاملاً متكاملاً؛ ولذا قاد بها رسول الله ﷺ الأمة وساس من خلالها الدولة فكان لها السبق والريادة. فحقيقة معاني الوثيقة واضحة في نصوصها، دقيقة في أهدافها ومراميها على غير مثالٍ سابق؛ إذ شملت بنودها أغلب ما احتاجت إليه الدولة الناشئة في تقويم أمورها الاجتماعية وتنظيم شؤونها السياسية، وكانت غاية الدقة في الصبغة والصياغة بالنظر إلى نصوص المعاهدات الدولية الحالية، والدساتير الوضعية المعاصرة، وما تثيره مبادئها من تناقضٍ وخلاف، معنىً وتطبيقاً.

ومن المؤكد أنَّ ذلك الإعلان والبيان في صحيفة المدينة ما هو إلا توضيحٌ وترسيخٌ لتحديد العلاقات، ووثيقة وعُهدة لترتيب المسؤوليات. ففيها التأكيد لأسس مبادئ حكم الدولة، وتقرير مبدأ المواطنة الصالحة بكل تجلياتها، ولا شك في أهميتها وتعدد مهامها إذا علمنا أن جملة الأحكام الواردة والمصدّقة فيها لتشكل من الأهمية

(١) فلا يعرف قبله نص دستوري في تاريخ الفكر الإنساني يشبهه ويحاكيه أو يضاهيه في التأسيس للعيش المشترك في حضارات الدول القديمة ممن يحملون كل أشكال الاختلاف وصنوف التعدد يتعايشون بوحدة وأمن بمثل ما أقرت بنود هذه الوثيقة.

ما يمثل العمود الفِقري لأي وثيقة دستورية حديثة، وفي ذلك ما يؤكد أسبقية شريعة الإسلام للتنظيمات الحديثة في هذا المجال. فمن المهام والأهمية أن وثيقة المدينة شكّلت منعطفاً دينيّاً، ومنطلقاً سياسيّاً، وبُعدًا حضاريّاً، على مستوى البشريّة جمعاء. فمن يتمعَّن في تفصيلات موادها ويحلِّل رائعات بنودها، يرى فيها نموذجاً يُحتذى، ليس فقط على مستوى حدود المدينة أو مستوى الجزيرة العربية فقط، بل وليس حصرًا على زمن النبوة فحسب –أي لما قبل أربعة عشرة قرناً، إنما هي ميثاق ومنهاج ونظام عالمي عام صالح لأي مكانٍ ولكل زمانٍ، وهي عهدٌ ورباط اجتماعي متكامل تام في كل عصرٍ ومصر[١].

ومن أهميتها كذلك اشتمالها واحتوؤها على الجوانب الحياتية كافة، مضافاً إلى ذلك أهميتها في رسم جوانب الأبعاد الحضارية الإنسانية، وكذا الأبعاد الأمنية الدفاعية، فمن **مجمل مهامها الاجتماعية** أنها مثلت نموذج التعايش الاجتماعي السلمي، والتعايش الديني، **ولخّصت الحقوق** والواجبات بين أطراف المجتمع الواحد، **وأقرت مبادئ** التكافل والمساواة والعدل الاجتماعي بين الجماعة المسلمة، **وحققت الحرية** المنضبطة بأنواعها بين كل مواطنيها، **وحددت مفهوم الأمة، ورسمت عناصر قيام الدولة**.

وفي المجال السياسي نرى أن بنود الصحيفة **غذّت الوحدة السياسية** للجماعة الإسلامية على أسس عَقَدية أخلاقية لا على أساس الدم والعصبية؛ فنراها قد أحلّت رابطة الدين والعقيدة محل رابطة النسب والقبيلة، ونلتمس سياستها في تحقيق أسس المواطنة في الدولة مع التحديد المتقن للمرجعيات والمسؤوليات، في الوقت الذي حدّدت فيه مسؤولية الحماية والدفاع العام لكل ساكني المدينة مع الإعداد المسبق للتدابير والإجراءات الأمنية وتأمين الغرامات وحق الديات على أساس من **البعد الأمني الدفاعي**.

وعلى جانب البعد الحضاري الإنساني نلاحظ أنها **أكدّت على التسامح** الديني، **وحرّرت ضمانات**(مبادئ) التعايش السلمي، والتعاون الإنساني المشترك بين الأفراد.

---

(١) يرى بعض المفكرين كأمثال شمس الدين مهدي وهو عالم دين شيعي لبناني: "أنَّ الصحيفة لم تكن في أهمّيّة النصِّ القرآنيّ أو السُّنة التي تشتمل على بيان أحكام الشريعة، بل كانت من قبيل كُتبه ﷺ وعهوده التي تناقلها الرواة "، وانظر شمس الدين، محمد مهدي: الاجتماع السياسي الإسلامي، مؤسسة الإمام شمس الدين للحوار، ط٢، عام ٢٠١٤م، ص ٢٩٧. ولكننا نرى أن الإسلام دين اجتماعي معاملاتي سلوكي كما هو دينٌ فرديٌ عباديٌ، فهو دين حكومة وسياسة، وهو دين شعائر ربانية وممارسات تعبدية، ومن هنا تكمن أهمية خط منهج النبي ﷺ في سياسة حكم دولة الإسلام الأولى، فهو من أسس لمفهوم العيش المشترك وفق قوانين عادلة منحت القاطنين حقوقاً دينية واجتماعية واقتصادية، وحمّلتهم مسؤولية أداء الواجب، وعدم الخيانة، كما أسست لأحكام الحكومة والولاية، وفقه الجهاد، وكيفية التعامل مع المحاربين، والجرحى، والأسرى، وغيرهم. وبالتالي فهي لا تقل أهمية عن السنة الشريفة، بل هي جزء منها.

والخلاصة أن الفكرة المركزيّة التي عَبّرت عنها الوثيقة أو صحيفة المدينة، هي إنشاء مجتمعٍ سياسيّ تعاقديّ بين جماعتين أساسيتين وهما: المسلمون واليهود، وتشكيل دولة إسلاميّة لهذا المجتمع شريعتها الإسلام، وحاكمها النبيّ، عليه الصلاة والسلام، شخوصها أمة واحدة، وسلطة حاكمة بما أنزل وشرّع الله، وعلى هدي رسوله المصطفى ﷺ، وعلى كلٍ فالوثيقة النبوية عهد وميثاق سياسي قانوني حقوقي يحدد العلاقة الاجتماعية والحقوق الإنسانية بين جميع مختلف أطياف مجتمع المدينة وضوابطها وحدودها بتفصيل يوضح الحقوق والالتزامات المترتبة لكل عنصر من عناصر ومكونات ذلك المجتمع.

المحور الثاني: حول أساسيات وسياسات الوثيقة:

عني الكثيرين من المؤرخين القدامى والباحثين المعاصرين، فضلاً عن المستشرقين، بدراسة نصوص الوثيقة وتتبع دلالاتها ومضامينها، وأشاروا باقتضاب إلى أسس تنظيماتها الإدارية وجوانبها العملية والتطبيقية، وقد تباينت الأقوال في صحتها بين المؤرخين والمحدّثين أو ممن شككوا بصحتها وبمصداقيتها عن رسول الله ﷺ[١]، وليس من الضروري هنا المناقشة بالتفصيل لمدى صحة الوثيقة من عدمه فقد ناقشها جمهورٌ من المؤرخين والمحدثين.

والراجح أن الصحيفة صحيحة بمجموع طرقها، وهي وإن كانت لا ترقى بمجموعها إلى مرتبة الأحاديث الصحيحة[٢] فهي لا تقل عن درجة الحسن، ومهما يكن من شيء فإن جملة إشارات في آيات كتاب الله تعالى تشير إلى الكثير من دلالاتها. كذلك فإن بنودًا غيرَ قليلة من نصوصها ثبتت إجمالاً من طرق صحيحة، ووردت في كتب أحاديث الصحاح والمسانيد والسنن المعتمدة بأسانيد ثابتة متصلة[٣]، وأيضاً فإن الأحكام المستنتجة من الوثيقة يمكن استنتاجها من كثير من النصوص الثابتة في الصحاح والسنن، كما أن الصحيفة تعد عمدة في

(١) هو يوسف العش، ولعله ساق هذا التصور بناء على أن الوثيقة لم يروها غير ابن إسحاق ولم يعثر على إسناد لها سوى ما ذكره ابن سيد الناس من رواية ابن أبي خيثمة لها من طريق كثير المزني، وللمزيد عن رأي العش انظر فلهاوزن : الدولة العربية وسقوطها، ترجمة يوسف العش، حاشية، ١٢ص١٩.

(٢) لأن أول من أوردها ابن إسحاق، وقد أوردها بدون إسناد مما أضعف الرواية، وابن خيثمة أوردها من طريق كثير بن عبد الله المزني وهو يروي الموضوعات، وأبو عبيد القاسم من صغار التابعين فلا يحتج بمراسيله، العمري، أكرم ضياء : السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العلوم، والحكم، المدينة النبوية، عام ١٩٩٢م، ج١، ص ٢٧٥، وانظر الملحق(٥) في تفصيل أسانيد الصحيفة.

(٣) بعضها جاء في البخاري ومسلم، وبعضها ورد في مسند أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وسنن أبي داود، وابن ماجه، والترمذي، وهذه النصوص جاءت من طرق مستقلة غير الطرق التي وردت منها الوثيقة العمري: السيرة النبوية، ج١، ص٢٧٥.

الاحتجاج، فلقد احتج بها أهل العلم الأولون. كأبي عبيدٍ القاسم بن سلام، و البيهقي، وابن تيمية، فضلاً عن ثبوتها عند أئمة المغازي وورود موادعة النَّبي، عليه السلام، لليهود، وكتابته لكتابٍ بيّنٍ بيْن المهاجرين والأنصار[١].

ونوافق العمري – بتفصيله للموضوع وفصله في الأمر– فيما إذا كانت تلك الوثيقة بمجموعها لا تصلح للاحتجاج بها في أحكام الشريعة سوى ما ورد منها في كتب الحديث الصحيحة فإنها تصلح أساساً للدراسة التاريخية التي لا تتطلب درجة الصحة التي تتضافر في إكسابها القوة[٢]. أضف إليه أصالة الأسلوب في نصوص الوثيقة وتشابه الصياغة بينها وبين كتابات النبي ﷺ الأخرى، وكذلك عدم تخصيص الصحيفة لفرد أو جماعة بمدحٍ أو قدحٍ مما يعطيها توثيقاً آخر لأصالتها ومدى صحتها.

وأما كونها جاءت مرسلة كما يرى ذلك بعضٌ من المحدّثين[٣] فلا يمنع من الحكم لها بالصحة بعد أن احتفت بها كل هذه القرائن[٤]، والظاهر والأهم أن لا أحد من الأئمة المتقدمين تعرّض للصحيفة بالطعن أو الرد، ولم ترد في كتب الموضوعات أو الواهيات والمناكير، مع شدة هؤلاء عنايةً في هذا الباب[٥]. ثم يجب ألاَّ نغفل أن رواة الوثيقة جمعٌ من أعلام الرواد الأوائل في كتابة السيرة النبوية، ومن الائمة المعروفين في فن المغازي والسير، كالزهري، وابن إسحاق.

وعلى كل حال فحول بعض **أساسيات الوثيقة** نقف أولاً عند مسمياتها فنرى أنها جاءت بمسميات لا تختلف عما تناقلته المؤلفات عن المؤرخين القدامى أو المحدّثين، ومن تلك المسميات التي تناولها المؤرخون أولاً (**الصحيفة**)[٦].

(١) وانظر البلاذري: أنساب الأشراف، مصدر سابق، ج١، ص ٢٨٦.

(٢) العمري: السيرة النبوية الصحيحة، المرجع السابق، ج١، ص٢٧٦.

(٣) لم يُثر أحدٌ من المحدِّثين جدلاً حول صحّتها بالجملة غير ما جاء عن الألباني: بقوله: "هذا مما لا يعرف صحته؛ فإن ابن هشام رواه في السيرة عن ابن إسحاق بدون إسناد، فهو معضل، ونقله ابن كثير عن ابن إسحاق فلم يزد عليه في تخريجه شيئاً، على خلاف عادته، مما يدل على أنه ليس مشهوراً عند أهل العلم والمعرفة بالسيرة والأسانيد" الألباني: دفاع عن الحديث النبوي والسيرة، ص٢٥، ٢٦.

(٤) صالح العلي، تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة، ص٤، ٥.

(٥) وانظر المطيري، حاكم: صحيفة المدينة بين الاتصال والإرسال، كلية الشريعة، جامعة الكويت٢٠١١ م.

(٦) ورد إطلاق لفظ الصحيفة في بنود الوثيقة على نحو ما جاء فيها من قول:" وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة " وكذلك قوله ﷺ:" وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة و أبره" وانظر حميد الله، محمَّد: مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، عام ١٩٤١م بند رقم (٣٩)و بند رقم (٤٦) يؤيد ذلك ما جاء من قول الصحابي الجليل –علي ﷺ–: " ما كتبنا عن رسول الله ﷺ إلا القرآن وما في هذه الصحيفة"، =

ومن أسماء المؤرخين لتلك الوثيقة أيضاً (**الكتاب**)[١] ومن أولئك ابن إسحاق، في قوله: "**وكتب رسول الله كتاباً بين المهاجرين والأنصار ووادع فيه اليهود**"[٢]، وأخذ عن ابن إسحاق بعض من كبار المؤرخين كابن سيد الناس، وابن كثير، وغيرهم. كذلك جاء من تسميات كتّاب السير القدماء لها ب(**الموادعة**)، وهي مصطلح يعني الصلح والسلم، وعن هذا جاء في النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: " **أنه وادع ﷺ بني فلان** " وَحَقِيقَةُ الْمُوَادَعَةِ: المتَارَكة، والمعنى: أي صالَحهم وسالمهُم عَلَى تَرْك الحَرب والأذى"[٣].

وتعددت مسمياتها كذلك عند المعاصرين ؛فمن المسميات التي وردت عندهم (**الوثيقة، والدستور، والحلف**[٤]، **والميثاق**[٥])، ولعلهم وجدوا أن في بنودها ما يهدف إلى تنظيم العلاقات بين طوائف المجتمع وبيان مالهم من حقوق، وما عليهم من التزامات، فأطلقوا عليها تلك الإطلاقات والمسميات.

=

رواه أبو داود في السنن وجاء عن العسقلاني في فتح الباري ، ج١، ص ٢٧٢، ولعل المقصود بذلك الكتاب هو الكتاب المقرون بسيف الرسول والذي آل إلى علي، ﷺ. وعلى كلٍ فقد ورد ذكر مسمى صحيفة في كل الروايات الواردة عند ابن هشام، وابن سلام، وكذلك حميد بن زنجويه، ففي رواية ابن إسحاق عند ابن هشام في السيرة، ج٢، ١٤٧- ١٥٠ست مرات وكذلك في رواية ابن شهاب الزهري عند ابن سلام، أما عند ابن زنجويه فقد ذكرت سبع مرات وانظر كتاب الأموال، ج٢، ص ٤٦٦-٤٧٠.

(١) وذكرت مرة واحدة في مستهل كل رواية في المصادر الثلاثة بلفظ " هذا كتاب من مُحَمَّد " ولم يتكرر ذكره بعد ذلك في نصوص الروايات ذات الصلة بوثيقة المدينة ؛ ولذلك فإن مسمى الصحيفة يكون أكثر من سواه من المسميات؛ حيث إن التأكيد على الصحيفة ورد مكرراً في كل نصوص المعاهدة، الجميل، مُحَمَّد فارس: النبي ﷺ ويهود المدينة، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض الطبعة الثانية، ١٤٢٧ هـ، ص٦٠.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص٥٧١.

(٣) ابن الأثير، دار الفكر للطباعة بيروت، (د.ت)، ج٥ ص ١٦٧. وعن ذلك يقول ابن حزم " ثم وادع اليهود"، ابن حزم، علي بن أحمد (ت ٣٨٤هـ): جوامع السير، تحقيق حسان عباس، وناصر الدين الأسدي، دار المعارف، مصر، (د.ت)، ص ٩٥.

(٤) يروي أنس بن مالك أن رسول الله عقد حلفاً بين قريش والأنصار في بيته. فعن عاصم بن سليمان الأحول قال: قلت لأنس: (أبلغك أن رسول الله ﷺ قال: لا حلف في الإسلام؟ فقال: قد حالف رسول الله ﷺ بين قريش والأنصار في داري). وفي رواية قال: سمعت أنس بن مالك يقول: "حالف رسول الله ﷺ في دارنا، فقيل له: أليس قال ﷺ: لا حلف في الإسلام؟ فقال: حالف ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دارنا، مرتين أو ثلاثا). ابن الأثير: أسد الغابة، ص١٢٧. والحديث رواه البخاري في الصحيح كتاب الآداب، باب الإخاء والحلف، حديث رقم (٥٧٣٣).

(٥) ومن أولئك مُحَمَّد الغزالي، وأكرم العمري، ومُحَمَّد سعيد البوطي ومنير البياني، وسماها المباركفوري ميثاق التحالف الإسلامي، وسماها الحميدي صحيفة المعاهدة بين أهل المدينة، وسماها البوطي الوثيقة بين المسلمين، وغيرهم وسماها البعض «وثيقة المدينة» أو «كتاب مُحَمَّد النبي ﷺ»، أو «الدستور المدني» أو «العهد النبوي».

وعن تاريخ الصحيفة. فيمكن القول:إن الباحثين المعاصرين لم يجمعوا على رصدٍ دقيقٍ لتاريخ الصحيفة؛ ذلك لأن ابن إسحاق الذي يعد أول من نقل لنا هذه الصحيفة، وابن سلام وغيرهما لم يحددا تاريخ إعلان الرسول ﷺ لها. وعليه تباينت الآراء للتحديد الدقيق لإطلاقها بين من رأوا أنها وثّقت فور مقدمهﷺ إلى المدينة، وبين من رأى أنها كانت حال اتفاق وتحالف الرسول ﷺ مع أصحابه بعد بدرٍ الكبرى.

ولعلّ التاريخ المناسب لتفصيل تاريخ كتابة وتدوين الصحيفة يتبين من خلال التأمل في بنودها فالمتأمل في مواد الصحيفة يلاحظ بسهولة أنها تتألف من شقين أساسيين:**الشق الأول موادعة، والشق الثاني تحالف،** ولعل الصحيح أن كليهما كتبتا في وثيقة مستقلة، وتم جمع المؤرخين لهما في وثيقة واحدة. فأما الوثيقة الأولى فهي تتناول موادعة الرسول ﷺ لليهود، وتوضيح ما لهم وما عليهم من حقوق وواجبات في دولة الإسلام كتبت في ثلاثةٍ وعشرين بنداً من (١–٢٣)[١] في بيت بنت الحارث (رملة) قبل واقعة بدر الكبرى[٢].

وأما الوثيقة الثانية[٣] فهي وثيقة كتبها الرسول ﷺ بين المهاجرين من قريش، وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، وهي التزامات وحقوق خاصة بالمؤمنين والمسلمين من أهل مكة وأهل يثرب (أي المهاجرين والأنصار) وقد حصرت في أربعة وعشرين بنداً ومادة ابتداءً من الفِقْرة (٢٤ وحتى ٤٧) في بيت الصحابي أنسٍ ابن مالكٍ، ﷺ.

ورجح (العُمري في السيرة النبوية الصحيحة) أن تكون وثيقة موادعة اليهود كتبت قبل موقعة بدر الكبرى[٤]، ولربما ذلك استنتاجاً منه من قول الطبري (في تاريخ الرسل والملوك): "**ثم أقام الرسول بالمدينة**

---

(١) قسم حميد الله صحيفة المدينة إلى فقرات في كتابه المعروف الوثائق النبوية والمودعة نسخة منها في مكتبة جامعة لندن البريطانية، وقد حوت على ٧٢بنداً. ورأى البعض أنها(٤٧) فقرة، وبعضهم قسمها إلى(٥٢)، ومنهم من تجاوزت تقسيماته من المستشرقين إلى(٩٢) بندًا.

(٢) وانظر العلي: تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة، مجلة المجتمع العلمي العراقي، مج ١٧، بغداد ١٩٦٩م وسبقت الترجمة لرملة الأنصارية في الفصل الأول.

(٣) ذهب بعض الباحثين المعاصرين إلى أن الصحيفة قد وصلتنا وحدة متكاملة، ولا يستبعد أنها كانت في الأصل مكونة من أقسام وضع كل منها في زمن، وأن جمعها في كتاب واحد، هو من عمل الرواة. يقول العلي:إنه إذا صح هذا الافتراض، فإن الأقسام الأولى المتعلقة بتنظيم المسلمين قد صدرت زمن معركة بدر، أما الأقسام المتعلقة بتنظيم أمور القتال، فتكون قد صدرت متوافقة مع معركة الخندق أو بعدها بقليل، علماً بأن معركتي أحد والخندق هددتا المدينة وتطلبتا تنظيماً عاماً لأهلها بمن فيهم اليهود. لكن (وات)يذهب إلى أن هناك أسباباً عدة تجعلنا نعتقد أن بنود الصحيفة قد كتبت في أوقات مختلفة، ثم جمعت كلها لاحقاً، فنجد فروقاً لغوية في بعض بنودها. انظر العلي: تنظيمات الدولة، المرجع السابق.

(٤) وعن ذلك يقول ابن سلام –في الأموال: إن الوثيقة–:"كتبت حدثان مقدم رسول الله المدينة قبل أن يظهر الإسلام =

منصرفه من بدر، وكان قد وادع حين قدم المدينة يهودها، على ألاَّ يعينوا عليه أحداً، وأنه إن دهمه بها عدو نصروه، فلما قتل رسول الله من قتل ببدر من مشركي قريش أظهروا له الحسد والبغي...وأظهروا نقض العهد"[١].

وبغضّ النظر عن الاختلاف في مسميات الصحيفة، أو تاريخ صدورها، أو حتى النظر كونها وثيقة واحدة أم وثيقتين؛ فأهم ما يعنينا هنا هو سياسات الوثيقة وموضوعات بنودها بصفة العموم.

والصحيفة تحدثت عن قضايا تنظيمية وإدارية في ثلاثة ميادين رئيسة هي: الجوانب الدينية، والجوانب السياسية، والجوانب الاجتماعية، كذلك من خلال التدقيق في بنود الوثيقة يلاحظ أنها كانت نتيجة اتفاق بين أطراف المجتمع، ومشاورات تمت بينهم بإشراف وإرشادٍ نبوي، ولربما كان بإملائه ﷺ، وكان إعلان الوثيقة ببيانٍ يؤكد التعهد والإلزام لما في بنودها؛ فنظراً لكون هذه الأطراف جماعات متعددة كان من الضروري أن تكون كل مادة من مواد الوثيقة تحمل طابع المشاركة وطابع الالتقاء بين هذه الأطراف، وأن يُعتمد ما تم الاتفاق عليه، وأن تُشكل كل مادةٍ متفقٍ عليها حكماً من أحكام الوثيقة، وكل مادة يقع فيها خلاف بين الأطراف فمرجعها إلى مُحَمَّد ﷺ.

والواقع أن الصحيفة فصّلت الخطوط العريضة لكل جماعة وفئة من أطراف الوثيقة. فجماعة المؤمنين أنفسهم من المهاجرين والأنصار أقرتهم على ما كانوا عليه من عادات وأعراف سادت بينهم فيمالا يتعارض وروح الإسلام ومبادئه، كما أقرت مبدأ العقوبات والديات وعقود الصلح، وشددت كذلك على مسألة الجوار وحرمته، وحددت الموقف من قريش، ومن ثم ناقشت متعلقات جماعة اليهود على تعدد قبائلهم وبطونهم وحلفائهم بكافة، وتناولت تفاصيل تعاملاتهم مع المؤمنين بخاصة، ثم انتقلت إلى الحقوق العامة والواجبات والالتزامات المشتركة بين جميع الأطراف من الشؤون الأساسية المهمة والعامة في الدولة الناشئة

=

ويقوى، وقبل أن يؤمر بأخذ الجزية من أهل الكتاب "، وانظر الأموال رقم ٥١٨.

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص٤٨، وفي هذا يقول صالح العلي: " وكان تاريخ الوثيقة ليس في الأشهر الأولى للهجرة، وإنّما بعد تبلور شكل المجتمع السياسيّ الإسلاميّ في يثرب، وظهور تصميم النبيّ على الدفاع والمقاومة، التي تجلّت في الغزوات والسرايا الأولى بعد ستة أشهر من هجرته المباركة؛ ففي الأشهر الأولى كان اليهود يراقبون التجربة الجديدة، وسياسة المسلمين، ومدى تلاحمهم وتصميمهم، وقدرتهم العسكريّة؛ وبناءً عليه كان اقتراحهم على النبيّ ﷺ أن يعقدوا معه اتِّفاقات تعايشٍ سلميّ. تنظيمات الدولة، المرجع السابق.

بما يخص الجوانب السياسية والجوانب القضائية ومتعلقات قضايا السلم والحرب، كما ويظهر، من خلال تدقيق النظر في تلك البنود، أنها ضمت كذلك المشركين من أهل المدينة إذ أصبحوا طرفاً في تلك الوثيقة.

وخلاصة القول: إن أسس مضامين صحيفة المدينة(١) تضمنت أبرز العناصر التالية:

أ- تأمين الغرامات (حق الديات وما يتبعها).

ب-إتاحة الحرية في المعتقد الديني، وفي ممارسة الاقتصاد.

ج- تحديد مهام الدولة، وتوزيع مسؤولية حمايتها.

د- تحديد المرجعيات والمسؤوليات.

ولتتضح الرؤيا حول الالتزامات والحقوق بين جميع الأطراف يجدر بنا التلخيص لها على نحو التفصيل بالجدول الآتي:



(١) وانظر نص ميثاق صحيفة المدينة كاملاً في الملاحق ملحق رقم (٦).

ملخص النموذج الإداري للجوانب العملية لمضمون وثيقة المعاهدة (صحيفة المدينة)

الفئة	القيم التشريعية وجوانب الالتزامات والحقوق	نوعها	نص البند من الوثيقة
حقوق الجماعة الإسلامية	**أهمية رباط العقيدة وتفرد الشخصية الإسلامية بالدين والمعتقد دون الدم والنسب.**	ديني	_هذا كتاب .... بين المؤمنين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم **أنهم أمة واحدة من دون الناس.**
	تأمين الغرامات وحق الديات.	اجتماعي	_على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط .... _وأنه من اعتبط مؤمنا قتلاً عن بينة فإنه قودٌ به ،..... وأن المؤمنين عليه كافة.....
	التكافل والتضامن الاجتماعي بين أفراد الجماعة الإسلامية. ويتمثل بالتكافل الإسلامي المجتمعي في المصائب والكروب والتضامن في دفع الديات ، وفكاك الأسرى وإعانة المحتاج.	اجتماعي و ديني	_أن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلماً ،أو إثماً أو عدواناً، أو فساداً بين المؤمنين. _وأن المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.
	النصر والمعونة بين المسلمين، وعدم الخيانة والغدر. وذلك بممانعة الظلم والتعدي والخيانة وموالاة العدو والتعاهد على نصرة المظلوم وقطع صلات الود الجاهلية القديمة.	ديني و اجتماعي	_أن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس. _ وأن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالمُ مؤمنٌ دون مؤمنٍ في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم.
	المرجعية القضائية والتنفيذية في الحكم لله ورسوله ﷺ.	ديني وسياسي	وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيءٍ، فإن مرده إلى الله وإلى مُحَمَّد.
حقوق جماعة اليهود	منع المؤمنين إجارة قريش.	سياسي ديني اجتماعي	_وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن.
	تبعية اليهود للأمة السياسية في المدينة. والمقصود تبعيتهم في الرعية السياسية كونهم أمة دعوة.	سياسي و اجتماعي	_وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين.
	رصد حركات اليهود وقيدها. بأن قيدت حركاتهم وتنقلاتهم إلا بإذنٍ نبوي من مُحَمَّد ﷺ.	سياسي أمني اجتماعي	_وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن مُحَمَّد.

تابع ملخص النموذج الإداري للجوانب العملية لمضمون وثيقة المعاهدة

الفئة	القيم التشريعية وجوانب الالتزامات والحقوق	نوعها	نص البند من الوثيقة
الحقوق الجماعية مشتركة	**تأكيد شخصية العقوبة**، وذلك بتحديد مسؤولية الجرائم وحصرها على مرتكبيها.	دينية سياسية اجتماعية	ــوأنه لا يأثم امرؤ بحليفه. ــوأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته. ــإلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلابنفسه وأهل بيته ــولا يكسب كاسب إلا على نفسه.
	منع إجارة قريش ونصرها والحد من ممارسة نشاط الاتجار الاقتصادي مع أعداء المسلمين خارج المدينة.	سياسي أمني	ــوأنه لاتجار قريش ولا من نصرها.
	تحديد المرجعية العليا في الحكم وذلك بإقرار مرجعية الحكم إلى الله ورسوله ، ورد كل حدثٍ أو شجار يخاف فساده إلى الحكومة الإسلامية.	سياسي اجتماعي	ــوإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدثٍ أو اشتجار يخاف فساده فإن مردة إلى الله وإلى رسول الله .
	تحقيق أمن الدولة بالمشاركة في: (أ) الحرب الدفاعية، وكذا الدعم المالي وهو مسؤولية الجميع. (ب)عدم إجارة المشرك وإيواء المحدث. (ج)التأكيد على حرمة المدينة. (د) المسؤولية الجماعية في النصر على من حارب أهل الصحيفة ، مع تقديم النصيحة والبر دون الإثم.	سياسي و اجتماعي و سياسي اجتماعي	ــوإن بينهم النصر على من دهم يثرب . ــوإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. ــوأنه لا يحل لمؤمنٍ أقر بما في هذه الصحيفة أن ينصر محدثاً أو يؤويه. ــوأن يثرب حرامٌ جوفها لأهل الصحيفة. ــوأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.
	حق احترام الحقوق والحريات الأساسية وهي: ١ــحرية البقاء والخروج دون ظلم أو إثم. ٢ــ احترام حق الجار ٣ــ حرية الاستقلال المالي والاقتصادي. ٤ــ حرية المعتقد وممارسة العبادة. ٥ــ إتاحة العدل والمساواة بين أفراد الرعية دون الإثم والظلم.	سياسي و ديني و اجتماعي	ــ وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم. ــوأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم. ــوأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم. ــلليهود دينهم، وللمسلمين دينهم. ــوأنه من اتبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

أولاً: حقوق وواجبات الجماعة الإسلامية.

وهي التي يمكن القول بأنها تمثل (وثيقة الحلف بين مهاجري مكة وأنصار المدينة) ومن بنودها..

- المسلمون من قريش ويثرب ومن تبعهم أمة واحدة.

نصت الوثيقة أنها بين العرب والمسلمين من أهل يثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، وأنهم أمة واحدة من دون الناس ؛فهي تشمل العرب والمسلمين من أهل يثرب، وتمتد إلى من لحق بهم وجاهد معهم. فهي تشمل ثلاث مجموعات عربية هي قريش (ويقصد بهم المهاجرون) وأهل يثرب (ويقصد بهم الأنصار) ومن تبعهم، فلحق بهم وجاهد معهم وجعلت الوثيقة مهاجرة قريش مجموعة قائمة بذاتها، ولم تنسبهم إلى عشائرهم، ولعل مرجع ذلك قلتهم وتعدد عشائرهم، ثم تلت ذلك بذكر ثماني عشائر من أهل المدينة، بتسلسلهم: وهم بنو عوف، والحارث بن الخزرج، وساعدة، وجُشم، والنجار، وعمرو بن عوف، والنبيت، والأوس، فأقر الرسول، ﷺ، في هذه البنود متابعة العشائر في الإقامة برباعها الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين[١].

والواقع أن مصطلح (أمة) في مطلع الوثيقة في الجزء الخاص بالمسلمين؛ وإنما خصهم به ﷺ على وجه التحديد بأنهم أمة العقيدة والدين، فهم ومن تبعهم ولحق بهم في الدين أمة واحدة من دون الناس، أمة تربطهم جميعاً رابطة الدين لا الدم، أمة تحتكم إلى الدين والشرع لا التقاليد والعُرف، وهم بذلك يتمايزون بهذا الرباط عن سائر الناس، وهذه الروابط تقتصر على المسلمين ولا تشمل في نص هذا البند غيرهم، ولاشك أن تميز الجماعة الدينية بلفظ (أمة) كان أمرًا مقصودًا يستهدف زيادة تماسكها واعتزازها بذاتها[٢] وتميز عقيدتها ؛ ولذا خصها ﷺ بالقول **(من دون الناس)**، أعقب ذلك الالتزامات الشرعية القائمة على هذا التخصيص والتميز بعقيدة الإسلام لعدة قيم ومبادئ ومنها:

- تأمين الغَرامَات وحقّ الديات وما يتبعها.

وجاء في هذا الأصل بنودٌ من بنود مبادئ الوثيقة تقرر أن أفراد الجماعة الإسلامية متكافلون فيما

---

(١) العلي، صالح: صحيفة الرسول ﷺ لأهل المدينة دراسة لمحتواها ودلالتها على تنظيمهم، مجلة الداعي، دار العلوم، محرم — صفر ١٤٣١ هـ ديسمبر ٢٠٠٩ م، يناير — فبراير ٢٠١٠م، العدد ١-٢، السنة: ٣٤، ص١٦.

(٢) العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ج١ ص٢٩٢.

بينهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفةٍ منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وفي هذا المعنى من تأمين الغرامات، و حق الديات وما يتبعها جاء نص" **وأنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بنية فإنه قَوَدٌ به، إلا أن يرضى ولي المقتول بالعقل، وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه"**.

وفي نص البندين من مبادئ القيم التشريعية تكافؤ الحقوق بين أفراد الجماعة الإسلامية بعضهم على بعض حتى في الدماء، وتَساويهم جميعاً في الحقوق والواجبات.

وبهذا أقرّ ميثاق الصحيفة الأمن الاجتماعي، وضمنه بضمان الديات لأهل القتيل، وفي ذلك إبطالٌ لعادة الثأر الجاهلية، ومن القيم التشريعية أيضًا أن على المسلمين أن يكونوا جميعًا ضد المعتدي الظالم حتى يحكم عليه بحكم الشريعة.

- التضامن والتكافل بين المسلمين.

وهو حق مهمٌ في الوثيقة وملزمٌ للمؤمنين جميعاً، وقد ضم هذا المبدأ البنود من الفقرة (٣-١٢)[١] وهي تمثل المهاجرين في كتلة واحدة تبعها الكيانات العشائرية للأنصار تباعاً[٢] في وحدة رباط جماعي للتضامن الاجتماعي لدفع الديات، وسداد الدين، وفكاك أسارى الحرب، وإعانة المحتاج ؛وفي هذا تحقيقٌ للمسؤولية الجماعية الخاصة بالمؤمنين، وفيه مصلحة التعاون والتكافل للجماعة الواحدة؛ وبذلك حول رسول الإسلام ﷺ وجهة الروابط القبلية، واستفاد منها بتكيفها وفق أهداف الدين العليا وقيمه المثلى فلا تناصر في ظلمٍ ولا عصبية، ومن مبدأ التضامن الإسلامي إلى مبدأ قريبٍ منه وهو:

- التعاون والوحدة بين أطياف الأمة المسلمة على درء الظلم والبغي أو الإفساد والتعدي.

جاء من بنود نص الوثيقة: "**وأن المؤمنين المتقين (أيديهم)على (كل) من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة ظلمٍ، أو إثماً، أو عدواناً، أو فساداً بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم"** وفي هذا الأمر النَّبوي التأكيد على المسؤولية الجماعية لسائر الجماعة الإسلامية بالتعاون على دفع الظلم وممانعة البغي ورده ؛ لتحقيق الأمن والعدل في مجتمع المدينة. وفي التوجيه النبوي من المبادئ والقيم إكساب

(١) جاء في نص الوثيقة البند (٣) "المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين...... إلى بند (١٢) " وأن المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل ".

(٢) وهذا لا يعني إقرار العشائرية أساس الارتباط الأول بين الناس كما لا يعني الإبقاء على العصبية القبلية، وإنما أراد بهذا التخصيص الاستفادة منها في عملية خدمة المجتمع والإسهام في مسألة بناء التكافل الاجتماعي. العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج١، ص ٢٩٣.

الأحكام التشريعية القوة والقدسية ما يمنع ضعاف الإيمان من تجاوزها وارتقاء حدودها، ويزدادا الأمر تأكيداً وقوة قوله ﷺ -في تتمة البند -:"**ولوكان ولد أحدهم**".

- منع المؤمنين إجارة قريش.

يقف بنا نص الوثيقة في أحد بنودها[١] على تأكيد الإجارة بين المؤمنين بعضهم بعضاً دون قريش وتجاراتها، أو الوقوف أمام تصدي المسلمين لها. ولأي مسلم الحق في الإجارة ومنح الأمان لمن شاء بعضهم بعض إلا من قريش، وعلى جميع أفراد الدولة احترام هذا الأمان، وإجارة من أجار المسلمَ، ولو كان المجير أحقرهم وأدناهم، وتتجلى قيمة هذا المبدأ الإنساني بما يثبت تساوي رتبة المسلمين عند النبيّ ﷺ فهم بمنزلةٍ واحدة، فأقلُّ المؤمنين يجير أكبرهم.

- المرجعية القضائية والتنفيذية في الحكم لله ورسوله ﷺ .

تناولت الوثيقة، فيما يخص جانب المؤمنين، بإعلانٍ صريح أن الحاكمية لله ورسوله، وأن على الكافة الخضوع لسلطان الشرع والاحتكام إلى قواعده "**وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى مُحَّد**" وفيه التأكيد على جماعة الأمة المسلمة المرجعية في الحكم لله ﷻ ورسوله ﷺ. وتعتبر هذه المادة غاية الأهمية كمبدأ أساسيٍّ يؤكّد إقامة العدل، وتنظيم ديوان القضاء، ونقله من الأفراد والعشيرة إلى الدولة دون محاباة، ودون السماح لتحكم الأهواء.

ثانياً: حقوق والتزامات أمة اليهود.

إن في مكاتبة النبي ﷺ لليهود بكتابٍ مخطوطٍ يوضح ما لهم ويبيّن ما عليهم من واجبات وحقوق؛ ليعطي دلالة أكيدة لعالمية هذا الدين الذي يتسع لقبول الغير، فيؤكد مسؤولية الرحمة والبر بالآخر والإحسان إلى الآخر، والعدل مع الآخر، والتعاون والتعامل مع الآخر، وهو بذا يتيح ويسمح بفرصة عرض مبادئه ونشر دعوته للآخر، ولربما شاركت بعض بنود الوثيقة الخاصة بجماعة المؤمنين في أولها بعض الواجبات المتعلقة بجماعة اليهود مع تكرارها في مواضع مختلفة في الوثيقة[٢].

ومن الملاحظ أن الصحيفة كذلك خصصت لليهود مواد كثيرة بعضها متشابهة إلا في أسماء العشائر، وبعضها متفرقة. ومرجع هذا كثرة عددهم، وتعدد أنشطتهم، وتميزهم بأثر العقيدة، ودورهم في الحياة الاقتصادية،

(١) " وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض من دون الناس".

(٢) وهذا ما يثبت صحة من رأى أنهما وثيقتان.

وتشابك مصالحهم مع عرب أهل المدينة؛ وعليه يمكن القول إن بنود الصحيفة، فيما يخص جماعة اليهود، تصنف إلى صنفين:صنف يتعلق بيهود العشائر العربية، وصنفٌ يتعلق بالقبائل الخاصة باليهود إطلاقاً[١]، وعلى كلٍ فإن أهم تلك البنود بمجملها:

– تبعية اليهود لأمة المؤمنين السياسية.

عني النّبي المصطفى ﷺ بتبعية اليهود وإلحاقهم بأمة المؤمنين. والمراد بها أمة السياسة لا أمة العقيدة والدين[٢] يدل لذلك قوله ﷺ: «**لليهود دينهم وللمسلمين دينهم**» بعد قول «**أمة مع المؤمنين**» فاليهود بتعدد طوائفهم الذين وردت أسماؤهم بنص الوثيقة يمثلون أمة واحدة مع جماعة المسلمين، سياسياً ودستورياً، في الحقوق والالتزامات المشتركة بينهم في أمور الحرب وتبعاتها، وأمور القضاء في الخصومات[٣] بحكم كون الرسول ﷺ قائدًا سياسياً للدولة ورأسها، وفي ذلك إعزاز لمكانة النبي ﷺ ولدينه، وفي البند أيضاً تأكيد إقرار الإسلام بالتعددية الدينية حسب الواقع، كما فيه أن تلك المعاهدة جعلت جميع القاطنين في المدينة من مهاجرين، ويثربيين، ومَن تبعهم، وجاهد معهم، أمة واحدة، وفي ذلك بعْدٌ آني لمن يقطن يثرب، وبعدٌ مستقبلي لمعنى الأمة حيث تضمن هؤلاء جميعاً، ومن يلحق بهم، ويجاهد معهم.

والمدقق بنص البند (**أمة مع المسلمين أو أمة من المسلمين**) –كما في رواية ابن سلام–[٤] يلاحظ أنه من المسَلَّمات أن الأمة الناشئة في المدينة هي في الواقع (**كيان سياسي واجتماعي**) يتجاوز حدود القبيلة أو حدود العقيدة لتتسع فتشمل الولاء السياسي كأساس للترابط الجماعي في الدولة. وفي ظننا أن هذا المفهوم يعطي معنىً وبعدًا ثالثاً لمعنى الأمة ؛ فإذا كانت الأمة بشقيها (**أمة إجابة أو عقيدة وأمة دعوة**) فلتكن كذلك، حسب مفهوم الوثيقة، أمة سياسة ؛ حيث كان اليهود في مجتمع المدينة ضمن الأمةِ السياسية التي ارتضت العيش في إطار النظام الإسلامي، وتحت قيادة الرسول ﷺ، آمنوا به أم لم يؤمنوا.

(١) العلي: صحيفة الرسول ﷺ لأهل المدينة، مرجع سابق، ص١٨.

(٢) أي أمة واحدة بالوصف الديني العقدي كما في نص الوثيقة (أمة واحدة من دون الناس)، أما بالمعنى السياسي فهُم مع غيرهم من المواطنين –الذين يختلفون معهم في الدين والاعتقاد– أمة واحدة. الشرقاوي، مُحَمَّد: قيم التعايش المشترك ومبادئه في وثيقة المدينة، مجلة حراء، إسطنبول، العام ١٠ يناير ٢٠١٥م، عدد (٦٤).

(٣) فلهم الخيار في فض خصوماتهم بحكم التوراة، أو حكم القرآن، أو اعراض النبي، عليه السلام، عن الحكم بينهم وانظر سورة المائدة ﴿ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ﴾ آية (٤٢).

(٤) وانظر: أبو عبيد ابن سلام في الأموال ص ٢٩٦وقد رد بعض المؤرخين ما في كتاب الأموال إلى التصحيف.

وهكذا شكلت الأمة (الجديدة) في صياغة الوثيقة أمة المجموع السياسي الذي يتناول جميع الفئات التي ارتضت أن يمثل الإسلام الإطار الفكري الذي تعيش فيه حياتها السياسية. وفي هذا الأمر بعدان، البعدُ الأول: أنها أفسحت مجال انضمام كل الأفراد والجماعات تحت كنف الإسلام سياسياً، وهذا دليل قوة الإسلام وعزته، البعد الثاني وهو حنكة الرسول، عليه السلام، في استخدام اللفظ؛ فلفظ أمة أوسع في دلالته من مفهوم لفظ الدولة بل هذا اللفظ بهذا المعنى والمفهوم أفسح مجال نمو وتطور دولة المدينة الناشئة للتحول إلى مدينة كبرى تضم معظم القبائل في أواخر حياة النبي ﷺ ثم لتتسع أكثر فأكثر فتصبح دولة عالمية بمسمى الدولة الإسلامية، وهي تضم شعوباً وقبائل وجماعات ؛ومهما تعددت أعراقها ومعتقداتها فهي تعيش تحت مظلة الحكومة الإسلامية[(١)]، وبذلك أصبح الإسلام هو العقيدة الاسمية لمن تقبّل هذا الدين بغض النظر عن عرقه ولونه، وللأمة بعامة ممن عاش تحت لواء دولة السلام وإن لم يكن على هذا الدين.

- تأكيد أمن وسِلم المدينة الداخلي والخارجي.

إن غاية النبي ﷺ وقمة جهده، بعد تمكينه الدعوة وإيجاد محضنٍ وملاذ لها، توفير الأمن والأمان في حدودها وحماية أفرادها؛ ولذا حرص ﷺ لصد كل ما يعرض لأمن المدينة ويتهدد حياة قاطنيها، ولا سيما ممن لا يؤمن جانبهم ولا يفون بعهد ولا ذمة ولا ميثاق، فكان من سياسة التدبير أمران أولهما: رصد حركات اليهود وتقييد تنقلاتهم ومنعها إلا بإذنه ﷺ، والثاني: منعهم من إجارة قريش ومن جميع أعداء المسلمين ومنع مناصرتهم، على أن هذا المنع لإجارة قريش قد جاء في حق جانب المؤمنين، وحق خاص يضم جانب المشركين، وكذا تكرر في موضع الحقوق المشتركة بين المؤمنين و اليهود على السواء ما يؤكد أهمية حرصه ﷺ على أمن المدينة وحفظ حدودها، وعن أول الأمرين وهو:

(أ) قيد تحركات اليهود بالإذن في حال الخروج.

هو إلزامٌ نبويٌ لقيد تحركات اليهود، خاصة، خروجاً وانتقالاً عن المدينة، سياحة[(٢)]، وسفراً، وتجارة أو ما إليه، فلا يكون إلا بإذنٍ نبوي مسبوقٍ متفقٍ عليه. وفي هذا الإجراء المنع والحد من تجاوزات اليهود؛ مظنة

---

(١) الهلابي عبد العزيز، والملاح هاشم يحيى: الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية (الإسلام وبناء الدولة العربية) الفصل الثاني السيرة النبوية، ص ١٣٩- ١٤٢.

(٢) والمقصود بالسياحة هي السير ومنه قوله ﷻ ﴿ فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة:٢]، أي سيروا في الأرض مقبلين ومدبرين، آمنين غير خائفين؛ بحرب ولا سلب ولا قتل ولا أسر. يقال: ساح فلان في الأرض يسيح سياحة وسيوحاً وسيحاناً، ومنه السيح في الماء الجاري المنبسط، وانظر القرطبي في الجامع، سورة براءة، قوله تعالى: =

قيامهم بأي نشاطٍ عسكري كالمشاركة في الحرب مع أعداء المسلمين خارج المدينة ونحوه، وفيه أيضاً إلزام اليهود بالخضوع والانصياع للنظام العام في دولة الإسلام.

وتجدر الإشارة هنا إلى واقع العصر المؤلم المرير الذي يعيشه المسلمون اليوم في فلسطين، ويوم أن كانت القوة والعزة للمسلمين بالإذن والمنع آنذاك.

(ب) منع المشركين[١] من إجارة قريش وجميع أعداء المسلمين المحاربين أو مناصرتهم.

والعنصر الثاني من بنود أمن المدينة وسِلمها الداخلي عنصرٌ سياسي مهم وهو منع مشركي يثرب، من الأوس والخزرج، من إجارة قريش ونصرها ومؤازرتها، وكان النبي ﷺ إذ ذاك يستهدف التعرض لتجارة قريش – المحاربة له– وهي تمر غربي المدينة في طريقها إلى الشام، فكان لابد عليه لزامًا أخذ هذا التعهد على هؤلاء المشركين وكذا جماعة اليهود[٢]؛ لئلا تؤدي إجارتهم لتجارة قريش إلى الخلاف بينهم وبين المسلمين.

ثالثاً: الحقوق والواجبات المشتركة بين جميع قاطني الدولة.

سبق البيان بأن بنود الوثيقة جاءت على حقين ملزمين لأهل المدينة بينهما حقٌ ثالثٌ مشترك ومبادئ عامة لجميع أطراف الرعية في الدولة، وهي من الضرورات التي تمثل مسؤولية رأس الدولة، وكانت تلك الحقوق على قسمين:

قسمٌ أول: تناول بنداً خاصاً يحوي مسألةً إلزامية تتعلق بالمسؤولية الفردية، وهذه المسألة حق مفردٌ وعام للجميع، والقسم الثاني: تناول بنوداً عديدة تتعلق بالمسؤولية الجماعية والنشاط الجماعي المشترك للكافة. ومن واجبات الحقوق المفردة أولاً.

=

فسيحوا في الأرض أربعة أشهر، ج٨، ص٦. والمعنى سيرهم وتنقلاتهم في أطراف وجهات المدينة، إما بغرض اتجارهم أو صلاتهم الاجتماعية أو نحو ذلك.

(١) وهو لا يعني المشركين الذين تحالفوا مع المسلمين أو قاتلوا معهم، بل يعني المسلمين من غير قريش ويثرب من أبناء القبائل الأخرى الذين دخلوا في الإسلام، ولحقوا بالمسلمين في المدينة، أما القرائن الدالة على ذلك، فقوله (فلحق بهم) وهو يدل على الهجرة، ليعني الذين تركوا قبائلهم وهاجروا إلى المدينة، وهؤلاء على وفق الأعراف القديمة كانوا حلفاء، وليسوا أصلاً في مجتمع القبيلة، أما الآن فهم أبناء الأمة الجديدة، أصل في مجتمعها، لهم قوله في النص:(وجاهد معهم)ولو قال:(وقاتل معهم) لأمكن تصور أن الأمر قد يعني المشركين من حلفاء المسلمين، غير أن النص على الجهاد يشمل المسلمين فحسب، نوري، موفق سالم: فقه السيرة النبوية، دار ابن كثير، دمشق، ط١، عام ١٤٢٧هـ، ص٢٠٤.

(٢) في نص بندٍ مشتركٍ مع المؤمنين (وأنه لاتجار قريش ولا من نصرها)

– تقرير مبدأ (المسؤولية الفردية).

حددت الوثيقة مسؤولية الجرائم، وأكدت حصرها على مرتكبيها فلا يتحمل أحدٌ وزرَ غيره "**إلا من ظلم وأثم وتجاوز فإنه لا يهلك إلا نفسه وأهل بيته**". فالمجرم المعتدي ينال عقابه وحده، وإن كان من المعَاهدين فلا يحول الكتاب دون ظالم وآثم، كما في نص الوثيقة، وفي هذا مبدأٌ قضائيٌ عدليّ حكيم، وهو أن المسؤولية الجنائية فردية وفي كتاب الله ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾[١]، ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾[٢] وبالتالي فإن العقوبة عليها لابد وأن تكون شخصية خاصة بمن ارتكب الجريمة، فلا يسد أحدٌ مسده ولا يحل أحدٌ محله في تحمل تلك العقوبة أو يكون بدلاً منه، وقررت الوثيقة ذلك في أكثر من فِقْرة منها: "**إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (أي يهلك) إلا نفسه وأهل بيته**"، "**وأنه من فتك فبنفسه فتك وبأهل بيته**"[٣]، "**لا يكسب كاسبٌ إلا على نفسه**". "**وأنه لا يأثم امرؤٌ بحليفه**"؛ أي لا يؤاخذ هو إنْ ارتكب حليفه جرمًا يستوجب العقوبة القضائية.

وأما بنود الحقوق الجماعية المشتركة فتمثلت ب:

– المسؤولية الجماعية لأمن الدولة. (مسؤولية أمن الدولة)

أكدت الوثيقة سعي المصطفى ﷺ في حفظ أمن المدينة وسِلمها في الداخل والخارج في أكثر من موضع، وأكثر من بند، وأكثر من صورة ومن ذلك:

(أ) منع إجارة المشرك وإيواء المحدث.

والملاحظ أن أمر إجارة قريش قد جاء التخصيص له في بندٍ يخص جانب المؤمنين (**وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض من دون الناس**)، وكذا جاء في بندٍ يخص جانب مشركي يثرب (**وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن**). ثم يأتي التكرار في تتمة الوثيقة في حق مشتركٍ بين الطرفين (**وأنه لاتجار قريش ولا من نصرها**) ؛ بُغيةً لأمن المدينة وتأكيداً لأهمية حفظها، وتجنباً لأي انحياز عصبي أو عنصري يعصف بالأمن داخل البلاد، ويقذف الرعب

(١) سورة الطور، آية (٢١).

(٢) سورة المدثر، آية (٣٨) والآيات في هذا المعنى كثيرة.

(٣) والمقصود بأهل بيته في البندين أي أقرب الناس إليه، إما لتحملهم ما يترتب على ذلك الظلم من حقوق للغير، وإما مما يلحقهم من سوء سمعة ومعرة وأذى. فالواجب على أهل بيت كل إنسان أن يأخذوا على يده، حفظاً له ولهم من التهلكة ولنجاتهم جميعاً.

بين العباد، مع التشديد في عقوبة من اقترف هذا الجرم ومارسه، وهو مبدأ سياسي يرسم الإطار التعاوني بين المؤمنين وغير المؤمنين على حدٍ سواء ينصر بعضهم بعضاً، في ميثاقٍ، وفي معاهدة دفاعٍ مشترك، لا يحل لأحدٍ ممن عاهد، ووافق على هذه الوثيقة، وقبِل هذه الاتفاقية أن يحدث حدثاً، أو يؤوي محدثاً، وإذا فعل ذلك وقعت عليه لعنة الله وغضبه إلى يوم القيامة، والملائكة والنّاس أجمعين، لا يقبل منه صرفٌ ولا عدل، لا (توبة) ولا (فداء) "**وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة أن ينصر محدثاً أو يؤويه، وأن من نصره، أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، لا يؤخذ منه صرف ولا عدل**".

(ب) الحرب الدفاعية عن الدولة، والدعم المالي مسؤولية الجميع.

وفي صورة أخرى يؤكد ﷺ أمن المدينة وحمايتها من الخارج بحقٍ جماعي مشترك "**وأن بينهم النصر على من دهم يثرب**"، وهو بندٌ يُلزم جميع الأطراف تولي مسؤولية الحرب الدفاعية عن المدينة، فأما بني يهود فتكون مسؤولية مشاركتهم في الحرب بتكفل دفع نفقاتها دعماً مالياً ومادياً بالعدة والعتاد ؛ فهم متشاركون مع جماعة المسلمين في العيش في الدولة؛ فلذا هم ملزمون بدفع تلك الأعباء مع المؤمنين ما داموا محاربين.

نفقة مادية دون مشاركة القتال الفعلية[1] جاء في نص البند: "**وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين**". وعلى اليهود كذلك، مع مشاركة نفقات الحرب مادياً، تولي مبادلة المشورة والنصح معنوياً، وتقديم النصيحة والبر من دون مراعاة مصالح الحلفاء كما في النص: "**وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم**".

(ج) إقرار حُرمَة المدينة وتحديد حَرمِها.

وفي صورةٍ ثالثة وحق جماعي مشتركٍ لحفظ أمن المدينة يأتي التأكيد النبوي بالتطبيق العملي؛ وذلك بترسيم حدود حرم المدينة وإقرار حرمتها **(وأن يثرب حرامٌ جوفها لأهل هذه الصحيفة)** فكانت المواضع التي حددها، عليه السلام، علاماتٍ واضحاتٍ بين زوايا جهاتها الأربع، وكان هذا الإجراء إيذاناً بأن المنطقة المحصورة في ضمن هذه الحدود والواقعة في داخل وادي يثرب **(الجوف)** أصبحت منطقة حرم، وفي

(١) جاء في المستدرك على الصحيحين في حديث أبي حميد الساعدي قال: " خرج رسول الله ﷺ حتى إذا خلف ثنية الوداع إذا كتيبة، قال: من هؤلاء؟ قالوا: بنو قينقاع، وهو رهط عبد الله بن سلام، قال: وأسلموا؟ قالوا: لا بل هم على دينهم. قال: قولوا لهم فليرجعوا فإنا لا نستعين بالمشركين " أخرجه أبو عبد الله الحاكم في المستدرك ج٢، ص١٢٢. وفي الطبقات لابن سعد قوله ﷺ:" لا تستنصروا بأهل الشرك على أهل الشرك "، ج٢ ص ٢٧.

نص البند ما يشير إلى حرمة الحدود المعتبرة التي حددها النبي ﷺ آنذاك كما جاء في حديث علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «**الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مَا بَيْنَ عَيْرٍ إِلَى ثَوْرٍ، فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا، أَوْ آوَى مُحْدِثًا، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا، وَلَا عَدْلًا**»(١) ومن البنود الجماعية المشتركة

– مرجعية الحكم العليا لله ورسوله ﷺ.

وهذا البند في الأصل تكرار لما يخّص المؤمنين فقد أشارت الصحيفة إلى مسألة قضاء النبي ﷺ في خصومة المسلمين وفض نزاعهم (**وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى مُحَمّد**) وفي الحقوق المشتركة أتى بنص عام (**وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مردّه إلى الله، وإلى مُحَمّد رسول الله**) والجديد هنا أن النبي ﷺ ميز ما يُرد إلى حكم الله ورسوله لجميع الأطراف بلا استثناء هو الحدث أو الاشتجار الذي يخاف فساده، والمعنى المقصود أي التأثير السياسي السلبي الذي يؤدي إلى فساد واضطراب أمن المجتمع، وهو ما يسمى ويعرف حاليا (**بالإدارة الوقائية للمنازعات**)، وهذه المواد، وهي في الغالب مواد سياسية، توضح تدخل الرسول ﷺ في الاختلافات التي يُخشى أن تؤدي إلى فساد المجتمع، وفيها خطر على استقراره(٢).

وفي البند أيضاً تحديدٌ لمرجعية السلطة القضائية فيما بين جماعة اليهود وأمة المسلمين. فما يكون بينهم وبين المسلمين من حدثٍ أو اشتجار فيلزم اليهود فيه بالرجوع إلى حكم القضاء الإسلامي، أما مرجعية قضاياهم الخاصة وأحوالهم الشخصية فهم يحتكمون فيها إلى التوراة بقضاء الأحبار فيهم، وإن شاءوا فبالاحتكام إلى شرع الإسلام ولنبي الإسلام، عليه السلام، آنذاك الخيار بين قبول الحكم فيهم، أوردهم إلى أحبارهم بنص آية سورة المائدة(٣).

---

(١) البخاري: صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب حرم المدينة، ج٢حديث رقم (١٧٧١) ص ٦٢٦.

(٢) انظر الشعيبي، قائد أحمد: وثيقة المدينة الدلالة والمضمون، كتاب الأمة، مركز البحوث والدراسات في وزارة الأوقاف، قطر، وقفية علي عبد الله آل ثاني، (العدد) ١١٠ القعدة ١٤٢٦هـ –كانون أول (ديسمبر) ٢٠٠٥ –كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٦ م، ص ٣٥.

(٣) قال ﷻ: ﴿ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ سورة المائدة آية (٤٢) وسبق الاجمال في بيان ذلك.

- حق احترام الحقوق والحريات الأساسية.

وهو من البنود الجماعية المشتركة التي تظهر سماحة الإسلام وشموليته وعدله، ونحسَبها خمسة حقوق رئيسة كلها تدور حول حق الحياة والأمن، مضافاً إليها، حق الإلزام والاحترام لما في بنود المعاهدة وهذه الحقوق جميعها هي: حق احترام حرية الدين وممارسة العبادة، حق العدل، حق احترام ملكية المال وممارسة الاقتصاد، حق احترام حرية الإقامة أو التنقل والحركة، حق احترام الجوار.

(أ) إقرار الحرية في المعتقد.

اثبتت الوثيقة مبدأ الحرية الدينية ف "**لليهود دينهم وللمسلمين دينهم**"، ولا إكراه في الدين، وبذلك يكون الدين الإسلامي الحنيف قد ضمن وكفل للناس حرية الاختيار وعدم الإكراه بعد قيام الحجة والبيان عليهم، يقول الله ﷻ : ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ.....﴾[(١)].

(ب) الاستقلال المالي وحرية ممارسة الاقتصاد.

على الرغم من معرفة النبي ﷺ بالأوضاع الاقتصادية الخاصة بمجتمع المدينة فغالب الأموال في ذلك المجتمع بأيدي اليهود، مع تحكمهم بزمام الأمور الاقتصادية واحتكارها هناك؛ في مقابل ضعف موارد الأنصار المالية نتيجة لما آلت إليه حرب المائة والعشرين عاماً وما أنهكتهم به من كثرة الديون والرهان من اليهود، أضف إليه توافد المهاجرين إلى المدينة وزيادة تبعات إقامتهم بها، ومع ذا لم تفت الحكمة النبوية في التخصيص والاستقلالية، في حرية تملك المال وحرية إدارة نفقاته لكلا الطرفين؛ حفاظاً على العدل واعترافاً بالخصوصية، وإكراماً للإنسانية، وإقراراً لحرية الممارسة الفعلية والمرونة في التعاملات الإسلامية السياسية.

(ج) حرية الإبقاء أو الحركة والتنقل.

إن من احترام الحقوق والحريات الأساسية في الشريعة الإسلامية منح الوثيقة الحق للمرء في حرية الحركة والتنقل، أو في الإقامة والبقاء في بلده آمناً مطمئناً وله الحق في الخروج والسفر والترحال والانتقال وهو آمنٌ سالم مادام منضبطاً بالأوامر المطلوبة منه محافظاً على النظام العام ؛ فالحرية قائمة لمن يحفظ حرمة البلاد فلا يظلم ولا يرتكب إثماً يعرضه للمساءلة والمحاسبة "**وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وأن الله جار لمن بر واتقى و مُحَمَّد رسول الله ﷺ**".

---

(١) سورة البقرة، آية (٢٥٦).

(د) احترام حق الجوار[١].

حافظت الوثيقة على مبدأ التعايش السلمي، وإتاحة حرية الأمن للجميع ؛ فوثقت تأكيداً **(أن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم)**، وجعلت صلة الجوار، جنباً إلى جنب، مع صلة الإنسان لأقرب المقربين إليه وهي نفسه(كالنفس)، على أن يكون هذا الجوار بلا إثم ولا إضرار، يؤيد ذلك النص النبوي في الحديث الشريف الذي ارتأى أن إكرام الجار آية من آيات الإيمان الصادق والتدين الأكيد، قال ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلا يُؤْذِ جَارَهُ**»[٢].

(هـ) حق العدل.

من بنود الوثيقة الأساسية والسياسية العامة والمشتركة: العدل وعدم الظلم، ويمتد هذا العدل ما بين جماعة الأمة المسلمة إلى أهل الذمة والأقليات غير الإسلامية "**وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم**" وفي آخر" **وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة** "عدلٌ بالمعروف مع النصرة وعدم الإيذاء والظلم. وهو أصل أصيل في رعاية أهل الذمة، والمعاهدين، أو الأقليات غير الإسلامية التي تخضع لسيادة الدولة وسلطان المسلمين؛ فلهم إذا خضعوا للدولة حق النصرة على من بادأهم العداء أو اعتدى عليهم بغير حق، سواء من المسلمين أو من غير المسلمين، من داخل الدولة أو من خارجها، وفي ذلك مبدأ ثبات القيم الأخلاقية في السياسة الإسلامية. عدلٌ في الحقوق والواجبات، وعدلٌ في إتاحة الحريات[٣]؛ وفي ذلك ما فيه من قيمة حضارية مثلى في التعامل الإنساني.

وعلى كل حال فهذه المبادئ جميعها بلا استثناء تشكل الأساس القوي المتين الذي يُقام عليه بناء الدولة الإسلامية الفتية، ابتداءً بالبنود الدينية، وانتهاءً بالبنود السياسية التنظيمية.

---

(١) المقصود بالجار بنص بند الوثيقة:هي كلمة عامة تشمل المؤمن، وتضم معه اليهودي والوثني، أي كل المتساكنين في المجتمع المديني الجديد، وقد ينصرف المعنى إلى الحليف فيكون معنى "جار" واسع الدلالة، فيضم المعنيين «الجار الحقيقي، والحليف».

(٢) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، حديث رقم (٦٠١٨)، ولمسلمٍ في كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، حديث رقم (٤٧).

(٣) ومن ذلك العدل في حرية الرأي في الحكم القضائي فيما لا يخاف فساده، و يتسع ليشمل العدل في حرية التملك الاقتصادية، وما يتبعها من حرية الإنفاق في الموارد المالية، بل وأكثر من ذلك إذ يشمل الحرية التامة العامة لكل فصيل من أطراف هذه الصحيفة لعقد الأحلاف التي لا تضر الدولة.

(و) حق احترام بنود الوثيقة والإلزام بها.

إن من بنود الاتفاقية بين الطرفين "**وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم**" فلا ذمة ولا ميثاق في الإخلال بالمعاهدة، وأن من أخّل ببنود الاتفاق من اليهود فإنه ظالم لنفسه وأهله، وليس له على أهل هذا العهد ذمة ولا ميثاق، وحرصت الوثيقة على تقرير هذا المبدأ لكافة فرقاء الأمة، مسلمهم وغير مسلمهم. فما كان في الوثيقة من وفاق وما كان عليه من الاتفاق فلكل فريق مشارك في هذا العهد نصيبه في الحرب، والسلم، والنفقة، وعليهم التعاون والمشاركة، وبينهم النصح، والبر، من دون إثم. وهذا مبدأ أخلاقي ذو أهمية بالغة في تمييز النظام الإسلامي، وفي مقابل هذا الضمان تؤكد الوثيقة " **وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره**"، فهي كما تلزم المؤمنين تطبيق هذه الوثيقة بما وصفته ب **(أحسن هدي وأقومه)** تلزم أمة الإجابة بمراعاة تحري أنسب السبل وأقومها في القيام بما عليها من حقوق تجاه الذات والآخر، وفي قبول العدل منه، وعدم الاكتفاء بتقديم العدل له، بل تحري تقديم الإحسان له أيضاً؛ إقامة للحجة البالغة لدين الله تعالى، وهي بموجب هذا النص في سعيٍ دائمٍ نحو التزام أحسن الهدي وأقومه قولاً وفعلاً[١].

(١) عمر، السيد: وثيقة المدينة المنورة الدستور الإنساني الأول، (د.م)، (د.ت)، ص٢٨-٢٩.

المبحث الثاني: الاستراتيجية النبوية في مواجهة اليهود.

أراد المصطفى ﷺ تكوين مجتمعٍ ثابت الأركان قوي البنيان لكل ما يهم حياة الإنسان (ولا سيما في المجتمع المدني) فكان تدبيره ﷺ بإيجاد مجتمعٍ تكاملي، وكان سوسه لصياغة صحيفة المدينة بوحي رباني جامع وتفكيرٍ منطقيٍ مقنع، ورسمٍ إداري مبدع، حقق فيه أسس وقواعد المواطنة الصالحة بكل صورها، وجلَّى فيها معاني الإنسانية بكل أبعادها. فلقد أظهرت سياسة صحيفة المدينة معالم المشروع السياسي الإسلامي الذي تلخص في إنشاء دولة إسلامية إنسانية متكاملة تضم تحت لوائها أمة المؤمنين والمسلمين، وتتسع بحكم عالمية شريعتها وهيمنتها على الشرائع كلها، لتضم في كنفها غير المسلمين وسائر القاطنين؛ كأمةٍ سياسية متوحدة مع أمة المسلمين يسود مجتمعها الأمن والعدل وتحكيم الشرع، فكانت بنود الوثيقة وموادها ملبّية لكل الاحتياجات، ومنها درء خطر العدو المشترك، وكف أذى اليهود، برد أذاهم عن إثارة القلق والبلبلات.

المطلب الأول: العلاقة بين اليهود والرسول ﷺ في المدينة.

الحق أن ظاهر الموقف السياسي بين الإسلام واليهودية بادئ ذي بدء هو الاعتراف بوحدة العقيدة. وعلى الرغم من إدراك النبي ﷺ لطباع اليهود وتعاملاتهم مع أنبيائهم إلا أن استقراء شواهد التاريخ تؤكد، بما لا يدع مجالاً للشك، صدق نية الرسول ﷺ في التعاون والتعامل معهم، والاعتراف بهم وبحقوقهم المعنوية والمادية، إلا أن اليهود اختاروا تجميد بنود الوثيقة، واختاروا النقض على الوفاء بالعهد، وبيتوا الخيانة والغدر على الالتزام بالوعد، وآثروا التقوقع والانغلاق بمصالحهم القومية بدلاً عن الانفتاح على الأهداف العامة الكبيرة للأديان السماوية جمعاء[١]، وكان بادئ أمرهم التعنت والتعجيز وإثارة الجدل والتشكيك، على ما سبق التوضيح له والاستدلال لبعض صوره والجديد هنا أن ظاهر هذه الخلافات بدت بمظاهر نفورٍ بين الطرفين ليس على مستوى القبائل والجماعات بل على مستوى الأفراد والشخصيات حيث تزعَّم بعض أفرادهم ذلك بالشعر والهجاء، ومن أولئك أبو عفك[٢]، والعصماء بنت أمية[٣] وكذلك كعب بن

(١) خليل، عماد الدين: دراسة في السيرة، دار النفائس – بيروت، ط٢، عام١٤٢٥ هـ، ص ١٥١.

(٢) جاءت ترجمته لابن سيد الناس في فصل سرية سالم بن عمير، أن أبا غفكٍ يهودي شاعر من بني عمرو بن عوف، ثم بني عبيدة، وكان أبو عفك شيخاً كبيراً قد بلغ مئة وعشرين سنة. وكان يحرّض على رسول الله ويقول الشعر في ذمه، قتله الصحابي الجليل سالم بن عمير، وانظر ابن سيد الناس:عيون الأثر في المغازي والسير، ج١، ص٣٤١.

(٣) عصماء بنت مروان يهودية من بني أمية بنت زيد، كانت تحت يزيد، وقيل: مرثد بن زيد بن حصن الخطمي الأنصاري، أسلم بعد ذلك، ﵁، وكانت تؤذي النبي ﷺ وتعيب الإسلام وتحرض على النبي ﷺ، قتلها عمير بن عدي الخطمي وكان قتلها لخمس ليالٍ بقين من رمضان مرجع النبي ﷺ من بدر، ولتفصيل حادثة قتلها انظر الحلبي، علي إبراهيم بن برهان الدين (ت =

الأشرف[١] بل وأكثر من ذلك بأن تطور الحال إلى نقض المعاهدات وإجراء الفوضى والخصومات، ثم التحالف فالتّحزيب والتأليب.

بيد أن معركة بدر الكبرى في السنة الثانية للهجرة / ٦٢٣ للميلاد. فجّرت فتيل العداء اليهودي المستفحل في النفوس؛ فكانت إيذانًا بالقضاء على تكتلاتهم وهدم كيانهم المادي والمعنوي؛ فلذا نقضوا عهدهم معه ﷺ، وناصبوه العداء أبدًا، وألبوا عليه قريشاً والعرب جميعها حقدًا وكُرهاً، ويعبّر الواقدي عن هذا أصدق تعبير بقوله: "**لما قدم رسول الله المدينة وادعته يهود كلها، وكتب بينه وبينهم كتابًا، وألحق رسول الله كل قوم بحلفائهم، وجعل بينه وبينهم أمانًا، وشرط عليهم شروطًا، فكان فيما شرط ألا يظاهروا عليه عدوًا، فلما أصاب رسول ﷺ أصحاب بدر، وقدم المدينة بغت يهود، وقطعت ما بينها وبين رسول الله من العهد**"[٢].

المطلب الثاني: الإجراءات النبوية لمواجهة اليهود داخل المدينة وخارجها.

الحقيقة أن نقض اليهود للمواثيق والعهود بينهم والمسلمين سوّغت للنبيﷺ إعلان الرسول ﷺ الحرب عليهم، لتبدأ حينها صفحة مهمة ومرحلة تاريخية كبرى حاسمة في أحداث السيرة النبوية تَبيّن من خلالها فسحة المصطفى ﷺ في مواجهة بني يهود وما نتج عن تلك المواجهة لهم من الطرد والإجلاء عسكريا، أو بتصفيتهم والقضاء عليهم داخل المدينة لمن كان جرمه يستحق ذلك، أو بمحاربتهم خارجها كما في خيبر.

ومن أسفٍ أننا نلمس في كتابات المستشرقين نَفَسَ الحقد والكراهية في شأن الإجراءات النبوية لمواجهة اليهود، أو نقرأ التقليل منها، ناهيك عن النقد الشنيع البعيد عن الحق والصدق والدقة ومجانبة الصواب والمصداقية.

=

١٠٤٤هـ): السيرة الحلبية المسمى إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، دار الكتب العلمية، بيروت، عام ١٤٢٧هـ، فصل سرية عمير بن عدي الخطمي، ج ٣، ص٢٢٢.

(١) قال ابن إسحاق وغيره: إنه كان عربياً من بني نبهان، وهم بطن من طيئ، وكان أبوه أصاب دما في الجاهلية فأتى المدينة فحالف بني النضير فشرف فيهم، وتزوج عقيلة بنت أبي الحقيق فولدت له كعباً، وكان طويلاً جسيماً ذا بطن وهامة، وهجا المسلمين بعد وقعة بدر وتشبب بنساء المسلمين في المدينة حتى آذاهم، كان قتله في ربيع الأول من السنة الثالثة، انظر حاشية البخاري: في صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب قتل كعب بن الأشرف، رقم ٣٨١١، حاشية ١، ص ٣٩١.

(٢) الواقدي: المغازي، مصدر سابق، ج ١، ص ١٧٦.

وهنا نستعرض أبرز الأسباب الحقيقية العامة وأهم الدواعي الرئيسة الخاصة لتلك المواجهات والإجراءات من قبل المصطفى ﷺ لليهود داخل المدينة وفي أطرافها، فمن الأسباب العامة الرئيسة للمواجهة النبوية لليهود:

١- نقض اليهود للوعود وخرقهم للمواثيق والعهود المبرمة مع نبي الهدى ﷺ.

٢- الاتفاقات المبرمة والتحالفات المزمعة مع قريش لمحاربة سيد الورى ﷺ.

٣- زيادة النشاطات العدائية والمؤامرات الدبلوماسية ضد الرسول ﷺ والمسلمين.

٤- الإصرار والتعدي والتهديد والتحدي بإعلان الحرب العلنية ضد المسلمين.

٥- التجاوز والبغي بنظم القصائد والأشعار والمراثي العظام في قتلى مشركي بدر وفي هجاء الرسول ﷺ والمسلمين بعامة.

٦- ومن الأسباب انتصار المسلمين في بدرٍ الكبرى.

٧- ومن الدواعي اتخاذ اليهود مقراً ومركزاً بخيبر لمناهضة ومناوأة المسلمين.

٨- مشاركتهم مع الأحزاب ضد الرسول ﷺ.

وتلك أبرز الأسباب العامة ناهيك عن الأسباب الخاصة لكل فئة من تلك القبائل اليهودية الكبرى وجماعاتهم العظيمة في المدينة المتمثلة ببني قينقاع، وبني قريظة، وبني النضير[(١)].

وعن الأسباب الخاصة بكل قبيلة فلربما كان من الأجدر تلخيصها بجدول بسيط يتناول السبب والحدث والنتيجة؛ توضيحاً لطرائق التعامل النبوي تجاه هؤلاء اليهود كُلاً حسب جُرْمه على النحو التالي:

(١) ولعل لسائل ما أن يسأل: لماذا لم ترد مسميات هذه القبائل اليهودية العظيمة في صحيفة المدينة؟ والجواب أن الصحيفة ضمت سائر اليهود ضمنياً، أو كان ذكرهم في مواضع معاهدات أخرى كما ذكر عن ابن حجر، نقلاً عن ابن إسحاق، أن النّبي وادع اليهود لما قدم المدينة وامتنعوا من اتباعه، فكتب بينه بينهم كتاباً وكانوا ثلاث قبائل: قينقاع، والنضير، وقريظة، ذكرهم بأسمائهم، وانظر العسقلاني، ابن حجر: فتح الباري، ج ٧، ص ٣٥٠ وأما ابن هشام فلم يشر إلى القبائل الثلاث بمسمياتها بل اكتفى بالتعميم بقوله:" وادع يهود وعاهدهم" ، ج٢، ص ١٤٧ من سيرته. كما أن ذلك يتفق تماماً مع ما كانت عليه الحالة السياسية في يثرب، فإن البطون اليهودية الصغرى كانت قد دخلت في أحلاف مع الأوس أو مع الخزرج وذلك بعد سيادة هؤلاء في يثرب. أما قبائل اليهود الكبرى الثلاث فقد اعتزت بقوتها وبقيت محتفظة بشخصيتها، ثم إنها ناوأت الإسلام، وأظهرت عداءها. وانظر، خليل: دراسة في السيرة، مرجع سابق، ص٢٧٠.

ملخص الإجراءات النبوية لمواجهة قبائل اليهود في المدينة وخارجها

قبائل اليهود	سبب الخلاف	تاريخ الحدث	الإجراء النبوي	النتيجة
بنو قينقاع	نقضوا ما بينهم وبين الرسول ﷺ وحاربوا فيما بين بدر وأحد وأظهروا البغي والحسد ونبذوا العهد.	٢هـ	حاصرهم خمس عشرة ليلة	تم اجلاؤهم عن المدينة إلى الشام.
بنو النضير	-تكرار نقض العهد[1]. - غزوة السويق ونقض عهد الصحيفة. -اضمار زعمائهم الكيد للرسول ورد الناس عنه فضلاً عن الدسائس والتأليب، -ومن الأسباب دور كعب بن الأشرف في تحريض قريش ضد المسلمين. -تآمرهم على قتله ﷺ عندما جاءهم يطلب الاستعانة باليهود لدفع دية القتيلين.	٤هـ	حاصرهم حتى نزلوا على الجلاء	أجلوا إلى أذرعات في بلاد الشام، وبعضهم إلى خيبر.
بنو قريظة	- تكرار نقضهم العهود مع الرسول ﷺ وتمزيقهم صحيفة القضية ونبذهم إلى الرسول ﷺ بالحرب وتحصنهم بحصونهم وإعانة مشركي مكة بالسلاح، ومساندة الكفار يوم الخندق، ومشاركتهم الأحزاب ضد رسول الله ﷺ والمسلمين.	٥هـ	حاصرهم ١٥ يوماً وقيل ٢٠	حكّم فيهم سعد بن معاذ على أن: (تقتل المقاتلة وتسبى الذراري والنساء وتقسم الأموال)؛ ذلك أن خيانتهم كانت في ميدان القتال.
يهود خيبر	مثلت خيبر وكراً لتجمع اليهود ولا سيما زعماء بني النضير الذين اتخذوها مركزاً للتخطيط والانطلاقة.	٧هـ	محاصرة حصونهم كالناعم والقموص والصعب والوطيح والسلالم وغيرها	قاتلهم ﷺ فغلب على النخل والأرض وألجأهم لقصرهم فصالحوه على أن له الصفراء والبيضاء والحلقة ثم استخدموهم عمالاً بالمزارعة

---

(١) قال ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ سورة، آية الانفال (٥٦).

قبائل اليهود	سبب الخلاف	تاريخ الحدث	الإجراء النبوي	النتيجة
بعض المعاقل اليهودية في المدينة والحجاز	مثلت (فدك شمال خيبر، وتيماء، ووادي القرى، وهي مجموعة من القرى بين خيبر وتيماء) مواقع تجمع اليهود ومعاقل تحزبيه حدودية ضد المسلمين.	٧هـ-٩هـ	-صالح أهل فدك رسول الله ﷺ خوفاً مما حل بأصحابهم في خيبر -وصالحت تيماء على مثل صلح خيبر. -وحاصر وادي القرى ثم استسلمت.	وافقهم على الصلح فكان فتحها فيئاً من غير قتال، وترك لهم الأراض يعملون في زراعتها وينفقون عليها من أموالهم ولهم نصف ثمارها، وللمسلمين حق إخراجهم منها متى شاؤوا

أولاً: يهود بني قينقاع.

بنو قينقاع هم إحدى القبائل اليهودية الثلاث المشهورة في المدينة، وأول الجماعات اليهودية التي سكنت المدينة. لم يتوقفوا لحظة عن إحداث الشقاق وإثارة المشكلات بين صفوف المسلمين داخلها، وكانوا مصدر إيحاء وتوجيه للمنافقين وتأييد وتشجيع للمشركين. والعجيب في بني قينقاع أنها أول قبيلة يهودية حاربت النبي ﷺ و بغت وطغت وقطعت ما بينها وبينه من معاهدات ومواثيق[١] ؛ فعلى الرغم من ظاهر روايات السيرة بأن تلك القبيلة كانت من أولى قبائل اليهود التي أسلم بعض أفرادها عن إيمان ويقين، ولاسيما سيدهم وزعيمهم **عبد الله بن سلام**، وكان من المتوقع أن يتسارع بنو قينقاع إلى الدخول في الإسلام إلا أن الأمر سار على العكس والنقيض من ذلك ؛ ما دعا بالنبي الأكرم ﷺ إلى إجلائهم والحكم عليهم بالطرد والإبعاد وحاصرهم أشد الحصار حتى قذف الله في قلوبهم الرعب فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ على أن له أموالهم ولهم النساء والذرية[٢]. ولعل بعض ما ذكر من أسباب أخرى في المصادر التاريخية تحتاج إلى مزيد تمحيصٍ وتعليلٍ وتأكيد[٣]؛ فالظاهر أن ثَمة جرماً كبيراً لبني قينقاع أوقع بهم هذا المصير حتى

---

(١) ومن ذلك ما كان في سبب غزوة السويق إذ نكث اليهود عهود الصحيفة بأن لا يؤووا أحدا من المشركين ولا يعاونوا قريشاً على المسلمين، وقد فعلوا ذلك فآووا أبا سفيان بن حرب، وقربوه فحرق بعض أصحابه أسوار نخل العريض، وقتلوا رجلاً من مسلمي الأنصار وأجيره وانصرفوا راجعين. وللمزيد عن السويق انظر: ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص ٤٥ وابن الأثير:الكامل ج٢، ص٤٠.

(٢) وانظر ابن سعد الطبقات ج٢، ص٢٨-٢٩.

(٣) ليس في الروايات والمصادر التاريخية ما ينبئ على وجه دقيق طبيعة الجرم الذي ارتكبه يهود بني قينقاع فجل الروايات التي سيقت في قصة المرأة في سوق بني قينقاع ضعيفة في الإسناد، أو موقوفة على مجاهيل، بل إن رواد رجال السيرة كابن =

استحقوا مصادرة الأموال والتجريد عن السلاح والإجلاء عن البلاد حتى قيل إن الرسول ﷺ قد همّ بقتلهم[١]، ولربما كان من جملة الأسباب المنطقية أنهم أحدثوا أمرًا خطيرًا ودبروا أمراً جللاً كبيراً مستغلين انشغال الرسول ﷺ في معركة بدر، أو أنهم كانوا عيناً للعدو على المسلمين يدلونه على عوارهم ويفضحون أسرارهم، أو أنهم كانوا يسعون للدس والوقيعة بين جماعة المسلمين من المهاجرين والأنصار، وربما كل هذه الأسباب وقعت منهم، وعلى كلٍ فلقد أدرك ﷺ استحالة العيش معهم، ورأى أن في إجلائهم والحكم بإبعادهم[٢] ضرورة أمنية فرضتها المصلحة الدينية والمجتمعية.

=

سعد والطبري لم يعيرا الحادثة بالاً واهتماماً ولم يأتيا على ذكرها في الحديث عن غزوة بني قينقاع، ابن سعد: الطبقات ج٢، ٢٨ ، الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٢، ص ٤٧٩-٤٨٢. والعمري السيرة النبوية الصحيحة، ج١، ص ٣٠٠. وأما ما ذكر من أسباب الجلاء هو استجابة لآية سورة الأنفال آية (٥٨): ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ فالواقع أن الآيات نزلت في عموم من تخاف خيانته من عدو ولم تحدد كما عند الطبري، وقد رأى القرطبي أنها نزلت في بني قريظة وبني النضير، وأما بقية الأقوال فإنها لم تشر إلى بني قينقاع من قريب أو بعيد، وانظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج٨، ص٣١. وأما ما جاء في رواية الواقدي لتفسير سبب الصدام بين الرسول وبني قينقاع، وخلاصتها أنه لما عاد رسول الله ﷺ من بدر منتصرًا بغت اليهود وقطعت ما كان بينها وبينه من العهد فأرسل إليهم فجمعهم، ثم قال: " يا معشر يهود، أسلموا، فو الله إنكم لتعلمن أني رسول الله قبل أن يوقع الله بكم مثل وقعة قريش "فقالوا: يا محمَّد، لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تقاتل مثلنا " الواقدي: المغازي، ج ١، ص ١٧٦- ١٧٧، ونرى أنه ليس من المنطقي أن يكون سبب جلائهم هو عدم استجابتهم لدعوة النبي لهم للإسلام وقد رأينا أن صحيفة المدينة أقرت لليهود دينهم، ثم ما داعي الرسول ﷺ لقتالهم ما دام أنه رضي بالتعايش السلمي بين جميع فئات السكان، ثم إن القول بأن ذلك بمثابة استدراج اليهود الرسول ﷺ للحرب بعد بدر فيمكن القول إنه أمر مستبعد تماماً، فلو كان بعد أحد لكان أكثر قبولا إذ إن الوضع السياسي العسكري كان حرجاً للمسلمين آنذاك مما قد يغري بالنيل من هيبة المسلمين والتوعد بتهديدهم بالحرب استئصالاً لشأفتهم، ثم كيف بهؤلاء اليهود يعلنون الحرب ويغلقون دونهم أبواب حصونهم ، ثم هم يعتصمون بها ويفرضون على أنفسهم الحصار حتى يستسلموا لحكم رسول الله ﷺ، الجميل، محمَّد فارس: النبي ويهود المدينة، ص١٤١.

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص٤٨٠.

(٢) كان جلاؤهم إلى أذرعات وهو بلد في أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمان، ينسب إليه الخمر، انظر: الحموي، ياقوت. معجم البلدان. بيروت: دار الفكر، ج١، ص١٣٠. وكامل خبر الجلاء عند ابن هشام: السيرة النبوية. ج٢، ص ١٩١. والطبري في تاريخ الأمم والملوك.، ج٢، ص ٨٤ والبيهقي في دلائل النبوة ج٣، ص ٤٣٦.

ثانياً: يهود بني النضير.

كان يهود بني النضير وإخوانهم بنو قريظة حلفاء للأوس في يثرب، فلما قدم الرسول، عليه السلام، المدينة وحل مشكلات الهجرة، صالحه بنو النضير على ألاَّ يقاتلوه ولا يقاتلوا معه. وقبِل رسول الله ﷺ ذلك منهم[١]، وعلى الرغم من وجود اتفاقيات تفاهم ووفاق في التعايش السلمي بين الطرفين إلا أن **ثارات** العداء **وسيماء** البغضاء ما فتئت **تخالط** سلوك يهود بني النضير **وتلامس** تصرفاتهم، ولاسيما وقد تسيَّد ذلك المشروع العدائي رؤوس زعمائهم وكبراء سادتهم[٢] الذين كانوا سبباً في حدة الصدام وتصاعد العداء بين بني النضير والرسول ﷺ؛ وذلك من خلال سعيهم جاهدين لصد النَّاس عن الإسلام بما استطاعوا، بإثارة الأسئلة الغيبية للنَّبي ﷺ، وإلباسهم الحق بالباطل بُغية التشكيك والتأليب.

وعموماً فقد جاءت روايات كثيرة في مصادر كتب السيرة النبوية لتوضيح أسباب الصدام فيما بين يهود بني النضير ونبي الهدى ﷺ وتلخص أسباب العقوبة النّبوية وإجراءاتها، ولكن غالب تلك المرويات، وعلى ما قدمته من قيم تاريخية أحياناً، إلا أنه يمكن القول إنها واهية في شواهدها واستدلالاتها، فلا تستند إلى سند قوي متصل واضح، أو تعهد لرأي منطقي صحيح راجح[٣].

(١) انظر القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج١٨، ص٤.

(٢) مثل حيي بن أخطب وأخويه وسلام بن مكشم المعروف بأبي غنم النضري وغيرهم وانظر ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص١٦٠.

(٣) من ذلك ما جاء في رواية الزهري في المغازي النبوية ص٧١-٧٢، وكذلك أوردها البيهقي في دلائل النبوة ج٣، ص١٧٨-١٨٠والعسقلاني في الفتح ج٧، ص٤٢١. وطرف المروية " أن قريشاً كتبت إلى اليهود بعد وقعة بدر: إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلن صاحبنا، أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء وهي – الخلاخل– فلما بلغ كتابهم اليهود، أجمعت بنو النضير على الغدر، فأرسلت إلى النبي ﷺ اخرج إلينا في ثلاثين حبرًا حتى نلتقي في مكان كذا، نصف بيننا وبينكم، فيسمعوا منك، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا كلنا " ثم تكشف نهاية الرواية نية غدر اليهود بالنبي ﷺ مما جعله يستعد لحصارهم و يتهددهم بقوله: " لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه، فأبوا عليه ذلك، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء " ا. هـ، وفي التحليل النقدي يلاحظ مدى ما في الرواية من تناقض واضطراب فالرواية تجعل وقت إجلاء بني النضير بعد بدر وقبل أحد وهذا يخالف المشهور حيث إن المعروف في الروايات التاريخية أن وقعة بني النضير وجلاءهم كان بعد أحد أي في أوائل السنة الرابعة للهجرة، ثم ماذا يمنع اليهود من قبول العهد ونقضه وهذا ديدنهم، فلماذا أبوا وأعرضوا وقد علموا ما سينالهم من حصر وضيق وعنت ؟

وثَمَّة أسبابٍ أخرى ودوافع ثانوية كانت من عناصر تأجيج الخلاف وتصاعد النفور بين الأطراف (معركة بدر الكبرى)؛ إذ تطالعنا شواهد السيرة عن دور أحد زعماء بني النضير وهو كعب بن الأشرف بتحريض قريش ضد الرسول ﷺ حقدًا لانتصار المسلمين في بدر.

ومن بواعث الصدام التي سجلتها مصادر التاريخ، تآمر بني النضير على قتله ﷺ إثر ذهابه إليهم مستعيناً بهم لدفع حصتهم من دية رجلين قتيلين معاهدين من بني كلاب[(١)] قتلهما خطأً **عمرو بن أمية الضمري** في أعقاب حادثة بئر معونة[(٢)] (كما في رواية ابن إسحاق وموسى بن عقبة)[(٣)].

بل إن محاولة اليهود الغدر برسول الله ﷺ والتآمر على حياته لم تقتصر على شخص النبي ذاته بل امتد مداها وتجاوزت حدودها لتشمل تهديد المسلمين في المدينة بعامة والنيل من الإسلام كافة. ولعل أبرز باعث وأكثر دافع وأصدق واقع هو ما صورته فواتح آيات سورة (**الحشر**)[(٤)] من خصائص اليهود ونقضهم للعهود والوعود وتهديدهم أمن المجتمع وسلامته بالتحالف مع العدو، ومخالفة أمر الله وعصيانه.

ومن أوثق الأسباب في قراءة الروايات التأريخية نشاط بني النضير المحموم لدى قريش، وبطون بعض قبائل العرب بإثارتهم ضد المسلمين. فالواقع أن كبراء وسادات بني النضير الذين أُجلُوا إلى خيبر تزعموا حركة تحزيب الأحزاب، وأجمعوا الأمر لمحاربة المسلمين في المدينة والقضاء عليهم.

---

(١) وقصة الكلابيين معروفه في التاريخ، فلقد كان عمرو بن أمية الضمري، أحد الناجين من مذبحة بئر معونة في صفر من السنة الرابعة للهجرة على يد بني عامر من بني كلاب، وفي طريق عمرو إلى المدينة التقى برجلين من بني عامر عائدين من المدينة فغافلهما وقتلهما وظن أنه قد أخذ بثأر شهداء بئر معونة، وعندما أخبر الرسول ﷺ بذلك. قال له:" بئس ما صنعت " أو قال: " لقد قتلت قتيلتين لأدينهما "، انظر تفصيل الخبر عند ابن هشام في السيرة النبوية، ج٣، ص١٩٥، ١٩٣.

(٢) بئر معونة بين أرض بني عامر وحرّة بني سليم، وكلا البلدين منها قريب إلا أنها إلى حرّة بني سليم أقرب، وقيل: بئر معونة بين جبال يقال لها أبلى في طريق المصعد من المدينة إلى مكة وهي لبني سليم، قاله عرّام. وقال أبو عبيدة في كتاب مقاتل الفرسان: بئر معونة ماء لبني عامر بن صعصعة، وقال ابن إسحاق: بئر بين أرض بني عامر، وحرة بني سليم، كلا البلدين منها قريبٌ، وهي من بني سليم أقرب، انظر: الحموي: معجم البلدان، مج١، ص ٣٠٢.

(٣) ففي الخبر أن بني النضير كانوا قد دسوا إلى قريش حين نزلوا أحداً لقتال رسول ﷺ فحضوهم على القتال ودلوهم على العورة، فلما كلمهم رسول رسول الله ﷺ في دية الكلابيين قالوا: اجلس يا أبا القاسم حتى تطعم وترجع بحاجتك، ونقوم ونشاور ونصلح أمرنا فيما جئتنا له. ثم ذكر في تتمة الرواية ما أوحى المولى به لنبيه ﷺ من تآمر اليهود على قتله وأمره بإجلائهم فغادر المكان إلى المدينة فحاصرهم وقاضاهم على الجلاء، أنظر: موسى بن عقبة:المغازي، جمع ودراسة وتحقيق مُحَمَّد باقشيش أبو مالك، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، عام ١٩٩٤م، ص ٢١٠، ٢١٣.

(٤) وتسمى كذلك بسورة بني النضير.

فكانت العقوبة هي ما قضى الله وقدّر من نفيهم بالطرد والإبعاد والنفي والإجلاء عن المدينة بالتوجيه الإلهي في سورة الحشر قال عزمن قائل: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾[١].

ثالثاً: يهود بني قريظة.

إن يهود بني قريظة، كغيرهم من يهود المدينة، كان بدء علاقة النبي ﷺ بهم دعوته إياهم إلى الله، وتحذيرهم من مغبة الكفر بما جاء به إليهم من عند الله، وعلى جانب الصعيد السياسي كانت الموادعة والمعاهدة بينه وبينهم بكل ما تعنيه الكلمة من المسالمة والصلح التي أبرمها النبي ﷺ كاتفاقاتٍ أولية ومرحلية قبل صحيفة المدينة العامة.

والظاهر أن علاقة بني قريظة بالنبي ﷺ كانت سلمية أول أمرها، بل إن بني قريظة امتنعوا عن مساعدة بني النضير عندما حاصرهم رسول الله ﷺ، خاصة[٢]، وعلى الأرجح، أن بني قريظة قد توجسوا خيفة من قوة المسلمين، وبما حل بإخوانهم من بني النضير من إجلائهم ومصادرة ممتلكاتهم. بيد أن القرآن الكريم أوضح أسباب الصدام وأوجز مقتضى الحال بينهم وبين نبي الأنام، فقد أشارت آيات سورة الأنفال إلى نكث بني قريظة للعهود التي أبرموها مع رسول الله ﷺ مراراً فجاء في تفسير آية ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾[٣] عند جمهور المفسرين[٤]: "أن بني قريظة نقضوا العهد بينهم وبين رسول الله ﷺ، وأعانوا مشركي مكة بالسلاح، ثم قالوا: **"نسينا وأخطأنا"** ثم عاهدوه ثانية، فنقضوا ومالؤوا الكفار يوم الخندق.

(١) سورة الحشر آية (٢).

(٢) ذكر الواقدي في المغازي أن أُبيّاً أرسل إلى كعب بن أسد زعيم قريظة يحثه على الانضمام إلى جانب يهود بني النضير والوقوف معهم، ولكن كعباً رفض مساعدة بني النضير قائلاً: " لا ينقض العهد رجلٌ من بني قريظة وأنا حيٌّ، واعتزلتهم قريظة ولم تعنهم بسلاح ولا رجال، ولم يقربوهم " المغازي ج١، ص٣٧٠-٣٧١.

(٣) سورة الأنفال آية (٥٦).

(٤) انظر: الطبري في جامع البيان، ج٩، ص٢٥-٢٧، وابن الجوزي في زاد المسير في علم التفسير المكتب الإسلامي بيروت ط٤، عام ١٤٠٧هـ، ج٣، ص ٣٧١-٣٧٢، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن، ج٢، ص٤٠.

وذكر السيوطي في الدر المنثور: "**أن بعد جلاء بني النضير بقيت قريظة بعدهم، عاماً أو عامين على عهدٍ بينهم وبين نبي الله ﷺ، فلما جاء المشركون يوم الأحزاب نقضوا العهد**"[١]، ويبدو أن الأحزاب استطاعوا إغراء يهود بني قريظة ومازالوا فيهم حتى أقنعوهم بالانضمام إليهم والغدر بالمسلمين[٢]، بل إن بني قريظة أوغلوا في الغدر والتسلط إذ هددوا آطام المسلمين التي ضمت نساءهم وذراريهم، وتناول التهديد طرقهم وسابلتهم ، فما كان من النبي، عليه السلام، إلا الاستجابة لأمر الله تعالى في حصارهم أياماً معدودات، وكان بينهم الرمي بالنبال والحجارة، والواضح أن النبل والرمي كانا من بعيد ولم يكن هنالك ثَمة قتالٌ مباشرٌ بين الطرفين؛ ونتيجة لتضييق المسلمين الحصار عليهم فاوضوا الرسول ﷺ في ذلك فحكّم فيهم سعد بن معاذ[٣].

جاء عن عائشة، رضي الله عنها:" **أن رسول الله ﷺ حاصر بني قريظة خمساً وعشرين ليلة، فلما اشتد عليهم البلاء، قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله ﷺ. فقالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، فقال لهم: انزلوا على حكم سعد**[٤]، **فبعث رسول الله ﷺ إلى سعد فلما جاء قال له رسول ﷺ: "احكم فيهم"، فحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم، وتقسم أموالهم. فقال له: رسول الله ﷺ: "لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله**"[٥].

وكانت نهاية الحصار بوصف آي القرآن: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾[٦].

(١) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت٩١١هـ): الدر المنثور في التفسير بالمأثور، (د. م)، (د. ت)، ج٦، ص١٩٠. والنص للسيوطي متصرف.

(٢) انظر تفاصيل محاولة إقناع زعيم بني النضير حيي بن أخطب زعيم بني قريظة كعب بن أسد بالانضمام للأحزاب في مغازي الواقدي، ج٢، ص٤٥٤.

وهناك في مصنف عبد الرزاق ج٥، ص٣٦٧ من مرسل سعيد بن المسيب أنها بدأت بمفاوضة النبي ﷺ لغطفان وانتهت بخبر قتل حيي بن أخطب، وانظر مايوضح ذلك في ط٢، عام١٤٠٣، مج٧، طبعة الهند، لحبيب الرحمن الأعظمي.

(٣) كان سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل سيدًا لقبيلة الأوس قبل هجرة النبي مُحَمَّد إليها. أسلم على يد مصعب بن عمير الذي أرسله النبي مُحَمَّد ﷺ إلى يثرب ليدعو أهلها إلى الإسلام بعد بيعة العقبة الأولى، وهو السيد الكبير الشهيد أبو عمرو الأنصاري الأوسي الأشهلي، البدري الذي اهتز العرش لموته. ومناقبه مشهورة في الصحاح، وفي السيرة، وغير ذلك. وللمزيد انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١، ص٢٧٩.

(٤) قبلوا النزول على حكم سعد ظناً منهم أنه سيرأف بهم بسبب الحلف بينهم وبين قومه الأوس

(٥) أخرجه البخاري في الصحيح، ج٥، ص١٤٣-١٤٤ولمسلم في صحيحه كذلك، ج٣، ص ١٣٨ عن عائشة رضي الله عنها.

(٦) سورة الأحزاب آية (٢٦).

رابعاً: يهود خيبر وبقية المعاقل اليهودية في الحجار.

لم ييئس اليهود في تحركاتهم ضد المسلمين، والحقيقة إن يهود خيبر لم يظهروا العداء للمسلمين حتى نزل فيهم زعماء بني النضير[١] الذين حزّ في نفوسهم إجلاؤهم عن ديارهم، وكان يدفعهم حقد دفين ورغبة قوية في العودة لديارهم، فحاولوا جاهدين إقحام خيبر وجرها إلى الصراع والتصدي انتقاماً من المسلمين فشكلت حينها خيبر معقلاً، ومثلت مركزاً خطراً على الإسلام والمسلمين، وكان أول دور فعلي لخيبر هو تحرك زعماء بني النضير منها كنقطة انطلاقة في حشد قريش والأعراب ضد المسلمين فيما عرف (بغزوة الأحزاب)، وتسخير أموالهم في ذلك. ثم أيضاً سعيهم الناجح في إقناع بني قريظة بالغدر والتعاون معهم.

وهنا أدرك الرسول ﷺ قوة مركز خيبر وأنه لابد من دك معاقلها، وقد أتاحت معاهدة الحديبية الفرصة أمام المسلمين ليتفرغوا لفتح خيبر دون خوف من نجدة قريش، كما أن قبيلة غطفان حليفتهم قد تخاذلت عنهم خوفاً على ديارها من المسلمين، وكلا العاملين مما هيأهما الله من أسباب النصر للمسلمين.

وخلاصة أمر يهود خيبر أنّ النبي ﷺ وصل إليهم قبل انبلاج الفجر، وصلى الفجر قرب ديارهم ثم هوجمت خيبر بعد أن بزغت الشمس، ففوجئ الفلاحون من اليهود الذين خرجوا إلى أعمالهم ومعهم مواشيهم وفؤوسهم ومكاتلهم بوجود المسلمين فقالوا: **"محمد والخميس (أي الجيش)، وولوا هاربين إلى حصونهم. فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، خربت خيبر إنّا إذا نزلنا بساحة قومٍ فساء صباح المنذرين»** فحاصرهم بضع عشرة ليلة، وكان أول حصونهم فتحاً حصن ناعم، ثم القموص[٢]، ثم حصن الصعب بن معاذ، ثم الوطيح والسلالم[٣]، وكان آخر الحصون فتحاً حصن خيبر[٤].

والثابت أن رسول الله ﷺ أبقى يهود خيبر فيها عمالاً يعملون في زراعتها وينفقون عليها من أموالهم ولهم نصف ثمارها –من باب المزارعة والمساقاة – وللمسلمين حق إخراجهم منها متى أرادوا، وكان اليهود قد

(١) وكان من أبرز هؤلاء الزعماء سلام بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب النضري.

(٢) ثبت أن يهود حصن القموص سألوا النبي ﷺ الصلح ونكثوا العهد فحاز أموالهم.

(٣) أهل حصني الوطيح والسلالم لما أيقنوا بعدم جدوى المقاومة بعد سقوط النطاة والشق والقموص سألوا النبي ﷺ:" أن يسيرهم وأن يحقن دماءهم ففعل " ابن هشام ج٣٢، ص٤٤٩.

(٤) جاء عن مسلم في الصحيح من كتاب الجهاد والسير عن ثابت عن أنس، ﷺ، قال: صلى رسول الله ﷺ، الصبح قريباً من خيبر بغلس، ثم قال: " الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين "، فخرجوا يسعون في السكك فقتل النبي ﷺ المقاتلة، وسبى الذرية، باب غزوة خيبر، ج٣، ص٤٢٦.

بدؤوا بعرض ذلك على النبي ﷺ وقالوا: "**نحن أعلم بالأرض منكم**" فوافق على ذلك بعد أن هم بإخراجهم منها(١).

إن تحقيق الله النصر للمسلمين على يهود خيبر أسقط في يد قريش وأشياعها. فهو أمرٌ ما كانت تتوقعه لما هو مشهورٌ من حصانة قلاع اليهود وحصونهم في خيبر، وكثرة مقاتليهم وسلاحهم، وكذلك كان صدى فتح خيبر مدوياً في أوساط القبائل العربية الأخرى التي أدهشها الخبر وخذَّلها النصر، فكفكفت من عدائها، وجنحت إلى المسالمة والموادعة، ففتحت آفاق جديدة أمام انتشار الإسلام(٢).

وبعد أن سقطت خيبر بيد المسلمين سارع أهل فدك في شمال خيبر إلى طلب الصلح، وأن يسير إليهم ويحقن دماءهم، ويخلوا له الأموال فوافق على طلبهم(٣)، فكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ؛ لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، وحاصر المسلمون وادي القُرى ليالٍ، ثم استسلمت فغنم المسلمون أموالاً كثيرة وتركوا الأرض والنخيل بيد اليهود وعاملهم عليها مثل خيبر، وصالحت تيماء على مثل صلح خيبر ووادي القِرى(٤) وبذلك انهارت سائر المعاقل اليهودية أمام المسلمين. ومما تجدر الإشارة إليه أن قتلى يهود خيبر قد بلغوا قرابة ثلاثة وتسعين رجلاً(٥)، وأن نساءهم وذراريهم وقعوا في السبي، ومن أولئك النِّسوة ابنة أكبر عدوٍ للإسلام ونبيه ﷺ **صفية بنت حيي بن أخطب** -رضي الله عنها- فأعتقها رسول الله ﷺ وتزوجها فكانت من أمهات المؤمنين(٦).

---

(١) البخاري: الصحيح، كتاب المغازي، باب معاملة النبي أهل خيبر، ج٧، ص ٤٩٦، وصيح مسلم، كتاب المساقاة، باب المساقاة والمعاملة بجزء من التمر والزرع، ج٣، ص١١٨٦-١١٨٧.

(٢) العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ص٣٢٧-٣٢٨.

(٣) ابن هشام، ج ٣٢، ص٤٤٩.

(٤) ابن قيم: الزاد ج١، ص٤٠٥.

(٥) ومع الاختلاف في رصد عدد شهداء المسلمين في خيبر على وجه الدقة بين من قال:عشرون رجلاً كما عند ابن إسحاق، أو خمسة عشر على رواية الواقدي، إلا أن هذا ليظهر خذلان المولى جل جلاله لليهود فإن قتلاهم وهم يدافعون في حصون منيعة أكثر بكثير من شهداء المسلمين المهاجمين في ساحات مكشوفة. انظر: الواقدي في المغازي ج٢، ص ٧٠٠وابن هشام، السيرة ج٢، ص٨٠٤ حيث ذكر أسماء الشهداء.

(٦) انظر: صحيح مسلم، كتاب النكاح، ج٢، ص١٠٤٥. ولعل هذا من دلائل إحسانه ﷺ إلى يهود خيبر.

المطلب الثالث: جوانب التخطيط النَّبوي في مواجهة اليهود وأبعاده.

إن التمرس في جوانب سياسة الرسول، والتفرس في دقائق أبعادها الموضوعية يجلو لنا بصدق دقة السياسة وبراعة التدبير، فضلاً عن سعة الأفق الحكيم من جوانب الحكمة لديهﷺ ؛ والمتتبع المتأمل لتلك الخطوات، ابتداءً وانتهاءً، ليلمس ذلك الحس الحسن والنظرة الواعية.

وانظر إلى بُعد نظره ﷺ ودقة مرانه الذي سدد بكل وسيلة أسباب صدع بنيان المجتمع، ودواعي عدم أمنه واستقراره فنراه ﷺ بادئ الأمر يُخضع جُل المجتمع بسياجٍ قوي مُحكم فيلزم بقواعد وبنود تحترم الحقوق وتحفظ الحدود وتوفر الأمن والرخاء لسائر أفراد المجتمع، ونراه ﷺ قد ركّز على الجوانب السياسية والاجتماعية وكذلك الدينية فالأمنية والحضارية، وبيّن نظام الدولة وفرض مسؤولية الدفاع المشترك إلى غير ذلك مما سيتضح تفصيلاً في المبحث الأخير من هذا الفصل، والخلاصة أن من جوانب الإبداع لديه ﷺ وضع الفكرة، وتقنين الهدف لتحديد الثمرة والنتيجة. وهكذا صاغ، عليه السلام، المبادئ والقيم في بنود الصحيفة ليكون مفهوم سياسته جلياً بيّناً واضحاً، ثم لما سلك بعض أفراد يهود جانب التجني، وركنوا إلى النقد والتشفي بالشعر والهجاء والاستطالة بعرضه ﷺ وأصحابه ؛رأى ﷺ بأم بصره ضرورة قتالهم وإهدار دمائهم؛ وما ذاك إلا لقطع دابر الفتنة كيما يكونوا عبرة لمن حذا حذوهم وسلك مسلكهم، وتجرأ قولاً وفعلاً لاتباع فعالهم.

ثم لما كان الإعراض والتمادي في الكره والعداء لبعض جماعات اليهود حتى نقضوا العهود وخرقوا المواثيق والوعود وتمادوا في غيّهم وغالوا في زيغهم وتعنتهم حتى أرادوا قتل الحبيب و تمالؤوا مع الأعداء وحرضوا على التحزيب وألبوا على التفريق بين المؤمنين؛ فكل ذلك تطلب أجلاءهم وطردهم وإبعادهم، وفي ذلك إعادةٌ لهيبة دولة الاسلام وتوفير الأمن فيها، وتمهيد السبيل لمواصلة الدعوة في بقاع المعمورة، وفي أسلوب الإجلاء كسرٌ لشوكة اليهود وفضحٌ لمسلك المنافقين ؛ ولذا جددت قريظة عقدها وعهدها مع الرسول والمسلمين خلال حصار بني النضير، وأظهرت من الرغبة في المحافظة على العهد حتى كانت غزوة الأحزاب، ثم لا نغفل بلا ريب ما في الإجراء النَّبوي ضد شغب اليهود من الأحكام التشريعية التي توالت في محكم التنزيل[١].

(١) ومن أمثلة ذلك ما أنزل الله من سورة الحشر بأكملها في غزوة الأحزاب، فوصف طرد اليهود، وفضح مسلك المنافقين وبين فيها أحكام الفيء، وأثنى على المهاجرين والأنصار، وبين جواز القطع والحرق في أرض العدو للمصالح الحربية، وأن ذلك ليس من الفساد في الأرض. انظر: المباركفوري، صفي الرحمن: الرحيق المختوم، المكتبة العصرية، صيد - بيروت، عام ١٤٢٤هـ ، ص ٢٧١.

ثم لننظر في حكمة الرسول وحنكته ﷺ بأن جعل حكم القضاء في بني قريظة لسعد بن معاذ، وما في ذلك من المصلحة العامة لكلا الطرفين؛ فاليهود بطبيعة الحال يدركون مسبقاً ما كانوا يستحقون من عقوبة، وشاهد ذلك ما جاء في رأي المستشرق بودلي في كتابه **الرسول**[1] حول عقوبة بني قريظة –والحق ما نطقت به الأعداء– حيث قال: "**لو فكر يهود المدينة في الأمر لوجدوا أن محمدًا ما فعل شيئاً أكثر أو أقل من تنفيذ التعليمات التي وضعها قومهم في الإصحاح العشرين، من سفر تثنية الاشتراع.**

وجاء في سفر التثنية بخصوص البلد المحارب: "**إذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك**"[2]. ثم لنعلم أن اليهود كذلك يدركون علم سعد بحكم التوراة في الخائن، فالأوس عموماً حلفاء بني قريظة قبل الإسلام ومعايشوهم، وأعلم بطبيعة الحال بالدساتير السياسية فيما بينهم، بل لا أدل على اعتراف **(منتوقمري وات)** بعدالة حكم سعد وما فيه من مصلحة للمسلمين بقوله: "**إن سعدًا أدرك ببعيد نظره أن الولاء للإسلام يجب أن يتقدم الولاء للعصبية القبلية، التي طالما أذكت الحروب بين الإخوة، وكان مجيء محمدٍ إلى المدينة إنقاذًا لهم منها**[3]".

ثم انظر إلى مسألة خيبر وأمر اختيار اليهود لها بعد الجلاء وما تمتعت به من موقعٍ جغرافي وطبيعة اقتصادية[4]، ولم يغب هذا الأمر عنه ﷺ ومن حكمته ﷺ أنه لما تخلص من أجنحة الأحزاب الثلاثة[5]،

---

(١) بودلي، د.ف: الرسول: حياة مُحَّد، ترجمة مُحَّد. مُحَّد فرج وعبد الحميد جودة، مصر، (د.ت)، ص ١٩٣.

(٢) العهد القديم (سفر التثنية) ص١٢-١٥.

(3) Watt, M:Muhammad at Medina,p216.

(٤) كانت خيبر مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع، ١٥٣كم–أي ما يسوي٨٠كيلو أو٨,٠٠٠متر– في جهة الشمال، فضلاً عن المكانة الاقتصادية التي امتازت بها، فقد سكنها العديد من التجار وأصحاب الحرف وكان فيها نشاط واسع للصيارفة وبها بعض اليهود.انظر: الجاسر، حمد: شمال غرب الجزيرة العربية، (د. م)، ط١، ١٣٩٠م، ص ٢٣٦-٢٣٨.

(٥) وهم: قريش (كنانة –الأحابيش) من أهل مكة وصناديدها من إخوانهم من العرب في غطفان، وبنو مرة، وأشجع في الجناح الثاني، وكذلك بنو أسد وسليم ويهود بني النضير وبنو قريظة في المدينة ومن شايعهم من المنافقين في الجناح الثالث؛ إذ لما اطمأن رسول الله ﷺ من هؤلاء جميعاً، في شأن غزوة الأحزاب –الخندق (٥هـ)، ثم أمن أَمْنه التام، عليه السلام، من قريش إثر صلح الحديبية(٦هـ)، فمن ثَم توجه بعدها إلى يهود خيبر في السنة (٧هـ) فكان الفتح لحصونها ؛ وما ذلك إلا ليوطد موضع أمن وسلام يسود المنطقة، فيفرغ المسلمون من ويلات الصراع الدامي المتواصل إلى تبليغ رسالة الله والدعوة إليه.

جاء في الترجمة ج٢، ص٣٢٨ فلقد أدرك رجل بعيد النظر كسعد أن السماح للعصبية القبلية بالتغلب على الولاء للإسلام يؤدي للحروب الأخوية التي كانت المدينة تأمل التخلص منها بمجيئ مُحَّد من كتاب مُحَّد في المدينة ترجمة شعبان =

اهتم بمعالجة الموقف في خيبر، ولا سيما وقد مثلت خيبر وبقية حصونها وكر الدس والتآمرات الحزبية، ومعقل التحرشات السياسية ومكمن إثارة الحروب العسكرية[١]، فكانت جديرة بالالتفات إليها، ثم بقية الأوكار والحصون الأخرى بعدها[٢].

ومن حسن التخطيط والمواجهة والإعداد والمجابهة، أن الرسول ﷺ مهَّد بمقدمات قبل مهاجمة خيبر بعام، بل وحين القتال قاتل كل عنصر يهودٍ على حدة، وكلٌ حسب جرمه، وكلٌ حسب مقدار جريرته وذنبه، وذلك تصديقاً لتطبيق بنود الوثيقة **(إلا من ظلم نفسه وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه)** فلم يؤاخذ بني النضير بجريرة كعب بن الأشرف واكتفى بقتله جزاء غدره، بل جدد معاهدته مع قومه بني النضير، كما أن من حكمة الإجراء النبوي أنه لم يأخذ قبيلة بجريرة أختها. **(وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه)** جاء في الصحاح **"حاربت النضير وقريظة فأجلي بني النضير، وأقرّ قريظة ومنّ عليهم، حتى حاربت قريظة، فقتل رجالهم، وقسّم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين إلا بعضهم لحق بالنّبي ﷺ فأمنهم وأسلموا، وأجلى يهود المدينة كلهم: بني قينقاع –وهم رهط عبد الله بن سلام – ويهود بني حارثة وكل يهود المدينة**[٣]".

=

بركات، المكتبة العصرية، ببيروت، منشورات قبل أكثر من ٤٠عام.

(١) كان ليهود خيبر وحلفائهم من يهود بني النضير دور بارز في عداء المسلمين فهم الذين حزَّبوا الأحزاب ضد المسلمين، وأثاروا بني قُرَيظة على الغدر والخيانة، ثم أخذوا في الاتصالات بالمنافقين وكانوا هم أنفسهم يتهيؤون للقتال، حتى انتهى بهم الأمر ليضعوا خطة لاغتيال النبي ﷺ وإزاء ذلك اضطر المسلمون إلى قتالهم فكان أن فُتك بزعامات هؤلاء المتآمرين؛ أمثال: سلام بن أبي الحُقَيْق، وأسِير بن زارم، ولكن الواجب على المسلمين إزاء هؤلاء اليهود كان أكبر من ذلك، وإنما أبطأوا في القيام بهذا الواجب؛ لأن قوةً أكبرَ وأقوى وألدَّ – وهي قريش – كانت مجابهة للمسلمين، فلما انتهت هذه المجابهة بعهد صلح الحديبية صفا الجو لمحاسبة هؤلاء المجرمين.

(٢) كانت "خيبر" منقسمة إلى شطرين، شطر فيها خمسة حصون: حصن ناعم. حصن الصَّعْب بن معاذ. حصن قلعة الزبير حصن أُبَي. حصن النِّزَار. والحصون الثلاثة الأولى منها كانت تقع في منطقة يقال لها (النَّطاة)، وأما الحصنان الآخران فيقعان في منطقة تسمى بالشِّقِّ. أما الشطر الثاني، ويعرف بالكتيبة، ففيه ثلاثة حصون فقط وهي حصن القَمُوص – وكان حصنٌ لبني أبي الحقيق من بني النضير –وحصن الوَطِيح والثالث حصن السُّلالم. انظر: المباركفوري: الرحيق المختوم، مرجع سابق، ص٣١٣.

(٣) البخاري: الصحيح، ج٤، ص١٤٧٨، حديث رقم(٣٨٠٤)، ومسلم: صحيح مسلم، ج٣، ص ١٣٨٧–١٣٨٨، حديث رقم (١٧٦٦)، وعند أبي داود في السنن، ج٢، ص١٧٢–١٧٣، حديث رقم (٣٠٠٥). والحديث لابن عمر، باب حديث بني النضير.

أنه لما عقد الصلح مع قريش توجه ﷺ لتصفية البقية الباقية من اليهود إجراء معاهدة صلح الحديبية مع قريش العدو الأول للمسلمين ليتفرغ بعدها ﷺ لتصفية البقية الباقية من اليهود، ونعني بهم يهود خيبر، فلم يرد ﷺ المقاتلة في جبهتين متفاوتة أو قتالهم معاً كقوة واحدة وكتلة متوحدة، وقد علم ﷺ أن أشد وأنكى عدوٍ للإسلام والمسلمين هم هؤلاء اليهود والذين أشركوا. ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾[1]، بل وأكثر من ذلك بأن وجّه ﷺ بالمغاوير من أصحابه لاغتيال زعماء اليهود ليشغلهم بأنفسهم عن التفكير والتخطيط لغزو المدينة وهذا بلا شك قد منح المسلمين قوة نشاط حربي مما مكن سقوط معاقل اليهود في سائر حصون خيبر حتى أسقط في يد قريش والمنافقين[2] وكذا سائر بطون قبائل العرب.

ومن حكمة الإجراء النبوي اختياره ﷺ لنوع العقوبة وتحديده لمصير عدوه، وقد نظر نبي الأمة ﷺ إلى قضية اليهود بمنظار القاضي أمام مسألة خيانة العهود ونقض المواثيق والوعود، فلم تكن معاملتهم كأسارى حرب أو نحوه بل حوكموا بالقتل حيناً، وبالإجلاء والطرد في حينٍ آخر، فهؤلاء قد خانوا وغدروا وتآمروا مع العدو وحاول بعضهم قتل نبي الحق، وعرّض آخرون منهم بخيانتهم أرواح المسلمين للقتل ونساءهم وذراريهم للسبي وأموالهم للنهب والسلب، فكان الجزاء من جنس العمل ؛ وهذا ما يعرف حتماً بالخيانة العظمى في نظام القانون الدولي.

ومن بُعد نظر النَّبي ﷺ وحكمة إجرائه، أن ترك لليهود العمل في أرض خيبر –عندما طلبوا ذلك – يعملون في زراعه أرضها وينفقون عليها من أموالهم ولهم نصف ثمارها، ويؤدون النصف الآخر للمسلمين. على أن للمسلمين حق إخراجهم منها متى ما أرادوا، وقد حقق هذا الترتيب النبوي عدة أمور منها:

١- سلطته ﷺ على اليهود في خيبر، ونزولهم تحت سلطان الحكومة الإسلامية حيث جعل عليهما والياً من قبله، مما جعلهم في قلقٍ دائم وتخوفٍ مستمر إذا بيتوا العداء وأضمروا الشر، أو خانوا وفكروا بالغدر، فلهم علمٌ بمن كان قبلهم ولهم عبرةٌ بمن سبقهم.

٢- استفادته ﷺ من خبرة اليهود في زراعة الأرض وشغلهم بها، وهو الخبير بحال اليهود في الأرض، ولا سيما

(١) سورة المائدة آية (٨٢).

(٢) فذاك أمر لم تتوقعه قريش من جانب حصانة قلاع خيبر وحصونها وكثرة مقاتليها وقوة سلاحها ومراسها في الحرب، ولم تتخيله كذاك في استمرار نشاط قوة الجيش الإسلامي وتماسكه، وقد أنهكته سِني حرب طوال منذ مقدم الرسول ﷺ المدينة ما بين سرايا وغزوات وبعوث، وكذلك كان لوقع فتح خيبر نصر مدوي على مسامع المنافقين بخاصة وبأوساط قبائل العرب في أطراف المدينة عامة التي جنحت تباعاً للسلم والموادعة ووفرت على المسلمين حربها بل وأتاحت بسلمها وأمنها فرصة ظهور الإسلام ومتابعة نشره بين الناس. انظر: ابن حنبل: المسند، ج٣، ص١٣٨.

وقد بادروا هم بذلك ورحبوا به فقالوا:"**نحن أعلم بالأرض منكم**"[١].

٣- الإفادة من قوة المسلمين وشغل نشاطهم في استمرارية متابعة الجهاد في سبيل الله[٢]، ولا شك أنّ فتح خيبر عاد على المسلمين بالخير الكثير وعزز إمكاناتهم الاقتصادية بدخلٍ سنوي دائم حتى قالت عائشة، رضى الله عنها، معقّبة على فتح خيبر: "**الآن نشبع من التمر**" وقال عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما: "**ما شبعنا من التمر حتى فتحنا خيبر**"[٣].

ومن نتائج قتال النبيّ ﷺ لليهود أن أصبح للمسلمين هيبة وفُتَّ في عضد قريش، وتفرق جمع اليهود، وقلت عوامل إثارة الفتن داخل المدينة التي كان يثيرها المنافقون بتشجيع من اليهود، فأمنت المدينة من التهديد بالحرب الأهلية إذا غزاها غاز، ودانت اليهود كلها لسلطان الإسلام، وكذا أصبح لدولة الإسلام أراضٍ مملوكة خارج المدينة يجبون منها الخراج، وأصبح ضمن سلطان الدولة السياسي جماعات يهودية اعتبروا أهل ذمة، وبقوا على دينهم، يشتغلون في أراضيهم وفق الشروط التي تؤخذ عليهم[٤].

ولاشك أن هذه الإجراءات النَّبوية والترتيبات السياسية الحية لتلهمنا بعظيم قدرة النبي ﷺ على سوس الأمور وتقديرها بقدرها بما لا ينكره عقل ولا يغفله فطِن حيث الوحي يهديه ويسدده.

وفي الحين الذي تتراءى أمام أعيننا روائع أسس تنظيمات الإدارة النبوية، ومآثر منجزاتها العالمية التي تعد مفخرة من مفاخر الحضارة الإسلامية، ومَعلَمًا من معالم مجدها السياسي والإنساني؛ تطالعنا في جانب آخر ثُلةٌ من الآراء الاستشراقية والفلسفات الغربية بسيلٍ وافرٍ من التوجهات الانتقادية ممن شككوا بقدرات النبوة المحمدية، وهونوا من مخرجاتها ومعطياتها، وصدق المولى عز وجل: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾[٥].

(١) انظر: البخاري: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب معاملة النبي أهل خيبر، ج٧، ص٤٩٦.

(٢) ثمة آثار ونتائج اقتصادية أخرى سنناقشها في المبحث الأخير من هذا الفصل.

نعم إذ حقق هذا الإجراء للدولة الإسلامية مصالح عليا اقتصادية وعسكرية، حيث تمت المحافظة على طاقات المسلمين العسكرية ووجهوا إلى الجهاد الدائم من أجل الإسلام، ولم يتحولوا إلى الفلاحة التي تحتاج إلى إدامة العمل في استصلاح الأرض ورعاية الزرع والنخل مما يستنفد طاقتهم، وكذلك تمت الإفادة من خبرة وطاقة الفلاحين اليهود للحفاظ على مستوى الإنتاج الزراعي في خيبر؛ لأنهم يمتلكون خبرة بالأرض وزراعتها، مما يوفر للمسلمين حصة كبيرة يمكن الإفادة منها في تجهيز الجيوش والقيام بالنفقات الأخرى التي تحتاج إلى الدولة. انظر العمري، أكرم: السيرة النبوية، ج١، ص٣٣٠.

(٣) البخاري: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، ج٧، ص٤٩٥.

(٤) الخربوطلي، علي حسني: الرسول وأهل الذمة، مطابع شركة الإعلانات، القاهرة، (د، ت)، ص٧٥.

(٥) سورة النساء، آية: (٨٢).

المبحث الثالث: النتائج والأثار المترتبة على الممارسات العملية والتطبيقية لصحيفة المدينة

إن من جميل نتائج صحيفة المدينة النَّبوية وجليل معطياتها أن أعطت صورة واضحة للنموذج الإداري والاجتماعي ؛ فصاغت وحدة سياسية وتنظيمية بمعناها الواسع في إطار مجتمع المدينة النبوي، وقد جمعت في سياق تنظيم دقيق جميع جوانب الحياة بين سكانها فحددت المسؤوليات، ورسمت الأولويات، وكانت غاية المصطفى ﷺ إيجاد مجتمع موحد تربطه أواصر الأخوة الإنسانية، والمودة والرحمة، والعدالة الاجتماعية في جميع الشؤون العامة للدولة الإسلامية الجديدة، بنظامٍ نبوي فريد كلي متكامل يختلف عن أنظمة العصر السائدة آنذاك، ويحقق العدالة والأمن، ومن المستحسن أن نقف في خاتمة هذا الفصل على أبرز الأبعاد والآثار المعنوية الحقيقية لصحيفة المدينة النبوية.

أولاً: أبعاد وآثار نتائج وثيقة المدينة على المستويين العقدي والأمني[١]:

– إقرار تأصيل ما عرف في الفقه الجنائي المعاصر بمبدأ "**شخصية العقوبة**" ومبدأ "**المسؤولية الفردية**"؛ وبها تبرز مسؤولية الفرد المكلف؛ إذ إن العقوبة الجنائية تقتصر في آثارها على شخص المذنب المحكوم عليه، ولا تتعداه لغيره، وهو من المبادئ المهمة المؤكدة في الوثيقة؛ ضماناً لبقاء صرح المجتمع الجديد في المدينة. فالعقوبة لا تنال إلا الجاني وحده بعد أن كانت تتعداه لتشمل أهله وعشيرته، وقد دل تكرار ذلك المبدأ في الصحيفة (ثلاثاً) على التأكيد والتقرير والأهمية[٢] وأكد ذلك بصريح نص القرآن قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[٣]، ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[٤] وهذا بلا ريب أوثق ميزان العدالة الإنسانية وأجلاها فكلٌ محاسبٌ على ما اجترح واقترف.

– ترسيخ مبدأ الأمر بالمعروف، وتأصيل مفهوم النصيحة، وهما من المعايير والمقاصد المهمة في الوثيقة إذا علمنا أن خلاصة التشريع الإسلامي قائمة على النصيحة "**فالدين النصيحة**"، وفي الأمر بالتناصح بُعدٌ

(١) ولعل الدمج بين الاثنين كونهما مشتركين متداخلين في الضوابط والمفاهيم فالإسلام هو دين السلام.

(٢) جاء في الصحيفة "وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه وأن النصر للمظلوم"، "لا يكسب كاسب إلا على نفسه"، "وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم".

(٣) سورة الإسراء، آية (١٥) سورة فاطر، آية (١٨) سورة الزمر، آية (٧).

(٤) سورة الأنعام، آية (١٦٤). والآيات في ذلك كثيرة وكذلك في السنة النبوية جاء في الحديث " لا يؤخذ الرجل بجريرة أبيه، ولا بجريرة أخيه " النسائي: السنن ج٧، ص ١٢٧. وقد طبقت هذه المسألة تطبيقاً دقيقاً بلا استثناء إلا تحميل العاقلة الدية في الخطأ، ولا سيما أن أساس هذا الاستثناء الوحيد هو تحقيق العدالة المطلقة.

أمني في المرتبة الأولى، فضلاً عن البعدين الاجتماعي والسياسي في إتاحة الفرص للمشاركة الفعالة في المشاورات السياسية الدائمة، والطوارئ الاجتماعية الملحة، والتخطيط الدائم، والاستفادة من الخبرات والطاقات، والثقة المتبادلة، بين الأطراف كافة في تعاملهم من خلال مفاهيم جديدة في التناصر والتفاهم والتعاون على "**البر دون الإثم**".

- ومن الأبعاد الدينية والأمنية تحقيق التكافل والتضامن الاجتماعي، والتعاون المالي الإلزامي عن طريق تحديد مسؤولية الدفاع المشترك الجماعي ردءاً لمشكلات العوز والحاجة لأفراد المجتمع، وحفظاً لكيان الدولة من الداخل، ومنعاً لتربص أعدائها من الخارج.

- ومن بنود الصحيفة الأمنية توحيد المساواة في جميع الإجراءات الدفاعية عن المدينة بين كل الأطراف المتعاقدين في الصحيفة، وفي إبطال إجارة العدو، وكذلك منع نصرته[(١)]، وفي نفقات الحرب؛ وفي ذلك تأكيد حدود التحالف السياسي الأمني بين المسلم والآخر.

- تأصيل حرمة المدينة وحماية حدودها السياسية، وهذا المبدأ استتباعاً للأبعاد الدينية، وذلك بمنع إيواء المجرمين[(٢)]، وبمعنى أدق إعلان المقاطعة للعدو اقتصادياً، وسياسياً، وهي مسؤولية جماعية لضمان الأمن لطوائف المجتمع. وقد حقق هذا الاجراء النبوي الأمني تفتيت التجمع الوثني، وسد الثغرات، ومنع الشبهات؛ ابتداءً بمنع إجارة قريش، وانتهاءً بتأكيد حرمة المدينة. فغاية الرسول ﷺ وخلاصة ممارساته الأمنية هذه تمثلت بما لخصه الشعيبي في كتابه ب....

١- ضمان الأمن، وتقوية الجبهة الداخلية، ودفع الأذى الذي قد يأتي من الخارج.

٢- قطع الطريق على قريش كي لا تستفيد من المدينة أو من أحد سكانها، حيث حظر على من سكن في المدينة أن يؤوي نفساً أو مالاً لقريش.

---

(١) وانظر بنود الوثيقة رقم (٢٤ و٣٧ و٣٨ و٤٤ و٤٥ و٤٥ب).

(٢) وقد أبدت المحافل الدولية المعاصرة اهتماماً كبيراً بهذا الأمر تجلى في مؤتمر الأمم المتحدة الثالث لمنع الجريمة ومعاملة المذنبين الذي انعقد في استكهولم سنة ١٩٦٥م، فمما وثقته صحيفة المدينة حرية العقيدة والإقامة وحرية الاشتغال والكسب مادام ضمن حدود الله، وضمان الحماية في بيعهم وشرائهم فيما بينهم وبين المؤمنين، في مقابل الأمر بعدم التعامل التجاري مع قريش، وعدم السماح لها بترويج منتجاتها داخل المدينة عن طريقهم، وعدم السماح لها بالحصول على مكاسب التجارة الدولية.

٣- منع قوافل قريش من المرور في أراضي الدولة الإسلامية، طبقاً لما نصت عليه الوثيقة، وهذا لا يعد عدواناً بل هو داخلٌ في دائرة أعمال السيادة للدولة الإسلامية.

٤- إرسال السرايا، التي كانت عبارة عن دوريات حربية استكشافية صغيرة، هدفها تأمين الدولة الجديدة وحمايتها من خصومها المجاورين إذا هموا بالاعتداء، كعاداتهم في الغارات المفاجئة دون إنذار، وقد أحدثت تلك السرايا أثرها في نفوسهم مما جعلهم يترددون في محاولات الاعتداء.

٥- عزل قريش القوية حتى لا تتعاظم قوتها أكثر، وذلك بعقد الموادعات والأحلاف مع القبائل المحيطة بالمدينة مما يسهل على المهاجرين مهاجمة قوافلها دون أن تلقى من جوار هاته القبائل ما يحميها من مُحَمَّد ﷺ وأصحابه.

٦- عدم فتح أكثر من جبهة والدولة الإسلامية لم يشتد ساعدها بعد[١].

وهكذا بنى الرسول ﷺ، بتوجيهات إلهيه وتطبيقات نبوية، إرثاً علمياً وتطبيقاً شرعياً يوصف بأنه نظامٌ عدلي إداري قانوني سياسي جمع فيه بين إقامة الحقوق، وتنظيم العدل، وإشاعة الأمن، وهذا ما يمكن القول فيه بأنه أهم مطلبٍ، وبُعدٍ ديني أمني إنساني.

ثانياً: أبعاد وآثار وثيقة المدينة على المستوى الاجتماعي.

- تأكيد حق المواطنة[٢]. وذلك بالاعتراف بحق جميع الساكنين في المدينة، فأثبتت الوثيقة بتشريع الإسلام حق اليهود وحق المسلمين على دينهم وأموالهم، فمنح الجميع حرية الحركة والتنقل، وحرية العمل والقول والاستشارة وإبداء الرأي في المصالح العامة للدولة، ووضع مبادئها القائمة على المساواة والكفاية والعدل لكل الناس دون تمييز، وبهذا تقرر مبدأ جواز الانضمام إلى المعاهدات التي فيها مصلحة شرعية للمسلمين؛ ذلك المبدأ الذي أصبح من مسلمات قواعد المعاهدات الدولية في العصر الحديث.

ومن تأكيد حق المواطنة إلى تأكيد حق التسوية في تلك المواطنة بين أفراد الأمة الإسلامية والرعية السياسية في الحقوق والواجبات ؛ فالقيادة العليا للحكومة الإسلامية بقيادة الرسول ﷺ، وفي ظل هذا الإطار، لا يُستبعد غير المسلمين الذين ارتضوا الحياة والعيش داخل هذه الدولة الواحدة.

---

(١) الشعيبي: وثيقة المدينة الدلالة والمضمون، مرجع سابق، ص٩٦.

(٢) تشير دائرة المعارف إلى أن «المواطنة علاقة بين فرد ودولة، كما يحددها قانون تلك الدولة، وبما تتضمنه تلك العلاقة من واجبات وحقوق في تلك الدولة». فالمواطنة في الدولة الإسلامية الأولى لم تنحصر في المسلمين وحدهم، بل امتدت لتشمل اليهود المقيمين وسائر القاطنين في مجتمع المدينة. انظر دائرة المعارف البريطانية ج٣، ص٣٣٢

- تأكيد مبدأ العدل والمساواة الاجتماعية في صورة أخرى، والعدل والمساواة في ميزان الصحيفة بابٌ واسعٌ وميدانٌ فسيحٌ رحب، ومجالٌ رائعٌ خصب. ومن مظاهره ومجرياته المساواة العامة أمام القانون، دون النظر إلى الدين أو العرق، **(فذمة الله واحدة)**، وأساس مساواتهم قائمة على أساس القيمة الإنسانية المشتركة، فجميعهم واحد في أصل الكرامة الإنسانية، وفي أصل التكليف والمسؤولية، وتعددت تلك المساواة في القانون والمرجعية إلى مساواة المسؤولية الإلزامية والمشاركة الإيجابية لليهود مع المسلمين في تحملهم أعباء النفقات المالية من أقساط نفقات الحرب الدفاعية عن المدينة على حدٍ سواء بدون تمييز لأي طرف على الآخر، والواقع إن المبدأ الإسلامي العادل في ذلك هو أن الغرم بالغنم.

والحق أنه إذا كانت صحيفة العهد قد حمّلت المسلمين عبء التضحية والموت والفداء؛ لإقامة دولة الإسلام سياسياً فهذا لا يعفي أبداً الحلفاء السياسيين من مسؤولياتهم المالية ؛وذلك أسمى آيات العدالة الاجتماعية.

- مبدأ إقرار الصالح من الأعراف الحميدة مما لا يتعارض وروح التشريع الإسلامي، فمن الأبعاد الحكيمة لبنود الصحيفة الإبقاء والإقرار على الصالح من الأوضاع السائدة قبل الإسلام مما كان مألوفاً ومعروفاً في التركيب الداخلي للقبيلة من ناحية الزعامة والعادات، وبعض التعاملات، كالديات والمعاقلات إلى غيرها حيث بقي العُرف كما كان، ولئن انصهرت تلك الكيانات العشائرية والقبلية في كنف الدولة الإسلامية إلا أنه مازال دور القبيلة الاجتماعي والسياسي قائماً ماثلاً بنمطٍ إسلامي فاعل في تطبيق سياسة الدولة الجديدة بما أقره وأكده الشرع، وفي تكرار عبارة «**على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى**»(١) تسع مرات في بنود الصحيفة ما يثبت أهمية التأكيد على ذلك.

ثالثاً: على مستوى السياسي.

- إقرار الانتساب إلى الأمة(٢). حيث أصبح المجتمع الجديد في المدينة يشكل أمة واحدة في ظل القانون السياسي المنظم لشؤون الحياة في المجتمع، وأُمتين بالمعنى العقدي في المسؤولية الخاصة لكل جماعة في الدين والمعتقد، ومبدأ الأمة في المفهوم السياسي، أشارت إليه الصحيفة بإلماحة بسيطة لمعنى أمة الإسلام في

---

(١) وانظر بنود الوثيقة من (٣-١١).

(٢) يبرز هذا المبدأ في البنود من رقم (٢٥ إلى ٣٥) التي كفلت (للآخر) - اليهودي - انتسابه للأمة، فاليهود الذين حالفوا المسلمين (أمة مع المؤمنين)، وليسوا جماعة سياسية منفصلة، فهم يشكلون أمة بالمعنى السياسي وليس العقدي (لليهود دينهم وللمسلمين دينهم)، فيكون المجتمع الجديد أمة واحدة بالمعنى السياسي وأمتين بالمعنى العقدي، وهنا يمكن القول بإدخال اليهود، باعتبارهم جزءاً من أمة الدعوة، ضمن الكيان السياسي والاجتماعي للأمة.

لغتها وميزت مدلولها فهي أمة واحدة من دون الناس لا تتلفع بالعصبية ولا تتسم بالعنصرية، فالمؤمنون والمسلمون من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة[١] والجديد في هذا المبدأ أنه الجذر الأساسي للاعتراف بتكوين الأمة السياسي للمرة الأولى في تاريخ جزيرة العرب، وأنها وحدة واحدة لا تتجزأ. ومن خلال ذلك ندرك بوضوح بوادر الانتقال الكبير في حياة العرب من حياة الفرد والقبيلة إلى حياة الدولة والأمة الواحدة[٢].

- أكدت وجلّت بنود الصحيفة مبدأ (مرجعية الحكم) ورده إلى الله **(وأنه مهما اختلفتم فيه من شيء فمرده إلى الله)** فأبطلت الازدواجية في الحكم، وركزت على جانب قضيتي العدل وتنظيم القضاء، وعلى ذلك الأساس يمكن القول: بأن هذه المرحلة قد تميزت بتوحيد الفكر السياسي، وتمثله في القرارات السياسية التي اتخذها الرسول ﷺ فمايز بين السلطات الثلاث **(التشريعية، والتنفيذية، والقضائية)**، وبهذا الإجراء نقل عبء الثأر إلى كاهل المجتمع، الذي يقيم الدعوى على الجناة أمام محكمة عليا مرد الأمور فيها إلى الله ورسوله، وبذلك قُضي على الحرب الأهلية داخل المدينة، وأعد أبناءها لدفع غائلة حرب الأعداء من الخارج[٣].

- من الأبعاد السياسية في الصحيفة تأصيل خلق التعايش السلمي بين أفراد المجتمع باحتواء الجماعات القبلية، وهدم ما بينها من خلافات عصبية وفُرقة عنصرية، واحتواء الأمة الكتابية (أهل الكتاب) على أساس وحدة الأمة السياسية، والتعايش في المجتمع الجديد على أساس مبادئ الحق والعدل والمصالح المشتركة والمنافع المتبادلة بين الكافة.

رابعاً: على مستوى البعد الحضاري.

إن من أبرز وأميز أبعاد مبادئ الصحيفة ما حققته من بعد حضاري آني ومستقبلي فهي أول ميثاق قانوني ودستور تشريعي على لغة أهل العصر يقرر الأبعاد التالية:

---

(١) لقد حددت مواد هذه الوثيقة الأعضاء الذين يتكون منهم ما اصطلح عليه فيها بـ«الأمة الواحدة من دون الناس» وهم: المؤمنون بالدين الجديد من المهاجرين والأنصار (من قريش ويثرب) ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم: (كالمشركين من أعراب، والمنافقين، والمؤلفة قلوبهم الذين يحاربون للأجر لا للعقيدة، واليهود)، والطريف أن هذه الوثيقة التأسيسية استطاعت أن تستقطب كل هذه الأمشاج وهذا الشتات المجموع جمع توليف لا تعسف وفق تصور جديد قائم بالأساس على مفهوم «الأمة» ذي الطابع السياسي والمدني، لا العقدي الديني، الشعيبي: وثيقة المدينة، ص٥٣.

(٢) الشعيبي: وثيقة المدينة المضمون والدلالة، ص٣٦.

(٣) الشعيبي: وثيقة المدينة المضمون والدلالة، ص٣٨.

– التنظيم الدقيق لجميع جوانب الحياة بين فئام من الناس مختلفةٍ أعراقهم ونحلهم ومللهم، وتحديد مسؤوليات كل منهم.

– التسامح الديني وإتاحة حرية الاعتقاد وفق تنظيم محدد فلا إكراه في الدين، ولا مصادرة للأفكار والعقائد في شريعة الإسلام. والصحيفة بمضمون بنودها وروح مبادئها سعت إلى إزالة التمييز العنصري، والتفاخر القبلي، والتعصب الديني.

– رعاية مبادئ الصحيفة لحقوق الإنسان وتأكيد حرمتها، مع إتاحة الحرية المنضبطة في كل جوانبها بما لا يقدح بأمن العباد ولا يضر بانضباط الأفراد.

– العيش التعاوني السلمي بين أفراد المجموعة، بأنواع التعاون كافة: من التعاون الاقتصادي، والسياسي، والعسكري، والاجتماعي، إلى غير ذلك، والملاحظ أن صحيفة المدينة لخصت أسس التعايش السلمي على أبرز النقاط الثلاث التالية:

١– الرغبة الذاتية المشتركة في التعايش السلمي بين الجميع بلا ضغوط أو فروض، أو الارتهان بحدود وشروط.

٢– تحديد الغايات وحصر أهداف التعايش المشتركة بين الأطراف، وفي مقدمتها استتباب الأمن والسلم في الأرض، والحيلولة دون قيام أسباب النزاعات والحرب، وردع العدوان والظلم والاضطهاد، الذي يلحق بالأفراد والجماعات، مع التعاون المشترك في ترتيب الأولويات، وتحديد مسؤوليات التعايش خدمة للأهداف الإنسانية السامية، وتحقيقاً لمصالح البشرية العليا.

٣– صيانة التعايش المشترك بسياج الاحترام والثقة المتبادلة بين جميع الأطراف.

وقد تم تطبيق هذه الأبعاد والممارسات عملياً في العهد النبوي فهي أساس لكلّ بناءٍ، وركيزة لكل تقدمٍ حضاريٍ في مستقبل دولة الإسلام.

وخلاصة القول: إن صحيفة المدينة، شكلت ميثاقاً عملياً مكتوباً وإجراءً نبوياً مدروساً ينظم القواعد الأساسية لدولة المدينة ورعيتها، ويتضمّن عقداً قانونيّاً متميّزاً، رسّخ مبادئ التعاون، وأنشأ كياناً سياسيّاً فريداً، وتنظيماً سياسيّاً موحّداً بين أطياف عناصر المجتمع المدني؛ فهو منهج يقنن المبادئ وينظم الحقوق ويُحكِم العلاقات، ويصوغ ذلك كله صياغة شرعية محكمة الدلالة بينة الحدود.

الباب الثاني

دولة الرسول ﷺ وجوانب تنظيم العلاقات الخارجية

الفصل الأول: أسس ومبادئ منهج الدولة الإسلامية في العلاقات الخارجية

الفصل الثاني: مقومات إدارة دولة الإسلام وآثار نتائج بنائها

الفصل الأول

أسس ومبادئ منهج الدولة الإسلامية

في العلاقات الخارجية

المبحث الأول: أسس العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية في العهد النبوي.

المبحث الثاني: مبادئ منهج الدولة الإسلامية في السياسة الخارجية.

المبحث الأول: أسس العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية.

من روائع تنظيمات الإدارة الداخلية في السياسة النبوية أنها مثلت نواة وامتداداً للعلاقات الدولية الخارجية، ويخطئ البعض ممن حصر وقصر موضوع بناء دولة الإسلام في ممارسة إدارة السلطة الداخلية فحسب، وغفلوا أو تناسوا أن مشروع سياسته ﷺ في بناء دولته عامٌ شاملٌ يفضي إلى قضاء الفرض، ويسعى لإعمار الأرض، ولا أدل على أهمية وامتداد التنظيم الداخلي وأثره ودوره في العلاقات الخارجية من صحيفة المدينة والتي ضمت في منهجها حدود تنظيم العلاقات الإنسانية، وامتدت لتشمل في بعض بنودها تنظيم أطر علاقة دولة الإسلام الأولى بالكيانات المجاورة والملل الأخرى.

والمدقق لملامح السياسة النبوية في تنظيم العلاقات الخارجية في الدولة الإسلامية الأولى يجدها قامت على أسسٍ ومرتكزات ومبادئ واضحات رسمت منهجاً للعلاقات بين الدول في حالتي السلم والحرب؛ والأعجب أن أسَّ انطلاقتها أنَّها عالمية الرسالة للنَّاس قاطبة، وعامة للعَالَمين كافة، فكانت لها تلك سمة، وفريدة، ومزية، وقدوة. وهي ربانية المنهج، إلهية المنطلق، فزادها ذلك قوة وسؤدداً، فأي نظام سياسي تشريعي وضعي في السابق واللاحق يراعي تكريم الإنسانية ويكفل الصالح العام لسائر البشرية فيلاحظ مبادئ الإحسان والبر، ويضمن معاني القسط والسماحة والعدل، ويضم في بنوده الصدق بالميثاق والوفاء بالعهد ويراعي حقوق المعَاهدين في دار السلم وينظم العلاقة بالمحاربين؟

لقد ساس ﷺعلاقته بمحيطيه من الخارج بحكمة النبّي الملهم، وحزم القائد المعَّلم، وحنكة السياسي البارع، وخبرة المربي العارف، فهو الملمّ المطلع على أحوال من حوله[١] وما كانت محاولاته الأولى الدائبة المستمرة قبل الهجرة[٢] إلا مراحل وخطوات نحو إقامة علاقات خارجية تتجاوز حدود شبه الجزيرة العربية.

وكان إعلان ميثاق صحيفة المدينة من قبيل تحديد أسس العلاقات الخارجية بالمحيطين به، وما كانت البعوث والمكاتبات لملوك الأرض إلا تطبيقاً عملياً للصلات الدولية والعلاقات الخارجية.

والحقيقة إن صحيفة المدينة كانت إيذاناً لبداية العلاقات الخارجية في المدينة ونقطة انطلاقتها؛ فلقد قعّدت تلك الوثيقة الجوانب السلميّة والاحترازية الأمنية التي تضمنت حماية المدينة، وتوفير بنود الأمن وروح الأمان لقاطنيها في السلم والحرب، واستمروا على ما كان بينهم من العهد والميثاق إلى **أن رمتهم العرب**

(١) لقد بينت كتابات النبي ﷺ ومراسلته لملوك الأرض بصياغة دقيقة ما أثبت سعة أفقه واطلاعه ﷺ على أحوال زمانه وأحوال الشخوص والأمكنة وما إليها.......

(٢) من حث المسلمين على الهجرة للحبشة مرتين، وعرض نفسه على القبائل لإيجاد أرضٍ خصبة لدعوته.

واليهود عن قوس واحدة، وشمَّروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة، وصاحوا بهم من كل جانب(١) ومالؤوا عليه ﷺ وأصحابه وظاهروا على قتاله، فجاء الإذن بالقتال فقاتلهم وجدَّ في قتالهم هو وأصحابه. ومتابعةً منه لأخذ الحيطة وتوفير الأمن في المجتمع المدني نراه ﷺ أخذ بالأس الثاني وهو إبرام الوثائق والمعاهدات مع المحيطين به من العرب المجاورين للمدينة(٢)، ثم انطلق بعدها في قمة صلاته الخارجية وأسماها وهي المرتهنة بتحقيق أهداف الدعوة وعالميتها فكاتب ملوك الأرض وأكابرها.

المطلب الأول: الجهاد في سبيل الله وبناء قوة دولة الإسلام.

طالت نبيَّ الهدى ﷺ حرب شعواء من مشركي مكة منذ فجر الدعوة، إعراضاً وتأليباً وصدًا بالأقوال والأفعال؛ فمنذ اليوم الأول للجهر بالدعوة تبادره عمه أبو لهب بقوله: "**تباً لك ألهذا جمعتنا؟** ولم يَسْلَم الصحابة الكرام من اتباع الحق والمؤمنون به ﷺ من أذى قريش وبطشها ومكرها في أموالهم وأبنائهم وأنفسهم وديارهم فقد ألحقوا بهم صنوف السوء وطالوهم بالأذى. ولما رأوا ازدياد أتباع الحق حوله وزيادة صبرهم وجلدهم زاد تنكيلهم بهم فامتدت أيادي التعذيب فتجاوزت الضعفاء إلى من هم أرفعهم جاهاً ومكانة، وكان الرسول ﷺ يشاركهم الألم ويشاطرهم الحَزن، ويواسيهم بسابقيهم من المستضعفين من الأمم ويستحثهم على الصبر، ثم أذن لهم بالهجرة إلى الحبشة ليأمنوا فيها، وبدأ ﷺ بالبحث عن نصير حتى يبلّغ رسالة ربه ؛فكانت بيعة العقبة وما لحقها من الأمر بالهجرة إلى المدينة بداية طور جديد وهو الإذن بالجهاد(٣)،

---

(١) ابن قيم: زاد المعاد، ج٢، ص٥٨.

(٢) وهذه حكمة سياسية منه ﷺ فبعد أن اطمأن على وحدة الجبهة الداخلية وترابطها، بدأ بالخطوة الثانية وهي إنشاء علاقات مع القبائل ذات الشأن القاطنة حول المدينة، إذ إنه لن يستطيع التصدي لقريش، وهي العدو الأقوى، إلا إذا أمن جانب القبائل المحيطة بالمدينة واطمأن على ولائها له، أو على الأقل حيادهم. انظر: السحيباني، عبد الله بن ناصر: السياسة الخارجية للدولة الإسلامية في عهد النبوة، جامعة الإمام مُحَّد بن سعود الإسلامية، المعهد العالي للقضاء، رسالة ماجستير غير منشورة، عام ١٣٩٩هـ، صفحة مقدمة الرسالة.

(٣) لم تكن المرحلة المكية خصبة سهله لتناول المسلمين فيها خصومهم بالسيف وبالجهاد، ولو واجهت الدعوة آنذاك المشركين بحد السيف فإنهم يجتثونها ويقضون عليها في مهدها، فكانت الحكمة تقتضي أن يصبر المسلمون على أذى المشركين، وأن يتجهوا إلى تربية أنفسهم ونشر دعوتهم ويكتفوا بإقامة شعائر التوحيد وممارسة الدعوة ويصبروا على أذى المشركين، وكان شعارهم المعلن﴿ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ ولما بايع أهل يثرب رسول الله ﷺ بيعة العقبة الثانية قالوا: "يا رسول الله! ألا نميل على أهل الوادي . يعنون أهل منى . فنقتلهم؟ فقال ﷺ: إني لم أُؤمَر بهذا". ولقد أورد ابن كثير في تفسيره لآية الإذن في سورة الحج أن ما يرجح من أن الأمر بقتال المشركين كان في المدينة: " هو قله عدد =

وأخذ جانب الإذن أول طورٍ في الجهاد وأول مراحله وصوره[١]. ثم ما لبث أن أخذ جانباً آخر وطورًا ثانياً وهو جانب الدفاع والقتال لمن قاتل فحسب، والكفَّ عمن كفَّ، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[٢] ثم جاء الفرض بعدها لقتال المشركين كافة ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾[٣].

المحور الأول: أهمية الجهاد في سبيل الله وأهدافه.

لربما ساقنا الحديث عن مراحل فرضية الجهاد في الإسلام وفريضته إلى أسباب تشريع الجهاد وغايته وأهدافه. فمن البديهي أن تكون هنالك ثَمة مبررات ودوافع للإذن بقتال المشركين والكفار؛ فتشريع الجهاد جاء بالأمر الإلهي والتنزيل السماوي، بل لقد اعتبره الإسلام ذروة سنامه وأحد تشريعاته العظام. والواقع أن ما تطالعنا به الظروف والأحوال التي عاشها المسلمون وما عانوه من ظلم وضَيم ونقمة وبلاء في مجتمع مكة قبل الهجرة، وما لاقوه من العنت والتعذيب والاضطهاد والتنكيل أوجب من الله نصرهم ومنع مظلمتهم ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[٤] ولو تتبعنا مواطن آيات الجهاد والقتال في سبيل الله استنتاجاً لإبراز دوافعه وأهدافه في الإسلام لوجدنا أن من أسباب فرض الجهاد ومشروعيته مدافعة الظلم ومغالبة القهر ورداً للعدوان وتوطيداً للسلام، ودفع الفساد عن الأرض بإقامة حكم الله ومنهج الإسلام فيها، مضافاً إلى إرادة

=

المسلمين بالنسبة لعدد عدوهم، ومنها كونهم كانوا في بلدهم، وهو بلد حرام، وأشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء كما يقال ؛ فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة لما صارت لهم دار ومنعة وأنصار"، انظر تفسير ابن كثير، ج١، ص٥٢٥.

(١) قال ﷻ: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ سورة الحج آية: (٣٩) روى الحاكم في مستدركه من حديث الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: " لما خرج رسول الله ﷺ من مكة قال أبوبكر، ﷺ: أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن " فأنزل الله الآية وهي أول آية نزلت في القتال، والحديث إسناده على شرط الصحيحين.

(٢) سورة البقرة: آية (١٩٠) ويعجبنا في ذلك قول ابن قيم في زاد المعاد: "ثم إن الله فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقال: "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم " ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة، فكان محرماً، ثم مأذوناً، به ثم مأمورًا به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأمورًا به لجميع المشركين " الزاد، ج٢، ص٥٨.

(٣) سورة التوبة: آية (٣٦) بل وجاء بالأمر وبالحث والتحريض ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ الأنفال آية (٦٥) وشدد على ذلك بقول: ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ سورة التوبة آية: (٥).

(٤) سورة الحج آية: (٣٩).

حماية المسلمين أن يفتنوا في دينهم أو أن تُستباح حرماتهم وتحتل ديارهم وقد أخرجوا منها بغير حق، وصودرت حريتهم الدينية وشُلَّت كرامتهم الإنسانية لا لذنبٍ إلا أن قالوا ربنا الله. وفي داعي الجهاد الحق في سبيل الله تقريرٌ لحرية الدعوة وتوثيق لحرية الاعتقاد؛ ولذا كان أول وأسمى أهداف الجهاد الإسلامي أن تكون كلمة الله هي العليا من جهة، وإخراج الناس من ظلمات الوثنية والشرك إلى نور الإيمان والرشد من جهة أخرى، وإرهاب الكفار وإذلالهم وتوهين كيدهم، ومن الأسباب أيضاً كشف المنافقين وفضح خبايا نياتهم ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[١].

ومن الأسباب منع الظلم والتجاوز والبغي والتعدي إذ لم تكتف قريش بما نالته في مكة بل طالت المسلمين أذىً وسوءًا في دار هجرتهم كما فعلوا ذلك من قبل لمهاجري الحبشة فأوقعوا بهم كيداً وأذى حتى في طريق هجرتهم[٢]، وشواهد التاريخ في ذلك كثيرة. وأكثر من ذلك إذ أجمعوا أمرهم فتحزّبوا وأعوانهم ومن شايعهم ضد المسلمين على قلب رجل واحد وابتدروهم ورموهم بسهم رجل واحد.

ولعل الشرارة الأولى التي أوقدت فتيل نار الحرب بين الطرفين هو كتاب قريش إلى حلفاء النبي ﷺ وتحذيرها الخزرجيين وتآمرها ضده[٣]، فلقد خشيت قريش بهجرة المصطفى ﷺ والمؤمنين معه ومؤازرة الأنصار له القضاء على سلطانها وذهاب هيبتها.

ولقد كان من أول سياسة رسول الحق ﷺ في معالجة أمر قريش -وقد فاتها فرحة قتله- بأن أرسل السرايا والبعوث الاستطلاعية رصدًا لتحركات قريش وطلباً لحماية دار الهجرة، ومع بعث السرايا كانت الخطوة الثانية وهي التعرض لعير قريش وتجارتها.

والحق أن هذا الإجراء النبوي كان مقنناً مدروساً، وإلا لما كانت قيادة تلك السرايا ورجالاتها على تعدادها بيد المهاجرين فكان سائر الركب من جموع المهاجرين؛ وما ذلك إلا محاولة منه ﷺ إحياء قضية

---

(١) سورة آل عمران: آية (١٧٨).

يقول ابن كثير في تفسير الآية: " أي لا بد أن يعقد شيئاً من المحنة يظهر فيها وليه ويفضح به عدوه، يعرف به المؤمن الصابر والمنافق الفاجر، يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن الله به المؤمنين، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ورسوله ﷺ وهتك به أستار المنافقين، فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ورسوله ﷺ " انظر تفسير ابن كثير، ج ١، ص ١٣٧.

(٢) وانظر لقصة هجرة أم المؤمنين أم سلمة وزوجها إلى المدينة، وقصة هشام بن العاص وغيرهم ولا أدل على ذلك من مكرهم وإجماع أمرهم على قتل النبي ﷺ.

(٣) حميد الله، مُحَمَّد: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي، دار النفائس، ط٦عام ١٤٠٧هـ، ص٢٣، رقم ٣.

المهاجرين في أنفسهم أولاً، وإحياءها على المستوى الخارجي ثانياً، وإنهاكاً لاقتصاد قريش وقطعاً لطرق تجارتها إضعافاً لعسكريتها، واستعادة لبعض حقوق المهاجرين المسلوبة[١]، وتدريب الصحابة على إتقان فنون القتال، وإرهاباً للعدو واختباراً له داخل المدينة وأطرافها[٢]؛ ولأجل هذا نرى أن البعوث والسرايا قد حققت أهدافها ومراميها[٣].

المحور الثاني: أساليب السياسة النبويّة في الجهاد الإسلامي لمواجهة الأعداء.

إن مبدأ السلام أصلٌ في العلاقات الإسلامية مع سائر الملل وجميع الأمم، وفي مقابل ذلك كانت الحرب تمثل حالةً طارئةً اقتضتها الضرورة؛ ولذا حرص ﷺ منذ أيامه الأولى في دار الهجرة على المسالمة والمعاهدة والموادعة أو المهادنة، فتعاهد مع المسلمين على النصرة والمنعة، ووادع اليهود اتقاء الحرب والفتنة، ووادع القبائل المحيطة بالمدينة، وهادن قريشاً على أن تضع الحرب أوزارها إبان صلح الحديبية، وكان يؤثر السلم والصلح ما وجد إليه سبيلاً، وما قاتل ابتداءً إلا بعد بلاغ؛ وشواهد ذلك كثيرة متعددة في القول

---

(١) وما تلك العير والقوافل وما تحمل من خير وتجارة إلا جزءا منها أموال المهاجرين المستضعفين في مكة.

(٢) انظر: أبو فارس، محمد عبد القادر: غزوة بدر الكبرى، دار الفرقان، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ– ١٩٨٢م، غزوة بدر الكبرى، ص١٤وص ٢٤.

(٣) كان من أبرز نتائج هذه السرايا الاستطلاعية بسط هيبة الدولة في الداخل والخارج فلقد استطاعت تلك البعوث والسرايا أن تلفت أنظار أعداء الدعوة والدولة الإسلامية على السواء إلى قوة المسلمين وقدرتهم على ضرب أي حركة مناوئة، سواء في الداخل أو الخارج، حتى لا يحدّث أحدٌ نفسه بمهاجمة الدولة الإسلامية من قبائل اليهود في الداخل أو القبائل الوثنية المحيطة بأطراف المدينة.

أيضا تكلفت قريش مادياً مؤونه زيادة عدد حراس قوافلها لتأمينهم، فضلاً عن ارتفاع قيمة بضائعها، عدا ما شعر به رجال القوافل القرشية وأصحاب الأموال في مكة على حد سواء من الرعب والخوف على أنفسهم ومصالحهم من المسلمين ومن نتائج أهداف تلك السرايا كذلك كسب بعض القبائل إلى صف دولة الإسلام وتحجيم دور الأعراب الذين شكلوا قوة تهدد قوافل التجارة المارة بدفع الإتاوات إليهم فلما قامت دولة الإسلام لم تدفع لهم شيئاً بل واضطرتهم إلى الانسحاب بعد مطاردتهم وهزيمتهم فيما عرف(ببدر الصغرى) وأكثر من ذلك إذ أجبرتهم الدخول في اتفاقات مع المسلمين أمناً لشرهم فلم يجرؤوا بعدها على ملاقاة المسلمين في قتال، ومن أبرز النتائج المستقبلية لهذه الغزوات والسرايا أن كانت بمثابة تمرينات عسكرية تعبوية، ومناورات حية لجند الإسلام، وكيف ؟! وهي التي كانت لها علاقة وطيدة بحركة الفتوح الإسلامية، فلقد ولدّت تلك السرايا التي أشرف عليها الحبيب المصطفى ﷺ في حياته تدريباً حياً نابضاً، حتى ليمكن اعتبارها دورات أركان للقادة الذين فتحوا مشارق الأرض ومغاربها فيما بعد؛ وما ظهور تلك الكوكبة من الألقاب الخالدة في سماء الفتوحات الإسلامية إلا أكبر شاهد على ذلك. انظر: الدقس، كامل سلامة: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين، دار عمارة للنشر والتوزيع، ط١(د.ت)، ص٥٣٢ و الشجاع، عبد الرحمن عبد الواحد: دراسات في عهد النبوة، دار الفكر المعاصر، ١٩٩٩م، ص١٣١.

والفعل والسياسة، فقد نهى عن مجرد تمني القتال فكيف بما هو فوقه. جاء عن رواية للبخاري ومسلم أنه ﷺ خطب الناس في بعض أيامه التي لقي فيها العدو فقال: «**يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموه فاصبروا**»[١]. وفي تتبعنا لجملة غزواته ﷺ لأعدائه نجدها إنما كانت دفاعاً عن الحق، ونشراً للدين، أو ردًا لعدوان المعتدي[٢]، بل إنه على الرغم من مسؤولية تبليغ الدعوة كان يكتفي ﷺ بالنذارة دون التعدي، كما ظهر ذلك جلياً في ختام كتبه ورسائله لملوك الزمان؛ فخلاصتها إن لم يقبلوا دعوة الحق فعليهم إثمهم وإثم من تبعهم ولم يزد ﷺ في الإنذار على ذلك شيئاً.

– ومن مبادئ السياسة النَّبوية العامة في الجهاد لمواجهة الأعداء أنها قامت على مبدأ العدالة والاحترام في حال السلم، وما دام أن الحرب ضرورة فينبغي، في الميزان الإسلامي والسياسة النبوية، أن تقدر تلك الضرورة بقدرها، وفي حال وقوع القتال لا يجوز تعدي ضرورات الحرب عند صد العدوان وقتال المحاربين، وكذا جاء النهي عن قتل العبّاد والصبية والشيوخ والنساء، وحرّم الإسلام تقطيع الشجر والإضرار بالثمر والتدمير والهدم لممتلكات العدو وإتلافها إلا إذا دعت لذلك ضرورات الحرب[٣]، ومنع وحرم التمثيل بالقتلى؛ وما ذلك إلا احتراماً للكرامة الإنسانية وامتثالاً للقيم الربانية التي تجاوزت حدودها في منظور الإسلام إلى احترام حق الأموات.

(١) البخاري: صحيح البخاري، حديث رقم (٢٩٦٦)، مسلم: صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، حديث رقم (١٧٤٢).

(٢) جمع نبي الله ﷺ بين جهاد الدفع وجهاد الطلب في المعارك مع الأعداء فكان معظم جهاده للدفع وبالأسباب التي تولت كتب السير والمغازي تفصيلها كمعركة أحد والأحزاب وغيرها، حيث غزت قريش المسلمين في عقر دارهم، وكان جهاده تارة أخرى جهادا للطلب فصحّ أنه ﷺ أغار على بني المصطلق من خزاعة(٦هـ) وهم غارُّون غافلون فقَتل وسَبى، فعلَّم ﷺ الجائزَ والمستحب وغزا (حنين _هوازن)عام (٨هـ)، في ديارها، وإن كان سببها، أن مالك بن عوف النصري جمع القبائل من هوازن لغزو المسلمين، فبلغ ذلك النبي، ﷺ، فخرج إليهم، يقول ابن العربي: " لما أقام النبي ﷺ يدعو مدة مقامه بمكة، ثم تعين القتال بعد ذلك، سقط فرض الدعوة إلا على الذين لم تبلغهم، وبقيت مستحبة، فأما الآن فقد بلغت الدعوة وعمّت، وظهر العناد، ولكن الاستحباب لا ينقطع، روى مسلم وغيره، أن النبي ﷺ قال: " ادعُهم إلى ثلاث خصال، فإن أجابوك إليها؛ فاقبل منهم وكُفّ عنهم"، ابن العربي، محمَّد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الإشبيلي (ت٥٤٣هـ): أحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت — لبنان، ط الثالثة، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م، سورة البقرة، الآية (٤٠)، قوله تعالى وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم، [مَسْأَلَةٌ سُقُوط فَرْضِ الدَّعْوَةِ]، ج١، ص١٤٧. تفسير ابن كثير، سورة الأنفال،ص١٨٤.

(٣) كما في أمر بني قريظة وبني النضير ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فهذا استثناء نظير شدة عداوتهم للمسلمين ونقضهم العهود وتبييتهم الشر بالمسلمين كإخوانهم من أهل الضلالات ما جعلهم عبرة؛ ولذا كان في تتمة الآية ﴿ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ ، والآية في سورة الحشر رقم (٢).

- ومن الأساليب النبوية الرفق قبل المعركة وفي أرض الملحمة بكل أدوارها في ابتداء الحرب وسيرها وانتهائها، ولئن أُمرنا في الإسلام برد الاعتداء بمثله، إلا أنه ردٌ مقيدٌ بالفضيلة، فتأليف القلوب حتى وإن اشتجرت السيوف أمرٌ مطلوب؛ يؤيد ذلك قوله ﷺ: «**تألفوا النَّاس، وتأنوا بهم، ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم، فما على الأرض من أهل بيت مدر ولا وبر إلا وأن تأتوني بهم مسلمين أحب إلي من أن تقتلوا رجالهم، وتأتوني بنسائهم**»[١]؛ ولذا عقد العهود وأبرم المواثيق والاتفاقيات فضلاً عن المفاوضات السلمية والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وفي نفس الباب من هديه ﷺ احترام العهود والمواثيق، وعدم نبذها إلا حال تحقق أسباب النبذ المشروعة تصديقاً وعملاً بقوله ﷻ : ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾[٢]، وفي الأخرى : ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾[٣] وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: «**من كان بينه وبين قوم عهدٍ فليشهد عقدته ولا يحلها حتى ينقضي أمرها، وأن ينبذ إليهم على سواء**»[٤].

ومنه يستخلص وجوب إعلان القائد الحربي للجهاد واستنفاره الجنود للقتال، وهو شرطٌ أساسيٌ في الحروب المشروعة حتى ولو كانت الحرب دفاعية؛ ذلك لأن الإسلام يحرّم المفاجأة في الحرب دون إعلان ودونما إنذار فكان من هديه ﷺ. تخيير غير المعاهدين بين أمورٍ ثلاثة الدخول في الإسلام، أو دفع الجزية، أو القتال[٥].

(١) العسقلاني ابن حجر: المطالب العالية، مصدر سابق، كتاب الجهاد، باب الدعوة قبل القتال، حديث رقم (٢٠٧٧) والحديث عن شريح بن عبيد عن عبد الرحمن بن عائذ.

(٢) سورة الانفال آية (٥٨) والمعنى أن الخيانة من الأعداء غدرٌ فلا يلزم محاربتهم حتى ينبذ إليهم عهدهم على سواء منك ومنهم العلم بذلك، كما تعنى أيضا الخروج إلى العدو مع إعلانهم ثم المبادأة دون انتظار العدوان.

(٣) سورة النحل آية (٩١).

(٤) أبو داود: سنن أبي داود، كتاب الجهاد باب في الأمام يكون بينه وبين العدو عهد فيسير إليه، ج٢، ص٢٣حديث رقم (٢٧٥٩) والحديث لعمرو بن عنبسة، ﷺ، وعند الترمذي في السير، باب ما جاء في الغدر، ج١، ص ٢٠٤ ١.

(٥) وفي هذا يقول عليه السلام:" إذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال، فأيتهن أجابوك إليها فاقبل منهم، وكف عنهم ؛ ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، فإن هم أبوا، فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم ، فإن أبوا، فاستعن بالله عليهم وقاتلهم "، سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في دعاء المشركين، ص ٢١٨، وقريب منه أمر الله بقتال أهل الكتاب ابتداءً حتى يدخلوا في الإسلام أو يعطوا الجزية، صحيح البخاري، حديث رقم (٣١٥٧) وابو داود برقم (٣٠٤٣) والترمذي (١٥٨٦).

– ومن أساليب سياسة الهدي النبوي في مواجهة الأعداء أن يكون الدفاع على قدر ما حصل من الاعتداء امتثالاً لقول الحق تعالى: ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[١].

وإن بَدا بُدًا للصلح بين المتحاربين فهو الأولى ومما حبذه الإسلام وارتضاه ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[٢].

ومن سياسة أساليبه ﷺ ومعايير قيادته العسكرية ما يختص بمعاملة أسرى الحرب، وهي في رأي الشارع بين أمرين إما الفداء أو المن ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾[٣]، مع الإحسان إليهم ؛ ولذ أخذ النَّبي ﷺ في بدر برأي الصديق في قبول الفدية دون القتل الذي أشار إليه الفاروق، ولفقيرهم تعليم عشرة من أبناء المسلمين لقد سن النبي ﷺ قبل أربع عشر قرناً نصاً بارزاً من أهم بنود القانون الدولي الحديث وهو نظرية تبادل الأسرى، بل ويتعدى هذا الإحسان للأسرى إلى إجارة من يطلب الأمان وعلى المؤمنين حمايته بنص الوثيقة[٤] وهو أشبه بحق اللجوء السياسي في عصرنا الحالي، والأصل فيه آية التوبة: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾[٥] إذا علمنا خلق الرسول الكريم في احترام الأسير حتى منّ على بعضهم من غير عوض مراعياً في ذلك مصالح نشر الإسلام وقبوله[٦].

(١) سورة البقرة آية (١٩٤).

(٢) سورة الانفال آية (٦١).

(٣) سورة محمد آية (٤) والمعنى في قوله: ﴿ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ قال أبو الليث، يعني إذا قهرتموهم وأسرتموهم فاستوثقوا أيديهم من خلفهم كيلا يفلتوا، والأسر يكون بعد المبالغة في القتل (فإمامنًا)أي تمنون مناً وهو ترك الأمير الأسير الكافر من غير أن يأخذ منه شيئاً (بعدُ) أي بعد شد الوثاق (وإما فداء)أي تفدون فداء وهو أن يترك الأمير الأسير الكافر، قال الشيخ الرضي: المطلوب من شد الوثاق إما القتل أو الاسترقاق أو المن أو الفداء فالإمام مخيرٌ بين أربع خصال، الخلواتي، إسماعيل حقي (ت ١١٢٧هـ): روح البيان في تفسير القرآن ، ضبط وتصحيح عبد اللطف حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ج٨، ص٥٥٧.

(٤) المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم.

(٥) سورة التوبة آية (٦) يقول ابن العربي في أحكام القران معلقاً على الآية: " التنكير في قوله تعالى: ﴿ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ يفيد التعميم، فلا يمنع الأمان من غير المسلم كتابياً كان أم وثنياً وامرأة كانت أم رجلاً" ج٢، ص٨٨٢.

(٦) ومثال ذلك في قصة أسر ثمامة بن أثال جاء في الحديث عن أبي هريرة أنه قال: "خرجت خيل لرسول الله ﷺ، فأخذت رجلاً من بني حنيفة، لا يشعرون من هو، حتى أتوا به رسول الله ﷺ؛ فقال:" أتدرون من أخذتم ؛ هذا ثمامة بن أثال =

المحور الثالث: استراتيجية الرسول ﷺ الحربية في قتال أعدائه .

لقد أُلهم ﷺ ووهب من فنون القيادة في تصريف الأمور والتخطيط لها، سياسياً وعسكرياً ما لم يوهب نبيٌ قبله، ولم تعرف البشرية أحداً مثله، إذ كان تدبيره للأمور بحنكة وحكمة قيادية، وكان تنظيمه وإعداده للجيش بقيادة ودراية وروح عسكرية. إذ كان سياسياً بارعاً وقائدًا متميزًا، خبيرًا متقدًا، وعالماً بمبادئ الحرب متمرساً بفنونها وقواعدها، ومستجلياً بإلهام الله له النصر من ربه الخالق، وآخذًا بالأسباب بكل ما اسطاع، ومن ذلك اهتمامه بالإعداد العسكري من جميع النواحي، ابتداءً بالتدريب وانتهاءً بالتسليح، فصاغ قيادة سياسية، وساس معاني عسكرية حقيقية قبل مُبَادأَة القتال وفي أرض المعركة وأثناءها وبعدها، واستوفى من مكارم الأخلاق كل مكرمة لم ينلها إنسانٌ قبله ولا بعده، بكمال عقلٍ وحسن سياسة ومن أبرز صفاته:

أولاً: بُعد النظر ودقة التقدير واستشراف المستقبل.

ومن صور ذلك أنه لم يبدأ ﷺ الجهاد ضد أعدائه إلا بعد أخذ العهد والبيعة بالمنعة والنصرة من لدن أصحابه (الأنصار)، وأعقب ذلك بمسألة حل مشكلات الهجرة بالمدينة من خلال المؤاخاة والموادعة والمسالمة، وثلّث الأمر بأن سطّر وأصدر ميثاقاً في صحيفة معاهدة وثق فيها ما يتعلق بمسألة الحرب، وما يتعلق بتضييق أسباب حدوثها أو في أثناء مباشرتها وما يتعلق بما بعدها، ثم قام بإرسال البعوث والسرايا الاستطلاعية لرصد حركات العدو، ومعرفة الطرق والمسالك المحيطة بالمدينة، وليدعو قبائل المنطقة إلى الإسلام، وفي هذا من بُعد النظر؛ ملاحظة ابتكاره ﷺ لاستخدام أسلوب مباغتة العدو بجمع المعلومات الضرورية قبل المواجهة القتالية . وسبق ذلك من بُعد النظر وقراءة المستقبل حرصه الشديد على إيجاد النصرة والقوة والمنعة منذ فجر الدعوة، فكان يتحرى وصاحبه الصديق، رضي الله عنه، أهل البأس والمراس عارضاً

=

الحنفي، أحسنوا إساره ورجع رسول الله ﷺ إلى أهله ؛ فقال: اجمعوا ما كان عندكم من طعام، فابعثوا به إليه، وأمر بلقحته أن يغدى عليه بها ويراح فجعل لا يقع من ثمامة موقعاً ويأتيه رسول ﷺ فيقول: أسلم يا ثمامة، فيقول: إيهاً يا مُحَمَّد، إن تقتل تقتل ذا دم وإن ترد الفداء فسل ما شئت، فمكث ما شاء الله أن يمكث ؛ ثم قال النبي ﷺ يوماً: أطلقوا ثمامة، فلما أطلقوه خرج حتى أتى البقيع، فتطهر فأحسن طهوره، ثم بايع النبي ﷺ على الإسلام...."، ابن هشام: السيرة النبوية: ج٢، ص ٦٣٩. والحديث لمسلم: صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ربط الأسير وحبسه وجواز المن عليه، حديث رقم (١٧٦٤)، ص ١٣٨٦.

نفسه للقبائل في المواسم، وكانا يقصدان غُرر الناس ووجوه القبائل، وكان الصدَّيق يسأل وجوه القبائل: كيف العدد فيهم؟ وكيف المنعة فيهم؟ وكيف الحرب فيهم؟ قبل أن يعرض رسول الله ﷺ دعوته عليهم[١].

ومن صور حنكته وبُعْد نظره عليه السلام، محاولته التعرف على أحوال العرب والقبائل بأطراف المدينة وحولها[٢] وتوطيد المسالمة وإنشاء علاقات الود والصلح معهم ، ومن ثَمَّ مبادأته القتال بأسبابها في كل معركة من معارك القتال.

ونموذجٌ آخر لبعد النظر وقراءة المستقبل وهو توفيق الله له بقبول بعض شروط مشركي مكة في صلح الحديبية ؛فعلى الرغم مما انتاب المسلمين من ألمٍ وامتعاض إلا أنها كانت سبب نصرٍ وفتحٍ وخيرٍ على الإسلام وأهله.

ثانياً: معرفه مبادئ الحرب والخبرة بأصولها.

القادة الأقدمون لم يتخرجوا في مدارس عسكرية أو كليات حربية، ولكنها الفطرة ثم الخبرة[٣]، والإعداد للقوة عددًا وعُدّة، من آلات الحرب ووسائلها، وحماية المواقع والوقوف على الثغور وتنظيم المواضع الدفاعية، فمدارسة أساليب القتال الحربية والعناية بها من أبرز ما انتهجه ﷺ، فلقد طبق مبادئ الحرب بما وهبه الله من رعاية ونفاذ بصيرة وحسن قيادة، وبما لم يكن معروفاً قط من قبل، فجمع بين الإصرار على الهدف[٤] وتوحيد الجهود ودقة التخطيط، وبراعة التدبير، ومن ذلك استخدامه لأسلوب الكتمان، ولا سيما وأنه من أهم متطلبات النجاح، فكان ﷺ إذا أراد أن يغزو غزوة ورّى (أظهر) بغيرها[٥] كما في فتح مكة حذرًا وحيطة حتى

(١) السمعاني، عبد الكريم بن مُحَمَّد عبد الكريم التميمي المروزي، (ت٥٦٢هـ): الأنساب، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط١، عام ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م، ج١، ص ٣٦.

(٢) دليل ذلك أمره عليه السلام لسرية عبد الله بن جحش في شهر رجب من السنة الثانية للهجرة قبل غزوة بدر وقوله:" إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة فترصَّد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم " ونخلة كما في معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية (اسم موضع على الطريق القديم بين مكة والطائف، وانظر: البلادي، ص٣١٧. وانظر لسرايا الرسول ﷺ: مختصر السيرة لابن هشام، ص١١٤.

(٣) عرموش، أحمد راتب: قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية، دار النفائس، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، ص١٦٤.

(٤) كما في غزوة الحديبية فقد كان هدفه عليه السلام أداء العمرة، وإظهار تعظيمه للبيت والتأثير في معنويات قريش، ولم يكن هدفه القتال؛ لذا تخلص من مواجهة قوات قريش بتغيير المسير، وبمفاوضة قريش، ورجع رغم معارضة أصحابه ولم يحد عن هدفه.

(٥) ابن سعد: الطبقات، ج ٨، ص ١٦٧. وفي الحديث:"كان إذا أراد سفرا ورى بغيره" البخاري: صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير، باب من أراد غزوة وري بغيرها، ج٦، ص٢١٣، رقم الحديث (٢٩٤٧).

من أقرب الناس إليه، كما استخدم المرونة وذلك في القيادة بالاستشارة وكذا المرونة مع الجندية بسرعة حركة الجيش . ولا أدل على سرعة التخطيط وصواب التدبير مما كان في معركة بدرٍ الكبرى كنموذجٍ أمثل.

ومن أصول الخبرة الفنية والمهارة النَّبوية في الحرب مبادأة العدو بالقتال في سائر مغازيه ومعاركه جميعها عدا (أحد والخندق) فالهجوم وسيلة للدفاع. كما استخدم عنصر المفاجأة وسرعة المباغتة في المكان والزمان والأسلوب[١]، ومن جميل ما يستشفُّ من مهارته العسكرية ﷺ الاقتصاد بالقوى مع الأخذ بالحيطة والحذر، وتقسيم الجيش إلى أساس واحتياط لأجل عدم إهدار القوة. ومن ذلك أن أرسل عمرو بن أمية الضمري بسرية اقتصرت على رجلين، وكانت كافية للقيام بمهامها خير قيام، واستعمل ما عرف بترتيب صف القتال وقد جاء وصف ذلك في قول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٢] واستخدم تأمين جبهة المدينة الداخلية إذ أمر جنوده ألاَّ يضعوا السلاح بعد الأحزاب قبل القضاء على قريظة لتأمين الاستقرار والهدوء في مؤخره الجيش . ومن التدابير الحربية تقسيم محاربته لعدوه ليسهل مقاتلتهم ومحاسبة كل على قدر جريرته وجرمه، وفي الخندق تحرك ﷺ من مفهوم "الحرب خدعة" فاستعمل نعيم بن مسعود للتخبيب بين الأحزاب:" **إنما أنت رجل واحد، فخذِّل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة**"[٣].

وكثيرةٌ هي قدرته ﷺ على التمرس في فنون الحرب وممارسة القتال مما يطول حصره ويصعب تتبعه في هذا الموضع.

ثالثاً: حسن الاستعداد ومشورة الأصحاب:

فالأولى من صفات القائد المتمكن، وأما القيادة الشورية فهي من المبادئ العظام التي اعتمدها، عليه السلام، في كثيرٍ من شؤونه الدنيوية ولاسيما مسائل الأمور الحربية، على أن حسن الاستعداد مكمّل للمشورة وكلاهما يعطيان معاني القوة وقمة التكليف والمسؤولية. فمن حسن الاستعداد مشورة الأصحاب في التخطيط والتدبير والأخذ بالرأي السليم، ومن حسن الإعداد والاستعداد إعداد القوة مادياً ومعنوياً، وتلبية احتياجات

---

(١) باغت النبي ﷺ عدوه في الحرب واستخدم المباغتة كأسلوب من مهارات الحرب فمن أمثلة مباغته المكان غزوة خيبر (فقد توجه نحو غطفان وأرسل مفرزة إلى معسكرهم ثم حول قواته الرئيسة إلى خيبر، وفي مباغته الزمان كغزوة بني قريظة حال عودته من غزوة الأحزاب مثلاً وفي الأسلوب كاستخدامه لأسلوب الصف بدلاً عن الكر والفر وكحفر الخندق كما في غزوة الخندق او باستخدام المنجنيق في حصار الطائف. عرموش: قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية، ص١٧٣ وما بعدها.

(٢) سورة آل عمران، آية: (١٢١).

(٣) البخاري: الصحيح، ج ٤، ص ٦٤ رقم الحديث (٣٦١١).

الجيش والإعداد للحرب، والمكيدة في القتال، مع براعة التدريب وقوة التسليح والتجنيد، ومن نماذج ذلك، على وجه التمثيل لا الحصر، التخطيط لمعركة الأحزاب ومواجهة جموعهم، والاستعداد والتهيؤ لها بحفر الخندق واختيار مكانه، وتوطيد أركانه؛ إغاظةً للعدو وتوفيرًا للوقت والجهد، وتفتيت شمله وجمعه.

ومن جميل أمثلة حسن الاستعداد التهيؤ والتخطيط الجيد الحكيم والمدروس لفتح مكة حيث أدخل، عليه السلام، في حسابه كل الاحتمالات عند تنظيم خطته للفتح، وذلك بتأمين تطويق البلد من جهاتها الأربع، فقسم الجيش إلى أربعة أقسام وجعل في كل جهات مكة جيشاً مستعداً، ومع الجيش الأساس جعل فرقاً احتياطية أخرى عند الحاجة ليفوّت على مشركي مكة فرصة التجمع فضلاً عن تشتيتهم وتبديد قوتهم في جهات مكة وأطرافها، واستخدم عنصر المفاجأة لقريش حيث أخذ الله عنهم الأنباء والعيون، والاستعداد بالحشد من القبائل المسلمة، ثم إعلان الأمن والسلام لمن سالمهم وكف عنهم فمن: **"دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل الحرم فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن"**[١].

أما المشورة لأهل الرأي والحكمة فهي من مزايا القيادة الحربية المثلى. ففيها زيادة ثقة الأفراد بقائدهم، ودليل الثقة والمحبة والاحترام المتبادل بينهم ، وكثيرة هي المواقف التي استشار فيها النبي ﷺ أصحابه، رضوان الله عليهم جميعاً، في المجال العسكري، ولقد استشارهم في المواقف التي لها أثر في مصالح المسلمين فأخذ برأي الصحابة، رضوان الله عليهم، من المهاجرين والأنصار في مقابلة المشركين في ميدان بدر الكبرى، وأخذ بمشورة الحباب بن المنذر في اختيار موقع الغزوة ذاتها، وكذلك أخذ برأيه في تبديل موقع معسكر جيش المسلمين في الطائف و خيبر، وهو الذي أشار كذلك بقطع النخل في خيبر أول الأمر فأخذ برأيه، ثم أشار ثانيةً بالتوقف عن قطع النخيل فأخذ كذلك بمشورته، واستفاد من مشورة سعد بن معاذ في بناء عريشٍ خاص به ﷺ قبل نشوب القتال، وأخذ برأي الصديق في شأن أسارى بدر بعد المعركة، وفي أحد أخذ بمشورة أغلبية الصحابة لملاقاة عدوهم قبل المعركة . وبرأي سلمان الفارسي في غزوة الخندق يوم الأحزاب[٢]، ورأي نوفل بن معاوية في غزوة الطائف بفك الحصار والرحيل عنها. وفي تبوك أخذ برأي

(١) مسلم: صحيح مسلم، حديث رقم (١٧٨٠). وعند أبي داود في السنن حديث رقم(٣٠٢٢) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وهذا ما جاء عنه ﷺ في خطبة الأمان يوم الفتح، وانظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤. وابن حجر: المطالب العالية، ج١٧، ص ٤٦١ – ٤٦٢.

(٢) الواقدي، مُحَمَّد بن عمر بن واقد السهمي (ت٢٠٧هـ: المغازي، دار الأعلمي، بيروت، ط٣عام ١٤٠٩هـ، ج ١، ص ٤٨ – ٢١٤.

الفاروق في تغيير اتجاه المسير إليها، وفي عدم نحر المسلمين لركابهم فأقر الحبيب ﷺ مشورته وأخذ برأيه، ولم يكن ﷺ ليستبد برأي، أو ليتعصب لنفسه بشيء.

وتلك نماذج بيّنة واضحة تبرز مثالية قيادة الرسول ﷺ العسكرية فشتان بين قائد يستمع الأقوال ويأخذ بلبب الحوار، ويدرك أفضل العروض ويأخذ بها، وبين قائد يستأثر بخططه ومرئياته، أو آخر يستشير أركانه ثم يتشبث برأيه ويستمسك به ويعرض عن آراء الغير، أو قائداً لا يستطيع التمييز بين الخطأ والصواب فيأخذ بأسوأ الآراء(١).

رابعاً: الشجاعة الشخصية واللياقة البدنية.

الشجاعة الشخصية والقدرة القتالية من أبرز صفات القيادة العسكرية المثلى، وقد تفوق نبي الأمة بها على سائر أصحابه فقد رؤي متقدماً ساحات الوغى، وصارع أقوى قادة أعدائه، وكان من لياقته أن قاد ثمانياً وعشرين معركة في سبع سنوات، فلم يكتف بالتوجيه، بل كان يشارك في القتال بنفسه، وانطوت مشاركاته على كل صور قيادة العمليات الحربية من دفاع وهجوم ومطاردة وحصار، وخاصة في المواقف الصعبة، وهو الذي تجاوز الثالثة والخمسين من عمره، وشارك أصحابه في المسير الطويل المضني في غزوة بني المصطلق، وفي غزوة تبوك. وشاركهم جهدهم في حفر الخندق. فكانوا إذا اعترضتهم صخرة أو نحوها لجؤوا إلى رسول الله ﷺ فضربها بمعوله فتتفتت –بقدرة الله– فصارت تراباً ناعماً بإذن الله. وفي أرض المعركة كان كبار القادة المشركين يحنون هاماتهم لعمل الرسول ﷺ في المناورة العسكرية.

ومن شجاعته وثقته بربه أنه دخل بقواته مقاتلا يوم بدر مع عدو يفوق قواته عدوا وعدة ، وقاتل مع صحبه وقاتل بنفسه حتى انتصر، وكان أقرب المحاربين إلى العدو بشهادة علي، ﵁(٢).

خامساً: الثبات ورباطة الجأش.

ومع الشجاعة يأتي ثباته ﷺ ورباطة جأشه رغم ما يحوطه من شدة البأس والأهوال. ففي معركة حنين بعد فتح مكة، انهزم جيش المسلمين في بادئ الأمر أمام قبائل هوازن وثقيف، فثبت الرسول مع بعض أصحابه،

---

(١) عرموش: قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية، ص١٦٤.

(٢) (كنا إذا اشتد الخطب واحمرت الحدق، اتقينا برسول الله، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله وهو أقربنا إلى العدو). أحمد: مسند أحمد بن حنبل، رقم الحديث (١٢٩٧). وعن غزوة بدرٍ يقول:" لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله، ﷺ، وهو أقربنا إلى العدوِّ، وكان من أشدِّ الناس يومئذٍ بأساً" أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٨٦.

وسيطر على أعصابه ووقف موقف الجلد الثابت عندما تفرقت جموع المسلمين في الوادي وقد ولوا الأدبار بسبب مفاجأة أعدائهم لهم بكمين فبقي النبي ﷺ ثابتاً ثباتاً عجيباً امتد إلى نفوس أولئك الفارين من أصحابه عندما أخذ ينادي وهو على بغلته :" **أنَا النّبي لا كذب، أنَا ابن عبد المطلب**"[١] فأقبل المسلمون على ذلك الصوت وقد عادت إليهم من ذلك المشهد رباطة الجأش وقوة العزيمة، وتجمعوا حوله ﷺ فقلب بثباته وجلده هزيمة المعركة في أول أمرها إلى نصر محقق في آخرها، واستطاع أن يحول الهزيمة إلى نصر.

ومع ثبات الشخصية في مواجهة الأخطار ثبات النفسية والقوة المعنوية التي لا تُحبط أو تثبّط حال عدم النصر وإبان الهزيمة؛ بل إن من ثبات نفسه وقوة إرادته وعزمه أن حوّل الهزائم إلى نصر مسدد معتمداً على ربه ضابطاً أعصابه متوازناً في إرادته. متزناً في عقله وفكره في اللحظات الحرجة، والمواقف المضطربة. فنراه سيطر على الموقف يوم أحدٍ فحال دون إبادة الجيش الفتي، بل جعل الأعداء ينسحبون بنصرٍ توهموه، وزاد إصراراً بأن تتبع الأعداء فعسكر جيشه في حمراء الأسد انتظاراً لقوات مشركي قريشٍ ثلاثَ ليال[٢]، وأصرّ بثباتٍ ورباطة جأش ملاقاة عشرة آلاف مقاتل تحزّبوا ضده يوم الخندق.

والحق أن السيطرة على النفس حال النصر ولجم انفعالاتها أصعب منه أحياناً عند الهزيمة، وكم من قائدٍ قتله غروره بانتصارات وهمية، أما رسول الهدى ﷺ فقد فتح مكة، وليس أقدر منه على تقدير أهمية ذلك النصر، ومع ذلك فقد رآه النّاس يدخل مكة حاني الرأس خشوعاً لله وتواضعاً، ولم يغره نصر ولم يدفعه انفعال لانتقام، ولم يعرف الحقد إلى نفسه سبيلاً[٣].

سادساً: قوة الإرادة وتحمل المسؤولية.

ومع الثبات وقوة الرباط تأتي قوة الإرادة وتحمل المسؤولية. ولقد تحمل ﷺ كل أنواع الاضطهاد وضروب التكذيب وصنوف الأذى مدة ثلاث عشرة سنة في مكة فلم تفّت في عضده أو تهن من عزمه، فتابع بثبات النّبي وحزم الجلد المربي بلا هوداة عشرَ سنين متتابعة في قتال وجهاد مستمر، وصبرَ حتى ظفر.

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، ج١٢، رقم الحديث (١٧٧٥).

(٢) إن مما يدل على عدم الهزيمة في أُحد، أن المشركين لم يأسروا أحدًا من المسلمين كما فعل المسلمون في بدر، بل إن الرسول ﷺ قد أسر من المشركين في اليوم التالي لأحد – عندما خرج المسلمون إلى حمراء الأسد – اثنين من المشركين؛ هما: معاوية بن المغيرة بن أُمية، وأبو عزة الجُمَحي، وقتلهما، انظر: ابن هشام: السيرة النبوية، ج٣، ص١٠٤.

(٣) عرموش: قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية، ص ١٦٥.

ولقوة الإرادة والحزم والعزيمة وتحمل المسؤولية أمثلة جمة. ففي اتفاق الحديبية مثلاً. أنموذج رائع دال على تحمل النَّبي ﷺ وقدرته على المفاوضة، وإدراكه بنور الله مآلات الأمور والمواقف، وتحمله للمسؤولية مهما كانت نتيجتها اعتمادًا على الله بيقينٍ وقلب ثابت، ثم قوة الثقة بالنفس مع قوة الإصرار على الصواب والحق، فقد مال معظم المسلمين على مواجهة مشركي مكة بالحرب والقتال، لكن رسول الله آثر عدم القتال وثبت بيقينٍ على هدفه وأصرّ وقبِل بشروط اتفاق الصلح الذي كان ظاهر بنوده إجحافاً بحقوق المسلمين، ثم تبين لهم ما خُفي عنهم وعن عدوهم مما فيه صلاحهم والخيرية لدينهم .

وفي معركة أحد نزل على إصرار المتحمسين لقتال الأعداء خارج المدينة بتحملٍ وقوةٍ وحزم، وصدق عزم، وقال ﷺ: «**ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل**»[١] ،ومع شدة المعركة وجراحه ﷺ واستشهاد عمه حمزة سيف الله ورسوله لم نسمع في كتب السيرة كلها أن الرسول ﷺ ذكر الخطأ في الخروج لملاقاة المشركين، أو أنه ألقى باللوم على الذين أصروا على الخروج من المدينة فهو القائد وهو الذي يتحمل نتائج القرار[٢]. والحال نفسه إذ تحمل مسؤولية اتخاذ قرار القتال في بدرٍ الكبرى وهي أولُ ملحمةٍ وأول غزوة ومعركة خاضها المسلمون ضد المشركين بشكل نظامي وكان مجموع قوات المسلمين ثلث عدد خصمهم، ولربما كانت فاجعة هزيمتهم– لو وقعت – بليغة الأثر في المدينة بما فيها من منافقين ويهود وحتى في أطرافها، ومع ذلك تحمل الرسول ﷺ نتائج قرار المواجهة بعد أن شاور أصحابه ورأى عزيمتهم ورغبتهم في ذلك ثقة في الله وإخلاص نية له، فكان النصر بحول الله حليفه.

سابعاً: الحكمة وحسن التصرف والمعرفة التامة بالرجال.

إن الحكمة هبةٌ ربانية عظيمة ومنحة إلهية جليّة؛ ولذا قال ﷻ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[٣] ولرسول الله ﷺ في كل تدبير أموره حكمة ومنحة، حرباً وسلماً، ففي كل شؤونه إنما كان يصدر عن حكمة بالغةٍ ورأيٍ صائبٍ مسدد . فمن حسن التصرف أمره ﷺ للمسلمين رغم شدة إعيائهم وجراحهم بعد معركة أحد بتتبع آثر المشركين حيث بلغه أنهم سيعودون للهجوم على المدينة فأرسل إليهم رسالة تهديد ووعيد؛ مما أسقط في أيادي المشركين وحوّل نشوة نصرهم إلى خوف

(١) أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٣٥١، والبيهقي: السنن الكبرى، حديث رقم (١٢٢٩٣) والحديث لجابر بن عبد الله، ومعنى اللأمة: الدرع، وقيل السلاح، وفي رواية البخاري " ما ينبغي لنبي لبس لأمته أن ينزعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه " صحيح البخاري، كتاب الاعتصام، وانظر أحداث معركة أحد في مختصر السيرة لابن هشام، ص١٣٧.

(٢) عرموش: قيادة الرسول، ص ١٦٨.

(٣) سورة البقرة آية: (٢٦٩).

محققٍ، فأعلنوا الرحيل، بل هربوا أيما هرب. وفي حكمة هذا التدبير محو آثار هزيمة أحد ورفع الروح المعنوية للمسلمين وإعادة إظهار هيبتهم لدى قبائل العرب في أطراف المدينة، فضلاً عن اليهود والمنافقين وجميع المتربصين من مشركي مكة.

ومن صور الحكمة النبوية معرفته ﷺ بنفسيات الجنود وإمكاناتهم، فراسة ودراسة، واختيار الرجل المناسب منهم في المقام والموضع الصحيح المكافئ. وفي ذلك دلالةً على الحس والوعي والتعايش مع أصحابه، معنىً وحساً وواقعاً وشعورًا، فهو المبصر بأحوالهم والدارس لعوالج نفسياتهم وإمكانات قدراتهم في القتال والحرب. فلما علم بحال حسان بن ثابت استعمله في الشعر منافحةً ومدافعةً عن الحق، ولم يعط سيفه يوم أحد إلا لمن يفيه بحقه ففاز بها أبو دجانه، ووجه نعيم بن مسعود ضد الأحزاب مستغلاً عدم ظهور إسلامه لإعمال الحيلة لتفريق صفوفهم، واختار قائدي كتيبة المهاجرين والأنصار يوم بدر[١]، واختار حامل الراية يوم خيبر[٢]، واختار المبارزين الأكْفاء في بدرٍ وخيبر أيضاً، واختار حذيفة بن اليمان لحفظ الأسرار، وأسامة بن زيد لغزو الروم[٣] وبالغ في تأليف صفوان بن أمية كسباً له وطمعاً في إيمانه، وكذا استمال ﷺ سائر من عرف بالمؤلفة قلوبهم بالمال بعد حنين فاختصهم بمزيد عطاء وغنائم عن غيرهم بالقدر الذي تدعو إليه مصلحة تأليف قلوبهم، وتعاون مع أهل المشورة والرأي بعرض آرائهم ومناقشة أفكارهم والأخذ بأحسنها حلاً وأمنعها حُكماً. وكل ذلك من حكمة التصرف والمعرفة التامة بالرجال.

ثامناً: ثقته المتبادلة بينه وبين جنوده.

لقد كسب رسول الله ﷺ ثقة ومحبة صحابته وجنوده فهو الذي عرف إمكاناتهم ومكانتهم مما يسهم في تلمّس حَزَنهم وفَرَحهم، وهو الذي خالطهم في جميع مشاعرهم، وهم الذين آمنوا برسالته، وعاينوا

(١) قسم ﷺ الجيش إلى كتيبتين: كتيبة المهاجرين، وأعطى رايتها علي بن أبي طالب، وكتيبة الأنصار، وأعطى رايتها سعد بن عبادة.

(٢) هو علي بن أبي طالب، ﷺ، بنص الحديث عن سهل بن سعد، ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: " لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه، فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقيل: هو يشتكي عينيه. فأرسلوا إليه فأتي به، فبصق في عينيه؛ ودعا له فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية فقال: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم"، البخاري: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر حديث رقم (٣٩٧٣).

(٣) علي، ناسو صالح: الشخصية القيادية، دار غيداء للنشر والتوزيع، طبعة عام ١٤٣٧هـ، عمان _ الأردن، ص١٣٤.

شجاعته، وميزوا صبره، ولامسوا حسن تقديره للأمور؛ فكانوا رهن إشارته وموضع ثقته، وهو المحب لهم العاطف عليهم، فكان يعفو عن زلاتهم وأخطائهم وإن عظمت إلى الحد الذي يمكن أن يفوت على المسلمين أسباب النصر، أو كانت بمثابة كشف الأسرار العسكرية، كما كان من أمر حاطب ابن أبي بلتعة[١] ومع ذلك ذكر ﷺ مواقفه المشرفة وسابق ما قدمه لخدمة الإسلام ونصرةً لدين الله، فأبى قصاصه ورفض قتله وأعذره وعفا عن جرمه وصفح عنه.

وكذا بادل الصحابة الكرام حب نبيهم، عليه السلام، لهم بحب، وإكرامه لهم ورحمته بهم باحترامٍ وكثير ود، يفدونه بأرواحهم وأنفسهم، ويذودون عنه بأجسادهم ومهجهم، ولا أدل على ذلك من يوم أحد إذ استهدف المشركون قتله ﷺ فتحلقوا حوله يردون عنه السهام والسيوف بأجسادهم ويمنعونها عنه[٢].

تاسعاً: رفع الروح المعنوية للمقاتلين بالأمل واستحثاث النصر.

إن من أبرز صفات القيادة المثالية إعلاء الروح المعنوية بين المجاهدين مما يعزز كرامتهم ويزيد هيبتهم لدى الآخرين، ولاشك فهذا من أبرز مقومات الأمة المسلمة ؛ لذا قال الحق ﷻ في محكم التنزيل : ﴿فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٣]، ولقد كان هذا ديدن رسول الإسلام ﷺ التفاؤل والبشر وحسن الظن بالخالق فأعطى نبي الأمة أمته الأمان واستحثهم على النصر حتى في أحلك المواقف وأسوأ الظروف؛ إعلاءً لهممهم وتقويةً لعزائمهم، وتصديقاً لوعد الله لهم، فها هو يَعِدُ سراقة ابن مالك بسواري كسرى وفارس . وهو نفسه من يستجلب النصر فيحدد مصارع المشركين يوم بدر في معركة غير متكافئة العدد والعدة، وهو الذي يعدهم بالثواب ومضاعفة الأجر، وهو الذي يحفزّهم ويطمئنهم لتمام الأمر: «**ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام،**

(١) فقال ﷺ في شأنه: " أما إنه قد صدقكم فيما أخبركم فقال الفاروق: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال ﷺ:" إنه شهد بدراً وما يدريك؟ لعل الله اطّلع على من شهد "بدراً" فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم " فدمعت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم". ابن هشام السيرة النبوية، ج٤، ص١٧. والحديث رواه ابن حبان في صحيحه ابن حبان، مُحَمَّد بن حبان (ت٣٥٤هـ): صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢/عام ١٤١٤هـ، حديث رقم (٦١٦٨)، ص٦٤٦٦، من حديث علي بن أبي طالب.

(٢) وانظر: ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٣، ص ٩٩ وابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٢، ص٣٣.

(٣) سورة النساء: آية (٧٤).

وذلاً يذل الله به الكفر»[١]. ونحوها من الأحاديث الكثيرة، وهكذا ربَّى فيهم ﷺ العزيمة والصبر والإحساس بالأمل والنصر، وحارب فيهم عوامل الضعف ونزعات الخوف؛ فكانﷺ يعدهم لتثبيت دعائم الدولة والاستعداد للفتوحات المرتقبة، والتي ما فتئ ﷺ يبشر بها أصحابه بين الفينة والأخرى في أوقات الحرب والسلم والخوف والأمن.

عاشرًا: الخبرة بنفوس الخصوم والأعداء وكيفية التأثير عليهم.

في الوقت الذي عرف عليه السلام نفسية أصحابه وقدراتهم لم تفته فراسة المحنك، العلم بنفسية خصمه، وفي أوضحِ مثالٍ على ذلك إعطاء النَّبي ﷺ رايتين **سوداوين** لقائدي كتيبتي المهاجرين والأنصار يوم بدر (سعد بن معاذ وعلي بن أبي طالب)، رضي الله عنهما؛ لأن العرب كان يتشاءمون من السواد، فعندما يروا الرايتين المرفوعتين سوداوين تتأثر نفوسهم وتتشاءم، فتحدث لهم الهزيمة النفسية قبل الهزيمة العسكرية في ميدان المواجهة[٢]. وكثيرة هي صفات إدارته ﷺ العسكرية وفنون مهارته الحربية ومنها إدارة الأزمة المالية استعداداً للغزو كغزوة العسرة، والقدرة على صناعة القادة كما في غزوة مؤتة، والرقابة والمتابعة والإشراف الذاتي مع تقدير مسؤولية من كلف وغيرها الكثير الكثير التي نهل والتمس من مبادئها وأسسها المنظرون والقادة العسكريون حديثاً على وجه التنفيذ والتطبيق.

وتلك هي القيادة المثلى التي صنعت بمنهجها وقيمها أمةً ذات حضارة عريقة أضاءت للعالم طريق العدل ورسمت طريق التقدم والأمن. وباتت من الناحية المادية والمعنوية قادرة على حماية الدعوة وصيانة العقيدة، فقد أصبح المسلمون صفاً واحداً يعملون لهدفٍ واحد بإمرة قائدٍ واحد، كما صنعت جيشاً قوياً

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين، ج٢، ص٧٩رقم (٩٥١)، والحاكم في المستدرك، ج٤، ص ٤٧٧رقم (٨٣٢٦) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والبيهقي في السنن الكبرى، ج٩، ص١٨١رقم (١٨٤٠٠) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ج١، ص٣٢، رقم (٣).

(٢) كان أمام رسول الله – ﷺ – رايتان سوداوان: إحداهما مع علي بن أبي طالب، يقال لها " العُقاب "، والأخرى مع بعض الأنصار قيل سعد بن عبادة – رضي الله عنهما– روى الطبراني من حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: "كان لواء رسول الله – ﷺ – يوم بدر مع علي بن أبي طالب، ولواء الأنصار مع سعد بن عبادة – رضي الله عنهما": المعجم الكبير، ج ٦، ص١٥رقم الحديث (٥٣٥٥).

وعلى كل حال فالخبرة بنفوس الأعداء وكيفية التأثير عليهم أصبح اليوم علماً خاصاً في زماننا وهو علم يعني بدراسة طبائع الأقوام وقيمهم ومعاييرهم وثقافاتهم وعاداتهم، فالغرب الصليبي لم يستطع أن يغزو المشرق الإسلامي عسكرياً ويفّت في وحدته إلا بعد أن تنبه لدراسة تراثه وأعرافه وكل ما يتعلق به فيما عرف بحركة الاستشراق، والعجيب أن فراسة النبي ﷺ قادته لممارسة ذلك العلم قبل أربعة عشر قرناً.

صلباً، وقادةً أبطالاً أشاوس مبّرزون وعباقرة في فنون الحرب مميزين، وازدانت أسماؤهم كنجوم لامعة في سماء الفتوحات الإسلامية الزاخرة، وتدوولت رائعات بطولاتهم في سجل صفائح التاريخ الخالدة. أمثال سيفِ الله المسلول (خالد بن الوليد)، وداهية العرب (عمرو بن العاص)، وصاحب القادسية وفاتح المدائن (سعد بن أبي وقاص)، والقعقاع بن عمرو، والمثنى بن حارثة الشيباني، وغيرهم كثيرون.



المطلب الثاني: المعاهدات والوثائق[١].

المحور الأول: المعاهدات السياسية ومنهج الإسلام في معالجتها.

عرف المسلمون المعاهدات في السنوات الأولى من تأسيس الدولة الإسلامية الجديدة في المدينة حيث مارس النبي ﷺ ذلك، فكتب المعاهدات والوثائق بين عناصر المجتمع في المدينة، وأقرت نصوص الشريعة مبدأ مشروعية العهد وإبرام المعاهدات مع الأعداء في السلم والحرب في إطار الشروط المتفق عليها بالتراضي والاختيار[٢]؛ وما تلك المعاهدات إلا ضماناً للسلم، ودعماً للأمن، وكفالةً للحقوق التي جاء الإسلام بضمانها واحترامها، وهي في الإسلام عهدٌ مقدسٌ مصون عن أي غدرٍ، أو خداعٍ، أو قهرٍ، وأوجب الوفاء بها وفاءً مطلقًا -إذا لم ينقضه الطرف الآخر-؛ إقامة لسلمٍ ثابتٍ على أقوى الدعائم والأصول، لا يجوز نقضه أو الإخلال ببنوده بحال[٣].

والمعاهداتُ بابٌ عريضٌ في تحقيق المصلحة الإسلامية إما باحتمال اعتناق الإسلام، أو إقرار السلام والأمن، وعصمة النفوس، والدماء، والأعراض، والأموال، أو لتأمين طرق المواصلات[٤]، أو لتبادل

---

(١) كانت المعاهدات والمواثيق النبوية تسير جنباً إلى جنب مع سلسلة الجهاد المتواصل، بل كانت في بعضها تمثل مرحلة من خطوات الإعداد للجهاد؛ ولذا كان بعض تلك المعاهدات قد سبقت أول معارك الإسلام الكبرى.

(٢) انظر إلى بعضٍ من تلك النصوص في سورة براءة، وهي آخر ما أنزل من القرآن في السنة التاسعة بعد تبوك قال ﷻ: ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ آية (١) وقوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ سورة التوبة: (٧) و في سورة النساء قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ ﴾ آية: (٩٠) وقوله ﷻ في سورة الأنفال : ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ آية: (٦١) وقوله تعالى: ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ ﴾ سورة الأنفال آية: (٧٢) وغيرها من الآيات وفي الحديث : "من نكث العهد ومات ناكثاً للعهد جاء يوم القيامة لا حجّة له " مسند أحمد ج٣، ص٤٤٥. وقوله: "من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلّن عهداً، ولا يشدنه حتى يمضي أَمده، أو ينبذْ إليهم على سواء ". المباركفورى، أبو العلا محمد عبد الرحمن، ت١٣٥٣هـ : تحفة الأحوذي، باب (ما جاء في الغدر)، ج٥، ص٢٠٤ رقم الحديث (١٦٢٩).

(٣) حسني، أحمد : المعاهدات في الإسلام، بحث في مادة السياسة الشرعية، كلية العلوم الإسلامية — جامعة المدينة العالمية شاه علم — ماليزيا، صفحة المقدمة.

(٤) كما في معاهدته للقبائل على سيف البحر- وهو يحاذي المدينة إلى جهة الساحل -فإنما كانت لتأمين الطرق التي يسلكها جيشه لمحاربة عدوّه، أو كما في تبوك حينما عاهد (يوحنا بن رؤبة)، ليؤمن حدود الدولة من جهة الروم على حدود الشام. وانظر هيكل، محمّد خير : الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، دار البيارق، الأردن، ط٢، عام ١٤١٧هـ، ج ٣، ص١٤٨٢.

العلاقات الاقتصادية، أو الانضمام إلى دار الإسلام، أو لدفع الضرر عن المسلمين، أو لإظهار قوة سلطان دولة الإسلام وتمكنها أو حتى لإنهاء الحرب، أو نحو ذلك من المصالح الأخرى.

والمتأمل في ممارسة الرسول ﷺ في قيادة الدولة يلاحظ انتهاجه ﷺ لضربين من التعاملات السياسية الأولى: محاولة توطيد وحدة السلام الأمني بين الجماعات والقبائل العربية في المدينة نفسها وأطرافها.

والثاني: الاستفادة من هذه القوة الموحدة كجبهة متماسكة بغرض كسب تعاونهم لمجابهة أي عدوانٍ خارجي على المدينة؛ ولهذا عقد الرسول ﷺ بعض الاتفاقيات السلمية مع الجماعات والقبائل غير المسلمة في المدينة[(١)] أو مع الأطراف المحيطة بها كمرحلة وخطوة من خطوات الإعداد للجهاد ضد أعداء الإسلام.

والملاحظ أن تلك الاتفاقات مثلت في المرحلة الأولى عنصراً سياسياً ذا هدفٍ[(٢)] سلمي يضمن الأمن والسلام وحماية الأنفس والأموال، مع ضمان الاستقلالية المحلية لتلك القبائل والجماعات في الديار والأوطان، كما يضمن حماية الدعوة الإسلامية، ولاسيما في بادئ تكوينها وبداية نشأتها، ويضمن كذلك حرية المعتقد للمتعاهدين، ولا سيما أهل الكتاب.

وبناءً على هذه الأهداف الأساسية يمكن القول بأن العهود والمواثيق في طبيعتها تقسّم إلى أقسام بحسب النوع، أو تبعاً للغرض والهدف والمدة والأمد. فهي إما مؤقتة كالأمان والهدنة، أومطلقة دائمة كعقد الذمة، وإما أنها تهدف لأغراض اقتصادية أو دينية، أو ترمي لأسباب أخرى سياسية داخلية، أو خارجية.

وقد تنوعت عهود النّبي ﷺ ومواثيقه السياسية إلى صورٍ وأشكال فتناولت في أول أنواعها: معاهدة أهل الكتاب من اليهود والنصارى[(٣)]، لتشمل معاهدات هؤلاء الكتابيين في الجزيرة العربية، إذ عقد ﷺ اتفاقية سِلميّة مع نصارى نجران عام (١٠ هـ/ ٦٣١م)، ومع يهود فدك وأيْلة وتيماء، ومع بني صخر من كنانة.

---

(١) كما في المعاهدة مع يهود المدينة.

(٢) عاهد ﷺ بعض القبائل العربية كما في حال بني مدلج وحلفائهم من بني ضمرة وخزاعة وغيرهم؛ ليضمن حيدتهم وعدم انحيازهم في الحرب ضد أعدائه عليه السلام.

(٣) كانت معاهدة اليهود أول معاهدة في الإسلام داخل المدينة وكانت معاهدة سلمية وغير موقوته وكانت بنودها تنص على السلام وحسن الجوار، وقد عاهد الرسول ﷺ أيضا قبيلة تغلب في السنة التاسعة من الهجرة وكان دينه قد قوي وخضعت له العرب، ولكنه أباح لتغلب أن تبقى في العرب على نصرانيتهم. فكانت هذه أيضاً من قبيل المعاهدات السلمية. وللمزيد عن معاهدة تغلب، انظر :الطبري: تاريخ الرسل، ج٤، ص ٥٥-٥٦و ابن سعد: الطبقات، ج١، ص٣١٦.

كذلك ومن الأنواع: معاهدات موادعة سلمية (داخلية) مع بعض القبائل في الجزيرة العربية وخارج المدينة. ونوع آخر معاهدات(خارجية) مع بعض مدن أطراف الجزيرة العربية.

وكانت بعض هذه المعاهدات قبل أن يقوى الإسلام ويشتد عوده، وبعضها في أثناء مجاهدة الكافرين، كما في عقد صلح الحديبية مع قريش، وبعضها حين اشتد الإسلام وقوي عضده وهكذا، وعموماً فإن المعاهدة، والميثاق، والعهد، أو العقد في أصل العربية، بمعنىً واحدٍ مترادف، ويعني بالجملة كل ارتباطٍ بين طرفين على أمرٍ معين[١].

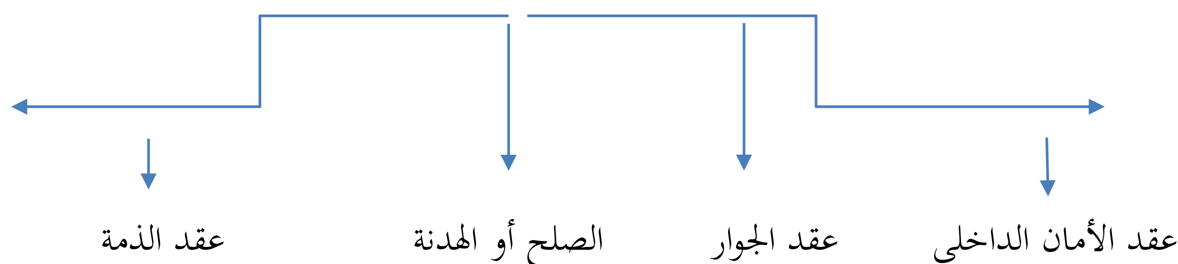
وعلى كلٍ فالمعاهدات التي وقعت من النبي ﷺ هي على أربعة أنواع:

- **النوع الأول**: عقد الأمان الداخلي أو ما يسمى بالمعاهدة السلمية.
- **الثاني**: عهد الأمان والإجارة.
- **والثالث**: معاهدات الصلح أو الهدنة.
- **وأما النوع الرابع والأخير** فهو معاهدات الصلح الدائم أو ما يطلق عليه عقد الذمة[٢].

(١) في العرف الدولي القائم يتميز العهد عن المعاهدة؛ فالعهد أوسع معنًى من المعاهدة؛ فكل معاهدة هي عهد، وليس كل عهدٍ معاهدة، والعهد هو كل اتفاق بين طرفين التزماه لمصلحة مشتركة، أو هو العقد الموثق بالكتابة، أو اليمين، أو بأي ضمان آخر يمنح طرفيه الثقة بتنفيذه، والوفاء بشروطه، حسني، أحمد: المعاهدات في الإسلام، مرجع سابق، صفحة المقدمة.

(٢) إن مادة الذمة مأخوذة من مادة ذمم، وهي تعني في اللغة : العهد والأمان والضمان والجزية والحق، وهي تشير إلى الالتزام بتحقيق الأمان بين طرفين بموجب هذا الالتزام، وعهد الذمة فيه ذلك، لأنه التزام بتحقيق الأمن لمن هم أهل الذمة مقابل التزامهم بكل ما يحقق ويحفظ للمسلمين أمنهم خلال إقامتهم في ديارهم فهو عقد يصير بمقتضاه غير المسلم في ذمة المسلمين، أي في عهدهم وأمانهم، انظر: مادة "ذمم" ابن منظور : لسان العرب، مصدر سابق، ص١٥١٦-١٥١٨. وللمزيد في هذا الموضوع أنظر: زيدان، عبدالكريم: أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، بيروت : مؤسسة الرسالة، بغداد، مكتبة القدسي، ١٤٠٢هـ، ص٢٢.

ويوضحها الشكل التالي:



أولاً: عقد الأمان الداخلي:

وعقد الأمان الداخلي[١] يأخذ صورة التعايش السلمي بين المسلمين وغيرهم في البلد الواحد إذ كانت السلطة للمسلمين، وهو الذي استقر عليه الوضع تحت اسم (أهل الذمة). وقد طبق النَّبي ﷺ ذلك؛ فكان أول عملٍ سياسيٍ قام به بعد الهجرة هو أنه عاهد ﷺ القبائل التي سكنت المدينة، والقبائل التي ما بين المدينة وساحل البحر الأحمر[٢]، وتوجهت جهوده ونيته، عليه السلام، في تلك الفترة إلى هزيمة قريش بكسب القبائل المختلفة إلى جانبه، وفك حلفها مع قريش، أو على الأقل المحايدة.

والحاصل أن أول عقد أمانٍ سلمي مع القبائل المحيطة بالمدينة هو عقد النبي ﷺ مع بني ضمرة في غزوة الأبواء[٣] وأتبعه بعقد اتفاق موادعة[٤] مع بني مدلجٍ وحلفائهم في غزوة العشيرة[٥] وكان فحوى

(١) بدأ ﷺ بعقد أمان داخلي أول الأمر ثم استقر الأمر بعد فتح خيبر بأخذ الجزية من غير المسلمين إذا أقاموا في بلاد المسلمين (غير جزيرة العرب) آخر ما استقر عليه الأمر حيث أخرج نصارى نجران ويهود خيبر من الجزيرة، وقد يسمى أخذ الجزية عقد الأمان الدائم إذا التزموا به.

(٢) ومن أولئك قبيلة جهينة وبني مدلج وغفار وغيرها من القبائل.

(٣) انتهز رسول الله ﷺ فرصة عقد أمانٍ مع بني ضمرة لما فاتته قافلة قريش إذ خرج غازياً في صفر على رأس اثني عشر شهرا من مقدمه للمدينة حتى بلغ ودان (الأبواء) يريد قافلة قريش فلما فاتته القافلة دخل في ضرب عقد حلف مع شيخهم مخشي بن عمرو، انظر: ابن هشام : السيرة النبوية، ج٦، ص٤١٥.

والأبواء: وادٍ مِنْ أَوْدِيَةِ الْحِجَازِ التِّهَامِيَّةِ وهو واد لخزاعة وضمرة، يَلْتَقِي فِيهِ وَادِيَا الْفرعِ وَالْقَاحَةِ فَيَتَكَوَّنُ مِنَ الْتِقَائِهِمَا وَادٍ سمي بالأبواء، وقيل سمي بذلك لتجمع السيول فيه، وبالأبواء قبر آمنة أم الرسول ﷺ، البلادي، عاتق غيث، دار مكة، ط١، ١٤٠٤هـ، ج١، ص٣٦.

(٤) معنى الموادعة بضم الميم وفتح الدال مصدر وادع : المتاركة أي : يدع كل واحد منهما ما هو فيه، وتأتي بمعنى المصالحة وترك الحرب، وانظر قلعجي ، مُحَّد رواس، وقنيبي، حامد صادق : معجم لغة الفقهاء، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط الثانية، ١٤٠٨ هـ، ص ٤٦٧.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل، ج٢، ص١٢٢، ط ١٢٦٩، القاهرة.

المعاهدة ومحتواها الاتفاق على الحماية في النفس والمال وإعطاء الأمان في الديار، وأن لهم النصر على من دهمهم إلا أن يحاربوا في دين الله، كما وثقَّت المعاهدة في بعض بنودها شروط الدفاع وتعهدات الهجوم[١].

والجميل في هذه المعاهدة أنها أظهرت قوة النبي ﷺ وأتباعه، وقوة دولة المدينة الناشئة من خلال التجريدات العسكرية التي كان يرسلها من المدينة لمطاردة القوافل القرشية[٢]، كما كسب من خلالها ﷺ إضعاف معسكر قريش فلم يكن لبني ضمره بعدها تقديم يد العون للمشركين ضد دولة الإسلام في المدينة، وهذا ضمان عقد وعهد، وكانت بلا شك دعوة تمهيدية غير مباشرة وصريحة لهذه القبائل الوثنية للدخول في الإسلام، ويمكن القول على هذا الأساس: إنها إنما مثلت في مجملها مرحلة (خط سير سياسي لتحقيق هدف ديني).

كما عاهد ﷺ كذلك خزاعة وفروعها[٣] تجديدًا لاستمرار عهود الحلف والود بينها وبين جده عبد المطلب[٤]. ولعل الضرورة السياسية قد أملت عليه ﷺ، بحكمةٍ قيادية ودراية سياسية، الاستفادة من موقع بلادهم وسط قريش مما يسمح لها بأداء مهام مَدِّه بأخبار أعدائه المكيين، وقيامها بدور الحليف المدافع عن النبي ﷺ. كما استفاد ﷺ من قبل من الموقع الجغرافي لبني ضمرة في ودّان[٥] الذي لا يقدر بثمن في الصراع بينه وقريش.

وعقد ﷺ أيضاً عهد مداجمة[٦] مع بني غفار وكانت تلك في جملتها تعكس نفس شروط الارتباط الدفاعي الهجومي وعناصره؛ إذ تعّهدت بتقديم العون لهم في كل الحالات إلا أن يحاربوا في الدين أو يمالئوا عليه كما هو حال المعاهدات السابقة.

---

(١) انظر إلى نص وثائق العهد في ملاحق البحث ملحق رقم (٧).

(٢) وللمزيد من أمر المعاهدات النبوية انظر: الشريف قاسم، عون : نشأة الدولة الإسلامية على عهد رسول الله، دار الكتاب المصري القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ٢، عام ١٤٠١هـ، ص ٤٤.

(٣) ومساكن خزاعة في مكة وتمتد جنوبا حتى بيش وضمد وشمالاً حتى المريسيع.

(٤) لقد كان هنالك ثمة صراع بين خزاعة وبني بكر بن كنانة ما دفع هؤلاء نتيجة الفوضى وتصاعد الصراع إلى التحالف مع بني هاشم منذ أمد بعيد ومع استمرار ظروف الفوضى، وعدم الأمن فرحوا بتجدد حلفهم مع النبي ﷺ، ولا سيما وقد حرص عليه السلام لكسب فروعهم المختلفة إلى جانبه.

(٥) ودان : شرق مستورة إلى الجنوب منها في نعف حرة الأبواء في مكان يلتقي فيه سيل حمامة بوادي الأبواء، البلادي، مرجع سابق، ج١، ص٤٥٠.

(٦) ذكر السهيلي بالروض الأنف تسمية تلك المعاهدة بالمداجمة، انظر: الروض الأنف، ج٢، ص ٥٨. وبنو غفار كانت من أوائل القبائل الصغيرة القريبة من المدينة التي عاهدها الرسول ﷺ في العام الثاني للهجرة.

وسعياً منه ﷺ لاستكمال حلقة التطويق التي كانت ترتكز عليها سياسته في سبيل عزل قريش وتضييق الخناق عليها كرّس همته ﷺ في السعي لاستماله جهينة إلى جانبه[١] بمعاهدة مثل سابقتها من بنود فأعطى أهل باديتهم الذين يبرون ما تعاقدوا عليه ما أعطاه لحاضرتهم من حقوق.

ثم لا ننسى أكبر عهدٍ وموادعة تعايشٍ سلمي داخلي وهو أنه بعد أن استقر ﷺ بالمدينة عاهد اليهود بما يشبه تحالف الدفاع المشترك بين أمتين في الحرب؛ مقرراً بتلك العهدة دعائم السلم الواجب، مع الاعتراف بحريتهم الدينية، وبقاء حسن الجوار وتأكيد رباط التحالف العسكري؛ لصد العدوان. وقد فصّلناها من قبل في صحيفة المدينة التي أعُلن فيها مبدأ وحدة المسلمين.

وعلى كلٍ فهذه بعض القبائل العربية وبعض العهود معها. وإنما كانت تلك العهود من قبيل عقود الأمان على الممتلكات، ومنع التحالف مع الأعداء، وقد بدا فيها تقديم مصلحة خدمة الدين، وحماية الدعوة، وضمان سِلم الدولة من عدوان مشركي مكة في خطوة من خطوات سلم أمان المدينة.

ثانياً: عهد عقد الجوار.

إن فكرة الأمان أو الجوار جزءٌ لا يتجزأ من حياة المجتمع القبلي الذي عرفه العرب. ونظام الجوار يمنح القبيلة أو أحد أفرادها بمقتضاه الحماية للغريب فتصبح حمايته لازمة على كل القبيلة التي هي بمثابة الدولة في وقتها.

والغرض من هذا العهد هو الحماية والحفاظ على النفس البشرية، وهذا العهد والعقد في الإجارة والأمان قديم قبل الإسلام، وغرضه تنظيم العلاقات بين القبائل، وإتاحة فرصة العيش للأفراد خارج الإطار القبلي في أمان واطمئنان بمنح الحماية والدفاع من قِبل من دخلوا بجوارهم. وهو من عهود النبي ﷺ السياسية الملزمة سواء لأمان فئةٍ وجماعة أو لفردٍ أو شخصٍ خاص كالقائد، أو الرسول (**البريد**) أو السفير أو نحوه وقد أُمّن هؤلاء جميعاً بحق الإسلام[٢] يقول المصطفى ﷺ في الحديث : «**أيما رجلٍ من أقصاكم أو**

---

(١) الشريف قاسم : نشأة الدولة الإسلامية، المرجع السابق، ص٥٦، ٥٧.

ومن أسفٍ أن جهينة قامت بالتزام موقف الحيدة من الصراع بين مُحَّد ﷺ وقريش، وانتهاج الازدواجية في المعاملات، فمع عقد المحالفة مع المسلمين إلا أن حبال الود وصلاته ما زلت بينها وقريش.

(٢) ولهذا لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله – ﷺ – قال له: أتشهد أن مسيلمة رسول الله؟ قال: نعم. فقال رسول الله – ﷺ – :" لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنقك "وقد قيض الله له ضرب العنق في إمارة ابن مسعود على الكوفة، وكان يقال له : ابن النواحة، ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة، فأرسل إليه ابن مسعود فقال له : إنك الآن لست في رسالة، وأمر به فضربت عنقه، لا رحمه الله، ولعنه. ابن كثير : تفسير ابن كثير، ج٤، =

أدناكم، من أحراركم أو عبيدكم أعطى رجلًا منهم أمانًا، أو أشار إليه بيده فأقبل إليه إشارته؛ فله الأمان؛ حتى يسمع كلام الله، فإن قبل؛ فأخوكم في دينكم، وإن أبى؛ فردوه إلى مأمنه، واستعينوا بالله عليه»[١] وهو بهذا المعنى أمانٌ خاصٌ يصح من كل مسلمٍ مكلفٍ مختارٍ يقول ﷻ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾[٢] ويقول المصطفى ﷺ: «**ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلمًا؛ فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**»، وفي الحديث الآخر «**يسعى بذمتهم أدناهم**». فكان أن أصبح على هذا الأساس أمان الجوار النوع الثالث بعد الإسلام والجزية، الذي يرفع به القتل عن الكفار، وفائدته أنّه مثّل وسيلةً هامةً ومُثلى لنشر الإسلام بالطرق السلمية، وقد قيل فيه : "**إنه من مكايد القتال ومصالحه**"[٣] واستمر هذا النظام حتى بعد أن قبلت معظم قبائل العرب الدخول في الإسلام. فقد شهدت السنوات الأخيرة قُبيل وفاة الرسول ﷺ إصدار العديد من وثائق الأمان لمختلف وفود العرب الذين زاروا المدينة، وآمنوا بمحمد ﷺ واعترفوا بسلطته عليهم.

ويدخل في أمثلة عقد أمان الفرد أمان الرسل والسفراء وقد كُفلت في شريعة الإسلام بمختلف أنواع الحماية والرعاية والحصانة والتكريم؛ حتى يتمكن هؤلاء من أداء مهامهم. وهذا الأمان معروفٌ من أعراف العهود التقليدية القديمة في العلاقات السياسية المتبادلة بين الأطراف[٤]. وقد نصت معاهدة نصارى نجران على ضيافة رسل الدولة الإسلامية من ممثلي دوائر الجزية المسؤولين عن جمع الحلل المتفق عليها، على أن تكون مدة إقامتهم عشرين يوماً تزيد قليلاً أو تقل على ألاّ تتجاوز الشهر لئلا تثقل كاهل أهل نجران[٥].

=

ص١١٤.

(١) والحديث في مسند زيد بن الحسين: كِتَابُ السِّيَرِ وَمَا جَاءَ فِي ذَلِكَ، بَابُ الْغَزْوِ وَالسِّيَرِ رقم (٥٣٦) انظر ابن المرتضى، أحمد بن يحيى (ت ٨٤٠هـ) :البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار، دار الكتب العلمية، تحقيق مُحَّد تامر، ط١عام ٢٠٠١م ، ج٥، ص٤٥٢.

(٢) سورة التوبة، آية (٦) وفي ذلك يقول ابن كثير في تفسير الآية: والغرض أن من قدم من دار الحرب في أداء رسالة، أو تجارة، أو طلب صلح، أو مهادنة، أو نحو ذلك من الأسباب، وطلب من الإمام، أو نائبه أمانًا؛ يعطى له ما دام مترددًا في دار الإسلام؛ حتى يرجع إلى داره ومأمنه. انظر: تفسير ابن كثير، ص ١٧٨.

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى، مصدر سابق، ج١٣، ص٣٢١.

(٤) جرت عادة الملوك بكتابة الأمان لكل من خاف سطوتهم لاسيما من خرج عن الطاعة، وخيف استشراء الفساد باستمرار خروجه عن الطاعة خوفاً، حتى صار ذلك هو أغلب ما يكتب من دواوين الإنشاء، القلقشندي : صبح الأعشى، ج١٣، ص٣٢٩.

(٥) وانظر كامل نص الوثيقة في ملاحق البحث، ملحق رقم (٨) .

ومن هذا أيضاً ما أعطاه رسول الله ﷺ من الأمان لمن جاءه، إما مسترشدًا أو أوعن طريق الرسل كما في يوم الحديبية إذ جاءه جماعة من الرسل من قريش، منهم: عروةُ بن مسعود، ومكرزٌ بن حفص، وسهيلٌ بن عمرو[١]، وغيرهم، واحدًا بعد واحد، يترددون في القضية بينه وبين المشركين، فرأوا من إعظام المسلمين لرسول الله ﷺ ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملكٍ ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم[٢].

وكذلك يدخل في ذلك من الأمثلة ما اتخذه الرسول ﷺ من إجراءٍ سياسيٍ بعقد أمان دفاعي لربط قبائل العرب بنظامه السياسي والديني في المدينة بوثائق ومعاهدات أمان لا يختلف بعضها عن بعض إلا في أضيق حدود. فمعظمها لا يخرج عن ذكر الفروض الأساسية الواجبة كإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأداء خمس الغنائم، مع التأكيد الواضح على طاعة الرسول ﷺ، كما شملت بعض الامتيازات مثل ألا يحشروا ولا يعشروا. كل ذلك في مقابل النصرة والمساعدة التي يقدمونها للدولة المسلمة فتضمن لهم الدولة سلامة ممتلكاتهم، وتؤمّنهم ضد أي اعتداء عليهم[٣].

والظاهر أن تلك القبائل العربية شعرت بقوة النّبي ﷺ الغالبة ورأت في قبول شروطه غير المتعسفة مكاسب مجزية وميزات مهمة؛ فاندفعت إلى المدينة مستفيدة من فرص السلام وإمكاناته التي وضعها نبي الحق ﷺ بين أيديهم؛ إذ إن القبيلة تزيل بدخولها في عقد مع النبي خطر أي حركة عدوانية ضدها من قِبل المسلمين، ثم إنها تركن إلى ركنٍ شديد في المقام الثاني فتهابها القبائل الأخرى خوفاً من حليفها الجديد.

(١) عروة بن مسعود الثقفي الصحابي المشهور والسيد المذكور، زعيم ثقيف في زمانه وأحد وجوه العرب، له الكثير من المأثر والأخبار، هو عظيم القريتين على ما ذُكر لدى المفسرين وأبوه مسعود بن معتب سيد بني ثقيف في حرب الفِجار ضد كنانة. وأما مِكْرَز بن حفص القرشي العامريّ فله ذكر في الصحابة وفي المغازي، وكذلك له ذكر في صُلْح الحديبية عند البخاري، قدم المدينة بعد الهجرة، لما أسر سُهيل بن عمرو يوم بَدْر فافتداه، وأما سُهيْل بن عمْرو فهو أخو سهل بن رافع وهما صاحبا المِرْبَد الذي بُني فيه مسجد رسول الله ﷺ، وكانا يَتِيمَيْنِ لأبي أُمامة أسعد بن زُرارة من بني مالك بن النجار ليس له عقب، وشهد بدرًا وأُحُدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وتوفي في خلافة عمر بن الخطاب وكان اسلام سهل يوم الفتح. وانظر سيرة عرة بن مسعود الصحابي الجليل لدى الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٤٢٤، و الصحابي الجليل سهيل بن عمرو في الجزء١، ص ١٩٥، ومكرز بن حفص في الإصابة في تميز الصحابة للعسقلاني، ج٦، ص١٦٣. وموسوعة الصحابة بإشراف صاحب مؤسسة تقنية التاريخ، مُحَّد عبد الله آل زيد الشريف.

(٢) ابن كثير: تفسير ابن كثير، ج٤، ص١١٤.

(٣) عون الشريف: نشأة الدولة، ص٢٠٣.

ثالثاً: معاهدات السلم الخارجي.

من أنواع المعاهدات السياسية معاهدات السلام الخارجية، أو ما يطلق عليه معاهدات الصلح المؤقت، أو الهدنة، وتسمى أيضاً **الموادعة** وهي في العموم مصالحة أهل الحرب على ترك القتال مدة معينة، بعوضٍ أو غيره، في زمن معلومٍ بشروطٍ مخصوصة، كما أجمع عليه علماء المسلمين، سواء أكان فيهم من يُقَرّ على دينه، أم لم يقر، دون أن يكونوا تحت حكم الإسلام، ولربما كان أعظم مثالٍ على المعاهدات السلمية القويمة معاهدة صلح الحديبية، وهو من قَبِيل عقد المعاهدات المؤقتة من أجل مصلحة الجهاد، وقد مثّل العهد هدنة عسكرية لوضع الحرب لمدةٍ معلومة بين المسلمين وكفّار مكة قوامها عشرُ سنين، ولأهمية هذا العهد السلمي ونتائج آثاره العظيمة والخالدة سنولي التفصيل له في محور مستقل(١).

رابعاً: معاهدات الصلح الدائم (عقد الذمة).

وهو نوع من المعاهدات السياسية النّبوية التي عاهد عليها النَّبي ﷺ بعضاً من أهل الكتاب، إذ جعل الإسلام لهؤلاء حكماً خاصاً في العهد والكتاب والميثاق مغايراً عن الوثنيين عبدة الأصنام؛ وهو اتفاق معاهدة لحكم خالصٍ بالخيار على نحو ثلاث إما: (الإسلام، أو الجزية، أو الحرب والقتال). فشرط بذل الجزية والتزام أحكام الملة.

فأما الجزية(٢) فتتيح لهم عصمة الدماء والأموال والديانة، ويثبت لهم بها حق الوصاية والحماية. وهذه المعاهدة إما أن تكون في الداخل فتمثل حينها عقد ذمة، وإما في الخارج فتأخذ حينها صورة المعاهدات الدائمة أو معاهدات الصلح والسلم الدائم، والغرض منها عموماً إظهار قوة المسلمين وإشهار منَعتهم يقول البارئ ﷻ : ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾(٣) وبالجزية يُؤمّن

---

(١) انظر: المحور الثاني من هذا المطلب، ص٢٥٢.

(٢) الجزية على وزن فِعلة مشتقة من المجازاة؛ بمعنى: أنهم أَعطَوْها جزاءَ ما مُنِحوا من الأمن، وهي ضريبة مالية مقطوعة، ترمز للخضوع لسلطان الدولة المسلمة، وهي عامة في الأفراد والجماعات، فقد تعقد مع فرد، وقد تعقد مع جماعة، بحيث يكونون مواطنين في الدولة الإسلامية ويعفى منها بمجرد الدخول في الإسلام، وتلتزم الدولة الإسلامية بموجب هذا العقد بحماية الذميين – رعايا الدولة الإسلامية. الجوهري: الصحاح، باب الواو والياء فصل الجيم، ج٦، ص٢٣٠٢، ٢٣٠٣، وابن منظور: لسان العرب، مادة جزي، ج١٤ص ٥١٤.

(٣) سورة التوبة آية: (٢٩).

أهل الكتاب على ممتلكاتهم وأنفسهم. كما في معاهدة أهل أيلة[١]، وصاحبهم يوحنا بن رؤبة[٢]، وهم أهل كتاب أُمِّنِوا على ممتلكاتهم، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن والبحر[٣]، وكذا ما كان من معاهدة أهل مقنا[٤] إذ أمنوا على أنفسهم وذكرت بنود ميثاق العهد مالهم وما للرسول ﷺ من الرقيق والحلقة والكراع والنخل (جزية)، وكل ذلك كان في غضون السنة التاسعة للهجرة[٥].

والواقع أن معاهدات هذا النوع تعددت على اختلاف أنواع المعاهدين مع التشابه في بعض البنود أحياناً، ومن أمثلة تلك المعاهدات معاهدة أهل جربا وأذرح[٦] فقد عاهدهم ﷺ بأمان ومائة دينار في كل **رجب** مع كفالة النصح والإحسان، كما عاهد ﷺ بني عريض[٧] على أن يوفوا بأثمارهم المحددة بالعهد في

---

(١) أَيْلَةُ: قرية عربية بفتح الهمزة وسكون الياء، وتعرف اليوم باسم « الْعَقَبَةِ » مِينَاء الْمملَكة الأردنية، وتقع عَلَى رأْسِ خليج العقبة ويضاف إِلَيْهَا، وهي منطقة عامرة كثيرة التجارة وميناؤها يزدحم بالسفن، ذكر البغدادي أنها هي بلد اليهود الذين اعتدوا في السبت، وتضم كذلك جمعاً من النصارى.ا نظر البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق: مراصد الاطلاع، تحقيق علي مُحَمَّد البجاوي، مكتبة الحلبي، دار المعرفة، عام ١٣٧٣هـ، ص١٣٨ و البلادي : معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، مرجع سابق، ج١، ص٣٠.

(٢) يوحنا بن رؤبة (يحنة بن روبة) هو: أسقف نصراني عرف بصاحب أيلة، وقد وفد على النبي ﷺ وهو في طريقه إلى تبوك فصالحه على الجزية، وكتب له كتاباً وكساه بُردًا يمانيًّا. انظر: البيهقي : السنن الكبرى، ج ٩، ص١٨٥.

(٣) وكان غرض معاهدتهم المحافظة على الأمن الداخلي باعتبار كل من يرتكب جريمة تهدد السلام – وذلك بإحداث الحدث – يكون خارجاً على المجموعة يحل ماله ودمه (فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس). وهكذا منحت الاتفاقية أهل أيلة ومن معهم الأمان الكامل، وانظر الطبري: تاريخ الأمم، ج ٣، ص ١٠٨، والشريف : نشأة الدولة الإسلامية، ص١٢٤.

(٤) مقنا: قرية تقع إلى الجنوب من مدينة (أيلة) على ساحل خليج العقبة. الموسوعة الشاملة للأماكن الواردة في البداية والنهاية ج٢، ص ٣٢٥.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج١، ص٢٨.

(٦) الجرباء وأذرح: موضعان من أعمال عمان بالبلقاء من أرض الشام قرب جبال السراة من ناحية الحجاز، وهُمَا الْيَوْمَ قَرْيَتَانِ فِي الْمَمْلَكَةِ الْأُرْدُنِيَّةِ الْهَاشِمِيَّةِ، تَقَعَانِ شَمَالَ غَرْبِيِّ مَدِينَةِ مَعَانَ عَلَى قَرَابَةِ ٢٢ كِيْلًا، وَطَرِيقُهُمَا يَفْرُقُ مِنْ مَدِينَةِ مَعَانَ، الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص١٢٩، ج٢، ، ص١١٨.البلادي : معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، مرجع سابق، ج١، ص٢٥٣.

(٧) بنو عريض قومٌ من اليهود كانوا يسكنون وادي القرى كتب لهم ﷺ سنة تسع في شعبان في مقفله من تبوك، جاء في مغازي الواقدي : " ولما نزل رسول الله ﷺ وادي القرى أهدى له بنو عريض اليهودي هريساً فأكلها رسول الله ﷺ وأطعمهم أربعين وسقا، فهي جارية عليهم، تقول امرأة من اليهود: هذا الذي صنع بهم مُحَمَّد خير مما ورثوه من آبائهم؛ لأن هذا لا يزال جاريا عليهم إلى يوم القيامة ولعل مراده أنه ﷺ أطعمهم جزاء لودهم وأمنهم وجعل لهم الذمام "، انظر : الواقدي: المغازي، ج٣، ص ١٠٠٦وابن سعد : الطبقات الكبرى، ج١، ص ٢٧٩.

كل عامٍ لحينه جاء فيها : "**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ :هذا كتاب من محمد رسول الله لبني عريض: طعمة من رسول الله عشرة أوسق قمحاً، وعشرة أوسق شعيراً في كل حصاد، وخمسين وسقاً تمراً يوفون في كل عامٍ لحينه لا يظلمون شيئاً**"[١].

وجاء في معاهدة بني غاديا[٢] أن لهم الذمة وعليهم الجزية، لا عداء ولا جلاء. وناقشت معاهدة ملوك حمير تأمين يهودهم ونصرانييهم بأن لهم مالهم وعليهم ما عليهم، دينار جزية على كل بالغٍ، ذكراً وأنثى، عبداً وحراً.

وآخر ما نختم في أمثلة هذا النوع وأشهرها معاهدة نصارى نجران وحاشيتها وأتباعها جميعهم فقد رفضوا الإسلام وأبو الملاعنة والمباهلة[٣] لرسول دين الإسلام خوفاً على أنفسهم من مغبة عواقبها، وأسلموا حكم أمرهم لحكم محمد ﷺ بما ارتضاه لهم فكان أن كتب لهم كتاب العهد والذمة "**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيّ لِلأسْقُف أَبِي الحَارِثِ، وَأَسَاقِفَةِ نَجْرَانَ، وَكَهَنَتِهِمْ، وَرُهْبَانِهِمْ، وَكُلّ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ جِوَارُ اللهِ وَرَسُولِهِ، لا يُغَيَّرُ أُسقفٌ مِنْ أسقفَتِهِ، وَلا رَاهِبٌ مِنْ رَهْبَانِيَّتِهِ، وَلا كَاهِنٌ مِنْ كَهَانَتِهِ، وَلا يُغَيَّرُ حَقٌّ مِنْ حُقُوقِهِمْ، وَلا سُلْطَانُهُمْ، وَلا مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ، جِوَارُ اللهِ وَرَسُولِهِ أَبَدًا مَا أَصْلَحُوا وَنَصَحُوا عَلَيْهِمْ غَيْر مُبْتَلَيْنَ بِظُلْمٍ وَلا ظَالِمِينَ**"[٤] وكانت عام عشرة للهجرة (١٠ هـ/ ٦٣١م) ووثقت هذه المعاهدة بممثل الدولة الإسلامية وأمين هذه الأمة أبي عبيدة عامر بن الجراح، رضي الله عنه[٥].

وعموماً فلقد جعل رسول الله ﷺ نصارى نجران ذميين تابعين لدولة الإسلام، فأذعنوا للدولة الإسلامية بمقتضى عهد عقد الذمة؛ وما ذلك إلا كونهم عرفوا عواقب الحرب من جانب، وكتموا ما علموا به من صدق دعوة نبي الهدى محمد ﷺ، ولم يعترفوا ويقروا بالتصريح بذلك من جانبٍ آخر. على أن بعضهم أذعن للحق

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢٧٩.

(٢) الشريف: نشأة الدولة الإسلامية، ص٣١٢.

(٣) إذ قالوا:" قد رأينا ألا نلاعنك وأن نتركك على دينك ونرجع على ديننا..." ابن هشام: السيرة، ج١، ص٥٧٣.
والمباهلة هي الملاعنة، والمقصود منها أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء، فيقولوا : لعنة الله على الظالم منا.
ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات، (ت٦٠٦هـ) : النهاية في غريب الأثر، المكتبة العلمية بيروت، عام ١٣٩٩هـ، ج١، ص٤٣٩. وآية المباهلة في سورة آل عمران (٥٩-٦٠) وانظر تفسير ابن كثير، ج٢، ص٤٩، وتفسير السعدي ج١، ص٩٦٨.

(٤) ابن كثير: السيرة النبوية ج، ٤ ص١٠٦، والبداية والنهاية ج٥، ص٥٥، ولابن قيم في الزاد، ج ٣، ص٥٤٩.

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية، الجزء الخامس. وابن تيمية : منهاج السنة النبوية، ج٧، ص١٢٥.

وآمن به وصدّق برسول الهدى ﷺ[١]؛ فكانت تلك المعاهدة مكسباً للإسلام بزيادة عدد أفراده، وإظهار قوة الدعوة وسيادة دولة المدينة.

ولقد أكد رسول الله ﷺ على عِظم حق عهد عقد الذمة وإلزام الوفاء به فقال: "**إلا من ظلم معاهدًا، أو انتقصه، أو كلّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفسٍ؛ فأنا حجيجه يوم القيامة**"، وفي آخر "**من أذى ذميًّا فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة**"[٢].

المحور الثاني: صلح الحديبية[٣] والنموذج العملي التطبيقي للتعامل مع المعاهدين.

مما لا شك فيه أن سلام المدينة كان معرّضاً للخطر بين الفينه والأخرى حتى هدنة صلح الحديبية في العام السادس للهجرة. بل على وجه الدقة حتى تاريخ فتح مكة في العام الثامن من الهجرة، فإذا ما تتبعنا تسلسل أحداث التاريخ وجدنا أن بعض قبائل العرب[٤] ما فتئت توالي هجماتها على ما جاور المدينة وكانت على صلات الود والقربى مع قريش؛ حتى إن بعضها تحرك لمحاولة غزو المدينة ذاتها كما في حال قبيلة بني أسد وحلفائهم بني لحيان، فضلاً عن حادث فاجعة الرجيع ومَجزرة بئر معونة في العام الرابع وأتبعها تحرشات الأحزاب، ثم تلاها واقعة معركة الخندق في العام الخامس للهجرة إلى أن كان صلح الحديبية في العام السادس، ولاريب أن كل تلك الأحداث والوقائع لتؤكد صورة ما كانت عليه الدولة من الأخطار وعداءات المتربصين المحدقة بها من كل حدب وصوب؛ ولذا نلاحظ تأكيد النَّبي، عليه السلام، على الجانب السياسي في معاهداته وعلاقاته الخارجية بادئ الأمر، ثم مع اشتداد قوة الدولة وصلابة عودها قبيل الفتح بدأ الدين ظاهرًا لنشره على أشدّه في كافة شبه الجزيرة وأطرافها من الممالك والأقاليم، ولا سيما أن شروط صلح الحديبية ودبلوماسيتها ساعدت على ذلك، ونقف مع صلح الحديبية لنستجلي من خلاله عدة وقفات : أهمها التطور السياسي البيّن في قوة الدولة، حيث قيادة النَّبي المصطفى ﷺ السياسية العظمى

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٥، ص ٤٨.

(٢) الحديث لأبي داود في السنن، باب الخراج الإمارة والفيء رقم الحديث (٣٠٥٢)، وصححه الألباني في صحيح غاية المرام رقم (٤٧١).

(٣) الحديبية : قرية متوسطة ليست بالكبيرة، سميت بذلك نسبة لبئر هناك عند الشجرة التي بايع رسول الله، ﷺ، أصحابه تحتها، وقيل سميت الحديبية بشجرة حدباء كانت في ذلك الموضع، وهي على ٢٢ كيلاً غرب مكة على طريق جدة، وبعض الحديبية في الحل وبعضها في الحرم، انظر: معجم البلدان، ج٢، ص٢٢٩، والروض الأنف، ج٤، ص٣٣. و البلادي: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ، ص ٩٤.

(٤) ومن أولئك سليم وغطفان وبنو أسد وبنو لحيان.

وإظهار قوة الدين ومنَعَة الدولة معاً، وتجلى ذلك من خلال الغرض والأهداف التي صاغها ﷺ تمهيدًا لفتح مكة، ومن خلال النتائج والآثار العظيمة التي ترتبت على ذلك النصر العظيم في الحديبية الذي لا يضاهيه نصرٌ وسؤدد إلا فتح مكة.

أولاً: ظروف الصلح وأسبابه.

لقد بات بخَلد النَّبي وترّسخ في ذهنه ﷺ تحطيم ميزان القوى الذي يحكم العلاقات بينه وبين العدو الأول والأكبر مشركي مكة، كما أراد ﷺ رفع الروح المعنوية لأتباعه وتقوية موقفه في المدينة، وذلك بضرب قريش وتحطيم معنوياتها وكشف تناقضاتها أمام قبائل العرب كلها[١].

والواقع أن مظهر إحرام النبي ﷺ بالعمرة في ألفٍ وأربعمائة من أصحابه أو أكثر ومعهم الهَدْي سبعون بدَنَة، وليس معهم إلا سلاح الراكب ولا غير، سوى مشاعر العزة ومعاني القوة وروح الفأل والنصر لمن عظيم الثقة بالله أن يذهب الرسول ﷺ إلى مكة محرماً ومعلناً بقوله وفعله تعظيم البيت الحرام، وأداء العمرة، وأنه لا يريد قتالاً، ، وكان توقعه أن قريشاً لا تصده عن المسجد الحرام حيث جاء مُعظّماً ومسالماً لا محارباً، وإذا صدته فإن ولايتها على الحرم ستسقط خاصة عند حلفائها من قبائل العرب إذ المستقر عندهم أنه لا يمنع أحدٌ من دخول الحرم إذا جاء مُعظّماً له.

وحقيقةً إن كل هذه التدابير الحكيمة من لدنه ﷺ تؤكد سعيه، عليه السلام، وعزمه على التخطيط لأمر عظيم وهو الفتح المبين –فتح مكة– وتحريرها من نجس المشركين ورجس قريش وأوثانها[٢]، وهو أمرٌ بحاجة إلى مراحل من التخطيط والترتيب فكان:

أولاً: مفاجأة قريش بزيارته والمؤمنون معه لمكة أداءً للعمرة وكان من تقدير المولى ﷻ أن رأى رؤيا دخوله البيت الحرام والمؤمنون أتباعه معه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين بلا خشية أو خوف، ولا سيما وقد لامس الحنين إلى مكة مشاعر المؤمنين، وتاقت نفوسهم شوقاً إليها.

ثانياً: اتبع ذلك ﷺ بأن استنفر أهل البوادي من الأعراب حوله ليخرجوا معه.

---

(١) إذ أراد كسب ود القبائل الموالية لقريش واستدرار عاطفتهم وإظهار قريش أمام حلفائها بمظهر الظالم الباغي سعياً لقطع رباط التحالف بينها.

(٢) ولذا نراه ﷺ في خطابه لعثمان، ﷺ، المكتوب إلى قريش يأمره بأن يأتي رجالاً مسلمين مستضعفين بمكة ونساء مؤمنات مستضعفات بها، ويدخل عليهم ويبشرهم بالفتح ويخبرهم أن الله وشيك، أي قريب، أن يظهر دينه بمكة حتى لا يستخفى فيها بالإيمان. وانظر البيهقي: دلائل النبوة، رقم الحديث(١٤٩٨) والحديث مرفوعاً عن عروة بن الزبير.

ثالثاً: أحرم بالعمرة وساق الهدي معه؛ ليأمَن الناس جانبه وليعلمهم أنّه إنما خرج زائراً للبيت مُعظماً له[١].

رابعاً: اتخذ عيناً له بمكة هو **بشر بن سفيان الخزاعي**[٢]؛ ليأتي له بخبايا قريش فكان جوابه: " **أن قريشاً جمعوا لك جموعًا، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ومانعوك**"[٣].

خامساً: لما علم بتصميم قريشٍ على صدّه عدل عن طريق مواجهتهم، فسلك طريقًا وعرًا بين الشِّعاب، أفضى بجيش المسلمين إلى الحديبية غربي مكة، وأرسل إليهم يطلب الصلح والمفاوضة.

ومما لا شك فيه أن مسألة دخول النّبي ﷺ مكة، وموقفه السلمي، وممانعة الحرب، ورفضه القتال جعل قريشاً في موقفٍ سيئٍ حرجٍ لا تُحسد عليه وهو أمرٌ جلل لم يعهده العرب في العُرف أن يُمنع عن البيت أحدٌ، سواء العاكف فيه والباد، ولا أدل على ذلك من قول سيد الأحابيش لقريش:" **يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم، أيصد عن بيت الله من جاء معظماً له! والذي نفس الحليس بيده، لتخلن بين محمدٍ وبين ما جاء له، أو لأ نفرنّ بالأحابيش نفرة رجلٍ واحد فقالوا له: مه، كُف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به**[٤]"؛ ولذا نجد قريشاً ترغب في مفاوضات ومحادثات النّبي مُحَمّدﷺ؛ لعلها أن تجد مخرجاً وخلاصاً من هذا المأزق فأرسلت سفارات متتابعات لإجراء التفاوض، أولها: سفارة **بُدَيْل بن وَرْقاء الخزاعي**[٥] الذي أكدّ استعداد قريشٍ لصدّ مُحَمّد وممانعتها له عن دخول مكة، تلاها ثانيًا سفارة عروة بن مسعود الثقفي، وأعقبتها ثالثاً سفارة **الحليس بن علقمة**[٦]

(١) ابن هشام : السيرة، ج٣، ص١٩٦، وابن الأثير : الكامل، ج٢، ص١٣٦.

(٢) بشر بن سفيان الخزاعي : هو الذي بعثه النبي ﷺ إلى بني كعب ليستنفرهم لغزو مكة هو وبديل بن أم أصرم، وبعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني كعب من خزاعة، وكان عين النبي ﷺ في الحديبية. انظر: ابن حجر : الإصابة ج ١، ص٢٢٦.

(٣) الواقدي : المغازي، باب صلح الحديبية، ج٥، ص ٦٧.

(٤) ابن هشام : السيرة، ج٣، ص ٢٠٠ وابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٢، ص ٩٦.

(٥) بديل بن ورقاء بن عمرو بن عبد العزى الخزاعي، كان إسلامه قبل الفتح، وقيل يوم الفتح، ولجأت خزاعة إلى داره، قيل: إنه ﷺ قتل بصفين، وقيل : مات قبل النبي ﷺ، انظر ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفه الأصحاب، ج ١، ص١٦٥، والعسقلاني في الإصابة، ج١، ص١٤١.

(٦) الحليس بن يزيد الكناني أو الحليس بن علقمة الكناني، كان سيد قبائل الأحابيش المحالفة قريش، وقد شارك في حرب الفجار قائداً لقومه، وكان من قبيلة كنانة وإن اختلف النسابة إلى أي فروع كنانة ينتسب، وهو ممن أرسلته قريش إلى رسول الله قبل صلح الحديبية فرجع إليهم وقال : " والذي نفس الحليس بيده لتخلّن بين مُحَمّد وما جاء له أو لأنفرنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد"، انظر علي بن حزم الأندلسي (ت٤٥٦هـ) : جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام ١٤٠٣هـ، ص ١٧٧.

سيد الأحابيش[١] الذي لم يكن بأحسنِ حالاً من سابقه إذ خرج بمثل ما رد به بُدَيْل من عدم انصياع قريش ورفضها للنّصح وقبول السِلم، بل زادت بإمعانها في الصدّ والمنع.

على أن آخر سفارات قريش سفارة مكرّز بن حفص، ومع النصح لقريش إلا أن مكرزاً لم يكن بأسعد حظاً ممن قبله، والحقيقة إن سلوك النبي ﷺ وقناعته وإقناعه لبعوث قريش وسفاراتها وسائر العرب، فضلاً عن سوقه الهدي فعلياً أمام الملأ، ليؤكد ويثبت توجّه النبي ﷺ السلمي وصدق نيته[٢] مما أسقط في يدي قريش وأغضب حلفاءها، ويؤكدَ بحق لدى هؤلاء الموالين لها خطأ قريش وتعنتها، وبهذا كسب ﷺ إجبار قريش وإلزامها بالتفاوض الجاد معه.

وعموماً فلقد بادر ﷺ بإرسال رسله إلى قريش مفاوضاً إيّاها، ومؤكداً لها ما نوى له من زيارة البيت، لا رغبة في القتال والحرب، فبعث **(خراش بن أمية الخزاعي)**[٣] وقد حاولت قريشاً قتله فرضي من الغنيمة بالإياب، وتبع تلك السفارة سفارة عثمان بن عفان المكتوبة إلى أشراف قريش وزعمائها كما سار بالوصية إلى رجال مكة ونسائها من المسلمين المستضعفين فبلّغ ذو النورين، رضي الله عنه، ما أرسل إليه وطالت المحادثات بينه وبين قريش وأشيع بين الناس وتناقلوا الخبر في نبأ قتله، وصُدّق الخبر نتيجة بعث قريشٍ بخمسين رجلاً ليصيبوا من المسلمين غِرة لكن المسلمين تمكنوا من القبض عليهم، ثم مَّن عليهم رسول الله ﷺ، وأيد الله المسلمين بنصرٍ من عنده؛ إذ لما شاع الخبر وكثر عن مقتل عثمان أراد عليه السلام مناجزة القوم وكان الوعد والعهد بالبيعة تحت الشجرة[٤]. ولقد كان للنّبي ﷺ جُلّ العذر في مناجزة القوم لاسيما وقد أعلن

---

(١) الأحابيش : قوم عرب، حالفوا قريشاً عند جبل حبشي، وحرصوا أن يكون تحالفهم معها في مثل رسوخ هذا الجبل، فنسبوا إليه، وهم بنو المصطلق سعد بن عمرو وبنو الهون بن خزيمة، اجتمعوا بذنب حبشي، وهو جبل بأسفل مكة فتحالفوا بالله : " انا ليدٌ على غيرنا ما سجى ليل أو وضح نهار وما أرسى حبشي مكانه " انظر: ابن سيد الناس : عيون الأثر، ج١، ص ٢٥، وذكر العسقلاني في فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ص ٥٥٣، أن حلف الأحابيش : هو أول أحلاف مكة في الجاهلية قبل الإسلام.

(٢) وما يؤكد ذلك أنه بينما كان مكرز بن حفص يكلم النبي ﷺ إذ جاء سهيل بن عمرو رسولاً من قبل قريش، فقال النبي – ﷺ– متفائلاً: (لقد سهل لكم من أمركم) البخاري : صحيح البخاري، حديث رقم (٢٧٣٢).

(٣) خراش بن أمية بن الفضل الكعبي الخزاعي مدني، شهِدَ مع رسول الله ﷺ الحُدَيبية وخَيْبَر وما بعدهما من المشاهد، بعثه رسول الله في الحديبية إلى مكة وهو الذي حلق رأس رسول الله يوم الحديبية. انظر: ابن عبد البر في الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج٢، ص ٢٧.

(٤) تلك البيعة التي رضي الله بها عن المؤمنين المبايعين فسميت بيعة الرضوان وفي القرآن الكريم أن الله قد رضي عن الصحابة الذين حضروا هذه البيعة، قال الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا
=

مراراً وتكرارًا، قولاً وعملاً، منذ أن برح المدينة لابساً وأصحابه لباس الإحرام، رغبته السلميَّة، فلما أبت قريش واستمسكت برأيها ما كان منه إلا أن أجمع أمره ودعا الناس لحرب قريش. ولم يكد ينتهي أمر بيعة الشجرة إلى مسامع قريش حتى بدا لها إعادة النظر وتقليبه والتفكر في عواقبه ومآلاته وما يترتب على ذلك من أمور في غير صالحهم، ولربما كان من أبرزها ضياع هيبتها بين الناس، ودخول المسلمين إلى مكة عنوة[١]، والأهم منه تغيّر نظر سائر قبائل العرب لزعامة مكة وسيادتها، فضلاً عن تفرّق غالبية حلفائها وأنصارها عنها، والتفافهم حول محمدﷺ وأصحابه.

وهنا أدركت قريش بلا خيار ثانٍ أهمية الصلح لما يحفظ مكانتها ومركزها القيادي أمام الناس؛ ولأجل ذلك أوفدت سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، ومكرّز بن حفص، وكان أن تم الصلح بين طرفين اثنين نبي الله ﷺ من جهة، ومبعوث قريش وممثلها سهيل بن عمرو من جهة أخرى، على نحو ما قدّر الله وارتضى بشروطٍ وبنودٍ ظاهرها الغبن والحيف والإجحاف بحق المسلمين، وباطنها النصر والظفر لله ورسوله والمؤمنين معه؛ ولذا تاقت نفوس المسلمين إلى غير تلك البنود. أضف إلى ذلك تعنّت قريش وتعمّدها الإسفاف بالتدقيق على أمور ثانوية بل هامشية نكاية بالمسلمين وإمعاناً بهم[٢].

والمتأمل في مجريات الأحداث ودقائق سيرها يستشف حتماً روح المرونة والسهولة التي تمتع بها عليه السلام بقبوله ونزوله على رأي قريش دونما ضعفٍ نفسي أو هزيمة روحية، مع بعُد نظره وصدق توكله ولجئه إلى الله مولاه بنيةٍ صادقةٍ، وإيمانٍ قوي.

=

فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ سورة الفتح الآية (١٨).

(١) ولعل هذا من أظهر الأسباب؛ ولذا كان في حسبانها حال مخاطبة سهيل بن عمرو:" ائت محمّداً فصالحه ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا فو الله لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً "، ابن هشام : السيرة النبوية، ج٣، ص٢٠٣.

(٢) من مثل إصرارهم على أن يتولى كتابة الصلح أحد الرجلين إما عثمان بن عفان، وإما علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما، كذلك رفضهم وإباؤهم عند الشروع في بداية الكتاب بالبسملة إلا أن يكتب باسمك اللهم، وكذا أصرّ بأن يكتب محمّد بن عبد الله ، ولا يكتب رسول الله. وقال سهيل: " لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك واتبعتك، لكن اكتب اسمك واسم أبيك " انظر: المقريزي، أحمد بن علي: إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، دار الكتب العلمية – بيروت، ط الأولى عام ١٤٢٠ هـ، ج١، ص٢٩٥.

ومن الأمور المهمة في هذا السياق عدم استشارته ﷺ لأصحابه في إملاء بنود الصلح ومجرياته على غير المألوف عنه ﷺ في الاستشارة لعظائم الأمور وتداول مجرياتها بين أصحابه، وكيف به يستشيرهم[١] في أمرٍ قضى الله فيه وعده وأتم أمره منذ أن أذن بحبس الناقة في الحديبية[٢]، ولم يمكنها من المسير حتى مكة، ولعل من أجّل الأمور أن محّصت معاهدة الصلح إيمان المؤمنين، وأكدّت صدق إذعانهم وتسليمهم لأقدار الله طوعاً وكرهاً، وسجلت لهم واقعاً عملياً لاستشراف نصر الله وجليل تمكينه للدين وأهله، ولعل تلك الخطوات والتبعات المادية رسمت الخطوط العريضة في النتائج المعنوية المتمثلة في أرض الواقع.

ثانياً: شروط الصلح ونتائجه وآثاره.

إنَّ شروط صلح الحديبية رغم حصرها في أربعة بنود فقط إلا أنها كانت لأعظم مقدمة فتحٍ للإسلام ونصرةً لأهله. فلقد كان صلح الحديبية غنياً بالدروس والعظات التاريخية والمصالح الإسلامية السياسية، فضلاً عن الحِكَم الفقهية الشرعية[٣]، التي ينبغي الوقوف معها والاستفادة منها، أفراداً ومجتمعات، في واقعنا ومستقبلنا.

فعن أول شرطٍ وبند وهو قبول الهدنة ووضع الحرب بين الطرفين عشرَ سنين متواليات بلا **إغلال ولا إسلال**، مع الوفاء بهذا العهد دون خديعة أو غدر[٤].

(١) وقعت استشارته ﷺ في صلح الحديبية في غير هذا الموضع حيث استشار صحابته في الإغارة على ذراري المشركين الذين يساندون قريشاً، واستشار أم سلمة في أمر الناس عندما أبطؤوا في التحلل، وأخذ برأيها.

(٢) عندما اقترب الرسول – ﷺ – من الحديبية بركت ناقته القصواء، فقال الصحابة – ﭫ –: (خلأت القصواء)، فقال النبي ﷺ: " ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل). ثم قال: والذي نفسي بيده، لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها"، ثم زجرها فوثبت، ثم عدل عن دخول مكة وسار حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد بئر قليل الماء، وانظر الخبر كاملاً في حديث البخاري: صحيح البخاري، كِتَاب الشُّرُوطِ، بَاب الشُّرُوطِ فِي الْجِهَادِ وَالْمُصَالَحَةِ، حديث رقم(٢٥٤٢).

(٣) ونذكر منها على سبيل التمثيل فليس هذا مجالها، ومن ذلك مشروعية التحلل من العمرة دون القضاء إذا وجد سبباً مانعاً، الإذن النبوي في الصلاة بالمنازل حال اشتداد نزول المطر، السنة لمن نام عن صلاته أو نسيها أن يصليها وإن خرج وقتها وغيرها من أحكام الفقه، وانظر لنص هدنة الحديبية كاملة في ملاحق البحث.

(٤) والإسلال بمعنى السرقة الخفيّة والرشوة، وبلا إغلال: بمعنى بلا غدر أو خيانة على أن يكون هذا العهد والميثاق مكفولاً معقوداً بالوفاء بما فيه من بنود بلا إخلال أو غدر أو خداع. قال أبو عبيد :الإغلال: الخيانة والإسلال :السرقة، وقيل الإغلال السرقة أي لا خيانة ولا سرقه ويقال لا رشوة، ابن منظور : لسان العرب، ج١١، ص٧٥.

١- وفيه أن إيقاف الحرب فترة معلومة من الزمان كفيلٌ بتحقيق الهدوء والسِّلم الذي كان النبي، عليه السلام، والمسلمون معه في أشد الحاجة إليه بعد شدٍّ وحرب منذ أن وطئت قدماه الشريفتان دار الهجرة طيبة طيلة الست السنوات الماضية.

٢- أمِن المسلمون جانب قريش، فحولوا ثقلهم إلى اليهود ومَن كان يناوئهم من القبائل الأخرى، فكانت غزوةُ خيبرَ بعد صُلح الحديبية مباشرة.

٣- فيه ما مكن النَّبي ﷺ حرية نشر الدعوة في الداخل بين قبائل العرب[١] مع الخروج بها خارج أفق مكة؛ إذ بدأ بمرحلة مكاتبة الملوك والأمراء خارج الجزيرة العربية بكل أمنٍ وأريحية. وذلك أنه أخذ يبعث الرسل في كل اتجاه للملوك والحكام في الأمصار والأقطار، حيث بعث سفراءه إلى الروم، وفارس، والحبشة، ومصر.

٤- أثبتت بنود الصلح قوة تمسك المسلمين بعهدهم ووعدهم، والتزامهم الوفاء به بلا خيانة ودون خديعة أو غدرٍ.

٥- ومن المصالح السياسية الإسلامية أن تلك المعاهدة بالصلح فتحت أبواباً عظيمة للجهاد في مناطق أخرى. فقد منح وفرض الشرط الأول للمسلمين الوقت الكافي للتجهيز من أجل غزوة مؤتة.

وعن البند الثاني: وهو تأجيل العمرة وانساؤها إلى عامٍ قابل دون حمل سلاح إلا سلاح الراكب على أن تكون السيوف مغمدةً في القرب ولا تزيد مدة الإبقاء والإقامة للمسلمين بمكة عن ثلاثة أيام.

- ففي البند إظهار معاني قوة المسلمين وجَلدهم، حسياً ومعنوياً، تجلَّى ذلك بعمرة القضاء في السنة السابعة للهجرة. إذ كانت لأصوات التلبية الجماعية التي عج بها المسلمون منذ إحرامهم حتى دخولهم مكة وقعٌ ومغزى، بل كان لها معنىً قوي وحكمة؛ ففيها إشهارٌ وإظهارٌ لكلمة التوحيد ورفعٌ لشعاره، وإبطالٌ للشرك والكفر وإسقاط رايته ومناره[٢] فقد قصد ﷺ طريقة الاضطباع في الإحرام والهرولة، ورفع الأصوات بالتلبية أن يرهب قريشًا، وأن يظهر لها قوة المسلمين وعزيمتهم وتمسكهم بدينهم، ومناعة جبهتهم وكان يقول

---

(١) فقد اختلط المسلمون بالكفار. بعد عقد الصلح . وهم في أمان، ودعوهم إلى الله، وأسمعوهم القرآن، ولم يُكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ودخل في سنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك بل أكثر، فقد خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، ثم خرج عام فتح مكة بعد عامين في عشرة آلاف مسلم؛ مما يؤكد زيادة عدد المسلمين.

(٢) انظر: أبو فارس، مُحَمَّد بن عبد القادر: في ظلال السيرة النبوية -غزوة الحديبية -، دار الفرقان، عمان، ط١، عام ١٤٠٤، ص٢٧٧.

:"**ارملوا بالبيت ثلاثاً ليرى المشركون قوتكم**"[١] وقد أثّر هذا الأسلوب في نفوس المشركين أيما تأثير من إغاظة للكافرين وكيدهم وحربهم نفسياً، ولا أدل على ذلك من سوقه ﷺ الهدي على جمل أبي جهل الذي غنمه يوم بدر، ليراه المشركون فيزدادوا غيظًا وحنَقَاً حين يذكرون مصارع قتلاهم وذلّ أسراهم في ذلك اليوم. جاء عن ابن قيم: "**أن رسول الله ﷺ كان يكيد المشركين بكل ما يستطيع**"[٢].

هذا ولقد آتت تلك الحرب النفسية على المشركين أكلها، فلقد أقام رسول الله ﷺ في مكة ثلاثة أيام، ومعه المسلمون يرفعون راية التوحيد، ويطوفون بالبيت العتيق، ويؤدون الصلوات الخمس بما كان وقعه على المشركين كالصاعقة[٣].

– كذلك من الأمور المهمة صدق الله وعده لرسوله ﷺ والمؤمنين وأن النصر والتأييد واقعٌ لا محالة ولا بد، لاسيما وقد تقدمته رؤيا سيّد الأنام والخلق ﷺ وهي مزيد أملٍ وحسنُ فأل وإن تأخر وتباطأ زمان وقوعها، ولما سأل الفاروق عمر، رضي الله عنه:"**أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ فقال: ﷺ بلى، لكن هل أخبرتك أن تأتيه هذا العام؟ قال: عمر لا، قال ﷺ : فأنك آتيه ومطوف به**"[٤].

–ومن فوائد (الصلح) أنَّ النَّبي ﷺ ما زال طالباً وطامعاً في التفاهم السلمي مع قريش، وكان من نتيجة سعيه الزواج المبارك بأم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية؛ ولعله أراد بزواجه بها أن يكون ذلك تجسيراً للعلاقة مع قريش.

– كان لصلح الحديبية بعامة، ولعمرة القضاء خاصة، أثرٌ عظيمٌ على سائر الجزيرة ؛ إذ حملت في مضمونها مهمةً دعوية عظيمة، فلقد تأثر أهل مكة من هذه العمرة السلمية فأسلم خالد بن الوليد وتبعه عمرو بن العاص، وسادن الكعبة نفسها عثمان بن طلحة، بل وظهر الإسلام في كل بيت من قريش سرًّا وعلانية، وبهذه النتيجة الطيبة يمكننا القول بأن عمرة القضاء هذه قد فتحت أبواب قلوب أهل مكة، وهيأت للفتح الأعظم، وفي ذلك يقول عباس العقاد: "... **وحسبك أن عمرة القضاء هذه قد جمعت في آثارها من أسباب الإقناع بالدعوة المحمدية ما أقنع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وهما في رجاحة**

(١) البخاري : صحيح البخاري، ج٨، ص٤١١، والحديث عن عبد الله بن عباس.

(٢) زاد المعاد، ج٣، ص٣٧١.

(٣) أبو فارس : غزوة الحديبية ، المرجع السابق، ص٢٧٠.

(٤) البخاري : صحيح البخاري، ج٣، ص١٥٦.

العقل والخلق مثلان متكافئان يحتذى بهما"[١]. وفي إسلام خالد أعظم نصر للمسلمين، فهو سيف الله المسلول، وفي إسلام عمرو بن العاص، داهية العرب، نصرٌ كبيرٌ للإسلام والمسلمين فلقد سخّر عقله الكبير ودهاءه العظيم لصالح دعوة الإسلام ونصرة المسلمين؛ في مقابل أن خسر الكفار بإسلامهما خسارة كبيرة؛ لأنهم كانوا يعدانهما لعظائم الأمور التي تحتاج إلى شجاعة الحرب ودهاء الفكر[٢] خاصة فيما يتعلق بعدائهم للمسلمين[٣].

–ومن بنود الصلح شرطٌ مهمٌ : يرمي في صياغته لإتاحة الحرية لقبائل العرب في الدخول في أحد الحلفين (الحلف النَّبوي أو الحلف القرشِّي)؛ فمن أحب أن يدخل في حلف مُحَمَّد وعَقْده فعل، ومن اختار وأراد أن يدخل في حلف قريشٍ فله ما ارتضى وأحب دون إكراه ولا إحراج[٤].

وآخر تلك البنود أن من أتى محمدًا من قريشٍ بغير إذن وليه رده محمَّد إليه، ومن أتى قريشاً من أصحاب محمدٍ لم يردوه.

– وفي هذا البند فائدةٌ عظيمة، ألا وهي تحرّي صدق إيمان الرجال، وقد تأكد ذاك بدخول أناسٍ جُددٍ في الدين الإسلامي، على أن هذا الشرط قد تم إلغاؤه بطلبٍ من قريش بعد حادثة أبي بصير، وأبي جندل[٥].

(١) العقاد، عباس محمود : عبقرية مُحَمَّد، المكتبة العصرية – بيروت – لبنان (طبعة ١٩٨٠) ص٦٩.

(٢) وانظر لقصة إسلامهما في السيرة النبوية لابن هشام، ج٣، ص٣١٧، وابن كثير في البداية، ج٤، ص٢٣٨.

(٣) انظر: الحميدي، عبد العزيز عبد الله: التاريخ الإسلامي، دار الدعوة، الإسكندرية، ط١، ١٤١٨، ج٧، ص٩٠.

(٤) فتحالفت قبيلة خزاعة مع المسلمين وتحالفت قبيلة بني بكر مع قريش. انظر: صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية، ج٣، ص٤٧٤ حديث أنس رقم (١٧٨٤) وجاء عند أحمد فتواثبت خزاعة فقالوا : نحن مع رسول الله وعقده، وتواثبت بنو بكر فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم، مسند ابن حنبل، ج٤، ص٣٢٥.
وفي مبادرة خزاعة، مسلمهم ومشركهم، كسب عظيم للمسلمين؛ وذلك لمكانتها وقربها من الحرم، وقوة العلاقة بينها وبين الرسول ﷺ وفي رواية البخاري :" أن خزاعة كانوا عيبة نصح لرسول الله من أهل تهامة " البخاري : صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، ج٣، ص ١٧٩، حديث رقم (٢٥٨٣).

(٥) إذ لما حاول أبو بصير القدوم إلى المدينة بدون إذن وليه والدخول في حلف المسلمين مخافةً أن يفتن في دين الله جاءه أمر النبي ﷺ بالرجوع إلى مكة تنفيذاً للعهد في صلح الحديبية بينه وبين قريش، وقال له: " إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجاً ومخرجاً ". ابن هشام ج ٣، ص ٢٠٧. وفي الجواب ما يؤكد الهدي النبوي في الوفاء بالعهود، وفي قصة أبي بصير وأبي جندل ورفقائهم في العيص، نموذج يقتدى به في الثبات على العقيدة وبذل الجهد في نصرتها وعدم الاستكانة للطغاة.

-كذلك من نتائج الصلح وآثاره العامة أن ظهرت في هذا الصلح المبارك أهمية الشورى، واستحسان مشاورة المرأة في الإسلام، والأخذ برأيها طالما أنها مشورة صائبة، ورأي سليم وحكمة سديدة يلتمس، النفع منها وفي الموقف التأكيد على أهمية القدوة العملية لتحقيق الأمر والمطلوب. فأي احترام وإكرام للمرأة في الإسلام من أن يقبل ويأخذ في مشورتها نبيٌ مرسل وينفذ على الملأ.

- ومن أجلّ نتائج الصلح عزل اليهود عن قريش في الحلف الذي كان بينهم قبل المعاهدة ممَّا مكن من القضاء على بقية اليهود، حيث إنّ المسلمين عندما أمنوا جانب قريش استطاعوا التركيز على اليهود.

- ونتيجة أخرى مهمة تكمن في التربية النبوية بالفأل الحَسن وحُسن الظن بالله، فكان ﷺ مدركاً وموقناً أن هذا الصلح سيكون فاتحة خير وبركة على الإسلام والمسلمين، وفي هذا من التربية النبوية الدينية على الصبر والثبات وقوة اليقين والفأل والرجاء الشيء الكثير.

- من الفوائد المهمة لصلح الحديبية إقرار وجوب طاعة النّبي ﷺ والانقياد والتسليم لأمره، وإن قصر العقل عن إدراك غايته وعاقبة أمره، وإن خالف ذلك خطرات العقل ووجهات النظر.

- ومن الدروس الشرعية في صلح الحديبية معاونة أهل الشرك والفجور على تعظيم حرمات الله مع الإجابة لهم والإعانة فيها إذا ما هم طلبوا، وذلك امتثالاً لقوله ﷺ:"**لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله، إلا أعطيتهم إياها**"(١).

-أظهرت مسألة صلح الحديبية مدى حب الصحابة لنبيهم ﷺ(٢).

-ومن الحكم الباهرة للصلح أنه كان باباً ومفتاحاً هيأ لفتح مكة، وهذا ما بشَّر به ﷺ أصحابه أثناء رجوعه إلى المدينة بعد عقد المعاهدة والصلح، حينما قال عليه ﷺ: " **أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب**

(١) البخاري: صحيح البخاري، كِتَاب الشُّرُوطِ ، بَاب الشُّرُوطِ فِي الْجِهَادِ وَالْمُصَالَحَةِ مَعَ أهل الحرب وكتابه الشروط، رقم الحديث: ٢٥٤٢.

(٢) يعبر عن ذلك عروة بن مسعود الثقفي أحد مبعوثي قريش لمحمد ﷺ فقد رسم واقع صورة تفاني حب الصحابة لنبيهم ﷺ في قوله لقومه : " أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب مُحَّد ـ ﷺ ـ مُحَّداً، والله ما تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ": صحيح البخاري : باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، ص ٩٧٤.

إليَّ مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[١]؛ وعن ذلك يقول ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: **"إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية"**[٢].

– ومن المصالح السياسية لتلك المعاهدة المصلحة الكبرى للمسلمين من حيث اعتراف قريش بالمسلمين، واعترافهم بكيان الدولة الإسلاميّة، وذلك بتوقيعهم المعاهدة معهم. كما اعترفت القبائِل الأخرى بذلك أيضاً؛ لأن القبائِل العربية كانت ترى في قريش الإمام والقدوة، فبات رأيٌ عام عند العرب أن مُحَمَّداً وأصحابه أقوياء، ولهم سلطان ودولة بدليل إجبارهم قريشاً على معاهدتهم، وتحققت الرهبة والمهابة في قلوب أهل الكفر والشرك؛ فمع صلح الحديبية أيقن المشركون أنّ الإسلام له الغلبة، وأصبحوا يحسبون أيما حسابٍ للمسلمين وقوتهم.

– ومن المجريات السياسية في خطة صلح الحديبية أنها أشبه ما تكون بالحرب الباردة التي يكون فيها النصر للمبادر والمقبل على عدوه، إذ لما كان اشتراط قريش على النبي ﷺ أن يرجع من فوره، ولا يدخل مكة إلا في العام القادم، قبله ﷺ لما رأى تحقق الهدف الأساس والمتمثل في قبول قريش بالصلح، فجنح معها في حواره للمرونة، وأخذ الأمور معها بالرفق واللين، لاسيما وأنه قد أعلن عن الهدف العام الذي تحمله الخطة المتينة في محاورته وتواصله مع قريش؛ إذ قال: " وَالَّذِي نَفْسِي بيده، لاَ يسألونني خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فيها حُرُمَاتِ اللَّهِ إلا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا "[٣]. فبالرغم من القوة العسكرية والعددية التي كان يمتلكها

(١) سورة الفتح، آية (١).

ذكر ابن عقبة أنه لما كان صلحُ الحديبية، قال رجال من أصحاب رسول الله ﷺ "ما هذا بفتحٍ، لقد صُدِدنا عن البيت، وصُدَّ هَدْيُنا"، فبلغ رسولَ الله ﷺ قولُ أولئك، فقال : " بئس الكلام هذا، بل هو أعظم الفتوح، قد رضي المشركون أن يدفعوكم بالرَّاح عن بلادهم، ويسألوكم القضية، ويرغَبوا إليكم في الأمان، وقد رأَوْا منكم ما كرهوا، وأظفَركم اللهُ عليهم، وردَّكم سالمين مأجورين؛ فهو أعظم الفتوح، أتنسون يوم أحد؛ إذ تُصعِدون ولا تلوون على أحد، وأنا أدعوكم في أخراكم، أنسيتم يوم الأحزاب؛ إذ جاؤوكم من فوقِكم ومن أسفلَ منكم، وإذ زاغت الأبصارُ وبلغت القلوبُ الحناجرَ، وتظنُّون بالله الظنونا "، فقال المسلمون: صدَق الله ورسوله؛ فهو أعظم الفتوح، والله ما فكَّرْنا فيما فكَّرْتَ فيه، ولأنت أعلمُ بالله وأمرِه منا. البيهقي : دلائل النبوة، باب قصة الحديبية عن موسى، عن عقبة، عن ابن شهاب الزهري، ج٢، ص٢٣٨.

(٢) وفي آخرٍ قال البراء بن عازب، ﷺ، كما في البخاري: " تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية". البخاري : صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم الحديث (٤٩١٩).

(٣) كتاب صحيح البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة، حديث رقم(٢٥٤٢).

الرسول ﷺ، إلا أنه كان يؤثر الحوار الإيجابي والصلح والسلم على القتال، دون أن يتنازل قيد أنملة عن ثوابت الإسلام ومصالح المسلمين.

– ومن المعاني السياسية لحادثةِ صلح الحديبية أنها أعطت معنىً لقاعدة أصيلة أصَّلها النبي ﷺ للأمة بعمله و تطبيقه، وهي قاعدة **"اعتبار المآلات"**، وما فيها من المصالح للأمة الإسلامية والعالم أجمع؛ وهذا ما يجب أن يفقهَه كلٌّ من يدعو إلى الله، فمن يدعو إلى الله لا ينتصر لنفسه، وإنما يراعي مصلحة الإسلام ومصلحة الأمة، وإن العاقل يقبل تماماً بالمرحلية في حياته، ويؤمن كلياً بالواقع الذي يعيشه[١].

– ومن النتائج أيضاً تخلخل حلفاء قريش وميلهم إلى موقف المسلمين خلال فترة المفاوضات في الصلح، فمثلاً ها هو (**الحليس بن علقمة**) عندما رأى المسلمين يلبون رجع إلى أصحابه وقال لهم: "**لقد رأيت البُدْن قد قلّدت وأشعرت، فما أرى أن يصّدوا عن البيت**"[٢].

– وهكذا يرينا صلح الحديبية – بتفاصيل وقائعه وأحداثه و ملابسات شروطه – المدى الذي وصل إليه إلحاح الرسول ﷺ على طلب السلام؛ لأن ظروف الأمن والسلام هي المُناخ الملائم لدعوة الإسلام التي يراد لها الدخول إلى القلوب والعقول، ومن البديهي أن مناخ الحروب والقتال لا مكان فيه لتفتح العقول والقلوب على الحق ولا على الحوار الإيجابي، وكما أثبت التاريخ فقد كان هذا الصلح – على ما فيه من إجحاف في النظر لبنوده لأول وهله – فتحاً مبيناً وفيه نزل قوله ﷻ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[٣] فكان فتح مكة في العشرين من رمضان من السنة الثامنة للهجرة، آية عظمى على مدى الأخلاقية النَّبوية الإنسانية التي التزم بها الرسول مقدماً أرفع نموذجٍ للتسامح والتواضع والسموّ عرفته البشرية عبر تاريخها على مر السنين.

وقد بينت تلك المصالحة أهمية المعاهدات في الحياة السياسية للأمة الإسلامية، في الدولة والمجتمع؛ وذلك لمعرفة عظمة هذا الدين، وبيان شموليته، وإبراز قدرته على إقامة العلاقات مع جميع الدول حسبما تنص أحكامه الشرعية.

ومن الأمور المهمة في شأن المعاهدة أن لها أهمية سياسية حركية، إذ كانت عملاً سياسياً فريداً راقياً، يدل على بُعد نظرٍ في الرعاية والإدارة والقيادة، فهي بلا شك الخير الخفيّ لفتح مكة، وإخضاع جزيرة العرب بأكملها لسلطان الإسلام.

---

(١) صلح الحديبية وفقه المآلات، خالد راتب، شبكة الألوكة، تاريخ الإضافة: ٢٠١٣/٩/٢٦ م – ١٤٣٤/١١/٢١هـ.

(٢) البخاري : صحيح البخاري، رقم الحديث (٢٧٣١)وعند أحمد في المسند ج٤، ص٣٢٤.

(٣) سورة الفتح، آية (١).

-ومن الملاحظات المهمة حول موضوع المعاهدات بعامة أن معاني العهد كلّها تدور مع أحكام الجهاد، وتسير معه جنباً إلى جنب.

كذلك فإن لهذه المعاهدات دلالة عملية على علو مرتبة هذا الدين فوق جميع المبادئ من حيث الشمولية، ناهيك عن ترسيخها للقيم والمبادئ الإنسانية كافة. أضف إليه أن في ملاحظة استراتيجياتها ودراسة دقائق نتائجها وآثارها الرد على افتراءات الحاقدين على هذا الدين ووصفه بالعجز والضعف والقصور؛ ففي تلك المعاهدات السياسية يكون الإسلام قد وثّق أصول القانون الدولي العام أحكم توثيق، وبناها على الوجدان الديني للدولة الإسلامية؛ حيث لا يكون الوفاء للأقوياء، فقط، بل يكون هذا الوفاء للأقوياء والضعفاء على السواء، فلا يعلم دين ولا تشريع قد رفع من شأن (العهد) إلى هذا المستوى من القداسة، وقد كان لقاعدة حرمة المعاهدات وقدسيتها في السلم والحرب أثرها في العمل على استقرار السلم والأمن الدوليين من جهة، وعلى تأصيل روح الثقة فيمن يتعامل سياسياً مع الدولة الإسلامية على الصعيد الدولي من جهة أخرى، مما يُعتبر بحق من أهم خصائص سياسة الإسلام الخارجية العادلة(١).



(١) الدريني، فتحي: خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢، ط١.(د.ت)، ص٣٦٦.

المطلب الثالث: الرسل والسفراء ومكاتبة الملوك والأمراء للدعوة إلى الله ونشر الإسلام.

من ملامح السياسة النَّبوية في العلاقات الخارجية متابعة نشر دين الله في الأرض تحقيقاً لعالمية الرسالة وأهداف الدعوة؛ وذلك بالمبادرة إلى إرسال الرسل والسفراء(١) إلى ملوك الأرض والأمراء. وهي الوسيلة الثالثة التي تلي الجهاد في سبيل الله وتلي إقرار الوثائق والمعاهدات؛ إيذاناً للصلح والدعوة إلى الله. ففي الثالثة كانت المراسلات والسفارات النبوية، وهي جزءٌ مهمٌ من العلاقات بين المسلمين في الدولة الإسلامية الأولى وبقية الأمم والدول، وتكمن ببعث البعوث وإيفاد الرسل والوفود سواءٌ الدائمون منهم أو حتى المؤقتون(٢) إلى الحكام والملوك، وفي الوقت ذاته تكمن السفارات الخارجية باستقبال المبعوثين والوفود للدولة الإسلامية. وتلك الممارسات والعلاقات السياسية عرفت بما يسمى بالتمثيل السياسي، أو الدبلوماسية السياسية.

على أن حقيقة العلاقات والصلات الخارجية للمسلمين مع الغير كالروم ومن تحتهم من الأحباش وأهل البحرين وعُمان واليمن ونجران وحضرموت بل وحتى فارس(٣) لم يكن مبدؤها أعقاب صلح الحديبية، بل ثَمّة صلات تجارية واجتماعية وثقافية ودينية كانت تربط بين أمة الإسلام والأمم الأخرى: فارس والروم والأحباش؛ حيث كانت هجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة في السنة الرابعة من البعثة، ثم وفد نصارى

---

(١) إن مصطلح سفير مصطلح قديم معروف في العربية الفصحى؛ ففي حديث علي بن أبي طالب إلى عثمان بن عفان، رضي الله عنهما، قال لعثمان:" إن الناس قد استفروني بينك وبينهم " أي :جعلوني سفيراً، وهو الرسول والمصلح بين الناس، وهذا المعنى القديم يقارب معناه في المصطلحات السياسية الحديثة المعتمدة في القانون الدولي، ولم يكن مدلول السفارة الإسلامية في العهد النَّبوي على المعهود عليه في العصور الحالية من الديمومة والاستمرارية والأنظمة الملزمة القانونية؛ فقد كان بعث البعوث وإرسال الرسل أو السفراء لمهام خاصة مؤقته وشؤون ضرورية. ولعل ذلك كوّن العلاقات والمصالح بين دولة الإسلام وغير المسلمين سالفاً إذ لم تكن مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً متكاملاً دائماً متصلاً إلا ما كان من روابط الاتصال للدعوة للدين (كما في دعوة الملوك والأمراء للإسلام)، أو للمصالح والمنافع الاقتصادية (كما في معاملة عمال النبي، عليه السلام، على أرض خيبر ونخيلها) والروابط الاجتماعية أو حل الخلافات والنزاعات بين الأطراف أو إعلان نار الحرب، أو مصالحة القتال (كما في سفارة سيدنا عثمان، ﷺ، ومبعوثي قريش في صلح الحديبية).

(٢) ومنها إقامة العباس في مكة على القول بتقدم إسلامه بعد غزوة بدر إلى ما قبل الفتح حيث رغب في بقائه بمكة، فكانت إقامته شبه دائمة إلى أن تحققت أغراض الإقامة من متابعة أخبار قريش، ورعاية المستضعفين من المسلمين في مكة، ولينشر الإسلام سراً، وكان هو يكتم إسلامه، انظر: ابن سعد: الطبقات، ج٤، ص ٢٧١.

(٣) فمن المعروف أن نفوذ دولة الروم كان يشمل بلاد الحبشة، وقد استولى نجاشي الحبشة على بلاد اليمن بأمر قيصر الروم، وخضعت لحكم الحبشة حتى انتزعها الفرس قبل ظهور الإسلام.

الحبشة الذين وفدوا على النبي ﷺ في مكة قبل الهجرة فجلسوا إليه، وكلموه وسألوه، ورجال قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ دعاهم رسول الله إلى الله عز وجل، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن، فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله، وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره ﷺ[(١)] .

وأرض الحبشة -كما جاء في وصف ابن جرير- كانت متجرًا لقريش يتّجرون فيها، ويجدون فيها رفاغاً وسعةً من الرزق وأمناً ومتجرًا حسناً[(٢)] حتى وصفها أحد المهاجرين بقوله: **"وقدمنا أرض الحبشة فجاورنا خير جار، أمنا على ديننا، وعبدنا الله لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه"**[(٣)]. وكانت النصرانية منتشرة عند ظهور الإسلام في بلاد العرب وكانت أديرتهم ومعابدهم في نواحي الحجاز وفي اليمن وفي نجران، واليمامة، ووجدت بقايا مجوس ونصارى في أرض يثرب، فكان لهم حضور ووجودٌ اجتماعي في الجزيرة، كما أن بين الروم وبعض قبائل العرب مثل قريش صلات تجارية، إذ عرفت أسواق الجزيرة التجارية بأنها مصارف لمنتجات فارس والروم. وأكثر من ذلك إذ لم تكن للعرب في جاهليتهم وحتى صدر الإسلام نقود خاصة بهم إلا النقود الرومية والفارسية[(٤)]. وفي عهد النبوة ثَمة صلات دينية واتصالات سياسية كانت بين الطرفين في أعقاب صلح الحديبية المشهور في السنة السادسة للهجرة إذ نظم ﷺ بعوثه وسفاراته لأكابر ملوك الأرض المعاصرين له بما أنبأ عما يجيش بنفسه من قوة الإيمان برسالته وعِظم شجاعته في الحق. فدعوته للناس كافة، بشيراً ونذيراً، دعَت بالضرورة لمكاتبة الملوك والأمراء فكانت الرسل والسفارات والبعوث والمكاتبات سبيلاً لأداء رسالته ﷺ وإبلاغ صوته وتأديته أمانة دعوة ربه تعالى، وسوف نعالج هذا الموضوع (السفارات النبوية) في محورين:

المحور الأول: خاصية رسالة الإسلام وأساليب الدعوة إلى الله.

قامت الدعوة الإسلامية في أساسها على العقيدة، والشريعة والمُثُل العُليا، فهي ربانية إلهية في مصدرها، معززة للإنسانية في أساسها، عالمية في نطاقها، كما دلت على ذلك نصوص الشارع وشواهد

---

(١) ابن هشام: السيرة، ج١، ص٣٩٢.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص٣٢٨.

(٣) شلش، إسماعيل سرور: العلاقات الخارجية في عصر النبوة والدولة الإسلامية الأولى، المستقبل العربي، لبنان، عام ١٩٨٤م، مج ٧، عدد ٦٦، ص١٤.

(٤) يقول البلاذري في فتوح البلدان:"كانت دنانير هرقل ترد على أهل مكة في الجاهلية، وترد عليهم دراهم الفرس البغلية " أبو العباس أحمد بن يحيى البلاذري (ت٢٧٩هـ): فتوح البلدان، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة (د.ت) ج٣، ص٥٧٢.

التاريخ ووقائعه، هدفها إقامة مجتمعٍ عالمي تكون فيه كلمة الله هي العليا؛ والرسول ﷺ ما فتئ يباشر بنفسه أمانة تبليغ الدعوة مستعيناً بالخالق. وقد انتهج خطاً واضحاً وسلك طريقاً بيّناً بإعدادٍ تدريجي وخطةٍ مرحليةٍ ناتجةٍ عن وضوح رؤياه تحقيقاً لبلوغ الغايات والأهداف الكبرى في نشر العقيدة الإسلامية إلى البشرية جمعاء وإلى النَّاس كافة، والجميل في مرحلية المصطفى وسنَّة تدرجه ﷺ في خطواته لبلوغ أهدافه أنَّه لم يَسلك سبل المغامرة ولا غوغاء المخاطرة، بل مكَّن لدينه بالإعداد النَّفسي والقوة المعنوية والوسائل الحسية فأسس لرسم مستقبل الإسلام ومصير الأمة، إذ لما بلغ عدد أصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا قاد بهم أول لقاء لقتال أئمة الكفر في بدرٍ الكبرى، ولما صار عددهم عشرة آلاف مقاتل كان الفتح العظيم (فتح مكة)، بل لقد دخل مكة في عمرة القضاء وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً أبقاها على حالها فلم يكسّر صنماً، ولم يقاتل أحدًا حتى كان الفتح فأزال حينها مظاهر الشرك ومكّن لعقيدة التَّوحيد؛ فكان الفتح والنصر ودخول الكثيرين في دين الله طائعين مختارين وتحقق نصر الله المبين، فمُكَّن للعقيدة في سائر الجزيرة .ولإتمام الرسالة العالمية الخَاتمة كان التدبير النَّبوي لبعث الرسل والسفارات برًا وبحرًا[1] ولما بلغ المسلمون نحو الثلاثون ألفا ودانت جموع الأرض له خرج إلى غزو الروم في تبوك، وهكذا رتَّب متدرجاً بتدبيره وتخطيطه ممكناً لنشر دين الله في الأرض . ولو تتبعنا التطبيق العملي لوضع رسالة الإسلام لوجدنا أن السفارات والرسائل النبوية كانت مجرد مقدمة لسياحة الإسلام في العالم: دعوة، وحضارة، وجهاداً وفتحاً[2]، فمن نتائج السفارات النبوية واقعة مؤتة، وغزوة تبوك، وحملة أسامة. وهذه الأحداث والوقائع لم تكن كما تصورها الروم من أنها جُملةٌ من الغارات التي اعتادها عرب البدو في شبة الجزيرة العربية من النهب والسلب لحدود فارس أو الروم، ولم يرد في خَلدهم أنها مقدمة فتحٍ عظيم لأرض الشام وممالك الروم وأملاكها.

(١) انفردت رسالة نجاشي الحبشة عن بقية الرسائل النبوية بانتقالها عبر البحر من بين الرسائل الأخرى حيث كان مبدؤها المدينة ثم ميناء الشعيبة على ساحل البحر الأحمر ومنه إلى مصوع بالحبشة، وأما رسالة مقوقس مصر فكانت عن طريق سيناء من أعلى خليجي العقبة والسويس، وأما الرسالة النبوية إلى كسرى فاتخذت طريقها من المدينة إلى طيسفون (المدائن)عابرة نهري الفرات ودجلة، وانظر خارطة طرق البريد النَّبوي الثمانية لرسائل ملوك وأمراء الأرض في ملاحق البحث ملحق رقم (١٠).

(٢) خطاب، محمود شيث : سفراء النبي ﷺ، دار الأندلس الخضراء جدة، ط١عام ١٤١٧هـ، ج٢، ص١٠٤.

نعم لقد كانت تلك السفارات بعامة وما نتج عن قتل سفير النبي ﷺ **الحارث بن عمير الأزدي**(١)، من قبل عامل قيصر الغساني **شرحبيل بن عمرو**(٢)، سببًا وتمهيدًا وتقْدِمةً لفتحٍ إسلامي عظيمٍ وشامل تحققت فيه عالمية الدعوة وسيادة دولة الإسلام الأولى في الأرض(٣). فتّم تأسيس أول ركنٍ لدولة الإسلام خارج شبة الجزيرة العربية على الشواطئ الشرقية لبحر الروم(٤).

وعلى الرغم من أهمية موضوع السفارات النَّبوية، بيد أن فيها ملحظًا مهمًا هو تباين الرأي في أمر تلك السفارات بين من رأى أنها تحدٍ واضحٍ وصريح لسلطتي كسرى وقيصر من قِبل مُحَّد ﷺ، وبين من رأى بأن حال الدولة الإسلامية من الضعف السياسي والعسكري لم يكن ليسمح لها بالتطلع لمثل هذه التحديات العالمية ومواجهة كسرى وقيصر، بل الغريب أن هناك من علّل أن هذا التحدي النَّبوي في إرسال الرسائل إنما هو نتيجةً لضعف المحيط السياسي لفارس والروم معاً ضعف سياسي وعسكري نتيجة التمزق المذهبي لدولة الروم وضعف قوتها العسكرية وتردي أوضاعها السياسية لتتابع الحروب بينها وبين فارس(٥).

وفي استقرائنا للأحداث ومطالعة نصوص الرسائل ندرك بأن الأمر خلاف ما اعتقدوا وفسرّوا، فلم يكن في إرسال السفارات النَّبوية أي تحدٍ للقوتين العالميتين إذ ذاك، بل إن المكاتبات هي من قبيل أداء أمانة تبليغ الدعوة إلى الله بالأمر الإلهي المقرر، كما لم يكن بعث تلك السفارات آنذاك ودولة الإسلام من الضعف العسكري والسياسي بما لم تستطع النهوض معه للإتيان بهذه المهمة، كما زعموا؛ بل الصحيح أن مهمة بعث السفراء والرسل كان في فترة صلح الحديبية، وكانت دولة الإسلام في ذلك الوقت من القوة

(١) أصَحُّ ما قيل ـ في اسمه ـ أنه الحارث بن نُفيع بن المعلى بن لوذان بن حارثة بن زيد بن ثعلبة من بني زريق الأنصاريّ الزُّرقيّ صحابي جليل من سفراء الرسول عليه السلام بعثه ﷺ بكتاب الى صاحب بصرى بحدود بلاد الشام، ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج ١، ص ٣٤٦.

(٢) شرحبيل بن عمرو الغساني أحد عمال قيصر على البلقاء، وهو الذي تسبب في نشوب معركة مؤتة بين المسلمين والروم بعد قتله لرسول النبي مُحَّد ﷺ، وانظر الطبري : تاريخ الرسل، ج٣، ص٤١، ذكر الخبر عن غزوة مؤتة.

(٣) وانظر ملاحق البحث ملحق رقم (١١) وفيه خلاصة لسفراء الرسول ﷺ ونتائج بعثهم.

(٤) خطاب : سفراء النبيﷺ، المرجع السابق، ج٢، ص ١٠٧.

(٥) بل بالغ بعض المشككين في أمر السفارات النبوية وتم رفضهم لها البته، ودعواهم في ذلك بأن ابن إسحاق لم يذكر قصة الرسائل النبوية وعدوا أن الاستدلال بتلك الأحداث دلالة على ضعف التوثيق التأريخي للأخبار كما زعموا باشتمال أخبار السفارات النبوية على تفاصيل وصفت بأنها أسطورية مما يدعو إلى رفض الأخبار برمتها، بل عللوا عدم قبولهم لنسخ الرسائل المكتوبة لزعمهم اشتمالها على نصوص آيات قرآنية، قيل إن نزولها قد تأخر عن تاريخ إرسال تلك الرسائل بنحو سنتين. وانظر عز الدين إبراهيم : الدراسات المتعلقة برسائل النبي ﷺ إلى الملوك في عصره، مجلة المؤرخ العربي – العدد (٢٣) عام ١٩٨٣–ص٢٤٥.

بمكان، وقد علم الأعداء انتصارات المسلمين المتتابعة منذ بدرٍ الكبرى وتكشَّف حال قريش لقبائل العرب كافة، وتبيَّن لهم مدى قوة الإسلام وغلبة دولته بانكشاف عوار الأحزاب وانهزامهم يوم الخندق، ومع نهاية الخندق رسَخَت أقدام النبي ﷺ في المدينة وقال : «**الآن نغزوهم ولا يغزونا**»[١] وهنا ابتدأت مرحلة الانطلاقة العالمية للدعوة الإسلامية، وتجسدت تلك الانطلاقة بعد التمكين في الأرض منذ صلح الحديبية، فمضت حينها كتب رسول الله إلى ملوك الأرض آنذاك[٢]، وعليه فلم تكن دولة الإسلام في ضعفٍ ويأس، بل كانت أكثر قوةً وأشدَّ عزماً ومراساً وبأساً، وفي موازين المقاييس المادية والمعنوية فقد كانت مواجهة كفار ومشركي مكة أشدّ وأنكى من مواجهة ملوك الأرض برسائل تدعوهم إلى الدخول في الإسلام، فالمتتبع لوقائع أحداث السيرة يلمس بوضوح أن الصعاب والعقبات التي تخطاها عليه السلام والأهوال التي واجهها _صابراً محتسبًا_ لهي أشدُ وقعاً وأكثرُ ثقلاً من الأخطار المتوقعة من نتائج تلك السفارات، أضف إلى ذلك أن الدعوة إلى الإسلام بطريق السفارات والرسائل من أعمال النبوات ومن صميم تبليغ دعوتهم إلى الله، وليست من قبيل التحدي العسكري أو السياسي[٣]، ثم إن المدقق لدراسة الأحوال السياسية لفارس، والمتأمل في البلاط الكنسي لدولة الروم يجد قوة تلك الدولتين واضحة من الرخاء والعظمة . فلقد كان الروم والفرس والأحباش أقوياء في سيادتهم السياسية حين استقبلوا السفراء وتسلموا الرسائل النبوية وأجابوه بما أجابوه به مما نقلته المصادر إلينا.

وما مبادرة النَّبي ﷺ بدعوتهم إلى الإسلام، وهم في أوج قوتهم وهو في أقوى منعة دولته وعزتها، إلا دليلٌ على صدق نبوته، وعالمية دعوته، وقوة معنوياته، وصدق توكله على مولاه؛ ولذا كان ذلك واضحاً في خطابه ومكاتباته، فهو الذي كتب إلى **هوذة بن علي** أمير اليمامة[٤] مخاطباً إياه بلسان الصادق الواثق: "**واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر**"[٥].

(١) وانظر الحديث في المعجم الكبير للطبراني، ج٧، ص٩٨، حديث رقم (٦٤٨٤).

(٢) غضبان، منير محمد : فقه السيرة النبوية، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مركز بحوث الدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط٢عام ١٤١٣هـ، ص٦٨٤، ٦٨٥.

(٣) وانظر إلى سنة الله في أنبيائه ورسله فهذا نبي الله موسى، عليه السلام، يواجه فرعون في قمة طغيانه وإعلانه للربوبية على قومه.

(٤) هوذة بن علي الحنفي ملك نصراني حكم اليمامة وهو سيد من أسياد العرب، أرسل إليه ﷺ سليط بن عمرو العامري سفيراً يدعوه إلى الإسلام، وانظر تفاصيل البعث في مؤلف كتاب عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، لابن سيد الناس: كتاب النبي إلى هوذة بن علي الحنفي صاحب اليمامة، الجزء الثاني، ص٤٦.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٦، ص ٢٧٩. و للمزيد انظر سفراء الرسول ج٢ ص١١١ وما بعدها.

المحور الثاني: السفارات والسياسة النبوية في مراسلة الملوك والأمراء.

لقد اتجهت همة نبي الحق ﷺ لنشر رسالة الإسلام في نواحي الجزيرة وخارجها مما هو تحت نفوذ الدولتين العظيمتين في ذلك العهد، الدولة الفارسية، والدولة الرومية، ولا يهمنا بالضرورة الوقوف على التوقيت الزماني لتلك الرسائل على تباين آراء المؤرخين فيها بقدر ما لقيمة المهمة الخاصة التي وجّهت من أجلها وما نتج عن تلك السفارات والمراسلات من القيمة التاريخية والآثار المعنوية والفوائد الحسية للإسلام، وحسب المصادر التي بين أيدينا فإن مجموع السفارات النبوية كانت خمس عشرة سفارة[١] وأشهرها سفارة **(عمرو بن أمية الضمري)** إلى نجاشي الحبشة، وسفارة **(دحية بن خليفة الكلبي)** إلى هرقل قيصر الروم، وسفارة الصحابي الجليل **(عبد الله بن حذافة السهمي)** إلى كسرى عظيم فارس، و**(حاطب بن أبي بلتعه)** إلى المقوقس عظيم مصر، و**(شجاع الأسدي)** إلى ملك غسان الحارث بن أبي شمر الغساني بالشام، وغيرها من السفارات النبوية[٢]، والمتتبع لمنظومة التمثيل السياسي لسفارات النَّبي ﷺ يدرك بحكمة النبي ﷺ تدبيره في مراسلة الملوك والأمراء فمن ذلك:

– مراعاة واحترام الأعراف السياسية من حسن اختيار مبعوثيه وسفرائه ﷺ، وتعلم لغات المرسل إليهم، والأخذ بأعراف ختم الكتب وتصديقها[٣].

– ومن الحكمة في المراسلة افتتاح نصوص رسائله ﷺ كافة بتعريف المرسِل، وذكر المرسل إليه، **(من مُحَمَّد رسول الله إلى فلان)** وكانت عادة نص الخطاب النَّبوي الافتتاح بلفظ **(أما بعد)** أو **(سلمٌ أنت)** أو أن يصدّر ﷺ كتابه بتحية الإسلام **(سلامٌ على من اتبع الهدى)**، كما كان يأتي في صدور مكاتبه بالتحميد، ومن ثَم بعده التشهد، وخاتمة الكتاب تختم ب **(السلام)**[٤].

– من السياسة النَّبوية في المراسلات بالإضافة إلى دقة الصياغة والخطاب مراعاته ﷺ الأبعاد التبليغية، وكذلك الأهداف السياسية، فكان حريصاً على إيراد الألقاب الرسمية في رسائله، عليه السلام، مراعياً الاعتبارات السلطانية؛ وما ذلك إلا دليل على الدبلوماسية السياسية، وبراعة التنظيم والتراتيب الإدارية؛

(١) إذا ما اعتبرنا أن سفارة جعفر بن أبي طالب إلى الحبشة في (٨ق .هـ) هي أول سفارة نبوية في التاريخ، وانظر ملحق رقم (١١) في صفحة ملاحق البحث .

(٢) وانظر خلاصة أحداث تلك السفارات و أمرائها واتجاهاتها ونتائجها في قائمة جدول ملخص سفراء الرسول ﷺ في نهاية البحث ملحق ص (١١).

(٣) وستجمل تفصيلا تلك الأعراف السياسية في مبحث خاص في الصفحات(٢٧٤-٢٧٦).

(٤) الكتاني: التراتيب الإدارية، ج١، ص ١٥٩.

فالدبلوماسية وعبقرية الإدارة السياسية وإبداعاتها لابد أن يكون لها، مع قوة الشخصية وثبات اليقين، الإيمان بمسؤولية الهدف. وإبلاغ ندائه ﷺ ورسالته لمخاطبيه مراعياً مقتضى الحال وسلاسة العبارة ودقة الصياغة، والإيجاز في المضمون، وهو الذي أوتي جوامع الكلم. ففي مضمون رسائله ومكاتباته من بليغ الإبداع النبوي، القدرة على الجمع فيما بين الترغيب والتهديد المناسب في الرسالة الواحدة وبالعبارة الدقيقة الموجزة، من مثل: «**أسلم تسلم**».

– ومن بديع الترتيب النَّبوي أيضاً الاستناد إلى الاستدلال والمنطق، عندما يكون مخاطبوه من أهل الكتاب، ومن له ثقافة عالية، كما في رسالته ﷺ لنجاشي الحبشة.

– ومن براعة الأسلوب النبوي في الإرسال تحديد وإيجاز معنى الإسلام، فكما كان الاستهلال بتحية الإسلام كان منه ﷺ إبلاغ النداء النهائي للإسلام، وتبرز هذه النقطة في خاتمة رسالته بآية: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[١].

والعجيب في تلك الرسائل والمخاطبات النبوية على دقة بيانها ومحتوى مضمونها على نمط أسلوبٍ واحد، وإن اختلفت ألفاظها بحسب مقتضى الحال، إلا أنها بلا ريب تحكي عن الدعوة إلى الإسلام والصلح، ومستقبل الحق والأمن والسلام في الدنيا والآخرة. وهي تبين ببعض عباراتها سعة الأفق النبوي عن أحوال معاصريه ومن ذلك استخدام لفظ (**الأريسيين – الأكارين**) في مكاتبته ﷺ لهرقل وهذا المصطلح يدل على وعيٍ ثقافي ناضج وحسٍ واعي متكامل بأحوال العصر والزمان[٢].

ويكفي في الرسائل النبوية أنها نقلت لنا خاصية إعلامية مثلت اتصالا مكتوبا في مجال الدعوة الذي أسماه الجاحظ ب "**البيان البارد**"[٣].

---

(١) سورة آل عمران، آية (٦٤).

(٢) قيل أن الأريس بالتخفيف والتشديد تعني : الأكار بلغة أهل الشام وهي تعني الفلاح أومن تحت يد الحاكم من الرعايا، ورأى البعض أنها تعني طائفة من المجوس أو من نصارى الروم من أهل مملكة هرقل تنسب إلى عبد الله ابن أريس، ولعل المعنى الأول أكثر استقامة في الرأي والعرف. وانظر عون الشريف: نشأة الدولة الإسلامية في عهد رسول الله ﷺ، ص ٧٩.

(٣) ناصف، مصطفى: محاورات مع النشر العربي، مجلة عالم المعرفة، عدد ٢١٨، مطابع السياسة، الكويت، ١٤١٧هـ، ص١٣-٦٠.

أو بما يسمى في علم الإعلام الحديث "**بالاتصال المكتوب**"[١].

بل إن ذلك البيان النبوي والدعاية لدين الإسلام لربما أصَّلت، ووصّلت إلى الغرب إدراكاً عميقاً وفهماً دقيقاً لطبيعة عالمية هذا الدين ومنهاجية تعاملاته.



(١) القين، عبد المؤمن عبد الله: قراءة إعلامية للرسائل النبوية إلى الملوك خارج جزيرة العرب، نادي المدينة الأدبي، ط١، ١٤٢٧هـ، المدينة المنورة، ص١١٧.

المبحث الثاني: مبادئ منهج الدولة الإسلامية في السياسة الخارجية.

مما لا شك فيه أن منهج السياسة النبوية في العلاقات الخارجية تستمد جذورها وخصائص مبادئها بلا منازع من تشريع الخالق وتعاليم دينه القويم، وتستلهم أصولها من الأهداف الإسلامية الإنسانية السامية التي تسعى لخدمة قضايا الأمن والسِلم لترسيّخ التعايش والتعاون بين الناس والأمم، ولقد أسس نبي الهدىﷺ مجتمعاً سلمياً مسلماً قائماً في ضبط حركة أمنة في تعاملاته وفي علاقاته الخارجية على مبادئ واضحة لا تقل في أهميتها وضرورة ضبطها عن مثيلاتها من المبادئ التي تحكم حركته لتحقيق أمنه الداخلي.

ومن خلال تتبع أحداث السيرة ووقائع التعاملات النبوية في العلاقات الخارجية يمكن القول: إن خلاصة مبدأ العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية في حالتي السلم والحرب تكمن استنتاجاً من نص الآيتين الكريمتين ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[(١)] والآيات محكمة غير منسوخة على إجماع غالبية جمهرة المفسرين، وفيها الدعوة إلى البر والقسط عدلاً وإحساناً، وجلب المصالح ومدافعة المضار، ولا أدلّ على معاملة نبي الهدى ليهود خيبر بالعدل والبر والإحسان والقسط على ما قد فُصّل ووضّح.

وبالجملة فإن الخلاصة العامة التي يمكن أن نستجليها عن السياسة النَّبوية والمنهجية الإسلامية في التعامل مع الغير تكمن في الإحسان حال الحرب، وبالمصالحة السلمية في حال السلم والأمن، ولربما كان في مدارسة بعضِ مبادئ منهج الدولة الإسلامية في السياسة الخارجية استنتاجاً واستنباطاً لفقه تعاملاته ومعاملاته ﷺ مع الغير.

(١) سورة الممتحنة، الآية: (٨-٩).

المطلب الأول: السياسة النبوية ومنهج فقه التعامل مع غير المسلمين في السلم والحرب.

ثَمة مبادئ وأخلاقيات ومُثل شرعية دينية تحكم ظروف الحرب فصّلها الإسلام وطبقها نبي الأنام ﷺ على أرض الواقع تمثلت ب:

- **مبدأ العدل والإحسان.**

قامت كل علاقة إنسانية في الإسلام على العدالة، واعتبار الناس كلهم جميعاً سواءً، وإن كان ثَمة تفاضل بينهم فبالأعمال والجزاء عليها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر[١].

والحق أن مبدأ العدالة مبدأٌ حيويٌ أصيل في التعاملات الإسلامية مع غير المسلمين، ففي حال السِّلم يكون حسن الجوار قائماً على العدالة، وفي حال الحرب يكون الباعث عليها هو العدالة، وتكون معاملة المغلوب عادلة لا ضيم فيها ولا شطط، فلا يجوز تعدي ضرورات الحرب لمدافعة الظلم وصد العدوان، سواء أكان في الأفراد من أسرى وقتلى وغير المكلفين، أم بالإضرار المادي عليهم بالتدمير للبنيان والعمران وإهلاك الحرث والنسل. كما أنَّ من العدل والإحسان في الحرب عدم الغدر، ومن عدل الإسلام أنه أذن للمسلمين بأن يحاربوا عندما يقع الظلم، ويصبح لا مناص من أن يدفع الاعتداء بمثله. وتقتَضي العدالة في مجال العلاقات الخارجية الإسلامية أن تكون على أساس الهدي النّبوي، وأن تبنى كافة العهود والمواثيق والاتفاقات على أساس العدالة التامة للأطراف كافة.

والعدلُ مقرونٌ بالإحسان ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾[٢] والبر هو الإحسان، والقسط هو العدل، وهما اللذان أمر بهما المولى تعالى بقوله: ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾[٣] ومع أن الإسلام فرض المعاملة بالمثل كمبدأ إنساني في التعامل الحربي إلا أنه أمر بالإحسان في أدق صوره فقد ثبت عن أُبَي بن كعبٍ، ﷺ، قال : "**لما كان يوم أُحُد أُصيب من الأَنصار أَربعَةٌ وستُّون رجلًا، ومن المهاجرين ستةٌ، فيهم حَمْزَةُ، فَمَثَّلُوا بهم، فقالت الأَنصار: لئن أَصَبْنَا منهم يوماً مثل هذا لَنُرْبِيَنَّ عليهم . قال : فلمَّا كان يوم فتحِ مكَّة، أنزل اللَّهُ**

(١) أبو زهرة، محمد: العلاقات الدولية في الإسلام، دار الفكر العربي، القاهرة، عام ١٩٩٥م، ص ٣٦.

(٢) سورة النحل آية: (٩٠).

(٣) سورة الممتحنة آية: (٨).

تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾[1] فالمولى ﷻ لم يقرّ لخيرة خلقه وصحابة نبيه الكرام ذاك الصنيع الذي عزموا عليه، إذ حدّ لهم حدًا تكون العدالة بموجبه، فأُنزل قوله تعالى : ﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ وقُدم الإحسان والصبر في المسألة على الثأر ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ على أن الأمر بالإحسان لا يعني التذلل والاستسلام، كما أن مقتضى العدل في الإسلام لا يعني مساواة المسيء بالمحسن، ولا يفضي إلى محاباته ومجاراته على حساب المصالح الإسلامية.

ومن العدل والإحسان مراعاة الكرامة الإنسانية؛ فهذا نبي الرحمة ﷺ يقف لجنازة يهودي مرت به فقيل له في ذلك، إنها جنازة يهودي فقال: "**أليست نفساً؟**"[2] فهذه كرامة جعلها الإسلام درعاً يدرأ بها عن الإنسانية نزوات الطغيان والتجبر، ويحفظ للمرء حقه في الدفاع دون نفسه وعرضه.

وتأكيدًا لهذه الكرامة الإنسانية وتحريضاً عليها قال عليه السلام لمن جار على أهل الكفر في القتل العمد لغير أهل الحرب: "**ما بال أقوام جاوز بهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية، ألا لا تقتلوا الذرية، ألا لا تقتلوا الذرية**"[3] نعم فمع إقرار الإسلام لرد الاعتداء بمثله إلا أنه غلَّب جانب الفضيلة فلا تنتهك حرمات الفضيلة والكرامة الإنسانية بحال فلا قتل للشيوخ ولا للأطفال ولا للنساء ولا انتهاك لحرمتهن ولا تجويع للأسرى وإظمائهم حتى الموت عنتاً وعمداً، وإن فعل ذلك الأعداء فلا يجارون على باطلهم ضد الفضيلة الإنسانية العامة[4].

● مبدأ مراعاة المصالح الإسلامية.

لا شك في أن مصلحة الدولة الإسلامية له الاعتبار الأول في حال مقابلة الأعداء ولقد تقرر لدى فقهاء الأمة بالإجماع على ضرورة مراعاة حال القوة والضعف للدولة الإسلامية في اتخاذ القرارات في مسائل العلاقات الخارجية في حال الحرب وكذا في السلم أيضاً[5]؛ ولذا صح التفاوض، وجاز التعاهد، وشرعت الموادعة، وأوجبت المهادنة تحقيقاً للأمن وإرادةً للسِلم. وكان من وسائل ذلك إيفاده ﷺ للسفراء المؤقتين

(١) سورة النحل: آية (١٢٦). والحديث للترمذي برقم (٣١٢٩). وصححه الذهبي في التلخيص، ج٢، ص٣٩١، والألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم (٢٣٧٧).

(٢) مسلم : صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة، ص ٩٦١، حديث رقم (١٥٩٦).

(٣) البيهقي: السنن الكبرى للبيهقي، كتَاب الأَشرِبة والحدُّ فِيها، باب بَيْعِ الطَّعام في دار الْحرب، رقم الحديث (١٦٦٤١).

(٤) أبو زهرة : العلاقات الدولية، مرجع سابق، ص٤٤.

(٥) وانظر الشاطبي في الموافقات، الشاطبي، إبراهيم بن موسى الغرناطي (ت ٧٩٠هـ): الموافقات، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط١، عام ١٤١٧هـ، ج ٥، ص ٤٤٠.

والدائمين للدولة الإسلامية إلى غيرها من الدول.

ولقد ورد في سيرته ﷺ ما يشير إلى اتخاذ ممثلي الدولة الإسلامية رعايةً للمصالح الدينية وحفاظاً على المصالح الدنيوية بما يضمن مصلحة الإسلام وقوته، ففي سياسة الإسلام الخارجية مثلاً أنْ فُرض على الدولة الإسلامية في صِلاتها وعلاقاتها مع غيرها بألا تقبل أي وضعٍ ينتقص من مصالحها أو حقوقها الأساسية، كما نُظر بعامة في تحقيق المنافع ودرء المفاسد وفق ضوابط المصلحة المرعية في الشريعة الإسلامية، ومن ذلك (مراعاة موازين القوى) والنظر في مآلات الأفعال، واستشراف صوارف المستقبل، ومثاله إذا كان المسلمون يعانون من ضعف قدراتهم العسكرية فعليهم ألا يشتبكوا في حربٍ مع من هو أقوى منهم وأكثر تفوقاً، وغلب على الظن أن تلحق الهزيمة بهم، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام : "**فمن كان من المؤمنين بأرضٍ هو فيها مستضعف، أو في وقت هو فيه مستضعف، فليعمل بآية الصبر والصفح عمن يؤذي الله ورسوله من الذين أوتوا الكتاب والمشركين** "[١]. كما أن التفصيل في قتال أعداء الدين كلٌ حسب موقفه من الإسلام وأهله، له دلالته وأهميته الشرعية في مراعاة المصلحة العامة للدولة الإسلامية، فالمسالمون لهم أحكام خاصة ومميزة ليست لغيرهم من الحربيين وهكذا.

● مبدأ المعاملة بالمثل.

المعاملة بالمثل مبدأ من مبادئ العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية، وركيزة من ركائز أنظمة هذا الدين القويم في تعاملاته مع الغير، قال ﷻ: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[٢]، وقال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾[٣]، وهي تشريعٌ ومبدأٌ عادل في أساس التعامل الإنساني بين الآحاد والجماعات في العلاقات الإسلامية الخارجية مع المسلمين، وحتى مع غيرهم[٤]؛ فإذا ما استرق الأعداء أسارى المسلمين يطبق ذلك في مثلهم من باب مثلية المعاملة[٥].

(١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج ٢٨، ص ١٢٩.

(٢) سورة البقرة، آية : (١٩٤).

(٣) سورة الشورى، آية : (٤٠).

(٤) من ذلك مماثلة العقوبة قصاصاً لمن طلبوا من النبيَّ رِسلاً وهو (الدر من اللبن) فلما وجههم إلى الذود من الإبل شربوا وصحوا وسمنوا فقتلوا الراعي واستاقوا الذود وكفروا بعد إسلامهم فكان الجزاء بقطع أيديهم وأرجلهم وقيل سمل أعينهم لأنهم سملوا أعين الرعاة وطرحوا بالحرة يستسقون فما سقوا حتى ماتوا، انظر: صحيح مسلم، حديث رقم (٤٤٤٥) من حديث يحي بن يحيى التميمي، (باب حُكْمِ الْمُحَارِبِينَ وَالْمُرْتَدِّينَ).

(٥) وعموما فالرق أحد الأحكام الشرعية المرتبطة بمصلحة المسلمين، فإذا تحققت المصلحة في المبادلة أو العفو والمنّ أخذ بها، وإن كانت في الاسترقاق أخذ بها مع حفظ حقوق الرقيق.

وعموماً فإن المعاملة المثلية مشروطة بمصلحة الإسلام وقيمه، ومقيدة بالفضيلة واحترام الإنسانية، فلا يزيد المسلم على ما يفعل العدو إلا بمقدار ما يحميه من تكرار الاعتداء عليه، وإذا كان الاعتداء ظلماً فردّه عدل[١]. والمعنى أن تكون معاملة المثل في دائرة الأخذ بالحق من غير اعتداء، فمثلاً إذا ما استرق الأعداء أسارى المسلمين يطبق ذلك في مثلهم من باب مثلية المعاملة، وإذا كان الصبر ممكناً فيكون أولى بالاتباع[٢] لقوله عز وجل: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ [٣]. فأبرز مظاهر العدالة المعاملة بالمثل، وعدم الهضم.

ولا تجوز مقابلة العدوان بالمثل على الإطلاق إلا فيما يتصل بالبغي والتَّعدي بغير حق على الناس والدين الحنيف، ومن ذلك ما روى البزار بإسناده عن أبي هريرة، ﷺ، قال: **"بعث رسول الله ﷺ سرية وكنت فيهم، فقال: إن لقيتم هبّار بن الأسود، ونافع بن عبد عمرو فأحرقوهما، وكانا نخسا بزينب بنت رسول الله ﷺ حين خرجت، فلم تزل ضبنة حتى ماتت، ثم قال: إن لقيتموهما، فاقتلوهما، فإنه لا ينبغي لأحد أن يعذب بعذاب الله"**[٤].

ومع شرعية المعاملة بالمثل إلا أن العفو والصفح أولى في أكثر الأحيان بدون ضعف ولا مذلة، بل في كثير من الأحيان يكون العفو ضمادًا للجرح، وتحقيقاً للمصلحة، ودرءا للسوء والمفسدة. وانظر إلى الأثر الجميل لنَّبي الهدى ﷺ وهو يقول يوم الفتح لمشركي مكة:" **اذهبوا فأنتم الطلقاء**"[٥] وتأمل روعة الخلق الجم والصفح الجميل لتلك السياسة النبوية العظيمة، وهي سياسة مطلقة حال السِلم، وممارسة مهمة أعقاب الحرب فجريح الحرب أحرى أن يرقأ جرحه بتّسامح وصفحٍ بدلاً أن ينكأ جرحه بالمِثل وبالثَلم.

---

(١) أبو زهرة: العلاقات الدولية في الإسلام، مرجع سابق، ص٣٨.

(٢) نفسه، ص ٢٧.

(٣) سورة النحل آية (١٢٦).

(٤) رواه البزار في المسند من حديث عائشة، ﷺ، والبزار هو أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (ت ٢٩٢هـ) : مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله وآخرين، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ج٣، ص٢٤٢ قال الهيثمي عن الحديث في مجموع الزوائد ج٩، ص٢١٥ : رجاله رجال الصحيح، والقصة مشهورة عند ابن إسحاق، انظر: ابن هشام : السيرة النبوية، ج ١، ص٦٥٤، وجاء في فتح الباري، ج٦، ص١٥٠ : " أن هبّاراً هذا أسلم ففي رواية أبي نجيح فلم تصبه السرية وأصابه الإسلام فهاجر".

(٥) ابن هشام : السيرة النبوية، ج ٢، ص٤١١، والطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص٥٥، وابن كثير: البداية والنهاية ج٤، ص٣٠١.

● مبدأ احترام الأعراف السياسية.

أصلّ المصطفى ﷺ دبلوماسية السياسية الإسلامية للصلات الخارجية، وميز قواعد العلاقات الدولية للتعامل مع غير المسلمين من الأمم والشعوب، وقد كان منطلق تعامله مع تلك المعطيات؛ الأعراف السياسية المتبعة بين الأمم والشعوب آنذاك .مضافاً إليها الاحترام والتقدير بما يُنبئ عن خِلال النَّبوة وسمات دين الإسلام العظيم، ذلك الاحترام الذي مثّل إكراماً للشخص في ذاته ومكانته، وامتد كذلك ليشمل الاحترام في الخطاب والعبارة[١] وصفات الرسل، فلقد قصد ﷺ وعنى بإرسال من هو حسن الصورة مقبول الوجه، حسن المنظر والمنطق والاسم. جاء في الحديث الشريف: »**إذا أبردتم إليّ بريداً**[٢] **فليكن حسن الوجه حسن الاسم**»[٣]. وجاء في آخرٍ: «**إذا بعثتم إليّ بريداً فاجعلوه جسيماً وسيماً حسن الاسم**»[٤] فكان اختياره ﷺ لمن يتمتع بتمام العقل وسرعة الفطنة والذكاء، وطيب المخبر وحسن المنظر والبهاء؛ لئلا تزدريهم الأنظار وتستصغرهم الأعين، فضلاً عن معرفة المبعوثين بلسان من يرسلون إليهم[٥] فنراه ﷺ أوفد من كان من أصحابه من يحسن ويجيد بعض اللغات فاستعان (**بزيد بن ثابت**) لعلمه ومعرفته بالفارسية والرومية والحبشية وكذلك القبطية والسريانية وحتى العبرية أيضاً[٦] كما عمد ﷺ وحرص على إلمام السفير بعادات وتقاليد من يوفد إليهم.

(١) كما فُصّل في محور السفارات النبوية والسياسة النبوية في مراسلة الملوك والأمراء، ص٢٦٨.

(٢) أثبت المؤرخون أن الفرس هم أول من أنشأ مصلحة بريدية في القرن السادس ق. م، وكلمة بريد فارسية وأصلها " بوريدا" أي : مقطوع الذنب؛ لأن الدواب التي كانت تحمل الرسائل يقطع ذنبها لتعرف من بين بقية الدواب، جمال، مُحَمَّد عبد الهادي : تاريخ الخدمات البريدية في الكويت، ط٢، مركز البحوث والدراسات الكويتية، الكويت عام ١٩٩٤م، ص ٣٣، نقلاً عن تاريخ طابع البريد، لاجين فليه، ترجمة صفية فاضل، مكتبة الأنجلو المصرية، ص١٢٧.

(٣) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ) : صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، المكتبة الشاملة موافق للمطبوع، ج١، ص٣٤.

وهذا الحديث على كثرة تواارده إلا أنه لايثبت من طريق صحيح قال ابن القيم في المنار المنيف وكل حديث فيه ذكر حسان الوجوه أو الثناء عليهم أو الأمر بالنظر إليهم....فكذب مختلف وإفك مفترى.

(٤) البزار : مسند البزار، ص ٢٤٢ وزوائده وأبو شيبة في المصنف بحديث رقم (٣٣٦٧٩) عن وَكِيع عن هشام وهو مرسل صحيح الإسناد إلى يحيى بن أبي كثير.

(٥) كان عليه السلام يعّلم مبعوثيه وسفراءه لسان القوم الذين يبعثهم إليهم حيث خرج منهم سته نفر في يوم واحد في المحرم سنة سبع، وأصبح كل منهم يتكلم بلغة القوم الذين بعثه إليهم. العسقلاني، ابن حجر: فتح البارئ بشرح صحيح البخاري، ج١، ص٤٣.

(٦) الكتاني : التراتيب الإدارية، ج١، ص ١٧٧.

– وكذلك من الأعراف السياسية في الفقه النَّبوي (**السلم الثابت**) مالم تُستدع بوادر الحرب وتدق طبولها فلات حين مناص لمغالبتها.

– **من الأعراف مراعاة الحصانة الدبلوماسية** لبعوث ورسل الدول؛ فقد كانت محل احترامٍ وتقدير؛ لأن الشريعة الإسلامية لا تجيز قتل الرسل ولو كانوا من قوم محاربين، أو كان عندهم ثأرٌ للمسلمين، بل وتتجاوز في حق الشريعة الإسلامية حصانة الرسول أو السفير المستأمن الشخصية إلى البنيين والأهلين فيحمي الإسلام أهله وبنيه، وتتعداها إلى الحصانة المادية والمالية بل والحركية أيضاً؛ فالمستأمن حر التصرف في ماله، حر التصرف في تنقله وتحركاته، إلا ما حظر الإسلام ومنع، ومن ذلك التحريم: إتيان أرض الحرم قال جَلَّ جلاله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾[١] والمسجد الحرام لفظ عام يطلق على جميع الحرم كما جاء عن القرطبي –رحمه الله– في تفسيره[٢].

– **احترام السياسات الداخلية**، فمن مبدأ احترام الأعراف السياسية في المنهجية النبوية مراعاة أصلٍ من أصول العلاقات الإنسانية، ويتمثل في أن الإسلام لا يسمح لأتباعه التدخل في الشؤون الداخلية لأمور وسياسات غير المسلمين من الشعوب والأمم المجاورة إلا عند الاستغاثة من المظلومين في بلاد غير المسلمين أو الاعتداء على الدائنين بالدين وفتنتهم عن دينهم أو ملاحقة المسلمين في دارهم ببأس أو أذى؛ فهنا يلزم التدخل منعاً للفتنة في الدين، وحماية لحرية العقيدة الدينية، ورداً للاعتداء وكيد أهله. كما في حال تجاوز مشركي مكة وبغيهم على المسلمين في أرضهم، أو كما كان في أمر تجاوز هرقل ملك الروم واستباحته لدماء من أسلم من أهل الشام[٣].

– **تصديق كتب المراسلات وختمها** وهو من الأعراف السياسية السلطانية في المكاتبات بين السفراء، وقد تبع ﷺ ذلك العُرف وطبقه في مكاتباته. خرّج البخاري في حديث أنس بن مالك –رضي الله عنه–:"**لما أراد رسول الله ﷺ أن يكتب إلى الروم فقيل له: "أنهم لن يقرؤوا كتابك إذا لم يكن مختوماً، فاتخذ خاتماً من فضة ونقش عليه (محمد رسول الله)** [٤].

---

(١) سورة التوبة آية: (٢٨).

(٢) القرطبي : تفسير القرطبي، ج٨، ص١٠٤.

(٣) ومن أمثلة ذلك ما جاء في الروض الأنف عن السهيلي عن ابن إسحاق وما كان من أمر فروة بن عمرو النافرة الجذامي وإسلامه وهو في معان من أرض بلاد الشام وإرادة الروم صلبه بعد أن بلغهم إسلامه وقد أسر وحبس وضربت عنقه وصلب على ماء لهم يقال له عفراء، وانظر: الروض الانف ج٤، ص٢١٦، وابن قيم في الزاد، ج٣، ص٦٤٦.

(٤) البخاري: صحيح البخاري، ج٣، ص٢٣٥، حديث رقم (١٠١)الكتاني: التراتيب الإدارية، ج١ ص١٧٧.

يقول أنس:" **فكأنَّما أنظر إلى بياضه في يده ﷺ** "[١] قال المهلب: " **كان عليه السلام لا يستغني عن الختم به في الكتب إلى البلدان وأجوبة العمال وقواد السرايا؛ فكان بذلك أول من استخدم ختم الكتاب من قريش وأهل الحجاز**[٢]". وجاء عن السيوطي في الأوائل:" **أول من ختم الكتاب من قريش وأهل الحجاز رسول الله حين أراد مكاتبة الملوك فقيل له: إنهم لا يقرؤون كتاباً الا مختوماً** "[٣].

● مبدأ الوفاء بالعهود والمواثيق.

جاء الإسلام داعياً للأمن والسلام، أمن قائم على الحق والهدى وسلام قائم على العدل والكرامة، ففرض احترام المواثيق والعهود، وأوجب التزام الوفاء بالعقود، وأكد على الوفاء بالعهد وعدم الخديعة والغدر، فشدد في مسألة وجوب إيفاء العهود أيما تشدد، وألزم بها أيما الزام، ولم يتغاض أو يتسامح فيها فهو الدين القدوة، والوفاء بالعهد عنده قاعدة الثقة، فاعتبر الوفاء بالعهد والميثاق قوة، والنكث فيه ضعفاً ومذلة وخذلاناً، فمن وثّق عهده بيمين الله فقد اتخذ الله كفيلاً، فإذا ساء ونبذ وغدر وبدّل وغيّر فإنّما كما قال ﷻ : ﴿ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾[٤] ﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾[٥].

ومن حرص الإسلام على الوفاء بالعهد أنه جعل المسلمين في حلٍ من نصرة إخوانهم الذين يقيمون بين ظهراني الكفار، إذا هم طلبوا النصر والنجدة على قوم بينهم وبين المسلمين عهدٌ وميثاق، يقول ﷻ: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[٦] وقد شدد ﷺ على التمسك بالعهد وحرّص على الوفاء به

---

(١) البخاري: الصحيح، ج٣، ص ٢٣٥. آخر كتاب الجهاد والسير.

(٢) الكتاني: التراتيب الإدارية، ص ١٧٧.

(٣) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن : الوسائل في مسامرة الأوائل، تحقيق مُحَّد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان (د.ت)، ص١١٤، وجاء من شدة حرصه عليه السلام بتقلد العرف السياسي في ختم الكتاب أنه إذا تعذر ختمها بالخاتم ختمت بما يستعاض عنه، وورد في ترجمة وهب بن أكيدر عن طريق ابن عساكر قال: كتب رسول الله كتاباً ولم يكن معه خاتمه فختمه بطينة، وفي الإصابة لترجمة عبد الملك بن أكيدر: كتب لرسول الله ﷺ كتاباً ولم يكن معه خاتم فختمه بظفره . انظر الإصابة، ج٦، ص ٩٣ في ترجمة وهب بن أكيدر دومة رقم [٩١٩٥].

(٤) سورة الأنفال آية: (٥٨).

(٥) سورة التوبة آية: (١٢).

(٦) سورة الأنفال، آية ٧٢.

=

ولوكان ذلك في غير رضا أصحابه وموافقه أهوائهم، ومن ذلك إيفاؤه بعهد شروط صلح الحديبية بحذافيرها حتى على أبي جندل الذي أتاه مستغيثاً يستصرخ ويطلب الدخول في حلف محمدٍ ﷺ مع المسلمين فقال له، عليه السلام : "**يا أبا جندل، اصبر واحتسب فإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المسلمين فرجاً ومخرجاً، إنَّا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنَّا لا نغدر**"[١] والشاهد (**وإنَّا لا نغدر**) . ومثله قصة حذيفة بن اليمان وأبيه، وشاهده قوله ﷺ: "**انصرفا، نَفِي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم** "[٢].

المطلب الثاني: آثار ونتائج دبلوماسية التمثيل السياسي النبوي والتعامل مع الرسل والسفراء.

إن الملاحِظ لأمر السفارات النَّبوية يجدها أولاً: كشفت عن وجهٍ من وجوه التطبيق العملي الملموس لعالمية الدعوة الإسلامية، ومنهجه الحق ﷺ في الدعوة إلى الله قولاً وعملاً.

ثانياً : أنها كشفت عن أولئك الأفذاذ الأشاوس الذين مثلوا شخص الدولة الإسلامية وكانوا وجهها ووجهائها وسفرائها وممثلوها أيما تمثيل، وفي اختيارهم لتلك المهمة ما يشير إلى دبلوماسية النبي عليه السلام في اختيار الرجل المناسب في المكان المناسب بالزمن المناسب، وفي حكمته ﷺ ومسلكه في معالجة الأمور بالحنكة والسياسة والكياسة بأن أتم مواصلة الدعوة خارج الجزيرة وأطرافها في نقلهٍ وخطوةٍ تعد نقطة تحولٍ مهمة في تأريخ العرب والإسلام، إذ توحّد عرب الجزيرة تحت راية العقيدة، ليس هذا فحسب بل هي رسالة لمن سيناط بهم حمل الدعوة الإسلامية إلى البشرية كافة، فهي تعلمنا عالمية الدعوة، وتدعونا إلى الاقتداء برسول الأمة وصحبه الكرام في مواصلة نشر الرسالة وتبليغ أمانة الدعوة.

=

يقول ابن كثير في تفسيره وَقَوْلُهُ تعالى : ﴿ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ ﴾ الآية، أي هَـؤُلَاءِ الْأَعْرَابُ، الَّذِينَ لَمْ يُهَاجِرُوا فِي قِتَالٍ دِينِيٍّ عَلَى عَدُوٍّ لَهُمْ فَانْصُرُوهُمْ، فَإِنَّهُ وَاجِبٌ عليكم نَصْرُهُمْ، لِأَنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ، إِلَّا أَنْ يَسْتَنْصِرُوكُمْ عَلَى قَوْمٍ مِنَ الْكُفَّارِ، بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَيْ مُهَادَنَةٌ إِلَى مُدَّةٍ، فَلَا تَخْفِرُوا ذِمَّتَكُمْ وَلَا تَنْقُضُوا أَيْمَانَكُمْ مَعَ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ، وَهَذَا مَرْوِيٌّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه. انظر: تفسير ابن كثير، ج٤، ص٨٦.

(١) ابن هشام: السيرة، ج٣، ص٢٠٤.

(٢) وتمام الحديث والقصة عند مسلم :" أن حذيفة بن اليمان قال : "ما منعني أن أشهد بدراً الا أني خرجت أنا وأبي حسيل –يعني والده– قال فأخذنا كفار قريش فقالوا: إنكم تريدون مُحَمَّداً، فقلنا : ما نريده، ما نريد إلا المدينة فأخذوا علينا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة، ولا نقاتل معه فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر فقال :"انصرفا، نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم " مسلم : صحيح مسلم، حديث رقم (١١٢٥).

ثالثاً : ونتيجة أخرى، إن موضوع السفارات النبوية يوضح بجلاء فكرة الدعوة الإسلامية ومعنى عالميتها فلو كانت قبلية دنيوية لقبل، عليه السلام، ما عرضه عليه أهل مكة من تتويج الملك، وبتزويج أجمل النساء، وإجراء عطاء المال، ولو كانت أهدافها إقليمية لا كتفى عليه السلام بإقليم الحجاز، ولو كانت قومية عرقية لقصرت على سيادة الجزيرة فحسب، لكنها دعوة ربانية أممية عالمية للناس أجمعين. وتصديقاً لعالميتها انتشر الإسلام آنذاك انتشاراً واسعاً في اليمامة وعُمان والبحرين وحضرموت واليمن، أضف إلى ذلك الحبشة بحدود ضيقة؛ وهذا أكبر دليل وشاهد يثبت حضارة الدين الإسلامي وعموم رسالة الإسلام .

رابعاً: من نتائج التربية النَّبوية الإدارية في العلاقات السياسية مع غير المسلمين اعتماده ﷺ في سفاراته منهج الإحصاء والحصر للأمصار والرسل المكلفين؛ مع غرس روح المسؤولية فيهم، ولنا الاسترشاد بهدي خير العباد في تعليم الأمة براعة الحكمة في حسن اختيار الرجال من السفراء وممثلي دولة الإسلام، في مهارتهم في الطرح والعرض، وأسلوب الحوار في مخاطبة الملوك وأولي الطاعة من الوجهاء والأمراء.

خامساً: أن الرسائل النَّبوية ليست مادة كتابية أو لغة إعلاميَّة فحسب وإنَّما معانٍ ومضامين دعوية تضمنت وشملت الإطار العام لدعوة التوحيد بأركانها الأربعة المهمة وهي: (الشهادة والتبليغ والتبشير والإنذار) ترغيباً وترهيباً، ودعوة إلى الله بإذنه ترغيباً في السلامة وترهيباً بالإنذار والإثم، وتخييراً بين شروط الإسلام الثلاثة.

فضلاً عما تضمنه محتوى النَّص النَّبوي في رسائل الملوك من الهدف الاستراتيجي المعنوي بعيد المدى بالحوار الإيجابي والاتجاه الوقائي التربوي؛ فدعوة الإسلام تضمنها الخطاب القرآني في نص الآية الكريمة : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1] وفيه أن تشريع الإسلام في الدعوة قائمٌ على مبدأ الحوار والإقناع بالحجة دون إكراه[2]. وفي فحواه ومضمونه ومحتواه الدعوة الإسلامية إلى السلام ضد الإرعاب والإرهاب.

سادساً: أن الرسائل النَّبوية من دلائل إعجاز النَّبوة من حيث اختيار العبارة ودقة الألفاظ والمعاني؛ ففي تحليل مضمون الرسائل نجد من الآثار والنتائج والدلالات والقيمة الإعلاميَّة والإعجاز النَّبوي والمعاني السياسية والحضارية والمادة التشريعية والدعوية على أجمل كلام وأروع منطق وأفصح بيان، ومن ذلك:

(١) سورة آل عمران: آية (٦٤).

(٢) وللمزيد في هذا المعنى انظر المطرودي، عبد الرحمن بن سليمان : نظرة في مفهوم الإرهاب والموقف منه في الإسلام دراسات معاصرة (١٧) ط١، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض ١٤٢٥هـ، ص٤١.

أ- في باب دقة اختيار اللفظ والمعاني : أنْ أفرد الرسول ﷺ في خطابه نجاشي الحبشة بلفظ (**الملك**) في حين خاطب الثلاثة الآخرين: هرقل والمقوقس وكسرى بكلمة مشتركة وهي : (**عظيم**) عظيم الروم وعظيم القبط وعظيم كسرى تأليفاً لقلوبهم؛ لأنهم معزولون بحكم الإسلام[١]؛ ولوضعهم في موضع المسؤولية تجاه المهمة المناطة بهم وليس تملقاً لهم بدليل قوله ﷺ :" **على من اتبع الهدى** " وزاد في خطاب كسرى بقول: " **وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن مُحَّداً عبده ورسوله** "؛ ذلك لكونه ليس كتابياً وإنما كان مجوسياً مشركاً بالله[٢].

ب- تأتي البراعة والدقة النحوية في تقديم المبتدأ وجوباً في الرسالة النبوية الموجهة لكسرى خاصة بقوله ﷺ: "**فإن إثم المجوس عليك**" للتأكيد على أهمية الإثم وزيادة درجة الترهيب إلى الإنذار الشديد؛ لذا كانت له الصدارة في الجملة[٣] في حين كان الخطاب للمقوقس عظيم القبط بقوله: "**فإن توليت فعليك إثم القبط**" ولنجاشي الحبشة: "**فإن أبيت فعليك إثم النصارى من قومك**" ولعظيم الروم: "**فإن توليت فعليك إثم الأريسيين**" ولعل الرسائل بمجموعها تظهر جانباً حضارياً مهماً يؤكد عالمية الخطاب الدعوي النبوي.

ج- في التحليل الإعلامي لمضمون محتوى الرسائل نجد أن لفظ كلمة (**الإسلام**[٤]) التي كانت في خطاب عظيم القبط والروم ونجاشي الحبشة دون كسرى ولعل دلالة ذلك تشير وترمي إلى شيوع هذا المصطلح عند هؤلاء الثلاثة دون بلاط كسرى في فارس؛ ولذا اختصت رسالته بقول: "**وأدعوك بدعاء الله**" فهم وثنيون مجوس لم يعرفوا ديناً من الأديان إلا ما كانوا عليه من المجوسية وعباد ة النار.

د- من المعاني والدلالات اللغوية أنْ خاطب ﷺ هرقل والمقوقس والنجاشي فقط دون كسرى بالنداء "**يا أهل الكتاب**[٥]"وفي الخطاب قيمة بلاغية في إنزال البعيد منزلة القريب لاسيما وهم خارج جزيرة العرب. كما

---

(١) العسقلاني : فتح الباري، بشرح صحيح البخاري، ص٥٠.

(٢) العقيلي، أحمد مُحَّد العقيلي، الأثر والدلالات الإعلامية لرسائل النبي ﷺ إلى الملوك والقادة، مطابع خزام، الرياض، الطبعة ١، ١٤١٤هـ، ص٦٥.

(٣) القين : قراءة إعلامية للرسائل النبوية، مرجع سابق، ص٨٢.

(٤) والمعنى:" أدعوك بداعية الإسلام" أي بدعوته كما ورد في لسان العرب، ص ٩٨٦.

(٥)الخالدي، صلاح : الرسول المبلغ ﷺ، تفاصيل الاتصالات بين الرسول وبين ملوك عصره لتبليغهم الدعوة، ط١، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت ١٤١٨هـ، ص ١٠٦-١٧٨، وانظر لتلك النماذج في ملاحق البحث.

أفرد رسالتي هرقل وكسرى بالاستهلال بالسلام على من أتبع الهدى[١]. وتظهر قمة الإعجاز النَّبوي ودلالات النبوة في تنبؤ الرسول ﷺ وعلمه المسبق بإسلام نجاشي الحبشة دون هرقل والمقوقس، وذلك كسابقه النجاشي صاحب جعفر[٢]؛ ولذا خص مكتوبه دون غيره بقول: "**فإني رسول الله**".

سابعاً: من أجمل النتائج وأجّلها أن للرسائل والكتابات النَّبوية من الأهميَّة أنها مثلت أصلاً مهماً من أصول التشريع الإسلامي الحنيف فهي جزءٌ من مصادر السنّة النّبوية بعد القرآن الكريم في الترتيب والأولوية، وهي تمثل في العُرف السياسي الدبلوماسي الحديث وثائق سياسةٍ وركيزة أولية لتلك الوثائق في تاريخ الإنسانية بصفة العموم، شأنها في ذلك شأن رسائل الأنبياء وصحفهم قبل النَّبي الخَاتم ﷺ، بيد أنها تتميز عنها كونها تدعو إلى ختام الرسالات كلها[٣].

وعموماً فإن هذه الرسائل والكتب النَّبوية لتشير إلى أن الأمة بلغت من النضج والقوة والكمال ما يؤهلها لأن تكون خاتمة الأديان، وأن يكون محور تفاصيل تشريعاتها للناس كافة.

وجملة القول : إن الشريعة الإسلامية سلكت في تنظيم العلاقات السياسية الدبلوماسية منهجاً راقياً يقوم على مفاهيم رفيعة وقوانين سلوكية دولية فريدة، وأولتها مكانة كبيرة إيماناً بأهميتها في تجسيد العلاقات إلى واقع ملموس لما يمكنها في الأساس من حل مشكلاتها السياسية مع الغير، وبما يحقق مزيد علاقاتٍ دبلوماسية حية بينها وبين الغير، من تعاونٍ ومصالحٍ مشتركة كإجراءات الحصانات والامتيازات للبعثات والوفادات الدبلوماسية إلى غيرها من أمور. كما أن المتأمل في سياسة الرسول في إدارة الدولة وعلاقة دولة الإسلام بغيرها، داخلياً وخارجياً، يجد أن الأسوة الحسنة والقدوة المهداة والصراط المستقيم قد نجح في أن يتعامل بأسلوب متميز يختلف كل الاختلاف عن حكومة الممالك السابقة في عصره، فنراه قد عقد المعاهدات، واستقبل المستأمنين، وأعان الضعفاء، وراسل الملوك، وبعث الوفود، وتحالف مع القبائل، وفاوض، وأقام كل العلاقات الخارجية بتصوّر إسلاميّ مستمدٌّ من هدي الله ووحيه.

(١) ثمة لطيفة معنوية بليغة لمعنى " السلام" في قول المفسرين الذي نقله ابن حجر: إن السلام ليس المراد به التحية إنما معناه : سَلم من عذاب الله من أسلم. وانظر: العسقلاني : فتح البارئ، ج١، ٥٠-٥١.

(٢) النجاشي الأول واسمه الأصحم بن أبجر أسلم على يد جعفر بن أبي طالب، وفي عهده كانت هجرة المسلمين إلى الحبشة، أما النجاشي الثاني فهو أصحمة بن أبجر أسلم إبان فتح مكة ومكاتبة الملوك، وراسله عمرو بن أمية الضمري، وصلى عليه ﷺ صلاة الغائب، انظر :خطاب : سفراء النبي ﷺ، مرجع سابق، ص ٥٠.

(٣) ورد ذلك في تعريفات الموسوعة التاريخية الحديثة، كذلك اعتبرها الدكتور مُحَّد حميد الله وثائق سياسة فتناولها في مؤلفه، وللمزيد في ذلك انظر: بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن : الإسلام في طريقه إلى الروم وفارس، جريدة البلاد، عدد (١٥٤٥٣) بتاريخ ٦/ ١٤١٩/٧هـ، ص٧.

الفصل الثاني

مقومات إدارة دولة الإسلام الأولى

وآثار نتائج بنائها

المبحث الأول: مقومات إدارة الدولة الإسلامية في العهد النبوي

المبحث الثاني: نتائج وأثار سياسة النبي المختار في إدارة دولة الإسلام

المبحث الأول: مقومات إدارة دولة الإسلام في العهد النبوي.

لا تنشأ دولة جديدة تثبت وجودها إلا على أسس قوية البنيان ثابتة الأركان[١]، ولقد كان هدى المصطفى ﷺ، التي تعامل معها وعمل لها –لاسيما في العهد المدني– سنة التمكين لهذا الدين وهي الأساس البنائي النبوي والهدف المعنوي الذي أسسه، عليه السلام، وسار عليه منذ البعثة وعمل عليه مدة ثلاثة وعشرين عاماً، وكان **أساسه** العقيدة والمنهج، و**عماده** القيادة والسلطة، **ومنهجه العملي ومجاله** بيئة المجتمع المسلم دولة الإسلام الأولى وعاصمته، وكان نتاج ذلك نشأة دولة تحققت فيها القوة وتوفر فيها الأمان

المطلب الأول: العقيدة والمنهج.

إن العقيدة والقيادة والبيئة هم أبرز مقومات بناء الدولة، وعقيدة التوحيد هي المحور الأساس والركيزة الأولى لأسس البناء ومقومات إدارة الدولة، فالعقيدة تشكل حجر الزاوية في الإسلام؛ فهي التي تضع الأساس الذي يقوم عليها بناؤه كله، وتقدّم تصوّره للوجود، ونظرته العامة إلى الكليات الأربع : الإنسان، والمجتمع، والكون والحياة[٢]. فعقيدة التوحيد بعامة هي أساس المثالية السياسية، وقد تم لنا مناقشة دور العقيدة في تزكية النفس وتطهير السلوك، وأنها محور اهتمام الإسلام، ومدار مناط تشريعاته[٣]. وما نضيف هنا في موضوع العقيدة، ومنهج التشريع هو دور العقيدة كمبدأ من مقومات إدارة دولة الإسلام الأولى وأثرها في مجتمع الدولة وحياة الأمة. ومن الجميل أن آثار عقيدة الدين الحنيف شاملة عامة تامة لا تقتصر على الفرد فحسب، وإنما تتعداه إلى الجماعة والمجتمع والدولة والأمة، ولعل أكبر أثرٍ للعقيدة الإيمانية السوية هو استقلال الأمة من التبعية الفكرية والحضارية للأمم الأخرى، وبديهياً ألا يتم استقلال الأمة إلا باستقلالها في إيمانها وعقيدتها[٤]، فالعرب في مجتمع مكة لما كانوا على غير دين الله في عبادتهم كانت تبعيتهم، إما للفرس، وإما للروم، وكانوا يلجؤون إليهم لحل مشكلاتهم وخلافاتهم القبلية، حتى جاء الإسلام

---

(١) سبق الحديث عن أسس البناء في الباب الأول والفصل الأول، من الباب الثاني، وما نضيف هنا في هذا الفصل الأخير هو دور هذه المقومات في إدارة الدولة، ومن ثم نستخلص الآثار والنتائج العامة لسياسة النبي، عليه السلام، في إدارة دولة الإسلام.

(٢) منجود: مصطفى محمود: الأبعاد السياسية لمفهوم الأمن في الإسلام، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، عام ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص ١٠٩.

(٣) تناول الفصل الأول من هذه الدراسة بناء الشخصية المتكاملة، وتنظيم الحياة الاجتماعية، وكيف حرص المصطفى، عليه السلام، وربى عصبة الإسلام الأولى على مبدأ تزكية النفس، وتطهير السلوك.

(٤) انظر موضوع استقلال الشخصية الإسلامية وتفردها في المبحث الثاني من هذه الدراسة.

فعبدوا ربهم وآمنوا به ونشأت دولة الإسلام في المدينة ؛ فهنا تحررت الأمة بمنهج ربها، وعقيدة دينها، ونبي رسالتها الإسلامية، إلى دولة سامية متحررة من التبعية، فاستقلت بسلطانها عن جميع أمم الأرض، سواء كانت يهودية أم نصرانية، بل أصبحت قوة مهيبة من الأمم الأخرى؛ فكانت لها شخصيتها وسِمَتها وعزتها وكرامتها بين المجتمعات والأمم، وما كان يمكن أن يكون لها ذلك لولا أن أفرادها جميعًا كانوا تحت ملة واحدة وعقيدة خالصة موحَدة وموحِدة.

ومن آثار العقيدة التي لا تقل شأناً عن سابقتها حصول الأمن التام والعام للمجتمع والأمة الذي يُمّكنُ الإنسان به من حُسن العبادة والتقرب إلى الخالق، ويمّكنُ معه من تحقيق سنة الاستخلاف في الأرض، واستثمار فرصة عمارتها، وحُسن إدارتها، وتحقيق مكانه الدولة ورقيها .ولقد أكد المولى ﷻ ذلك بالوعد بقوله : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾[1]، وهي سنة انعكست على الكافرين فبّدل الله حالهم فخافوا بعد أمن، وجاعوا بعد رغد، وبدل الله المؤمنين بعد خوفهم أمنًا، وبعد فقرهم رخاء وغنىً، فكانوا سادات الناس وأئمتها .

وبعقيدة الإيمان كان أمن دولة المدينة وأمانها، بل وبه كان الرعب يتهدد عدوها، يقول المصطفى ﷺ: « **نصرت بالرعب مسيرة شهر**»[2] فانتصارات المسلمين على عدوهم لم تكن لأن القوة بينهم متكافئة، وإنما هي لأن التوحيد غرس الأمان في نفوسهم، والثبات في قلوبهم، وبث الرعب في قلوب عدوهم؛ فالسنة الإلهية والقاعدة العامة هي تلازم العلاقة بين الإيمان العقدي والأمن المجتمعي، وبها تبين أن أعظمَ سببٍ يتحقق به الأمن العام هو تحقيق التوحيد والإيمان، الذي تحصل به الطمأنينة على النفس والعرض والمال؛ ولهذا بشَّر النبي ﷺ المؤمنين الأوائل بالأمن لما خافوا على أنفسهم وأموالهم، من الكفار والمشركين فقال : « ... **والذي نفسي بيده لتسيرن الظعينة ما بين عدنٍ وصنعاء لا تخاف إلا الله**»[3] .

(١) سورة الأنعام: آية (٨٢).

(٢) البخاري: الصحيح، باب الصلاة، رقم الحديث (٤٢٧)، مسلم : صحيح مسلم، باب المساجد ومواضع الصلاة فيها، رقم الحديث (٥٢١) والحديث لجابر بن عبد الله .

(٣)عن أبي عبد الله خباب بن الأرت، ﷺ، قال: " شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا : ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون، وفي =

ومن الآثار أن أسس المصطفى ﷺ بالعقيدة المعنى الحقيقي لوحدة صف الأمة، فبها وحّد القلوب والمشاعر، والقبلة والشعائر، وكان من أثر ذلك أن قويت الصلات بين أفراد المجتمع والأمة في دولة المدينة، وتحقق وعد الخالق في التمكين والنصر والاستخلاف والظفر لأمة الإسلام في المجتمع المدني ؛ فبرزت قوة الدولة وسادت ورادت وأظهرت عزة الإسلام وأهله، يقول المولى ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾(١).

المطلب الثاني: القيادة والسلطة.

القيادة والسلطة علمٌ وفن وقوةٌ وتعامل، ولقد جمع المصطفى، عليه السلام، كل مقومات السلطة الإدارية والقدرة السياسية في بناء دولة الإسلام الأولى **ابتداءً بالمهارة الإنسانية** التي تمثلت ببراعة التعامل مع الآخر فردًا أو جماعة، مع الفهم الكامل والمتبادل بينه كحاكم وبين الرعية ؛ فهماً للتصرفات والسلوك، واستيعاباً للآراء والأفكار، وتعاملاً مع مختلف الطبائع والخِلال، ومخاطبةً على قدر العقول والأفهام، **ومروراً بالمهارة الفنية** التي تستلزم الفهم الدقيق للهدف، والتخطيط السليم لضبط الأمور وسوسها، إيماناً منه ﷺ بالهدف لتحقيق الغاية، **وانتهاءً بالمهارة السياسية** والإدراكية، آخذًا بعين الاعتبار الرؤى السياسية المستقبلية، واستشرافها بالوعي وبالفراسة وبالإعداد والدراسة، فضلاً عن **مهارته الإبداعية** في التخطيط والتنظيم وتحمل المسؤولية.

ولنا من شواهد السيرة النبوية أظهر الأمثلة في ممارسته ﷺ للمهارات بكافة صنوفها وفنونها الإنسانية والفنية السياسية، ومهارة الحرب القيادية ؛ فاكتشافه للمواهب المؤثرة والقدرات الفاعلة وتوظيفها، واستثمارها بما يتناسب مع قدرات أصحابها واتجاهاتهم ساهم في بناء المجتمع وقوته، وأثر في كيانه وبنيانه. ولعلنا ندرك الحس الفني للنَّبي ﷺ حتى في أدق الأمور وأيسرها فنراه يُعين للآذان بلالاً لكونه أندى صوتاً، وتمتد براعته السياسية وإلْمامته الواعية إلى التقسيم الجميل لبعض أفراد رعيته فيقول: "**أرحم أمتي بأمتي**

=

رواية وهو متوسد بردة وقد لقينا من المشركين شدة " البخاري: صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم (٣٤١٦).

(١) جاء في تفسر ابن كثير: " حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب وهشام، عن مُحَّد قال : قال عثمان بن عفان : فينا نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ ،فأخرجنا من ديارنا بغير حق، إلا أن قلنا : " ربنا الله "، ثم مكنا في الأرض، فأقمنا الصلاة، وآتينا الزكاة، وأمرنا بالمعروف، ونهينا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور، فهي لي ولأصحابي، ابن كثير: ص٣٣٧، تفسير سورة الحج آية(٤١).

أبوبكر، وأقواهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأمين أمتي أبو عبيدة بن الجراح، وأعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ، وأقرؤهم أُبيّ، وأفرضهم زيد"[١].

وكما كانت فراسته بأصحابه، كانت نباهته ومعرفته للأمم والشعوب حوله وما يصلح لهم من الرجال؛ فقد أرسل لأهل اليمن أعلم الصحابة معلماً لهم معاذ بن جبل، وأرسل إلى نجران عليٍ بن أبي طالب، وأرسل إلى الغرب منها أبا موسى الأشعري، وأوفد قبل هؤلاء جميعاً مصعب بن عمير سفيراً إلى دار مهجره؛ ففتحها بالدعوة والتعليم.

وجديرٌ بالذكر أن سياسة المصطفى ﷺ في دولته منهجٌ حركي يتناول الفرد في كل أحواله، والمجتمع بكل جوانبه، والأمة بكل مقدراتها، والدولة بكل معطياتها، وهو منهجٌ مرنٌ حيوي لم يضع قوالب جامدة يَبسة ليصب الناس فيها بكل أحوالهم وحالاتهم، وإنما كان يتغير بحسب الرؤية المتوفرة، والمصلحة المتحصَّلة، والهدف المطلوب، ويتغير بحسب الظروف والإمكانات والاستطاعات والمتغيرات؛ ليشكل القدوة للإنسان، في كل ما يعرض له. فكانت للحرب عنده خطابها ووسائلها، وكان للعهد والسلم لديه شروطه، وضوابطه، وكان للنصر فقهه، وللهزيمة فقهها، وكيفية التعامل معها وتجنب آثارها.

وخلاصة القول: إن سيرة المصطفى ﷺ، قيادة وسلطة، تمثل منهجاً متكاملاً لكيفية التعامل مع القيم، وتطبيقها في الواقع. ففي قراءة سيرته ﷺ قراءة للمستقبل والتنبؤ ببعض أحواله ؛ فنبي الهدى، عليه السلام، قدّم لنا قراءة بيِّنة واضحة للمستقبل من خلال استيعابه لمراحل أبعاد الزمان الثلاثة؛ وذلك بما عرض من قصص الأنبياء كنماذج **في الماضي**، **وفي الواقع** بتطبيقه العملي بالتعايش مع أحداث الزمان والمكان بكل تقلباته وظروفه، **وبالمستقبل** –بوحي الله تعالى– بإبصار بعض ملامحه الرئيسة، والإخبار عن كيفيات التعامل معه. ذكر الجندي في كتابه نقلاً عن (فيليب حِتّي) أنه قال: **" لم يسجل التاريخ أن رجلاً واحداً سوى النبي مُحَمَّد كان صاحب رسالة، وباني أمة ومؤسس دولة هذه الثلاثة التي قام بها مُحَمَّد، كانت وحدة متلاحمة، وكان الدين هو القوة التي توحدها على مدى التاريخ"**[٢].

---

(١)والحديث أخرجه ابن ماجه في السنن، ح (١٥٤) ج٩، ص ١٩. عن أبي قلابة، عن أنس، ﷺ . وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه رقم (١٢٢٤) .وقريب من هذا الحديث حديث سعيد الخدري، عن النبي ﷺ:" أرحم أمتي بها أبو بكر وأقواهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقضاهم علي بن أبي طالب، وأفرضهم زيد، وأقرؤهم لكتاب الله أُبيّ بن كعب، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح . وأبو هريرة وعاء للعلم، أو قال وعاء العلم، وعند سلمان علم لا يُدرَك، وما أظلَّت الخضراء، ولا أقلَّت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر ".

(٢) الجندي، أنور: موسوعة مقدمات العلوم والمناهج، مطبعة دار البيان، مصر، عام ١٩٨٩م، مج ٨: طوابع الإسلام بين الأديان والإيدولوجيا، ص٢١٤، والنص نقلاً عن كلام المؤرخ فيليب حتّي .

فنبي الأمة هو القائد الأول للفكر الإنساني الذي جمع بين أوامر تشريع الخالق وبين سياسة الدولة وقوامة المجتمع. وعلى سبيل التمثيل لا الحصر نجد أن واقع التطبيق العملي لسيرة المصطفى ﷺ في ذلك الجانب (قيادة ورئاسة) يقودنا إلى تلخيص منهجه ﷺ للتمكين للدعوة، ومنهجه في إدارته ﷺ لعاصمة الإسلام الأولى (دولة المدينة)، ولتتضح الرؤيا نتناول الموضوع في محورين فنقول:

المحور الأول: المنهج النَّبوي في التمكين للدعوة.

من الخطوات الدقيقة والاستراتيجية النبوية التي اتكأ عليها ﷺ أن مكّن للدعوة ووظفها لبناء وإقامة الدولة، وجعل لكل مرحلة نموذجاً ومحل اقتداء للمرحلة التي تماثلها في واقع الأمة، ابتداءً من مرحلة الاستضعاف، والاحتفاظ بالإيمان في القلب، والاقتصار على كف اليد، وانتهاءً بمرحلة التمكين ونشر الإسلام في الأرض، والدفاع عن إنسانية الإنسان، وترسيخ قيمه وأخلاقياته، والحيلولة دون افتتانه، وهذه المنهجية النبوية قد صوّرت لنا بلا ريب -في العهدين المكي فالمدني أبعاداً وحقائقَ مهمة عن الدعوة من أهمها فقه المصطفى ﷺ وفهمه لواقع الدعوة وهدف النبوة والرسالة فهماً تاماً نظرياً، ومن ثَم تطبيقه عملياً، وإدراكه، عليه السلام، للدور والمرحلة المهيأ لها، وتعامله، عليه السلام، مع هذا الواقع **فهماً وإصلاحاً وتغييرًا**، مع الإلمام والمعرفة المتكاملة والدقيقة لإمكانات الزمان والمكان والناس . فرسول الهدى ﷺ قائد الدعوة كان ملمًّا بطبيعة الدعوة المكلف بها، عالماً بأهدافها، مستثمرًا إياها لبناء دولته مستقبلاً. فنراه في مرحلة التخطيط للتمكين للدعوة يسعى للاستمرار بها، تبليغاً وإقناعاً ومواجهة، مهما كانت الظروف المحيطة، وبشتى الوسائل والطرق التي تناسب وتلائم تلك الظروف مع التدرج والصبر والحكمة في الدعوة ؛ لئلا تُحصر أو تموت في مهدها قبل أن تؤتي أكلها(١)، فتارة يقدّم المناقشة والإقناع والحوار، وتارة يستخدم الإلزام بالحجة والبرهان مفوتاً على الأعداء فرصة محاولة صدهم نشر دين الله أو القضاء عليه، ونراه ﷺ يعمد إلى الفهم الدقيق للمحيطين به من الصحب ؛ وذلك بالاصطفاء والانتقاء للأتباع، وذلك بحسن اختيارهم والقدرة على استيعابهم، وتعاهدهم تربيةً ورعايةً، إعداداً وتوظيفاً.

وفي سبيل التمكين لرسالة التبليغ أيضاً نجده ﷺ حريصاً غاية الحرص على توفير أسباب الأمن والحماية، والقوة والدعم لها دعماً وأمناً مادياً ومعنوياً، فمن جملة أسباب الحماية وأمن الدعوة نجده، عليه

(١) وللمزيد حول المنهج النبوي في الدعوة، انظر حوى، سعيد : الرسول ﷺ، دار عمار بيروت، ط ١٤٠٨ هـ عام ١٩٨٨ م، ص١٦٩ . نوح، السيد محمد: منهج أهل السنة والجماعة في قضية التغيير بجانبيه التربوي و الدعوي، دار الوفاء، ط الثانية ١٤١٢ هـ، عام ١٩٩١ م، ص٧٧.

السلام، يستفيد من حماية العشيرة له، ويستفيد من قوانين المجتمع الجاهلي في بيئته مثل الجوار، ويستفيد من النخوة العربية والعاطفة الإنسانية كما حدث في نقض صحيفة المقاطعة، أضف إلى ذلك التخطيط للأمن، مع الحرص في كل خطوات تبليغ الدعوة على تخطي عقبات القضاء عليها أو استئصالها، أو تحجيمها، أو تغيير أهدافها، أو ما يَحيد بها عن طريق الهدى والصواب، وهكذا مضي بالدعوة من مرحلة اتصال رسالة وحي السماء بالأرض بكلمة المولى ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾[١] إلى مرحلة التمكن والتمكين والكمال والاكتمال بشاهد قول الله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾[٢].

وفي حقيقة التمكين للدعوة يظهر لنا طرف من الحكمة الربانية في اختيار مكة لتكون المنطلق الأول لدعوة النبي ﷺ؛ فإن ذلك النداء الذي صدع به النبي ﷺ، وتلك الدعوة التي وجهها إلى الناس لم يتوقف صداها على جنبات مكة وحدها، بل حملها الركبان الذين يأتون مكة لأغراضٍ شتى إلى سائر أرجاء جزيرة العرب.

المحور الثاني: المنهج النَّبوي في إدارة الدولة.

وضع نبي الهدى ﷺ كل ما من شأنه التأسيس لبناء قاعدةٍ صلبةٍ أساس لدين الإسلام، فبعد أن مكّن ﷺ للدعوة بأن أحاطها بسياج متين مستفيدًا من كل الظروف والأحوال المتاحة انطلق لأهدافٍ أُخر، لا تقل أهمية عن منهج التمكين للدعوة من بناء الإنسان الصالح الذي يقوم بمهمة الإصلاح في الأرض إلى الفهم والحماية والدعم، فكان من أوائل أهداف منهجه ﷺ وبراعة سياسته، حكمة اختيار المكان قراراً ومقاماً بأمر رباني، ومن ثم توالت بعدها الأهداف المستقبلية والعظيمة لذلك البناء ومنها:

١- متابعة تبليغ الدعوة ونشر دين الإسلام في سائر الأرض

٢- الأرض وبناء العمارة المادية.

٣- التمكين لدين الإسلام في الأرض.

(١) سورة العلق، آية (١).

(٢) سورة المائدة، آية (٣).

٤- تحقيق الاستخلاف الحقيقي في الكون الذي خلق الله الإنسان من أجله باتباع المنهج الرباني قال ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[(١)]. وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[(٢)].

المطلب الثالث: البيئة والمجتمع المسلم.

بعد اكتمال تأسيس الدولة، ولا سيما تأسيسها المعنوي، كان تصور المصطفى ﷺ منصباً على متابعة استكمال السياسات الموجهة للمرحلة الثانية، وهي مرحلة الإدارة الرسمية والمادية العامة، وتشكلت تلك المرحلة لديهﷺ بتكوين أشبه ما يكون بمؤسسات أجهزة السلطة الحاكمة الخاصة بإدارة المجلس التشريعي والقضائي للدولة فضلاً عن إدارة الجهات الأمنية، والجيش، وإدارة المال والاقتصاد، وبيوت التعليم، أضف إليه الترتيب للعلاقات الدولية الخارجية، وكلها أسهمت بحظٍ وافر في تحقيق التمكين لدولة المدينة وحضارتها آنذاك مادياً ومعنوياً[(٣)].

والمدقق للهيكل الإداري للأمة المسلمة من منظومة إدارية نبوية في دولة الإسلام الأولى، يجده محاطاً بكل مكونات المجتمع المسلم من خلال تنظيم العلاقات البينية لأفراد المجتمع في تكويناته المختلفة بحيث نجد التكامل في تدرج ذلك التنظيم الإداري وابتدائه من الفرد إلى الأمة[(٤)]؛ فالرسول المصطفى ﷺ أدرك أهمية التنظيمات والوظائف الإدارية في مجتمع المدينة دولة الإسلام الأولى وواجهتها، ومن ثم رأى بأن الممارسات الإدارية في مكة التي هي في جوهرها أعراف قبلية تتناسب ومقتضيات المصالح المكية، وأنّ ثَمَة ترتيبات وتنظيمات أخرى يحتاج إليها المجتمع المدني لاسيما وأن مقتضى الحال بالدولة الجديدة لابد وأن يخضع لنظم وتعاليم التشريع الحنيف؛ فلذا ظهرت ولاحت في الأفق ملامح النظام الإداري الجديد فحدد التسلسل الهرمي في المسؤوليات، ووضع القواعد والخطط ورسم الأهداف؛ لإيجاد بيئة إيمانية آمنة في الداخل يتم بمقتضاها حماية حدودها الخارجية . فاتّبع صلى، الله عليه وسلم، لأشبه ما عرف **(بنظام المركزية)** على الإجمال في تنظيم شؤون الدولة، واتبعه **(بنظام اللامركزية الإدارية)** في بعض الأحايين؛ مراعاةً لحسن إدارة الأقطار والأمصار النائية، وذلك بإقراره، عليه السلام، لمبدأ التفويض والإنابة، فكان أول مبدئه التقسيم للدولة إلى

(١) سورة البقرة، آية (٣٠).

(٢) سورة هود، آية (٦١).

(٣) انظر الكرمي: الإدارة في عهد الرسول ﷺ، مرجع سابق، ص ٩١ وما بعدها.

(٤) أبو دوم، إقبال: العلاقة بين الدعوة والدولة من خلال سيرة المصطفى ﷺ، رسالة دكتوراه، جامعة أم درمان الإسلامية، كلية الدعوة، قسم الدعوة والثقافة، ص ١١٣.

وحدات إدارية متمثلة بأمراء الأقاليم وأمناء السر[١]، واستعمل أيضاً الولاة والعمال على الأقاليم[٢]، كذلك وضع وظائف أخرى إدارية ذات طبيعة إعلامية تضم الشعراء والخطباء، وتابع تنظيم الشؤون الاقتصادية في الدولة بكل جوانبها من صناعة، وزراعة، وتجارة من خلال سنّ التشريعات اللازمة لتنظيم شؤونها، ووضع أسساً لنواة النظام المالي الجديد للدولة الإسلامية[٣]، وأعقب ذلك بإنشاء جهازٍ إداريٍّ لجمع الأموال المستحقة وحفظها وتوزيعها على أصحابه والمحتاجين، مع إخضاعهم للرقابة والمحاسبة المركزية المستمرة، واتخذ بعض التدابير العملية فيما يتعلق بالأرض التي دخلت في حوزة المسلمين،[٤] وتابع الاهتمام بما يتعلق بالإدارة الدينية والمهمات الدعوية والتعليمية، وكذا الجهاز الإداري الكتابي (التخصصي)، فكان عنده من اختص بكتابة الوحي والرسائل والإقطاع ومن اختص بحوائجه ﷺ، وآخر بكتابة تخريص الثمار، وأيضاً كُتَّاب أموال الصدقات، وكُتَّاب العقود والعهود والمداينات وهكذا[٥]، ومع إدارة الوظائف التعليمية والدينية أضاف إليها جانب الاهتمام بالشؤون العسكرية والأمنية فطبق ﷺ مضمون الخطاب الأمني في القرآن الموجه للفرد والجماعة ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[٦].

وخلاصة القول : إن سياسة المصطفى ﷺ في إدارة بيئة المدينة حققت ما يكفل سعادة المسلم، وكان من أبرز المعاني أن أصبحت المدينة مركزاً سياسياً إدارياً وكانت بتلك السياسات عاصمة الإسلام ونواه المجتمع الإسلامي الأول.

---

(١) وهما المرتبطتان بالإدارة العليا للدولة والممثلة بشخصه الكريم ﷺ في المدينة.

(٢) بعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية تعين على الرسول ﷺ تعيين ولاة على الأمصار، فكان أن عين فقهاء من كبار الصحابة أمثال عتاب بن أسيد على مكة، وعلي بن أبي طالب على نجران وغيرهما، وكانت مهمة الوالي هي تطبيق أحكام شريعة الإسلام، وعين كذلك عمالاً على الصدقاتٍ مهمتهم جمع الزكاة والصدقات شاركهم في ذلك شيوخ القبائل ؛ لما لهم من أثر وتأثير في نفوس الأعراب، فضلاً عن معرفة شيخ القبيلة بالفقراء وأصحاب الثراء، ابن حميد، صالح عبد الله، وابن ملوح، عبد الرحمن مُحَّد : موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول، الكريم ﷺ، دار الوسيلة، جدة، ١٤١٨هـ، مج ١، ص٢٧٦.

(٣) ابتداء من إنشاء السوق، ثم سن مبدأ المؤاخاة وصياغته بصبغة مالية، ثم ما جاء من مواد صحيفة المدينة؛ إذ أقرت مبدأ التعاون في دفع الديات، وفداء الأسرى، والاشتراك في النفقات بين المؤمنين واليهود في حالة تعرض المدينة إلى اعتداء خارجي.

(٤) الكرمي: الإدارة في عصر الرسول ﷺ، مرجع سابق، الصفحات ٩٣، ١١٢، ١١٨.

(٥) ابن حميد وابن ملوح: موسوعة نضرة النعيم، مرجع سابق، مج ١، ص ٢٧٦.

(٦) سورة الأنفال، آية (٦٠).

المطلب الرابع: بناء القوة الاستراتيجية[١] وتحقيق أمن الدولة بأنواعه.

حرص النبي عليه السلام، غاية الحرص على بناء القوة بإطلاقها في النفس وفي الجسد في العقل والعمل وفي المكسب؛ ولعل عنايته ﷺ بها إنما لما لها من مخرجات وثمرات فهي تسعى بلا شك في تحقيق كيان قوة المجتمع، وأكثر من ذلك فهي تفيد في أمن الدولة وتنمي عزة الأمة وحضارتها.

وثَمة ملحظ مهم يجب التنبه له في أمر القوة هنا، هو مسلك الهادي الأمين في أمر القوة، وهو اتخاذه لطرق الحكمة دائماً رغم توفر القوة. فالدارس والمتقصي لسيرته، عليه السلام، يجد أن اتباع الحكمة وعدم الإفراط في استخدام القوة كان من أهم معالم حياته عليه السلام، إذ كان دائما يميل إلى الصلح الذي يحقق أهداف الدعوة، ويتجنب الحرب والقتال قدر المستطاع، وما صلح الحديبية إلا أكبر شاهدٍ على ذلك؛ فعلى الرغم من اكتمال القوة لديه عليه السلام، إلا أنه قَبِل الصلح الذي يحقق أهداف دعوته، ويعلي قوته، ويزيد أتباعه. كما نراه ﷺ يعمد على تكوين القوة المادية والمعنوية يوم الفتح الأكبر فتح مكة إذ نراه ﷺ يصدر عفواً عاماً مكّن لهؤلاء المعفى عنهم أن يكونوا فيما بعد عدة الإسلام وقوته.

وبناء القوة مطلب من مقومات بناء الدولة وإدارتها وهو وثيق الصلة بأمن الدولة وسِلمها وأمانها. والصحيح أن النَّبي ﷺ أسس للأمن المادي والمعنوي، منذ العهد المكي، بدءاً بحماية الدعوة وتأمينها والتمكين لها، ثم بحفظ حقوق الفرد وحدوده وبيان ماله وما عليه، ولعل براعة التدقيق النبوي في معالجة مسألة الأمن بأنواعه تسوقنا إلى التفصيل في دراسة أبرز الغايات والدلالات التربوية، والوقفات النبوية المهمة لأبعاد السياسة الأمنية في المجتمع المدني.

فنقولُ بدايةً إن دلالات مفهوم الأمن تستبطن في ثناياها عدة ركائز وأركاناً أساسية لا يقوم مفهوم الأمن في الإسلام إلا عليها، ولا يتصور وجوده إلا بها وهي: **(العقيدة، السلطة، القوة، الأمة)** [٢] فعن العقيدة ودورها في تحقيق الأمن، فمعلومٌ أن الأمن هو جوهر الإيمان. فالجذر اللغوي لمادة الأمن والإيمان، وهي: (الألف والميم والنون) واحد، والإيمان مأخوذٌ من الأمن الذي هو الطمأنينة والتحرر من المخاوف والإضطراب، فحقيقة العقيدة تحررٌ من خوف أعداء توحيد الخالق ﷻ، وتجردٌ عن بعض أنواع العبادات

---

(١) الاستراتيجية: في الاصطلاح السياسي على الإجمال تعني : (خطة لتحقيق هدف) بمعنى التخطيط بوسائل ومتطلبات لغرض الوصول إلى أهداف مستقبلية بصورة شاملة ومتكاملة.

(٢) منجود: الأبعاد السياسية لمفهوم الأمن في الإسلام، ص ١٠٧.

الوضعية وتحرير الأمة وأفرادها من أسر الأهواء، وحصار الأغراض والشهوات، وفي المقابل؛ فإنّ عقيدة التوحيد طمأنينة للنفس، وسبباً للتمكين في الأرض[١].

وعن السلطة والسياسة الأمنية ؛ فيمكن القول :إن السلطة لها خاصية مهمة في قيادة المجتمع المسلم إلى طريق الأمن، وحراسة الدين وسياسة الدنيا؛ وذلك بقدرة السلطان الحاكم جعل الأمن حقيقة معايشة يبدأ أسباباً وينتهي آثارًا، ولعل من أبرز مقومات ذلك تطبيق أمور الشرع استتباباً للأمن فكرًا وحركة ونظاما[٢] وقد طبق الحبيب المصطفى ﷺ ذلك ابتداءً وانتهاءً ؛ بتحقيق الأمن المعنوي بإقامة الشعائر واتبعه بالأمن المادي للمدينة بالعدة المانعة، والقوة الدافعة حتى لا ينتهك فيها مُحّرمًا ولا يسفك فيها لمسلم أو معاهد دماً ؛ وما ذلك إلا نموذجاً أمثل لمجتمعٍ آمنٍ داخلياً، وتحقيق الحضارة المجتمعية وسيادتها خارجياً .

وعن الركيزة الثالثة القوة ودورها في تحقيق الأمن نجد أنّه لا قيمة للقوة في ميزان الإسلام إلا بقدرة المولى الخالق منه وإليه ﷻ: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[٣]؛ فالقوة سياج الأمن المتين الذي يحميه ويحفظه عما يتهدّده، وهي في منهجها تمثل استمرارية ركائز الأمن الثلاثة السابقة فهي حارسة العقيدة وأمانها، وهيبة السلطان وعزته ودرع الأمة وأمنها، وهي في ميزان الإسلام لا تعني الإرهاب والإرعاد، وإنما تعني محتوى مضمون النص القرآني من التهيؤ، والإعداد بكل المتاحات قال ﷻ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[٤]، وتعنى في مفهوم الأمن تحقيق أمانة الاستخلاف في الأرض، وتأكيد سنة التدافع التي تقتضي بكل حال توافر القوة؛ فالحق يدفع الباطل، والعدل يدفع الظلم والجرم وهكذا[٥]، وفي ذلك يقول عز وجل : ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ﴾[٦] .

وعن الأمة كركيزة رابعة في تحقيق واقع الأمن نجد الأمة هي الوعاء البشري الذي يشكل أداة الأمن وأدواته الوسطية لتحقيق الغاية الكبرى في نشر الدعوة والحفاظ عليها؛ ذلك أن أول ضمانات أمن هذه الدعوة أن يكون الأمن متحققاً لمحتضنيها وحاملي لوائها إلى الناس[٧]، فبالأمة ومع السلطة تكون القوة

(١) المرجع السابق، ص١١٩.

(٢) المرجع السابق، ص١٤٤.

(٣) سورة البقرة، آية (١٦٥).

(٤) سورة الانفال، آية (٦٠).

(٥) منجود: الأبعاد السياسية لمفهوم الأمن في الإسلام، مرجع سابق، ص ١٠٧.

(٦) سورة البقرة، آية (٢١٧).

(٧) منجود: الأبعاد السياسية، مرجع سابق، ص ١٧٠.

﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾[١]، وبالقوة تكون وحدة الأمة ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[٢]، وبالأمة يكون تحقيق مقصود العبودية والعبادة لله وحده ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾[٣] وبالأمة نرجع إلى أول الحلقة في ركائز الأمن تباعاً : العقيدة، السلطة، القوة، فالأمة، وبالأمة العابدة الموحدة تكون رسالة الحضارة الإسلامية إلى البشرية جمعاء، وبها يكون الاستخلاف والاستعلاء[٤] والتمكين لهذا الدين.

ومن صور تحقيق الأمن للكافة تطبيق الأمن في جميع أنواعه الثلاثة، فضلاً عن حماية الكليات الخمس، وابتداءً بأول أنواع الأمن التي لا تقل أهمية عن بقية الأنواع الأخرى وهو:

● أولاً: الأمن الاجتماعي أو الأمن المجتمعي والجماعي.

وحقيقة هذا النوع ومبدؤه وأدق صوره هو أمن الفرد في ذاته، واستقراره وطمأنينته الداخلية الشخصية التي تُوّلد عنده إحساس الشعور بمعية الخالق، وقد رسّخ المصطفى ﷺ ذلك في نفوس أصحابه مماحكاه القرآن ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[٥] فـ**(ما ظنك باثنين الله ثالثهما)**[٦] هذا الأمن الذي أكده الإسلام للفرد المسلم ليشمل كل حياته وحمايته من الضرر والأذى في كل خطواته ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[٧] وفي الحديث: «**كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه**»[٨].

وتتسع دائرة الأمن الاجتماعي لما في مجتمع المسلم فيكون الأمن لما حوله من بهيمة وطير وحجر وشجر؛ ففي حق أمان الحيوان جاء في الحديث الشريف: «**من فجع هذه بولدها؟ ردُّوا ولدها إليها**»،

---

(١) سورة الكهف، آية (٩٥).

(٢) سورة الانفال، آية (٤٦).

(٣) سورة المؤمنون، آية (٥٢).

(٤) وهو استعلاءٌ لدين الإسلام ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين لاستعلاء أحد على أحد من أبنائها.

(٥) سورة التوبة، الآية، (٤٠).

(٦) مسلم: صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم (٢٣٨١)، والحديث عن أنس بن مالك، رضي الله عنه.

(٧) سورة الأحزاب، آية (٥٨).

(٨) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الأدب، رقم الحديث (٥٧١٩) ومسلم: صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، رقم الحديث (٢٥٤٦).

ولما رأى قرية نمل قد حرقناها، فقال: «**من حرَّق هذه؟ قلنا: نحن، قال: إنَّه لا ينبغي أن يعذِّب بالنَّار إلَّا ربُّ النَّار**»[١].

وجاء التأمين للشجر بنهيه ﷺ عن قطعها وزاد أن توّعد من منع الانتفاع بظل الشجر من ابن السبيل أو البهائم ظلماً وعبثاً بغير حق؛ فعن عبد الله بن حبيش -رضي الله عنه- **قال: قال رسول الله** ﷺ: "**من قطع سدرة صوَّب الله رأسه في النار**"[٢] وفي عموم حرم المدينة جاء عن عاصم الأحول قال: سألت أنس بن مالك: "**أحرم رسول الله** ﷺ **المدينة؟ قال: "نعم، هي حرام، حرمها الله ورسوله، لا يختلى خلاها**[٣]" **فمن فعل ذلك، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**"، وفي الآخر "**إني أحرم ما بين لابتي المدينة أن تقطع عضاهها أو يقتل صيدها**[٤]".

وجاء عن ابن مسعود قال ﷺ: (**إنها حرم آمن**) [٥] وأمن المسلم وما حوله بهذا المعنى الدقيق هو امتداد لأمن مجتمعه ودولته ولأمته كذلك.

وتتعدد صور الأمن المجتمعي وجوانبه بدءًا بالأمن الداخلي، فمن أمان محيط الأسرة، إلى أمن الجار في المسكن والاقامة؛ ففي الحديث **والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن؟ قيل: ومن يا رسول الله ؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوايقه**[٦]، والأحاديث في هذا الجانب كثيرة، ومن الجار إلى الضيف والأهل والأقارب؛ وذلك لبناء علاقات تَكْفُل بناءً أمنٍ اجتماعي مأمون، فيأمن المجتمع بعامته بإقامة حدود الله، ومنع التعدي والبغي، ويدخل في ذلك حماية الإسلام للحقوق الخمس وهي ما يعرف بالكليات الخمس بأن تكون في مأمنٍ من كل ما يشوبها أو يعكر صفوها وستفرد بالحديث تفصيلاً.

(١) ابو داود : السنن، باب في قتل الذر، حديث رقم (٥٢٦٨) وصحح إسناده النووي في رياض الصالحين ص٤٥٥.

(٢) رواه أبو داود وصححه الألباني في سنن أبي داود، حديث رقم (٦١٥) ص٥٢٣٩.

(٣) والمعنى بخلاها ": النبات الرقيق ما دام رطباً، فاختلاؤه: قطعه وإذا يبس فهو حشيش.

(٤) مسلم: صحيح مسلم صحيح مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة ودعاء النبي، ﷺ، فيها بالبركة، وبيان تحريمها، وتحريم صيدها، ج٢، ص ٩٩٣، والحديث عن سعد بن أبي وقاص.

(٥) جاء في الحديث عن أبي مسعود الأنصاري، أو سهل بن حنيف، أنه سمع النبي ﷺ، يقول في المدينة: " إنها حرم آمن، إنها حرم آمن، إنها حرم آمن "مسلم: صحيح مسلم، حديث رقم (١٣٧٧) ص ٢٤٥١.

(٦) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، حديث رقم (٥٦٧٠) ص ٤٥٨.

ولعل أهم نتائج ثمرات الأمن المجتمعي داخلياً وخارجياً تكمن بـ:

- تكريس عناية المصطفى، عليه السلام، وتأصيله لمعاني الأمن بأنواعه ابتداءً بأمن الفرد الداخلي والنفسي الذي له امتداد وأثر وصدى على الأمن المجتمعي، وهو الأساس لكل أمن بعده.

- أن ممارسة النبي المصطفى ﷺ وتطبيقاته لأمن الدولة بكل جوانبه ووسائله وسبله أدى إلى انتشار الفضيلة والسماحة بين أفراد المجتمع المدني، وبالتالي سقوط أعلام الرذيلة فبنى بذلكﷺ جدراً أمنية متينة لكل من يريد مجتمع دولته بشرٍ أو مكيدة.

- إن تلك الإجراءات النبوية والمحاولات الأمنية كفلت وأظهرت قوة كيان المجتمع وتمام بناء الدولة وقدرتها على مواجهة تربص عداءات أعدائها في الخارج.

- أن التطبيقات الأمنية في دولة الإسلام مكّنت لتحقيق الحضارة بإطلاق معطياتها في جوٍ آمن رغدٍ ومستقر؛ فميزت جليل أفضال المولى، عز وجل، وعظيم نعمائه في التسخير والامتنان على عبيده إذ ذاك بأجّل آلاء الدنيا ونعيمها الذي لخصه المصطفى بثلاث: "**من أصبح منكم معافى في جسده، آمناً في سربه، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا**"(١).

- إن تلك السياسة النبوية (الأمنية المجتمعية) أظهرت كمال إيمان الرعيل الأول، والتزام خوفهم من الله البارئ بإقامة أحكام دينه، وتطبيق شرعه وحدوده.

- إن من ثمرات تطبيق الأمن في دولة الإسلام الأولى تحقيق وعد الله وإنجازه ببشرى الاستخلاف في الأرض آنذاك، وهو وعدٌ تام محكمٌ قائمٌ متى تحققت شروطه إلى يوم المعاد: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(٢).

---

(١) البخاري: الأدب المفرد، رقم الحديث (٣٠٠) والترمذي في السنن حديث رقم (٢٣٤٧) و ابن ماجه في السنن، ج ٢، ص ٥٢٥.

(٢) سورة النور، آية (٥٥).

• ثانياً: الأمن العقدي والفكري(١).

الأمن الفكري أحد مكونات الأمن بصفة عامة، بل هو أهمها وأسماها وأساس وجودها واستمرارها، وهو مقتضى الأمن العقدي وسبيله، فهو يدخل في مضمونه ومضمون الحفاظ على الدين الذي هو إحدى الضرورات الخمس، والأمن الفكري في تقدير الشارع هو من أقوى، وأهم أنواع الأمن بعامة فهو لب الأمن وأساسه؛ لأن ركيزة حضارات الأمم، وإبداعاتها تقاس بعقول أبنائها، وببنات أفكارهم وانجازاتهم، وإذا ما كان الأمان والاطمئنان سائدا على المبادئ، والقيم، والمثل، والفكر؛ كان ذلك مدعاة لتحقق الأمن على مختلف أنواعه ومُثله ومعانيه؛ فلذا كان حرص الإسلام على كل ما يغذي العقل بالتفكر والتدبر في ملكوت الخالق وكان التحريم لكل مُسْكر ومفتر، فعالج نبي الرحمة ﷺ ذلك، ولفت إلى أهمية الأمن في الفكر والمعتقد، وامتدت عنايته بسلامة مبدَعات العقل الإنساني ومنتجاته من الانحراف، والضلال، والزيغ وبما يعيق سلامته من المؤثرات الحسية والمعنوية.

فنراه قد حرص ﷺ على التحرر من المعتقدات الوثنية الفاسدة التي اعتقدها العرب منذ جاهليتهم الأولى قبل الإسلام وتوارثوها عن آبائهم، وأجدادهم، وهم يعلمون بطلانها ومع ذلك كانوا يصرون جدلاً وجهلاً على الاعتقاد بها: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾(٢) وكان حرصه عليه السلام، على صفاء هذا النوع من الأمن ؛ تحقيقاً لوحدة الأمة وتوحيدها في المنهج والمبدأ والغاية، وهو المؤمن بأن وجود أي خلل في الأمن العقدي الفكري هو بحد ذاته خلل في الأمن عموماً؛ ولذا حاج ﷺ سيدنا عمرَ، ﷺ، في قرائته نسخة من كتب أهل الكتاب(٣) وغايته إن الفكر لهذه الأمة مستمدٌ من وحي القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وهما مصدرا شريعة الإسلام . وفي ذلك التأكيد على أن الأمن

(١) الأمن الفكري في خلاصة معناه يعني: أمن المعتقدات والعقول والمفاهيم والأفكار.

(٢) سورة الزخرف، آية (٢٣).

(٣) أخرج الدارمي عَنْ جَابِرٍ، ﷺ، عن جابر ﷺ، أن عمر بن الخطاب، رضوان الله عليه، أتى رسول الله ﷺ بنسخة من التوراة، فقال: "يا رسول الله، هذه نسخة من التوراة، فسكت، فجعل يقرأ ووجه رسول الله يتغير، فقال أبو بكر، رحمة الله عليه: ثكلتك الثواكل، ما ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فنظر عمر إلى وجه رسول الله، ﷺ فقال: أعوذ بالله من غضب الله، ومن غضب رسوله ﷺ، رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، فقال رسول الله ﷺ: " والذي نفس محمدٍ بيده، لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم عن سواء السبيل، ولو كان حياً وأدرك نبوتي لاتبعني ". الدارمي: سنن الدارمي، باب ما يُتَّقَى من تفسير حديث النبي ﷺ، حديث رقم (٤٣٧) ص٤٣٥، والحديث عن جابر بن عبدالله.

الفكري غايته استقامة المعتقد، وسلامته من الانحراف، والبعد عن المنهج الحق فيكون المسلم هنالك سليم الفطرة والقلب فطن العقل والفكر.

● ثالثاً: الأمن الثقافي والإعلامي.

وهذا النوع من الأمن ينطلق من معتقد الفكر الذاتي للفرد إلى الأفق الخارجي، فهو عاكسٌ لما فيه ومرآةٌ له؛ ولذا حمى الإسلام الفكر الداخلي لما له من عظيم الأثر في الإعلام والثقافة والرأي، وهو جزء لا يتجزأ عن الأمن الاجتماعي والحضاري؛ ولذا أخذ الإسلام بهذا الجانب صورًا متعددة منها:

– أن الأمن الإعلامي يحمل رسالة وفكراً، فهو يحمل معنى السلام المجتمعي.

– أنه ضرورة أمنية ثقافية، ومسؤولية جماعية.

– أنه يمنح الذات والنفس الروح المعنوية والمادية بكل مقومات الاستقرار والطمأنينة؛ إذ كان على رأس أهداف السياسة الإعلامية التي انتهجها الرسول ﷺ هو بعث الأمل والأمن في النفوس فلقد كان المسلمون قلة مستضعفة، ولم يكن ليقوّي هذه القلة سوى الأمل الذي رسخه في نفوسهم، وقوى به صلتهم بالله تعالى.

والجميل أن الخطاب القرآني تناول مدخل الأمن الثقافي والإعلامي في قضية تبادل الأخبار؛ فوجهه إلى نقاطٍ مهمة تصلح أن تبنى عليها قواعد لنظرية إعلامية شاملة عامة[١] تُساس بمراحل ومنها:

أولاً: التدقيق والتبين من صدق الأخبار لقفل باب الفتن لكونه مصدرًا وباباً لدخول المنافقين بين المؤمنين إذا ترك لهم الأمر بدون ضابط، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾[٢].

وفي صورة ثانية: بالإشارة إلى أخذ الأخبار من مصادرها (الرسول عليه السلام وأولي الأمر باعتبارهم المرجعية) مؤكدًا أهمية مبدأ التحري والعلم قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[٣].

(١) أبو دوم، إقبال: العلاقة بين الدعوة والدولة من خلال سيرة المصطفى ﷺ، مرجع سابق، ص١٢٩.

(٢) سورة الحجرات، آية (٦).

(٣) سورة النساء، آية (٨٣).

وفي الثالثة: نهى عن الجهر بسيئ القول قال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾[١].

وفي الرابعة: حقّر الإشاعة وشنّع الإذاعة بالسوء، وبين العقوبة المترتبة على اقتراف ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢].

وقوله ﷻ: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٣].

وفي الحديث عن ثوبان، ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**لا تؤذوا عباد الله، ولا تعيروهم، ولا تطلبوا عوراتهم، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم، طلب الله عورته، حتى يفضحه في بيته**»[٤].

وفي معرض حياة الدعوة النبوية العامة نجد الرسول ﷺ وظّف المواهب الإعلامية والمهارات الابتكارية لتحقيق أهداف رسالة الأمن الإعلامي؛ وذلك باستعمال الشعر في التعبئة، وفي استثارة الهمم والحث على الإقدام والشجاعة في المعارك عند وقوع النزال بين المسلمين والمشركين.

(١) سورة النساء، آية (١٤٨).

(٢) سورة النور، آية (١٩) والمعنى : " فالذين يحبون في نص الخطاب القرآني وهو اسم موصول يفيد العموم فيكون هذا الصنيع عاماً في كل أحد إلى يوم القيامة ممن أحب أن تشيع الفاحشة وتنتشر، لا خاصٌ بالعصبة من الذين جاؤوا بالإفك سواءٌ أكان هذا شيوعاً باللسان أو الفعال ؛ فهم يحبون أن تشيع وتذيع بالقول وبالفعل بمعنى أن يظهر أمرهم ويتبين ويشاهدوا، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فورود السبب قطعية الدخول لأنه لا يمكن أن نخرجها عن العموم وهو وارد من أجلها فهذا عام بالعصبة وغيرها ؛ ولذا كان عذابهم أليماً ليس القذف الموجب للحد إنما هو التعزير، وإنما هو عقوبة أليمة، وأما عذاب الأخرة فهو عند الله، وفي الآية بيان فضل المولى عز وجل على المؤمنين في حفظ أعراضهم، مع التوعد الشديد في الدنيا والآخرة لمن خاض في إشاعة السوء بين المؤمنين . وانظر العثيمين، مُحَمَّد بن صالح: تفسير القران الكريم _ سلسلة مؤلفات الشيخ العثيمين رقم (١٣٢) سورة النور، مؤسسة الشيخ الخيرية، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، ط١عام ٣٦هـ، القصيم _عنيزة، ص٩٨وص١٠٨.

(٣) سورة الأحزاب، آية (٦٠) والمرجف هو الذي يخبر بما يزلزل طمأنينة المؤمنين من هزيمة أو قتل عدو أو كثرة جنود أو ما أشبه ذلك، وهؤلاء المرجفون جزاؤهم الإغراء بهم، أي بالتسلط عليهم ؛ إما بالتعزير، أو التأديب، أو القتل، أو بغير ذلك ؛ لأن الله يغريهم بهم فيحصل لهم من التعذيب والتعزير والإهانة مالا يتمكنون معه من البقاء في المدينة، ثم يكون لهم اللعن والطرد والإبعاد، والخلاصة أن في الآيات الوعيد الشديد لأهل النفاق ومرضى القلب والمرجفين من المروجين لقبيح القول، وفيه مشروعية إجلائهم لما في إبقائهم من سوء وضرر، وانظر ابن العثيمين، المرجع السابق، سورة الأحزاب، ص٥٠١، ٥٠٢.

(٤) الترمذي: السنن، باب البر والصلة، حديث رقم (٢٠٣٢) والحديث عن ابن عمر، رضي الله تعالى عنه.

وفي مزيد عناية من الأمن بأنواعه نجد باباً آخر يعرض إليه الشارع الكريم وهو حماية الكليات والضرورات الخمس.

● رابعاً: حماية الكليات والضرورات الخمس.

إن النظرة المتأنية للمنظومة القيمية لدالة مفهوم الرفاه الاجتماعي في ظل مجتمع إسلامي آمن، قائمة على الحفاظ على أركان وقواعد رئيسة أجملها العلماء الربانيون في ثلاثة أمور وهي: الضروريات والحاجيات، والتحسينيات، والمكملات. وهي المعبر عنها على التوالي عند الأصوليين بدرء المفاسد بالنسبة للضرورات وجلب المصالح للحاجيات واتباع مكارم الأخلاق في العادات والتعاملات بما يمثل التتمات والتحسينات[(١)].

ومصالح الناس في هذه الحياة تتكون من أمور ضرورية لهم، وأمور حاجية، وأمور تحسينية، والضروريات أو الكليات هي أعلى مراتب مقاصد الشريعة الإسلامية، فهي أصول المصالح العالمية في الدنيا، وتعني درء المفاسد عن خمسة أمور هي مدار المصالح الكبرى في الدين والدنيا[(٢)] فهي حمى الله وحدوده التي لا ينبغي لأحد أن يستبيحها، صح عن المصطفى ﷺ قول: «**أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ**»[(٣)].

بل إن الغرض من سن تشريع الأحكام إنما هو لأجل الحفاظ عليها. يقول الإمام أبو حامد الغزالي: "**إن مقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم، وعقلهم، ونسلهم، وماهم. فكل من يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة. وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة. وتحريم تفويت هذه الأصول الخمسة والزجر عنها يستحيل ألا تشتمل عليها ملة من الملل وشريعة من الشرائع التي أريد بها إصلاح الخلق**"[(٤)].

والضرورات الخمس الأساسية على التوالي هي: حفظ الدين، حفظ النفس أو الحياة، حفظ النسل أو العرض، حفظ العقل، ثم حفظ المال.

---

(١) وللمزيد عن مقاصد الشريعة انظر الشاطبي : الموافقات في أصول الشريعة.

(٢) وانظر الشاطبي: الموافقات، المرجع السابق، مج ١، ص٥.

(٣) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم (٥٢)، ص ١٥٤.

(٤) الغزالي، أبو حامد مُحَمَّد (ت٥٠٥هـ): المستصفى، تحقيق: مُحَمَّد عبد السلام، دار الكتب العلمية الطبعة الأولى عام ١٤١٣هـ، ص١٧٤.

فأما الدين: فيأتي في مقدمة الضرورات وأولها؛ لأنه غاية خلق الجن والإنس، وبه سعادة الدنيا والآخرة؛ فحفظه من أولى الأولويات، بل هو أول الضرورات ترتيباً، حتى على النفس والذات، وضياعه ضياع بقية الضرورات والمقاصد.

والحفاظ على الدين ثابت بالنصوص الشرعية التي تدعو إلى الإيمان وترّغب فيه وتتوعد على الكفر وتنفر منه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[١]، وإنما جاء التحريض على حفظه؛ لأنه ضامن لكل حقوق الإنسان، وعاصم من التيه والضياع في دروب الأهواء، فضلاً عن أهمية الدين في توفير المنظومة الأخلاقية والعقدية وضبط خِلال الناس وترشيد سلوكياتهم في حياتهم وتعاملاتهم وسائر معاشهم؛ لأجل تلك المزية تعددت صور عناية الإسلام للحفاظ على الدين بين أربعة جوانب، وهي أولاً: بالمحافظة على ما يقيم أركانه ويثبت قواعده، وذلك بالعمل به وتطبيقه في سائر شؤون الحياة، والحكم به والدعوة إليه والجهاد من أجله، والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة جداً؛ وما تشريع الجهاد إلا للدفاع عن عقيدة التوحيد، وحماية الدين بالنفس والنفيس تحت ظلال السيوف ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾[٢] حتى لا يكون في الأرض شرك ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٣].

ثانياً: بالنهي عن الردة وترتيب العقوبة والجزاء الرادع عليها قال ﷻ: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[٤]. ويقول المصطفى ﷺ: «**من بدل دينه فاقتلوه**»[٥].

وفي صورة ثالثة نجد الشارع الحكيم، حفاظاً على قدسية الدين وتأكيدًا لحرمته، يأمر باحترام الدين واحترام متبعيه ؛ فنهى عن السب ولو كان المرء على دين الشرك قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٦].

(١) آل عمران الآية (٨٥).

(٢) سورة الفتح، آية (١٦).

(٣) سورة البقرة آية، (١٩٣).

(٤) سورة البقرة، آية (٢١٧).

(٥) البخاري: صحيح البخاري، باب حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم، وفي الجهاد، باب لا يعذب بعذاب الله، ج ١٢، ص ٢٣٨ و ٢٣٩ والحديث من طريق أيوب عن عكرمة عن ابن عباس.

(٦) سورة الأنعام، آية (١٠٨).

وصورة رابعة: نجد النهى في التشريع الإسلامي عن الابتداع في الدين ما ليس في دين الله من شيء، ومما شرع الله منه براء، والإلزام برد كل ما يخالف دين الله من الأقوال والأعمال؛ ففي حديث العرباض بن سارية، رضي الله عنه، قال ﷺ: «**وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»[١] وحديث عائشة، رضي الله عنها، عنها عن النبي ﷺ **قال: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد"**[٢].

وبذا يتبين حرص الإسلام على حفظ الدين، وتعدد وسائله بكل ما يضمن ويكفل ذلك الحفظ معنوياً وحسياً.

وثاني الكليات الخمس أهمية بعد الدين النَّفس أو الحياة[٣]. والنفس كالدين حفظها من الضروريات التي لا يستقيم مجتمعٌ ولا ينتج إنسان إلا بتحققها، فكيف يبني من يخاف على نفسه؟ لذلك فإن الإسلام قد حرَّم أخذ النفس الإنسانية إلا في ثلاث حالات ولأسباب منطقية ومسوغة لأنها تتعلق بأمن المجتمع والأسرة[٤].

وكما تعددت صور حفظ الإسلام للدين كذلك فلقد حفظ الإسلام النفس ابتداءً بخلق الإنسان في أبهى صورة وأجلّ خلقة ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾[٥] ومرورًا بحفظ وجود النوع البشري في الأرض بالزواج والتناسل الشرعي، وفي صورة أخرى نجد الإسلام قد أوجب لحماية النفس تناول ما يقيمها من ضروري الطعام والشراب واللباس والسكن، وأوجب دفع الضرر عنها، أو الاعتداء عليها، فألزم ضرورة إقامة البينة في قتل النفس، وفرض سد الذرائع المؤدية إلى القتل، وأوجب ضمان النفس إما بقصاص أو دية فلا يذهب دم المرء هدراً، بل وأتاح العفو عن القصاص من باب استبقاء نفس القاتل والحرص عليها وكافأ على

---

(١) أبو داود: السنن، رقم الحديث (٤٠٦٧) وللنسائي في سننه ج٣، ص١٨٨.

(٢) البخاري: صحيح البخاري، حديث رقم (٢٦٩٧) ومسلم : صحيح مسلم، حديث رقم (١٧١٨) والحديث عن إبراهيم بن سعيد عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) المقصود بها النفس المعصومة بإسلام، أو أمان، أو جزية، أو عهد.

(٤) جاء في الحديث الشريف "لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمارق من الدين التارك للجماعة" البخاري: صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: {أن النفس بالنفس}، رقم الحديث (٦٨٧٨)، ص٦٤٠٠من حديث عبد الله بن مسعود . ولمسلم في كتاب القسامة، باب ما يباح به دم المسلم، رقم الحديث (١٦٧٦)، من حديث عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه.

(٥) سورة الانفطار، آية (٧، ٨).

ذلك. كذلك حرم الشارع الحكيم كل ما يلقي بالنفس إلى التهلكة، وحرم الانتحار قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾[١] وفي الحديث قال ﷺ: «**من تردّى من جبلٍ فقتل نفسه، فهو في نارِ جهنمَ يتردّى فيها خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن تحسى سمًا فقتل نفسَه، فسمُّه في يدِه يتحساه في نارِ جهنمَ خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن قتل نفسَه بحديدةٍ، فحديدتُه في يدِه يجأُ بها في بطنِه في نارِ جهنمَ خالدًا مخلدًا فيها أبدًا**»[٢] وكذلك منع تحديد النسل، وشرع الرخص لحماية النفس ومنها الترخيص في تناول المحظورات إبقاءً للنفس ضرورةً وحاجة بقدر ما يبقي الحياة.[٣] وكذا رخص الفطر لحالاتٍ خاصة كالسفر والحمل ونحوه يقول ﷺ: «**إن الله وضع عن المسافر نصف الصلاة والصوم، وعن الحبلى والمرضع**»[٤] وفي هذا الجواز منعاً لهلكة النفس والإضرار بها. ومن النفس إلى أحد أهم مكوناتها ألا وهو العقل. **فثالث الكليات الخمس (العقل)** وهو ملاك التكليف، ومناط المسؤولية، وأساس ميزة البشرية على ما سواها من خلائق، وهو أداة التدبر في قدرة الخالق، ووسيلة اكتشاف نواميس وسنن الكون وتسخيرها لعمارة الأرض؛ لذا حفظ الإسلام هذا العقل أولاً: بتحريم كل ما يضره أو يذهبه من مسْكر

---

(١) سورة النساء، الآيتين (٢٩-٣٠).

(٢) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الطب، باب شرب السم والدواء به وبما يخاف منه والخبيث، حديث رقم (٥٤٤٢) والحديث عن أبي هريرة.

(٣)من القرآن﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ سورة البقرة، آية(١٧٣) .

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ سورة الأنعام، آية (١٤٥).

(٤) رواه أبو داود في السنن، رقم الحديث (٢٤١٠) والترمذي في سننه بحديث رقم (٧١٥)، وصححه الألباني في المشكاة برقم (٢٠٢٥).

ومفتّر لا مسوغ له؛ صيانة وحماية له، وحرصاً عليه، قال ﷺ: «**كل مسكر حرام**»(١) وفي آخر: «**ما أسكر كثيره فقليله حرام**»(٢).

ثانياً: بتنميته من خلال التفكر والتعليم والمشاهدة والتأمل مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾(٣).

ثالثاً: لتسخيره بالتفكر والتدبر والإنتاج وتغذيته بالتعلم، والاجتهاد، والاستنباط والمدارسة، وتوجيهه لطلب العلم يقول تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾(٤).

واستكمالاً لعناية الشارع بالضرورات والكليات اقتضت حكمة التشريع الحكيم المحافظة على **العرض والنسب** بأحكم الطرق وأقوم السبل، وذلك بصون العلاقة الفطرية السوية بين الرجل والمرأة بإتاحة الزواج في دائرة التشريع الإسلامي الصحيح؛ إبقاءً للنسل وتوفيراً للسكن وإيجاداً للمحضن الآمن الحسن للأبناء، مع إباحة الطلاق كأبغض الحلال، وإتاحة التعدد بمسوغاته وضوابطه، ومنع الاختلاط ومقدماته الذي يخدش الحياء ويفسد العلاقات؛ وتحقيقاً لذلك أوجب حفظ العرض بتحريم الزنا، وبيّن جزاء مقترفيه، وفرض حد القذف وشدد بالمعاقبة لمرتكبيه؛ حفاظاً على الأعراض والأنساب من الضياع والاختلاط؛ وفي سبيل الحفاظ على الأنساب والأعراض أوجب الشرع العدة على النساء عند المفارقة بالموت أو الطلاق، بل إن من حرصه على العناية بالعرض ليس قطع دابر الشك فقط ابتداءً بالقذف، بل بأدق منه وأعمق، ومن ذلك أن حرّم الإسلام الغيبة للمسلم في عرض أخيه بما ينتقصه ويؤذيه، وشنّع ذلك بأقبح تشنيع، وحقرّ ذلك بأسوأ تشبيه، بل ونهى حتى عن مجرد الهمز واللمز الذي يمثل إشارة سلوكية حركية في أغلب الأحوال دون التلفظ والنطق، ولذا جاء في الحديث الشريف عن سعيد بن زيد، أن النبي ﷺ قال: «**أربى الربا شتم الأعراض**»(٥).

---

(١) البخاري: الصحيح، رقم الحديث (٣٤٤٣) ومسلم في الصحيح، رقم (١٧٣٣) من حديث أبي موسى.

(٢) أبو داود : سنن أبي داود، حديث رقم (٣٦٨١) وابن ماجه : سنن ابن ماجه، حديث رقم (٣٣٩٣).

(٣) سورة الزمر، آية (٩).

(٤) سورة النساء، آية (٨٣).

(٥) الشاشي: أبو سعيد الهيثم بن كليب بن سريج بن معقل الشاشي البِنْكَثي (ت٣٣٥هـ) : مسند الشاشي، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط١، عام ١٤١٠هـ، رقم الحديث (٢١٧)، ص٢٣٠ والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٨٧٢) عن سعيد بن زيد.

وجاء في آخر:«**أربى الربا استطالة المرء في عرض أخيه المسلم**»[١]، ولعل ما يؤيد ذلك قول البارئ جل وعز: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[٢]، وكل ذلك حماية وحصانة للأعراض أن تنتهك أو تهان .

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[٣] .

وكما حفظ الإسلام الضرورات الآنفة اقتضت حكمته، جلّ وعلا، حفظ المال الذي هو عصب الحياة، وهو خامس الكليات؛ وذلك من خلال آلياتٍ إيجابية، فحرّم وأبطل المكاسب الحرام، وسائر الطرائق السلبية، وعالج ما يحفظ المال من حيث مصادر كسبه ووجوه إنفاقه، مصداقاً لقول رسوله الكريم ﷺ:«**لا تزول قدما عبدٍ – أي يوم القيامة – حتى يسأل عن عمره: فيم أفناه؟ وعن علمه: فيم فعل فيه؟ وعن ماله: من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيم أبلاه؟**»[٤].

فأوجب للحفاظ على المال السعي في طلب الرزق، وأباح المعاملات والمبادلات الحلال بين الأفراد في المجتمع، وفي مقابل ذلك حرم الاعتداء على المال، وحرم إضاعته وتبذيره ؛ ففي الحديث الشريف النهي عن قيل وقال، وكثرة السؤال، (**وإضاعة المال**)[٥]. وفي مقابل تحريم الربا والرشوة وإقامة حد السارق والمحارب جوّز التعزير والضمان للمتلفات، والتوثيق للديون والإشهاد عليها، وحفظ الودائع وأداء الأمانات، وتعريف اللُقطة ؛ وما شرعت أحكام اللقطة إلا لأجل المحافظة على المال يقول ﷺ: «**من آوى ضالة فهو ضال ما لم يعرفها**»[٦].

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك، ج٢، ص٣٧ من حديث عمرو بن علي الفلاس، بإسناد مثله، وزاد: " أيسرها أن ينكح الرجل أمه، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم". وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه وصححه الألباني .

(٢) سورة الأحزاب، آية (٥٨).

(٣)سورة الحجرات، آية:(١٢).

(٤) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة والنهي عن منع وهات، وهو الامتناع من أداء حق لزمه أو طلب ما لا يستحقه، ج٣، ص (١٣٤١)، رقم الحديث (٥٩٣) والحديث عن المغيرة عن شعبة .

(٥) جاء عن الشعبي قال: حدثني كاتب المغيرة بن شعبة، قال : كتب معاوية إلى المغيرة، اكتب إلي بشيء سمعته من رسول الله ﷺ فكتب إليه أني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الله كره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال» البخاري : صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يكره من قيل وقال، حديث رقم (١٤٧٧).

(٦) البخاري: صحيح البخاري، رقم الحديث (٦٤٧٣)، ومسلم: صحيح مسلم، باب اللقطة، رقم الحديث (٥٩٣).

وهكذا يمضي الإسلام في جميع هذه الضرورات بين جانبين: جانب الوجود بإيجاد ما يضمن المحافظة عليها وما يقيمها، وبين جانب العدم والمنع لما يضر؛ حماية وحفظاً لتلك الحقوق والضرورات؛ وما كان تشريع حد الحرابة في الإسلام إلا لغاية أمان المقاصد التشريعية والضرورات أن تنتهك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ (١) فمن حادَّ الله في دينه وقتل بغير حق يقتل، وسارق المال تقطع يده، ومن أراع وأخاف وأفسد في الأرض يُنفى منها، وهكذا وبحسب قوة الجرم تكون قوة العقوبة.



(١) سورة المائدة آية (٣٣).

المبحث الثاني: نتائج وآثار سياسة المختار في إدارة دولة الاسلام.

لعل مسك الختام في دراسة موضوع بناء دولة الإسلام الأولى هو الوقوف عند أبرز نتائج سياسة المصطفى عليه السلام في إدارة تلك الدولة، ومن ثَم استقراء آثار تلك النتائج.

وكثيرةٌ هي المعطيات والنتائج الواضح أثرها على مداد التاريخ بما يشهده الواقع؛ ففي ظل تطبيقات السياسة الشرعية والإدارة النبوية الحكيمة التي انتهجها عليه السلام في تأسيس الدولة وبنائها نجد أن أولى هذه النتائج ...

● عالمية[1] الإسلام وتحقيق مبدأ السلام.

من أجّل النتائج وأعظم الآثار لصياغة دولة الإسلام على أرض الواقع ختم الرسالات السماوية برسالة الإسلام العالمية، ومعلومٌ يقيناً أن الله تعالى قد هيأ منذ الوهلة الأولى لدعوة نبيه ﷺ أسباباً تؤكد عالمية الرسالة وعمومها؛ إذ لما بلغت البشرية مرحلة متقدمة من النضج الفكري والاجتماعي، وتفتحت عقولها، وتهيأت نفوسها لاستقبال الرسالة الخاتمة بكل جوانبها الروحية والحياتية، قضت حكمة المولى عز وجل بظهور نبوة خَاتَمة من نوع النبوات السابقة من حيث الطبيعة، مع الاختلاف بسعة المدى والأفق فختمت بها الشرائع وأكمل بها الدين، وما تلك الرسالة إلا تجديد لدعوة التوحيد التي بعث بها سائر الأنبياء والمرسلين، وتعديل للشرائع قبلها، وإكمال لها، وقد تواردت الكثير من نصوص الأدلة النقلية في الكتاب والسنة النبوية[2]،

(١) ولفظ العالمية في اللغة نسبة إلى العَالَم، والعالم يعني الخلق كله، أوما حواه بطن الفلك، الفيروز آبادي: القاموس المحيط، مصدر سابق، مادة (العالم).

(٢) ان المتأمل في نصوص الآيات الكريمات في القرآن الكريم، والمدقق بتراتيب نزولها يلاحظ بأن المولى ﷻ لم يطلب من نبيه ﷺ أن يبلغ دعوته العالم كله، بادئ ذي بدء، بل جاءت الآيات متتابعات تشير بمقتضى الحال إلى عموم الدعوة وعالمية الرسالة للناس أجمعين، فأنزل ﷻ تلك الآيات في بداية نزول الوحي، وبالتحديد في ثاني سورة نزلت عليه ﷺ سورة القلم، وذلك حين تحدث عن القرآن ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ، وذلك كيما يضطلع عليه السلام بالعبء ويعد نفسه له، ثم شفعت الآية الكريمة بآية أخرى أدل على طبيعة عمل الرسول في رابع سورة نزلت من القرآن الكريم، وهي المدثر التي بدأت بالمطالبة بالإنذار والتشمير لما يستتبعه، عليه السلام، من أمر﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ وفي السورة ذاتها التحديد لطبيعة العمل ﴿ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴾ ثم ليعد نفسه لذلك العمل في سورة المزمل ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ ، ثم يؤكد عالمية الدعوة في السورة السابعة ترتيباً ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ والآيات تباعاً سورة القلم آية(٥٢)، سورة المدثر آية (٢) وسورة المدثر آية (٣٦)سورة المزمل آية (٥) وسورة التكوير آية (٢٧).

وكذلك نصوص الكتب السماوية في الأديان السابقة[١] لتأكيد هذا المعنى، في الحين الذي قابلت فيه نصوصٌ أخرى خصوص دعوة الأنبياء والرسل _عليهم السلام _ في أقوامهم[٢].

وعالميّة الإسلام خاصيّة من خصائص الرّسالة المحمّديّة التي تميّزت بها عمّا سبقها من الشّرائع والرّسالات السّماويّة، يدلل على ذلك قول المصطفى ﷺ: «**وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ**»[٣]، وهي سمة من سمات الدين، ودليل آكد على تشريع الله القويم الصالح لكل زمان ومكان.

وعالميّة رسالة الإسلام تعني الشّموليّة والعموم لهذا الدين الحنيف بعيداً عن التخصيص والحصر[٤]، فهو ليس لأهل إقليم دون غيرهم، ولا لأهل زمان دون سواهم، وأن تلك الرسالة جاءت للعالمين كافة جناً وإنساً على اختلاف ألوانهم، وأعراقهم، وأجناسهم، وهذا يعني أنّ خطاب هذه الرّسالة يلزم كلّ من سمع بهذا الدين من الثقلين أن يؤمن به ديناً ورسالة خاتمة ختمت جميع الرّسائل السّماويّة التي سبقتها، وهذا الأساس مطلب يشحذ الهمم، ويشمّر عن ساعد الجد وبذل الجهد لإزالة جميع العوائق النّفسيّة والمادّيّة من أجل تبليغ دعوة الله إلى النّاس جميعاً تحقيقاً لمفهوم العالميّة .

وعالمية الإسلام تعني كذلك شمول منهجه لكل مظاهر الحياة الإنسانية بكافة جوانبها المختلفة؛ وما ذلك إلا لأن ظروفه من أول الأمر أدت إلى ربط الدين بالسياسة، وتوثق الصلة بين منهج التشريع الإسلامي وبين قانون التنظيم الاجتماعي، فأنكر تغيير الفطرة، وتقليد الطبيعة، وتغيير خلق الله. وما لبث أن شكل طابعه المميز على جغرافية الأرض، ومنهجه المتفرد في بناء الإنسان، ومبادئه المتكاملة المتجددة بالتوحيد

(١) من ذلك ما جاء في قول عيسى، عليه السلام، لأتباعه: " إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد، روح الذي لا يستطيع العالم أن يقبله؛ لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه؛ لأنه ماكث معكم ويكون فيكم ..." (يوحنا ١٤: ١٥، ١٨) والمراد بالمعزي هنا مُحَمَّد ﷺ وهذا مصداقاً لقوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ سورة الصف آية (٦).

(٢) قال ﷺ : " .. وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصَّة، وبُعثت إلى الناس كافَّة" البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الصلاة، باب: جُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، ص١٠٥، رقم الحديث (٤٣٨)، من حديث جابر بن عبد الله . وشواهد آيات القران الكريم كثيرة في بعث كل نبي لقومه، انظر سورة الأعراف الآيات (٥٩، ٨٥)، وسورة هود آية (٥٠) وسورة الصف الآيات (٦، ٥).

(٣) ابن حنبل: المسند، ج ٢، ص ٤١١، حديث رقم (٩٣٢٦). مسلم: صحيح مسلم، ج٢، ص ٦٤.

(٤) ولا ريب فالبون شاسع بين كلمة عالمية وعولمة فالعولمة مصطلح معاصر يعني: محاولة صب الأمم كافة على تنوع هُويتها في قالب ثقافي غربي فكري حياتي معين، ومسح هُوياتها الخاصة، وطابعها الشخصي.

والإيمان في تفسير سنن الكون ونظام الحياة؛ وما تحققت عالمية رسالته إلا نتيجةً لذاتيته الخاصة وتفسيره المفرد لشؤن الكون والحياة والمجتمع[١].

ولعل من أسباب عالمية رسالة الإسلام[٢] اتسام الإسلام بالطابع العلمي منذ نزول أول آية على رسول الهدى ﷺ في غار حراء ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ فكانت دعوته آمرة بالعلم، بالثقافة، بالتفكير والتأمل بالبحث المستفيض فيما خُلق في الأرض وفي السماء[٣] دعوة كلية شاملة للكون والإنسان وما قبل الحياة، وما بعدها.

ومن الأسباب لعالمية رسالة الإسلام حاجة البشرية النفسية لمثل هذا الدين؛ فلا عجب أن تأتي شريعة الإسلام ملائمة لفطرة الإنسانية وفطرة الوجود جامعة بين عنصر الثبات، وعنصر المرونة؛ ثباتاً على القيم والأصول، ومرونة في الأدوات والأساليب بحسب متغيرات الزمان والأوضاع.

ومن الأسباب والمنطلقات أيضاً أن هذا الدين قام بمقاصده على أصول عامة توكيدًا للحنيفية الخالصة، معترفاً بجميع الرسل والأنبياء، مرسياً القواعد الأساسية للمجتمع الإنساني السليم بعيدًا عن انحرافات الجاهلية وتقديس مظاهر الوثنية وتبعاتها؛ فلذا كان ديناً عالمياً للإنسانية، اعتمد على معجزته الكبرى والباقية إلى يوم المعاد –كلام الله الخالد– منطلقاً من المعرفة والعلم والتجربة والتأمل. ليس فيه فاصلٌ بين العالمين الروحي والدنيوي، فجمع بين **العقيدة والتشريع والأخلاق** في كلٍ متكامل، ورباطٍ متينٍ منظم يستحيل التجزئة بين أحد عناصره الثلاثة هذه[٤].

---

(١) انظر: الجندي، أنور: عالمية الإسلام، دار المعارف للنشر، كورنيش النيل، القاهرة، (د.ت)، ص٨، ١٠٩.

(٢) ذكر العلماء والمفكرون أن للدين العالمي الصالح لكل زمان ومكان خصائص أربعة وهي: ١- تحقيقه للأمن الذي يكفل وَحْدة الإنسانية، وحماية أفرادها. ٢- قيام شريعته على نَبْذ عصبية الجنس واللون. ٣- ألا يتنافر مع حقائق العلم، ومقتضيات العقل السليم، والفكر القويم ٤ /الثبات والاستقرار، بحيث يكون كاملاً، كلاً لا يتجزّأ، ولا يحتاج إلى تطوير بل إلى اجتهاد، ولا تؤثر فيه الأحداث والتطورات الحضارية، موفيًا بجميع مطالب الإنسان المتنوعة المتجددة في كل ميادين الحياة، عطار. أحمد عبد الغفور: أصلح الأديان للإنسانية (عقيدة وشريعة)، ط ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، مكة المكرّمة، ص٢٠-٢١، وعوض، أحمد عبده: الإسلام والبعث الحضاري، مركز الكتاب للنشر، (د. ت)، ص٣٩.

(٣) محمود، عبد الحليم: القرآن والنبي، دار المعارف، ط٤، القاهرة، (د.ت)، الكتاب الثاني، ص ١٧٩.

(٤) يقول عطار:" إن الدين الذي يصلح للبشرية كلها يجب أن يحوي الشريعة والعقيدة معًا، عقيدة صحيحة سليمة، وشريعة خيِّرة صالحة " عطار: أصلح الأديان للإنسانية، المرجع السابق، ص٢٣، ص١٠٨.

فجاءت شريعته خالدة على الدهر، باقية على مر الزمن، وافية بحاجات الأمة في نظامها العبادي، والفردي، والخُلُقي، والاجتماعي[١].

وعالمية الرسالة الإسلامية صفة ثابتة بالقرائن النصية والبراهين التاريخية، وهي أمرٌ مقرر، موجودةٌ أدلتها في الخطاب الإلهي للبشرية قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾[٢]. ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[٣]﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾[٤].

وكذا في نصوص السنة النبوية، ففي حديث : «**أعطيت خمساً لم يعطهن أحدٌ من الأنبياء قبلي: وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة**»[٥] وقوله ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار**»[٦]. وتأكدت تلك العالمية بمظاهر عده وشواهد تترى ومنها:

– أن ببعثته ﷺ تأكد تمام الشرائع، وتمام بناء أركان الإسلام يقول ﷻ : ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾[٧]، يقول ﷺ: «**مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ، عَلَيْهِمُ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى قَصْرًا فَأَكْمَلَ بِنَاءَهُ وَأَحْسَنَ بُنْيَانَهُ إِلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ فَنَظَرَ النَّاسُ إِلَى الْقَصْرِ فَقَالُوا : مَا أَحْسَنَ بُنْيَانَ هَذَا الْقَصْرِ لَوْ تَمَّتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ ! أَلاَ فَكُنْتُ أَنَا اللَّبِنَةَ، أَلاَ فَكُنْتُ أَنَا اللَّبِنَةَ**»[٨].

(١) سابق، السيد: خصائص الشريعة الإسلامية ومميزاتها، الفتح للإعلام العربي، القاهرة، ط ١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، صفحة المقدمة.

(٢) سورة سبأ آية (٢٨).

(٣) سورة الأنبياء آية (١٠٧).

(٤) سورة الأعراف، آية (١٥٨).

(٥) البخاري: صحيح البخاري، ج١، ص١٢٨، حديث رقم (٣٢٨) ومسلم: صحيح مسلم، ج١، ص٣٧٠، ٣٧١، رقم الحديث (٥٢١).

(٦) مسلم: صحيح مسلم، ج١، ص١٣٤، حديث رقم (١٥٣).

(٧) سورة التوبة، آية (٣٣)، وفي سورة الصف، آية (٩)، وفي الفتح ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ .... وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ سورة الفتح، آية (٢٨).

(٨) ابن حنبل: مسند أحمد، ج٢، ص٤١١ رقم الحديث (٩٣٢٦) ومسلم: صحيح مسلم، ج٢، ص٦٤.

– إخبار النبي ﷺ في بعض نصوص السنة النبوية المطهرة لما يشير إلى عالمية هذا الدين، من ذلك قوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ، فَرَأَيْت مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، فَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ: الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ**»(١). وفيهما رمزٌ لملك كسرى وملك قيصر، وحديثُ تميمٍ الداري: «**لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلاَ يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ، إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ، أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الإِسْلاَمَ، وَذُلاًّ يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ**»(٢)، والأحاديث في هذا الجانبِ كثيرة.

– صلاة المصطفى ﷺ بالأنبياء إماماً في صلاة جامعة ببيت المقدس ليلة إسرائه؛ وبذلك تأكدت وحدة الرسالات السماوية.

– شواهد السيرة النبوية، ومن ذلك حديث هرقل مع أبي سفيان واستفساره عن خروج نبي آخر الزمان، وشاهد الحديث: «فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين»(٣).

– **مما** يؤكد –أيضًا– عموم الإسلام وعالمية رسالته أنَّ الله تعالى دعا المسلمين لإعلان الوَحْدة الكبرى للدين من لدن أبي الأنبياء إبراهيم، عليه السلام، إلى عيسى عليه السلام، وإلى دعوة الإسلام الأخيرة، فدعا أهل الكتاب إلى الإيمان بهذا الدين الواحد: قال ﷻ : ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾(٤) وقوله ﷻ: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾(٥).

– التطبيق العملي لمبدأ العالمية من لدنه ﷺ، وجهوده (نحو عالمية التبليغ)، ثم ما قام به والمسلمون معه من تحمل عبء الجهاد في سبيل الله ﷻ لتبليغ دعوة الإسلام.

(١) ابن حنبل :مسند أحمد، ج٥، ص٢٧٨، رقم الحديث (٢٢٧٥٢) عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ، ولمسلم : صحيح مسلم، ج٤ ص ٢٢١٥، حديث رقم (٢٨٨٩).

(٢) ابن حنبل: مسند أحمد، ج٤، ص١٠٣ رقم الحديث (١٧٠٨٢)، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ج١، ص ٧.

(٣) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، رقم الحديث (٤٧٠٧) يؤيد ذلك قوله ﷺ : " تغزون جزيرة العرب، فيفتحها الله، ثم تغزون فارس، فيفتحها الله، ثم تغزون الروم، فيفتحها الله، ثم تغزون الدجال، فيفتحه الله " أخرجه مسلم : صحيح مسلم، ج٤، ص٢٢٢٥، حديث رقم (٢٩٠٠).

(٤) سورة البقرة: آية (١٣٦).

(٥) سورة المائدة، آية (٤٨) .

- الوفود إلى الرسول ﷺ في المدينة، قال ابن إسحاق:"**لما افتتح رسول الله ﷺ مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه**"[١].

- إرسال الكتب والرسل إلى من كان يعاصره من الملوك، والأمراء، والقادة، والزعماء، واتضحت معالم هذه الوسيلة الأخيرة بعد هدنة الحديبية عام (٦هـ)، فكانت الرسائل والكتب واضحة الدلالة على تطبيق رسول الله ﷺ عملياً لما تردد في القرآن الكريم من دعوة الناس جميعاً لاعتناق الإسلام[٢].

- أدلة نصوص الكتب السماوية السابقة أكدت عالمية الإسلام وعموم رسالته وختمها للرسالات السابقة، بل وتظاهر تلك الرسالات على دعوة أتباعها إلى الإيمان بالنبي ﷺ إن ظهر، ومن ذلك: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾[٣] وفي خطاب النبي ﷺ للفاروق عمر، ﷺ «**لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي**»[٤] ولأحمد «**والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم**»[٥].

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص٢٠٣.

ومن بين تلك الوفود نصارى العرب، وما حدث من وفد نجران ومجادلتهم الرسول ﷺ حول المسيح، عليه السلام، ونزول آيات المباهلة، والشاهد اعترافهم بنبوة مُحَمَّد ﷺ، وقبولهم دفع الجزية، وقول صاحب الرأي فيهم:" والله يا معشر النصارى، لقد عرفتم أن مُحَمَّداً لنبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم .. فإن كنتم أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فواعدوا الرجل، وانصرفوا إلى بلادكم " ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٣٦٨. وللمزيد انظر ابن قيم الجوزية: زاد المعاد، ج٣، ٦٣٠، ٦٣٦.

(٢) وقد أفرد المطلب الثالث من الفصل الأول في الباب الثاني لما يتعلق بالسفارات النبوية ومكاتبة الملوك والأمراء للدعوة إلى الإسلام، والحق ما شهدت به الأعداء؛ ففي هذا الصدد يؤكد توماس أرنولد أن للعالم أجمع نصيباً في رسالة الإسلام، وأن الصورة العملية لهذا البُعد تمثلت في الكتب التي بعث بها مُحَمَّد - ﷺ - إلى عظماء ملوك ذلك العصر، والتي تدل دلالة أكثر وضوحاً وأشد صراحة على ما تردد ذكره في القرآن من مطالبة الناس جميعاً بقبول الإسلام . أرنولد، توماس: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وزميله، مكتبة النهضة المصرية، عام ١٩٤٧م، ص٣٤.

(٣) سورة البقرة، آية (٤١) وفي خطاب أهل الكتاب في سورة المائدة الآيات (١٥-١٦) ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ .

(٤) أحمد بن حنبل : مسند أحمد بن حنبل، ج٣، ص٣٨٧، رقم الحديث (١٥٣٣٧) من طريق مجالد عن الشعبي عن جابر بن عبد الله .

(٥) ابن حنبل: مسند الامام أحمد، ج٣، ص٤٧١، حديث رقم (١٥٤٣٧).

وفي أمثلة ما يؤكد خصوص دعوة الرسل السابقين بزمانها ومكانها جاء في الكتاب إنجيل (**متَّى**) على لسان يسوع، عليه السلام، قال: "**ولم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة**"[١].

- أخذ الميثاق الإلهي على جميع الأنبياء والرسل وعلى أتباعهم على الإيمان بمحمد ﷺ ومناصرته، وأن يأمر بعضهم بعضاً بذلك، وقد أقروا بذلك، وأشهدهم عليه، وأكد شهادتهم بشهادته ﷻ : ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[٢] قال علي بن أبي طالب، وابن عمه ابن عباس، رضي الله عنهما: "**ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله مُحَّداً وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه**"[٣]، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث مُحَّداً وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه، في مقابل إيمان متبعي الرسالة المحمدية بجميع الرسل والأنبياء: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[٤]، وبذلك تتحقق عالمية الرسالة الإسلامية .

- دخول أصحاب الديانات القديمة في الإسلام وانتماؤهم إليه عن رضا واقتناع مثل نجاشي الحبشة، وعبد الله بن سلام، وكعبُ الأحبار، وغيرهم، مع يقينهم بأن شرائع أقوامهم كانت خاصة مؤقتةً بزمنٍ محدود، فلما انتهى زمنها، وجاءت رسالة الإسلام الخالدة وجب عليهم اتباعها[٥].

- شهادة بحيرى حين رآه ﷺ بقوله: "**هذا سيِّد العالمين! هذا رسول ربُّ العالمين! هذا يبعثه الله رحمة للعالمين**"[٦].

---

(١) متَّى (١٥: ٢٤).

(٢) سورة ال عمران، آية (٨١).

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٣٧٨.

(٤) سورة ال عمران، (٨٤).

(٥) ذكر ابن تيمية عدة أدلة تثبت عموم الإسلام وعالميته، وهي: ١- إسلام النجاشي، ونصارى العرب. ٢- إرسال الرُّسُل إلى جميع الطوائف الموجودة في عهده ٣- قتاله ﷺ النَّصارى ٤- إرسال الكتب والرُّسُل إلى ملوك الفرس ٥- ضَرْبُه الجزية على المجوس، انظر: الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، جـ٢، تحقيق: علي حسن ناصر وآخرين، ط٢، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، دار العاصمة — الرياض، ص٢٤٧ و ص ٣٢٨.

(٦) الصالحي، مُحَّد يوسف، ت ٩٤٢هـ: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق مُحَّد عبد الواحد وآخرين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧م، ج ٢، ص١٤٠، والحديث في الترمذي : سنن الترمذي، كتاب المناقب، ج٥، ص٥٥١، حديث رقم (٣٦٢٠).

– انتشار لغة القرآن الكريم مع امتداد الفتوحات الإسلامية؛ وما ذلك الانتشار إلا بناءً على مبدأ عالمية الدعوة(١).

– اتباع عيسى عليه السلام لدعوة مُحَمَّد ﷺ عند نزوله آخر الزمان، فعن جابر – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة» قال: «فينزل عيسى بن مريم، فيقول أميرهم: تعال صل لنا فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة**»(٢).

– انتشار الإسلام بين غالبية شعوب الأرض مما يدل دلالة واضحة على أن دين الإسلام هو الرسالة العامة على أهل سائر الديانات. وواقع الحال يؤكد ذلك فاليهود يضنون بدعوتهم ويفتخرون بكون رسالتهم خاصة ويدّعون أنهم شعب الله المختار، وأما المسيح فنصوص أناجيلهم تؤكدُ محلية دعوتهم، وإن هم سعوا لنشرها. ثم ما امتاز به الإسلام من بساطة وشمول واستجابة للفطرة الإنسانية، فضلاً عن إدراك الداخلين فيه لحقيقة نظرة الإسلام إلى الناس، وهو ميزان التفضيل على أساس التقوى.

– شهادة المنصفين من المستشرقين لعالمية رسالة الإسلام وعظمة هذا الدين يقول هوبير ديشان : **"إن ما يتمتع به الإسلام من قوة دعوية ذاتية أهلته لأن يكون رسالة للعالم بأسره، فانتشار دعوة الإسلام في أغلب الظروف لم تقم على القهر، وإنما قامت على الإقناع الذي كان يقوم به دعاة متفرقون لا يملكون حولاً وطولاً إلا إيمانهم العميق بربهم، وكثيراً ما انتشر الإسلام بالتسرب السلمي البطيء من قوم إلى قوم، وقد يسَّر انتشارَ الإسلام أمر آخر هو أنه دين فطرة بطبيعته، سَهل التناول، لا لبس ولا تعقيد في مبادئه، سهل التكييف والتطبيق في مختلف الظروف"**(٣).

---

(١) جاء في تفسير آية ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [سورة إبراهيم، آية ٤] أن الله تعالى أرسل نبيه ﷺ بلسان قومه، وإن كان رسولاً إلى الناس كافة ؛ لأن قومه هم الذين سيحملون رسالته إلى البشر كافة، وعمره ﷺ محدود، فكان عليه أنه يدعو قومه أولاً حتى تخلص جزيرة العرب للإسلام، ومن ثم تكون مهدًا يخرج منه حملة رسالته إلى سائر بقاع الأرض. قطب، سيد: في ظلال القران، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ، ج٤، ص٢٠٨٧.

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإيمَانِ، بَاب نُزُولِ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ حَاكِمًا بِشَرِيعَةِ الله، والحديث لجابر بن عبد الله، رقم الحديث (٢٢٩)، ص١٥٩، والمعنى أي : لا أصير إماماً لكم ؛ لئلا يتوهم بإمامتي لكم نسخ دينكم .

(٣) الزيادي، مُحَمَّد فتح الله: ظاهرة انتشار الإسلام، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس، عام ١٩٨٣م، ص ٢٢٢. وهوبير: كاتب فرنسي وحاكم للمستعمرات الفرنسية بإفريقية حتى عام ١٩٥٠ م.

ويقول هنري دي كاستري: "**فالانتشار العظيم للإسلام، كديانة عامة، يرجع بالأساس إلى مواهب التأثير التي أودعت في القرآن الكريم؛ إننا لا نعلم للإسلام (مجمعاً دينياً) ولا رسلاً ولا أحباراً وراء الجيوش ولا رهبنة بعد الفتح، فلم يُكره أحد عليه بالسيف، ولا باللسان، بل دخل القلوب عن شوق واختيار، وكان نتيجة ما أودع في القرآن من مواهب التأثير والأخذ بالألباب**"(١).

وخلاصة القول: إنّ عالمية الرسالة الإسلامية للإنسانية جمعاء تنطلق وفق منهج الله الخالق، الذي ارتضاها ختاماً لكل الشرائع قبلها فبها اكتملت جميع خطوط الدعوة ومراحل الرسالة، فكانت الرسالة الكاملة الوافية لحاجات البشر إلى يوم القيامة، والتي أدركت بمعجزتها الكبرى نبوغ نضج البشرية العقلي والفكري، وغايتها بناء الحضارة، وتحقيق مقصود الشرع في الخلق، وتمكين استخلاف العباد في الأرض.

وما ختم النبوة في معناه إلا عالمية الحضارة الإسلامية، وتكامل ثقافتها؛ فهي الظهور الحضاري الحق للدين الحق.

ومن منطلق عالمية رسالة الإسلام مبدأ جليل هو قاعدة الإسلام وسمته التي رسمت اسمه ألا هو مبدأ السلام.

ونقول: إن قضية السلام في شريعة الإسلام أشمل القضايا التي لا يمكن أن تُطرق خارج الوحدة الكلية لمفهوم الإسلام، وهي قضية تمتد من مفهوم اسم الدين الإسلامي إلى أدنى شعب الإيمان (**إماطة الأذى عن الطريق**)، ترسيخاً لمفهوم ثقافة سلامٍ شاملة حيث إن ثقافة السلام في الإسلام لا تقتصر على السلامة من العدوان وعدم الأمان على الممتلكات والمعتقدات، ولا بهضم الحقوق والقيم بل تتعداه إلى سلام عام حتى مع أدق جزئيات الكون.

والملاحظ أن مدخل ارتباط الإسلام بمفهوم السلام منطلقٌ من كون السلام اسماً من أسماء الله الحسنى فالرب تعالى هو السلام، وليس ثَمة تعظيم للسلام أكبر من أن سمَّى به المولى ذاتَه سبحانه ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾(٢) واشتق له اسماً لدينه الخاتم(٣)﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾(٤)، وسمى به

(١) دي كاستري، هنري: الإسلام خواطر وسوانح، مكتبة النافذة، عام ٢٠٠٨م، ص ٧٥.

(٢) سورة الحشر، آية (٢٣).

(٣) السلام والإسلام يرجعان إلى أصل واحد، ويشتركان في كثير من الدلالات والاشتقاقات اللغوية بما فيها من سعة وامتداد وعمق. وعموماً لقد اتخذ الإسلام من التدابير ما يكفل أن يكون السلام جوهر الإسلام، وظلَه وأساسَ معتقده، وأهم مبادئه، وركائزه العقدية، وقيمه الأخلاقية والتشريعية الكبرى. السعدي، إسحاق بن عبد الله: السلام وموقف الإسلام منه، مقال علمي، تاريخ الإضافة في ٢١ سبتمبر ٢٠١٦م.

(٤) سورة المائدة، آية (٣).

أتباع هذا الدين ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[١] واتَّخذه شعارًا لأهله فهو تحية المسلم التي يرددها في سائر يومه، ويرددها في شعيرة الصلاة جنباً إلى جنب مع ذكر الله ورسوله؛ وما ذاك إلا ترسيخ لمبدأ السلام في النفوس، وتعميق لمعناه في الأذهان، وحث على انتهاج طريقه في الحياة.

يكون الإسلام سِلماً وقد اشتق من اسمه، يكون الإسلام سِلماً وسلاماً وقد دعا إلى سلام الذات ومصالحة النفس والسلام مع الآخرين، ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾[٢]، وليس ثَمَّةَ دليل على أَولوية السلام بين القيم الإنسانية التي أرساها الإسلام من أن يأمر به ﷻ فيقول في محكم التنزيل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[٣] ولقد ضرب نبي الهدى عليه السلام أروع المثل في سلام الإسلام فهو الذي بيّن أن الإسلام في ذاته وطبيعته سلمٌ وأمان، وقرر ذلك في كتابه لهرقل بأن أكد أن ثمرة الدخول في الإسلام سلام "**فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم . أسلم يؤتك الله أجرك مرتين**"[٤]. وهو شعارٌ تردد في سائر مكاتباته ورسائله ﷺ «**السلام على من اتبع الهدى**» بل وما كان أساس دولته إلا قائماً على السلام والأمن والاطمئنان؛ فأقر السلام بين ساكني المدينة، وعم الأمن في حدود أطرافها، ولا أدل على حرص النبي، عليه السلام، لتطبيق صور إقامة السلام في دولة الإسلام، من صلح الحديبية، و فتح مكة الذي فتح باب الأمان واسعاً لأهل مكة، بل وفي إعلانه للأمر بالسلام الاجتماعي في مشهد عظيم صورته بنود خطبة حجة الوداع، وكثيرة هي تطبيقات المصطفى ﷺ في هذا الجانب. ونختم بموقف سياسي عصيب من شواهد السيرة يؤكد فيه ﷺ سلامة هذا الدين فيمنع حتى مجرد ما يثير الشك نحوه؛ سدًا للذرائع وإقراراً للأمن حتى في أحلك المواقف فيعلنها ﷺ «**لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**»[٥].

(١) سورة الحج، آية (٧٨).

(٢) سورة الأنفال، آية (٦١).

(٣) سورة الحجرات، آية (١٠).

(٤) العسقلاني، ابن حجر: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب ٧، دار الريان، عام ١٩٨٧م، ج١، ص ٤٣.

(٥) فمع علم الرسول الأعظم ﷺ بأقوام من المنافقين بأعيانهم إلا أنه كف عن قتلهم لئلا يتحدث الناس أن مُحَّداً يقتل أصحابه، وعلة ذلك التنفير عن الإسلام، والإسلام مازال في بداية الدعوة إليه، ثم إن المنافقين يستترون فلا يعرفون إلا في لحن القول، أو بوحي أوحاه الله تعالى إلى رسوله ﷺ، والحديث أخرجه البخاري في صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة المنافقين، باب قوله : يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، رقم الحديث (٤٦٢٤) ص ١٨٦٣، ولمسلم : من كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج، رقم الحديث (١٠٦٣)، من حديث جابر ﷺ.

• تأصيل مفهوم الأمة المسلمة.

تعدد مفهوم لفظ كلمة " **أمّة** " في لغة العرب على معاني متداخلة بدءًا من الجماعة المتميزة بخصائص، أو الفئة الكبيرة من الناس، أو الدين والملة[١] _التي تُقصد وتُؤم _ إلى معنى القامة والإمامة والقدوة، وفي القرآن الكريم وردت لفظة (**أمة**) على معانٍ متنوعة فمنها ما كان للدلالة على الصلاح والجمع لخصال الخير، ومنها ما ورد ليعني (**السنة والطريقة**)، قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[٢] وتعني منهاج حياة، وما يتضمنه هذا المنهاج من معتقدات وقيم وممارسات وتقاليد، وجاءت أيضاً لتعني الرجل الموحد لله، وذلك في مثل الحكاية عن نبي الله إبراهيم، عليه السلام، وكذلك وردت بمعنى الأمد والحين و الجيل و بمعنى الجنس من كل حي إلى غيرها من معانٍ متعددة مما ذكر في كتاب الله ﷻ[٣] أو مما جاء على لسان العرب و ما ورد شرحه في قواميس اللغة . بيد أن ما يهمنا هنا هو التأصيل لمضمون لفظ أمة الإسلام، وخصيصة هذا المعنى اللغوي ودقة محتواه وما عناه ﷺ في قوله: «**أمة واحدة من دون الناس**» وقد تقدم الإجمال يسيراً عن توضيح معنى الأمة السياسية وما تقضية من تبعية اليهود لأمة الإسلام في التلخيص لأسس صحيفة المدينة، وما نضيف هنا تأكيدًا وتأصيلاً هو:

– أن الأمة المسلمة تكوين عقدي، ومفهوم رسالي عالمي.

– أن عالمية الرسالة الإسلامية رسمت للأمة دائرة تتسع فتشمل الإنسانية كلها.

– أن هذا المصطلح الأمة المسلمة (أمة الإسلام) ولد بميلاد الرسالة الإسلامية الخاتمة؛ إذ يدل وروده في القرآن الكريم على إنسانية الرسالة، فرسالة الإسلام الخاتمة هي النموذج الأمثل الذي يأتم به الناس؛ والمتمعن في

---

(١) الطبري: جامع البيان، ج٢٥، ص٦٠–٦١.

(٢) سورة الزخرف، آية (٢٢).

(٣) وردت كلمة (أمة) في القرآن الكريم في أربع وستين آية من آيات القرآن الكريم، وكانت كلها ذات دلالة واحدة إلا في أربعة مواضع، وفيما عدا ذلك جاءت للدلالة على مطلق الجماعة إذا تميزت عن غيرها، أياً كان مضمون المميز. و في استعمالات القرآن الكريم الأربعة جاء الاستعمال الأول للأمَّة في الإشارة إلى البرهة من الزمن والحين والأمد كما في قوله تعالى :" ولئن أخَّرنا عنهم العذابَ إلى أمَّةٍ معدودةٍ " سورة هود الآية(٨) الثاني : استعمالها في : الجماعة من النَّاس، وهو الاستعمال الغالب قال تعالى :" ولكلِّ أمَّة رسول " سورة يونس الآية(٤٧)، وقوله "كان النَّاس أمَّةً واحدةً " سورة البقرة الآية(٢١٣)، إلى غير ذلك من الآيات، الثالث : استعمال " الأمَّة " في : الرجل المقْتدى به، كقوله تعالى " إن إبراهيم كان أمَّة" "الرابع : استعمال " الأمَّة " في : الشريعة والطريقة، قال عز وجل:" إن هذه أمَّتكم أمَّة واحدة " سورة الأنبياء آية (٩٢)، ونحوها من الآيات، وانظر مُحَمَّد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان، مصدر سابق، ج ٣، ص ١٣ .

آيات كتاب الباري، عز وجل، يجد أن القرآن الكريم أطلق على النواة الصغيرة في المجتمع (المسلم الجديد) الناشئ في مكة لفظ أمة مسلمة حتى قبل الهجرة[١]؛ إذ بعدها كانت الأمة في المجتمع المدني الجديد قد أخذت صورتها الواضحة في أبرز مكوناتها الأربعة عن مفهوم الأمة، وهي :الهجرة، والجهاد، والإيواء، والنصرة[٢].

– أن حقيقة المعنى الاصطلاحي المتكامل للأمة المسلمة يتضمن عناصر مهمة، وهي العنصر البشري، والعنصر الفكري، والاجتماعي، وآخرها العنصر الزمني ولعل العنصر الرئيس في مفهوم الأمة (المسلمة) هو عنصر الرسالة تلك التي تقدم الخير للبشرية جميعها؛ ولذا أشير في القرآن الكريم إلى أمة الرسالة بالخيرية ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[٣] فأمة الإسلام مجموعة من الناس تحمل رسالة حضارية نافعة للإنسانية، وتعيش طبقاً لمبادئ هذه الرسالة؛ ولذا كان الفاروق عمر، ﷺ، حريصاً على تأكيد هذا الفهم، وذلك التصور عن الأمة المسلمة حين قال في شرح الآية المذكورة: "**لوشاء الله لقال (أنتم)، فكنا كلنا، ولكن قال: (كنتم) في خاصته من أصحاب رسول الله ﷺ ومن صنع مثل صنيعهم، كانوا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**" وفي حجة حجها، قرأ هذه الآية ثم قال: "**يا أيها الناس، من سرّه أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله فيها**" وفي أخرى قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، " **تكون لأولنا ولا تكون لآخرنا**"[٤].

– أن استمرار الأمة في الحياة مرهونٌ باستمرار حملها للرسالة، وما يتفرع عنها من تطبيقات في مجالات الحياة المختلفة التي ربى النبي، عليه السلام، أمة عصره. فإذا ضعفت عن حمل هذه الرسالة أو توقفت فاعليتها أو تقلصت تطبيقاتها، انتهى وجودها، وحل محلها أمة أخرى لا علاقة لها بسابقتها، وإن ربطتها بها روابط الدم والأرض واللغة والثقافة. وهذا ما فعله كبار الصحابة – الذين عايشوا بدء الرسالة وتطبيقاتها كما جاء عن الفاروق، ﷺ، في آيات آل عمران[٥].

---

(١) جاء في تفسير ابن عباس : "كنتم خير أمة" هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة، انظر: الطبري، التفسير، ج٤، ص٤٣-٤٤.

(٢) الكيلاني، ماجد عرسان : الأمة المسلمة مفهومها مقوماتها، إخراجها، مؤسسة الريان للنشر والتوزيع، لبنان، ط٢ عام ٢٠٠٠م .

(٣) سورة آل عمران، آية (١١٠).

(٤) الطبري، تفسير الطبري جامع البيان، سورة آل عمران آية ١١٠ ج٤، ص٤٣-٤٤، والحديث رواه ابن أبي حاتم، والطبري من طريق السدي.

(٥) آية سورة آل عمران: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ...... ﴾ (١١٠).

- أن مفهوم الأمة المسلمة ما كان ليرتبط بالتطور الجغرافي ولا بالروابط الدموية أو الإقليمية، روابط الدم والأرض واللغة والثقافة، ولم يرتبط بفرد أو فئة وجماعة أو جيل، وإنما هي الإنسانية كلها، ما دامت تحمل رسالة، ويوحدها فقه شامل لهذه الرسالات، وتطبيقات فاعلة تنتج عنها نظمٌ وتطبيقات حضارية في ميادين الحياة المختلفة[١].

- أن أصل مفهوم الأمة هو تزكية أعضائها الجدد من قيم العصبية القبلية؛ وتنظيم علاقاتهم طبقاً لقيم التقوى الملائمة لطور العالمية الجديد، ولعل هذه كانت من أجّل العناصر الرئيسة في منهاج الرسول ﷺ التي ارتكز عليها لتأسيس أمة مسلمة، ومضى بها إلى أن لخّص جهاده ضد جاهلية قريش في خطبة الفتح فقال: **"يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا، فَالنَّاسُ رَجُلَانِ: بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ"**[٢]. فأزال كل المعاني والمسميات وكل ماله صلة بعادات الجاهلية آخذاً بالأمة الجديدة المسلمة نحو الترابط على أساس العقيدة والتقوى، لا للقبيلة والقربى، بل وسما بها وتجاوز إلى حدٍ جديد (**سياسي واجتماعي**) يشمل من تبعهم، ولحق بهم، وجاهد معهم فهم أمة واحدة من دون الناس؛ وبذلك يكون قد اتسع مدلول الأمة العام في المفهوم النبوي إلى أبعد من مفهوم الملة أو الجماعة الدينية -أتباع الديانة الواحدة- فيكون مفهوم الأمة صيغةً وسطاً، أو صيغة ثالثة بين الجماعة الواحدة التي تعتنق ديناً واحداً وبين الجماعة التي أرسل الله إليها رسولاً آمنوا به أم لم يؤمنوا[٣].

● وضع الأسس والمبادئ للنظم الإسلامية.

إن حاجة البشرية إلى نظمٍ حضارية تقيم أودها، وتقيّم معوجّها، وتصحح مسيرها في هذه الحياة لا تقل أهمية عن حاجتها لما يقيْم حياتها ويقيّم ذاتها، فكيف بهذه النظم التي هي لب الحضارة، بل أساس الحياة، ولاسيما إذا كانت من عند الله ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[٤]، ولقد كانت تلك الأسس والمبادئ للنظم الإسلامية من آثار نتائج سياسة المختار في إدارة دولة الإسلام، ومثلت مع مالها من آثار، خصيصة

(١) وانظر الكيلاني، ماجد عرسان: أهداف التربية الإسلامية، دار القلم، دبي عام ٢٠٠٥، ط١، ص١٨٣.

(٢) الترمذي: سنن الترمذي، حديث رقم (٣٢٧٠)، والحديث صحيح عن ابن عمر، وانظر الألباني : سلسلة الأحاديث الصحيحة، ص٢٧٠٠.

(٣) السيد، رضوان: الأمة والجماعة والسلطة، بيروت عام ١٩٨٤م، ص٥٤.

(٤) سورة الملك، آية (١٤).

ميزت الدولة الإسلامية، عن سابقيها من الأمم والشعوب. فتلك النظم الإسلامية انفردت بميزة لم تتحقق لتشريع آخرٍ قبله ولا حتى التشريعات التالية بعده، فهي نظامٌ تشريعي متكامل للدولة الإسلامية، ومنهجٌ رباني لم يتأثر بالتشريعات الوضعية السابقة له، واكتملت ميزته بملائمته لحاجات الفرد ومتطلبات الأمم والمجتمع والإنسانية في كل مكان وزمان، فكانت نُظماً إلهية حققت الانسجام مع حركة الكون والتاريخ والحياة؛ فاقتضى تكاملها سائر الجوانب الحياتية، فكان هو الدين الوسط للأمة الوسط.

ولما كانت تلك النظم بأبعادها كافة تغطي جوانب الحياة بعامة : الاجتماعية، والسياسة، الاقتصادية، والقضائية[(١)]؛ كانت خصائصها وسماتها متمايزة قويةٌ ثابتة محكمة، فهي من الأساسيات اللازمة لبناء الدولة ولتكوين الشخصية المسلمة بما تضمنته من أهدافٍ سامية تنطلق من رسالة الإسلام وعظمته.

والمتتبع للنظم في الإسلام يجد أن الإسلام حقق تنشئة نظام تشريعي متكامل ومتفرد للدولة الإسلامية لم يتأثر بالتشريعات الوضعية السابقة عنه، واختصه بميزة الشمولية والتكامل، والتجانس، والمرونة، والتوازن والوسطية، وإقامة الجزاء والعقوبة لمستحقيها، مضافاً إلى ذلك خلو هذه النظم الإسلامية من الانحرافات الشرعية، وبُعدها عن مخالفات الفطرة السوية والطبيعة البشرية على مستوى الفرد والمجتمع.

والإسلام، بلا شك، وضع، بادئ ذي بدء، نظاماً شاملاً للحياة الاجتماعية، فهو أصلحُ نظام يقوم عليه المجتمعُ؛ فطبيعة المجتمعات البشرية، منذ القدم، قامت على أساس العِرْق والعصبية، بينما تقرر في نظر الإسلام أنَّ أصل البشر واحد؛ قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾[(٢)] وفي الحديث الشريف عنه ﷺ: «**إن الله قد أذهب عنكم عُبيَّةَ الجاهلية وفخرَها بالآباء؛ مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب، لِيدَعنَّ رجالٌ فخرَهم بأقوام، إنَّما هم فحمٌ من فحم جهنم، أو ليكونُنَّ أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن**»[(٣)].كما أراد المولى، عز وجل، أن تكون أسس الحياة الاجتماعية هي العقيدة والإيمان بالله تعالى، ومن ثم إقامة العلاقةِ بين الناس على مبدأ الأُخُوة فيه، وميزان التفاضل والكرامة بين الناس تقواه.

---

(١) وللمزيد عن النظم الإسلامية انظر: حسن إبراهيم حسن، وعلي إبراهيم حسن. النظم الإسلامية. مكتبة النهضة المصرية، وأنور الرفاعي. الإسلام في حضارته ونظمه الإدارية والسياسية والأدبية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والفنية. دار الفكر بدمشق.

(٢) سورة النساء، آية (١).

(٣) أبو داود: سنن أبي داود، باب في التفاخر بالأحساب، حديث رقم (٤٤٥٥)، ص ٥١١٦، والحديث عن أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر.

ومن فرائد وروائع النظام الاجتماعي من منظور إسلامي، مراعاة كل ما يتعلق بالفرد أولاً، والأسرة ثانياً، ومن ثَم الجماعة والأمة. إذ وضع الإسلام أسس المعاملة بين تلك الجزيئات في الحقوق والواجبات؛ فراعى الفروق الفردية من خلال ضبط العلاقة بين المسلمين أفراداً وأسراً، مجتمعاتٍ وجماعات، أحراراً ورقيقاً، وعني بالتأليف بين مختلف التوجهات ووظفها لتصب في بناء واحدٍ جامع يقوم على أسسٍ ثابتة من العدل والتضامن والتراحم، وله مرجعيته الثابتة، وهي الإيمان بالله عز وجل؛ وما جاءت الآيات في القرآن الكريم إلا لترسم المنهج السلوكي الذي يحفظ للفرد وللمجتمع الإسلامي تماسكه وتراحمه.

وأما من حيث المواد المالية فقد جاء الاقتصاد الإسلامي بطابعٍ تعبدي إذ اعتمد على العقيدة في صياغة مبادئه وقوانينه، وكافّة القواعد والتشريعات الخاصّة به؛ فارتبط بالأخلاق وبطبيعة الحالة الاجتماعيّة، والمادية الخاصّة بالأفراد، وفي الوقت ذاته تمتع بذاتية الرقابة على ممارساته الاقتصادية، مع الاهتمام بالتوازن في رعاية المصلحة الاقتصادية للفرد والجماعة بعيدًا عن الإجحاف. ومن أهمّ صوره في ذلك: التوزيع العادل للدخل ضمن أحكام وضوابط الإسلام، وتحديد طُرق إنفاق المال، ووضع الأُسس المناسبة لتوزيع الميراث على الورثة وفقاً للوسائل الشرعيّة الصحيحة[(١)].

كذلك من الأسس المرعية في الاقتصاد الإسلامي إتاحة الحرية غير المطلقة أي الحرية المقيدة والمنضبطة بالقواعد التشريعيّة والأخلاقيّة، فإذا ما تعارضت المصالح بعضها مع بعض وجب تقديم المصلحة العامّة على المصلحة الخاصّة، وهي أيضاً حرية تخدم مصالح الجميع؛ بعيدة عن الجور والاحتكار، وتمتاز بالعدالة في ضمان حاجات الأفراد الأساسيّة ومصلحة المجتمع، فقاعدة الإسلام العامة في ذلك أن قوام السياسة الاقتصادية هي حفظ التوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة، ومناط التشريع الإسلامي تحقيق المصلحة [(٢)]. وكذلك من نظم السياسة الاقتصادية المالية في الإسلام مراعاة الملكيّة المزدوجة وهي ما أشار إليه المولى عز وجل من استخلاف الإنسان في الأرض: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴾[(٣)] فيحقّ للإنسان المسلم التملّك ضمن حدود الشريعة الإسلاميّة، وعليه أنّ يُحافظ على أملاكه بلا إضرار ولا إهدار. والكثير من الأسس والمبادئ التي أشار إليها

(١) سناء رحماني، وفتيحة ديلمي: مبادئ الاقتصاد الإسلامي وخصائصه، مفهوم ومنهج الاقتصاد الإسلامي، المسيلة، جامعة محمّد بوضياف، الصفحات (٤_، ١٤) بتصرّف.

(٢) الفنجري، محمّد شوقي : ذاتية السياسة الاقتصادية الإسلامية، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص٣٣.

(٣) سورة الحديد، آية (٧).

الشارع مما يكفل الأمن والحق والعدل للمجتمع الإسلامي؛ وما إباحة الاستثمار البديل عن الربا والاحتكار بالمرابحة، المضاربة وبالمشاركة إلا نموذج يمثل ذلك [(١)].

وأما ما يتعلق بالنظام السياسي فيمكن القول بأن هذا النظام قام في الإسلام على جملة قضايا ميزته عن غيره، ويكفي فيه أنه رباني المصدر، رباني الوجهة، ومن ثمار ذلك العصمة من التناقض والبراءة من التحيز والميل لصالح فئة أو جماعة دون أخرى، ومن ميزات النظام السياسي الإسلامي الأخرى سهولة الانقياد والاحترام المتبادل بين الراعي والرعية، فضلاً عن التحرر من عبودية الإنسان للإنسان، ويكفي فيه الشمول فلم يأت قاصراً على ما يهم الحاكم أو على ما يهم المحكومين خاصة، بل عاماً حتى بما يكفل تنظيم علاقة دولة الإسلام بغيرها من الشعوب والأمم، مسلمين وغير مسلمين ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[(٢)].

لقد مثل نظام الإسلام السياسي الواقعية بملامسته واقع البشر، وبنظرته إلى الحاكم وإلى المحكومين على أنهم بشرٌ لهم حقوق، وعليهم واجبات متبادلة، ولا يحل للحاكم التجاوز إلى ما ليس له من الغش والهضم والجور «**ما من والٍ يلي رعية من المسلمين فيموت يوم يموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة**»[(٣)] وقوله: «**ما من عبد يسترعيه الله رعية، فلم يحطها بنصيحة إلا لم يجد رائحة الجنة**»[(٤)].

ولا على المحكومين بعدم بخسه من الحقوق مما هو له: «**اسمعوا واطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة**»[(٥)] فلا مثالية في الأنظمة السياسية الإسلامية كما في النصرانية والتنازل عن الحقوق، جاء في سِفر إنجيل لوقا: «**وأما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم. من ضربك على خدك فأدر له الآخر أيضًا، ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضًا**»[(٦)]، وهذا ما يميز النظام السياسي الإسلامي عن غيره ؛ فالإسلام عقيدة

(١) وللمزيد عن النظام الاقتصادي في الإسلام انظر: النابلسي، مُحَّد راتب: مبادئ الاقتصاد الإسلامي – الأدوات الاستثمارية في النظام الإسلامي، موسوعة النابلسي.

(٢) سورة النحل، آية (٨٩).

(٣) مسلم: صحيح مسلم: كتاب الأحكام، حديث رقم (٣٦١).

(٤) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الأحكام، حديث رقم (٦٧٣١).

(٥) البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، حديث رقم (٦٦١).

(٦) انجيل لوقا، ج٦، ص٢٧-٢٩.

وعبادة جاء لتطبيق تعاليمه من خلال دولة قائمة ، وميزة الإسلام أنه جمع بين العقيدة الكونية والسلطة الحاكمة .فكان نظام السياسة في شريعة الإسلام وسطيا.

وعليه فالإسلام ثبَّت العقيدة والعبادة، ثم جاءت الدولة بعد ذلك مطبقة لتعاليم الدين، فميزت الإسلام عن الديانتين أنه جمع بين العقيدة الكونية والسلطة الحاكمة. فكان نظام السياسة في شريعة الإسلام وسطيًا لا غلو فيه ولا إفراط، وكان نبيه قائداً سياساً ليس له مثيل اكتملت فيه كل مقومات القيادة من الحكمة وصواب الرأي، وهو الذي ضرب عظيم المثل لحبه لرعيته وحبهم له، يقول أبو سفيان ﷺ في ذلك : «**ما رأيت في النّاس أحداً يحب أحداً، كحب أصحابِ محمدٍ محمدًا**»[١] ولقد رأينا في أيما موضع جوانب تطبيقاته ﷺ للسياسة الشرعية؛ وما ذلك إلا إقامةً لدين الله، وشعائر العبادة، والدعوة إليه، وإقامة العدل بين الناس في الأرض.

وفي نظام القضاء، وقد أكسبته الشريعة منزلة وقداسة، فهو أشرف تكليف إنساني ودعامة أساس في أي مجتمع مدني، يقول المصطفى ﷺ: «**إن الله لا يقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيهم حقه**»[٢]، وفي لفظ آخر يقول ﷺ:«**كيف تقدس أمة لا يؤخذ لضعيفها من شديدها حقه وهو غير متعتع**»[٣]. وفي هذا إقرار وتأكيد لدور القضاء الأساسي في عمارة الأرض على الوجه الذي أراده الله تعالى للكون والإنسان والحياة، بل إنه ﷺ ميز أهمية القضاء، وجعل العدل والحكم به كالصدقة: «**من ولي القضاء فقد ذبح بغير سكين**»[٤] وفي مسؤولية القاضي يقول ﷺ: «**القضاة ثلاثة: اثنان في النار، وواحدٌ في الجنة، رجلٌ عرف الحق فقضى به، فهو في الجنة، ورجلٌ قضى للناس على جهل، فهو في النار، ورجلٌ عرف الحق، وجار في الحكم، فهو في النار**»[٥].

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص ١٢٦.

(٢) العسقلاني، أحمد علي مُحَّد الكناني (ت ٨٥٢ هـ): التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير،كتاب القضاء، ج٤، ص ٣٣٨، والحديث رواه ابن خزيمة وابن ماجه، وابن حبان من حديث جابر بلفظ : "كيف تقدس أمة لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم".

(٣) ابن ماجه: سنن ابن ماجه، ج ٢، ص ٨١٠، و للبيهقي في السنن الكبرى، ج ٦، ص ٩٥، رقم الحديث (١٠٦٤٦)من حديث عامر بن الحصيب.

(٤) أخرجه أحمد برقم ٨٤٢٢ وأبو داود برقم ٣١٠٠ (كتاب الأقضية)، باب في طلب القضاء، وابن ماجه برقم ٢٢٩٩ (كتاب الأحكام)، باب ذكر القضاة، والترمذي برقم ١٢٤٧، (كتاب الأحكام)، باب ما جاء عن رسول الله ﷺ في القاضي.

(٥) الترمذي: جامع الترمذي، رقم الحديث (١٢٤٠)، ص ١٣٢٢، والحديث عن عامر بن الحصيب.

وجملة القول: إن القضاء في الشريعة الإسلامية يرتكز على أصول جامعة، وقواعد كلية ذات عمق في تحصيل مصالح العباد، ودرء الشرور والفساد؛ لتحفظ لهم الحقوق، وتجلب لهم الأمن، وتنشر العدل في شتى صور حياتهم ومنا شطها المختلفة[١]، ويكفي في نظام القضاء الإسلامي ربانية مصدره، وفي ربانية المصدر إقامته على الحجة والبرهان والمساواة والعدالة ومبدأ الاستقلالية ومراعاته المصالح الزمانية والمكانية، ومراعاته لمبدأ الشمولية لجميع المنازعات والخصومات، ويكفي فيه أنه نظامٌ شرعي قائمٌ على السهولة والتيسير، مع عنايته بمبدأ الأخذ بقاعدة سد الذرائع ومبدأ اعتبار المآلات، وغيرها من المبادئ والضوابط التي عني بها الشارع الحكيم في نظامه القضائي على ما سواه من أنظمة الحكم والقانون .

● الاستفادة من الحضارات والتجارب العالمية وفق مبادئ الإسلام .

إن الخبرة الإنسانية إرثُ مشترك، يتلقاه اللاحق عن السابق، ويسهم فيه كل جيل بما لديه من قدرات واستعدادات وفق شخصيته وحضارته، من أجل بناء حضارة الإنسان وإقامة سنَّة الاستخلاف في بناء الأرض وعمارتها على مدار تاريخ البشرية كلها[٢].

ورسالة الإسلام مكمّلة لمسيرة النبوة الطويلة، وجاءت خبراتها إنسانية، اشتركت فيها جميع الأمم والشعوب، وإليها انتهت أصول الرسالات السماوية جميعها، فكانت الرسالات بعامتها جزءاً طبيعياً من تاريخها الممتد، وكانت البشرية كلها جماعة واحدة، فبدت أمام النبوة الخاتمة صورة واضحة تشكل مصدر عبرتها واستلهامها واقتدائها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾[٣]، ولقد كان للمنهج النبوي السبق الحضاري للإفادة من تجارب الآخرين، والاستفادة من الحضارات والتجارب العالمية[٤].

والمدقق في منهجيته ﷺ في ذلك يجده، عليه السلام، تناول جميع من أمليت عليه ضرورة الأخذ عنهم والاستفادة مما لديهم من تجارب عملية وعلمية مفيدة، أو موروثات حضارية نافعة، ومصالح إنسانية متبادلة، بغض النظر عن معتقداتهم وشخوصهم سواء أكانوا من اليهود أو الكفار، أو كانوا من العرب

(١) آل الشيخ: حسين بن عبد العزيز: المبادئ القضائية في الشريعة الإسلامية وارتباط النظام القضائي في المملكة العربية السعودية بها، (د، م) عام ١٤٢٦ هـ.

(٢) السواعدة، مُحَّد محمود : (السنة النبوية والإفادة من تجارب الآخرين دلالة تميز ومظهر إبداع)، مجلة البحوث والدراسات الشرعية، الأزهر، العدد٧، ١٤٣٤هـ، المقدمة .

(٣) سورة الأنعام، آية (٩٠).

(٤) السواعدة، المرجع السابق، صفحة المقدمة.

المجاورين، من السابقين قبله أو حتى المعاصرين له، مما يفيد في أمر الدنيا، ولا يتعارض مع أمر الشرع والملة والدين؛ فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها.

ومهارة الإفادة من تجارب الآخرين في الإسلام خلقٌ أصيل، عزّزه القرآن الكريم، وجسدته سنته ﷺ تطبيقاً وعملاً فكانت منهجاً مؤصَّلا ومعلماً من أعمدة السيرة المهمة. فطبيعة هذا الدين في صورةٍ عالمية لم تلغ الإفادة عن غير المسلمين من الأمم السابقة والشعوب الغابرة، بل أوضحت سماتهم، ووصفت أحوالهم، وبينت مواقف التعامل معهم عقيدة وشريعة، ومعاملة، في الطعام وفي الزواج وغيرها من مناحي الحياة المختلفة، وأكثر من ذلك إذ إن الإسلام أقرَ بعض خِلال الآخرين كما في استحسانه لبعضٍ من عادات العرب الجاهليين وأعرافهم بما لم يتعارض مع مقاصده وكلياته .

ومن أمثلة ذلك أنه أفاد بما لدى العرب من ثقافة الحرب والنصرة[١]، والاستئمان والاستنصاح[٢] والشعر والحكمة، فاستبقى ﷺ الحجابة في بني شيبة، وكانت لهم منذ ما قبل الإسلام، كما استبقى سقاية الحاج وسدانة البيت، وأقر بعرف إيواء المستجير، وبعُرف القسامة[٣]؛ ففي الصحيح :" **أقر النبي ﷺ القسامة على ما كانت عليه في الجاهلية**"[٤] في مقابل ذلك نعى المولى ﷻ حال اليهود والنصارى انغلاقهم واحتكارهم الحقيقة، ووجه لهم أنواعاً من التوبيخ والملامة والذم لجهلهم، بل انتهى الأمر بالأخذ والإفادة إلى أبعد من ذلك؛ فقد كان نتاج التفاعل الحضاري بين المسلمين وغيرهم أن دخلت إلى المنظومة

(١) من ذلك عمه أبو طالب لم يمنعه ﷺ من الإفادة من مكانته وجاهه والاستئثار بحمايته والذود عنه، فقد استأمنه وأخذ برأيه ومشورته، وقَبِل مساندته ومناصرته، واطمأن إليه وشكا له، كذلك أفاد ﷺ من معبد بن أبي معبد الخزاعي فهو الذي خذل قريشاً وخوفهم المسلمين في حمراء الأسد، ومعبد يومئذ مشرك، كما كانت خزاعة كلهم مسلمهم ومشركهم، عيبة نصح لرسول الله ﷺ بتهامة لا يخفون عنه شيئاً.

(٢) استأمن ﷺ قبيلة من المشركين وجعلهم موضع النصح له والأمانة على سره، وهي قبيلة خزاعة، فقد أفاد من وجودهم في مكة واطلاعهم على أسرار قريش ونواياهم. بل قد أفاد من المشركين، في مواقف عظيمة من مواقف السيرة النبوية، كما في الهجرة الشريفة، فأعداؤه ترصدوه وتربصوا به، ومع ذلك فقد استأمن رجلاً من المشركين واطمأن له وأنس بخبره وخبرته وسار معه في طريق الهجرة متخفياً عن أعين المشركين الذين رصدوا الجوائز لمن يأتي بخبره.

(٣) القسامة: وتعني الجماعة يقسمون على الشيء أو يشهدون، ويمين القسامة تكون منسوبة إليهم، وجاء في الصحاح هي الأيمان تقسم على الأولياء في الدم، انظر: لسان العرب، ج١٢، ص ٤٨١، موسوعة مكتبة الفقه وأصوله الإلكترونية، موافقه للمطبوع.

(٤) مسلم: صحيح مسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب القسامة، ج٣، رقم الحديث: ٣١٦٩

الثقافية الإسلامية جملة من الجزئيات التي كان هناك مصلحة ما من دخولها كاشتمال العربية على كلمات من لغات غير عربية كالفارسية والحبشية، واستخدام القرآن لهذه الكلمات على رأي من قال بذلك[(١)].

وعلى كل حال فهذا المنهج في التعامل مع ميراث الأمم والشعوب منهجٌ شامل، متكاملٌ، ومتوازن، مرنٌ خاضعٌ لسنن الله في المجتمعات وبناء الممالك والدول، وهو في ذلك كسنة التدرج، والتدافع، وسنة الابتلاء، وسنة الأخذ بالأسباب، وسنة التغيير، وكذلك سنة الاستخلاف[(٢)].

على أن أهم ما ينبغي التركيز عليه في هذا المحور هو ماهيّة جوانب إفادة النبي ﷺ من الآخرين، وكيف تعامل مع تلك الجوانب؟

وعلى العموم فيمكن تلخيص منهج الرسول ﷺ في الإفادة من ثقافة عصره بثلاثة جوانب، الأول: موقفه ﷺ من الثقافة الهدامة في حياة عصره، الثاني: هو موقفه من الثقافة البناءة في محيط بيئته، والثالث: موقفه ﷺ من الثقافة المترددة بين ثقافتي الهدم والبناء[(٣)].

فأما عن جانب الثقافة الهدامة في حياة عصره ﷺ فالمتتبع لهديه ﷺ يجد أنه كان صارمًا في رفض كل ثقافة تهدم الدين وتعود على مبادئه بالإبطال، سواء تعلق الأمر بأصول الدين أو فروعه أو آدابه كالأخذ من ثقافة السحرة والكهنة[(٤)]، أو الأخذ عن ثقافة أعياد الجاهلية؛ فعن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: "**ما هذان اليومان؟** قالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: "**إن الله قد أبدلكم بهما خيرًا منهما: يوم الأضحى، ويوم الفِطر**"[(٥)] .

---

(١) السواعدة: السنة النبوية والإفادة من تجارب الآخرين دلالة تميز ومظهر إبداع، مرجع سابق، ص٤.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) لعور، ربيع: كيف تعامل الرسول مع ثقافة عصره؟، شبكة الألوكة، مقال شرعي، تاريخ الإضافة: ٢٠١٥/٧/٥م– ١٤٣٦/٩/١٨هـ، رابط الموضوع: http://www.alukah.net/sharia/0/88868/#ixzz5Qj7uKO5

(٤) سادت حياة ذلك العصر ومن ذلك احتكام عبد المطلب في ذبح ولده عبدالله إلى عرافة، وفاءً لنذره، أوفي مخاصمته لقريش في بئر زمزم، لكاهنة بني سعد، والقصة مشهورة ورأيه ﷺ في ذلك المنع والتحريم ؛ فنراه يقرّر ضلال الكهان والسحرة، ويجعل سؤال الكهنة قادحًا في التوحيد؛ فعن أبي هريرة والحسن عن النبي ﷺ قال:" من أتى كاهنًا أو عرّافًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمدٍ"، انظر ابن هشام: أسيرة النبوية، ج١، ص ١٤٣، ص ١٥٣. والحديث رواه أحمد، رقم الحديث(٩٥٣٦).

(٥) سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب صلاة العيدين، رقم الحديث (١١٣٤)، ص٣٦١ عن أنس بن مالك والحديث صححه الألباني.

ومن حديث عائشة –رضي الله عنها– قال ﷺ: «**إن لكل قوم عيدًا، وإن عيدَنا هذا اليوم**»[١].

وإذا كان موقف رسول الله ﷺ حازمًا مع كل ثقافة هادمة لثوابت الأمة، فإننا نجده على صورة مغايرة تمامًا مع ما يخدُمُ مبادئ الدِّين ومنهجه؛ فمن أمثلة أخذه بالثقافة الواعية البناءة أخذه بالأعراف الدبلوماسية، واستخدامه لوسائل الحرب الدفاعية أخذًا من ثقافة الغير بما هو نافعٌ ومفيد، بل وألفيناه يصبغها بالصبغة الإسلامية التي تميزها عن سائر الأمم، ويبدو هذا من خلال اتخاذه الخاتم أعقاب صلح الحديبية، وفي مكاتبة الأمراء والملوك وهو في ذلك لم يخالف العُرف الدولي، بل وافقة لكونه ثقافة بناءة، وطوعه للسنة من حيث الكتابة و النقش . وأما عن استباحة وسائل أسلحة الحرب وتعلم طرائقها، فمن ذلك ما كان في غزو حصار الطائف، إذ أرسل في أثناء الحصار عروة بن مسعودٍ وغيلان بن سلمة إلى جَرَشَ يتعلمان صنعة الدبابات والمجانيق والضبور،[٢] وهي أدوات تستعمل في الحصار لم تكن تعهدها قريش في حروبها.

ومن الثقافات البناءة التي أخذ بها، عليه السلام، أيضاً عنايته ببعض اللغات الأجنبية، فطبيعة دعوة الإسلام العالمية أملت عليه ضرورة التواصل مع الأمم الأخرى بلغاتها؛ إقامةً للحجة، وإظهارًا للمحجة، فنراه عني بتعليم أفذاذ الصحابة هذه المهارة. جاء عن زيد بن ثابتٍ قال: **أمرني رسول الله ﷺ أن أتعلم له كلمات كتاب يهود، قال: "إني والله ما آمن يهودَ على كتابٍ" قال: فما مر بي نصف شهرٍ حتى تعلمته له، قال: فلما تعلمته، كان إذا كتب إلى يهودَ كتبت إليهم، وإذا كتبوا إليه قرأت له كتابهم**"[٣]

بل إننا نجده ﷺ وهو العربي ينطق بغير لغة العرب في حادثة فريدة في السنة النبوية؛ فعن أم خالد بنت خالدٍ: أُتِي النبي ﷺ بثيابٍ فيها خميصةٌ سوداء صغيرةٌ، فقال: "**من ترون نكسو هذه؟**"، فسكت القوم، قال: " **ائتوني بأم خالدٍ**"، فأتي بها تحمل، فأخذ الخميصة بيده، فألبسها، وقال:" **أبلي وأخلقي**"، وكان فيها عَلَمٌ أخضر أو أصفر، فقال: "**يا أم خالدٍ، هذا سناه**"، وسناه بالحبشية: حسنٌ[٤].

وفي منهجه ﷺ في الثقافات البينية، ونعني بها تلك الثقافة المترددة بين الهدم والبناء، فنجده ﷺ حِذرًا يقظاً في النهل والأخذ من هذه الثقافات بحسب ما تفضي إليه؛ ولهذا كان ﷺ حذِرًا في التعامل معها،

---

(١) البخاري: كتاب العيدين، حديث رقم (٣٦٦٤)، ص (٣٩٣١)، ولمسلم في الصحيح حديث رقم (٨٩٢).

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص ٤٧٧٢.

(٣) الترمذي: سنن الترمذي، كتاب الاستئذان والآداب، باب ما جاء في تعلم السريانية، ج٣، ص٣٩٢، حديث رقم (٢٧١٥) والحديث عن حذيفة بن اليمان.

(٤) البخاري: صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب الخمصة السوداء، حديث رقم (٥٤٨٥)، ص ٢٩١.

فنجد أنه يفعلها في صورة دون أخرى، فيفعلها في حال تحقيقها لمصالح راجحة، ويعطلها إن غلبت مفسدتها. ففي ثقافة التعظيم مثلاً وهي ثقافة دأبت عليها أمة الملوك من الأكاسرة والروم نجده ﷺ ينكر كل تعظيم ينافي التوحيد، ومن ذلك إنكاره على مسألة قيام التعظيم ؛فعن أبي مجلزٍ قال: خرج معاوية فقام عبدالله بن الزبير وابن صفوان حين رأوه، فقال: اجلسا؛ سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **"من سره أن يتمثل له الرجال قيامًا، فليتبوأ مقعده من النار"**[١] في الحين الذي رجح فيه مسألة الوقوف وندب القيام بفعله، وأقر من فعله في صلح الحديبية، وذلك إبان المفاوضات الجارية بينه وبين قريش فأقر على أصحابه القيام حواليه؛ لأن مقصده إذ ذاك إرهاب العدو وكبته ؛ فاستفاد من هذه الثقافة في تقوية شوكة المسلمين.

كذلك موقفه ﷺ من النهي من التصاوير لذوات الأرواح وإن كانت لتعد إحدى أهم الثقافات القديمة، فلقد تواردت النصوص النبوية على تحريمها فعن عائشة – ﵂ – **قالت: "دخل عليَّ النبيُّ ﷺ وفي البيت قرامٌ فيه صورٌ، فتلون وجهه، ثم تناول الستر فهتكه"**[٢]، وفي حديث آخرٍ قالت: قال ﷺ: **"من أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يصورون هذه الصور"**[٣] ومن ذلك ما صح عن سعيد بن أبي الحسن قال: كنت عند ابن عباسٍ – رضي الله عنهما – إذ أتاه رجلٌ فقال: يا أبا عباسٍ، إني إنسانٌ إنما معيشتي من صنعة يدي، وإني أصنع هذه التصاوير، فقال ابن عباسٍ: لا أحدثك إلا ما سمعت رسول الله ﷺ يقول، سمعته يقول: **"من صور صورةً في الدنيا، كلف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة، وليس بنافخ"**[٤].

ومعلوم أن حكمة التحريم وعلته نفي مضاهاة الخالق في خلقه وتشبههم في خَصيصة من أهم خصائص ربوبيته ﷻ، فإذا انتفت العلة، وأفضى التصوير إلى مصلحة ولربما كانت مصلحة راجحة فلا بأس حينها، فقد أقر ﷺ للعب أم المؤمنين عائشة بالصور المجسمة، والحكمة من الترخص في هذه الثقافة هو ما تتضمنه من تعليم وتأديب في شؤون الخدمة و الرعاية والبيت والترويض على ممارسة أعمال الكبار؛ **فعن عائشة ﵂، قالت: قدم رسول الله ﷺ من غزوة خيبر، وفي سهوتها سترٌ، فهبت ريحٌ، فكشفت ناحية الستر عن بناتٍ لعائشة لُعبٍ، فقال: "ما هذا يا عائشة؟" قالت: بناتي، ورأى بينهن فرسًا له**

(١) البخاري: الأدب المفرد، رقم الحديث (٩٧٧).

(٢) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الآداب، باب ما يجوز من الغضب والشدة في الأمر، رقم الحديث (٥٦٧١) والحديث عن أم المؤمنين عائشة، ﵂، مرفوعا.

(٣) البخاري: صحيح البخاري، كِتَاب الْأَدَبِ، باب مَا يَجُوزُ مِنَ الْغَضَبِ وَالشِّدَّةِ لِأَمْر، حديث رقم (٥٦٧١).

(٤) البخاري: صحيح البخاري، باب من صور صورة، ج٣، رقم (١٦٨٠).

جناحان من رقاعٍ، فقال: "ما هذا الذي أرى وسطهن؟! قالت: فرسٌ، قال: "وما هذا الذي عليه؟"، قالت: جَناحان، قال: "فرسٌ له جناحان؟!"، قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلًا لها أجنحةٌ، قالت: "فضحك حتى رأيت نواجذه"[١]. وقريبٌ من مسألة نظرة الإسلام إلى التصوير مسألة المعازف، وهي أحد أقدم الفنون الإنسانية، وهي أيضاً من الثقافات الشائعة عند العرب قديماً، والناظر في سيرة المصطفى ﷺ يجد أنه كان مجانِبًا لهذه الثقافة، مما كان منها يفضي إلى هدم مقومات الأمة وثوابتها، وما كان مقترنا بفحش القول والإخلال بالسلوك، فقد صح عن أبي عامرٍ – أو أبي مالكٍ – الأشعري : أنه سمع النبي ﷺ يقول :" **ليكونن من أمتي أقوامٌ يستحلون الحِرَ والحرير، والخمر والمعازف، ولينزلن أقوامٌ إلى جنب علَمٍ يروح عليهم بسارحةٍ لهم، يأتيهم – يعني الفقير – لحاجةٍ، فيقولون: ارجع إلينا غدًا؛ فيبيتهم الله، ويضَعُ العَلَمَ، ويمسخ آخرين قردةً وخنازير إلى يوم القيامة"**[٢] في الحين الذي نجده هو ذاته ﷺ لا يرى فيها بأساً أفضت إلى مصلحة شرعية راجحة أو حتى كانت مِعولَ بناء للأمة، ومن ذلك أمره ﷺ الضرب بالدف في يوم العيد فعن عائشة، رضي الله عنها:" **أن أبا بكرٍ دخل عليها والنبي ﷺ عندها يوم فطرٍ أو أضحى، وعندها قينتان تغنيان بما تقاذفت الأنصار يوم بعاث، فقال أبو بكرٍ: مزمار الشيطان مرتين، فقال**ﷺ:" **دعهما يا أبا بكرٍ، إن لكل قومٍ عيدًا، وإن عيدنا هذا اليوم"**[٣].

فهنا نرى كيف أقر نبي الهدى ﷺ هذه الثقافة يوم العيد؛ لأن الاحتفال بالعيد من جملة ما يميز الأمة الإسلامية عن غيرها، وهو ما يستشف من التعليل المذكور في الحديث، وهو أن لكل قوم عيدًا، وأن هذا يومُ عيد المسلمين، فينبغي لهم أن يميزوه عن غيره من الأيام، كما ينبغي أن يتميزوا عن غيرهم في طريقة الاحتفال.

كما أقر ﷺ الضرب بالدف في العُرْس، فعن ابن عباسٍ قال: " **أنكحت عائشة ذات قرابةٍ لها من الأنصار، فجاء رسول الله ﷺ فقال: " أهديتم الفتاة؟"، قالوا: نعم، قال: "أرسلتم معها من يغنى؟"، قالت: لا، فقال رسول الله ﷺ: " إن الأنصار قومٌ فيهم غزلٌ، فلو بعثتم معها من يقول: أتيناكم أتيناكم، فحيانا وحياكم"** [٤].

---

(١) أبوداود: سنن أبي داود، كتاب الآداب، باب في اللعب بالبنات، رقم الحديث (٤٩٣٢) من حديث أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، مرفوعا.

(٢) البخاري: صحيح البخاري، باب ما جاء فيمن يستحل الخمر، ج٤، ص٣٠، رقم الحديث (٥٥٩٠).

(٣) البخاري: صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، رقم الحديث (٣٧٤٨).

(٤) ابن ماجه: سنن ابن ماجه، كتاب النكاح، باب الغناء والدف، حديث رقم (١٨٩٠).

وفي الحديث ما يشير إلى ضرورة التميز بين النكاح عن السفاح بإعلان النكاح بالغناء الحلال، والضرب على الدف[١].

ولا أشد عجباً من معالجة ثقافة العرب السائدة لديهم في الشعر والخطابة، وقد عرفوا بقرض الشعر، وهم في ذلك أبين الناس ألسنًا وأحسنهم بيانًا، ومع ذلك فقد غذى ﷺ هذه الثقافة السائدة بترياق الشرع؛ فأبطل ما كان منها باطلًا مغموساً بالكذب أو القذف أو السب و حط الشريف، ورفع الوضيع وغيرها، وأقر ما كان منها حقًّا، وكان من جملة ما نسفه : انشغال الناس بالشعر، فمنع الاشتغال به إذا كان على حساب القرآن والسنة ؛ فعن ابن عمر -رضي الله عنهما- **عن النبي ﷺ قال: " لأن يمتلئ جوفُ أحدكم قيحًا، خيرٌ له من أن يمتلئ شِعرًا"**[٢] وكان عامة نهيه ﷺ عن كل شِعرٍ تضمَّن ما يضاد الشرع؛ مِن كفر، وقذف، وغيره في الحين الذي أقر من الشِّعر ما كان حقًّا وصدقًّا؛ فعن أبي بن كعبٍ: أن رسول الله ﷺ قال: "**إن من الشِّعر حكمةً** "[٣].

وحض ﷺ على ما فيه نصرةٌ للدين، وانتقاص لدين المشركين؛ فعن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال لحسان بن ثابت، رضي الله عنه: "**اهجُ قريشًا؛ فإنه أشد عليها من رشقٍ بالنبل**"[٤] وكذا في أمر الخطابة فقد أقر منها ما كان حقًّا، وأبطل منها ما كان باطلًا، ونموذج ذلك ما جاء عن أبي هريرة : **أن رسول الله ﷺ قضى في امرأتين من هذيلٍ اقتتلتا، فرمت إحداهما الأخرى بحجرٍ، فأصاب بطنها وهي حاملٌ، فقتلت ولدها الذي في بطنها، فاختصموا إلى النبي ﷺ، فقضى أن دية ما في بطنها غرةٌ؛ عبدٌ أو أمَةٌ، فقال ولي المرأة التي غرمت: كيف أغرم يا رسول الله من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهل، فمثل ذلك يطل، فقال النبي ﷺ : " إنما هذا من إخوان الكهان**"[٥] فهذا الرجل وظف خطابته في نصرة الباطل، وشقق الكلام حتى يري الباطل في مظهر الحق؛ فشبَّه حينها بالكهان؛ لأن من عادتهم تشقيق

(١) جاء في الحديث عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ :" أعلنوا هذا النكاح، واجعلوه في المساجد، واضربوا عليه بالدفوف" وفي رواية " واضربوا عليه بالدف " والشاهد في الحديث واضربوا عليه بالدفوف، وقوله :" فرق ما بين الحلال والحرام الدف والصوت" . الترمذي : سنن الترمذي، كتاب النكاح عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في إعلان النكاح، حديث رقم (١٠٨٩) وحديث رقم (١٠٨٨).

(٢) البخاري: صحيح البخاري، رقم (٥٨٠٢)، ص ٥٦٤ .

(٣) الترمذي: سنن الترمذي، كتاب الأدب، باب ما جاء إن من الشعر حكمة، رقم الحديث (٢٨٤٤)، ص١١٠.

(٤) البخاري: صحيح البخاري، باب هجاء المشركين، حديث رقم (٥٨٢٠) ومسلم : صحيح مسلم، رقم الحديث (٢٤٩٠) .

(٥) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الكهانة، حديث رقم (٥٤٢٦)، ص٢٧٧ والحديث عن أبي هريرة.

الكلام، وتزيين الباطل . أما إذا وظفت الخطابة في الحق، فهذا ما أقره رسول الله ﷺ، وحوادثه كثيرة في السيرة؛ منها: خطبة العباس في منًى يوم بيعة العقبة، ومنها خطبة سعد بن معاذ قبل غزوة بدرٍ، والشواهد على هذا كثيرةٌ معلومة[١].

فهذه نماذج تظهر لنا بجلاء منهج الرسول الحق ﷺ في إعمال الثقافة المترددة بين الهدم والبناء إذا استعملت في بناء الأمة، أو كان إفضاؤها إلى مصلحة راجحة، أو مفسدة راجحة. وتظهر لنا أن الثقافة تتنوع بحسَب الدين والجنس والزمان والمكان، وأن الرسول ﷺ عايش ثقافات متعددة في حياته فرفض منها كل ثقافة تهدم ثوابت الأمة، وتنسف مقوماتها، كما تقبّل في المقابل كلُّ ثقافة تفضي إلى تثبيت دعائم الأمة، إضافة إلى صبغها بالصبغة الإسلامية.

● استقلال الشخصية الإسلامية وتفردها في الدين والسيادة وتميزها في السياسة والحضارة.

إن التفضيل والاصطفاء والاختيار والتمييز من سنن الله في خلقه، وهي سنة ماضية في تاريخ البشرية، قدرًا وشرعاً وواقعاً[٢] ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾[٣]، ولا ريب في تمايز الأمم وتفاضلها على مدار تاريخها الطويل في زمانها وعصرها[٤]، وعلى الرغم من أن أمة المصطفى ﷺ هي آخر الأمم إلا أن الله كتب لها التميز والخيرية والتفرد والاستقلالية على سائر الأمم ممن سبقها [٥] **قال** ﷺ «**نكمل يوم القيامة سبعين، أمة نحن آخرها وأخيرها**»[٦].

---

(١) العور، المقال السابق، كيف تعامل الرسول ﷺ مع ثقافة عصره؟

(٢) السعدي: إسحاق بن عبد الله: دراسات في تميز الأمة وموقف المستشرقين منه، وزارة الشؤون الإسلامية، قطر، ط١، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، صفحة المقدمة، ص١١.

(٣) سورة القصص، آية (٦٨).

(٤) كما هو حال بني إسرائيل في زمانهم مما جاء في كتاب الله العزيز : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ سورة المائدة، آية (٢٠).

(٥) وما كانت لها تلك المزية والخيرية إلا لأجل إقامتها واجب الأمر بالمعروف وإيمانها بالخالق، وأداء أمانة تبليغ الدعوة إليه؛ وبذا سادت وارادت على ما سواها فكان لها السبق والفضل ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ﴾ (آل عمران ١١٠) وانتفت في مقابل ذلك خيرية من جعلهم الله في زمانهم ملوك الأرض وآتاهم مالم يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِين –بني إسرائيل– بسبب تنكبهم الصراط المستقيم، وإخفاقهم في حمل الرسالة وفق شرع الله ومراده.

(٦) ابن ماجه: سنن ابن ماجة، كتاب الزهد، ج ٢، ص١٤٣٣، حديث رقم (٤٢٨٧).

ومن الاصطفاء والتفضيل الرباني أن جعل المولى عز وجل من خصائص وسمات الأمة الإسلامية أنها ذات شخصية مستقلة متفردة في السيادة والسياسة بل وفي الدين وفي الحضارة، ودين الإسلام الحنيف حرص على تأكيد ذلك فنراه سعى منذ فجر الدعوة إلى بناء شخص الإنسان المسلم المتكامل من جميع الجوانب، وفي كل الأبعاد، فحرص غاية الحرص على تنمية الذَّات المستقلَّة، وتكوين الشخصيَّة المتفردة له، فربى فيه ألا يكون إمَّعة لمجتمعٍ وأمة، ولا أن يكون مميعاً في ثقافة وحضارة أو ملة، فلم يرض أن يكون سبيل فكرِهِ التبعية والمحاكاة، وخط سيره التَّقليد والاحتذاء لما كان عليْه الأجداد والآباء، أو لِما تلقَّاه عن الأسلاف، أو لِما تعارف عليه النَّاس وآمنوا به وألِفوه، فنرى القُرآن الحكيم عاب على الأمم السابقة ما وقعوا فيه من مثل هذه الحال، فأشار إلى ذلك في غير موضع، قال جلّ وعلا، على لسان قوم شعيب عليه السلام : ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾[١] وجاء النّص النّبوي مخبرًا ومحذرًا :«**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ**»[٢] وهكذا مضى دين الإسلام في صنع شخصية المسلم الاستقلاليَّة وصقلها، فنقلها من الإيجاب إلى الدفع والمقاومة، فأقرُّ مبدأً حماية الاستِقْلال الذَّاتي، حيثُ جاء النص النبوي بالأمر تارة وبالنهي أخرى : «**لا يكُنْ أحدُكُم إمَّعة، يقول: إن أحسن الناس أحسنتُ، وإن أساؤوا أسأت، ولكن وطِّنُوا أنفُسَكم، إن أحسن النَّاس أن تُحسنوا، وإن أساؤوا أن تُحسنوا**»[٣].

فكان نتيجة ذلك أن تميزت شخصية المسلم وتفرّدت تبعاً لمنهجه بالتمام والكمال[٤]، والقوة والقدرة، وعلو المنزلة والعزة والفضيلة، فضلاً عن التوسط والوسطية، وشهد المولى عز وجل على ذلك للرعيل الأول من هذه الأمة ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ

(١) سورة هود آية (٨٧).

(٢) البخاري: صحيح البخاري، كتاب احاديث الأنبياء، حديث رقم (٣٢٦٩) مسلم : صحيح مسلم، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، حديث رقم (٢٦٦٩)، ص ٢٠٥٥ .

(٣) الترمذي: سنن الترمذي رقم الحديث (٢٠٠٧) والحديث عن حذيفة بن اليمان، ﷺ، وحدث المنذري في الترغيب والترهيب، ج٣، ص (٣٠٨) بصحة إسناد الحديث، إسناده أوهو حسن أو ما قاربهما.

(٤) ونعني بالتمام وبالكمال كمال الدين وتمامه، قال ﷻ مخاطبًا هذه الأمة لا غيرها: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، يقول ابن كثير في تفسيره: "هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة؛ حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم – صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه"، تفسير القرآن العظيم ج٢، ص١٣.

سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[١]. والأمرُ قائمٌ إلى قيام الساعة لمن نصر الحق واتبع مراد الله؛ جاء في الحديث الشريف: «**بَشِّر هذه الأمة بالسنا والدين والمنعة، والنصر، والتمكين في الأرض**»[٢]. فكانت لشخصية المسلم ولأمة الإسلام، تبعاً لذلك، السمة والمزية في الريادة والسيادة:" **إنكم وفيّتم سبعين أمَّة أنتم خيرها وأكرمها على الله** "[٣].

وكان لها ميزة الهداية إلى الحق المبين في أمر العبادة قال تعالى: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾[٤]، وفي الحديث قال ﷺ: «**نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أوّلُ الناس دخولاً الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه، فهدانا له، فالناس لنا فيه تبع، فغدًا لليهود، وبعد غد للنصارى**»[٥].

وميزة الهداية في سائر الشؤون العامة: «**إن الله قد أجار أمتي أن تجتمع على ضلالة**»[٦] وفي الآخر: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**»[٧].

وسمة التفرد بالتضلع بحمل الرسالة وتبليغ أمانة الدعوة إلى الله تعالى إلى يوم القيامة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٨].

وميزة التضلُّع في الشهادة: جاء في رواية ابن ماجه: «**يجيء النبي ومعه الرجلان، ويجيء النبي ومعه الثلاثة وأكثر من ذلك وأقل فيقال له: هل بلغت قومك فيقول: نعم، فيدعى قومه، فيقال: هل**

---

(١) سورة الفتح، آية (٢٩).

(٢) ابن حنبل: مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج٥، ص١٣٤، حديث رقم (٢٠٧١٥). وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٣) ابن ماجه: سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، ج ٢، ص١٤٣٣، حديث رقم (٤٢٨٨).

(٤) سورة البقرة، آية (٢١٣).

(٥) مسلم: صحيح مسلم، باب صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم (٨٣٦).

(٦) أحمد: المسند، رقم الحديث (٢٧٢٢٤) والترمذي في السنن، رقم الحديث (٢١٦٧) والحديث عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٣١) وفي ظلال الجنة.

(٧) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم، حديث رقم (١٩٢٠)، ص٥٨.

(٨) سورة آل عمران، آية (١١٠).

بلغكم ؟ فيقولون: لا، فيقال: من يشهد لك، فيقول: مُحَمَّد وأمته، فتدعى أمة مُحَمَّد، فيقال: هل بلغ هذا فيقولون: نعم، فيقول: وما علمكم بذلك، فيقولون: أخبرنا نبينا بذلك أن الرسل قد بلغوا فصدقناه، قال: فذلكم قوله تعالى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا»[١].

وسمة التميز والتفرد بمضاعفة أجر العبادة جاء في الصحيح عن ابن عمر -رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ - قال: «**إنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالاً فقال: من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟! فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراط قيراط. ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟! فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط. ثم قال: من يعمل لي من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين؟! ألا فأنتم الذي يعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين، ألا لكم الأجر مرتين. فغضبت اليهود** والنصارى فقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاءً، **قال الله: هل ظلمتكم من حقكم شيئًا؟! قالوا: لا. قال: فإنه فضلي أعطيه من شئت»**[٢].

وفريدة أخرى لأمة الإسلام وهي تميزهم باختصاصهم بخير الأيام ففي حديث أنس قال رسول الله ﷺ : «**أتاني جبريل وفي يده مرآة بيضاء فيها نكتة سوداء فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذه الجمعة يفرضها عليك ربك لتكون لك عيداً أو لقومك من بعدك تكون أنت الأول واليهود والنصارى من بعدك»**[٣] وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ: «**أَضَلَّ اللَّهُ عَنْ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الأحد، فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا فَهَدَانَا اللَّهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالأَحَدَ وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ الآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلائِقِ»**[٤].

---

(١) ابن ماجه: سنن ابن ماجه، كِتَاب الزُّهْدِ، بَاب صِفَةِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم، حديث رقم (٤٢٨٢) والحديث لسعد بن مالك، رضي الله عنه.

(٢) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الإجارة ، باب الإجارة إلى نصف النهار، رقم الحديث (٢١٤٨).

(٣) ابن ابي شيبة: مصنف ابن أبي شيبة، رقم الحديث (٥٣٧٤)، ص٥٥٥٧، العسقلاني: المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، رقم الحديث(٦٩٩)، ص٦٩٨، والحديث عن أنس بن مالك، رضي الله عنه.

(٤) مسلم: صحيح مسلم، حديث رقم (٨٥٦) والحديث عن أبي هريرة وحذيفة، رضي الله عنهما.

بل إن التميز والتفرد لشخص المسلم امتد لأدق الأشياء وأخصها فأراد المولى ﷻ أن تكون صفوف أمة الإسلام في الصلاة كصفوف الملائكة، ولم يكن هذا لأمة قبلها، جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**فضلنا على الناس بثلاث**» وذكر منها: «**جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة**»[١].

وفي أمر الأعياد التي هي من أخص ما تميزت به الشرائع، وأظهر مالها من الشعائر جاء الأمر بتميز المسلم عن غيره من الأمم الأخرى؛ فعن أنس، ﷺ، قال : قدم رسول الله ﷺ المدينة، ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال :«**ما هذان اليومان ؟ قال : كنا نلعب فيهما في الجاهلية**»، فقال الرسول ﷺ : «**إن الله تعالى قد أبدلكم بهما خيراً منهما يوم الأضحى ويوم الفطر**»[٢] ولمزيد مزية وفضلٍ وإعلاء لشأن المسلم كان النهي حتى لشهود أعياد الغير، جاء في تفسير: "﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾: "**أعياد المشركين**"[٣] وفي رواية البيهقي عن عبد الله بن عمرو بن العاص، رضي الله عنهما، قال: «**من بنى بأرض المشركين، وصنع نيروزهم. ومهرجانهم، وتشبه بهم حتى يموت حشر معهم يوم القيامة**»[٤]، وفي الحديث ما يشير إلى استقلال الشخصية الإسلامية، وتحذير المسلم من التشبه والتبعية؛ ذلك أن من مظاهر التميز لأمة الإسلام لزوم مخالفة الكفار وأهل الجاهلية وأهل الكتاب وسائر الأمم السابقة وعدم التشبه بهم، وفي ظاهر جملة الأحاديث النبوية الشريفة، مع ما فيها من النهي عن التشبه بالكفار وأهل الكتاب في مسائل العبادات أو في مجال المظهر العام والعادات؛ إلا أن فيها التوضيح لتميز الشخصية الإسلامية وإرادة أن يكون دين الإسلام ظاهراً على الدين كله، وفي هذا قمة التميز لهذا الدين. ولا أدل على ذلك من حديث مشروعية الأذان . ورد في الصحيحين عن ابن عمر، ﷺ، قال: "**كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون الصلاة وليس ينادي بها أحد، فتكلموا يوماً في ذلك، فقال بعضهم: اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم: قرناً مثل قرن اليهود، فقال عمر: أولا تبعثون رجلاً ينادي بالصلاة؟ فقال رسول الله ﷺ:«يا بلال، قم فناد للصلاة»**[٥].

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، حديث رقم (٨١٦)، ص٥٢٣، والحديث لحذيفة بن حسيل.

(٢) ابن حنبل: مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج٣، ص٢٥٠، رقم الحديث (٣٢١٠).

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٣٢٨_٣٢٩ وممن فسره بذلك من السلف: (ابن سيرين، والضحاك، وطاووس، وأبو العالية، وغيرهم .

(٤) البيهقي: السنن الكبرى، ج٩، ص ٢٣٤. وصححه ابن تيمية في الاقتضاء، ج ١، ص٧٥٤.

(٥) البخاري: صحيح البخاري، ج١، ص٢١٩، كتاب الأذان، باب بدء الآذان رقم الحديث ٥٧٩. ومسلم: صحيح مسلم، ج١، ص٢٥٨، كتاب الصلاة، باب بدء الآذن، رقم الحديث (٣٧٧).

وحديث الفطر: «**لن تزال أمتي في مسكة مالم يعملوا بثلاث، مالم يؤخروا الفجر بانتظار الإظلام، مضاهاة اليهود، ومالم يؤخروا بالفجر إمحاق النجوم: مضاهاة النصرانية، ومالم يكلوا الجنائز إلى أهلها**»[١].
وحينما صام عاشوراء قال له بعض الصحابة: إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى فقال: «**لئن عشت إلى قابل لأصومن التاسع والعاشر**»[٢] وفي هذا تميزٌ مع زيادة فضل؛ لئلا تكون أمة الإسلام تبعاً لأحد، فتكون أمة مستقلة بذاتها متفردة بشخصها.

ومثله في الأمور الظاهرة من الشؤون الحياتية العامة جاء في الصحيحين عن أبي هريرة، ، قال: قال الرسول ﷺ: «**إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم**»[٣] وحديث ابن عمر، ، قال: قالﷺ: «**خالفوا المشركين: وفروا اللحى، وأحفوا الشوارب**»[٤] وفي رواية مسلم: «**جزوا الشوارب وأرخوا اللحى، خالفوا المجوس**»[٥] وفي أمر اللباس: «**فرق ما بيننا وبين المشركين العمائم والقلانس**»[٦].
وفي مضمون تلك الأحاديث الواردة ما يؤكد تميز أمة الإسلام، حتى في الشعائر وموجبات ذلك وغاياته وارتباطاته؛ بما يجعلها ذات هوية مستقلة غاية الاستقلال عن متابعة الآخرين وتقليدهم، وفيه ضمان لمنزلة تميزها وتفردها، مع المحافظة التامة على هوية المسلم، ووصفٌ دقيق لمنزلة تميزه.

وثَمّة ما يؤكد تميز الأمة المسلمة وسبق ريادتها على النّاس أن أمة الإسلام هم نصف أهل الجنة، فعن عبد الله قال: كنا مع رسول الله ﷺ في قبة حمراء نحواً من أربعين، فقال: «**أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة**»، قلنا: نعم، قال: «**أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة**»، قلنا: نعم، قال: «**فو الذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة؛ وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة وما أنتم من أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد ثور أسود أو السوداء في جلد ثور أحمر**». وقال ﷺ: «**أهل الجنة؛ عشرون ومائة صف، هذه الأمة منها ثمانون صفاً**»[٧].

---

(١) ابن حنبل: مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج٤، ص٣٤٩. وفي حديث أبي هريرة: " لايزال الدين ظاهراً ما عجل الناس الفطر؛ لأن اليهود والنصارى يؤخرون" أبو داود: سنن أبي داود، ج٢، ص٣١٥، كتاب الصوم، حديث رقم (٢٣٥٣).
(٢) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب صيام يوم عاشوراء، حديث رقم (١٨٩٦)، ص ٢٨٧ .
(٣) البخاري: صحيح البخاري، ج٣، ص ١٦٦٣، كتاب الأنبياء، باب رقم (١٥) رقم الحديث (٣٢٧٥).
(٤) البخاري: صحيح البخاري، ج٥، ص ٢٢٠٩، كتاب اللباس، باب رقم (٦٢) رقم الحديث (٥٥٣) .
(٥) مسلم: صحيح مسلم، ج١، ص ٢٢٢، كتاب الطهارة، باب رقم (١١٦)، رقم الحديث (٢٦٠).
(٦) أبو داود: سنن أبي داود، ج٤، ص ٣٤٠_٣٤١، كتاب اللباس، باب في العمائم، حديث رقم (٤٠٧٨).
(٧) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، ص (٦١٦٣).

كذلك من مظاهر تميز الأمة أنها أمة مرحومة، فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن هذه الأمة مرحومة عذابها بأيديها، فإذا كان يوم القيامة دفع إلى كل رجل من المسلمين رجل من المشركين فيقال: هذا فداؤك من النار**»[١] .

وحديث أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «**أمتي هذه أمةٌ مرحومة ليس عليها عذابٌ في الآخرة، عذابها في الدنيا الفتن، والزلازل، والقتل**»[٢]. ثم لا ننسى أهم خصيصةٍ لتميز الأمة الإسلامية وسبق ريادتها على الناس وهي عالميتها. وعلى كل حال فإن هذا التميز لأمة الإسلام جعلها في مصاف الريادة والسيادة والقيادة. ونختم بجانبٍ مهمٍ ليس لأمة الإسلام فحسب وإنما للبشرية جمعاء، ألا وهو جانب الحضارة الإسلامية التي سادت بنفعها وخيرها البشرية كلها.

نعم فالمتأمل في أسس نواة الحضارات الإنسانية القديمة يجدها أثمرت بما كان عليه اتجاهها الفكري سلباً وإيجاباً، وهي في كلٍ لم تعطِ الصورة المثلى للحضارة الإنسانية الحقه[٣] في جميع الأبعاد، وفي كل الاتِّجاهات، وعلى الرغم من أن الخبرة البشرية والإرث المعرفي إرث بنائي إنساني يتلقاه جيل بعد جيل، فيبني الآخر على ما توصل إليه الأول؛ من أجل الخروج بتكامل مثمر للفكر الإنساني ورفد إبداعاته، إلا أن حضارة الإسلام حضارة متفردة مميزة، وهي أعظم حضارة عرفتها البشرية في السابق واللاحق، ولا عجب فهي حضارة ربانية إيمانية استمدت إيمانها من العقيدة الإسلاميّة، إذ تحلّت بمبادئها وأخلاقها وأفكارها، وحضارة إنسانية احتضنت جميع الشعوب والأمم، لم تقتصر على جنس بشري، ولم تتقوقع في إقليم جغرافي، فنهلت من الحضارات قبلها،

---

(١) البخاري: التاريخ الأوسط، رقم الحديث (١٦١).

(٢) أبو داود: سنن أبي داود ، كتاب الفتن والملاحم، باب ما يرجى في القتل، حديث رقم (٤٢٧٨).

(٣) لكل حضارة من الحضارات الإنسانية أسس فكرية ونفسية كانت لها من القوة الدافعة والموجهة والمحددة لخط سيرها؛ فلذا كانت المظاهر الحضارية لكل أمة نتائج ملائمة لمجموعة الأفكار والعقائد والتقاليد والعوامل النفسية المهيمنة عليها، ومن ذلك أن كانت الأسس الفكرية عند اليونان الإغريق قائمة على تمجيد العقل فقط، فأثمرت لهم خلال قرون علوماً فلسفية ورياضية ونفسية وطبية، وفنوناً جمالية مختلفة. وكذلك كانت الأسس الفكرية عند الرومان قائمة على تمجيد القوة، والرغبة ببسط السلطان الروماني على الشعوب، لذلك كانت مظاهر حضارتهم ذات صلة وثيقة بهذه الأسس؛ إذ أثمرت لهم خلال قرون إعداد أجساد قوية، وجيوش متقنة البناء، حسنة الاستعدادات، أثمرت لهم أيضًا اشتراع مجموعة من القوانين والتنظيمات المدنية والعسكرية. وكانت الأسس الفكرية عند الفرس قائمة على تمجيد اللذة الجسدية، والسلطان، والقوة الحربية ؛ ولذلك كانت مظاهر حضارتهم ذات صلة وثيقة بهذه الأسس؛ إذ أثمرت لهم خلال قرون قصورًا فخمة، ومجالات كثيرة للترف المفرط، وجيوشًا حربية ذات بأس، بسطت سلطانهم على شعوب كثيرة غلبوها واستعمروها، واستغلوا خيراتها. الميداني، عبد الرحمن حبنَّكة: الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم، دار القلم، دمشق، ط١، عام ١٤١٨هـ -١٩٩٨م، ص٢٩.

وحفظت تراث الإنسانية كلها، وزادت عليه، ونقلته إلى من تلاها، وهي حضارة متوازنة جمعت بين مرتكزي الحضارة وجانبيها المادي والروحي المعنوي ؛ فجمعت بذلك بين الدين والدنيا معاً، لم تُغّلب جانباً على جانب، ولم ترجح ركناً على الآخر، وفيها التقت حضارات كثيرة متباعدة من المشرق والمغرب ومن اللاحق والمعاصر، ويكفي أنها نجحت في انتقاء اختيار العناصر الصالحة من الحضارات قبلها، ثم مزجت بينها، وأكملت نواحي النقص فيها على أساس مصادر التشريع الحنيف، وتفوقت على غيرها من الحضارات(١)، وتميزت بميزة الاستمرار، وقابلية النماء، والتكيف مع الزمان، فلم تعش في حدود عصرها وزمانها وإنسانها كما هو حال سابقاتها، بل ربت وأينعت وتماشت مع المعطيات والمتطلبات بما لا يتعارض وتعاليم الشارع؛ لإيجاد مجتمع متكامل، وكان من أسسها الالتزام بمبدأ الحق ومناصرته، والنفور من الباطل ومكافحته، مع مثاليتها في الأهداف والغايات، والواقعية بما يتماشى وسنن الحياة. ولا غرو فهي الإنسانيّة في هدفها، العالميّة في رسالتها الأخلاقيّة في كلّ نظمها، وأكثر ما فيها أنها حضارة قائمة خالدة باقية، قامت على أركان قوية وميزات خاصة لم تكن لغيرها، ومن ذلك أولاً:

- عنايتها، في الركن الأول، بالعلم، وميزة العلم في الإسلام أنه يعتمد على وسائل الاختبار والتجربة والحث وفتح مجالات المعرفة بما لا يتعارض ومبادئ الدين الحنيف.

- الركن الثاني: تطبيق العلم بالعمل، وذلك عن طريق الاستفادة المباشرة من المعارف والعلوم بالاختراع والابتكار والتحسين.

- ثالثاً: الحث على التأمل والاستنباط الذي يرتبط به الابتكار والاختراع الذي هو أفقٌ من آفاق البحث العلمي الذي أصَّله الإسلام، وكان موقفه التحريض والدفع لتناول المحسوسات المادية والموجودة بالدراسة، وبالتحليل والتركيب، والجمع والتفريق والاختبار من جهة، ومعالجة غير المحسوسات من الممتلكات العقلية بقوة الاستنباط من جهة أخرى.

- الركن الرابع: اعتبار كل ما تصل إليه القدرات الإنسانية في هذا الكون الواسع الأرجاء مسخراً لمنفعة الناس ومباحاً لهم، وهذا الركن مما أعلنه الإسلام وحرَّص عليه، فكان أساس ركيزة الحضارة الإسلامية وقوامها،

(١) أحمد، موسى مُحَمَّد، ومُحَمَّد نور موسى: قراءة في الحضارة الإسلامية، دراسة في معانيها وآثارها المعنوية والمادية (الطبعة الأولى)، القاهرة - مصر، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ص ١٥-١٦.

فإعلان تسخير ما في السموات وما في الأرض جميعاً للإنسان يتضمن بشكل قوي الدافع القوي للعمل والانتفاع من هذه المسخرات[١].

وبعد فيكفي في الحضارة الإسلامية أنها الحضارة الوحيدة التي تشتمل أسسها الفكرية والنفسية على حاجات الحياة كلها من مختلف جوانبها الفكرية، والروحية، والنفسية، والجسدية، والمادية الفردية والاجتماعية، ومن جميع المجالات العلمية والعملية، وقد استطاعت أسس هذه الحضارة ووسائلها ومناهجها أن تدفع الأمة الإسلامية، في حقبة من الدهر إلى الارتقاء في سلم الحضارة المجيدة المثلى على مقدار التزامهم بأسسها ووسائلها ومنهجها السديد[٢].

وخلاصة القول: إن الحضارة الإسلامية هي الصورة المثلى للحضارة الإنسانية الراقية. وعليه يظل ارتقاء قمم الحضارة المثلى أبد الدهر رهناً بالتزام أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها ومنهجها[٣].



(١) وانظر لهذه الأركان تفصيلاً في كتاب حَبَنَّكَة: الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها، مرجع سابق، ص٨٣ ، ص٣٢٩، ص٣٤١ .

(٢) حَبَنَّكَة: الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها، ص٣١.

(٣) نفسه، ص٣٢.



الخاتمة

خاتمة البحث

الحمد لله سابغ النعم، مدبر الأمر، والشكر للمولى الجليل ذي الإفضال والمن والكرم، أحمده تعالى حمد الشاكرين أولي الألآء والنعم، وأصلي على الهادي البشير سيد الخلق والأمم؛ حمدًا لا يوازيه حمد، حمداً يليق بعزته وعظمته، حمداً على نَعمائه وواسع إفضاله أن جمع لي بين فضلين وشرفني بالجمع بين خيرين، فضل التشريف بجمع سند كتابه حفظاً، وشرف الكتابة في سيرة خير خلقه وأنبيائه رسلاً.

وأكرمني بالجمع في الدراسة في أرض البقعتين المقدستين طيبة وأم القرى، فاللهم كما يسرت لي نيل الشرف في الأمرين أعني بحولك على حمل الأمانة بحقها، وألهمني الرشد والسداد في جميع أموري كلها وبعد:

فإن موضوعَ بناء دولة الإسلام هو موضوعٌ ذو بال، وهو من الأهمية بمكان، ما قد يجعل له مزية وخصوصية في الماضي والحاضر والمستقبل، إضافة إلى اشتماله على علوم شتى وجوانب تترى، وارتباطه وصلاته بالفقه الإسلامي، و بعلم الحديث وفقه السيرة، وروائعات التاريخ، وعلم الإدارة وفلسفة السياسة، وفن الحضارة، ومنهج الثقافة، وغيرها من العلوم والفنون، وله جوانب وأبعاد تمتد من الماضي القديم إلى الحاضر والمستقبل، وهو وإن بدا واسع البسط في المؤلفات والكتابات على مدادها وتعدد دراساتها، وتباين أهداف أقلام كتابها؛ إلا أنها مازالت تدور حول فلك البناء المادي وتتقوقع حول الجانب الإداري؛ ما إن قُتلت بحثاً، واستوعبت مغزىً وهدفاً، وهي لا تخرج عن نمطية موحدة على الإجماع - على ما وقع بين يدي وعلى ناظري- في أن بناء دولة الإسلام قائم على أسسٍ ثلاثة: المسجد، والمؤاخاة، وصحيفة المدينة. وأضاف آخرون محور الجهاد في سبيل الله. وفي محاولة منا في ضوء ما تصفحنا من مراجع ونقول، ومن خلال استقرائنا لبعض وقائع فصول السيرة النبوية في البيعة، والبناء، وفي الهجرة، والجهاد، وغيرها من صور أحداث السيرة النبوية العطرة وشواهدها في مصادرها الصحيحة والأصيلة، وإنزالنا -قدر الجهد- لتلكم الوقائع على الواقع، وتحليلنا لبعض الحقائق، وتقصي بعض الدقائق رأينا الأجدر بنا التركيز والاتكاء على البناء المعنوي والجانب السياسي في هذه الدراسة، وفي الاعتقاد أن الجانب المعنوي أقوم وأدوم بل هو سبيل لثبات الجانب المادي؛ وعلى ذلك جاءت فكرة صياغة دراسة موضوع بناء دولة الإسلام الأولى وبحثه التي تمحورت في بناء متكامل للفرد فالدولة والأمة .

ولعل أهم ما توصلت إليه دراسة الموضوع هو:

- إن الغوص في أعماق بحر السيرة النبوية لاستخراج أصدافها المكنونة، مطلب ضروري أساس، وحاجة إنسانية ملحة، نابعة من شدة الحاجة إلى معرفة ملامح الهدي النبوي في النهضة، وصناعة التميز، وإقامة

الدولة، لإعادة ما انتقض من صرح الدين والعقيدة، وتشييده على منهجية سليمة مستمدة أصولها وفروعها من الكتاب والسنة.

- أوضحت دراسة موضوع بناء دولة الإسلام الأولى في العهد النبوي المدني أن منهج النبي ﷺ في بناء الدولة الإسلامية كان مبدؤه وجذوره العهد المكي، وأن بناء العهد المدني ما هو إلا ثمارٌ شاملة ومتكاملة ومكملة لأسس البناء الأول، على أن هذا البناء الثاني في مرحلة العهد المدني قام على أسس قوية ومرتكزات ثابتة اتكأ عليها، فمكنت لمواجهة التحديات التي كانت تهدد البناء الأول في فترة العهد المكي.
- أهمية دراسة فقه المنهج النبوي الصحيح، وأهمية معرفة فقه التعامل مع هذا المنهج، تطبيقاً على الواقع الأمر الذي يقتضي فقه الواقع الإقليمي، والعالمي، والإنساني، ومعرفه استطاعاته للتغلب على تحدياته ومشكلاته.

وعليه نوصي بـ:

- شمولية التأسي بسيرة خير الورى مُحَّد بن عبد الله ﷺ في مجالات الحياة كلها وتحويلها إلى منهج حياة وبرنامجٍ تطبيقي واقعي حركياً ومعنوياً.
- استخلاص نماذج إبداعاته الحية ﷺ من خلال تقصي الجوانب المعنوية لبناء الدولة في دروس السيرة النبوية، ومعرفة كيفية التعامل معها ومع وسائلها من منطلق البناء الفكري والثقافي والتطبيق العملي للمساهمة في تمكين أمة الإسلام من استعادة هُويتها، وإعادة بناء شخصيتها، وإعادة موقعها الريادي الذي اختاره الله لها، موقع الوسطية، وموقع الشهود الحضاري.
- دعوة المتخصصين من علماء الفكر وأرباب السياسة، والاقتصاد، والإدارة، والاجتماع، والإعلام، وغيرهم لتكثيف الجهد في البحث والدراسة في منهجيته، عليه السلام، في بناء الدولة كُلاً في ميدانه وتخصصه؛ إظهارًا لجوانب التميز والرقي الحضاري لدولة الإسلام، والاستفادة من ذلك المنهج للإسهام في صياغة أسس التنظيم السياسي والإداري فكراً ودعوة وممارسة.
- دعوة الحكام المسلمين إلى بذل مزيدٍ من الجهد الخلاق للاقتداء بنموذج إدارة الدولة الإسلامية الأولى؛ فهو ما يصلح للممارسة والتطبيق في كل مكان وزمان لصالح الدين والدنيا معاً؛ وذلك بالمحافظة على هوية المنجزات الإدارية النبوية، وترسيخ أهدافها النبيلة، والانطلاق منها لمواجهة مشكلات العصر برسم خططٍ ومفاهيم تستوعب واقع المجتمع المسلم لحاجته إلى مثلها.

وبعد فلعلنا وقفنا بهذه الدراسةِ المتواضعة بخطوطٍ عريضة تفيئُ وتُعطي رسائل إيجابيةٍ مفيدة تُجلي في النَّفسِ بينَ الفينةِ والأخرى بارقةَ أملٍ جديدة تُغرسُ فيها أمجادُ حضارة الإسلام ، تلك الحضارةِ التي ترتسمَ

في أذهاننا فتذكرّنا بفترات القوةِ والعزّ التي كانت لأمتنا في أزهى عصور تاريخها رفعةً وحضارةً ومجداً، يوم أن كان الرسول ﷺ بين ظَهرانيها ، ويوم أن بُثَّت روحُ عقيدةِ الحقِ فيها، ويوم أن أعزها الله بتشريع دينه أكمل دين وأعظم تشريع.

فالوعدُ بالتمكينِ باقٍ إلى يومِ المعادْ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[١] وهو بحاجة إلى المناصرة لدين الله. وصَدَق الله ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[٢]. والأمل بها -أي بهذه الدراسة- وموضُوعُها بناءُ الدولة -على قلةِ الجُهْدِ- أنْ تكونَ دعوةً بطرفٍ خفي للحكوماتِ السياسية بتطبيق تعاليم الشريعة الإسلامية، ففيها العلاجُ الناجع: «**تركتكم على المحجةِ البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغُ عنها الا هالك**»[٣] .

بل ولعلها أن تُحيي في النفسِ سيرةَ نبي الهدى ﷺ فتُعيدَنا إلى تطبيق إيمانِ الجوارح مقتدين بمن كان القرآن سُلُوكه وفِعَالَه حتى في أدقِ تفاصيلِ حياته، ومتمثلين بأمر الله في محكم آياته ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[٤].

وأخيرًا فهذا جهد المقل، وعملٌ متواضع أقدمه لله عز وجل صدقة لنفسي، احتسبت به الوقت والجهد للخالق ربي، فلعل أن تحقق به نية الأجر أن يكون علماً صالحاً ينتفع به أو أجر مجتهدٍ أخطأ.

(١) سورة النور أية (٥٥).

(٢) سورة الحج أية (٤٠).

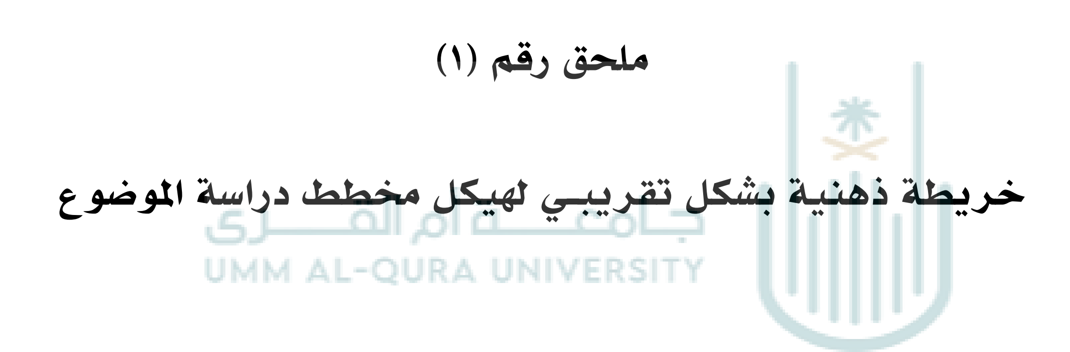
(٣) ابن ماجه: سنن ابن ماجه، حديث رقم (٤٣).

(٤) سورة الأنعام الآيتين: (١٦٢، ١٦٣).

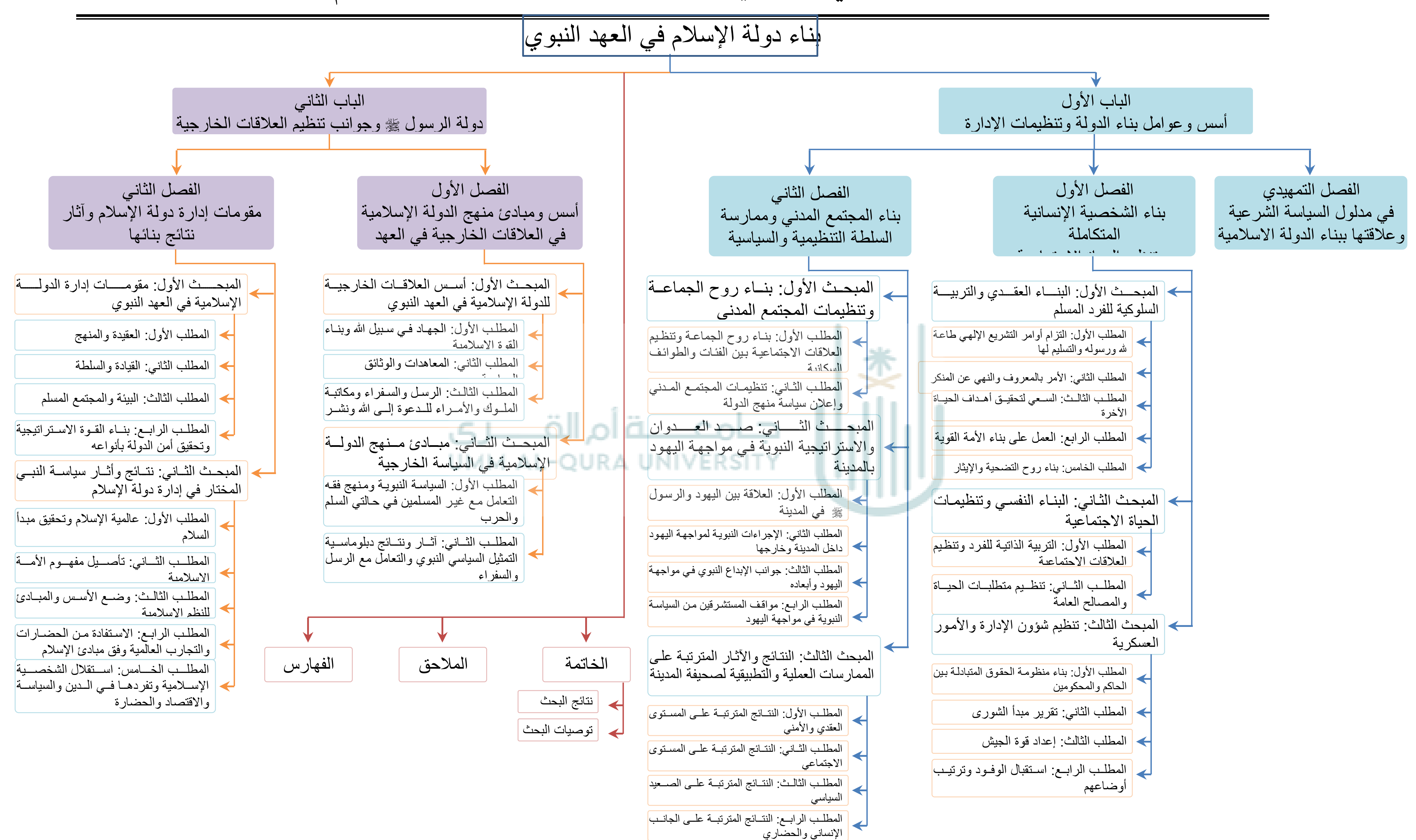
الملاحق



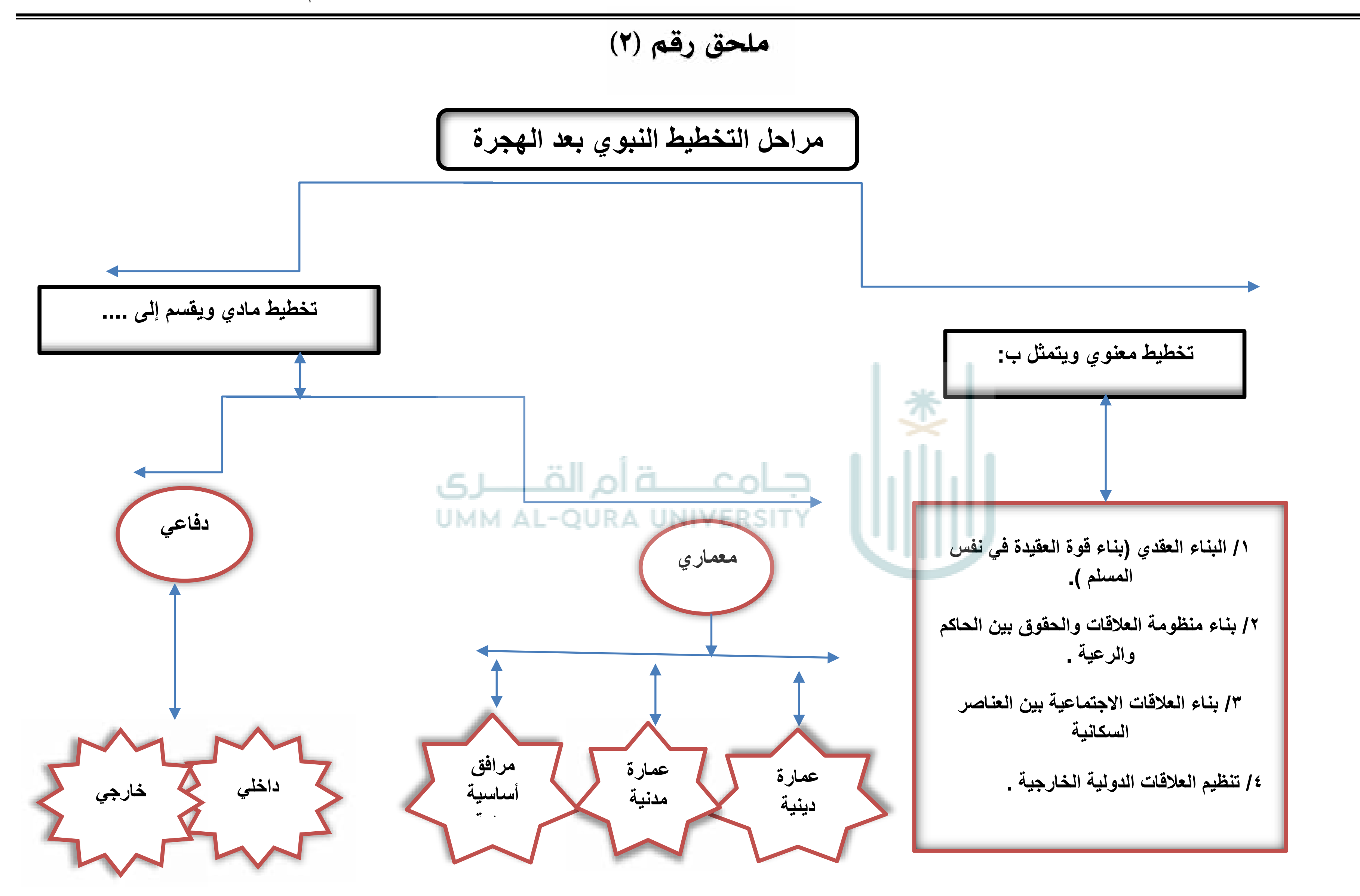
ملحق رقم (١)



خريطة ذهنية بشكل تقريبـي لهيكل مخطط دراسة الموضوع


بناء دولة الإسلام في العهد النبوي
الباب الأول
أسس وعوامل بناء الدولة وتنظيمات الإدارة
الفصل التمهيدي
في مدلول السياسة الشرعية وعلاقتها ببناء الدولة الاسلامية
الفصل الأول
بناء الشخصية الإنسانية المتكاملة
المبحث الأول: البناء العقدي والتربية السلوكية للفرد المسلم
المطلب الأول: التزام أوامر التشريع الإلهي طاعة لله ورسوله والتسليم لها
المطلب الثاني: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
المطلب الثالث: السعي لتحقيق أهداف الحياة الأخرة
المطلب الرابع: العمل على بناء الأمة القوية
المطلب الخامس: بناء روح التضحية والإيثار
المبحث الثاني: البناء النفسي وتنظيمات الحياة الاجتماعية
المطلب الأول: التربية الذاتية للفرد وتنظيم العلاقات الاجتماعية
المطلب الثاني: تنظيم متطلبات الحياة والمصالح العامة
المبحث الثالث: تنظيم شؤون الإدارة والأمور العسكرية
المطلب الأول: بناء منظومة الحقوق المتبادلة بين الحاكم والمحكومين
المطلب الثاني: تقرير مبدأ الشورى
المطلب الثالث: إعداد قوة الجيش
المطلب الرابع: استقبال الوفود وترتيب أوضاعهم
الفصل الثاني
بناء المجتمع المدني وممارسة السلطة التنظيمية والسياسية
المبحث الأول: بناء روح الجماعة وتنظيمات المجتمع المدني
المطلب الأول: بناء روح الجماعة وتنظيم العلاقات الاجتماعية بين الفئات والطوائف
المطلب الثاني: تنظيمات المجتمع المدني وإعلان سياسة منهج الدولة
المبحث الثاني: صد العدوان والاستراتيجية النبوية في مواجهة اليهود بالمدينة
المطلب الأول: العلاقة بين اليهود والرسول ﷺ في المدينة
المطلب الثاني: الإجراءات النبوية لمواجهة اليهود داخل المدينة وخارجها
المطلب الثالث: جوانب الإبداع النبوي في مواجهة اليهود وأبعاده
المطلب الرابع: مواقف المستشرقين من السياسة النبوية في مواجهة اليهود
المبحث الثالث: النتائج والآثار المترتبة على الممارسات العملية والتطبيقية لصحيفة المدينة
المطلب الأول: النتائج المترتبة على المستوى العقدي والأمني
المطلب الثاني: النتائج المترتبة على المستوى الاجتماعي
المطلب الثالث: النتائج المترتبة على الصعيد السياسي
المطلب الرابع: النتائج المترتبة على الجانب الإنساني والحضاري
الباب الثاني
دولة الرسول ﷺ وجوانب تنظيم العلاقات الخارجية
الفصل الأول
أسس ومبادئ منهج الدولة الإسلامية في العلاقات الخارجية في العهد
المبحث الأول: أسس العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية في العهد النبوي
المطلب الأول: الجهاد في سبيل الله وبناء القوة الاسلامية
المطلب الثاني: المعاهدات والوثائق
المطلب الثالث: الرسل والسفراء ومكاتبة الملوك والأمراء للدعوة إلى الله ونشر
المبحث الثاني: مبادئ منهج الدولة الإسلامية في السياسة الخارجية
المطلب الأول: السياسة النبوية ومنهج فقه التعامل مع غير المسلمين في حالتي السلم والحرب
المطلب الثاني: آثار ونتائج دبلوماسية التمثيل السياسي النبوي والتعامل مع الرسل والسفراء
الفصل الثاني
مقومات إدارة دولة الإسلام وآثار نتائج بنائها
المبحث الأول: مقومات إدارة الدولة الإسلامية في العهد النبوي
المطلب الأول: العقيدة والمنهج
المطلب الثاني: القيادة والسلطة
المطلب الثالث: البيئة والمجتمع المسلم
المطلب الرابع: بناء القوة الاستراتيجية وتحقيق أمن الدولة بأنواعه
المبحث الثاني: نتائج وآثار سياسة النبي المختار في إدارة دولة الإسلام
المطلب الأول: عالمية الإسلام وتحقيق مبدأ السلام
المطلب الثاني: تأصيل مفهوم الأمة الاسلامية
المطلب الثالث: وضع الأسس والمبادئ للنظم الاسلامية
المطلب الرابع: الاستفادة من الحضارات والتجارب العالمية وفق مبادئ الإسلام
المطلب الخامس: استقلال الشخصية الإسلامية وتفردها في الدين والسياسة والاقتصاد والحضارة
الخاتمة
نتائج البحث
توصيات البحث
الملاحق
الفهارس

ملحق رقم (٢)



مراحل التخطيط النبوي بعد الهجرة
تخطيط مادي ويقسم إلى ....
تخطيط معنوي ويتمثل ب:
دفاعي
معماري
خارجي
داخلي
مرافق أساسية
عمارة مدنية
عمارة دينية
١/ البناء العقدي (بناء قوة العقيدة في نفس المسلم).
٢/ بناء منظومة العلاقات والحقوق بين الحاكم والرعية .
٣/ بناء العلاقات الاجتماعية بين العناصر السكانية
٤/ تنظيم العلاقات الدولية الخارجية .

ملحق رقم (٣)

قائمة بمن آخى بينهم ﷺ من الأنصار والمهاجرين

ع	الأنصاري	أخاه المهاجري في الإسلام
١	أُبي بن كعب	سعيد بن زيد
٢	أسيد بن حضير	زيد بن حارثة
٣	أوس بن ثابت	عثمان بن عفان
٤	أوس بن خولي	شجاع بن وهب
٥	أوس بن الصامت	مرثد بن أبي مرثد
٦	أبو أيوب الأنصاري	مصعب بن عمير
٧	بشر بن البراء	واقد بن عبدالله
٨	تميم مولى خراش	خباب مولى عتبة بن غزوان
٩	ثابت بن قيس	عامر بن البكير وعمار بن ياسر
١٠	ثعلبة بن حاطب	معتب بن الحمراء
١١	جبار بن صخر	المقداد بن عمرو
١٢	جبير بن عتيك	خباب بن الأرت
١٣	الحارث بن أوس	عامر بن قصيرة
١٤	الحارث بن خرمة	إياس بن البكير
١٥	الحارث بن الصمة	صهيب بن سنان
١٦	حارثة بن سراقة	عثمان بن مظعون
١٧	حبيش بن حذافة	أبو عبيدة
١٨	الحتات التميمي	معاوية بن أبي سفيان
١٩	حذيفة بن اليمان	عمار بن ياسر
٢٠	حنظلة بن الراهب	شماس بن عثمان
٢١	خارجة بن زيد	أبو بكر الصديق
٢٢	أبودجانة	عتبة بن غزوان
٢٣	أبوالدراء	سلمان الفارسي
٢٤	ذكوان بن قيس	مصعب بن عمير

ع	الأنصاري	أخاه المهاجري في الإسلام
٢٥	رافع بن عنجدة	الحصين بن الحارث
٢٦	رافع بن مالك	سعيد بن عمرو
٢٧	رافع بن المعلي	صفوان بن بيضاء
٢٨	زيد بن الديثة	خالد بن أبي بكير
٢٩	زيد بن سهل	أبو عبيدة عامر بن الجراح
٣٠	زيد بن المزين	مسطح بن أثاثه
٣١	سعد بن خيثمة	أبو سلمة بن عبد الأسد
٣٢	سعد بن الربيع	عبد الرحمن بن عوف
٣٣	سعد بن زيد وقيل كعب بن مالك	طلحة بن عبيد الله وعمرو بن سراقة
٣٤	سلمة بن سلامة	الزبير بن العوام
٣٥	سعد بن معاذ	عبد الله بن مسعود وقيل سعد بن أبي وقاص
٣٦	سهل بن حنيف	علي بن أبي طالب
٣٧	سهل بن المعلى	عبد الله بن مظعون
٣٨	سويد بن عمرو	وهب بن سعد
٣٩	طلحة بن زيد بن سهل	الأرقم بن الأرقم
٤٠	عائد بن ماعص	سويبط بن سعد
٤١	عاصم بن ثابت	عبد الله بن جحش
٤٢	عباد بن بشر	أبو حذيفة بن عتبة
٤٣	أبو عبادة سعد بن عثمان	عثمان بن عفان
٤٤	عبادة بن الصامت	أبو مرثد الغنوي
٤٥	عباس بن عبادة	عثمان بن مظعون
٤٦	أبو عبس بن جبر	خنيسبن حذافة
٤٧	عبيد بن التيهان	مسعود بن الربيع
٤٨	عتبان بن مالك	عمر الفاروق
٤٩	عمارة بن حزم	محرز بن نضله
٥٠	عمرو بن معاذ	عمير بن أبي وقاص
٥١	عمير بن الحمام	عبيدة بن الحارث

ع	الأنصاري	أخاه المهاجري في الإسلام
٥٢	عوف بن مالك	الصعب بن جثامة
٥٣	عويم بن ساعدة	حاطب بن أبي بلتعة
٥٤	فروة بن عمرو البياضي	عبد الله بن مخرمة
٥٥	كعب بن مالك	طلحة بن عبيد الله
٥٦	مبشر بن عبد المنذر	عاقل بن أبي بكر
٥٧	المجذر بن زياد	عاقل بن أبي بكر
٥٨	مُحَمَّد بن مسلمة	أبو عبيدة بن الجراح
٥٩	معاذ بن جبل	جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود
٦٠	معاذ بن ماعص	سالم مولى أبي حذيفة
٦١	معن بن عدي	زيد بن الخطاب
٦٢	المنذر بن عمرو	طليب بن عمير
٦٣	المنذر بن مُحَمَّد	الطفيل بن الحارث
٦٤	يزيد بن الحارث	ذو الشمالين
٦٥	يزيد بن المنذر	عامر بن ربيعة

المصدر: ابن سعد: الطبقات،ج٣، ص٤٩٨، ٥٧١، ابن عبد البر: الاستعاب، ج١، ص١٦٧، ج٢، ٣٣٨ ، ابن الأثير: أسعد الغابة ج٢ص١١٥، ج٣ص٣٧٩، ج٤ ص٤٨٧.

ملحق (٤)

رسم توضيحي لتوزيع قبائل اليهود في يثرب قبل الإسلام



ملحق رقم (٥)

سند الوثيقة من خلال مصادر السيرة

جاء سند صحيفة المدينة في أسانيد مختلفة منها :

١/ رواية ابن إسحاق وساقه دون اسناد ورواه عنه ابن سيد الناس (**في عيون الأثر**) عن ابن أبي خيثمة وابن هشام (**في السيرة النبوية**) وكذلك رواه ابن كثير في (**تاريخه**).

٢/ اسناد أبو عبيد القاسم بن سلام في (**الأموال**) .

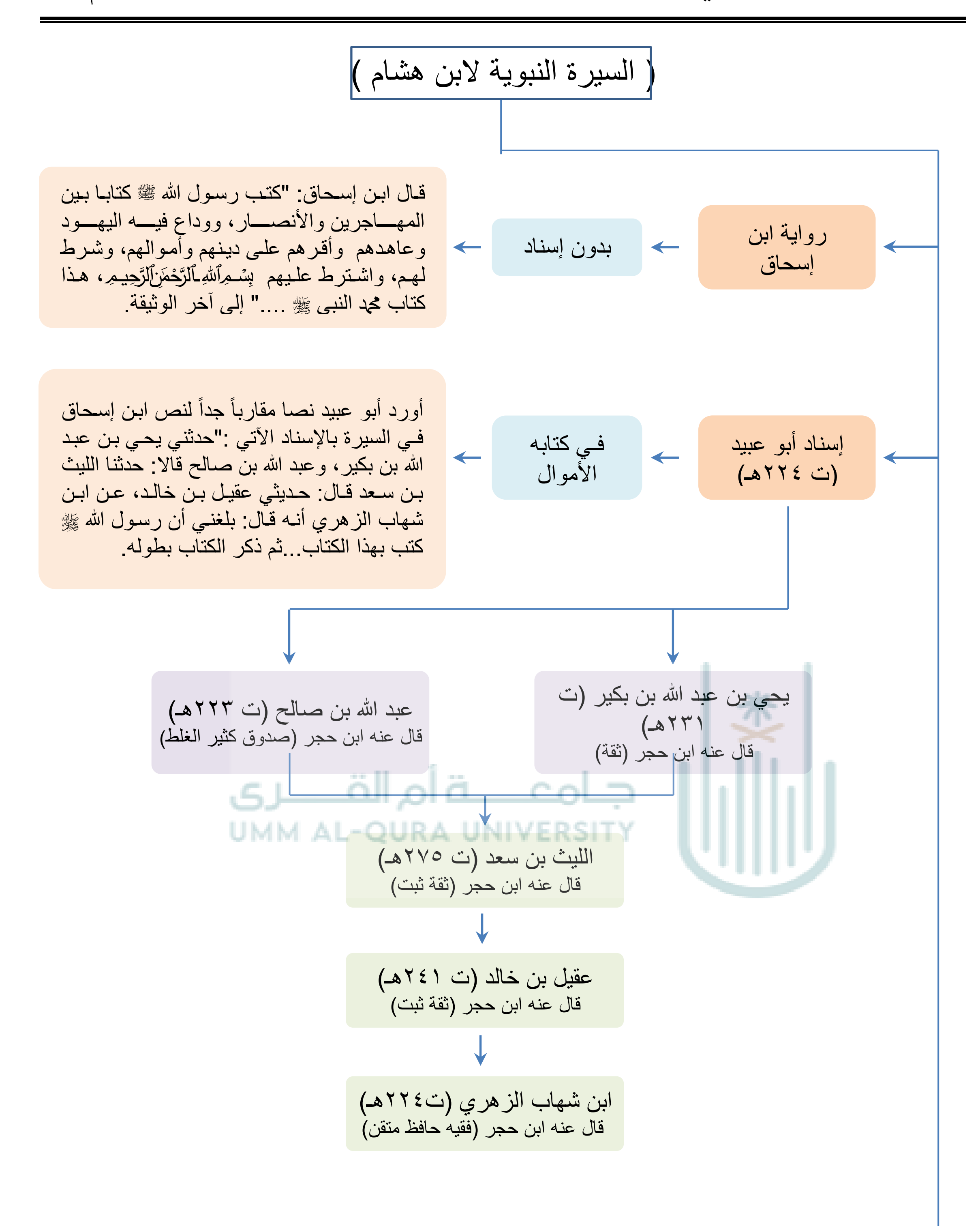
٣/ اسناد ابن زنجويه في (**الأموال**) عن طريق الزهري.

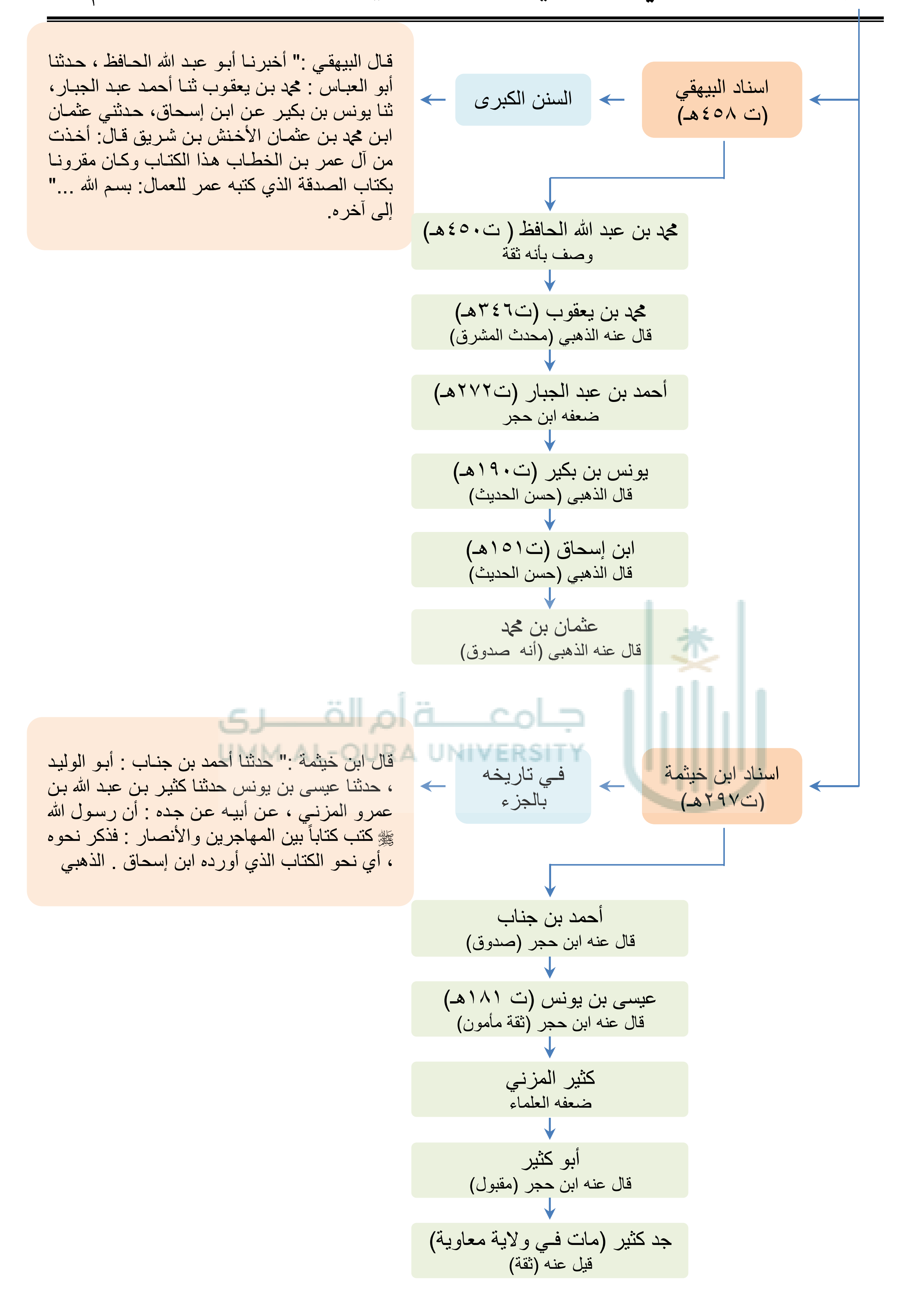
٤/ اسناد البيهقي في (**السنن الكبرى**).

٥/ اسناد الإمامين أحمد ومسلم.

٦/ أسانيد سيف ذي الفقار.




(السيرة النبوية لابن هشام)
رواية ابن إسحاق
بدون إسناد
قال ابن إسحاق: "كتب رسول الله ﷺ كتابا بين المهاجرين والأنصار، ووداع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ، هذا كتاب محمد النبى ﷺ ...." إلى آخر الوثيقة.
إسناد أبو عبيد (ت ٢٢٤هـ)
في كتابه الأموال
أورد أبو عبيد نصا مقارباً جداً لنص ابن إسحاق في السيرة بالإسناد الآتي :"حدثني يحي بن عبد الله بن بكير، وعبد الله بن صالح قالا: حدثنا الليث بن سعد قال: حديثي عقيل بن خالد، عن ابن شهاب الزهري أنه قال: بلغني أن رسول الله ﷺ كتب بهذا الكتاب...ثم ذكر الكتاب بطوله.
يحي بن عبد الله بن بكير (ت ٢٣١هـ)
قال عنه ابن حجر (ثقة)
عبد الله بن صالح (ت ٢٢٣هـ)
قال عنه ابن حجر (صدوق كثير الغلط)
الليث بن سعد (ت ٢٧٥هـ)
قال عنه ابن حجر (ثقة ثبت)
عقيل بن خالد (ت ٢٤١هـ)
قال عنه ابن حجر (ثقة ثبت)
ابن شهاب الزهري (ت٢٢٤هـ)
قال عنه ابن حجر (فقيه حافظ متقن)


اسناد البيهقي
(ت ٤٥٨ هـ)
السنن الكبرى
قال البيهقي :" أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، حدثنا أبو العباس : محمد بن يعقوب ثنا أحمد عبد الجبار، ثنا يونس بن بكير عن ابن إسحاق، حدثني عثمان ابن محمد بن عثمان الأخنش بن شريق قال: أخذت من آل عمر بن الخطاب هذا الكتاب وكان مقرونا بكتاب الصدقة الذي كتبه عمر للعمال: بسم الله ..." إلى آخره.
محمد بن عبد الله الحافظ (ت٤٥٠هـ)
وصف بأنه ثقة
محمد بن يعقوب (ت٣٤٦هـ)
قال عنه الذهبي (محدث المشرق)
أحمد بن عبد الجبار (ت٢٧٢هـ)
ضعفه ابن حجر
يونس بن بكير (ت١٩٠هـ)
قال الذهبي (حسن الحديث)
ابن إسحاق (ت١٥١هـ)
قال الذهبي (حسن الحديث)
عثمان بن محمد
قال عنه الذهبي (أنه صدوق)
اسناد ابن خيثمة
(ت٢٩٧هـ)
في تاريخه
بالجزء
قال ابن خيثمة :" حدثنا أحمد بن جناب : أبو الوليد ، حدثنا عيسى بن يونس حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو المزني ، عن أبيه عن جده : أن رسول الله ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار : فذكر نحوه ، أي نحو الكتاب الذي أورده ابن إسحاق . الذهبي
أحمد بن جناب
قال عنه ابن حجر (صدوق)
عيسى بن يونس (ت ١٨١هـ)
قال عنه ابن حجر (ثقة مأمون)
كثير المزني
ضعفه العلماء
أبو كثير
قال عنه ابن حجر (مقبول)
جد كثير (مات في ولاية معاوية)
قيل عنه (ثقة)

ملحق (٦)

نص الوثيقة كاملة

المصدر: محمد حميد الله من كتابه مجموعة الوثائق السياسية

20-30 — Hubert Grimme, *Muhammed,* I, 75-81 — A. Müller, *Der Islam in Morgen - und Abendland,* I. 98 — Joseph Hell siehe auf English — Ludolf Krehl, *Leben Muhammeds,* p. 142-8 — Bebel, *Muhammedanische arabische Kultureperiod,* Kap. 1,2 — Ranke, *Weltgeschichte,* V. 75ff — Wellhausen, *Das arabische Reich und sein Sturz,* p. 4-10

(Français): M. Hamidullah, *Documents sur la diplomatie musulmane* Paris 1935, I. 20-26.— Le même, *Le Prophète de l'Islam, sa vie et son oeuvre,* 4e éd. Paris 1979, §341-358.

ولا بأس بأن نذكر أن حديث البخاري وأبي داود وغيرهما عن علي بن أبي طالب يجمع بين عدة وثائق ، رقم ١ ، ١/ ألف ، ١٠٦ ، ١١٠ وغيرها فيما يظهر .

ولنذكر أيضاً أن ابن حنبل يروي اقتباساته عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، وابن عابس وعائشة رضي الله عنهم .

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) هذا كتاب من محمد النبي [رسول الله] بين المؤمنين والمسلمين من قريش و[أهل] يثرب ومَن تبِعهم فلحِق بهم وجاهد معهم .

(٢) أنهم أمّة واحدة مِن دون الناس .

(٣) المهاجرون من قريش على رِبعتهم يتعاقلون بينهم وهم يَفدُون عانِيَهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٤) وبنو عَوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلَهم الأولى ، وكل طائفة تَفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٥) وبنو الحارث [بن الخزرَج] على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٦) وبنو ساعِدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٧) وبنو جُشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٨) وبنو النَّجّار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٩) وبنو عَمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ،

١٨ وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(١٠) وبنو النَّبِيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٢١ (١١) وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ؛ وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(١٢) وأنّ المؤمنين لا يتركون مُفرَحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف

٢٤ في فداء أو عقل .

(١٢ب) وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

(١٣) وأن المؤمنين المتقين [أيديهم] على [كل] مَن بغى منهم ،

٢٧ أو ابتغى دَسيعةَ ظلمٍ ، أو إثماً ، أو عدواناً ، أو فساداً بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولدَ أحدهم .

(١٤) ولا يَقْتُل مؤمنٌ مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على

٣٠ مؤمن .

(١٥) وأنّ ذمّة الله واحدة يجبر عليهم أدناهم ، وأنّ المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس .

٣٣ (١٦) وأنه مَن تبعنا من يهود فإنّ له النصرَ والأسوةَ غير مظلومين ولا مُتناصر عليهم .

(١٧) وأنّ سلم المؤمنين واحدةٌ ، لا يُسالِم مؤمن دون مؤمن

٣٦ في قتال في سبيل الله ، إلا على سواءٍ وعدل بينهم .

(١٨) وأنّ كل غازية غَزَت معنا يعقب بعضها بعضاً .

(١٩) وأن المؤمنين يُبيء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في

٣٩ سبيل الله .

(٢٠) وأن المؤمنين المتقين على أحسن هُدىً وأقومه .

(٢٠ ب) وأنه لا يجير مشركٌ مالاً لقريش ولا نفساً ، ولا يحول

٤٢ دونه على مؤمن .

(٢١) وأنه مَـن اعتَبط مؤمناً قتلا عن بيّنة فإنه قَوَدٌ به ، إلا أن

يـرضى ولي المقتـول [بالعقـل] وأنّ المؤمنين عليه كـافّـةً ولا يحـلُّ لهم إلا قيام عليه . ٤٥

(٢٢) وأنه لا يحل لمؤمن أقرَّ بما في هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخـر أن يَنصر مُحـدثـاً أو يُؤوِيـه ، وأن من نصـره ، أو آواه ، فإنّ عليه لعنةَ الله وغضبهَ يوم القيامة ، ولا يُؤخذ منه صرف ولا عدل . ٤٨

(٢٣) وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإنّ مردَّه الى الله وإلى محمد .

* * *

(٢٤) وأنّ اليهود يُنفقون مع المؤمنين ما داموا مُحاربين .

(٢٥) وأنّ يهود بني عوف أُمّـة مع المؤمنين ، لليهـود دِينهم وللمسلمين دينهم ، مَواليهم وأنفسهم إلا مَن ظَلَم وأثم ، فإنـه لا يُوتِغ إلا نفسه وأهل بيتِه . ٥١

(٢٦) وأنّ ليهود بني النّجّار مثل ما ليهود بني عوف . ٥٤

(٢٧) وأنّ ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف .

(٢٨) وأنّ ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف .

(٢٩) وأنّ ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوف . ٥٧

(٣٠) وأنّ ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف .

(٣١) وأنّ ليهود بني ثَعلَبة مثل ما ليهود بني عوف ، إلا مَن ظلم وأثم ، فإنّه لا يُوتِغ إلا نفسَه وأهلَ بيته . ٦٠

(٣٢) وأنّ جَفْنَةَ بطنٌ مِن ثعلبة كأنفسهم .

(٣٣) وأنّ لبني الشُّطَيبَة مثل ما ليهود بني عوف ، وأنّ البرَّ دون الإِثم . ٦٣

(٣٤) وأنّ موالي ثعلبة كأنفسهم .

(٣٥) وأنّ بطانة يهود كأنفسهم .

(٣٦) وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد . ٦٦

(٣٦ ب) وأنـه لا يَنْحَجِـز على ثـأرِ جُـرحٍ ، وأنـه مَن فَتَـك

فبنفسه وأهل بيته إلا مَن ظَلم وأنّ الله على أبَرِّ هذا .

٦٩ (٣٧) وأنّ على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأنّ بينهم النصر على مَن حاربَ أهل هذه الصحيفة ، وأنّ بينهم النصح والنصيحة والبرِّ دون الإثم .

٧٢ (٣٧ ب) وأنه لا يأثم امرءٌ بحليفه ، وأنّ النصر للمظلوم .

(٣٨) وأنّ اليهود يُنفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

(٣٩) وأنّ يَثربَ حرامٌ جوفُها لأهل هذه الصحيفة .

٧٥ (٤٠) وأنّ الجار كالنفس غير مُضارٍّ ولا آثِم .

(٤١) وأنه لا تُجار حرمةٌ إلا بإذن أهلها .

(٤٢) وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة مِن حَدث ، أو اشتجار

٧٨ يُخاف فسادُه ، فإنّ مَرَدَّه إلى الله وإلى محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وأنّ الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبَرِّه .

(٤٣) وأنه لا تُجار قريش ولا مَن نَصَرها .

٨١ (٤٤) وأنّ بينهم النصر على مَن دهم يثرب .

(٤٥) وإذا دُعوا إلى صلح يُصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وأنهم إذا دَعوا إلى مثل ذلك ، فإنه لهم على المؤمنين إلا

٨٤ مَن حاربَ في الدِين .

(٤٥ ب) على كل أناس حِصَّتهم مِن جانبهم الذي قِبَلهم .

(٤٦) وأنّ يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه

٨٧ الصحيفة مع البِّر المحض مِن أهل هذه الصحيفة ، وأنّ البرَّ دون الإثم لا يَكسِب كاسب إلا على نفسه ، وأنّ الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبَرِّه .

٩٠ (٤٧) وأنه لا يحول هذا الكتابُ دون ظالمٍ أو آثم ، وأنه مَن خرجَ آمِنٌ ومن قعد آمِنٌ بالمدينة ، إلا مَن ظلم وأثم ، وأنّ الله جارٌ لمن بَرَّ واتّقى ، ومحمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

ملحق (٧)
(نص المعاهدة النَّبوية لبني ضمرة)

(بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ هذا كتاب من مُحَمَّد رسول الله)[١] لبني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة:

بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وأن لهم النصر على من دهمهم بظلم ، وعليهم نصر النبي مابل بحر صوفه إلا أن يحاربوا في دين الله. وأن النبي إذا دعاهم لنصره أجابوه. عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله . ولهم على من بر منهم وأتقى[٢].



(١) هذا الجزء عند السهيلي فقط في الروض الأنف ج٢، ص ٢٩-٥٨.

(٢) ابن سعد: الطبقات، ج١،ص٢٧. وله تلخيصا آخر للمعاهدة "لا يغزو بني ضمرة ولا يغزونه، ولا يكثروا عليه جمعا، ولا يعينوا عليه عدوا".

ملحق رقم (٨)

(نص المعاهدة النَّبوية مع نصارى نجران)

بسم الله الرحمن الرحيم:

هذا ما كتب مُحَّد النبي رسول الله ﷺ لأهل نجران -إذا كان عليهم حكمه- في كل ثمرة، وفي كل صفراء وبيضاء ورقيق فأفضل ذلك عليهم، وترك ذلك كله [لهم] على ألفي حلة من حلل الأواقي، في كل رجب ألف حلة، وفي كل صفر ألف حلة، مع كل حلة أوقية من الفضة، فما زادت على الخراج أو نقصت عن الأواقي فبالحساب، وما قضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض أخذ منهم بالحساب، وعلى نجران مؤنة رسلي ومتعتهم ما بين عشرين يوماً فما دون ذلك، ولا تحبس رسلي فوق شهر.

وعليهم عارية ثلاثين درعاً، وثلاثين فرساً، وثلاثين بعيراً، إذا كان كيد ومعرة، وما هلك مما أعاروا رسلي من دروع، أو خيل أو ركاب، [أو عروض] فهو ضمين على رسلي حتى يؤدوه إليهم.

ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة مُحَّد النبي رسول الله على أنفسهم وملتهم، وأرضهم وأموالهم، وغائبهم وشاهدهم، وعشيرتهم، وبيعهم [وصلواتهم]، [وكل ما تحت أيد يهم من قليل أو كثير]، وألا يغيروا مما كانوا عليه بغير حق من حقوقهم ولا ملتهم، ولا يغير أسقف عن أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته.

وليس عليهم دنية، ولا دم جاهلية، ولا يحشرون، ولا يعشرون، ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين. [على ألا يأكلوا الربا] فمن أكل الربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر، وعلى ما في هذه الصحيفة جوار الله، وذمة النبي مُحَّد رسول الله أبداً، حتى يأتي الله بأمره ما نصحوا وأصلحوا ما عليهم، غير مثقلين بظلم».

شهد أبو سفيان بن حرب، وغيلان بن عمرو، ومالك بن عوف النصري، والأقرع بن حابس الحنظلي، والمغيرة بن شعبة "[١].

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٦ ص٤٢٠ ، ومكاتيب الرسول ج٣ ص١٥٢ عن المصادر التالية: البداية والنهاية ج٥ ص٥٥ وتاريخ المدينة لابن شبة ج٢ ص٥٨٤.

ملحق (٩)

نص هدنة الحديبية

باسمك اللهم :

هذا ما صلح عليه مُحَّد بن عبد الله سهيل بن عمرو.

واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشرفيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض

(على أنه من قدم مكة من أصحاب مُحَّد حاجاً أو معتمراً أو يبتغى من فضل الله

فهو آمن على دمه وماله ، ومن قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر أو إلى الشام يبتغى من فضل الله فهو آمن على دمه وماله)

على أنه من أتى مُحَّدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع مُحَّد لم يردوه عليه.

وإن بيننا عيبة مكفوفة ، وإنه لا إسلال ولا إغلال .

وإنه من أحب أن يدخل في عقد مُحَّد وعهده دخله ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

فتواثبت خزاعة فقالوا " نحن في عقدمُحَّد وعهده" وتواثبت بنو بكر فقالوا " نحن في عقد قريش وعهدهم "

وأن ترجع عنا عامك هذا ، فلا تدخل علينا مكة ، وإنه إذا كان عام قابل ، خرجنا عنك فدخلتها بأصحاب فأقمت بها ثلاثاً ، معك سلاح الراكب ، السيوف في القرب ، ولا تدخلها بغيرها .

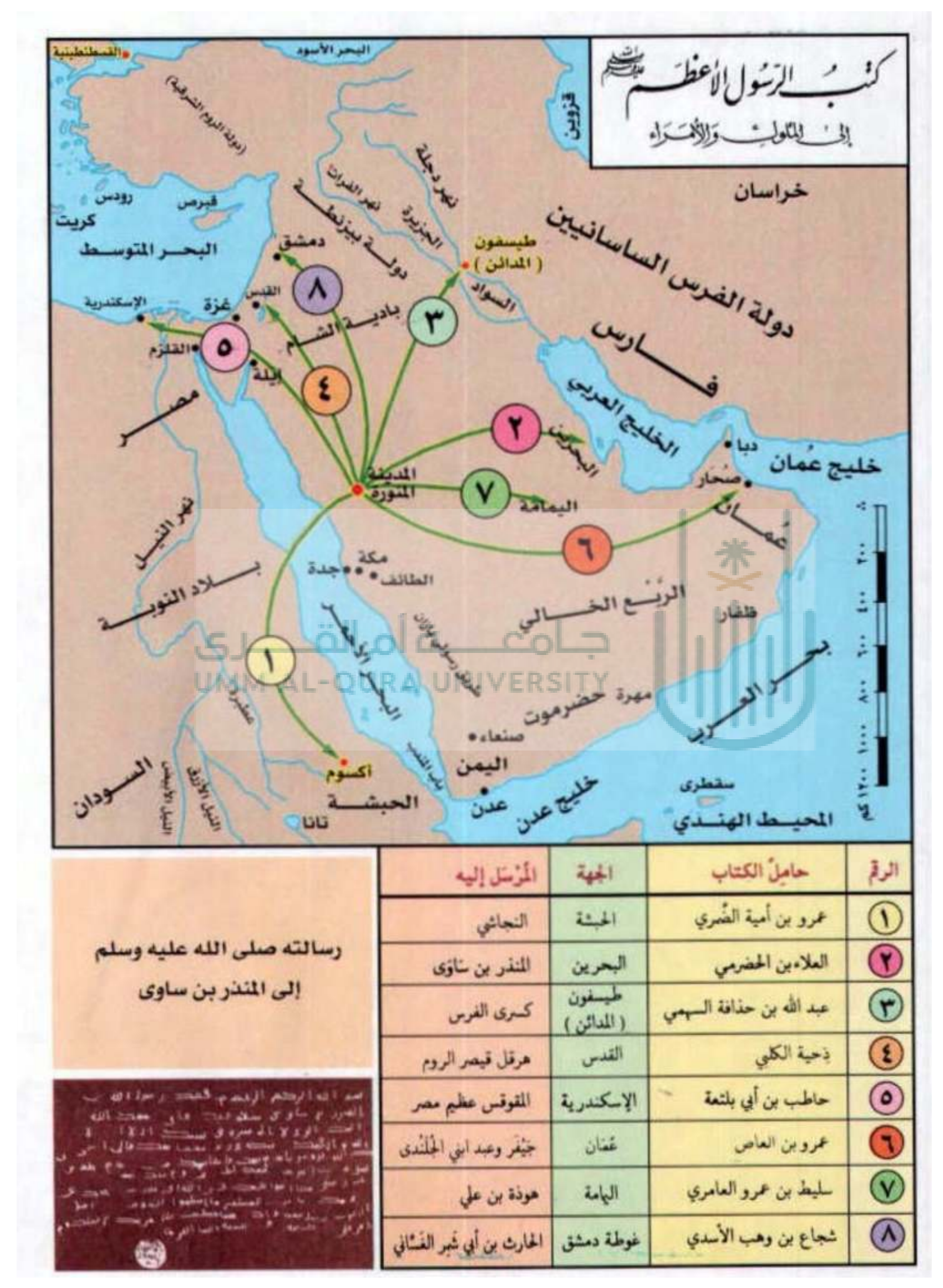
.....أشهد على الصلح رجال من المسلمين ورجال من المشركين .

أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن سهيل بن عمر ، وسعد بن أبي وقاص ، ومُحَّد بن مسلمة . وعلى بن أبي طالب وكتب(١) .

(١) تورد المصادر روايات مختلفة للنص وهذا النقل موافق لما عند حميد الله اختصارا لما في السيرة النبوية لابن هشام ، ص٧٤٧- ٧٤٨.

ملحق رقم (١٠)

خارطة طرق البريد النبوي الثمانية لرسائل ملوك وأمراء الأرض



الرقم	حاملُ الكتاب	الجهة	المُرسَل إليه
١	عمرو بن أمية الضُّمري	الحبشة	النجاشي
٢	العلاء بن الحضرمي	البحرين	المنذر بن ساوَى
٣	عبد الله بن حذافة السهمي	طيسفون (المدائن)	كسرى الفرس
٤	دِحية الكلبي	القدس	هرقل قيصر الروم
٥	حاطب بن أبي بلتعة	الإسكندرية	المقوقس عظيم مصر
٦	عمرو بن العاص	عُمان	جَيْفَر وعبد ابني الجُلَنْدى
٧	سليط بن عمرو العامري	اليمامة	هوذة بن علي
٨	شجاع بن وهب الأسدي	غوطة دمشق	الحارث بن أبي شِمر الغسّاني

المصدر: أطلس السيرة النبوية شوقي أبو خليل (ص١٦٣)

ملحق رقم (١١)

ملخص سلسلة سفراء رسل نبي الله ﷺ إلى ملوك زمانه

م	التاريخ	اسم السفير	المرسل إليه	نتائج السفارة
١	٨ق . هـ	جعفر بن أبي طالب	النجاشي ملك الحبشة	أول سفير للإسلام أسلم النجاشي الأول
٢	أواخر عام٦هـ(٦٢٨م)	عمرو بن أمية الضمري	النجاشي ملك الحبشة	أسلم النجاشي الثاني أيضا.
٣	أواخر عام٦هـ(٦٢٨م)	دحية بن خليفة الكلبي	هرقل قيصر الروم	صرف السفير النبوي بالحسنى
٤	أواخر عام ٦هـ(٦٢٨م)	حاطب بن بلتعة اللخمي	المقوقس ملك مصر	أهدى للنبي ﷺ وصرف السفير النبوي بالحسنى
٥	أواخر عام ٦هـ(٦٢٨م)	شجاع بن وهب الأسدي	الحارث بن شمر ملك الغساسنة بالشام	لم يسلم
٦	أواخر عام ٦هـ(٦٢٨م)	سليط بن عمرو القرشي	هوذة بن علي الحنفي ملك اليمامة	أسلم
٧	أواخر عام ٦هـ(٦٢٨م)	العلاء الحضرمي	المنذر بن ساوى العبدي في البحرين	أسلم
٨	أوائل عام ٧هـ(٦٢٩م)	عبد الله السهمي	كسرى أبرويز ملك الفرس	مزق الكتاب النبوي
٩	أواسط عام ٨هـ(٦٣٠م)	الحارث بن عمير الأزدي	ملك بُصْرى في الشام	استشهد السفير النبوي قبل وصوله إلى ملك بُصرى
١٠	أواخر عام ٨هـ(٦٣٠م	عمرو بن العاص السهمي	جعفر وعبد ابنا الجلندي في عمان	أسلما
١١	عام ٩هـ (٦٣١م)	معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي	الحارث وشرحبيل ونعيم بن عبد كلال	أسلموا
١٢	أواخر عام ٩هـ(٦٣١م)	المهاجر بن أبي أمية المخزومي	الحارث بن عبد كلال الحميري في اليمن	أسلم
١٣	أواخر عام ٩هـ(٦٣١م)	أبو موسى الأشعري	الحارث وشرحبيل ونعيم بن عبد كُلال واخوته	أسلموا
١٤	أواخر عام ١٠هـ(٦٣٢م)	عمرو بن حزم الأنصاري	الحارث كُلال واخوته وبنو الحارث بن كعب في نجران	أسلموا
١٥	عام ١١هـ (٦٣٣م)	جرير بن عبد الله البجلي	ذو الكلاع وذو عمرو في اليمن	أسلما

ملحق رقم (١٢)

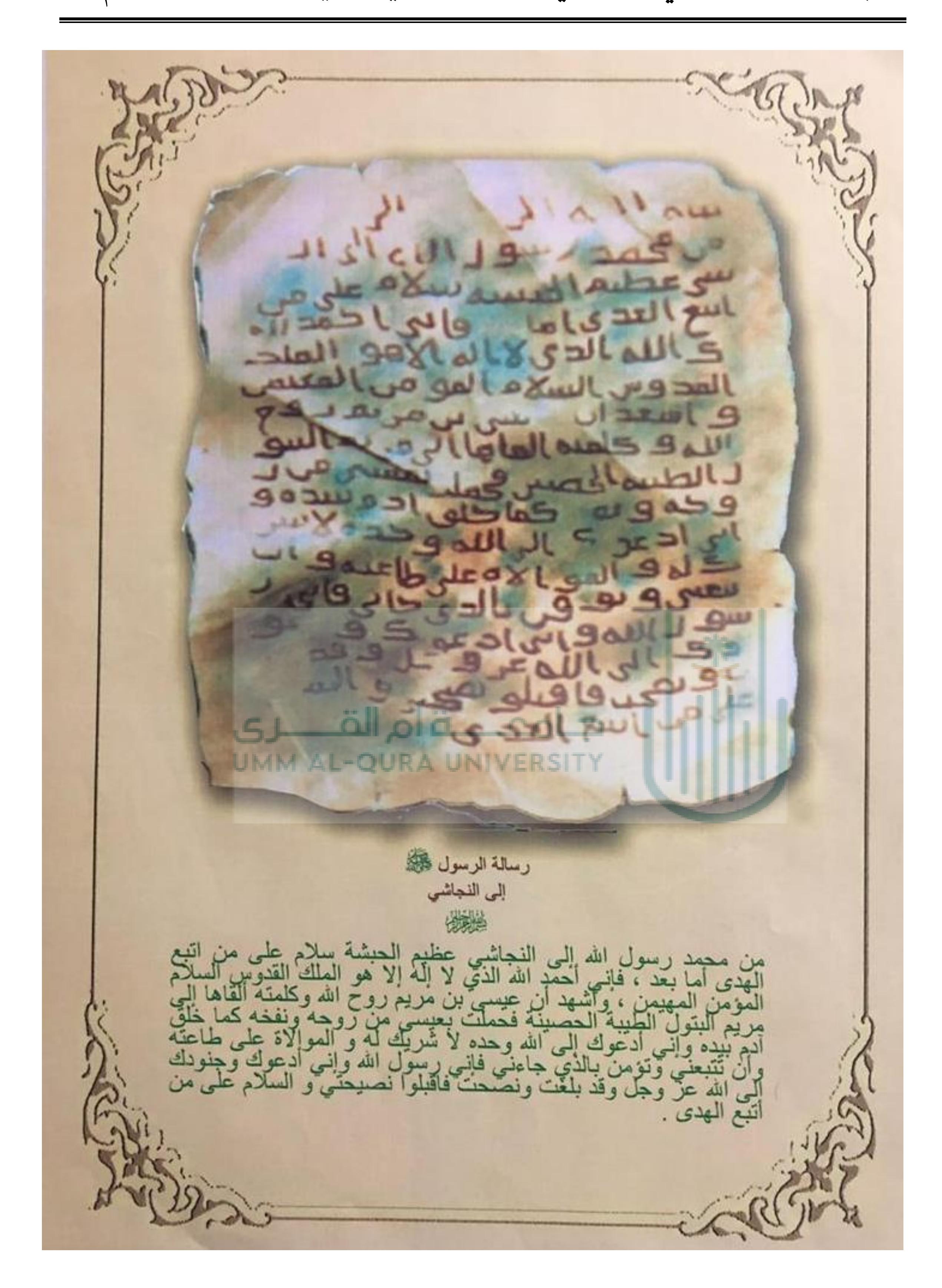
نماذج للمراسلات النبوية



رسالة الرسول ﷺ
إلى المقوقس عظيم القبط

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبدالله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى وأما بعد فإني أدعوك بدعوة الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فعليك إثم القبط و (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) .

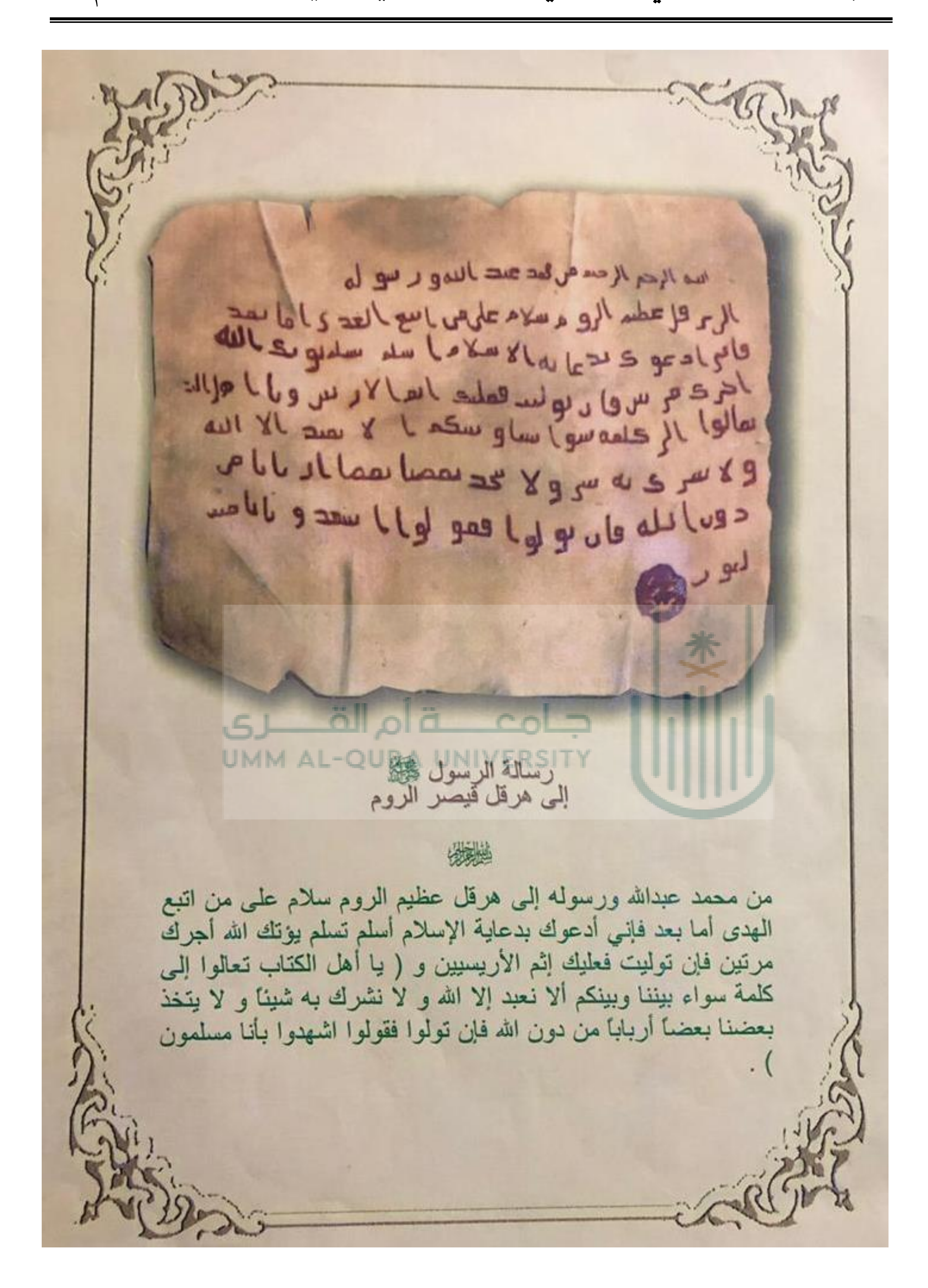


رسالة الرسول ﷺ

إلى النجاشي

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة سلام على من اتبع الهدى أما بعد ، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له و الموالاة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي و السلام على من اتبع الهدى .



رسالة الرسول ﷺ
إلى هرقل قيصر الروم

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فعليك إثم الأريسيين و (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله و لا نشرك به شيئاً و لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) .

قائمة المصادر والمراجع

فهرس المصادر المراجع

أولاً: المصادر القديمة.

١ــ القرآن الكريم .

٢ــالعهد القديم (سفر التثنية).

ابن الاثير (علي بن أبي الكرم مُحَمَّد) ٦٣٠هـ:

٣ــ أسد الغابة في معرفة الصحابة: دار الكتب العلمية، ط١، عام ١٤١٥هـ .

٤ــالكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، ط١،عام ١٤٠٧هـ.

ابن الأثير (المبارك بن مُحَمَّد الجزري أبو السعادات) ت٦٠٦هـ:

٥ــالنهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، ودار الفكر للطباعة، بيروت،(د.ت).

ابن الأزرق (مُحَمَّد علي مُحَمَّد الأصبحي الأندلسي) ت٨٩٦هـ:

٦ــ بدائع السلك في نظام الملك، تحقيق علي سامي النشار، وزارة الإعلام، العراق، الطبعة الأولى، (د.ت).

ــالأصبهاني (إسماعيل بن مُحَمَّد بن الفضل) ت ١١٤١هـ:

٧ــ الترغيب والترهيب أبو القاسم، تحقيق أيمن بن صالح بن شعبان، دار الحديث، طبعة عام ١٤١٤ هـ .

ابن إسحاق(مُحَمَّد بن يسار المطلبي) ت٢١٣هـ:

٨ــالسيرة النبوية، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، ط١،عام ١٤٢٤هـ.

البخاري (مُحَمَّد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي) ت ٢٥٦هـ:

٩ــالتاريخ الكبير، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط٢٠٠١م.

١٠ــ صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، تحقيق مُحَمَّد ناصر الألباني، دار الصديق للنشر والتوزيع، طبعة ٤ عام ١٤١٨ هـ.

١١ــصحيح البخاري، ط٣، تحقيق مصطفى البغا، دار اليمامة، بيروت ١٤٠٧هـ.

البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو العتكي (ت ٢٩٢هـ) :

١٢ــ مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله وآخرون، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، (د. ت).

البلاذري(أحمد بن يحيى بن جابر) ت ٢٧٩ هـ:

١٣_ أنساب الأشراف، بغداد، مكتبة المثنى، (د. ت).

١٤_ فتوح البلدان، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة (د.ت).

البيهقي (أبو بكر أحمد بن حسين) ت ٤٥٨ هـ :

١٥_ السنن الكبرى، ط ١، حيدر أباد، المطبعة العثمانية، (١٣٥٤ هـ) .

١٦_ شعب الإيمان، تحقيق مُحَّد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية بيروت _لبنان(د.ت).

التتوي، نور الدين السندي (ت١١٣٨هـ):

١٧_حاشية السندي على سنن ابن ماجه (كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه)، دار الجيل، بيروت، (د.ت).

الترمذي(مُحَّد بن عيسى بن سورة الترمذي) ت ٢٧٩ هـ :

١٨_ صحيح الترمذي، شرح ابن العربي المالكي، (ط ١)، القاهرة، المطبعة المصرية بالأزهر، عام ١٣٥ هـ.

التهانوى، مُحَّد على (ت ١١٥٨هـ) :

١٩_موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق علي دحروج، مكتبة لبنان _بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٦م .

ابن تيمية (تقي الدين أحمد بن تيمة الحراني) ت٧٢٨هـ :

٢٠_ الحسبة في الإسلام، أو وظيفة الحكومة الإسلامية، تحقيق علي بن نايف الشحود، ط٢، عام ١٤٢٨هـ .

٢١_مجموع الفتاوى، من كتاب أصول الفقه، التمذهب، تحقيق عامر الجرار، وأنور الباز، مجموع الملك فهد ١٤١٦هـ.

٢٢_ منهاج السنة النبوية، تحقيق مُحَّد رشاد سالم، ط١،عام ١٤٠٦هـ .

الحاكم النيسابوري (أبو عبد الله مُحَّد بن عبد الله) ت٤٠٥هـ :

٢٣_ المستدرك على الصحيحين، دار المعرفة، عام ١٤١٨هـ، ودار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

ابن حبان (مُحَّد بن حبان بن أحمد البُستي) ت ٣٥٤هـ :

٢٤_ صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة — بيروت، ط٢عام ١٤١٤ هـ .

ابن حجر (أحمد بن علي العسقلاني) ت ٨٥٢هـ :

٢٥_ الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتب العلمية، بيروت، عام ١٤١٥هـ.

٢٦_ بلوغ المرام من أدلة الأحكام، دار الأفاق الفكرية، القاهرة،(د.ت).

٢٧_فتح الباري شرح صحيح البخاري، اخراج وتصحيح محب الدين الخطيب، تحقيق مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة بيروت طبعة عام ١٣٧٩هـ، ودار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ.

٢٨_المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، تحقيق سعد الشثري وآخرون، دار العاصمة - دار الغيث عام ١٤١٩ هـ.

ابن حزم (علي ابن أحمد)ت ٣٨٤هـ :

٢٩_جوامع السيرة النبوية، تحقيق حسان عباس وناصر الدين الأسدي، دار المعارف، مصر، (د.ت).

الحلبي (علي برهان الدين) ت ٨٤١هـ :

٣٠_ السيرة الحلبية (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون)، دار المعرفة، بيروت، عام ١٤٠٠م.

ابن حنبل (أحمد بن مُحَمَّد) ت ٢٤١ هـ:

٣١_ المسند، بيروت، دار صادر والمكتب الإسلامي، (د. ت).

الحموي(أبو عبد الله المشهور بياقوت الحموي)ت ٦٢٦هـ :

٣٢_معجم البلدان،طبعة بيروت،دار صادر و دار بيروت للنشر والتوزيع عام ١٩٥٥م .

الحميري (ابن عبد المنعم أبو عبد الله مُحَمَّد الحِميرى) ت٩٠٠هـ:

٣٣_الروض المعطار في خبر الأقطار تحقيق: إحسان عباس مكتبة لبنان ط٢- ١٩٨٤م.

الخزاعي (علي بن مُحَمَّد ابن مسعود) ت ٧٨٩هـ :

٣٤_الدلالات السمعية، تحقيق احسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط١،عام ١٤٠٥هـ.

ابن خزيمة (أبو بكر مُحَمَّد بن إسحاق)ت ٣١١هـ :

٣٥_صحيح ابن خزيمة، تحقيق مُحَمَّد مصطفى الاعظمي،المكتب الإسلامي، سنة النشر: ١٤٢٤هـ .

ابن خلدون (عبد الرحمن بن مُحَمَّد الحضرمي) ت ٨٠٨هـ:

٣٦_ المقدمة (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، طبعة دار الشعب، (د.ت)، والطبعة الأزهرية، عام ١٩٣٠م.

الخلواتي، إسماعيل حقي (ت ١١٢٧هـ):

٣٧ــروح البيان في تفسير القرآن، ضبط وتصحيح عبد اللطف حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

الدارمي (عبد الله بن عبد الرحمن) ت٢٥٥هـ :

٣٨ــ سنن الدارمي، تحقيق فؤاد أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت،عام ١٤٠٧هـ.

أبو داود (سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي) ت ٢٧٥هـ :

٣٩ــ سنن أبي داود، تحقيق مُحَّد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت ــ صيدا،(د.ت).

الدنيوري، أحمد بن مروان (ت ٣٣٣هـ):

٤٠ــالمجالسة وجواهر العلم، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، جمعية التربية الإسلامية دار ابن حزم، الطبعة ١، عام ١٤١٩هـ.

الذهبي(أبو عبد الله مُحَّد أحمد بن عثمان) ت ٧٤٨ هـ :

٤١ــ سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، (ط ٢)، بيروت، مؤسسة الرسالة، عام١٤٠٢هـ.

٤٢ــ السيرة النبوية، تحقيق حسام الدين القدسي، بيروت، دار مكتبة الهلال، (د. ت).

الرازي (زين الدين أبو عبد الله مُحَّد بن أبي بكر) ت ٦٦٦هـ :

٤٣ــمختار الصحاح، تحقيق يوسف الشيخ مُحَّد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، ط ٥، عام ١٤٢٠هـ.

ــابن رجب (أبو الفرج عبد الرحمن الحنبلي) ت ٧٩٥هـ :

٤٤ــ استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس، مطبعة الإمام، مصر، (د.ت).

٤٥ــ جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديث من جوامع الكلم، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

ابن رسته (أبو علي أحمد) (٣٠٠هـ):

٤٦ــ الإعلاق النفيسة، دار صادر، بيروت، لبنان،١٨٩٣م.

الزبيدي، مُحَّد بن مُحَّد الحسيني(ت ١٢٠٥هـ):

٤٧ــإتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، المكتبة الوقفية للكتب المصورة pdf موافق للمطبوع.

الزرقاني، مُحَّد بن عبد الباقي (١١٢٢هـ) :

٤٨ـشرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، مكتبة الثقافة الدينية، عام ١٤٢٤هـ.

ابن زنجويه (حميد بن مخلد بن قتيبة الأزدي النسائي) ت ٢٥١ هـ:

٤٩ـ الأموال، تحقيق شاكر ذيب فياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، (د.ت).

السبكي، تاج الدين عبد الوهاب السبكي(ت ٧٧١ هـ) :

٥٠ـ الأشباه والنظائر، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود و علي مُحَّد عوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١١٤١١ هـ .

ابن سعد(أبو عبد الله مُحَّد بن سعد البغدادي) ت٢٣٠هـ :

٥١ـ الطبقات الكبرى، تحقيق مُحَّد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، عام ١٤١٠هـ.

السمعاني (عبد الكريم بن مُحَّد السمعاني) ت ٥٦٢هـ :

٥٢ـ الأنساب للسمعاني، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، نشر مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الطبعة١، عام، ١٣٨٢ هـ .

السمهودي (علي بن عبد الله) ت ٩١١هـ :

٥٣ـوفاء الوفاء، تحقيق مُحَّد محي الدين،(د. م)،بيروت، عام١٣٩١هـ.

السهيلي(أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد) ت٥٨١هـ :

٥٤ـ الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

ابن سيد الناس (أبو الفتح مُحَّد بن مُحَّد اليعمري) ت٧٣٤هـ :

٥٥ـعيون الأثر في فنون المغازي والسير، تحقيق لجنة حفظ التراث، بيروت عام ١٩٨٠م.

السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر) ت ٩١١هـ :

٥٦ـأسباب النزول بهامش تفسير الجلالين، مكتبة الملاح، دمشق، عام ١٣٨٣هـ .

٥٧ـتاريخ الخلفاء، تحقيق مُحَّد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية،صيدا، بيروت،(د.ت).

٥٨ـالدر المنثور في التفسير بالمأثور، (د . م)، (د. ت).

الشاطبي (إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي) ت ٧٩٠هـ:

٥٩_الموافقات في أصول الشريعة : تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

: ابن شبة (أبو زيد عمر بن شبة النميري) ت ١٧٣هـ:

٦٠_أخبار المدينة المسمى بتاريخ المدينة، تحقيق فهيم شلتوت، المكتبة الشاملة، موافق للمطبوع.

الشهاب (أبو عبد الله مُحَمَّد القضاعي) ت٤٥٤هـ :

٦١_مسند الشهاب، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، طبعة عام ١٤٠٧هـ.

الشوكاني (مُحَمَّد بن علي مُحَمَّد) ت ١٢٥٠هـ :

٦٢_ نيل الاوطار، دار الحديث، مصر، ط١، ١٤١٣هـ.

ابن أبي شيبة (عبد الله بن مُحَمَّد بن إبراهيم) ت٢٣٥هـ :

٦٣_ الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، مكتبة الرشد، الرياض، عام ١٤٠٩هـ، ومطبعة دار الفكر عام ١٤١٤هـ.

الصالحي (مُحَمَّد يوسف) ت ٩٤٢هـ :

٦٤_ سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق مُحَمَّد عبد الواحد وآخرون، الناشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، عام ١٤١٨ هـ.

الطبراني (سليمان بن أحمد، أبو القاسم) ت٣٦٠هـ :

٦٥_ المعجم الكبير للطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، ١٤٠٤هـ.

الطبري (مُحَمَّد جرير بن يزيد أبو جعفر) ت ٣١٠هـ :

٦٦_تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري) دار الكتب العلمية، ط١، بيروت،١٤٠٧هـ.

٦٧_جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق عبد الله التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط١، عام ١٤٢٢هـ.

العباسي، أحمد بن عبد الحميد (ت ق١٠هـ) :

٦٨_عمدة الأخبار في مدينة المختار، تحقيق مُحَمَّد الطيب الانصاري، مطبعة المدني،القاهرة،عام ١٣٥٩هـ.

ابن عبد البر (أبو عمر يوسف بن عبد الله) ت ٤٦٣هـ :

٦٩_ الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار، تحقيق سالم مُحَّد عطا، مُحَّد علي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١عام ١٣٢١هـ.

٧٠_ الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي مُحَّد البجاوي، دار الجيل، بيروت ط١، ١٤١٢هـ .

أبو عبيد (القاسم بن سلام الهروي) ت ٢٢٤هـ :

٧١_ الأموال، تحقيق مُحَّد خليل هراس، دار الكتب العلمية، ط١،عام ١٩٨٦م.

ابن العربي (مُحَّد بن عبد الله المعافري الأشبيلي) ت ٥٤٣هـ :

٧٢_ أحكام القران، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٢٤هـ.

ابن عساكر(أبو القاسم علي الشافعي) ت ٥٧١ هـ :

٧٣_ تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ترتيب عبد القادر بدران، دار المسيرة، بيروت، لبنان، عام ١٩٧٩ م .

عقبة (موسى) ت١٤١هـ :

٧٤_المغازي، جمع ودراسة وتحقيق مُحَّد باقشيش أبو مالك، مطبعة المعرف الجيدة، الرباط، طبعة عام ١٩٩٤م.

الغزالي(أبو حامد مُحَّد) ت٥٠٥هـ :

٧٥_المستصفى، تحقيق مُحَّد عبد السلام، دار الكتب العلمية الطبعة الأولى عام ١٤١٣هـ.

أبن فارس (أحمد بن فارس القزويني)ت ت٣٩٥هـ :

٧٦_ معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، عام ١٤٢٠هـ.

الفاسي (تقي الدين مُحَّد بن أحمد) ت ٨٣٢هـ:

٧٧_ الجواهر السنية في السيرة النبوية، تحقيق ضيف الله الزهراني، مكتبة الرشد عام ١٤٢٩هـ .

قدامة بن جعفر قدامه بن زياد البغدادي ت ٣٣٧هـ :

٧٨_ الخراج وصناعة الكتابة، دار الرشيد، بغداد(د.ت) .

القرطبي (أبو عبد الله مُحَّد الأنصاري) ت ٦٧١هـ :

٧٩_الجامع لأحكام القرآن، دار الكتاب العربي عن دار الكتب المصرية، عام ١٢٨٧هـ.

القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد (ت ٨٢١هـ):

٨٠_ صبح الأعشى في صناعة الإنشا، وزارة الثقافة المصرية، القاهرة،عام ١٩٦٣م .

ابن قيم الجوزية (مُحَّد بن أبي بكر الدمشقي) ت ٧٥١هـ :

٨١_الطب النبوي، دار العلوم الحديثة، بيروت،عام ١٤٠٤هـ .

٨٢_الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، دار بن حزم، بيروت، لبنان ط١، عام ١٤٢٩هـ.

٨٣_ زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت،عام ١٤١٥هـ.

٨٤_ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق مُحَّد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي ط٧،عام ١٤٢٣ هـ.

٨٥_ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، دار القلم - دار الشامية،عام ١٤١٦هـ .

٨٦_الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب، تحقيق عبد الرحمن بن حسن بن قائد، مجمع الفقه الإسلامي، جدة، (د.ت).

ابن كثير (إسماعيل بن عمر الدمشقي) ت ٧٧٤هـ:

٨٧_ البداية والنهاية، تحقيق أحمد أبو مسلم وآخرون، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، عام ١٤٠٥هـ.

٨٨_ تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير ابن كثير، دار طيبة سنة النشر، عام ١٤٢٠هـ.

الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى (ت ١٠٩٤هـ):

٨٩_الكليات معجم المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق عدنان درويش ومُحَّد الحصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، (د.ت).

_ابن ماجه(أبو عبد الله بن زيد القزويني) ت ٢٧٥ هـ :

٩٠_ سنن ابن ماجه، تحقيق مُحَّد فؤاد عبد الباقي،(د.ت)، (د. م).

الماوردي(أبو الحسن علي حبيب) ت ٤٥٠هـ :

٩١_ الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ط٣، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي،عام ١٣٩٣هـ.

مسلم بن حجاج النيسابوري ت ٢٦١ هـ :

٩٢_ صحيح مسلم، ترقيم: مُحَّد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى عام ١٣٦٥ هـ.

المقريزي (أحمد بن علي) ت٨٤٥هـ :

٩٣_إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى عام ١٤٢٠ هـ.

ابن منظور(مُحَّد جمال الدين الأنصاري) ت ٧١١هـ:

٩٤_لسان العرب، القاهرة، طبعة دار المعارف، (د.ت).

ابن منكلي (مُحَّد بن محمود) ت ٧٨٤ هـ :

٩٥_ التدبيرات السلطانية في سياسة الصناعة الحربية، تحقيق صادق مُحَّد، (د.م)،(د.ت).

أبو النجيب (عبد الرحمن بن نصر) ت ٥٩٠هـ :

٩٦_نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة، مطبعة لجنة التأليف والرجمة والنشر، عام ١٤٣١ هـ.

النسائي (أبو عبد الرحمن بن شعيب)٣٠٣هـ :

٩٧_ سنن النسائي، شرح الحافظ جلال الدين السيوطي، دار احياء للتراث العربي، لبنان، (د.ت).

٩٨_المجتبى من السنن (السنن الصغرى للنسائي)، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢ عام ١٤٠٦هـ.

النووي (أبو زكريا محي الدين يحي بن شرف) ت ٦٧٦هـ :

٩٩_شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، عام ١٣٩٢هـ.

ابن هشام (عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري) ت ٢١٣هـ :

١٠٠_ السيرة النبوية المعروف ب(سيرة ابن هشام)، تحقيق عمر عبد اللام تدمري،دار الكتاب العربي، ط٣،عام ١٤١٠هـ.

الهيثمي (نور الدين أبي بكر) ت ٨٠٧هـ :

١٠١_ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، مكتبة القدسي، القاهرة عام ١٣٥٣هـ.

الواقدي (مُحَّد بن عمر) ت٢٠٧هـ :

١٠٢_ المغازي، دار الأعلمي، بيروت، ط٣، عام ١٤٠٩هـ .

أبو يوسف(يعقوب بن إبراهيم) ت ١٨٢هـ :

١٠٣_ الخراج، المطبعة السلفية، ط٢،عام ١٣٥٣هـ.

ثانياً: المراجع والمؤلفات العربية الحديثة .

أحمد، إبراهيم علي مُحَمَّد :

١٠٤ــ في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية، سلسلة كتاب الأمة عدد، الكتاب (٥٤) مركز البحوث والدراسات، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ١٤١٧ هـ.

أحمد، موسى مُحَمَّد، ومُحَمَّد نور موسى :

١٠٥ــقراءة في الحضارة الإسلامية، دراسة في معانيها وآثارها المعنوية والمادية، ط ١،القاهرة، مصر، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي،(د.ت).

الألباني، مُحَمَّد ناصر الدين الأشقودري:

١٠٦ــ أرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، المكتب الإسلامي، ط١،عام ١٣٩٩هـ

١٠٧ــصحيح الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي طبعة عام ١٤٠٨هـ.

الأنصاري، عبد الحميد إسماعيل :

١٠٨ــ الشورى وأثرها في الديمقراطية، دراسة مقارنة،المكتبة العصرية، بيروت،عام ط٣،عام ١٤٠٠هـ .

البلادي، عاتق بن غيث :

١٠٩ــ معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، مكة للنشر والتوزيع، ط، عام ١٤٠٢هـ.

بلقزيز، عبد الإله :

١١٠ــتكوين المجال السياسي الإسلامي (النبوة والسياسة)، مركز دار الوحدة العربية، بيروت، ط ٢٠٠٥م.

البوطي، مُحَمَّد سعيد رمضان :

١١١ــ فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة،دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، (د.ت)، ودار الفكر، دمشق سوريا، ط٦،عام ١٣٩٧م.

تاج، عبد الرحمن :

١١٢ــالسياسة الشرعية والفقه الإسلامي، تحقيق مُحَمَّد عمارة، دار السلام للطباعة والنشر، عام ١٤٢٠هـ.

الجاسر، حمد :

١١٣ــشمال غرب الجزيرة العربية،(د. م)، ط١، عام ١٣٩٠م.

الجندي، أنور:

١١٤_عالمية الاسلام، دار المعارف للنشر، كورنيش النيل، القاهرة، (د.ت)

١١٥_موسوعة مقدمات العلوم والمناهج، مطبعة دار البيان، مصر، عام ١٩٨٩م.

جمال، مُحَمَّد عبد الهادي :

١١٦_تاريخ الخدمات البريدية في الكويت، ط٢، مركز البحوث والدراسات الكويتية، الكويت،عام ١٤٢٢هـ .

الجميل، مُحَمَّد فارس :

١١٧_النبي ﷺ ويهود المدينة، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض الطبعة الثانية، ١٤٢٧ هـ .

حَبَنَّكَة، عبد الرحمن :

١١٨_الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم، دار القلم، دمشق، ط ١، المستكملة لعناصر خطة الكتاب ١٤١٨هـ .

حسن إبراهيم حسن، وعلي إبراهيم حسن :

١١٩_النظم الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، (د.ت).

الحصري، أحمد :

١٢٠_السياسة الاقتصادية والنظم المالية في الفقه الإسلامي، ط١، دار الكتاب العربي، (د.ت).

الحكيم عبد المنعم سعيد:

١٢١_الرقابة على أعمال الإدارة في الشريعة الإسلامية والنظم المعاصرة، دار الفكر العربي، ط١، عام ١٩٧٦م.

الحمد، مُحَمَّد إبراهيم :

١٢٢_ الإسلام وحقيقته شرائعه عقائده ونظمه، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر الرياض، طبعة ١٤٣٦هـ.

حميد الله، مُحَمَّد :

١٢٣_مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، عام ١٩٤١م.

ابن حميد صالح، وابن ملوح عبد الرحمن مُحَمَّد :

١٢٤_ موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، دار الوسيلة، جدة، عام ١٤١٨هـ.

الحميدي، عبد العزيز عبد الله:

١٢٥_التاريخ الإسلامي، دار الدعوة، الإسكندرية، ط١عام ١٤١٨هـ

حوى، سعيد :

١٢٦_الرسول، دار عمار، بيروت، طبعة عام ١٤٠٨هـ.

الخالدي، صلاح :

١٢٧_الرسول المبلغ ﷺ، تفاصيل الاتصالات بين الرسول وبين ملوك عصره لتبليغهم الدعوة، ط١، دار القلم، دمشق،(د.ت)، والدار الشامية، بيروت، طبعة عام ١٤١٨هـ .

الخالدي محمود بن عبد المجيد :

١٢٨_قواعد نظام الحكم في الإسلام،دار البحوث العلمية، الكويت، ط١عام ١٩٨٠م.

الخربوطلي، علي حسني :

١٢٩_الرسول وأهل الذمة، مطابع شركة الإعلانات القاهرة، مصر، (د، ت).

خطاب، شيت :

١٣٠_الرسول القائد، منشورات دار مكتبة الحياة، ومكتبة النهضة، بغداد، ط٢، (د.ت).

الخطراوي، مُحَمَّد العيد :

١٣١_ المدينة في العصر الجاهلي (الحياة الاجتماعية والسياسة والثقافية والدينية)، الوكالة العامة للتوزيع، دمشق، ط ١، ١٤٠٣هـ .

الخطيب، زكريا :

١٣٢_نظام الشورى في الإسلام ونظم الديمقراطية، مطبعة السعادة،(د.م)،عام ١٤٠٥هـ .

خليل، عماد الدين :

١٣٣_دراسة في السيرة، دار النفائس، بيروت، ط٢،عام١٤٢٥ هـ.

الدريني، فتحي :

١٣٤_ خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، عام ١٤٠٢هـ.

١٣٥_دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي، المعاصر،دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط ١،عام ١٩٨٨م.

رحماني، سناء، وفتيحة ديلمي:

١٣٦_ مبادئ الاقتصاد الإسلامي وخصائصه، مفهوم ومنهج الاقتصاد الإسلامي، المسيلة، جامعة مُحَمَّد بوضياف، (د.ت).

رزق الله أحمد، مهدي رزق :

١٣٧_السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية دراسة تحليلية، مركز الملك فيصل، عام ١٤١٢ هـ .

الرفاعي، أنور:

١٣٨_الإسلام في حضارته ونظمه الإدارية والسياسية والأدبية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والفنية، دار الفكر، دمشق، (د.ت).

الريس، مُحَمَّد ضياء الدين :

١٣٩_النظريات الاسلامية، ط ٣، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٦٠م .

الزحيلي، وهبة :

١٤٠_ آثار الحرب في الفقه الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ط٣ عام ١٤١٩هـ.

أبو زهرة، مُحَمَّد :

١٤١_ خاتم النبيين ﷺ، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت).

١٤٢_العلاقات الدولية في الإسلام، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٥م.

زيدان، جورجي :

١٤٣_العرب قبل الإسلام، تعليق حسين مؤنس، دار الهلال،، (ب. ت).

زيدان، عبدالكريم:

١٤٤_أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، بيروت : مؤسسة الرسالة، بغداد، مكتبة القدسي، ١٤٠٢هـ.

سابق، السيد:

١٤٥_خصائص الشريعة الإسلامية ومميزاتها، الفتح للإعلام العربي، القاهرة، ط ١، ١٤٠٩هـ.

الساعاتي، أحمد عبد الرحمن البنا:

١٤٦ــ الفتح الرباني بترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، ط ١، (د.ت) .

سالم، عطية مُحَّد :

١٤٧ــمجموعة الرسائل المدنية، دار الجوهرة، المدينة المنورة ١عام ١٤١٦هـ.

السعدي، إسحاق بن عبد الله:

١٤٨ــ دراسات في تميز الأمة وموقف المستشرقين منه، وزارة الشؤون الإسلامية، قطر، ط١، ١٤٣٤هـ.

السعدي، عبد الرحمن بن ناصر:

١٤٩ــ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ط١،عام ١٤٢٤هـ .

سعيد، فرح مُحَّد :

١٥٠ــالبناء الاجتماعي والشخصية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية عام ١٩٨٩م.

السلمي، مُحَّد بن صامل وآخرون :

١٥١ــ صحيح الأثر وجميل العبر من سيرة خير البشر ﷺ، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، المملكة العربية السعودية، مكة المكرمة، ط١عام ١٤٣١هـ.

أبو سنة، أحمد فهمي :

١٥٢ــالعرف والعادة في رأي الفقهاء، دار بصائر للطباعة والنشر، عام ٢٠٠٤م .

الشامي، صالح أحمد :

١٥٣ــالسيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة، المكتب الإسلامي، ط٢،عام ١٣٢٢هـ .

الشريف قاسم، عون :

١٥٤ــ نشأة الدولة الإسلامية على عهد رسول الله، دار الكتاب المصري القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ٢، عام ١٤٠١هـ.

الشريف، مُحَّد شاكر :

١٥٥ــإدارة الدولة الإسلامية، موسوعة فقه السياسة الشرعية، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر، مج٢، ط١عام ١٤٣٤هـ .

الشريف، مُحَمَّد عبدالله أل زيد:

١٥٦ــ صحابة رسول الله ﷺ(الغزوات) غزوة خيبر ووادي القرى، مؤسسة تقية التاريخ، عام ٢٠١١م.

الشعيبي، قائد أحمد :

١٥٧ــ وثيقة المدينة الدلالة والمضمون، سلسلة كتاب الأمة، مركز البحوث الدراسات في وزارة الأوقاف، قطر، وقفية علي عبد الله آل ثاني،عدد (١١٠)، القعدة ١٤٢٦ هـ .

شلش، إسماعيل سرور:

١٥٨ــالعلاقات الخارجية في عصر النبوة والدولة الإسلامية الأولى، المستقبل العربي، لبنان، عام ١٩٨٤م.

شمس الدين، إبراهيم:

١٥٩ــمجموع أيام العرب والإسلام، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

آل الشيخ، حسين بن عبد العزيز :

١٦٠ــالمبادئ القضائية في الشريعة الإسلامية وارتباط النظام القضائي في المملكة العربية السعودية بها، مكتبة نور الالكترونية، طبعة عام ١٤٢٦هـ.

الصعيدي، عبد المتعال :

١٦١ــالسياسة والإسلام في عهد النبوة، دار الفكر العربي،ط٢،(د.ت).

الصلابي، علي مُحَمَّد :

١٦٢ــالسيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، دار المعرفة، ط٧، عام ١٤٢٩هـ.

طعيمه، صابر :

١٦٣ــ الدولة والسلطة في الاسلام، ط١، القاهرة، مكتبة مدبولي عام ٢٠٠٥م.

الطهطاوي، رفاعة :

١٦٤ــ الأعمال الكاملة،دراسة وتحقيق مُحَمَّد عمارة، بيروت ١٩٧٧م.

ابن عاشور، مُحَمَّد الطاهر (ت ١٣٩٣هـ):

١٦٥ــمقاصد الشريعة الإسلامية، المكتبة الشاملة الصفحات موافقة للمطبوع .

عبد الغفور أحمد :

١٦٦ــ أصلح الأديان للإنسانية (عقيدة وشريعة)،(د.ن)، مكة المكرّمة، ط ١٤٠٠هـ.

عثمان، عبد الرؤوف مُحَمَّد :

١٦٧_محبة الرسول بين الاتباع والابتداع، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد إدارة الطبع والترجمة، الرياض، ط١، عام ١٤١٤هـ.

عثمان، مُحَمَّد عبد الستار :

١٦٨_المدينة الإسلامية، مجلة عالم المعرفة، عام ١٩٨٨م .

العثيمين، مُحَمَّد بن صالح :

١٦٩_شرح أصول في التفسير، مؤسسة مُحَمَّد العثيمين الخيرية، (د.ت) .

العجلان، عبد الله بن عبد العزيز :

١٧٠_مدخل للفقه الإسلامي، دار طيبة، عام ١٤١٢هـ .

عرموش، أحمد راتب :

١٧١_ قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية، دار النفائس، ط١، ١٤١٩هـ.

عطار، أحمد عبد الغفور:

١٧٢_أصلح الأديان للإنسانية عقيدة و شريعة، (د.ن)، مكة المكرمة، طبعة عام١٤٠٠هـ.

عطوة، عبد العال أحمد:

١٧٣_ المدخل الى السياسة الشرعية، الرياض جامعة الامام مُحَمَّد بن سعود الإسلامية، ط١عام ١٤١٤هـ.

عطية الله، أحمد :

١٧٤_القاموس السياسي، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الثالثة (د.ت).

العطية، مروان :

١٧٥_معجم المعاني الجامع، مركز إيوان للنشر والتوزيع بالتعاون مع دار النوادر، مصر، ط١، عام ١٤٣٣هـ .

العقاد، عباس محمود :

١٧٦_عبقرية مُحَمَّد، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط عام ١٩٨٠م.

العقيلي، أحمد مُحَمَّد :

١٧٧_الأثر والدلالات الإعلامية لرسائل النبي ﷺ إلى الملوك والقادة، مطابع خزام، الرياض، الطبعة ١، ١٤١٤هـ.

العقيلي، مُحَمَّد أرشيد:

١٧٨_السفارات النبوية إلى ملوك العالم وأمراء أطراف الجزيرة العربية، دار احياء العلوم، بيروت ومكتبة المحتسب، عَمان، (د.ت) .

العلي، جواد :

١٧٩_المفصل في تاريخ العرب القديم، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، (ب. ت).

العلي، صالح أحمد :

١٨٠_ تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة، مجلة المجتمع العلمي العراقي، مج ١٧، بغداد ١٩٦٩م .

١٨١_ الدولة في عهد الرسول، بغداد : مطبعة، المجمع العلمي العراقي، ط١ عام ١٩٨٨م.

علي، عبد الرزاق :

١٨٢_الإسلام وأصول الحكم، دار الكتاب المصري،طبعة بيروت عام ١٩٧٢م.

علي، ناسو صالح :

١٨٣_الشخصية القيادية، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان _ الأردن، طبعة عام ١٤٣٧هـ.

علوان، عبدالله ناصح :

١٨٤_تربية الأولاد في الإسلام، دار السلام للطباعة والنشر، عام ١٤١٢ هـ ١٩٩٢م .

عمارة، مُحَمَّد :

١٨٥_الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية، دار الشروق، ط١، عام ٢٠٠٧م.

عمر، أحمد مختار عبد الحميد :

١٨٦_ معجم اللغة العربية المعاصرة، نشر عالم الكتب، ط١، عام ١٤٢٩ هـ.

العمري، أكرم ضياء :

١٨٧_ السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العبيكان، الرياض عام ١٤٣٠هـ، وطبعة مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة عام ١٩٩٢م .

عوض، أحمد عبده:

١٨٨_الإسلام والبعث الحضاري، مركز الكتاب للنشر، (د. ت).

عون،عبد الرؤوف:

١٨٩_ الفن الحربي في صدر الإسلام، القاهرة، دار المعارف ١٩٦١ م.

غضبان، منير مُحَمَّد :

١٩٠_فقه السيرة النبوية، مطبعة جامعة أم القرى، ط٢،عام١٤١٣هـ.

غلوش، أحمد :

١٩١_السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني، مؤسسة الرسالة، مصر، ط١، ١٤٢٤ هـ.

أبو فارس، مُحَمَّد عبد القادر:

١٩٢_غزوة الحديبية، في ظلال السيرة النبوية، دار الفرقان،عمان، الطبعة١، عام ١٤٠٤هـ.

١٩٣_غزوة بدر الكبرى، دار الفرقان، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.

فضل الله، إسماعيل :

١٩٤_الفكر السياسي في الإسلام، مكتبة بستان المعرفة، ط١، الإسكندرية، ٢٠٠٤م.

الفنجري، مُحَمَّد شوقي :

١٩٥_ذاتية السياسة الاقتصادية الإسلامية، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

فهمي، مصطفى أبوزيد:

١٩٦_النظرية العامة للدولة، ط ١، الإسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٨٥ م.

قطب، سيد:

١٩٧_في ظلال القران، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ.

قلعجي، مُحَمَّد رواس وقنيبي، حامد صادق :

١٩٨_معجم لغة الفقهاء، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط الثانية،عام ١٤٠٨ هـ.

القين، عبد المؤمن عبد الله :

١٩٩_قراءة إعلامية للرسائل النبوية إلى الملوك خارج جزيرة العرب، مطبعة نادي المدينة الأدبي، المدينة المنورة، ط١، ١٤٢٧هـ .

الكتاني، مُحَمَّد عبد الحي:

٢٠٠_نظام الحكومة النبوية (التراتيب الإدارية)، تحقيق عبد الله الخالدي، دار الأرقم، ط٢، ١٤٣١هـ.

الكرمي، حافظ أحمد عجاج :

٢٠١_الإدارة في عصر الرسول ﷺ، دراسة تاريخية للنظم الإدارية في الدولة الإسلامية، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط٢،القاهرة ١٤٢٨هـ.

الكيلاني، عبدالله:

٢٠٢_القيود الواردة على الدولة في الإسلام، مؤسسة الرسالة، ط١٩٩٧،١م.

الكيلاني، ماجد عرسان:

٢٠٣_أهداف التربية الإسلامية، دار القلم، دبي، عام ٢٠٠٥م.

٢٠٤_الأمة المسلمة مفهومها مقوماتها، إخراجها، مؤسسة الريان للنشر والتوزيع لبنان، ط٢، عام ٢٠٠٠م.

المالكي، مُحَمَّد علوي :

٢٠٥_مُحَمَّد ﷺ الإنسان الكامل، مطبعة الرشيد، المدينة المنورة، ط١٠،عام ١٤١١هـ.

المباركفورى، أبو العلا عبد الرحمن، ت١٣٥٣هـ :

٢٠٦_تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي،مؤسسة الرسالة،عام ٢٠١٥م.

المباركي، أحمد سير:

٢٠٧_ العرف وأثره في الشريعة والقانون، جامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود، الرياض الطبعة الأولى، عام ١٤١٢هـ .

_ م . ت. هوتسما وآخرون :

٢٠٨_موجز دائرة المعارف الإسلامية، تحقق إبراهيم خورشيد وآخرون، مركز الشارقة للإبداع الفكري، مجلد ٥، ط١، عام ١٤١٨هـ.

متولي، عبد الحميد :

٢٠٩_القانون الدستوري والأنظمة السياسة، منشأة المعارف، ط ١، عام ٢٠٠٥م .

محمصاني، صبحي :

٢١٠_المجتهدون في القضاء، مطبعة دار الملايين للنشر، بيروت، عام ١٩٨٠م.

محمود، عبد الحليم:

٢١١_ القرآن والنبي، دار المعارف، ط٤، القاهرة، (د.ت) .

مسعود، جبران:

٢١٢ــ معجم الرائد، دار العلم للملايين، ط٧،عام ١٩٩٢م .

المصري، جميل :

٢١٣ــأثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية في ق١هـ، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ط١، عام١٤١٠هـ.

المطرودي، عبد الرحمن بن سليمان :

٢١٤ــنظرة في مفهوم الإرهاب والموقف منه في الإسلام دراسات معاصرة (١٧) طبعة ١، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض ١٤٢٥هـ.

منجود، مصطفى محمود:

٢١٥ــالأبعاد السياسية لمفهوم الأمن في الإسلام، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، عام ١٤١٧هـ.

مهدي، شمس الدين، مُحَمَّد :

٢١٦ــ الاجتماع السياسي الإسلامي، مؤسسة الإمام شمس الدين للحوار، ط٢، عام ٢٠١٤م.

نبراوي، فتحية :

٢١٧ــتاريخ النظم والحضارة الإسلامية القاهرة،دار النهضة،عام ١٩٨٠م.

نجيب، عمارة :

٢١٨ــالإعلام في ضوء الإسلام، مكتبة المعارف، الرياض، ط١،عام ١٤٠٠هـ.

نوح، السيد مُحَمَّد:

٢١٩ــمنهج أهل السنة والجماعة في قضية التغيير بجانبيه التربوي و الدعوي، دار الوفاء، ط الثانية ١٤١٢هـ.

الهلابي، عبد العزيز، والملاح هاشم يحي :

٢٢٠ــ الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، عام ٢٠٠٥م.

هيكل، مُحَمَّد خير :

٢٢١ــالجهاد والقتال في السياسة الشرعية، دار البيارق، الأردن،ط٢، عام ١٤١٧هـ.

الوكيل، مُحَمَّد السيد :

٢٢٢ــ يثرب قبل الإسلام، دار المجتمع للنشر والتوزيع،جدة، ط ٢، عام ١٤٠٩هـ.

يوسف أحمد :

٢٢٣_القيم الإسلامية في السلوك الاقتصادي، دار الثقافة، القاهرة،عام ١٤١٠هـ.

• **المراجع المعربة و الأجنبية :**

٢٢٤_إرفنج، واشجنتون : حياة مُحَمَّد، ترجمة علي حسني الخربوطلي، دار المعارف، مصر ط٢، (د.ت).

٢٢٥_أرنولد، توماس: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وزميله، مكتبة النهضة المصرية، عام ١٩٤٧م.

٢٢٦_بروكلمان، كارل : تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٧، عام ١٩٧٧م.

٢٢٧_بودلي، د.ف، الرسول : حياة مُحَمَّد، ترجمة مُحَمَّد، مُحَمَّد فرج وعبد الحميد جودة، مصر،(د.ت).

٢٢٨_دي كاستري، هنري: الإسلام خواطر وسوانح، مكتبة النافذة، عام ٢٠٠٨م.

٢٢٩_يوليوس فلهاوزن : الدولة العربية، ترجمة يوسف العش، دمشق، عام ١٣٧٦هـ.

• **الرسائل البحثية والمجلات العلمية المحكمة.**

٢٣٠_ إبراهيم، عز الدين: الدراسات المتعلقة برسائل النبي ﷺ إلى الملوك في عصره، مجلة المؤرخ العربي _العدد (٢٣) عام ١٩٨٣م.

٢٣١_ابن إدريس، عبد الله عبد العزيز: مجتمع المدينة في عهد الرسول ﷺ، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض، عام ١٤٠٢هـ .

٢٣٢_ البصيري، بدرية عبد العزيز : إدارة الدولة في العهد النبوي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك سعود، عام ١٤٢٣هـ .

٢٣٣_الجيوسي، عبدالله مُحَمَّد: البناء النفسي للمسلم في ضوء السنة النبوية وأبعاده الحضارية، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية،العدد(٢٥) مجلة محكمة، قطر عام ١٤٢٨م.

٢٣٤_ الحسن، بابكر خليفة و عبد الهادي، سراج مُحَمَّد: تاريخ التشريع الإسلامي ومصادره، مطبوعات جامعة الإمارات، مكتبة المجلس الوطني الاتحادي، عام ١٩٩٧م.

٢٣٥_حسني، أحمد : المعاهدات في الإسلام بحث في مادة السياسة الشرعية غير منشور، كلية العلوم الإسلامية، جامعة المدينة العالمية، شاه علم، ماليزيا.

٢٣٦_أبو دوم، اقبال: العلاقة بين الدعوة والدولة من خلال سيرة المصطفى ﷺ، رسالة دكتوراه، جامعة أم درمان الإسلامية، كلية الدعوة، قسم الدعوة والثقافة.

٢٣٧_السحيباني، عبد الله بن ناصر :السياسة الخارجية للدولة الإسلامية في عهد النبوة، جامعة الأمام مُحَمَّد بن سعود الإسلامية، المعهد العالي للقضاء، رسالة ماجستير غير منشورة، عام ١٣٩٩هـ .

٢٣٨_السواعدة، مُحَمَّد محمود (السنة النبوية والإفادة من تجارب الآخرين دلالة تميز ومظهر إبداع)، مجلة البحوث والدراسات الشرعية، الأزهر، العدد(٧)،عام ١٤٣٤هـ.

٢٣٩_شاهين، رياض مصطفى أحمد : النشاط الاقتصادي لليهود في الحجاز قبل الإسلام، مجلة الجامعة(سلسلة الدراسات الإنسانية)،عام ٢٠٠٤ م .

٢٤٠_ الشرقاوي، مُحَمَّد: قيم التعايش المشترك ومبادئه في وثيقة المدينة، مجلة حراء، إسطنبول، عدد (٦٤)، العام ١٠ يناير ٢٠١٥م.

٢٤١_ شعيبي، فيصل أحمد : التخطيط الإداري الإسلامي في العهد النبوي، بحث علمي منشور في جامعة الملك عبد العزير، كلية الإدارة والاقتصاد، عام ١٤٢١هـ .

٢٤٢_صالح، مُحَمَّد علي : الرسول ﷺ تنمية الإبداع من خلال المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، كلية الآداب، جامعة الموصل، (د.ت).

٢٤٣_صبح، مُحَمَّد علي محمود : ادارة الدولة في الإسلام، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، كلية الدراسات العليا، فلسطين، نابلس، طبعة عام ٢٠١١م.

٢٤٤_عثمان، مُحَمَّد عبد الستار : المدينة الإسلامية، مجلة عالم المعرفة، عام ١٩٨٨م .

٢٤٥_العلي، صالح أحمد: تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة، مجلة المجتمع العلمي العراقي، مج ١٧، بغداد ١٩٦٩م .

٢٤٦_: العلي، صالح أحمد: صحيفة الرسول ﷺ لأهل المدينة دراسة لمحتواها ودلالتها على تنظيمهم، مجلة الداعي، دار العلوم ديوبند، محرم – صفر ١٤٣١ هـ ديسمبر ٢٠٠٩ م، يناير – فبراير ٢٠١٠م، العدد (١-٢)، السنة : ٣٤.

٢٤٧_ أبو ليل مُحَمَّد محمود، السياسة الشرعية في تصرفات الرسول ﷺ المالية والاقتصادية، أطروحة دكتوراه في الفقه وأصوله، الجامعة الأردنية، كلية الدراسات العليا، آيار ٢٠٠٥م.

٢٤٨_ مُحَمَّد، أحمد : النص والاجتهاد والحكم في الإسلام، مجلة العربي، عدد (٣٠٧) رمضان،عام ١٤٠٤هـ.

٢٤٩_ المطيري، حاكم : صحيفة المدينة بين الاتصال والإرسال، كلية الشريعة، جامعة الكويت٢٠١١ م.

٢٥٠_ناصف، مصطفى : محاورات مع النثر العربي، مجلة عالم المعرفة، العدد(٢١٨)، مطابع السياسة، الكويت، عام ١٤١٧هـ.

٢٥١_ياسين، خالدة عبد اللطيف : موقف النبي ﷺ من يهود الحجاز، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية نابلس، فلسطين، عام ٢٠٠٩م.

٢٥٢_ياسين، مؤيد عبيد : جوانب من متطلبات الحياة في المجتمع المدني اثناء عصر الرسالة، مجلة جامعة الانبار للعلوم الانسانية، العدد الثالث (٢٠٠٢).

- **المقالات العلمية.**

٢٥٣_بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن: الإسلام في طريقة إلى الروم وغارس، جريدة البلاد، عدد (١٥٤٥٣) بتاريخ ٦/ ١٤١٩/٧هـ.

٢٥٤_مُحَّد واصل، نصر فريد : أسس ومبادئ النظام المالي والاقتصادي في التشريع الإسلامي، أبحاث ووقائع المؤتمر العام الثاني والعشرين، نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

٢٥٥_مقال بعنوان : ملامح المنهج الحضاري في تعامله مع الواقع فهماً وتغيرًا، رابطة علماء الشريعة، مجلس التعاون الخليجي. البحرين، (د.ت).

- **شبكة الانترنت والإذاعة والتلفزيون.**

٢٥٦_ خالد راتب : صلح الحديبية وفقه المآلات، شبكة الألوكة، تاريخ الإضافة: ٢٠١٣/٩/٢٦ م – ١٤٣٤/١١/٢١ هـ.

٢٥٧_ السرجاني، راغب : رسول الله وطوائف المدينة : سلسلة محاضرات السيرة النبوية قيام الدولة الإسلامية للشيخ (صوتيات)، تفريغ نصي تاريخ الإضافة ١٧/ ٤/ ٢٠١٠م .

٢٥٨_السرجاني، راغب: مميزات العهد المدني وقيام الدولة الإسلامية: سلسلة السيرة النبوية قيام الدولة الإسلامية صوتيات .

٢٥٩_العتيبي، سعد مطر : الموازنة بين السياسة الشرعية والسياسات الوضعية في الأصول والنماذج، مقال في موقع الدكتور سعد العتيبي شبكة الألوكة، تاريخ الإضافة ٩/ ١٤٣١/٨هـ، رابط الموقعwww.alaukah.net

٢٦٠_فتوى إذاعية قناة الرسالة الفضائية، سماع شخصي عبر التلفاز بتاريخ السبت ١٤٣٧/١٢/٣٠هـ للسائل خليل من السعودية وإجابة فضيلة الشيخ علي بن صالح المري أحد تلامذة الشيخ العلامة ابن باز رحمة الله تعالى.

٢٦١_لعور، ربيع: كيف تعامل الرسول مع ثقافة عصره؟، شبكة الألوكة، مقال شرعي، تاريخ الإضافة: ٢٠١٥/٧/٥م -١٤٣٦/٩/١٨هـ.

رابط الموضوع http://www.alukah.net/sharia/0/88868/#ixzz5Qj7uKO5

٢٦٢_النابلسي، مُحَمَّد راتب: مبادئ الاقتصاد الإسلامي، الأدوات الاستثمارية في النظام الإسلامي، موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية رابط الموقع www.nabulsi.com.



فهرس الآيات القرآنية

سورة البقرة

الآية	رقمها	الصفحة
﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾	٥	٧٠
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾	٣٠	٣٢٠
﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾	٤١	٣٤٣
﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾	٤٣	٩٢
﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾	٨٩	١٩٠
﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾	١٣٦	٣٤٢
﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾	١٦٥	٣٢٣
﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾	١٧٩	١٢٤
﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾	١٩٠	٢٥٢
﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ﴾	١٩٣	٣٣٢
﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ ۚ﴾	١٩٤	٢٥٧، ٣٠٤
﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾	٢١٣	٣٦٤
﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟﴾	٢١٧	٣٢٣، ٣٣٢
﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾	٢٢٨	١٠٤
﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَـٰنٍ﴾	٢٢٩	١٠٤
﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾	٢٥٦	٢٢٢
﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ	٢٦٩	٢٦٤
﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ﴾	٢٨٠	١١٣
﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾	٢٨٢	١١٠

سورة آل عمران

سورة النساء

الآية	رقمها	الصفحة
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾	١	٣٥١
﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾	٥	١٠١
﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾	٦	١٠١
﴿إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾	٢٩	١١٣، ١١٤، ٣٣٤
﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾	٣٠	٣٣٤
﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾	٥٨	١٠٨
﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾	٥٩	٢٢، ٥٤
﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾	٦٥	٦٨
﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾	٦٩	٧١
﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾	٧٤	٢٦٦
﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾	٨٠	٦٧
﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾	٨٢	٢٤١
﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾	٨٣	٣٢٩، ٣٣٥
﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾	١٠٥	١٠٨
﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾	١٢٥	٦٦
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾	١٣٥	١٠٩
﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾	١٤٨	٣٣٠

سورة المائدة

الآية	رقمها	الصفحة
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾	١	٤٨
﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾	٢	٩٢، ١٧٢
﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾	٣	٢١، ٩٥، ٣١٩، ٣٤٦

الآية	رقمها	الصفحة
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾	٨	١٠٩
﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾	٣٣	٣٣٧
﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾	٣٨	١٠٢
﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾	٤٨	٣٤٢
﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾	٤٩	١٠٧
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾	٦٧	٣٨
﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ﴾	٧٨	٧٤
﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ﴾	٧٩	٧٤
﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ﴾	٨٢	٢٤٠
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾	١٠٥	٧٥

سورة الأنعام

الآية	رقمها	الصفحة
﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾	٣٨	٢١
﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾	٨٢	٣١٥
﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾	٩٠	٣٥٥
﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾	١٠٨	٣٣٢
﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ﴾	١٥٢	١٠٩
﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾	١٦٢	٣٧٤
﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾	١٦٣	٣٧٤
﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾	١٦٤	٢٤٢

سورة الأعراف

الآية	رقمها	الصفحة
﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾	٢٧	٩٧
﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾	٣١	٩٤، ٩٧
﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾	٣٢	٩٤
﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾	٥٤	٥٦
﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾	١٥٧	٩٤
﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾	١٥٨	٣٤١

سورة الأنفال

الآية	رقمها	الصفحة
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ﴾	٢٤	٦٧
﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾	٤١	١٣٨
﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾	٤٣	١٢٩
﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾	٤٦	٣٢٤
﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ﴾	٥٦	٢٣٣
﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾	٥٧	١٧٣
﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾	٥٨	٢٥٦، ٣٠٨
﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾	٦٠	١٣٣، ١٤٤، ٣٢١
﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾	٦١	٢٥٧، ٣٤٧
﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾	٦٢	١٨٨
﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ﴾	٦٣	١٨٨
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِ﴾	٦٥	١٣٥
﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾	٧٢	٣٠٨

سورة التوبة

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ﴾	٦	٢٥٧، ٢٧٥
﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ﴾	١٢	٣٠٨
﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ﴾	١٣	١٣٥
﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾	٢٨	٣٠٧
﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾	٢٩	٢٧٧
﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ﴾	٣٣	٣٤١
﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾	٣٦	٢٥٢
﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾	٤٠	٣٢٤
﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾	٦٧	٧٥
﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾	٧١	٧٢
﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾	١٠١	١٧٨، ١٩٤
﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾	١١٢	٧٥
﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾	١١٧	١٨٠
﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾	١١٩	٩٣

سورة هود

الآية	رقمها	الصفحة
﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾	٦١	٣٢٠
﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾	٨٧	٣٦٣
﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾	١١٢	٦٧
﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ﴾	١١٦	٧٦

سورة الحجر

الآية	رقمها	الصفحة
﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾	٩٤	٢٢

سورة النحل

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنًا ﴾	٨٠	٩٤
﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا ﴾	٨١	٩٤
﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنًا لِّكُلِّ شَيۡءٍ وَهُدًى وَرَحۡمَةً ﴾	٨٩	٣٥٣
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾	٩٠	٣٠٢
﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ ﴾	٩١	٢٥٦
﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ﴾	١٢٦	٣٠٣، ٣٠٥

سورة الإسراء

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾	٢٣	١٠٥
﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا ﴾	٢٤	١٠٥
﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾	٢٩	١١٢
﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٍۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾	٣١	١٠٤
﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولًا ﴾	٣٤	١١٢
﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ﴾	٣٥	١١٣
﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾	٧٠	٦١

سورة الكهف

الآية	رقمها	الصفحة
﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾	٩٥	٣٢٤
﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشۡرِكۡ﴾	١١٠	٧٧

سورة طه

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾	١٣١	١٠٢

سورة الأنبياء

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ﴾	٢٥	١٩٤
﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾	١٠٧	٣٤١

سورة الحج

الآية	رقمها	الصفحة
﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾	٣٩	٢٥٢
﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾	٤٠	٧٦، ٣٧٤
﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾	٤١	٤، ٧٦، ٣١٦
﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾	٧٨	٣٤٧

سورة المؤمنون

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾	٥٢	١٦٠، ٣٢٤
﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾	١١٥	٧٧

سورة النور

الآية	رقمها	الصفحة
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾	١٩	٣٣٠
﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾	٣١	٩٨
﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾	٥٢	٧١
﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾	٥٤	٧٠
﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾	٥٥	٣٢٧، ٣٧٤

الآية	رقمها	الصفحة
﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾	٦٣	٦٧

سورة الفرقان

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾	٤٧	٩٦

سورة الشعراء

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾	٢١٤	٢٢

سورة القصص

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾	٦٨	٣٦٢
﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾	٧٧	٧٩

سورة لقمان

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾	١٥	١٠٥
﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾	٢٢	٦٦

سورة الأحزاب

الآية	رقمها	الصفحة
﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ﴾	١٨	٩٨
﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ﴾	٢١	٦٢
﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾	٢٣	٥٦، ١٧٠
﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾	٢٦	٢٣٤
﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾	٣٦	٦٨
﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾	٥٨	٣٢٤، ٣٣٦

الآية	رقمها	الصفحة
﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ﴾	٦٠	٣٣٠

سورة سبأ

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾	٢٨	٣٤١

سورة الزمر

الآية	رقمها	الصفحة
﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾	٩	٤٩، ٣٣٥

سورة الشورى

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾	٣٨	١٣٠
﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾	٤٠	٣٠٤

سورة الزخرف

الآية	رقمها	الصفحة
﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾	٢٢	٣٤٨
﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾	٢٣	٣٢٨

سورة الجاثية

الآية	رقمها	الصفحة
﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾	١٧	٨٠

سورة الأحقاف

الآية	رقمها	الصفحة
﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾	٢٠	٨٥

سورة محمد

الآية	رقمها	الصفحة
﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾	٤	٢٥٧

سورة الفتح

الآية	رقمها	الصفحة
﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾	١	٢٩٠
﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾	١٦	٣٣٢
﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾	٢٩	١٨٣، ٣٦٤

سورة الحجرات

الآية	رقمها	الصفحة
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾	٦	٣٢٩
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾	١٠	١٧٠، ١٧١، ١٧٣، ٣٤٧
﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾	١٤	١٥٣

سورة الذاريات

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾	٢٠	٦١
﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾	٢١	٦١
﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾	٢٢	٦١
﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾	٥٦	٦٠، ٧٧

سورة الطور

الآية	رقمها	الصفحة
﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾	٢١	٢١٩

سورة الرحمن

الآية	رقمها	الصفحة
﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾	٨	١١٤

سورة الحديد

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾	٧	٣٥٢

سورة الحشر

الآية	رقمها	الصفحة
﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾	٢	٢٣٣
﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾	٩	١٧٦، ١٨٠
﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا﴾	١٠	١٧٨
﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾	٢٣	٣٤٦

سورة الممتحنة

الآية	رقمها	الصفحة
﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾	٨	٣٠١
﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾	٩	٣٠١
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾	١٢	٤٥

سورة الصف

الآية	رقمها	الصفحة
﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾	٤	٩٢، ١٣٩

سورة الجمعة

الآية	رقمها	الصفحة
﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾	٢	٦٠
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا﴾	٩	١١٧

الآية	رقمها	الصفحة
﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾	١٠	٩٩، ١١٧
﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾	١١	١١٧

سورة الطلاق

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾	٢	١١٠
﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾	٧	١٠٤

سورة الملك

الآية	رقمها	الصفحة
﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾	١٤	٣٥٠
﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾	١٥	٩٤، ١٠٠

سورة المدثر

الآية	رقمها	الصفحة
﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾	٣٨	٢١٩

سورة الانفطار

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾	٧	٣٣٣
﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾	٨	٣٣٣

سورة الشمس

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾	٧	٨٨
﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾	٨	٨٨
﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾	٩	٨٨
﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾	١٠	٨٨

سورة العلق

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾	١	٥٠



فهرس الأحاديث النبوية

م	طرف الحديث	الصفحة
٤٣	أمةً قانتاً لله حنيفاً وكان من أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً... »	١٨٠
٤٤	أمة واحدة من دون الناس... »	٣٤٦
٤٥	أمتي هذه أمةٌ مرحومة ليس عليها عذابٌ في الآخرة... »	٣٦٦
٤٦	أمرني رسول الله ﷺ أن أتعلم له كلمات كتاب يهود... »	٣٥٦
٤٧	أن أبا بكرٍ دخل عليها والنبي ﷺ عندها يوم فطرٍ أو أضحى... »	٣٥٨
٤٨	إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قل طعام عيالهم بالمدينة... »	٨٤
٤٩	أن الرسول ﷺ أمر من كان ظهره حاضراً بالخروج معه... »	١٣٦
٥٠	إن الله تعالى قد أبدلكم بهما خيراً منهما يوم الأضحى ويوم الفطر... »	٣٦٤
٥١	إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ، فَرَأَيْت مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا... »	٣٤٠
٥٢	إن الله قد أبدلكم بهما خيرًا منهما: يوم الأضحى، ويوم الفِطر... »	٣٥٥
٥٣	إن الله قد أذهب عنكم عُبِيَّةَ الجاهلية وفخرَها بالآباء؛ مؤمن تقي... »	٣٤٩
٥٤	إن الله لا يقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيهم حقه... »	٣٥٢
٥٥	إن الله هو القابض الباسط، الرازق المسعَّر، وإني لأرجو أن ألقى الله	١١٧
٥٦	إن الله وضع عن المسافر نصف الصلاة والصوم... »	٣٣٢
٥٧	إن الله وملائكته وأهل السموات والأرضين، حتى النملة في جحرها... »	٥٠
٥٨	إن الله يحب إذا أنعم على عبده نعمة أن يرى أثر نعمته عليه... »	٩٦
٥٩	إن الله يرضى لكم ثلاثاً: وذكر منها، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم... »	١٢٦
٦٠	إن المقسطِين عند الله على منابر من نور عن يمِين الرحمن عز وجل... »	١٢٨
٦١	إن الناسَ إذا رأوا منكرًا فلم يغيِّروهُ، يوشِكُ أن يعمَّهُم اللهُ بعقابه... »	٧٥
٦٢	إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم... »	٣٦٥
٦٣	إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل، أنه كان الرجل يلقى الرجل... »	٧٤
٦٤	إن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي... »	٣٥

م	طرف الحديث	الصفحة
٦٥	أن رسول الله ﷺ رأى خاتماً من ذهب في يد رجل فنزعه فطرحه... »	٦٩
٦٦	أن رسول الله ﷺ قضى في امرأتين من هذيلٍ اقتتلتا... »	٣٥٩
٦٧	أن رسول الله ﷺ مر على صبرةٍ فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً... »	١١٧
٦٨	إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ مَعَكَ مَا دُمْتَ تُنَافِحُ عَنْ رَسُولِهِ... »	١٣٨
٦٩	إن شر الرعاء الحطمة... »	١٢٧
٧٠	أن عمر أتى النبي بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ... »	٥٠
٧١	إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين ... »	١٣٥
٧٢	إن فيها ملكاً لا يُظلم عنده أحد... »	٤١
٧٣	الآن نغزوهم ولا يغزونا... »	٢٩٦
٧٤	إن هذه الأمة مرحومة عذابها بأيديها، فإذا كان يوم القيامة ... »	٣٦٦
٧٥	أنّا النّبي لا كذب، أنّا ابن عبد المطلب... »	٢٦٢
٧٦	إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ... »	١٨٦
٧٧	أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس... »	٢٨٨
٧٨	أنكحت عائشة ذات قرابةٍ لها من الأنصار، فجاء رسول الله ﷺ ... »	٣٥٨
٧٩	إنكم ستلقون العدوّ غداً، وإن شعاركم لا ينصرون... »	١٤١
٨٠	إنكم وفيّتم سبعين أمَّة أنتم خيرها وأكرمها على الله... »	٣٦٢
٨١	إنما أنا بشرٌ، وإنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته ... »	١٠٩
٨٢	إنما ذلكم من الشيطان... »	٩٣
٨٣	إنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالاً ... »	٣٦٣
٨٤	إنما هذا من إخوان الكهان... »	٣٥٩
٨٥	أنه أتى النبي ﷺ قال عثمان: وبي وجعٌ كاد يهلكني ... »	١٢١

م	طرف الحديث	الصفحة
٢٥٦	من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه... »	٧٣
٢٥٧	من صور صورةً في الدنيا، كلف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة... »	٣٥٧
٢٥٨	مَنْ عُرِضَ عَلَيْهِ رَيْحَانٌ فَلَا يَرُدُّهُ فَإِنَّهُ خَفِيفُ الْمَحْمِلِ طَيِّبُ الرِّيحِ... »	٩٧
٢٥٩	من غشنا فليس منا، والمكر والخداع في النار... »	١١٣
٢٦٠	من غصب رجلاً أرضاً ظلماً لقى الله وهو عليه غضبان... »	١٠٢
٢٦١	من فجع هذه بولدها؟ ردُّوا ولدها إليها... »	٣٢٣
٢٦٢	من قطع سدرة صوَّب الله رأسه في النار... »	٣٢٤
٢٦٣	من كان بينه وبين قوم عهدٍ فليشهد عقدته ولا يحلها حتى ... »	٢٥٥
٢٦٤	من كان لنا عاملاً فليكتسب زوجة، فإن لم يكن له خادم فليكتسب... »	١٢٦
٢٦٥	مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلا يُؤْذِ جَارَهُ... »	٢٢٢
٢٦٦	من والٍ يلي رعية من المسلمين فيموت يوم يموت وهو غاش لهم ... »	٣٥١
٢٦٧	من ولد له ولد فليحسن اسمه وأدبه فإذا بلغ فليزوجه فإن بلغ ولم يزوجه... »	١٠٤
٢٦٨	من ولي القضاء فقد ذبح بغير سكين... »	٣٥٢
٢٦٩	المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً... »	٩٣
٢٧٠	نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أوّلُ الناس دخولاً الجنة... »	٣٦٢
٢٧١	نصرت بالرعب مسيرة شهر... »	٣١٤
٢٧٢	نكمل يوم القيامة سبعين، أمة نحن آخرها وأخيرها... »	٣٦٠
٢٧٣	هَاجَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ نَلْتَمِسُ وَجْهَ اللهِ، فَوَقَعَ أَجْرُنَا عَلَى اللهِ... »	٨٥
٢٧٤	هذا سيّد العالمين! هذا رسول ربُّ العالمين! هذا يبعثه الله رحمة للعالمين... »	٣٤٢
٢٧٥	هذه سوقكم فلا يضيق ولا يؤخذ فيه خراج... »	١٧٢
٢٧٦	وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ... »	٣٣٧

م	طرف الحديث	الصفحة
٢٩٨	ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه ... »	و
٢٩٩	يا أبا جندل، اصبر واحتسب فإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المسلمين... »	٣٠٨
٣٠٠	يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموه فاصبروا... »	٢٥٤
٣٠١	يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا... »	٣٤٨
٣٠٢	يا أيها الناس، أوصيكم بما أوصاني الله في كتابه من العمل بطاعته... »	١٣٦
٣٠٣	يا أيها الناس، من سرّه أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله فيها... »	٣٤٧
٣٠٤	يا رسول الله! أنا من الرهط الذين أتوك آنفاً، فقضيت حاجتهم ... »	١٤٩
٣٠٥	يا رسول الله، إن لي رغبة في الضيافة، فهل لي في ذلك أجر؟ قال نعم... »	١٥٢
٣٠٦	يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم... »	٢٨١
٣٠٧	يجيء النبي ومعه الرجلان، ويجيء النبي ومعه الثلاثة وأكثر من ذلك ... »	٣٦٢
٣٠٨	يد الله مع الجماعة... »	٩٢
٣٠٩	يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا... »	١٥٣

فهرس الآثار

فهرس الأعلام

م	العلم	الصفحة
٢٧	فروة بن عمرو	١٤٨
٢٨	كعب بن الأشرف	١٤٢
٢٩	كعب بن مالك بن أبي كعب بن القين بن كعب	١٩١
٣٠	مالك بن التيهان بن بلي بن عمرو الأنصاري	١٩٦
٣١	نسيبة بنت الحارث	١١٨
٣٢	هوذة بن علي الحنفي	٢٩٧
٣٣	يوحنا بن رؤبة	٢٧٨

فهرس الموضوعات